

• الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية •

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر _ باتنة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
والعلوم الإسلامية _ قسم العلوم الإسلامية
نيابة العمادة المكلفة لما بعد التدرج
والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

الموضوع

جهود محمد عبد الله دراز في التفسير الموضوعي

دراسة وتحليل

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في العلوم الإسلامية _ تخصص الكتاب والسنة _

إشراف الأستاذ الدكتور

إعداد الطالب

منصور كافي

محي الدين بن عمار

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د. مصطفى حميدات	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	رئيسا
أ.د. منصور كافي	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	مقررا ومشرفا
أ.د. نذير حمادو	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر _ قسنطينة	عضوا مناقشا
د. نادية وزناجي	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	عضوا مناقشا
د. صونيا وافق	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر _ قسنطينة	عضوا مناقشا
د. عبد الحليم قابة	أستاذ محاضر	جامعة الجزائر	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1432/1433 هـ _ 2011/2012

• الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية •

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر _ باتنة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
والعلوم الإسلامية _ قسم العلوم الإسلامية _
نيابة العمادة المكلفة لما بعد التدرج
والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

الموضوع

جمود محمد عبد الله دراز في التفسير الموضوعي

دراسة وتحليل

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في العلوم الإسلامية _ تخصص الكتاب والسنة _

إشراف الأستاذ الدكتور

إعداد الطالب

منصور كافي

محي الدين بن عمار

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د. مصطفى حميدات	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	رئيسا
أ.د. منصور كافي	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	مقررا ومشرفا
أ.د. نذير حمادو	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر _ قسنطينة	عضوا مناقشا
د. نادية وزناجي	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	عضوا مناقشا
د. صونيا وافق	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر _ قسنطينة	عضوا مناقشا
د. عبد الحليم قابة	أستاذ محاضر	جامعة الجزائر	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1432/1433 هـ _ 2011/2012

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

إهداء

إلى من قدما لي في الصغر أعظم الهدايا...هدية الإيمان...

إلى روح الوالدين الكريمين

إلى من خلقا فيّ روح البحث، وبعثا فيّ أمل الإبداع...

إلى زوجتي الحبيبة لويزة وابني الغالي محمد تَمّام

إلى جميع إخواني وأخواتي وزوج أختي النوار، وخالي كمال، وأصدقائي الذين

أشعروني بلذة الجد والمثابرة

إلى كل من استلهم القرآن الكريم نورا ومنهاجا ودستورا للحياة ودعوة إلى

معالي الفضائل ومكارم الأخلاق

إليهم جميعا أهدي هذا العمل العلمي الجديد...

محي الدين

شكر وتقدير

بعد حمد الله تعالى وشكره على نعمه وآلائه الجديدة و المتجددة، أتوجه بخالص شكري وامتناني إلى أستاذي الغالي عليّ الأستاذ الدكتور منصور كافي على رعايته وتوجيهاته العلمية و المنهجية في متابعة بحوثي العلمية والشكر موصول أيضا إلى الأساتذة الدكاترة الأفاضل:

عبد الحي الفرماوي، مصطفى حميداتو، عبد الحلیم قابة، عبد القادر طالبي، وصونيا وافق على روح النقد، والملاحظات العلمية البناءة.

وإن كنت أنسى فلا أنس قسم الكتاب والسنة في كلية العلوم الإسلامية بجامعة باتنة، فإلى عميد الكلية ورئيس قسم الكتاب والسنة وجميع الأساتذة والعمال مني جزيل الشكر والعرفان.

محي الدين.

مقدمة

الحمد لله منزل خير كتاب، والصلاة والسلام على من كان خلقه القرآن، وعلى آله وصحبه والتابعين أهل القرآن والإيمان، وعلى من سلك طريق القرآن إلى يوم الحساب، أما بعد:

فمما هو متفق عليه بين المفكرين والدارسين المعاصرين، أن التفسير الموضوعي يعتبر من أهم ألوان التفسير في عصرنا الحاضر؛ إذ هو يعبر عن إعجاز القرآن الكريم في وفائه لحاجيات البشر الجديدة والمتجددة، وصلاحيته لكل زمان ومكان؛ ذلك أنه يستشف الهدايات القرآنية بما يستنطقه من دلالات النص المطلقة، وتحقيقا لغاية الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وهي عبادة الله رب العالمين، وتعمير الأرض وفق منهج الاستخلاف، وذلك كله انطلاقا من النظرة الكلية الشاملة لحقائق القرآن.

ولقد كان محمد عبد الله دراز من بين أهم علمائنا المعاصرين، المهتمين بهذا اللون من التفسير، وذلك في مجموعة من مؤلفاته العلمية، وكانت له في ذلك جهود معتبرة أشار إليها بعض الدارسين والمتخصصين في هذا المجال، ولذا ارتأيت أن أبسط هذه الدراسة حول جهوده العامة في التفسير الموضوعي وقضاياها الأساسية، في بحث موسوم بـ «جهود محمد عبد الله دراز في التفسير الموضوعي - دراسة وتحليل».

1 أهمية الموضوع: حيث تتمثل فيما يلي:

- أ - ما لهذا المنهج التفسيري من الأهمية البالغة في الوفاء بمحاجات البشر طولا وعرضا وعمقا.
- ب - بيان أهمية هذا المنهج التفسيري في مقارنة المناهج الأخرى التي يبدو أنها قد أوفيت حقها من الدراسة والبحث والتأليف.
- ج - المساهمة في التأصيل لهذا المنهج، وتحلية جوانبه العلمية والمنهجية.
- د - المساهمة في سد فجوة في المكتبة الجامعية عن التفسير الموضوعي وأعلامه المنظرين له؛ إذ لا يزال هذا الموضوع باكورا في ميدانه.

2 إشكالية البحث:

ورد عن الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - (نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص 05) أن دراز كان أول من فسر السورة القرآنية تفسيرا موضوعيا في كتابه "النبأ العظيم".

وهذا افتراض منهجي مهم تنبثق عنه أسئلة متعددة: هل كان - فعلا - دراز أول من فسر السورة تفسيرا موضوعيا، فضلا عن أن يكون أول من نظر لقواعد هذا المنهج التفسيري؟ وهل كان يباشر العلمية التفسيرية وفق نمط التفسير الموضوعي؟ وهل كان له في ذلك تصور واضح لحقائقه ومفاهيمه؟ وواعيا له ومدركا لألوانه ومناهجه؟ كيف نظر دراز للتفسير الموضوعي؟ وهل يعتبره علما أم منهجا أم

طريقة فحسب؟ وما علاقة التفسير الموضوعي بالوحدة عنده؟ ما هي حقيقة الوحدة؟ وما أنواعها ومسمياتها؟ وهل هي متحققة عنده أصالة أم متحققة دفاعا وردا على شبهات المستشرقين؟ وما هي ملاحظها ومعالمها العامة في تفسيره؟

وبتعبير آخر أجمع: ما هي جهود وآراء دراز في التفسير الموضوعي؟ هل هي جهود تأسيسية تأصيلية؟ أم هي جهود تراكمية بنائية؟ وما صدق هذه الآراء والجهود في مؤلفاته العلمية؟ وما أثرها في الدراسات المعاصرة من بعده تنظيرا وتطبيقا؟

3 - أسباب اختيار الموضوع: حيث تنوع إلى قسمين:

3-1- ذاتية: تتمثل في ميولي وتعلقي بشخصية محمد عبد الله دراز -رحمه الله-، وبعقليته المجددة الفذة، خاصة وأنه لم يحض بالاهتمام الكافي -حسب علمي- في الدراسات القرآنية التخصصية؛ بالرغم من أن آراءه القرآنية تانتثر في مؤلفاته العلمية، واشتهرت بين القاصي والداني.

3-2- موضوعية: وتتمثل فيما يلي:

أ - جددة الموضوع وقلة العناية به.

ب - كون الموضوع -بهذا التحديد- لم يتناول في رسائل علمية أكاديمية خاصة عن فكره القرآني في التفسير الموضوعي.

ج - رغبت المتواضعة في خدمة كتاب الله، خاصة من خلال هذا المنهج المعاصر.

د - يعتبر محمد عبد الله دراز من أهم المفسرين الناجحين في جانب الإصلاح والدعوة إلى الله بكشف الهدايات القرآنية، وهذا ما يتوافق مع روح التفسير الموضوعي.

4 - من أهداف البحث: ويمكن حصرها فيما يلي:

أ - التعرف على الظروف التاريخية لنشأة التفسير الموضوعي، وفهم الأطر المعرفية والمنهجية له؛ من حيث استقلالته عن باقي مناهج التفسير الأخرى.

ب - للكشف عن بنية الوحدة الموضوعية، وإسكات المشتشرقين وأذناهم من المستغربين القائلين أن سور القرآن الكريم تشمل عناصر لا رابط بينها ولا انسجام.

ج - استقطاب الباحثين إلى هذا المنهج، لتدبر القرآن الكريم وفق نظرة كلية، للكشف عن هداياته وثمراته الإيمانية.

د - السعي إلى تمتين المرجعية الإسلامية؛ وذلك بربط المسلمين بعلمائهم ومفسريهم، والذين يُنفِئُو بهم ظلال الإيمان وينعم بهداياته.

هـ - التأكيد على وجه من وجوه الإعجاز القرآني، وهو تماسك نظمه، وتناسق آياته وسوره.

و - الاستزادة من العلم والسعي إلى توسيع المعارف، والمساهمة في واقعيتها.

ز - التعريف بتفسير دراز، والكشف عن حقيقة رجل قد طهر اسمه في ترابه فلم يظهر بجلاء من كل جوانبه للدارسين المعاصرين.

5 - منهج البحث وخطته:

أولاً: المنهج: حيث تتضح طرائقه من خلال ما يلي:

أ - الوصف والتحليل: وهذا لب منهج البحث؛ إذ يتعلق بتحليل أقوال ونصوص الشيخ دراز التفسيرية، شرحاً وتفكيكاً.

ب - الاستنباط: وهو مرحلة موائية للوصف والتحليل؛ إذ به تستنتج المفاهيم، والآراء، وتوضح الجهود، والاجتهادات، والقواعد العامة الجامعة للآراء والأقوال التفصيلية.

ج - المقارنة والنقد: حيث توضع جهوده وآراؤه على محك النقد العلمي تقييماً وتقويماً، ومن خلال مقارنتها بآراء الدارسين المعاصرين له، أو العاقبين بعده، وذلك لمعرفة محطات الاتفاق والاختلاف والإبداع.

ثانياً: الخطة: و قد تم تقسيم أفكار هذا الموضوع الأساسية عبر المراحل التالية:

ينقسم البحث إلى ثلاثة فصول أساسية وفصل تمهيدي ومقدمة وخاتمة.

أما مقدمة البحث، ففيها يوضع القارئ في الإطار المعرفي للبحث، من خلال بيان أهميته، وإشكاليته الأساسية، وأسباب اختياره، والأهداف المبتغاة من ذلك، ومنهج البحث وخطته العامة، وبيان الدراسات السابقة نقداً واستفادةً، ثم تعريج بذكر مصادر البحث ومراجعته الأساسية، وبالمعوقات العلمية التي اعترضت طريق الباحث وهو يصوغ موضوع بحثه.

وأما الفصل التمهيدي: فخصص للتعريف بشخصية محمد عبد الله دراز الاجتماعية والعلمية، ثم معرفة أوضاع عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والعلمية التي عاشها، فكان بذلك هذا الفصل مقسماً إلى مبحثين رئيسيين.

وأما الفصل الأول: فألّف قصد الاطلاع الدقيق على حقيقة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في الدراسات المعاصرة، فاستدعى ذلك -أيضا- تقسيمه إلى مبحثين كبيرين: الأول منهما لبحث حقيقة التفسير الموضوعي، وألوانه، ومناهجه، وتطبيقاته، والثاني كان لكشف حقيقة الوحدة الموضوعية، ماهية ونشأة، أنواعا ومسميات، معالم منهجية، وأهدافا مقاصدية.

وقد خصص الفصلان الأخيران للحديث عن منهج دراز التفسيري، وآرائه في التفسير الموضوعي خاصة؛ فكان الفصل الأول منهما، -وهو الفصل الثاني للبحث- منصبا اهتمامه الكشف عن معالم المنهج العامة عند دراز؛ فقسم إلى أربعة مباحث: الأول في التعريف بمؤلفاته التفسيرية، والثاني: في بيان قواعد المنهج التحليلي، والثالث: في بيان قواعد المنهج الموضوعي، والأخير: في كشف مزايا تفسيره الشكلية، والمضمونية، والبيانية.

وكان الفصل الأخير مخصصا لتحليل آراء دراز في التفسير الموضوعي، والوحدة الموضوعية التي هي تمرته وغايته؛ فقسم -هو الآخر- إلى أربعة مباحث أساسية: الأول لقضايا التفسير الموضوعي، والثاني لقضايا الوحدة القرآنية، والثالث لتقييمه وتقويمه، والأخير لبيان آثاره في الدراسات المعاصرة، ثم تأتي خاتمة البحث لتسجل من خلالها أهم نتائج الموضوع وملخصاته.

6 الدراسات السابقة:

ولم أعتز -حسب علمي- على دراسة خاصة لهذا الموضوع بالتحديد، رغم شهرته العلمية، وإنما وجدت دراسات عامة، كرسالة حافظ محمد منير الأزهرى: محمد عبد الله دراز وجهوده في الفقه الإسلامي، وهي دراسة عامة في القرآن، والتفسير، والسنة النبوية، والأخلاق، ومقارنة الأديان تشمل في ذلك جميع مؤلفات دراز، ولكنه لم يتحدث عن التفسير الموضوعي إلا من خلال صفحة واحدة (ص80) خصصها للحديث عن الوحدة الموضوعية، ولكن من غير رجوع إلى كتاب دراز "حصاد قلم"، في عبارة لا تمت بصلة إلى الوحدة الموضوعية.

وأما باقي مباحث التفسير، فهي محاولة من الباحث إسقاط مباحث كتاب "منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير" لفهد الرومي على مؤلفات دراز القرآنية (من ص75 إلى ص108).

كما أن هناك رسائل ثلاثة أخرى: الأولى بعنوان: محمد عبد الله دراز ومنهجيته في البحث الخلقى: لمحمد البيومي عبد الواحد، و الثانية بعنوان: محمد عبد الله دراز وجهوده البلاغية لمحمد أمين أبو شهبه، و الثالثة بعنوان: موازنة بين الباقلاني وعبد الله دراز في إعجاز القرآن لغربي صالح، ولكني لم أطلع

إلا على الرسالة الثالثة الصادرة من جامعة قسنطينة، واستفدت منها من صفحتين درس فيها الباحث معاني الارتباط للسورة عن دراز(من ص 151 إلى ص 154).

أما الرسالتان الأوليتان فمتواجدتان في جامعة الأزهر بمصر، ولم تتح لي الفرص لأسافر إلى هناك، وأطلع عليهما.

7 - مصادر البحث ومراجعته:

فهي متنوعة وكثيرة، فمنها مؤلفات دراز القرآنية، والدراسات المعاصرة في التفسير الموضوعي، والمؤلفات القديمة في علوم القرآن والتفسير، ومختلف التفاسير، وكتب الأخلاق والتراجم والمعاجم، والمجلات وشبكة الانترنت.

8 - الطريقة المعتمدة في كتابة الرسالة:

فقد حريصا في كتابة فصول الرسالة على التزام النقاط التالية:

أ- ترقيم جميع الآيات الواردة في الرسالة، وذلك بذكر اسم السورة ورقم الآية بين معكوفتين في متن الصفحة، وليس في هامشها فرارا من التضخم، وتسهيلا الرجوع إليها.

ب- تخريج الأحاديث الواردة فيها، وذلك بعزوها إلى مصادرها الأصلية قدر الإمكان.

ج- حاولت الالتزام بالتوازن التام في تقسيم فصول الرسالة؛ إلا أن المادة العلمية وطبيعة الدراسة فرضا التقسيم المعتمد في الرسالة، مما نتج عنه انعدام التطابق التام بين فصولها.

د- أنني لا أترجم لكل الأعلام الواردة أسماؤهم في ثنايا الرسالة، وإنما أخص بالترجمة لأهم الأعلام المطمورين، والذين عاينوا الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في عصر محمد عبد الله دراز دون البقية؛ لأن تتبعهم جميعا بالترجمة يضخم من حجم الرسالة على ما هي الآن، ويصير الرسالة إلى كتاب تراجم لهؤلاء الأعلام الكثيرة أعدادهم في ثنايا هذه الرسالة.

هـ- أتي اتبعت فهرس عامة للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار، والأعلام، والمصادر والمراجع، ثم للموضوعات العامة للرسالة.

واتبعت في فهرس المصادر والمراجع ما التزمته من التهميش لها في متن الرسالة؛ من حيث ذكر عناوين المؤلفات أولا، ثم أتبعها بذكر أسماء أصحابها ثانيا، ثم بباقي المعلومات من ذكر دار النشر ومكانه، وعدد الطباعات، وسنة النشر، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإني أسبق ذكر أسماء المؤلفين على ألقابهم أو كناههم في فهرسي الأعلام، والمصادر والمراجع، وذلك تناسبا مع الترتيب الداخلي لهم في ثنايا الرسالة.

و— وأخيرا فإن هناك اختصرات— يجب أن تعلم— لعناوين مؤلفات دراز القرآنية في كلماتها الأولى لها؛ فكتابه "دستور الأخلاق في القرآن" اختصر إلى "الدستور"، و"النبأ العظيم" إلى "النبأ"، و"حصاد قلم" إلى "الحصاد"، و"دراسات إسلامية واجتماعية في العلاقات الدولية" إلى "الدراسات"، و"زاد المسلم للدين والحياة" إلى "الزاد" وهكذا.

9 صعوبات البحث:

ولم تصادفني عراقيل وصعوبات كثيرة، إلا ما كان منها متعلقا بطبيعة البحث وموضوعه، خاصة بعض الآراء الساخنة في نفي الوحدة الموضوعية عند دراز، كرأي محمد رجب البيومي، وسامر عبد الرحمان رشواني وغيرها.

ومع ذلك فإن التعمق في البحث، وسبر أغواره أنار الطريق، وكشف سبيل الدراسة، وجمع أشقات آراء دراز التفسيرية الموزعة في مؤلفاته القرآنية على ضخامتها وكثرتها وعمقها.

و لا يسعني في الأخير قبل أن أضع قلمي، إلا أن أتوجه بخالص شكري، وعظيم امتناني إلى أستاذي المشرف الدكتور منصور كافي؛ الذي لم يتوان لحظة واحدة— خلال هذه المسيرة العلمية الطويلة التي عشتها معه— إسداء النصائح العلمية، وإرسال العواطف الأبوية، وتقييم الأخطاء العلمية والمنهجية.

فالله أسأل أن يجزيه في ذلك خير ما جازى أستاذا عن طلبته، كما لا أنسى أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى جميع الأساتذة الذين ساعدوني من قريب أو من بعيد، حتى يرى هذا البحث النور، ويخرج هذا العمل إلى الوجود.

وإني لأتضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن يغفر لي زلات هذا الجهد، وهنات هذه الدراسة، كما أشكره—قبل شكر كل مخلوق— أن متعني بصحتي، وألهمني فكري، وسدد خطاي، ووفقني لإنجاز هذه الدراسة العلمية، فاللسان يعجز عن إدراك حقائق هذه النعم المتجددة، والإقرار بالعجز اعتراف بالنعم وشكر للمنعم كما قيل. والحمد لله رب العالمين.

فصل تمهيدى

محمد عبد الله دراز

عصره، سيرته، ومكانته العلمية

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: عصره (الأوضاع الساسية والاقتصادية

والاجتماعية ، والحالات الفكرية والثقافية)

المبحث الثاني: سيرته ومكانته العلمية

المبحث الأول:

الأوضاع السياسية والاجتماعية والأحوال الفكرية والثقافية.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أوضاع مصر السياسية والاجتماعية،

وأحوالها الفكرية والثقافية.

المطلب الثاني: أوضاع فرنسا السياسية والاقتصادية والاجتماعية

والثقافية أثناء الحرب العالمية الثاني

من المتفق عليه أن نتاج كل مؤلف هو ثمرة قضايا عصره التي عاشها وعانها، وانعكاس طبيعي لتأثيره بها أو تأثيره فيها، ولهذا كان منهجيا البدء بدراسة قضايا وأوضاع العصر الذي عاش فيه مؤلفنا محمد عبد الله دراز.

تتوقف دراسة عصر المؤلف الذي عاش فيه على تحديد البيئة الزمنية و المكانية التي وجد فيها، والأحداث التاريخية التي حدثت فيها ومدى تأثيره بها أو تأثيره فيها.

ومحمد عبد الله دراز لم يحيا في بيئة زمنية ومكانية واحدة؛ بل قضى معظمها في وطنه الأم مصر الكنانة، واستوطن فرنسا مدة اثني عشر عاما، ولذا سنركز هنا على دراسة الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية لمصر في البيئة الزمنية والمكانية التي عاشها أولا من سنة 1894 إلى غاية سنة 1936، ثم ثانيا من سنة 1936 إلى غاية وفاته سنة 1958.

ثم سندرس بدرجة أقل هذه الأوضاع في فرنسا من سنة 1936 وإلى غاية سنة 1948، لنبين نوع الموضوعات ودرجتها التي شغلت تفكيره وتأليفه هناك.

المطلب الأول: أوضاع مصر السياسية والاجتماعية وأحوالها الفكرية والثقافية.

اتسم العصر الذي عاش فيه دراز بالصراعات والحروب والأزمات، سواء بين الدول العظمى في سبيل فرض سياسة عالمية ذات تيار فكري وأيديولوجي أحادي القطبية، أو كان ذلك الصراع بين هذه الدول العظمى والشعوب المستضعفة تحت نيران الاحتلال، وذل التبعية على كل المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية والحضارية.

الفرع الأول: الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

تعاقبت على مصر أحداث تاريخية محلية وأخرى عالمية نقلتها من طور إلى آخر أكثر تأزما، وأشد ضعفا وتبعية عما كانت عليه من قبل، وأهم هذه الأحداث التاريخية:

أ. ما قبل الحرب العالمية الأولى:

وقعت مصر كغيرها من البلدان العربية تحت نيران الاحتلال البريطاني الذي فرض سيطرته على البلاد بمجموعة إجراءات تعسفية؛ إذ قام بخلع إسماعيل باشا وتنصيب ابنه توفيق بدلا عنه،⁽¹⁾ ثم قام

¹ - محمد علي وأولاده: جمال بدوي، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، ص 260 وما بعدها.

بعد ذلك بإلغاء الجيش المصري والصناعات الحربية والإصلاحات العسكرية، ولم تسلم البحرية المصرية - أيضاً - من هذا الإلغاء، ولم يكتف بذلك؛ بل سيطر على البوليس المصري، وعيّن دبلوماسيين انجليز داخل الحكومة المصرية،⁽¹⁾ قصد ضبط السياسة الداخلية والخارجية لمصر وفق مصالح إنجلترا.

وقد دعاه ذلك إلى إلغاء مجلس النواب المصري وحله، وإحلال الجمعيات العمومية، ومجالس المديرية العامة، ومجلس شورى القوانين، كل ذلك في سنة 1883، وهي نفس السنة التي أنشأ فيها المحاكم الأهلية وفرض فيها لوائح قانونية، ومجالس نيابية وقضائية تعسفية،⁽²⁾ خنقت الشعب المصري وأردت به إلى أوضاع اجتماعية واقتصادية خطيرة جداً، فظهرت الأمراض الفتاكة كمرض الكوليرا، وتدهور المستوى المعيشي، وضعف الدخل الفردي إلى مستويات دنيا،⁽³⁾ فتفاقت الأحداث بذلك ودفعت الشعب المصري بقياداته الوطنية إلى الانتفاض والثورة، لكنها لم تحقق المبتغى من ذلك، كما عرفنا ذلك من الثورة العربية الشهيرة سنة 1881م.

وقد أشرك الانجليز معهم بعض دول أوروبا في اقتسام أملاك مصر وخيراتهما الوطنية الوفيرة، وذلك في عقد معاهدات بين إنجلترا وبين هذه الدول الأوروبية، وذلك من أجل كسب تأييدها ودعمها للوجود الانجليزي في مصر.

كان من بين تلك المعاهدات معاهدة أول يوليو 1890 بين إنجلترا وألمانيا «تضمنت إقراراً ألمانيا للمركز الذي دعتة إنجلترا في أعالي النيل».⁽⁴⁾

بل إن إنجلترا حاولت كثيراً السيطرة المباشرة على قناة السويس، رغم أن اللجنة الدولية قد نصت أنها تنظيم حياد وذلك في معاهدة الأستانة 29 أكتوبر 1888، مع تحفظ إنجلترا في ذلك.⁽⁵⁾

ومن مظاهر اضطراب الأوضاع السياسية في مصر تعاقب الوزارات على حكومتها في ظرف قصير لم يتعد ثلاث سنوات؛ إذ تعاقبت على الحكومة المصرية وزارة نوبار، ثم وزارة رياض باشا، ثم وزارة

¹ - مصر قبل عبد الناصر: عبد العظيم رمضان، الهيمنة المصرية العامة للكتاب، 1995م، ص 100 وما بعدها.

² - مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال: عبد الرحمان الراجعي، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1404 هـ، 1983م، ص 47 وما بعدها، 61 وما بعدها.

³ - المرجع نفسه، ص 39.

⁴ - المرجع نفسه، ص 160.

⁵ - مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر: رمون فلاور، ترجمة: سيد أحمد الناصري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002، ص 138.

مصطفى فهمي باشا، بين سنة 1888 وسنة 1891، واستمرت هذه الاضطرابات بوفاة الخديو توفيق باشا في 07 يناير 1892، وتولى الخديوية من بعده عباس الثاني.⁽¹⁾

وهكذا «لم تنته السيادة العثمانية على مصر بوقوع الاحتلال البريطاني، بل ظلت مصر تخضع لها من الناحية النظرية، بينما كانت تخضع من الناحية الفعلية لقوات الاحتلال، واستمر ذلك حتى انتهزت بريطانيا فرصة الحرب العالمية الأولى، فأسقطت السيادة العثمانية وأعلنت الحماية البريطانية على مصر في 18 ديسمبر 1914».⁽²⁾

وقد فرضت إنجلترا إجراءات اقتصادية ومالية صارمة أثرت سلبا على الاقتصاد المصري الوطني، وعلى الحالة المعيشية للشعب المصري؛ فبالرغم من أن الحكومة المصرية تحت وزارة "شريف باشا" ألغت نظام الرقابة المالية الثنائية الذي فرضته الدول الأوربية على "الخديو إسماعيل" في 18 نوفمبر 1876، وذلك لمراقبة إيرادات الحكومة ومصروفاتها.⁽³⁾

فمع كل ذلك إلا أن شريف باشا قد أخطأ بعد ذلك في قبول تعيين مستشار مالي إنجليزي للحكومة المصرية بعد الثورة العربية، الذي وإن لم يكن له في مرسوم تعيينه سلطة الرقيب، لكنه صارت له هذه السلطة تدريجياً،⁽⁴⁾ ثم إن الاحتلال الإنجليزي قد اتخذ سياسة اقتصادية عجيبة؛ إذ ركز على تخصيص مصر للزراعة، بل وتركيز ثروتها الزراعية في القطن، وإهمال الزراعات الأخرى، ثم تشجيع الأجانب على استثمار رؤوس أموالهم في المشروعات الزراعية والصناعية والتجارية⁽⁵⁾.

وقد نجم عن هذه السياسة القضاء على الحياة الصناعية في البلاد، وجعلها عالية على إنجلترا وعلى الدول الأوربية في حياتها الاقتصادية.

ومن ثم وقفت النهضة الصناعية سنسن عديدة، وألغيت البعثات الصناعية إلى الخارج، وأقفلت المصانع، وبارت الصناعات الحربية في البلاد؛ فقد ألغى مصنع الورق ببولاق سنة 1885، وألغيت دار صك النقود، وبيعت مغازل القطن ومصانع النسيج، والتي كانت باقية على عهد محمد علي.⁽⁶⁾

¹ - مصر والسودان في أوائل الاحتلال: عبد الرحمان الرافي، ص 171 وما بعدها.

² - تاريخ مصر المعاصر: شوقي الجمل وآخر، دار الثقافة، القاهرة، ص 09.

³ - مصر والسودان في أوائل الاحتلال: عبد الرحمان الرافي، ص 41.

⁴ - المرجع نفسه، ص 43.

⁵ - مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر: ريمون فلاور، ص 205.

⁶ - مصر والسودان في أوائل الاحتلال: عبد الرحمان الرافي، ص 189.

وقد اعترف اللورد كرومر في تقريره سنة 1905 بتدهور الصناعة الوطنية فقال: «إن المنسوجات الأوربية حلت محل المنسوجات الوطنية، وبانقراض المنسوجات الوطنية أخذت المنسوجات المحلية تنقرض أيضاً»⁽¹⁾.

وقد فرضت الحكومة المصرية بموجب الأمر العالي الصادر بتاريخ 13 أبريل سنة 1901 ضريبة على جميع المصنوعات القطنية قدرها 8% تعادل مبلغ الرسوم الجمركية التي تحصل عن الغزل والمنسوجات القطنية الواردة من الخارج، فبارت صناعة غزل القطن في مصر إلى وقت طويل، وزادت تبعيتها الاقتصادية لإنجلترا والخارج، وهذا ما أكده ليوبولد جوليان في تقريره ضمن لجنة القطن سنة 1910؛ إذ قال: «إن كل أمة يكثر فيها وجود المواد الأولى الضرورية للحياة يكثر فيها كذلك وجود المعامل لصنع تلك المواد، ومن أهمها القطن؛ فإن كل الأمم التي تزرعه تنشئ بجواره معامل لغزله ونسجه والانتفاع به، عدا مصر فإنها لا تزال فقيرة في معاملها، خاوية على الأخص من هذا الصنف»⁽²⁾.

وأما من الناحية المالية فقد أجرى الاحتلال الإنجليزي إصلاحات مالية كثيرة للحكومة المصرية قصد أن يطمئن أصحاب القروض — وأغلبهم أجنبي — على أداء أقساط ديونهم السنوية، وخوفاً من احتجاج دول هؤلاء الرعايا الأجانب على إنجلترا، فكانت بذلك مؤامرة استعمارية بين إنجلترا وهذه الدول على استغلال مصر سياسياً واقتصادياً.

أما مالية الشعب فقد ساءت في عهد الاحتلال؛ إذ كان دائم الحرمان من الامتيازات والقروض التي كانت تصرف إلى الرعايا الأجانب، فأسست بذلك البنوك الأجنبية، وشركات الرهون العقارية، والشركات المالية والزراعية، وشركات النقل والبناء، وشركات الفنادق وغيرها، وصارت الحياة المالية والاقتصادية في أيديهم،⁽³⁾ وكانت أعباء تلك الشركات تلقى على عاتق مصر في شكل ديون متراكمة أفرغت خزينتها من الأموال؛ وشاهد ذلك ما قرره "الكونت كريساتي" سنة 1912 بقوله: «تبلغ قيمة أسهم الشركات المساهمة المملوكة للأوربيين 21,675,000 جنيه، وقيمة سنداتهما 41,062,400 جنيه، ومجموع ذلك 62,737,400 جنيه تغل ربعاً سنوياً، مقداره 3,348,400 جنيه،

¹ - المرجع نفسه، ص 189.

² - المرجع نفسه، ص 190.

³ - مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر: ريمون فلاور، ص 204.

وبإضافة هذا المبلغ إلى دين الحكومة العام، ومقداره 95,140,740 جنيهه يكون المجموع: 157,978,140 جنيهه، وهو مجموع دين مصر، ومعظمه للأوربيين»⁽¹⁾.

ولقد كان الاتفاق الانجليزي الفرنسي سنة 1914 فاتحة عهد لشيوع الشركات الأجنبية في مصر؛ إذ بلغ عددها بعد هذه السنة مائة شركة.⁽²⁾

إن هذه الديون الخيالية _فاقت 240 مليون جنيه تقريبا_ قد أسرت اقتصاد مصر، وغلت حركته ونشاطه، واجتمع لها إلى جانب الاستعباد السياسي، الاستعباد الاقتصادي والمالي الذي هو أشد وطأة وخطرا من الأول.

و أما من الناحية الاجتماعية فلا يشك أي أحد في تدهور الحالة الاجتماعية للمجتمع المصري آنذاك تدهورا بالغا، وانعكاس ذلك على سوء حالة طبقات الشعب.

فالطبقة الخاصة من الأغنياء والكبراء والمتقنين قد اتجهت في مجموعها وجهة الولاء للاحتلال والحياة النفعية؛ فطغى عليها الانحلال في الوطنية والأخلاق، وتقطعت الروابط بينها وبين سائر الطبقات، خاصة الدنيا منها والفقيرة؛ التي كان يمثلها أغلبية الشعب من الفلاحين العمال؛ إذ انتشر فيهم الفقر والجهل، وكثرت الأمراض والأوبئة، وكثر عدد العاطلين منهم.⁽³⁾

وقد أدى هذا إلى انتشار الآفات الاجتماعية الخطيرة؛ كذبوع الربا في المعاملات المالية والتجارية، وانتشار الخمر بين سكان المدن والأرياف، وصارت محلات المسكرات تفتح علنا في القرى وفي الأحياء الأهلة بالعمال، ففسدت بذلك أخلاقهم ونقصت مقدرتهم على العمل والإنتاج، وساعدت على ازدياد حوادث الإجرام والإخلال بالأمن العام.⁽⁴⁾

ب. **مصر أثناء الحرب العالمية الأولى:** بعد أن أعلنت إنجلترا الحرب على ألمانيا في 04

أغسطس 1914، وانضمت تركيا إلى دول المحور، سحبت إنجلترا السيادة العثمانية على مصر، وأعلنت حمايتها عليها، واتخذت في ذلك مجموعة من الإجراءات، كان أهمها:

1 - إعلان الأحكام العرفية في 02 نوفمبر 1914.

¹ - مصر والسودان في أوائل الاحتلال: عبد الرحمن الراجحي، ص 192.

² - المرجع نفسه.

³ - المرجع نفسه، ص 194-195.

⁴ - المرجع نفسه، ص 195.

- 2 - خلع الخديوي عباس وتولية عنه حسين كامل مكانه في 20 ديسمبر 1914، وأصبح المندوب السامي البريطاني صاحب الرأي الأول في تصريف شؤون البلاد.
- 3 - أرسلت خطابا للسلطان حسين كامل ذكرت فيه أن الامتيازات الأجنبية سيعاد النظر فيها بعد انتهاء الحرب.
- 4 - إلزام القوات المصرية الدفاع عن قناة السويس، والدخول في الحرب، ورد الهجومات التركية الألمانية المندفعة من الشرق والغرب. (1)

وفي 19 أكتوبر 1917 توفي السلطان حسين كامل، وتولى السلطة من بعده أحمد فؤاد، فوجد أن ديون مصر قد أثقلت كثيرا، إذ قدر ذلك بمبلغ ثلاثة ملايين وخمسمائة جنيه مصري، فاقترحت إنجلترا على الحكومة المصرية أن تتحمل خزانتها اعترافا بجهود إنجلترا في حماية البلاد من الأخطار الخارجية. (2)

وبانتهاء الحرب العالمية الأولى تطلع المصريون إلى الاستقلال، خاصة أن الحلفاء - أثناء الحرب - أعلنوا حق الشعوب في تقرير مصيرها، وقد أعلن ذلك الرئيس الأمريكي ويلسون في خطابه يوم 05 جانفي 1918. (3)

فحمل سعد زغلول (4) - باعتباره ممثلا للحركة الوطنية - مشروعاً إلى المستشار الإنجليزي ريجنالد وينجيت طرح فيه قضية استقلال مصر، ولم يجد ذلك نفعا في خروج إنجلترا من البلاد. (5)

لكن الوفد المصري قرر السفر مرة ثانية إلى باريس للدفاع عن قضية البلاد أمام مؤتمر الصلح، فعدت إنجلترا هذا تمردا منهم، وألقت القبض على سعد زغلول، وإسماعيل صدقي (6) وزملائهما، وتم نفيهم إلى مالطة، وكان سعد زغلول من قبل قد أرسل إلى الرئيس الأمريكي ولسون يطلب منه إزالة

1- تاريخ مصر المعاصر، شوقي الجمل وآخر، ص 11.

2- مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر، رمون فلاور، ص 227.

3- المرجع نفسه، ص 228.

4- زعيم مصري شهير، سياسي وحقوقى، ولد سنة 1860 في إييانة، وتوفي سنة 1927 م، لازم جمال الدين الأفغاني، واشترك مع محمد عبده في الثورة العراقية، تولى مناصب عدة، أهمها: رئاسة الوزارة. ينظر: معجم المؤلفين: محمد رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، 755/1.

5- تاريخ مصر المعاصر، شوقي الجمل وآخر، ص 12.

6- سياسي مصري، ولد بالإسكندرية عام 1875 م، وتوفي سنة 1950 م، كان عضوا في حزب الوفد، تولى مناصب سياسية عدة أهمها: رئاسة الوزارة سنة 1930-1933، وفيها غير الدستور المصري، ثم تولاها مرة ثانية سنة 1946-1947، كان ممقوتا لدى الشعب المصري، الإعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط16، 2005، 315/1.

العقبات التي تعوق سفره لحضور مؤتمر الصلح وعرض قضية مصر، ولكنه لم يتلق جواباً، فكان ذلك سبباً في اندلاع ثورة 1919.⁽¹⁾

وقد كان من أسباب هذه الثورة الحالة الاقتصادية والاجتماعية المزرية التي آل إليها الشعب المصري، فقد لجأت إنجلترا - أثناء الحرب - للاستيلاء على جزء كبير من المحاصيل الزراعية المصرية لسد حاجات جيوشها، كما سيطرت على المؤن والمعدات، فأدى ذلك إلى تذبذب الحياة العامة للشعب المصري.

وقد بدأت هذه الثورة بتظاهرات طلابية متنوعة، وبإضرابات واسعة للمحامين والعمال وفئات أخرى، استمرت لمدة ثلاثة وعشرين يوماً، ثم تصاعدت الثورة، فانتشرت أعمال التخريب، والاعتقالات السياسية، وتتابعت بعدها استقالة الوزارات الحكومية الواحدة تلو الأخرى؛ إذ تعاقبت على ذلك أربعة وزارات في أقل من سنة واحدة.⁽²⁾

تأثرت إنجلترا بذلك، فاستبدلت مندوبها ريجنالد وينجيت بالجنرال اللنبي، الذي استطاع - بإتباعه لأسلوب اللين والتعاطف - إطلاق أسرى الوفد وإطلاق حرية السفر - أن يهدئ الوضع المتأزم في أوساط الشعب المصري، ولكنها - من جهة أخرى - تمكنت من كسب التأييد الأمريكي بوجودها في مصر، ونزع الامتيازات من ألمانيا في قناة السويس، ونقل السلطة إليها.⁽³⁾

وبعد سلسلة من المفاوضات بين أعضاء الوفد المصري والوفد الإنجليزي - وفد ملنر - باءت كلها بالفشل، أصر سعد - بعد بقاءه في باريس لوحده - على التمسك بالاستقلال التام، فأخرج ذلك إنجلترا، ووافقت - بعد اقتراح من ملنر - على رفع الحماية، وإبقاء قوة عسكرية في مصر لحماية مواصلاتها، مع حقها أيضاً في رقابة التشريع وإدارة الأجانب، وهذا ما يعرف بالاستقلال المقيد.⁽⁴⁾

ج. - مصر بعد ثورة 1919 إلى الحرب العالمية الثانية:

¹ - التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 2000 م، 19/13-20.

² - المرجع نفسه، 21/13.

³ - تاريخ مصر المعاصر، شوقي الجمل وآخر، ص 19.

⁴ - مرجع سابق، ص 20.

قد كانت القضية المصرية - من خلال هذه الثورة - آنذاك تعتبر قضية دولية قبل أن تنتهي فصتها هذه بشكل نهائي، في مؤتمر لوزان، وتصبح قضية ثنائية بين مصر وإنجلترا.⁽¹⁾

ولكن المفاوضات فشلت بينهما مرارا، فاضطرت إنجلترا - تحت ضغط التأثير - إلى إعلان إنهاء الحماية البريطانية على مصر في 28 فبراير 1922، وأصبحت مصر دولة مستقلة ذات سيادة تبعية؛ إذ مازالت إنجلترا تراقب شؤونها الداخلية والخارجية، الأمر الذي أكدته مشروع اللورد اللوبي يوم 12 ديسمبر 1922 على إعادة منصب وزير الخارجية والعمل لتحقيق التمثيل السياسي والقنصلي لمصر.⁽²⁾

ثم ما لبث أن دب النزاع بين القصر والحكومة المصرية على هذا المظهر الشكلي من مظاهر الاستقلال؛ فقد تحكّم الملك فؤاد في الوزراء المفوضين والقناصل المصريين وفي مناصب السلك السياسي، فلما تولت الحكم وزارة سعد زغلول وقع التصادم في هذه المسألة بين الوزارة والعرش، واشتد الصراع فأراد القصر عزل سعد زغلول، فواجه الوفد ذلك بتدبير مظاهرات 16 نوفمبر 1924 المشهورة، فوجد القصر نفسه مدعنا لقبول شروط سعد.⁽³⁾

لكن ما لبث أن سقطت وزارة سعد بسبب حادث مقتل السردار، وعاد الحكم المطلق من جديد إلى القصر، ومن ذلك الحين اتجهت السياسة الخارجية إلى حل القضية الوطنية مع إنجلترا، ولكنها تغيرت بعد احتلال إيطاليا الحبشة في 14 أكتوبر 1935، فقد اتخذت الحكومة المصرية قرارا بقبول فرض العقوبات على إيطاليا مع أنها لم تكن عضوا في عصبة الأمم، فدفعت القوى الديمقراطية في مصر إلى التحالف مع الاحتلال الإنجليزي لمواجهة الخطر الفاشي، فأبرمت معاهدة 1936 التي أعطت لاستقلال مصر الخارجي مستوى جديدا يختلف عن المستوى الذي تحقق بتصريح 28 فبراير 1922.⁽⁴⁾

وأما اقتصاديا فقد أنشأ المصريون بنك مصر في 3 أبريل 1920، وأخذوا في تطوير اقتصادهم تدريجيا حتى تحقق لهم جانب كبير من تحريره؛ من تسلط رأس المال الأجنبي، ولعل من أهم ثمار العمل النضالي لثورة 1919 ظهور طبقة العمال، والدعوة إلى الفكر الاقتصادي السليم، والمناداة بتحطيم

¹ - مصر قبل عبد الناصر، عبد العظيم رمضان، ص 160.

² - التاريخ الإسلامي: محمود شاكر، 32/13.

³ - تاريخ مصر المعاصر، شوقي الجمل وآخر، ص 36.

⁴ - مصر قبل عبد الناصر: عبد العظيم رمضان، ص 301.

الرأسمالية، وفي الثلاثينيات تم رفع الضرائب الجمركية على المصنوعات المستوردة ضمانا لتوزيع المصنوعات المصرية. (1)

وأما اجتماعيا، فقد عمق هذا التنافس الاقتصادي نظام الطبقات في مصر، وكان لذلك أثر واضح في توجيه العلاقات الاجتماعية، وفي تجزئة المجتمع المصري إلى ثنائيات، جعلت للناس عقليات مختلفة؛ مما أدى إلى نوع من تفكك عقلية الأمة الواحدة؛ خاصة وأن الإنجليز مارس سياسته التفرقية؛ فبينما أذاعوا أنهم أصدقاء أصحاب الجلايب الزرقاء في الريف، كانوا يشجعون كبار الملاك الزراعيين على التوسع في ملكياتهم، وخاصة الأجانب منهم. (2)

د. - مصر من 1936 إلى 1957:

شهدت مصر في هذه الفترة عدة أحداث سياسية أهمها:

1 - فساد أداة الحكم: فقد تعددت الوزارات التي حكمت مصر، وعجزت عن تقديم مشروع إصلاح هام؛ إذ أقيمت وزارة الوفد في 30 ديسمبر 1937 وتلتها وزارة محمد محمود باشا، (3) ثم وزارة علي ماهر باشا، (4) ثم توالى الوزارات، وهكذا إلى أن رأت إنجلترا أن ظروف الحرب العالمية الثانية تتطلب وجود وزارة تستند إلى أغلبية شعبية فطلبت من الملك "فاروق" في فبراير 1942 تكليف الوفد بتشكيل الوزارة. (5)

2 - تدخل إنجلترا في شؤون مصر (حادث 4 فبراير 1942): لم يستجب الملك "فاروق" فوراً بتشكيل الوزارة، فقدمت له إنذاراً إن لم يدع "النحاس باشا" (6) لتأليف الوزارة، وتطور الوضع،

¹ - تاريخ الأقطار العربية المعاصرة: فوبليكوف، 19-20.

² - المرجع نفسه، ص 40 وما بعدها.

³ - سياسي مصري ولد سنة: 1877 م، في أسيوط، تعلم بالقاهرة ثم بجامعة أكسفورد، تولى مناصب كثيرة أهمها: وزارة المواصلات ورئاسة مجلس الوزراء سنة 1928 م، عرف بمفاوضاته الإنجليزية كثيرا، توفي سنة 1941 م، ينظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، 90/7.

⁴ - سياسي مصري، عالم بالقانون الدولي، ولد سنة 1882 م، وتوفي سنة 1960 م، تولى مناصب عدة أهمها: رئاسة الوزراء، في نهاية الثلاثينات، كان له جهد بارز في إقناع فاروق بالتنازل عن العرش ليتولى الحكم عبد الناصر، الأعلام، خير الدين الزركلي، 321/4.

⁵ - تاريخ مصر المعاصر: شوقي الجمل وآخر، ص 59.

⁶ - مصطفى النحاس باشا: زعيم مصري، ولد سنة 1879، تخرج من مدرسة الحقوق وعين قاضيا بالحاكم الأهلية 1904، انتسب إلى حزب الوفد سنة 1918 م، وتولى رئاسة الوزارة خمس مرات، وعقد مع بريطانيا معاهدة كانت مقدمة للاستقلال، لزم بيته مكرها بعد الثورة 1952، توفي بالقاهرة سنة 1965 م، الأعلام: خير الدين الزركلي، 246/7.

وحاصرت الدبابات البريطانية قصر "عابدين"، وقبل الملك الإنذار وكلف "النحاس باشا" بتشكيل الوزارة.⁽¹⁾

3 - معاهدة "صدقي بيغن" (أكتوبر 1946): بانتهاء الحرب، انتهز الملك الفرصة فأقال "النحاس باشا"، وعين مكانه "النقراشي باشا"،⁽²⁾ ثم سقطت وزارته في 17 فبراير 1946م، فخلفتها وزارة "صدقي باشا" الذي دخل في مفاوضات مع الانجليز، فأسفر ذلك عن مشروع هذه المعاهدة، لكن البرلمان المصري لم يقبلها، ورأى أنها تربط مصر عسكريا ببريطانيا إلى الأبد، فسقطت هذه الوزارة وخلفتها وزارة "النقراشي" مرة ثانية في 09 ديسمبر 1946م.⁽³⁾

4 - عرض قضية مصر على مجلس الأمن (10 أوت 1947): حيث طالب "محمود فهمي النقراشي" مجلس الأمن في عريضة رفعها إليه بإجلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان جلاء تاما، وبإنهاء النظام الإداري بالسودان، ولكن المجلس لم ينصف مصر، ودعا الدولتين للتفاوض لحل خلافاتهما.⁽⁴⁾

5 - حرب فلسطين 1948م: حيث دخلت مصر مع دول الطوق هذه الحرب دون أن تستعد لها استعدادا كاملا، إضافة إلى ذلك أن الدول العربية لم تنسق جيوشها وقياداتها وانتهى ذلك "بمعاهدة رودس" 1949 كما هو معروف.⁽⁵⁾

وقبل ذلك اغتيل "النقراشي باشا" في ديسمبر 1948، وكان قد أصدر قبل اغتياله أمر بحل الإخوان المسلمين، فوجهت إليهم أيدي الاتهام في اغتياله.⁽⁶⁾

6 - الوزارة الوفدية 1950 وإلغاء معاهدة 1936: كان الدور لا يزال مستمرا في تجدد تشكيل الوزارات، وانتهى الأمر في يناير 1950 بتشكيل وزارة "النحاس باشا"؛ التي أعلنت -إزاء إصرار إنجلترا

¹ - مصر قبل عبد الناصر: عبد العظيم رمضان، ص 257.

² - محمود فهمي بن علي النقراشي: سياسي مصري، ولد سنة 1888م، بالإسكندرية، وتعلم بجامعة "توتنهام" بإنجلترا، تولى مناصب عدة أهمها رئاسة الوزارة 1945-1948، عرف بصدامه مع حركة الإخوان المسلمين، فاغتيل سنة 1948م، الأعلام: خير الدين الزركلي: 180/7-181، وكتاب: موسوعة نساء ورجال من مصر: لمعي المطيعي، درا الشروق، القاهرة، ط1، 2003م، ص 677 وما بعدها.

³ - تاريخ مصر المعاصر: شوقي الجمل وآخر، ص 60.

⁴ - المرجع نفسه، ص 60-61.

⁵ - يراجع: مصر قبل عبد الناصر: عبد العظيم رمضان، ص 354، وكتاب "أزمة العروش وصدمة الجيوش: قراءة متصلة في يوميات الحرب (فلسطين 1948)": محمد حسنين هيكل، دار الشروق، القاهرة، ط2، مارس 2000، ص 10 وما بعدها.

⁶ - تاريخ مصر المعاصر: شوقي الجمل وآخر، ص 61.

إغفال المطالب المصرية- إلغاء معاهدة 1936، وأحكام اتفاقيتي 19 يوليو 1899 الخاصتين بالسودان، فكان الرد الانجليزي في فرض الحكم العسكري على منطقة القناة، واقتراح أعمال وحشية ضد سكان المنطقة، واكتفت الحكومة المصرية آنذاك بسحب سفيرها من لندن، وتقديم الاحتجاجات والشكاوى التي لم تنفع شيئاً.⁽¹⁾

7 - مذبحه الإسمايلية (25 يناير 1952): فقد هددت القوات الإنجليزية المدينة وهاجمت مبنى المحافظة، وصدرت الأوامر من الحكومة المصرية لقوات الشرطة بالمحافظة المسلحة بالبنادق للتصدي للقوات الإنجليزية المهاجمة بمدافعها، كما اشترك الأهالي مع قوات البوليس في التصدي، وترتب على ذلك استشهاد خمسين من رجال البوليس وعدد من الأهالي.⁽²⁾

8 - حريق القاهرة (26 يناير 1952): فقد شب حريق في القاهرة أتى على مناطق متعددة منها الأوبرا، والعديد من المحلات خاصة المملوكة للأجانب، ولم تستطع الحكومة وقف موجة التخريب، وأعلنت الأحكام العرفية ونزول قوات من الجيش للشوارع، فاستغل القصر هذه الفرصة لإقالة الوزارة الوفدية.⁽³⁾

9 - ثورة الضباط الأحرار (23 يوليو 1952): مهدت الأوضاع السابقة لتحرك الجيش ليمسك بدفة الأمور، ويعلن الثورة على هذه الأوضاع التي وصلت إلى درجة لا تحتمل السكوت كما جاءت ذلك في الميثاق الوطني الذي قدمه "جمال عبد الناصر"⁽⁴⁾ في 21 مارس 1962 إلى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية.⁽⁵⁾

وقد حققت الثورة مكاسب متعددة؛ سياسية كانسحاب الانجليز والقوات المصرية من السودان في 09 نوفمبر 1953م، وإعلان قيام الجمهورية المصرية العربية في 18 يوليو 1953، وإعلان الدستور الجديد سنة 1956 وجلاء إنجلترا من مصر باتفاقية 19 أكتوبر 1954، وتأميم قناة السويس في 26 يوليو 1956، مما عرض مصر للعدوان الثلاثي الشهير.⁽⁶⁾

¹ - مصر قبل عبد الناصر: عبد العظيم رمضان، ص 375.

² - تاريخ مصر المعاصر: شوقي الجمل وآخر، ص 62.

³ - مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر: ريمون فلاور، ص 294.

⁴ - نائير عسكري: ومن أشهر حكام مصر لمدة 18 سنة، ولد سنة 1948م بأسسيوط، دخل الكلية الحربية 1937م وتخرج منها سنة 1938م، شارك في حرب فلسطين، وتزعم ثورة 1952، وفي أيامه استقلت مصر استقلالاً تاماً، أمم قناة السويس وبنى السد العالي، توفي بسكتة قلبية سنة 1970م، الأعلام: الزركلي، 135-134/2.

⁵ - حكام مصر عبد الناصر: محمد فوزي، مركز الياة للنشر والإعلام، القاهرة، ط1، 1997م، ص 22 وما بعدها.

⁶ - مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر، ريمون فلاور، ص 355.

أو اقتصادية كالقضاء على النظام الإقطاعي، وفرض التوزيع العادل للثروات وفرص العمل، وإنعاش الاقتصاد المصري بتفجير الثورة المائية وتطوير الأساليب والمجالات الزراعية والصناعية وغير ذلك. أو اجتماعية بتحسين مستوى المعيشة والقضاء على نظام الطبقات والامتيازات، ورد الاعتبار للفئة الكادحة من الشعب المصري، وإنعاش العلاقات الاجتماعية، وتوحيد الرأي العام في مناصرة القيادة المصرية آنذاك.

ولا يعني هذا أن الشعب المصري قد حقق شخصيته السياسية والاقتصادية والاجتماعية بعد كل هذه المكاسب، ولكنه وجد نفسه أمام سيطرة الطبقة البرجوازية التي كانت تملك وسائل الإنتاج الاقتصادي، والثروة العامة، والتي شكلت ما يسمى "النخبة" أو "الحزب الوطني" الذي امتلك أيضا زمام السياسة الوطنية، فحماية للأساس الاقتصادي البرجوازي نصت مواد الدستور للبلاد على حرمة الملكية الفردية إلا بسبب المنفعة العامة واتخاذ إجراءات عقابية ضد مصالح الطبقة البرجوازية.⁽¹⁾

كما شهدت الساحة السياسية صراعا وتنازعا عنيفا بين القوى السياسية المصرية آنذاك، خاصة بين جماعة الضباط الأحرار (السلطة)، وبين الأحزاب المعارضة؛ خاصة جماعة الإخوان المسلمين؛ بل إن هذا الصراع امتد حتى إلى داخل وعمق جماعة الضباط الأحرار بين أعضاء مجلس الثورة، في بداية حكم السلطة بين "جمال عبد الناصر" واللواء "محمد نجيب"،⁽²⁾ مما أدى إلى استقالة هذا الأخير من الرئاسة في 23 فبراير 1954م، وانفرد بعده "عبد الناصر" بسياسة البلاد سياسة عسكرية صارمة لم يسلم منها حتى أقرب الوزراء لديه، إما إقالة من مناصبهم الإستراتيجية، وإما حصارهم حتى الانتحار كما وقع مع

¹ - مصر قبل عبد الناصر: عبد العظيم رمضان، ص 357.

² - سياسي وعسكري مصري ولد سنة 1901م، كان عضوا بارزا في جماعة الضباط الأحرار، وهو أول رئيس لمصر الجمهورية، لكنه عزل بعد أقل من سنة لتولي إدارة الثورة، وفرضت عليه الإقامة الجبرية إلى غاية عهد السادات وحسني مبارك، توفي سنة 1984م، وترك مذكرات شخصية له، ينظر: حكام مصر عبد الناصر: محمد فوزي، مركز الياية للنشر والإعلام، القاهرة، ط1، 1997، ص22 وما بعدها.

"عبد الحكيم عامر"،⁽¹⁾ وامتد ذلك منذ تولي مجلس الثورة مقاليد حكم البلاد واستمر إلى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات.⁽²⁾

الفرع الثاني: الأحوال الفكرية والتعليمية والثقافية.

رجع التعليم القهقري في عهد الاحتلال؛ فقد كان إلى سنة 1882 مجانيا في أقسامه الثلاثة: الابتدائي، الثانوي، والعالى، وكانت العلوم تدرس باللغة العربية، إلا في مدرسة الحقوق التي كان التعليم فيها باللغة الإنجليزية ابتداء من السنة الثالثة من القسم الابتدائي، وحل المدرسون الانجليز محل المصريين تدريجياً.⁽³⁾

وقد ارتفع صوت مجلس شورى القوانين في ديسمبر 1894 بالشكوى من إهمال وزارة المعارف شؤون التعليم؛ إذ قال على لسان لجنة الميزانية: «إن نشر التعليم قد تقهقر كلياً عما كان عليه قبل ذلك، ويحسن بنا أن نقول إن القابضين على زمام نظارة المعارف العمومية وإدارتها قد سعوا بكل اجتهاد إلى تقليل طرق التعليم وسد أبوابه بكل حيلة في وجوه الأمة...».⁽⁴⁾

وقد نص بعض المؤرخين المعاصرين أن الحكومة المصرية آنذاك حرصت على استبعاد التاريخ القومي الصحيح من مناهج الدراسة؛ لكي ينشأ الجيل جاهلاً بتاريخ بلاده، محروماً من غذاء النفوس الوطنية، لا يفرق بين الاحتلال والاستقلال، وأكد -أيضاً- أن غاية التعليم صارت محاربة الشعور الوطني، وإماتته في النفوس.⁽⁵⁾

وعموماً فقد تدنى مستوى التعليم في المدارس العامة؛ فعن التعليم الثانوي قال "إدوار لامبير" الذي كان عضواً بلجنة امتحان شهادة الدراسة الثانوية: «كنت عضواً بلجنة امتحان القسم الأدبي من

¹ - أحد رجال ثورة يوليو 1952، ولد في 11 ديسمبر وتوفي في 14 سبتمبر 1967م، كان صديقاً مقرباً للرئيس جمال عبد الناصر، تولى إدارة الحربية والقيادة العامة للقوات المسلحة حتى 1967م، يقال أنه أقدم على الانتحار، ويقال أيضاً أنه مات مسموماً، بعد خلاف حاد بينه وبين عبد الناصر، ينظر: حكام مصر عبد الناصر: محمد فوزي، ص 144_153.

² - يراجع: مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عيد الناصر: زيمنون فلور، ص 313، وحكام مصر عبد الناصر: محمد فوزي، ص 143، ومصر قبل عبد الناصر: عبد العظيم رمضان، ص 359 وغيرها.

³ - مصر والسودان في أوائل الاحتلال: عبد الرحمان الراجعي، ص 186.

⁴ - المرجع نفسه، ص 187.

⁵ - مرجع سابق، ص 188.

البكالوريا المصرية، فاقنعت بأن مستوى التعليم عندكم يعادل بوجه التقريب التعليم الابتدائي في فرنسا». (1)

أما في التعليم العالي فلم يبق من المدارس العليا سنة 1910 سوى أربع كليات وهي: الحقوق، الطب، الهندسة، والمعلمين، وانحطت برامج التعليم فيها، فاقترنت مهمة التعليم على إعداد موظفين مطبوعين بطابع الولاء للاحتلال الأجنبي؛ والذي عصف أيضا بالتعليم الحزبي والتعليم الصناعي؛ فقد كانت بالقاهرة مدرسة راقية للفنون والصنائع تعرف بمدرسة العمليات الكبرى، وكان المتخرجون فيها يؤدون عمل المهندس الميكانيكي والمهندس الرياضي معا، ولكن الاحتلال ألغى تلك المدرسة، ثم أعيدت بشكل ضيق النطاق محدود البرامج. (2)

ولم تعرف الساحة الثقافية نشاطا ذا بال يذكر، إلا ما كان من جهود بعض الأعلام والمثقفين، بإسهاماتهم التحسيسية والتوعوية للشعب المصري بخاطر الاحتلال، كما كان حال "محمد عبده" (3) الذي أيد الحركة العربية، «ودفع الناس وحرصهم ضد التدخل الأجنبي في شؤون البلاد، فأبعد إلى بلاد الشام، وانتقل بعدها إلى فرنسا حيث عمل مع أساتذة الأفغاني (4) في تحرير "العروة الوثقى" واستمرت الحركة الوطنية تؤدي دورها». (5)

و انتشرت آنذاك العديد من الجرائد الوطنية من أجل أداء هذا الدور والواجب الوطني، وكانت تنتمي إلى أحزاب وطنية عدة، فبرزت جريدة "المؤيد، التابعة لحزب الإصلاح الذي أنشاه الخديوي "عباس الثاني" وكانت جريدة "اللواء" وجريدة "الدستور" صحيفتي الحزب الوطني.

إضافة إلى جرائد أخرى، كجريدة "مصر الفتاة" و"ضياء الشرق" و"البلاغ المصري" و"القطر المصري" وغيرها، والتي كانت في بدايات تأسيسها تسعى لنشر الوعي الوطني ضد الاحتلال، ولكنها

¹ - المرجع نفسه، ص 188 .

² - المرجع نفسه، ص 188.

³ - إمام ومصالح مصري شهير: حمل لواء الإصلاح الديني في مصر في العصر الحديث، وجاهد الاحتلال بلسانه وقلمه في مشاهد عدة منها: الثورة العربية سنة 1881م، تولى مشيخة الأزهر وأدخل فيها إصلاحات كثيرة، توفي سنة 1905م، من مؤلفاته: تفسير جزء عم، ورسالة التوحيد، الأزهر في ألف عام، 13/2 وما بعدها.

⁴ - شيخ محمد عبده وقائد النهضة الاجتماعية الحديثة، ولد سنة 1839م، وتوفي سنة 1897، واختلف في نسبه وبلاده، أسس جريدة العروة الوثقى مع محمد عبده في باريس، واشتهر بحركته الإصلاحية التعليمية، ينظر: زعماء الإصلاح في العصر الحديث: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت، ص 59 وما بعدها.

⁵ - التاريخ الإسلامي: محمود شاكر، 12/13.

تحولت بعد ذلك إلى أدوات صراع بين الأحزاب السياسية المصرية، خاصة بين حزب الوفد، والحزب الوطني، وحزب القصر.⁽¹⁾

و ضمير التعليم في أغلب المؤسسات الوطنية، إلا في الأزهر الشريف الذي كان الممثل الوحيد للحياة العلمية والثقافية في مصر آنذاك، وقد سعى القائمون عليه إلى تطوير مناهجه الدراسية وإصلاحها من خلال وضع مواد قانونية متعددة للتكفل بذلك..

كان منها قانون 1896م، والذي كان "محمد عبده" الفضل الكبير في إصداره، وقد اهتم هذا القانون بتطوير الدراسة بالأزهر، وأدخل في برامجه المواد الحديثة إلى جانب العلوم الدينية.⁽²⁾

ثم صدر قانون 1911م، الذي وضعه الشيخ "محمد شاكر"⁽³⁾؛ حيث تضمن أزيد من مائة مادة موزعة بين الجامع الأزهر وكيفية تعيين شيخه، وإدارته، ونظم التدريس فيه، والميزانية المخصصة له، ثم أنشئ بعد ذلك قسم للتخصيص في العلوم الأزهرية بعد الحصول على شهادة العالمية، لإعداد خريجيها لتولي وظائف القضاء الشرعي.⁽⁴⁾

وظل الأزهر يخطو نحو غايته سريعا؛ إذ وضع الشيخ "المراغي"⁽⁵⁾ مذكرته في إصلاح الذي انتقل بها من حال الاضطراب الثقافي إلى حال الاستقرار النهائي، وذلك بفضل قانوني 1930 و 1936، فقد شمل قانون "المراغي" نواح إصلاحية علمية ومالية.

فأما من الناحية العلمية فقسمت الدراسات العليا—الأول مرة— إلى ثلاثة أقسام، يعد خريجوها إلى ما يسمى بـ"أقسام التخصص في المهنة"، وأنشئ لها ثلاث كليات: كلية الشريعة، كلية أصول الدين، وكلية اللغة العربية.

¹ - تاريخ مصر المعاصر: شوقي الجمل وآخر، ص 29 وما بعدها.

² - الأزهر في ألف عام: محمد عبد المنعم خفاجي، عالم الكتب، بيروت، 198/1 بتصرف.

³ - من علماء الأزهر الشريف: ولد بمدينة "جرجا" في شوال 1282هـ، مارس 1866م، وتوفي سنة 1358هـ في جوان 1939م، تولى مناصب عديدة منها تعيينه وكيلا للجامع الأزهر سنة 1911م، يراجع: الأزهر ألف عام: محمد عبد المنعم خفاجي، علم الكتب، بيروت، ط2، 1978، 42/2-43.

⁴ - المرجع نفسه، 202/1.

⁵ - هو الإمام شيخ الأزهر الأسبق الشهير، ولد في مراغة سنة 1881م، وتوفي سنة 1945م، عرف بتأثيره الشديد بدروس محمد عبده في التفسير، فنهج طريقه في ذلك، تولى مناصب عديدة، وعرف بمواقفه الجريئة، وله مؤلفات عدة منها: تفسير جزء تبارك، والدروس الدينية وغيرها، الأزهر في ألف عام، محمد عبد المنعم خفاجي، 376-373/2.

و أما من الناحية المالية فاهتم بتوظيف خريجي هذه الكليات الثلاث، وإلحاقها بوظائفهم المناسبة لهم، فوظائف القضاء الشرعي أصبحت خالصة لخريجي كلية الشريعة، ولخريجي كلية اللغة العربية التدريس في مدارس الحكومة، ولخريجي أصول الدين ووظائف الوعظ والإرشاد.⁽¹⁾

وأدمج -لأول مرة- في مناهج التعليم الأزهرى تدريس اللغات الأجنبية بعضها إجباريا والبعض الآخر بالاختيار، هذا بالإضافة إلى إنشاء مدارس إعدادية للأعاجم الذين لا يحسنون التكلم باللغة العربية، من أجل إتقانها ثم فتحت الأقسام النظامية أو العامة لهم، وهذا بفضل قانون 1944م.⁽²⁾

وبعد سنة 1952، استقر الرأي على إزالة الحواجز بين التعليم العالي بالجامعات والمعاهد العليا والأزهر الشريف؛ ولذا قامت كليات أخرى جديدة بالأزهر، فقامت كليات الهندسة والتجارة والطب والزراعة إلى جانب الكليات القديمة التي تركز اهتمامها على الدراسات الإسلامية واللغوية، وهو ما كافح الشيخ "محمود شلتوت"⁽³⁾ من أجله، حتى تحقق في عهد مشيخته للأزهر في قانون تطوير الأزهر رقم 103 لسنة 1961م.⁽⁴⁾

رسالة الأزهر المثلى في نظر محمد عبد الله دراز.

نشر محمد عبد الله دراز مقالا باللغة الفرنسية في جريدة "لموند" الباريسية في عددها الخاص بمصر، بمناسبة انعقاد جمعية الأمم المتحدة في دورتها السادسة بباريس (1951-1952)، قصد منه تفهيم المجتمع الغربي عموما موقع الأزهر ومكانته في قلوب المسلمين، ودوره المزدوج في تثقيفه للشباب الإسلامي، وفي قيادته الروحية للشعوب الإسلامية.⁽⁵⁾

ركز حديثه على ثلاثة جوانب أساسية للأزهر الشريف:

¹ - المرجع نفسه، 202/1-205 باختصار، 239/2.

² - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، تحقيق أحمد مصطفى فضلية، دار القلم، الكويت، ط1، 2004م، ص 347.

³ - من علماء الأزهر و مشائخه المشهورين، عاش بين فترتي 1893 و 1963م، جاهد بقلمه ونفسه من أجل تنوير الأزهر بالافتكار الإصلاحية، تولى مشيخة الأزهر سنة 1958 إلى أن توفي 1963م، من مؤلفاته: الإسلام عقيدة وشريعة، والفتاوى، وتفسير القرآن الكريم، يراجع: معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993م، 812/3-813.

⁴ - ينظر نص القانون الجديد كاملا في كتاب: الأزهر في ألف عام: محمد خفاجي، 198/2-227.

⁵ - جمع ذلك في كتابه "حصاد قلم" بتحقيق أحمد مصطفى فضلية، ص 335-352.

الجانب الأول: وسماه التاريخ المعماري: قدم لنا -من خلاله- الهندسة البنائية والعمرانية للأزهر الشريف، في أجنحته ومناراته وصحنونه ومحرابه ونقوشه ورسومه، وحتى إحصاء لمساحته العامة التي قدرها بأحد عشر ألفاً وثلاثمائة وثمانين متراً مربعاً.⁽¹⁾

ثم تحدث عن الإضافات الهيكلية التي ألحقت به عبر تاريخه العتيق، بدءاً من سنة 709 هـ (1309م)، وانتهاءً بعصره في اهتمام الأسرة العلوية الحاكمة لمصر آنذاك بتجديد البنايات كما حصل في عصر الخديوي "إسماعيل" سنة 1282 هـ (1865م)، أم بزيادة منشآت حديثة وفخمة كما في عصر الملك "فؤاد" 1936م، الذي أضاف المدارس والكليات التعليمية، وأنشأ أيضاً مكتبة فسيحة، ومعهداً ابتدائياً وثانويًا تحضيريًا، ومستشفى، وحديقة، بل وأنشأ مساكن وبيوت للطلبة الوافدين من أقطار خارجية.⁽²⁾

وبين بتفصيل وظيفة الأزهر التاريخية التي حصرها في وظيفتين أساسيتين: «وظيفة روحية ووظيفة عقلية؛ فهو بيت تحيا فيه القلوب بإقامة الشعائر والعبادات، وتستنير فيه العقول بالتعلم والتعليم».⁽³⁾

وأوضح في الجانب الثاني الذي أسماه "تاريخ الأزهر الثقافي"، العلوم الدينية والدنيوية التي درست فيه، وأشهر العلماء والمؤرخين والمصنفين الذين تخرجوا من جامعته وتشبعوا بأفكاره،

والإسهامات السياسية في تطوير مناهجه، وإنشاء معلمه وكلياته؛ أبرز منها إنجازات "محمد علي" في إدراج العلوم الحديثة إلى مناهجه، وإلى إرسال البعثات العلمية الأزهرية للدراسة في أوروبا من أجل التخصص والإفادة، ثم أبرز للعيان باقي إنجازات الأسرة العلوية الحاكمة لمصر في شكل قوانين إصلاحية للمناهج التعليمية، والترتيبات الإدارية والفنية للأزهر الشريف، فذكر قوانين 1896، 1908، 1764، 1768، 1923، 1935، 1936، 1941، 1944،⁽⁴⁾ في دراسة إحصائية لها منذ بدء صدورها إلى زمن كتابته لهذا المقال 1951.

¹ - المصدر نفسه، ص 337.

² - المصدر نفسه، ص 338-340.

³ - المصدر نفسه، ص 341.

⁴ - مصدر سابق، ص 343-347.

وعاد في خاتمة هذا القسم الثاني إلى تأكيد وظيفة الأزهر التي ابتدأ ذكرها في أول هذا القسم، فتبوأ الأزهر بذلك « مستوى أحدث الجامعات، مع المحافظة في الوقت نفسه على طابعه الجوهري وهو حراسة لغة القرآن وعلومه». (1)

وأما القسم الثالث من حديثه عن الأزهر الشريف، فقد بين -من خلاله- أن رسالة الأزهر الحقيقية لا تقتصر فقط على حدود التعليم والتثقيف، أو ما أسماه بـ "النطاق المدرسي"، فرسالة الأزهر أعمق من هذا بكثير، وعلى جميع القائمين به أن يدركوا كما قال "دراز" «إن رسالة الأزهر على الجملة إنما هي امتداد لرسالة الإسلام... (الذي) لا يعرف هذا الفصل بين الدين وشؤون الحياة؛ بل إن قواعده العملية تمتد إلى جميع ميادين النشاط الاقتصادي والأخلاقي في حياة الفرد، والأسرة والأمة، بل في حياة الجماعة الإنسانية كلها». (2)

إذن ما هي أهم رسائل الأزهر الوجودية التي يجب أن يؤديها في فكر محمد عبد الله دراز؟

أولى رسائله هي الرسالة الوعظية التهذيبية التي يقوم بها مجموعة من المصلحين الاجتماعيين الأزهريين قصد توحيد كلمة المسلمين وصفوفهم، وتمتين بنیان المجتمعات الإسلامية، ونشر معاني العدل والأمن والأخلاق الحسنة والفضائل العالية، وبما ترتبط الوظيفة الفقهية الإفتائية لعلماء الأزهر الشريف لتنوير أفكار الناس وأحوالهم في شؤون السلوك والمعاملات. (3)

كما كان للأزهر الدور في توجيه السياسة العامة؛ لا في مصر وحدها، بل في سائر البلاد الإسلامية؛ ومثل من ذلك ترجيح الأزهر كفة "محمد علي علي" حساب "خورشيد" في ولاية مصر، وفي تفجير ثورة 1919 وتحقيق الوحدة بين المصريين ضد دسائس الاحتلال الإنجليزي؛ بل إلزام الاحتلال بإلغاء الحماية على مصر، ومنحها الاستقلال المقيّد. (4)

ثم إن هناك رسالة عالمية مزدوجة لهذه الجامعة العريقة؛ رسالة توجيهية إصلاحية للمجتمعات الإسلامية وحكوماتها من خلال تكوين أبنائها تكويناً ثقافياً واجتماعياً متكاملًا، ثم إرسالهم سفراء للأزهر إلى بلادهم لإصلاحها وتطويرها وتنويرها برسالة الأزهر الإسلامية.

¹ - المصدر نفسه، ص 348.

² - المصدر نفسه، ص 349.

³ - المصدر نفسه، ص 350.

⁴ - مصدر سابق، ص 350-351.

والرسالة الأخرى رسالة توعوية إصلاحية لشعوب وحكومات المجتمعات الغربية، في الكشف عن رسالة الإسلام العالمية السمحة، وتثقيف المراكز الجامعية الغربية بمبادئه السامية وأخلاقه الفاضلة، ووسطيته العادلة بين المادة والروح، وبين مطامح المنفعة وعواطف الإيثار، وبين حرية الفرد وسلطان الدولة، وتلك هي الرسالة الثانية للأزهر في إصلاح أوضاع العالم المعاصر، والحد من تنازع القوى العالمية، وتفشي القتال والحروب بينها، وحصرها في المنطقة الوسطى وهي حقيقة الإسلام ومبادئه العالمية.

المطلب الثاني: أوضاع فرنسا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية أثناء الحرب العالمية الثانية.

شهدت الدول الأوروبية صراعا ونزاعا عنيفا على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية منذ نهاية القرن 19 م، وإلى أواسط القرن 20 م، وكان هذا النزاع يسعى لفرض سياسة أحادية الأيديولوجية والسياسية والفكرية في تسيير قضايا البشر، هذه الأيديولوجية تمخضت بعد اضطراب موازين القوى الدولية، وصراع أقطابها العالمية، بعد أحداث كبرى تاريخية كانت كفيلة بإيجاد هذا التغيير الأيديولوجي.

ولقد كانت فرنسا من أهم أقطاب الحلفاء التي خاضت معارك عنيفة ضد دول المحور أو دول الشر كما يسمونها، وعلى رأسها الدولة النازية الألمانية التي شكلت خطرا كبيرا - في نظر الحلفاء - على السياسة الدولية؛ إذ شن هتلر حربا شرسة على دول الحلفاء، للتأثر من هزيمة ألمانيا أمامها خلال الحرب العالمية الأولى؛ فبدأ التهديد الألماني مجددا عزمه وقوته «بجول عام 1933 ليسلط أعباء إضافية على عاتق التعاون الدبلوماسي الإنجليزي - الفرنسي - الأمريكي، في وقت فشل المؤتمر الاقتصادي العالمي، ونزوع الديمقراطيات الثلاث إلى الرجوع نحو عملائها وكتلها التجارية».⁽¹⁾

وقد بدأ القلق الفرنسي من التوسع الألماني المبكر والملاحظ بدءا من سنة 1934 و 1935، وقد بلغ أوجه في سنتي 1936 - 1937؛ إذ «لم يركد اقتصادها وينقسم رجال السياسة فيها لدرجة بلوغهم شفير حرب أهلية فحسب؛ بل إن نظامها الأمني الواسع في أوروبا قد تعرض للتحطم بسلسلة من الضربات الألمانية القاسية، وبدأ البلد مفتوحا على ذلك في وقت تضاعف فيه نشاط القوات الجوية الفرنسية».⁽²⁾

¹ - نشوء وسقوط القوى العظمى: بول كينيدي - ترجمة مالك البديري، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 1998 م، ص 509.

² - المرجع نفسه، ص 515.

كما أفضى «انزواء بلجيكا في عزلتها إلى إفساد الخطط المرسومة للدفاع عن الحدود الشمالية الفرنسية، إضافة إلى أن الحرب الأهلية الإسبانية فتحت أفقا مرعبا بإقامة دولة فاشية في مؤخرة فرنسا مؤيدة للمحور».⁽¹⁾

وهكذا وجدت فرنسا نفسها ضعيفة القوى والأسلحة، منقسمة الوحدة السياسية قبل بداية الحرب العالمية الثانية.

إضافة إلى ذلك أنها عرفت أدنى تراجعاتها الاقتصادية والمالية في هذه المرحلة، فبالرغم من توقيعها عدة اتفاقيات اقتصادية ومالية بينها وبين إسبانيا، وبلجيكا وغيرها، إلا أن ديونها وميزانيتها الحربية بالذات عرفت ارتفاعا مذهلا، مما استدعى لجوء الدولة إلى إسهامات المواطنين للتخفيف من ثقل تلك الديون، وفعلا فقد «بلغ القرض الوطني الفرنسي (قرض التحرير) إلى 164 مليار فرنك فرنسي ساهم فيه 25 مليون فرنسي».⁽²⁾

وفي مقابل ذلك فقد أدى نهج ألمانيا سياسة الحرب إلى مضاعفة الإنتاج وتسريع التطور الذي برز بعد عام 1935 م.⁽³⁾

فلما أعلنت ألمانيا الحرب العالمية الثانية حين دخولها إلى بولونيا، لم تجد بعد ذلك مقاومة شديدة تذكر من جانب القوات الفرنسية، خاصة بعد تلقي ألمانيا الدعم من إيطاليا الفاشية التي أعلنت بدورها الحرب على فرنسا وبريطانيا في 10 جوان 1940.⁽⁴⁾

فاستطاعت ألمانيا بقواتها البرية والجوية اختراق الخط الدفاعي الفرنسي ماجينيو، ووصلت إلى حدود إسبانيا بعد احتلالها معظم الأراضي الفرنسية في أوائل عام 1940، وفي 14 جوان من نفس السنة، دخلت القوات الألمانية إلى باريس ووقع الجنرال الفرنسي شارل هنترغر على وثيقة استسلام فرنسا التي نصت على تسليم فرنسا كافة المواطنين الألمان الفارين من ألمانيا إلى فرنسا، ووضع ثلثي

¹ - المرجع نفسه

² - تاريخ العالم في القرن العشرين: مجموعة من الباحثين بإشراف EDITO GREPS INTERNATIONAL بيروت - لبنان، 2005، ص 26.

³ - موسوعة تاريخ أوروبا العام: فرنسو جورج دريفوس وآخرون، ترجمة حسين حيدر، منشورات عويدات - بيروت - باريس، ط 1، 1995، المجلد 3: أوروبا من عام 1789 حتى أيامنا، ص 415.

⁴ - تاريخ العالم في القرن العشرين، مجموعة من الباحثين ص 18.

أراضي الدولة الفرنسية بما فيها المدن الصناعية الرئيسية تحت سيطرة القوات الألمانية، وتم توقيع وثيقة الاستسلام في روتوند نفس المكان الذي وقعت فيه ألمانيا ووثيقة استسلامها لفرنسا عام 1918 م.⁽¹⁾

وظلت المدن الفرنسية تشهد الحروب والدمار الواحدة تلو الأخرى، وتشهد اضطرابات - ومعها دول الحلفاء - ولم تبنغ عليها أنوار الأمل إلا في انضمام الولايات المتحدة الأمريكية إلى الحرب سنة 1943؛ الذي قلب موازين القوى بعد ذلك، وخففت الضغط على فرنسا خاصة فيما عرف بالحصار الأجلو-أمريكي للاقتصاد الألماني.⁽²⁾

ولم تتحرر فرنسا نهائياً من الاحتلال الألماني إلا في 25 أغسطس (أوت) 1944؛ حينما حررت مدينة باريس من القوات الألمانية، واستسلم قائدها النازي فون شولتيزت أمام الجنرال الفرنسي لوكلاك، وفي ذلك اليوم دخل الجنرال ديغول إلى بلدية باريس منتصراً.⁽³⁾

فلقد عاش محمد عبد الله دراز في فترة كانت أوروبا خلالها، بل العالم كله من حوله كتلة ملتتهبة من الصراع والدمار، والحروب والخراب.

و قد شهد العالم الغربي آنذاك تطوراً مذهلاً في المجالات الصناعية والتقنية وارتقاء واسعاً في مجالات الثقافة والعلوم والحضارة بمعناها المادي والتقني.

أما في الجانب الأخلاقي فرجعت فيه أوروبا القهقري، ولم تعرف في تاريخها خراباً أخلاقياً كالذي عرفته في تاريخها المعاصر، ولقد لخص لنا عبد الصبور شاهين⁽⁴⁾، وصوره لنا خير تصوير فقال: «... ولم يكن الحلفاء في مواجهة هتلر والنازية بأحسن حالا من الواجهة الأخلاقية؛ فأنهى فرنسا أمام الزحف النازي في يوم وليلة، إنما كان انهيئاراً أخلاقياً في جوهره، كما لاحظ ذلك بحق المارشال بيتان رئيس

¹ - المرجع نفسه، ص 107.

² - نشوء وسقوط القوى العظمى: بول كيندي، ص 529.

³ - تاريخ العالم في القرن العشرين: مجموعة من الباحثين، ص 119.

⁴ - مفكر إسلامي مصري، ولد سنة 1928 م، عمل أستاذاً بجامعة عربية كثيرة، له 65 كتاباً ما بين مؤلفات وتراجم، أكبرها مفصل لآيات القرآن في عشرة مجلدات، ينسب له تعريبه لمصطلح حاسوب، بإقرار مجمع اللغة العربية آنذاك، توفي مساء يوم الأحد 26 سبتمبر 2010 عن عمر ناهز 82 سنة ينظر: موسوعة ويكيبيديا العالمية على شبكة الإنترنت.

الجمهورية الفرنسية إبان الاحتلال في رسالته التي وجهها إلى ضمير الأمة الفرنسية صبيحة الهزيمة أو عشيتها»⁽¹⁾.

وقد أدى أوروبا إلى هذا الخراب الأخلاقي فساد عقائدهم، واستبدالها بنظم وأيديولوجيات العلمانية والمادية والفاشية والنازية التي مزقت وحدة الشعوب الأوروبية، وأردتها إلى مصائر العنصرية والاستعمار والحروب والدمار.

فلئن كانت أوروبا قد قطعت أشواطاً واسعة في التقدم التكنولوجي والرفاهية المادية، والخدمات الإنسانية، والرقي الحضاري، إلا أنها أيضاً قطعت أشواطاً أخرى أكثر اتساعاً في التخلف الأدبي والخراب الأخلاقي، وانعدام قيم الرحمة والعدل والفضائل الإنسانية عموماً.

قال عبد الصبور شاهين: «لقد خرجت أوروبا من الحرب الثانية بدمار أكبر، وتحلل أعمق، فأخذت تبحث لاهثة عن حلول لمشكلاتها الأخلاقية... ولما لم يجد الناس حلاً واحداً ناجحاً فيما عرض عليهم من محاولات الفكر، في الوقت الذي لم تبلغ فكرة الإسلام وفلسفته إلى الجماهير نتيجة تقصير المسلمين... ساد الخراب الأخلاقي، وانطلق الشباب في موجات يائسة يتسكعون في الطرقات... (وأقبلوا) على تعاطي سموم المخدرات، وارتكاب أبشع الجرائم الجنسية والعدوانية»⁽²⁾.

في هذا الجو الخانق الموبوء بالخراب الأخلاقي والدمار المادي، اكتوى محمد عبد الله دراز بناره، وعاش طوال أحد عشر عاماً من (1936 - 1947) قضية فساد الأخلاق، بل وخاض معركة العقيدة والأخلاق ضد زبانية الاستعمار من أصحاب الفلسفات المادية الفاسدة، والإلحاد الذي أصبحت له منابر تنشر أراجيفه وأباطيله عبر وسائل إعلامية وتعليمية واجتماعية كثيرة ومتعددة، تنشر الفساد وتحارب الإيمان والفضائل.⁽³⁾

¹ - مقدمة لكتاب دستور الأخلاق في القرآن، لمحمد عبد الله دراز، ط، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط 2، 1418هـ، 1998 م، ص ك و.

² - المصدر نفسه، ص ك ز.

³ - راجع كتاب: حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن لمحمد عبد الله دراز: أحمد مصطفى فضيلة، دار القلم، الكويت، ط 1، 2005، ص 32.

«وسط هذه الغرائب وتحت هدير المدافع والقنابل وضعت هذه الرسالة (دستور الأخلاق في القرآن) أشبه بصرخة في وادي الدماء والدموع، والفساد والضياع، عسى أن ترتد الإنسانية الأوروبية إلى رشدها».⁽¹⁾

ولا يكون ذلك إلا بفتح عيون الأوروبيين على حقيقة الأخلاق الإسلامية وسماحتها ودورها في نشر الأمن العام، وهذا ما أوضح مغاليقه محمد عبد الله دراز.

المبحث الثاني: سيرته ومكانته العلمية

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص ك ز.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حياته وسيرته.

المطلب الثاني: مكانته ومؤلفاته العلمية.

محمد عبد الله دراز، أحد أعلام الأزهر الشريف بوجه خاص، وعلماء الإسلام بوجه عام، في القرن الماضي.

وهو «عالم فذ، وداع ملهم، جمع بين العلم والعمل، وكال قلمه في مجال الكلمة يقوم بمهمات جيش عرمرم في مجال الجهاد، تثبتنا للحق، ونصرة للدين على الصعيدين القومي والدولي».⁽¹⁾

¹ - كتاب "النبأ العظيم" لمحمد عبد الله دراز: عبد العظيم المطعني، ضمن كتاب محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، جمع أحمد مصطفى فضلية، ص 173

إن في الناس - كما قال أحمد حسن الزيات-⁽¹⁾ «رجالان يربكان الكاتب إذا حاول أن يكتب عنها: رجل لا يستطيع أن يجد ما يقوله فيه، ورجل لا يستطيع أن يختصر ما يعرفه عنه».⁽²⁾

ومع أن الشيخ محمد عبد الله دراز -رحمه الله- كان من النوع الثاني، إلا أننا لم نجد اسمه ذائع الصيت، عند أغلب الدارسين كما وجدنا ذلك عند غيره، وقد قال "عبد العظيم المطعني"⁽³⁾: «إن محمد عبد الله دراز قد ناله شيء غير قليل من هذا التعظيم، وسار في حياته العلمية في مجاهيل وطرق وعرة ما خط فيها أزهرى قبله خطوة واحدة».⁽⁴⁾

لهذا سنحاول -قدر الإمكان- التعريف بشخصيته الاجتماعية والعلمية، والتعرض لأهم أعماله ووظائفه ومواقفه في حياته، وكشف أهم صفاته العلمية والخلقية، وبيان مكانته العلمية بشهادات الأعلام له، وعرض مؤلفاته ومقالاته العلمية وبيان موضوعاتها وأهدافها، وذلك بشيء من التفصيل غير الممل عبر المطالب التالية:

¹ - مفكر وأديب مصري معاصر، كانت له جهود معتبرة في نهضة الإصلاح الأزهرى التعليمي، وصاحب تحرير مجلة الرسالة المشهورة، يعتبر بحق فقير البنان العربى والأدب التوجيهي، ينظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: محمد رجب البيومي، دار القلم-دمشق، الدار الشامية-بيروت، ط1، 1995، 2/199-200.

² - الإمام الأكبر محمود شلتوت: أحمد حسن الزيات، مجلة الأزهر، السنة 35، عدد شعبان 1383هـ، يناير 1964م، ص 642.

³ - داعية وأديب مصري، من مواليد مايو 1931 بأسوان، تشبع بالثقافة الإسلامية، وترقى في مناصب التدريس، وترك لنا بعض المؤلفات ككتبه عن بلاغة القرآن، توفي في 29 جويلية 2005م، ينظر: موسوعة ويكيبيديا العالمية على شبكة الإنترنت.

⁴ - محمد عبد الله دراز: دراسات وبحوث: جمع أحمد مصطفى فضلية، ص 349-350.

المطلب الأول: حياته وسيرته.

تعد حياة محمد عبد الله دراز حياة حافلة وعمارة بالعلم والإصلاح، وبذل النفس والنفيس في خدمة الإسلام والأمة الإسلامية، وقد مر في ذلك بمحطات اجتماعية وفكرية كبرى، واشتغل بوظائف متنوعة، وتمثل بمواقف جريئة عظيمة، سيرته -بعد ذلك- علما شهيرا من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، سواء أكان ذلك قبل رحلته العلمية إلى فرنسا أم بعدها.

الفرع الأول: الولادة والنشأة، والمسيرة العلمية، والنضال الوطني.

في بيت مواضع، عامر بالتقوى والعلم والصلاح، حيث الشيخ الفاضل "عبد الله دراز"، وفي قرية محلة دياي التابعة لمحافظة كفر الشيخ، كانت ولادة محمد عبد الله بن محمد بن حسين دراز، في الثامن من شهر نوفمبر عام 1894، وهذه القرية قد أنجبت -عبر تاريخها الطويل- علماء أفذاذا، ومصلحين كبارا، كالشيخ محمد النشري،⁽¹⁾ والشيخ محمد بن عرفة الدسوقي،⁽²⁾ والإمام السخاوي محمد بن عبد الرحمان،⁽³⁾ وكمال بشر،⁽⁴⁾ وغيرهم.

وقد نشأ 'محمد عبد الله دراز' في أسرة ذات علم وورع، وقد قيل أن لها «عرق وقرابة عقلية خاصة في المغرب العربي، ربما لانتساب الأسرة تقليديا إلى المذهب المالكي؛ فقد شرح الشيخ عبد الله دراز... كتاب (الموافقات) لفقهاء الأندلس أبي إسحاق الشاطبي⁽⁵⁾ وحقق دراز الابن الكتاب، ثم كتب

¹ - من أعلام المالكية، فقيه وأصولي، تولى مشيخة الأزهر سنة 1106هـ، ولم يترك مؤلفات، توفي في 28 ذي الحجة 1120هـ، الأزهر في ألف عام: محمد بن المنعم خفاجي، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1987م، 340/2-341.

² - من علماء المالكية بالأزهر الشريف، تخصص في البلاغة، وتصدر للإقراء والتدريس بالأزهر وإفادة الطلبة، وكان فريدا في تسهيل المعاني، توفي سنة 1230هـ، ودفن بترية الجاورين، الأزهر في ألف عام: محمد عبد المنعم خفاجي، 171/1.

³ - فقيه، مقرئ، محدث، مؤرخ، ولد بالقاهرة في ربيع الأول 831هـ، 1427م، له تأليف كثيرة منها: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع في 12 مجلدا، توفي بالمدينة سنة 902 هـ، 1497هـ، معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط1، 1993، 750/3.

⁴ - أديب ولغوي مصري، ولد بمحلة دياي محافظة كفر الشيخ سنة 1921م، تخصص في علم الأصوات و اللغويات من جامعة لندن 1953 للماجستير، و1956 للدكتوراه، عرف بنشاطات علمية كثيرة، وتآليف غزيرة، أهمها علم الأصوات، وفن الكلام، وعلم اللغة الاجتماعي، لا يزال على قيد الحياة وهو رئيس مجمع اللغة العربية حاليا، ينظر: موسوعة ويكيبيديا العالمية.

⁵ - هو إمام المقاصد، إبراهيم بن موسى اللحمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، أصولي، محدث، فقيه، لغوي، مفسر، من أئمة المالكية بالأندلس، له تأليف كثيرة أهمها: الموافقات في أصول الفقه، وأصول النحو، وشرح الألفية، توفي في شعبان 790هـ، 1358هـ، والاعتصام، ينظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: محمد بن محمد مخلوف، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ، رقم 231/1، 828.

دراسة عن كتاب (الاعتصام) للشاطبي أيضا، وحاول توليد أفكار الاعتصام وتجديدها في كتابه (الميزان بين السنة والبدعة) الذي توفي قبل إكماله.⁽¹⁾

و من الصغر بدت عليه علامات النباهة والذكاء؛ فحفظ القرآن الكريم والتجويد وهو دون العشر سنين من عمره، وتفوق على أقرانه في مجالات العلوم، والتي تفتحت عيناه أولا عليها في بيت والده.

يقول عنه محمد رجب البيومي:⁽²⁾ «وسرعان ما تفتحت عينه على زملاء أبيه يغشون منزله كل ليلة لدراسة كتب العلم، والحديث في مسائل الإصلاح الديني، وكان الوالد يأخذ منزله بآداب التقوى؛ يؤم أهله في صلاتي العشاء والفجر، ويقرأ صحيح البخاري في ليالي رمضان، ويسهر على تثقيف أبنائه، وتعويدهم على سنن الخير صلاة، وصياما، وزكاة، وحبا للمعروف، وبعدا عن الدنيا». ⁽³⁾

وأعظم من ذلك فقد تعلم دراز عن والده «شغفه بكتاب الله، فأخذ عنه ضرورة التلاوة لسته أجزاء منه كل يوم، وما ترك هذه العبادة يوما من الأيام، وما كنت تراه إلا قارئاً للقرآن، وقراءة عالم مفكر مثله لهذا الورد اليومي، لا بد أن تفتح عليه بما يضيء بصيرته، ويمده بأوفر الزاد وأشهاه». ⁽⁴⁾

وبعد أن نشأ دراز في أسرته هذه النشأة الإيمانية العلمية؛ فكان إلى جانب تفرغه لحفظ القرآن الكريم، أن التحق في المراحل الابتدائية للتعليم الشرعي والمدني، وكان أيضا- قد استظهر بعض المتون العلمية الذائعة لوقته، ثم انتقل بعد ذلك إلى الإسكندرية في أوائل 1905م؛⁽⁵⁾ حيث التحق بمعهدا الناشئ في معية والده الذي وقع عليه اختيار أستاذه الإمام محمد عبده لتأسيس الدراسة الأزهرية النظامية في هذه المحافظة، وكان محمد عبد الله دراز من أوائل الطلبة المنتسبين إلى هذا المعهد، ونال منه الشهادة الابتدائية بعد أربع سنوات، وحين عين والده وكيلا لمشيخة معهد طنطا رغبه أولو الأمر في إعادة تلك التجربة الناجحة؛ فنقل صورة من النظام الذي جرب في معهد الإسكندرية إلى الجامع

¹ - مقدمة كتاب زاد المسلم للدين والحياة، محمد عبد الله دراز، دار القلم بالكويت، ص 12-13.

² - أديب ومفكر إسلامي شهير، ولد بمحافظة الدقهلية سنة 1923م، تتلمذ وصاحب شخصيات علمية كبيرة كمحب الدين الخطيب وأحمد حسن الزيات والشيخ شلتوت وغيرهم، عمل في المدارس والجامعات، وشارك في المؤتمرات والمجلات، وأحرز منها شهادات وجوائز دولية، فاقت مؤلفاته الخمسين كتابا أهمها: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين (مجلدات)، وخطوات التفسير البياني، توفي في 05 فبراير 2011م، ودفن في مسقط رأسه. ينظر: موقع الرابطة الأدبية العالمية على شبكة الإنترنت.

³ - النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: محمد رجب البيومي، 2/242.

⁴ - المرجع نفسه، ومقدمة كتاب النبا العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 14.

⁵ - معجم المؤلفين: محمد رضا كحالة، مؤسسة الرسالة رقم 14249، 3/438.

الأحمدي؛ فانتقل محمد دراز في صحبة والده إلى الجامع الأحمدي، ونال منه الشهادة الثانوية عام 1912. (1)

وطبيعي - بعد هذا - أن يلتحق دراز بالجامع الأزهر؛ إذ قضى القسم العالي فيه، وحصل في نهايته على الشهادة العالمية، وبهيمته العالية، وجهده الدءوب استطاع أن يتفوق على أقرانه جميعاً، فكان أول المتخرجين من الطلاب جميعاً سنة 1916م، مما أهله ذلك أن رشحته إدارة الأزهر للتدريس في هذا الجامع في نفس سنة تخرجه، وهذا من فضله وعلمه. (2)

ولما كان دراز صاحب نفس أبيه، وهمة كبيرة لتحصيل معالي الأمور، بدأ في هذه الفترة - وهو في سن الثانية والعشرين - في الانتظام في الدروس المسائية بأمواله الخاصة لتعلم اللغة الفرنسية، حتى حذقها في ثلاث سنوات، ونال من هذه المدارس الخاصة الليلية شهادة القسم العالي سنة 1919. (3)

وبالإضافة إلى اشتغاله بالتدريس في الجامع الأزهر لمدة تزيد على العشر سنين، اختير أيضاً للتدريس بالقسم العربي بالأزهر الشريف سنة 1928، ثم لم يمض عام من تاريخ تعيينه حتى كلف بالتدريس بقسم الدراسات المتخصصة سنة 1929م، ثم في الكليات الأزهرية الناشئة سنة 1930م، مع أساتذته الكبار من أمثال محمد الخضر الحسين، (4) وإبراهيم الجبالي (5)، وغيرها، فلم يكن دراز بأقل منهم كفاءة واقتداراً على حداثة السن؛ بل كان أقربهم إلى قلوب الطلاب لحسن تواضعه، وقرب اتصاله بشباب لا يزيد عنهم في الزمن أمداً ذا بال. (6)

¹ - ترجمة محمد عمر الحاجي له في مقدمة كتاب حقيقة الوحي: محمد عبد الله دراز، جمع هشام حافظ، دار الحافظ، د ت، ص 14.

² - النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين،: محمد رجب البيومي، 2/ 242.

³ - المرجع نفسه.

⁴ - إمام تونسي مفسر وفقه، ولد بمدينة نفطة بتونس في 27 رجب 1293م، تعلم بالزيتونة وتولى التدريس بها، وأنشأ مجلة السعادة العظمى، كرس قلمه لمحاربة الاستعمار، زار بلدانا عديدة، واستقر في مصر وتولى مشيخة الأزهر سنة 1952م، وتوفي سنة 1958، من آثاره العلمية: كتاب القياس في اللغة العربية، ورسائل الإصلاح، ينظر: الأزهر في ألف عام: محمد عبد المنعم خفاجي، 1/ 328.

⁵ - عالم أزهري، فقيه ومفسر، ولد بمدينة البحيرة في يناير 1878 م، حصل على شهادة العالمية سنة 1904 م، وتولى مناصب عديدة أهمها: وكيلاً لكلية أصول الدين 1937 م، وشيخاً بمعهد طنطا 1938 م، رحل إلى الحج سنة 1950م، وفي هذه السنة توفي، ينظر موقع شبكة القرآن والتفسير على الإنترنت، ص 01.

⁶ - النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، محمد رجب البيومي، 2/ 243.

استمر على ذلك في التدريس والتأليف لبعض المؤلفات، ككتاب المختار في تدريس مادتي التفسير والحديث بكلية أصول الدين سنة 1932 م، وكتاب "النبأ العظيم" في محاضراته في تفسير القرآن الكريم سنة 1933 م.⁽¹⁾

ثم قام بأداء فريضة الحج سنة 1355 هـ، 1936 م، وبعدها اختيرَ بناء على ترشيح جامعة الأزهر في بعثة علمية دراسية إلى جامعات أوروبا رفقة ستة من زملائه سنة 1936، وفي ذلك يقول دراز عن هذه البعثة: «هي أول البعثات في هذا القرن إلى جامعات أوروبا مؤلفة من سبعة من شباب الأساتذة المدرسين في الكليات؛ أوفد أحدهم إلى ألمانيا، واثنين منهم إلى إنجلترا، وأربعة إلى فرنسا، وكان لكاتب هذه السطور شرف عضوية هذه البعثة الفرنسية».⁽²⁾

فمكث هناك أزيد من عشر سنوات وتحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون بفرنسا في رسالته الشهيرة: «دستور الأخلاق في القرآن».⁽³⁾

هذا ولم يكن دراز - رحمه الله - من أولئك النفر من العلماء القابعين داخل أقبية الفكر، محتجين عن الواقع وتياراته؛ وإنما كان من المنشغلين بقضايا وطنه وأمته، وللرجل مواقف مشهودة هنا؛ فقد طاف على السفارات الأجنبية بمصر إبان ثورة 1919 م، محاضرا باللغة الفرنسية، وناشرا المنشورات التي يشرح فيها قضية بلاده أمام ممثلي الدول الغربية.⁽⁴⁾

ولم يكتف بذلك؛ بل تعدى إلى الكتابة الصحفية باللغة الفرنسية في جريدة الطان الفرنسية بحقائق ينقض فيها أوهام وأغاليط الاحتلال «وملخصا ما يدور بالجامع الأزهر من خطب السياسة كما أشار عليه ابن عمه الشيخ محمد عبد اللطيف دراز⁽⁵⁾ وهو يومئذ من رجال الثورة البارزين في المحيط القاهري» آنذاك.⁽⁶⁾

¹ - أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه: النبأ العظيم، تقدم عبد العظيم المطعني، دار القلم، الكويت، ط9، 2005م، ص 35، وفي كتابه "دستور الأخلاق في القرآن"، مؤسسة الرسالة، ط10، 1998، ص207.

² - حصاد قلم، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط1، 2004م، ص 347.

³ - محمد عبد الله دراز، دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، إعداد أحمد مصطفى فضيلة، ص 57.

⁴ - السيرة الذاتية بقلم محسن دراز من كتاب: محمد عبد الله دراز، دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، ص 14.

⁵ - عالم أزهري، من مواليد مركز دسوق عام 1890، كان من أوائل من فجروا ثورة 1919، فصل مرتين من الأزهر نتيجة مواقفه الجريفة المناهضة للاحتلال الإنجليزي، تولى مناصب عدة، أهمها: وكيل الأزهر، كما أسس في عام 1954، جماعة الكفاح لتحرير الشعوب الإسلامية، توفي سنة 1977، ينظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: محمد رجب البيومي، 2/243.

⁶ - النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: محمد رجب البيومي، 2/242.

كما عرف عنه _ أيضا _ تأييده لإلغاء المعاهدة المصرية الإنجليزية، عام 1951م، وكان في إعداد كتيبة طلبة الأزهر التي انخرطت في مقاومة القوات البريطانية بمنطقة قناة السويس.⁽¹⁾

كما قدم سنة 1952 مذكرة إلى القصر الملكي لفت فيها نظر «الملك فاروق إلى تدهور صورة الملكية، وإلى الأثر السيء الذي نتج عن العبث؛ الذي اندفع إليه القصر والوفد - حزب النحاس - للإضرار بهيبة الأزهر؛ الذي كان قد أدخلوه في الرهان السياسي، إلا أن ذلك كان بعد فوات الأوان»؛ إذ حدث بعدها حريق القاهرة، ثم الانقلاب العسكري ليلة 23 إلى 24 يوليو 1952م، ومغادرة فاروق مصر إلى منفاه.⁽²⁾

ومن الاهتمام بقضايا الوطن إلى مناصرة قضايا الأمة؛ فعندما كان بفرنسا «أيد علانية تحرير الدول العربية، فلسطين، والجزائر، والمغرب، وخالط ممثلي هذه الحركات في المنفى».⁽³⁾

ومن المشهور أن محمد عبد الله دراز أرسل في بعثة علمية إلى أعرق جامعات أوروبا، ولقد قدر للشيخ أن يغادر القاهرة إلى باريس تاركاً زوجته وأولاده التسعة، وقد آثر أن يسافر وحده ليدرس الحياة الاجتماعية في فرنسا؛ ليرى بنفسه هل يتيسر لأسرته العيش في فرنسا الشرقية المسلمة والمتمسكة بزيها؛ بحيث لا يؤثر ذلك على أخلاقها وتقاليدها، أم لا؟⁽⁴⁾

و في مايو 1937 م، استدعى الشيخ أسرته لتعيش بجواره في باريس، وهناك ألحق الأبناء بالمدارس، حيث لا فرق بين شرقي وفرنسي في التعليم.⁽⁵⁾

ومما يذكر هنا أن زوجته كانت حريصة كل الحرص على أن تسود في منزلها التقاليد الشرقية؛ فكانت اللغة العربية هي لغة التخاطب بين جميع أفراد الأسرة؛ حتى اللهجة المصرية الدارجة كانت حريصة عليها كل الحرص.⁽⁶⁾

¹ - من موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، بعنوان محمد عبد الله دراز، ص 02.

² - محمد عبد الله دراز، دراسات وبحوث بأفلام تلامذته ومعاصريه، إعداد أحمد مصطفى فضيلة، ص 17.

³ - المرجع نفسه، ص 17.

⁴ - حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن، للدكتور محمد عبد الله دراز: إعداد أحمد مصطفى فضيلة، دار القلم، الكويت، ط1،

205، ص 37.

⁵ - المرجع نفسه.

⁶ - مرجع سابق.

وإزاء اشتداد عنف الحرب، اتخذ منزلاً صغيراً معزولاً في الريف، تسكن فيه الأم وأولادها الصغار، بينما تابع الآخرون دراستهم في بليسيه Henri أو FEndin، للبقاء مع والدهم الذي لم يكن يرغب في الابتعاد عن مكاتب باريس، ولا عن أساتذة السوربون، وكوليج دي فرانس الذي كان له عمل معهم، وكانت سفارات الإنذار إذا انطلقت كان يشاهد دراز عند وصوله مع آخر الوافدين، وهو يحتضن بين ذراعيه ملفاً سميكاً من الأوراق المخطوطة، التي كانت تمثل فصول رسالة الدكتوراه المستقبلية. (1)

وقد شرع محمد عبد الله دراز في عام 1941 م، بعد أن انتهت حملة فرنسا وعود إلى باريس بعد سنة أمضاها في بوردو (بجنوب غرب فرنسا)؛ حين اقتربت الجيوش النازية من العاصمة الفرنسية، قد شرع في كتابة رسالته عن الأخلاق في القرآن⁽²⁾، بعد أن أكمل دراسته في اللسانس حتى حصل على الشهادات العليا الأربعة في الفلسفة، والمنطق، الأخلاق، علم النفس، وعلم الاجتماع، المطلوبة للسانس، وصادف أن آخر شهادة تحصل عليها كانت يوم دخول الألمان فرنسا. (3)

وفي عام 1942 م، استطاع دراز أن يلتحق بالسوربون مرة ثانية، وبدأت اتصالاته بالأساتذة، وعمل جاهداً على تقديم موضوع الرسالة للحصول على تصديق عليه قبل البدء في تأليف رسالته. (4)

هذا ولم يذكر المترجمون لسيرته عنه شيئاً في الفترة التي قضاها في باريس بين 1941 و1947 م، إلا حدثاً واحداً وقع في 8 يوليو 1944 م، حيث تعرض منزله بـ: Seine-et-oise لقصف من الطائرات الأمريكية، فهدمته و أصيبت زوجته وبعض أبنائه بجروح لم تكن خطيرة⁽⁵⁾، وقضت عليهم الضرورة الانتقال إلى منزل ريفي آخر بقريّة مجاورة؛ حيث كان هذا المنزل يتمتع بمخبأ في أسفل الدور الأول يعادل دورين تحت الأرض، كانوا قد اختبئوا فيه _ في إحدى الغارات _ اثني عشر يوماً موائية،

¹ - محمد عبد الله دراز، دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه: إعداد أحمد مصطفى فضيلة، ص 15-16.

² - الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز في آثاره العلمية: أنور الجندى، ضمن كتاب: محمد عبد الله دراز، دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، إعداد أحمد مصطفى فضيلة، ص 39.

³ - حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن: إعداد أحمد مصطفى فضيلة، ص 39.

⁴ - المرجع نفسه.

⁵ - السيرة الذاتية بقلم نجله محسن دراز، ضمن كتاب محمد عبد الله دراز، دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، إعداد أحمد مصطفى فضيلة، ص 17.

منتهزين فرصة هدنة بسيطة لبعض دقائق في التسلسل خلصة إلى الحديقة لقطع الثمار وذبح الدواجن لديهم.⁽¹⁾

واستمر على ذلك حتى ناقش رسالته في إحدى قاعات السوربون التسع في يوم 1947/12/15 م، فقبلت الرسالة وتحصل فيها على مرتبة الشرف الأولى.⁽²⁾

الفرع الثاني: نشاطاته ووظائفه بعد عودته إلى مصر إلى حين وفاته.

لما حقق دراز مهمته الحضارية التي تحمل بسببها - وعائلته - ويلات الحرب العالمية الثانية، ودرس بها الخراب الأخلاقي السائد في أوروبا آنذاك، رجع إلى بلاده الأم، ليضطلع - أيضا - بمهمات ووظائف كثيرة وشاقة كانت في أمس الحاجة إلى دراز وأمثاله، فاشتغل وانتدب لتدريس علم تاريخ الأديان بجامعة القاهرة في مارس 1948 م، ولتدريس علم الأخلاق في دار العلوم، ولتدريس التفسير في كلية اللغة العربية، ونال عضوية جماعة كبار العلماء اعتبارا من عام 1949 م⁽³⁾، كما أسندت إليه الكثير من أعمال اللجان: اللجنة العليا لسياسة التعليم، واللجنة الاستشارية للثقافة بالأزهر، والمجلس الأعلى للإذاعة الوطنية التي كان يخصصها بمخصص إذاعية في تفسير القرآن ودراسة أخلاقه الربانية.⁽⁴⁾

وقد كانت له نشاطات واسعة أثناء إقامته في فرنسا؛ فقد أسهم بفعالية في أنشطة "نوادي التهذيب" التي أسسها الفضيل الورتلاني⁽⁵⁾، والتي اهتمت بتعليم اللغة العربية، ونشر مبادئ الإسلام ومحاربة الرذيلة في صفوف المسمين المقيمين في فرنسا، كما كان على اتصال بجمعية العلماء الجزائريين، حين شارك في الأنشطة الثقافية والدعوية التي قامت بها في باريس، ومن خلالها تعرف على مالك بن نبي⁽⁶⁾؛ الذي طلب منه أن يقدم لبعض كتاباته، كما تواصل مع الإمام عبد الحميد بن باديس⁽¹⁾، في الجزائر حين تدخل لدى الأزهر لقبول الطلبة الجزائريين بالجامعة العريقة.⁽²⁾

¹ - حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن، إعداد أحمد مصطفى فضيلة، ص 38.

² - الأعلام، خير الدين الزركلي، 6/ 246.

³ - المصدر نفسه

⁴ - معجم المؤلفين: محمد رضا كحالة، 3/ 438.

⁵ - أديب ومصلح اجتماعي جزائري، ولد في قبيلة بني ورتيلان في سطيف، أقام في باريس 1936 - 1938، وانتقل إلى القاهرة، من أهم مؤلفاته "الجزائر الثائرة"، توفي سنة 1959، ينظر: الأعلام: خير الدين الزركلي، 5/ 153.

⁶ - مفكر إسلامي جزائري، ولد بالجزائر في مدينة قسنطينة سنة 1905م، درس القضاء في المعهد الإسلامي المختلط، وتخرج مهندسا ميكانيكيا من باريس، زار مكة، وأقام في القاهرة سبع سنوات، أصدر فيها معظم آثاره، كالظاهرة القرآنية ومشكلة الثقافة وغيرها، توفي سنة 1973 م، الأعلام: خير الدين الزركلي، 5/ 266.

هذا وقد مثل دراز مشيخة الأزهر في العديد من المؤتمرات الدولية؛ فمنها كلمته عن السلام والإسلام في مؤتمر الأديان بباريس سنة 1939 م⁽³⁾، ومثل المشيخة في مؤتمر الحقوق الدولية في باريس سنة 1951 م، ببحثه عن الربا، وكانت آخر المؤتمرات التي مثل فيها الأزهر مؤتمر الأديان العالمي في لاهور بباكستان سنة 1958، وكان بحثه الذي قدم حول: "موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها".⁽⁴⁾

لما مثل دراز الأزهر في لاهور بباكستان في مؤتمر الأديان، كان الكثيرون من تلامذته ومحبيه ينتظرون عودته إلى مصر، تشوقاً إلى علمه وتشوقاً إلى رؤيته، ولكن شاء الله أن تكون آخر محاضرة له؛ إذ لبي نداء ربه أثناء انعقاد المؤتمر وقبل أن يلقي كلمته بسكتة قلبية مفاجئة، وذلك في يناير 1958 م.⁽⁵⁾

وبعد أن عاد جثمانه إلى أرض مصر، على متن طائرة شيعت جنازته بعد أن صلى عليه في "الجامع الأزهر" وكان في مقدمة مشيعيه علماء الأزهر، وعارفو فضله من الشعب المصري، وكبار الشخصيات من مصر ومن العالم الإسلامي، في موكب رهيب، تعطلت فيه حركة المرور من الأزهر إلى أرض المدفن؛ إذ حين وصول أوائل مشيعيه إلى أرض المدفن كان آخرهم يبدأ سيره من ساحة الجامع الأزهر متجهاً إلى أرض المدفن.⁽⁶⁾

وقد حزن عليه العالم الإسلامي كثيراً، ونعاه بعض العلماء، كما في قول الشيخ محمود شلتوت عنه: «لقد مات مشعل النور الذي أطفأ مشاعل الجهل».⁽⁷⁾

و قول الشيخ عبد الحلیم محمود⁽¹⁾: «لقد فقدنا اليوم آخر عالم من رعييل كبار العلماء الذين تخرجوا من الأزهر، ليكن الله في عوننا وفي حماية الإسلام».⁽²⁾

¹ - هو العلامة المصلح الجزائري الشهير، ولد سنة 1889 م، بمدينة قسنطينة بالجزائر، تعلم في الزيتونة ثم رجع إلى الجزائر ليقود حركة الإصلاح الديني، حارب الاستعمار والطرقية، وأسس الجرائد والجمعيات، فسر القرآن الكريم كاملاً شفوياً، وجمعت آثاره في 4 مجلدات، توفي سنة 1940 م، ينظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: محمد رجب البيومي، 1/81 وما بعدها.

² - محمد عبد الله دراز، نصف قرن على رحيله، عبد الرحمان حللي: مجلة المعرفة بالإنترنت، ص 01.

³ - النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: محمد رجب البيومي، 2/243.

⁴ - يرجع: حصاد قلم، محمد عبد الله دراز، تحقيق أحمد مصطفى فضيلة، دار القلم، الكويت، ص 363.

⁵ - النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: محمد رجب البيومي، 2/245.

⁶ - محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه: إعداد أحمد مصطفى فضيلة، ص 173 - 174.

⁷ - مرجع سابق، ص 174.

الفرع الثالث: أهم شيوخه، زملائه، وتلاميذه.

قد أوتي محمد دراز البركة من الله، والقبول عند الناس، كما كان -قبل ذلك- رجلاً شغوفاً بالمعرفة والثقافة، محباً للعلم وأعلامه، ولذا لا نعجب من كثرة شيوخه، وزملائه وتلاميذه.

فكان من أهم أساتذته: والده عبد الله دراز، وإبراهيم الجبالي، ومحمد الخضر الحسين، ومحمد سلامة،⁽³⁾ وغيرهم كثير.

وكان من بين وأهم زملائه المعاصرين له: محمود شلتوت، ومحمد أبو زهرة،⁽⁴⁾ وحسنين محمد مخلوف،⁽⁵⁾ وعبد الوهاب خلاف،⁽⁶⁾ ومالك بن نبي، كما راسل ابن باديس وغيره.

وأما تلاميذه فهم أكثر جداً، ومن أهمهم: السيد: محمد بدوي،⁽⁷⁾ ويوسف القرضاوي، وعبد العظيم المطعني، وعبد الصبور شاهين، وغيرهم.

¹ - مفسر، أصولي، فقيه، متصوف مصري معاصر، ولد سنة 1910 م، درس في السوربون وتحصل فيها على شهادة الدكتوراه سنة 1940، ثم ترقى بعدها مناصب التدريس، ثم وزارة الأوقاف ثم مشيخة الأزهر سنة 1973 م، توفي سنة 1998 م، ومن مؤلفاته: الفلسفة اليونانية، وأرونا والإسلام، والقرآن في شهر القرآن وغيرها، ينتظر: الأزهر في ألف عام: محمد عبد المنعم خفاجي، 396/2-397.

² - محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأفلام تلامذته ومعاصريه، إعداد مصطفى فضيلة، ص 18.

³ - عالم أزهري مشارك في علوم القرآن والمنطق والمناظرة، تخرج من الأزهر، وعين مدرسا في كلية أصول الدين، من مؤلفاته: منهج العرفان في علوم القرآن، توفي سنة 1941م، ينظر معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، رقم 13509، 328/3.

⁴ - علامة أصولي فقيه مصري، كتب أكثر من 40 كتابا، ولد بمحافظة الغربية سنة 1898م، وترقى في مدارس العلم حتى تحصل على علمية القضاء الشرعي سنة 1924م، واشتغل بالتدريس في الأزهر، توفي سنة 1974م، يراجع النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: محمد رجب البيومي، 2/ 275 وما بعدها.

⁵ - من كبار علماء الأزهر، ولد بالقاهرة سنة 1890م، تخرج من مدرسة القضاء العالمية سنة 1914م، والتحق بعدها بالتدريس بالأزهر، ثم التحق بسلك القضاء، ثم ترقى في المناصب حتى تولى منصب مفتي الديار المصرية سنة 1940م، وأصدر فتاواه في مجلدين كبيرين، وله أيضا شرح البيقونية في الحديث، توفي سنة 1990م، ينظر: موسوعة نساء ورجال مصر: لمعي المطيعي، ص 316 وما بعدها.

⁶ - محدث أصولي وفقيه مصري، ولد سنة 1888م، من أثاره: علم أصول الفقه، وتاريخ التشريع الإسلامي، توفي سنة 1956م، معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة: 221/4.

⁷ - صهر دراز، ومتخصص في عام الاجتماع، تخرج من كلية الآداب حاليا، سنة 1938، ثم سافر إلى فرنسا وحصل من جامعة السوربون على شهادة ليسانس في الفلسفة، ثم على الدكتوراه في علم الاجتماع سنة 1945، اشتغل أستاذا جامعا في مصر وفي بلاد عربية أخرى، من مؤلفاته: الأخلاق بين الفلسفة والاجتماع، ينظر: محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأفلام تلامذته ومعاصريه، إعداد أحمد مصطفى فضلية، دار القلم، الكويت، ط1، 2007، ص 240_241.

الفرع الرابع: مواقف جريئة وآراء سديدة.

كان الشيخ محمد عبد الله دراز يحمل بين جنبيه نفساً أبيه، وهمة عالية تأبى الضيم، وتفتخر بدينها وتعتر بإسلامها، وقد صدرت عنه مواقف جريئة دلت على هذا الإباء وهذه العزة، ولعل أهمها يتمثل فيما يلي:

– استمساك بالحق وتمثل روح الإخوة الإيمانية:

فقد حدث أن أخبرت السفارة المصرية الطلبة المصريين والجالية المصرية بأوروبا أثناء اشتداد الحرب العالمية الثانية، بأن هناك فرصة سانحة (وربما تكون الأخيرة) للعودة إلى الوطن، وذلك بالمرور بسويسرا وتركيا، فرفض دراز أن يرحل قائلاً: «إن مهمتي لم تنته بعد» و «أعلم أن الله سيحميننا»؛ بل أشد من ذلك سعيه إلى المفوضية الألمانية مرارا في قضية اعتقال عدد كبير من الطلبة المصريين سنة 1940م، بأمر من الحاكم العسكري Kommandantur، وذلك من أجل إطلاق سراحهم، ولم ييأس من ذلك – بعد مفاوضات طويلة ورغم خطورة الوضع الأمني – حتى تحقق له مراده، وأطلق سراح إخوانه المصريين. (1)

– تمسك بروح الإصلاح واعتزاز بشخصية العالم المسلم:

كان الضباط الأحرار يعرفون دراز من أحاديثه الإذاعية، فعرضوا عليه – كما أخبر القرضاوي – منصب مشيخة الأزهر، فاشتراط لذلك توفر الاستقلالية والضمان الكافي في إطلاق يده في إصلاح الأزهر،⁽²⁾ فنصبوا له وشاية من بعض زملائه الذين كانوا يخشون أن يكشف بنزاهته تحجرهم وزيفهم الوظيفي، فلما علم بذلك أصر على حضور رئيس مجلس الثورة آنذاك، وحضور أعضاء لجنة الضباط الأحرار، على أن يقدم له الاعتذار الكافي الصريح من صاحب هذه المكيدة.⁽³⁾

– جهاد الأعداء وتعبئة لتحرير الوطن:

لقد أثبت محمد دراز إيمانه بالله وارتباطه بالوطني وولائه لقضايا أمته ووطنه، فلم يهن ولم يضعف، ولم تخر غريمته ويخفق صوته ضد كيد الاحتلال الإنجليزي وضربات حلفاءه لأرض الكنانة؛ بل رفع عقيرته بالدعوة إلى جهاد الأعداء والتعبئة الحقيقية قائلاً: «لنعبئ قوانا إذن تعبئتين: تعبئة عسكرية بالتسلح

¹ – المرجع نفسه، ص 16.

² – مقدمة كتاب زاد المسلم، الدين والحياة، محمد عبد الله دراز، ص 13.

³ – محمد عبد الله دراز: دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 18.

المطرد والتدريب المتواصل، وتعبئة روحية بالإيمان القوي، والعزم الأدي... ولتكن عنايتنا بهذه التعبئة الروحية أتم وأعم وألزم وأدوم...»⁽¹⁾.

كما حذر - بشجاعته الأدبية - بعض الجهات الداخلية للجبهة الوطنية بسعيها إلى التفريط بزيادة هذه التعبئة الثنائية، فقال: «إن هذه الشعلة الوطنية المقدسة التي تراها اليوم، لا ينبغي أن يطفئ نارها كاتب ماجن، يبشر بالتحلل والإباحية، إن هذه الأنشودة الحماسية القوية... لا ينبغي أن يفسد نغمتها داعية فاتن بروح الإلحاد والوجودية»⁽²⁾.

كما لم يتوان - لحظة واحدة - الدعاء لشهداء الوطن والحرية حتى أثناء تفسيره لبعض سور القرآن، ففي أواخر سورة غافر نقرأ هذه الكلمة الصداقة بالحق في قوله «ألا فلتقر أرواح الشهداء الذين لم يذوقوا طعم الانتصار في حياتهم، فإن شجرة الإصلاح إذا سقيت بدمائهم نمت وترعرعت وآتت أكلها»⁽³⁾.

المطلب الثاني: مكانته مؤلفاته العلمية.

لقد كان محمد عبد الله دراز - كما قيل «نمط ممتازا عرفه الناس بتفردته العلمي مؤلفا ومحاضرا وأستاذا، كما عرفوه بإيمانه القوي مسلما، رقيق العاطفة، قوي اليقين»⁽⁴⁾، فقد جمع بين خصائص العقل النير بالعلم، تمثل في مؤلفات بديعة النسيج تركها لنا، وبين خصائص القلب العاقر بالتقوى، عرفنا ذلك من سيرته العطرة، ومن ثناء العلماء والمفكرين عليه.

¹ - زاد السلم للدين والحياة، محمد عبد الله دراز، ص 284.

² - المصدر نفسه، ص 284.

³ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، تحقيق أحمد مصطفى فضلية، ص 159.

⁴ - النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، محمد رجب البيومي، 2/ 252.

الفرع الأول: مكانته العلمية.

للفقيه -رحمه الله- مزايا علمية وشمائل أخرى خلقية طبع عليها، وأخرى اكتسبها بتربية روحية شاقة، وجهاد علمي فريد.

أولاً: فكر تركيبي، ونفس أبية، وأخلاق ربانية:

اتسم محمد عبد الله دراز بغزارة المعرفة، واتساع الثقافة؛ حيث جمع في ذلك بين ثقافتين متغايرتين، ووفق بين حضارتين متباعدتين أصولاً وفلسفة وفكراً؛ فهو كما وسمه يوسف القرضاوي «ابن الأزهر وابن السوربون»⁽¹⁾ وقد أتاحت له الدراسة المعمقة لكل من الثقافة الإسلامية، والثقافة الغربية من منابعهما الأصلية بناء رؤية تركيبية تحليلية فريدة، فكان متعمقاً في روحانيات الغزالي،⁽²⁾ والحكيم الترميذي،⁽³⁾ وأبي طالب المكي،⁽⁴⁾ متضلعا بفلسفة "ديكارت"،⁽⁵⁾ و "برجسون"،⁽⁶⁾ وقد امتاز بفضل هذا الفكر التركيبي برحابة الأفق، وعمق التحليل، ودقة الاستدلال، مع حجاج مقنع، وبلاغة ساحرة استمدتها من بلاغة القرآن الكريم.⁽⁷⁾

¹ - مقدمة كتاب زاد المسلم للحياة: محمد عبد الله دراز، ص 11.

² - حجة الإسلام، فيلسوف متصوفاً، له نحو مائتي مصنف، مولده في الطابران بجراسان سنة 450هـ، وتوفي فيها سنة 505هـ، من كتبه إحياء علوم الدين، ينظر سير أعلام النبلاء: الذهبي، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1، 2003، رقم 4885، 501/11_513.

³ - باحث، صوفي، من أهل ترمذ، نفي منها لأنه ألف كتاب "ختم الولاية وعلل الشريعة"، اضطرب المؤرخون في تحديد سنة وفاته، والراجح أنها سنة 320هـ، من تصانيفه: "نوادير الأصول في أحاديث الرسول" و "المسائل المكنونة"، ينظر: الأعلام: خير الدين الزركلي، 6/272.

⁴ - واعظ، زاهد، فقيه، من أهل الجبل (بين بغداد وواسط)، نشأ واشتهر بمكة، رحل إلى بغداد وتوفي بها سنة 386هـ، 996م، له كتاب: قوت القلوب في التصوف: ينظر: الأعلام خير الدين الزركلي، 6/247.

⁵ - فيلسوف فيزيائي ورياضي فرنسي، يعتبر مؤسس الفلسفة الحديثة، ولد سنة 1596م، وتوفي سنة 1650 ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، إشراف مانع الجهني، الناشر دار الندوة العالمية، 1/149.

⁶ - فيلسوف يهودي فرنسي، عاش ما بين 1859 و1941، حصل على جائزة نوبل في الأدب سنة 1927م، ثنائي في فلسفته من مؤلفاته: الزمن والإرادة الحرة، موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة، سلسلة كتب الشخصيات رقم 20، 56/52.

⁷ - خير العقول المسلمة في القرن العشرين: محمد الشنقيطي، مجلة العصر بالإنترنت، ص 3.

قال عنه أنور الجندي⁽¹⁾ في ذلك: «استطاع أن يقتحم آفاق الفكر الغربي ويدرس اللغة الفرنسية، ويكتب بها رسالته التي يناقش فيها أساطين الفلاسفة الغربيين في نظرياتهم... وقوامه في هذا كله فهم عميق للقرآن، وتدبر عجيب له، وقدرة على تبليغ العبارة بأصفى لغة...»⁽²⁾.

كما كان - رحمه الله - متصفا بشمائل نادرة أجملها عبد الله الأنصاري⁽³⁾، فعد منها: «الفطنة، الذكاء، والذكاء، والحلم، والأناة، والتواضع، والوداعة، والوفاء، والجرأة، والإقدام، والشهامة، والصلابة في الحق، ولباقة الحديث، ولين العريكة»⁽⁴⁾.

ولعل أهم مزية التي تعد مفتاحا لشخصية الشيخ هي مزية التقوى والورع، والتي اكتسبها من خلال القراءة اليومية لسدس القرآن الكريم وفي التهجد والصلاة، وقد وصفه المقربون منه بأنه: «لا يشاهد في خلوته إلا قارئاً للقرآن أو مصلياً»⁽⁵⁾، وأعجب من هذا ما وصفه به زميله محمد أبو زهرة الذي كان مصاحباً له قبل إقامته في فرنسا، قال: «وقد عاد بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة الجهد، وتوقعنا أن نجدنا تغيراً في مظهره أو ملبسه أو عاداته أو تدينه كما رأينا في بعض من ذهبوا وأقاموا بعض إقامته، ولكننا وجدناه كما تركناه خلقاً وديناً وإيماناً، فأثبت بذلك سلامة جوهره؛ لأن جيد المعادن تجلوه التجارب، وتصقله الحوادث من غير أن يفنى وييلى»⁽⁶⁾.

وقد عرفنا بعض مظاهر عزته، وإبائه نفسه، فلم يكن - رحمه الله - ينجع إلا للحق، ناصر القضايا العربية التحريرية، وناهض طغيان الاستعمار واستبداد الحكام، وهو في كل ذلك العالم المسلم الأبي الصادق.

ومن ذلك أيضاً أنه اتسم برحابة الصدر، وسعة الأفق وسماحة عجيبة للمخالفين والمناقشين له؛ فقد وصفه مرة صهره محمد بدوي بقوله: «كنت مع الطلبة العرب في باريس نلتمس في رحاب الأستاذ

¹ - مفكر إسلامي مصري، ولد في أسيوط سنة 1335هـ، تشبع بالثقافة الإسلامية فأنتج مؤلفات كثيرة جداً، أهمها: أعلام القرن الرابع عشر، علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، دار الشواف، القاهرة، ط4، 1992، ص 45.

² - محمد عبد الله دراز، دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 53.

³ - من مواليد مدينة الخور بقطر سنة 1340هـ، تعلم في السعودية وعمل فيها، ثم عاد إلى قطر ليشغل وظائف عدة، أهمها رئاسة إدارة الشؤون الدينية والإرشاد الوعظي والتعليمي، كان عضواً في الكثير من الجامعات الدولية، كما حقق كما هائلاً من الكتب، ونشر مطبوعات مدرسية متنوعة، للتفصيل يراجع: علماء ومفكرون عرفتهم: محمد المجذوب، ص 85.

⁴ - مقدمة كتاب من خلق القرآن: محمد عبد الله دراز، مطبوعات إدارة الشؤون الدينية والأوقاف بدولة قطر، 1979 م، ص أ-ب.

⁵ - المرجع نفسه، ص د.

⁶ - محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، إعداد مصطفى فضلية، ص 81.

الجليل ما نحتاج إليه من رعاية في وقت الشدة... وكان - رحمه الله - لا يضيق بما نثير من آراء متطرفة أحيانا؛ بل يفندها بروح العالم المستنير في سماحة ورحابة صدر، ولا يزال بنا حتى يقنعنا بوجهة نظره المستندة إلى البرهان العلمي والمنطقي»⁽¹⁾.

ثانيا: **ريادة وتجديد، وشغف بعوالي الأمور، وجدة الأفكار**: قد كان ديدن محمد دراز - منذ الصغر - التمسك بعوالي الأمور، والابتعاد عن سفاسفها؛ فقد رزق همة عالية، وشخصية أبية، لا ترضى إلا أن تترقى أعلى درجات الإبداع والتفوق العلمي، متمثلا في ذلك قول الشاعر:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم.⁽²⁾

وقد فضل - كما قال بدوي - حينما بعث إلى السوربون: «أن يسير في الطريق الأكاديمي من بدايته ويفعل ما يفعله طلاب العلم من الفرنسيين الذين يعدون أنفسهم إعدادا أكاديميا رصينا... ونجد أثر هذا التكوين العلمي الرصين في رسالته - دستور الأخلاق في القرآن الكريم - حيث لم يكتف بتوضيح وجهة النظر الإسلامية؛ بل كان يجتليها بمقارنتها بآثار المفكرين والفلاسفة»⁽³⁾.

ومن مظاهر هذه الريادة الفكرية عند دراز، أنه لم يكن يرضى تقليد آراء الفقهاء والفلاسفة والمفكرين، إلا ما كان منها موافقا للحقائق العقلية والدينية؛ فهو صاحب فكر ريادي، واجتهاد عميق، أو كما وصفه محمد أبو زهرة: «عالم فقيه عميق النظرة... يتجه إلى طلب الحقيقة، لا يريد سواها، ولا يبغى عوجا ولا أمتا، لا يستهويه بدع الآراء، ولا يستطير لبه بذية الأفكار، كما لا يوقفه عن طلب الحقيقة تقليد لرأي سابق؛ فلا يتبع الرجال على أسمائهم، ولا يأخذ بريق الجديد ولمعانه؛ بل هو مستقل التفكير في فهم النصوص وطلب الحقائق لا يقيد به إلا قيد واحد وهو النصوص القرآنية والنبوية»⁽⁴⁾.

وقد نتج عن هذه الهمة العالية هذا الاجتهاد المستقل، نفوره من الإعادة والتكرار لما سبق درسه؛ وإنما كان مشغولا باستنباط الآراء الجديدة، وتقديم الأفكار البديعة، ولذا تميزت أعماله العلمية بالجدة والطرافة، وعمق الأفكار إضافة إلى دقة التعبير، وجماليات الأسلوب.

¹ - مقدمة السيد محمد بدوي لكتاب دستور الأخلاق في القرآن لمحمد عبد الله دراز، ص ز.

² - بيت شعري للشاعر المتنبي، ينظر: شرح ديوان أبي الطيب المتنبي: لأبي البقاء العكبري، دار المعرفة، بيروت، د.ت، 4/119.

³ - مقدمة دستور الأخلاق في القرآن الكريم، ص ح.

⁴ - محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 81.

يقول عنه محمد رجب البيومي: «لم يكن يكتب غير الجديد الطريف الذي لم يسمع به القارئ من قبل، مهما تنوعت ثقافته واتسع إدراكه... فهو لا يدرس غير المفيد النافع، ولا يؤلف إلا في غير المجهول الذي تتطلع الأنظار إلى كل كلمة من كلماته...»⁽¹⁾.

ثم بيّن سبب ذلك فقال: «إنه يؤثر البحث الهادئ دون عجلة، ويضع الخطة المحكمة دون تسرع، ولا يهمله طال الأمد في بحثه أم قصر؛ إن الذي يهمله جدا أن يستخرج من المعلوم مجهولا، وأن يكتب في موضوع قد اشتهر بين الناس ليأتي بما يجهل الناس...»⁽²⁾.

ولعل مصداق ذلك تلك البحوث العلمية البديعة التي نسجها يراع محمد عبد الله دراز، أصالة وجدة وطرافة، ففي الجانب الأخلاقي في الإسلام أسس نظرية قرآنية متكاملة، بعد أن نقد جميع الدراسات السابقة بقوله: «وهكذا لم ينهض أحد - فيما نعلم - حتى الآن باستخلاص الشريعة الأخلاقية من القرآن في مجموعه... وتلك المهمة التي انتدبنا للوفاء بها هنا»⁽³⁾.

ولنستمع إلى هذا القول الواثق له بنفاسة ما جاء به: «فلم يكن شروعنا في هذا المؤلف الجديد عن القرآن عبثا نضيع فيه وقتنا، ونثقل به على قرائنا، ونزحم به مكتباتنا، فإذا لم يأت عملنا بشيء جديد في عالم الشرق والغرب، فلن يكون سوى مضیعة وزحمة وإثقال»⁽⁴⁾.

إن هذه الجدة الفكرية التي كان يحرص عليها دراز - دائما - قد عكست معايير ثلاثة أساسية شكلت فكره القرآني هي: «الجمع بين ثقافتی الشرق والغرب، بين الفهم الشرعي والموقف الشرعي، بين عمق الفكرة وإشراق الروح»⁽⁵⁾.

يضاف إلى هذا أيضا أن الله تعالى منحه «قوة روحية فائقة، وحبا وإخباتا لله عز وجل، لذلك كانت آثارها⁽⁶⁾ على شاكلة باطنهما من توهج الروح، وذوب النفس، وعصارة القلب، مع إخلاص النيات، والتجرد لله عز وجل»⁽⁷⁾.

1- النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: محمد رجب البيومي، 2/ 239.

2- المرجع نفسه.

3- مقدمة كتاب "دستور الأخلاق في القرآن"، محمد عبد الله دراز، تعريف عبد الصبور شاهين، ص 08.

4- المصدر نفسه، ص 201.

5- خير العقول المسلمة في القرن العشرين: محمد حبيب الشنقيطي، مقال بمجلة العصر في موقعها بالإنترنت، ص 01.

6- هما الضمير هنا عائد إلى: محمد عبد الله دراز، وحسن البناء - رحمهما الله - .

7- تقديم عبد الستار فتح الله عيد لكتاب "حصاد قلم"، لمحمد عبد الله دراز، ص 8.

ثالثا: دراز ومدرسة الإمام محمد عبده القرآنية الإصلاحية:

لئن كان محمد دراز - رحمه الله - لم يتلمذ مباشرة على يد محمد عبده؛ إذ توفي هذا الأخير في السنة التي تخرج فيها دراز من المعهد الإسكندري الديني (1905 م)، إلا أنه تشبع من أفكاره القرآنية الإصلاحية، وتأثر بدعوته الإصلاحية الشمولية تأثرا كبيرا؛ إذ كان الوالد - عبد الله دراز - المكلف بأوامر من محمد عبده بإدخال المناهج الجديدة في إصلاح التعليم الأزهرى.

يقول دراز - في حديثه عن إصلاحات محمد عبده -: «المرحوم الشيخ محمد عبده من أولئك الرجال العظام الذين صفت نفوسهم فاتصلت بأوج الفضيلة، وأشرقت بصيرتهم، فتكشفت لهم أسرار الحياة الصحيحة النبيلة»⁽¹⁾.

و قد لخص لنا حقيقة الرسالة الإصلاحية التي اضطلع محمد عبده القيام بها فقال: «فقد أجهد نفسه في إصلاح التعليم الديني، وتقويم الأخلاق مبتغيا بذلك إصلاح أمته»⁽²⁾، وهذه هي الرسالة التي عهد دراز إلى نفسه - وغيره من نجباء مدرسة محمد عبده - الجهاد من أجل تحقيقها، وذلك تحت لواء النهضة الدينية والاجتماعية الحديثة التي سعت إلى إبراز هدايات الله في الأنفس والآفاق، ومحاسن الشريعة الإسلامية وصلاحتها لكل زمان ومكان.

وقد ارتبط دراز بالأزهر الشريف ارتباطا وثيقا، وكان يرى أن في إصلاح الأزهر إصلاح للأمة الإسلامية جمعاء؛ كيف لا والأزهر «هو قبل كل شيء، مثابة المتفقهين في الدين، يحج إليه في كل عام ألوف من الطلاب من كل فج ليتزودوا منه غذاء عقولهم وأرواحهم، وهو من وراء ذلك قبلة المسلمين الذين تتباعدهم الديار»⁽³⁾.

وقد تتبع الإصلاحات الدينية التاريخية لمناهجه التعليمية، ورأى أن أعظمها أثرا إصلاحات محمد عبده، ومذكرة المراغي التي ساندها بروحه وقلمه؛ ولكنه - أيضا - رأى أن للأزهر رسائل أخرى - فوق الرسالة المدرسية - يجب أن يؤديها: في تخريج المصلحين الاجتماعيين من أجل تنظيم السلوك الإنساني

¹ - محاضرة لمحمد دراز بعنوان: إصلاحات الشيخ محمد عبده، ضمن كتب: دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية: لمحمد عبد الله دراز، تحقيق أحمد مصطفى فضلية، دار القلم، الكويت، ص 195.

² - المصدر نفسه، ص 184.

³ - محاضرة بعنوان: الأزهر الجامعة القديمة الحديثة ضمن كتاب: حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، تحقيق أحمد مصطفى فضلية، دار القلم، الكويت، ط1، 2004، ص 335.

تنظيماً فعلياً وفق مثل الإسلام ومبادئه الفاضلة، وفي توحيد شعوب الإسلام، وتحقيق الاستقرار في بلادهم، ثم في تحقيق السلام العالمي بين القوى المتناحرة.⁽¹⁾

كما اهتم أيضاً بالإصلاح الأخلاقي في الإسلام، ورأى فيه العلاج الناجع لأدواء البشرية والحزب الاجتماعي والأخلاقي السائد في عصرنا الحاضر - خاصة في أوروبا -؛ وذلك بما أبرزه من دقة وفعالية القيم الأخلاقية القرآنية والنبوية في إطار نظرية قرآنية إصلاحية ذات أطر وجوانب متعددة؛ فمنها الإصلاح التربوي، والإصلاح الدعوي، والإصلاح العقائدي الديني، والإصلاح الاجتماعي الأسري، والإصلاح الاقتصادي، وغير ذلك من جوانب الحياة الفردية والاجتماعية والدولية مما تمس الحاجة فيها إلى تلمس هدايات القرآن وإصلاحاتها الواقعية خاصة للمجتمع الغربي، فلقد قال دراز: «وحتى نري علماء الغرب الوجه الحقيقي للأخلاق القرآنية»،⁽²⁾ ولقد كان همه - في ذلك كله - أن يصبغ الجميع بهدايات الإسلام، وأن يسعدوا بثمراته وتوجيهاته، ولنستمع إليه يعالج الأخلاق الغربية بهداية القرآن بلهجة مشفقة: «ومن أسف أن الصراع من أجل رفاهية الحياة ليس قريباً من النهاية، على الرغم من تقدم العلم، وإبداع الفن، بل وربما كان ذلك بسبب هذا التقدم... فمن الضروري أن نرقبها... حتى نمنع تركيبها الصناعي من التفسخ...».⁽³⁾

لقد تشبع دراز - رحمه الله - بالقرآن الكريم في رؤاه الإصلاحية، وكان بحق من علماء المدرسة القرآنية التي واجهت الغرب المادي فحافظت على أصالة فكرنا وهوية ثقافتنا، فكل «صفحة كتبها محمد عبد الله دراز تعلن أنه تلميذ القرآن، وأن أستاذية القرآن هي التي جعلته يبصر الكون والتاريخ والحياة برؤية إيمانية جامعة تستوعب الأشياء، وتمنح عقله التوهج والتألق لينفذ غلى ما وراء الأشياء، ويفسر حركة الحياة تفسيراً جامعاً للعوالم المنظورة، والعوالم غير المنظورة».⁽⁴⁾

الفرع الثاني: مؤلفاته العلمية.

لم يكن محمد عبد الله دراز - رحمه الله - غزير التأليف، رغم أنه كان «من علماء الموسوعيين الذين جمعوا بين علوم الشريعة، وثقافة العصر، وأجاد الفرنسية إجادته لعلوم العربية»،⁽⁵⁾ إلا أنه لم يكن

¹ - يراجع: حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 349 - 352.

² - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 04.

³ - المصدر نفسه، ص 376.

⁴ - مقدمة كتاب "النبا العظيم" لمحمد عبد الله دراز، ص 15.

⁵ - مقدمة كتاب زاد المسلم للدين والحياة: محمد عبد الله دراز، ص 11.

يكتب غير الجديد الطريف، والمؤثر - بأسلوب بديع - في الجهات المتلقية للخطاب الإسلامي؛ إذ «العبرة لدى الدارسين تعظم بجودة التأليف لا بكثرته، وبطرافته لا بتقليده».⁽¹⁾

فاقت هذا المؤلفات العشر كتب، وأوصلها بعضهم إلى أربعة عشر كتابا، تنوعت منهجا وتأليفا؛ فبعضها كان تأليفا علميا خالصا، فرضته المنهجية العلمية في إعداد الرسائل الأكاديمية أو في تقديم الدروس والمحاضرات في مدارج الجامعة، وذلك حال بعض مؤلفاته ك: «دستور الأخلاق في القرآن» و «مدخل إلى القرآن الكريم» و «النبأ العظيم» و «الدين» والتي خضعت لمباحثها لدراسة تحليلية منطقية، وتاريخية استقرائية، ونقدية مقارنة، نقلتها من السياق الثقافي العربي، إلى السياق الثقافي والفكري العالمي.

وقد اعتمد نفس المنهج في مقالاته العلمية التي دمجها ودرس - من خلالها - موضوعات عدة؛ قدم بعضها أو أغلبها في محاضراته الملقاة في المؤتمرات الدولية، كموضوع: نظرية الربا في الإسلام الذي قدمه في مؤتمر الشريعة الإسلامية بباريس في 07 من أغسطس (أوت) سنة 1951م،⁽²⁾ وكموضوع: الإسلام والسلام العالمي الذي ألقاه دراز في مؤتمر الأديان العالمي في باريس سنة 1939م،⁽³⁾ وكموضوع: موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها، الذي عزم تقديمه في الندوة العالمية للإسلاميات بلاهور في باكستان سنة 1958م،⁽⁴⁾ ولكنه وافته المنية هناك، وكموضوع الإسلام والقتال الذي نشر في مجلة الأزهر⁽⁵⁾ ونشرت - بعد ذلك - الموضوعات الثلاثة الأخيرة في كتاب حصاد قلم.⁽⁶⁾

وأما باقي المؤلفات والمقالات فقد كانت خواطر قرآنية، وتأملات إسلامية، نشر بعضها في أحاديثه الإذاعية عبر أثر إذاعة القاهرة آنذاك كفصول كتابه " زاد المسلم للدين والحياة"، كما حققه أحمد مصطفى فضلية، أو بعنوان "من خلق القرآن" كما حققه عبد الله الأنصاري، ومنها أيضا بعض فصول كتابه "حصاد قلم"،⁽⁷⁾ أما البقية منها فكانت تأليف خاصة بقيت رهينة مكتبته الخاصة، حتى حققها

¹ - ينظر مقدمة كتاب حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 16-17.

² - محمد عبد الله دراز: دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، إعداد أحمد فضلية، ص 279.

³ - المرجع نفسه، ص 300.

⁴ - المرجع نفسه، ص 293.

⁵ - مجلة الأزهر، الجزء الأول، المجلد الرابع والعشرون، غرة محرم سنة 1372 هـ، سبتمبر 1852م، ص

⁶ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 325، 355، 363.

⁷ - المصدر نفسه، ص 296-323، تحت عنوان: المجتمع الصالح وكيف يتكون

أحمد مصطفى فضلية، وأخرج جملها إلى النور بطباعتها في مطبعة دار القلم المشتركة بين الكويت والقاهرة، حتى تلك المحاضرات التي كان يلقيها على طلبته في مادة الأخلاق، في كتابه "دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية"، ومنها أيضاً: "عقائد الإيمان وشرائع الإسلام"، و "نظرات في الإسلام"، و "حقيقة الوحي" و "الميزان بين السنة والبدعة" وغيرها.

أولاً: كتابا "دستور الأخلاق في القرآن" و "مدخل إلى القرآن الكريم": وهما من أهم مؤلفات محمد عبد الله دراز العلمية الأكاديمية؛ تقدم بها إلى جامعة "السوربون" بفرنسا للمناقشة بتاريخ 15/12/1947م، ليس فقط من أجل الحصول على درجة الدكتوراه؛ فقد كان يكفيه أقل من ذلك، ولكنه كان - كما قال عبد الصبور شاهين - «يحمل في ضميره رسالة هذا الدين، الداعية إلى السلام، في فترة كانت أوروبا خلالها، بل العالم كله من حوله، كتلة ملتهبة من الصراع والدمار، وأسوأ ما قاد أوروبا والعالم معها إلى ذلك المصير المحزن هو بلا شك الخراب الأخلاقي».⁽¹⁾

ولهذا «قدر دراز أنه مبعوث الأزهر، وأن عليه أن يصحح أخطاء من جحدوا الإسلام عن عمد أو جهل، وما دام لديه المنطق الصحيح، فخير له أن يخوض المعركة مع خصومه الذين هم في الوقت نفسه أساتذته الفاحصون والمشرفون»،⁽²⁾ فكانت الرسالة الأولى في التأصيل لعلم الأخلاق القرآني من الناحيتين النظرية والتطبيقية، وكانت الرسالة الثانية الفرعية (المدخل)، لتصحيح الأخطاء المتداولة في أوروبا عن كتاب الله، بأدلة عقلية منطقية، وبلهجة علمية مهذبة.

تھيمن على الرسالة الأولى فكرة أساسية هي «أن الحاسة الخلقية انبعاث داخلي فطري، وأن القانون الأخلاقي قد طبع في النفس الإنسانية منذ نشأتها».⁽³⁾

ثم إن هناك فكرة أخرى ألح عليها المؤلف دراز وهي «أنه لا مكان للأخلاق بدون عقيدة، والعقيدة هنا تتصل بالأخلاق ذاتها، ومعناها الإيمان بالحقيقة الأخلاقية كحقيقة قائمة بذاتها تسمو على الفرد، وتفرض نفسها عليه...».⁽⁴⁾

¹ - في كلمته التعريفية في مقدمة: دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص: ك و

² - النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: محمد رجب البيومي، 2/ 248.

³ - في تقديم السيد محمد بدوي، المصدر نفسه، ص: ي ب

⁴ - المصدر نفسه، ص: ي د

وقد كان القرآن الكريم نقطة ارتكاز، ومنطلقاً أساساً له في إبراز الطابع العام للأخلاق المستمدة من نصوص القرآن والسنة، وتفوقها على آراء المفكرين والفلاسفة مسلمين منهم أو غير مسلمين؛ مقسماً هذه الرسالة المترجمة إلى العربية في حدود 780 صفحة إلى ما بين كبيرين:

الباب الأول: عن الوجهة النظرية للأخلاق القرآنية، وقد جاء في فصول خمسة تتحدث عن الإلزام، والمسؤولية، والجزاء، والنية ودوافعها، والجهد.⁽¹⁾

والباب الثاني: عن الأخلاق العملية، وقد جاء في خمسة فصول تتحدث عن الأخلاق الفردية، والأخلاق الأسرية، والأخلاق الاجتماعية، والأخلاق الدينية، وأخلاق الدولة، ثم ختمت الرسالة ببحث إجمالي أوجز فيه أمهات الفضائل الإسلامية.⁽²⁾

عرض في الفصل الأول لموضوع الإلزام الخلقي، فتحدث عن مصادره في الشريعة الإسلامية (قرآن، سنة، إجماع، قياس)، ثم أورد ذلك بالحديث عن خصائصه وطبيعته ومناقضاته في موقف القرآن، وفي نظر الفقهاء وعلماء الأخلاق المسلمين، وفي النظريات الفلسفية الغربية الشهيرة، مناقشاً إياها مذهبا مذهبا، مبينا أن الإلزام الأخلاقي في الإسلام قانون إيجابي.⁽³⁾

وقسم في الفصل الثاني المسؤولية إلى ثلاثة أقسام: المسؤولية الدينية، والمسؤولية الاجتماعية، والمسؤولية الأخلاقية الخالصة، وقرر من خلالها -المسؤولية الفردية لكل إنسان؛ وذلك بعد أن استبعد - بنصوص القرآن ومواقفه - خطيئة آدم -عليه السلام- وكل مسؤولية مورثة أو اجتماعية، وناقش بذلك بعض القضايا الإيمانية العقائدية والقانونية والفقهية، كالجبر والاختيار، وشروط أهلية التكليف وغيرها.⁽⁴⁾

كما قسم -في الفصل الثالث- الجزء إلى أخلاقي وقانوني وإلهي، وتحدث عن دور التوبة في إصلاح الضمير، وأداء الواجبات، كما قسم الجزء الإلهي إلى دنيوي وأخروي، وبعد بيان محاسن الفضيلة وسلبات الرذيلة، شرح تفاصيل النظام العقابي في التشريع الإسلامي مميزاً بين "الحدود" و "التعزيرات" في ذلك .

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله السمان ضمن كتاب: محمد عبد الله دراز، دراسات وبحوث، ص 129.

² - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 747.

³ - المصدر نفسه، ص 87-125.

⁴ - مصدر سابق، ص 134-241.

وقد سلك في ذلك منهجا إحصائيا دقيقا في جمع الآيات القرآنية الشاملة للوصايا الإيجابية، والمحاسن الأخلاقية، والجزاء الإلهي في الدنيا والآخرة، في زمن لم يكتشف فيه الكمبيوتر، ومبؤبا ذلك في عناوين فكرية متسلسلة، وموصلة إلى النتائج الدقيقة، في متانة الأخلاق الإسلامية في هذا الموضوع. (1)

وعرف - في الفصل الرابع - بالنية وعلاقتها بالفعل، والعمل الأخلاقي، وعن حقيقتها مقترنة بالعمل، أو مجردة عنه، وتحدث عن أنواع من النية؛ سواء أكانت حسنة أم سيئة؛ فمنها: نية الإخلاص، نية الإضرار، ونية التهرب من الواجب، ونية إرضاء الناس (الرياء)، كما عالج أيضا مسألة اختلاط الدوافع في آراء الفقهاء وعلماء الأخلاق. (2)

ثم عرض في الفصل الخامس - للعمل وعلاقته بالنية، ثم لموقف القرآن الكريم من الجهد والجهاد، التي اقتزنت فيه بالعمل الفعال، مصورا مكابدات الإنسان في الحياة من أجل تحقيق ما أسماه "الإبداع الحيز"، كما ميز بين جهد المدافعة للميول السيئة، وجهد الإبداع بتقديم الواجبات العامة والخاصة. (3)

وأما الرسالة الفرعية الثانية (المدخل)، فقد جاءت في ثلاثة أبواب:

تضمن الباب الأول فصلا عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، وفصلا عن جمع القرآن، وفصلا عن تبليغ المبدأ القرآني للعالم. (4)

وتضمن الباب الثاني فصلا عن الحق والعنصر الديني في القرآن، وفصلا عن الخير والعنصر الأخلاقي، وفصلا عن الجمال والعنصر الأدبي، وذلك من أجل الربط بين القرآن والقيم الأخلاقية. (5)

أما الباب الثالث فخاص بالبحث عن مصدر القرآن في الفترة المكية وفي الفترة المدنية، متبعا للشهادات الواردة هنا، ومفندا إياها بالمنطق العلمي القاطع، وبالحجج التاريخية القطعية، ثم جاءت الخاتمة لتؤكد حقيقة الوحي وتبطل ما أحيط به من المزاعم، ولتنتهي إلى أن منهج القرآن الكريم ينهض دليلا كافيا على مصدره الرباني. (6)

¹ - حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن، إعداد أحمد مصطفى فضلية، دار القلم، الكويت، ط1، 2005، ص 94.

² - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 483-564.

³ - المصدر نفسه، ص 583-669.

⁴ - مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ص 21، 35، 55.

⁵ - المصدر نفسه، ص 74 وما بعدها.

⁶ - المصدر نفسه، ص 190.

ثانيا: "النبا العظيم" و "حصاد قلم".

إذا كان محمد عبد الله دراز قد خصص كتابه "الدستور" و "المدخل" لإثبات مصداقية القرآن وإعجازه من الناحية الأخلاقية والتشريعية؛ فإنه في كتابيه "النبا" و "الحصاد" قد سعى لإثباته من الناحية اللغوية البلاغية؛ ففي الكتاب الأول (النبا)، عرف بالقرآن، وتتبع مراحل نزوله، وميز بينه وبين شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، لغة وفكرا، وتتبع بالنقد الشبهات الثائرة هنا، ثم شرع في تفصيل مستويات الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم؛ فبدأ بالأصوات في تناسقها وأجراسها، ثم ثنى ذلك بالكلمات والحروف في ترابطها وعمقها، ثم ثلث ببيان خصائص الأسلوب القرآني في جمعه لتناقضات ثنائية يستحيل ورودها في لغة البشر، ثم أوسع الحديث عن الإعجاز على مستوى السورة في وحدتها وتعانق مقاطعها، وإيجاز ألفاظها وعمق معانيها.

ثم قدم لذلك نموذجا مصدقا في أطول سورة من القرآن، سورة البقرة، وأكثرها جمعا للمعاني المختلفة، وأكثرها في التنزيل نجوما، وأبعدها في هذا التنجيم تراخيا، فعرض حلقاتها بنظرة كلية ومنهج شمولي «فجعل منها وحدة مترابطة، لا تند منها عن إطار أهدافها العامة التي تناولها».⁽¹⁾

وأحس دراز بضرورة المزيد لإيضاح الإعجاز التناسبي للسورة القرآنية، في ترابط ألفاظها وآياتها، فأضاف إليها خاصة أخرى هي خاصية التمايز والتشابه بين السور القرآنية، كي تتضح بذلك وحدة السورة أو شخصيتها، وجمع بين ذلك مع بحوث أخرى في علوم القرآن (فواتح السور، والترتيب النزولي، واختلاف القراءات، وأسباب النزول)، وفي شرح بعض الأحاديث النبوية ذات الصلة بالقيم الأخلاقية، وفي بعض الأحاديث الإذاعية المفصلة لجوانب صلاحية المجتمع الإنساني، وفي بعض البحوث العلمية المقدمة في مؤتمرات دولية تشرح موقف الإسلام من قضايا عصرنا، وأخيرا في تقديم كلمات مضيئة، وخواطر إيمانية مشرقة، كتبها دراز وهو طالب بالقسم الثانوي، وصبغها بلون من الأدب الديني الرشيد الذي دل على نبوغه المبكر⁽²⁾، كل ذلك في سفر واحد كما قدم دراز - في هذا الكتاب (حصاد قلم) - نماذج تطبيقية متنوعة لسور قرآنية كثيرة (يس، المؤمن⁽³⁾، الملك، القلم، النبا، التكوير)، حيث فسرها تفسيراً موضوعياً بديعاً، وأوضح به وحدة هذه السور في ترابط آياتها وموضوعاتها.

¹ - الإعجاز القرآني وجوهه وأسواره: عبد الغني بركة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 1، 1989 م، ص 295.

² - يراجع تقديم أحمد مصطفى فضلية لكتاب: حصاد قلم، محمد عبد الله دراز، ص 17 - 18.

³ - هي سورة غافر، والتسمية بالمؤمن تسمية توقيفية يراجع، تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر،

وهو في كل هذا «يسير على نفس ذلك الطريق العميق الهادئ الممتع الذي يملأ القلب إيماناً، والنفس يقيناً، والروح ثقة بكل ما يقول، فقد أوتي أسلوباً بارعاً وقدرة في التعمق في الفهم، (بعبارات) محكمة على قدور المعاني، وأداءً محكم يسعد القلب والعقل معا».⁽¹⁾

ثالثاً: "زاد المسلم للدين والحياة"، و "دراسات إسلامية"، و "الميزان بين السنة والبدعة".

وهي ثلاثة مؤلفات تنوعت مجالاتها الفكرية، وتعددت ظروف إصدارها؛ فأما كتابه "الزاد" فقد كان نواة لأحاديثه القرآنية الإذاعية التي جسدت تلك «النظرة السديدة الصائبة والأخلاق الوطنية وإصلاح المجتمع»⁽²⁾، وهي أحاديث اتصلت «بتفسير كلمة الشريعة والأهداف الخلقية والاجتماعية الكامنة وراء فرض شعائر الصوم والزكاة والحج، ومنها ما يتصل بشرح آداب القرآن في المعاملات، وتحديد أساليب السلوك القويم الذي يجعل من يتمسك به إنساناً كاملاً يحقق الخير لنفسه ولوطنه، كما أن من هذه الأحاديث ما كتب في أثناء العدوان الثلاثي الغاشم على الوطن عام 1956 م، وقد أراد بها الأستاذ - رحمه الله - استنفار الرأي العام ضد العدوان الأثيم، واستنفار الهمم لكي تستبسل في الدفاع عن الحق والعدالة، وتعبئة جنود العرب روحية بالإيمان والتقوى والصالح والإصلاح إلى جانب تعبئتهم المادية بالزاد والعتاد والركاب والسلاح».⁽³⁾

وقد راسل الكثير من أعلام مصر آنذاك دراز - رحمه الله - واقترحوا عليه أن يطبع هذه الأحاديث الإذاعية في كتاب «ينفع الكبير والصغير، والحاضر والغائب، فيزداد الشعب ثقافة على ثقافته، ويعلم من لم يكن يعلم بأمور دينه وآدابه العالية»⁽⁴⁾، ولكن المنية لم تمهل دراز لطبع هذه الأحاديث الإذاعية التي ظلت متناثرة من غير قيد، حتى قيض الله لها الشيخ أحمد مصطفى فضلية، الذي أعاد جمعها وطبعها في كتاب مستقل أسماه "زاد المسلم للدين والحياة".⁽⁵⁾

¹ - محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه: إعداد أحمد مصطفى فضلية، مقال لأنور الجندي بعنوان: الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز في آثاره العلمية، ص 54.

² - مقدمة كتاب "زاد المسلم للدين والحياة": محمد عبد الله دراز، إعداد: أحمد مصطفى فضلية، در القلم، الكويت، ط1، 1424هـ، 2004م ص 25.

³ - مصدر سابق، ص 25.

⁴ - المصدر نفسه، ص 24.

⁵ - المصدر نفسه، ص 24.

وقد قسم مباحثه إلى سبع مجموعات: من وصايا القرآن وثيابك فطهر⁽¹⁾، وقبسات من السيرة⁽²⁾، وصفات المؤمن⁽³⁾، ومسؤوليات أدبية بعيدة المدى⁽⁴⁾، ومن ركائز المجتمع المسلم⁽⁵⁾، والحج فريضة ورسالة⁽⁶⁾، وجهاد أعداء الله والوطن.⁽⁷⁾

وأما الكتاب الثاني "الدراسات"، فقد كان أصله محاضراته في علم الأخلاق الذي كلف بتدريسه في جامعة القاهرة سنة 1953 م، بعنوان: «كلمات في مبادئ الأخلاق»، عرض لها عرضاً نقدياً؛ حيث قسمها إلى غريزية ومكتسبة اعتماداً على كتابات الأخلاقيين العرب، حتى خلص إلى تعريف الخلق بأنه: «قوة راسخة في الإرادة تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح»⁽⁸⁾، كما فرق أيضاً بين الخلق والسلوك، فالأول أمر معنوي، وهو صفة النفس وسجيتها، أما السلوك فهو أسلوب الأعمال ونهجها وعاداتها، ثم عرض لآراء الفلاسفة في فطرية الخلق في النفس بين أهل الجبر، وأنصار الحرية، ثم رجح مذهباً وسطاً بينهما.⁽⁹⁾

ثم تناول في فقرة ثانية: علم الأخلاق وتقسيمه إلى نظري وعملي، وبيّن أن الأول للشأن بمنزلة أصول الفقه من الفقه، ثم ناقش الاعتراضات على علم الأخلاق النظري والتي قدمتها المدرسة الاجتماعية الفرنسية، كما عالج أيضاً مسألة الأخلاق الفلسفية والأخلاق الدينية، وناقش العلاقة بين المعرفة والأخلاق، وأثبت أن المعرفة وحدها ليس لها جدوى إن لم يكن لها رمز من قوة الإيمان.⁽¹⁰⁾

هذا أصل الكتاب، ثم ضم إليه فصولاً أخرى تحدث فيها عن كرامة الفرد والرق، والمسؤوليات وأنواعها، وأخرى خصها للحديث عن إصلاحات محمد عبده التعليمية، وقدم لذلك بمقدمة درس فيها مصدرية القرآن من حيث ماهيته وجمعه وإعجازه.

¹ - المصدر نفسه، ص 27.

² - المصدر نفسه، ص 101.

³ - المصدر نفسه، ص 143.

⁴ - المصدر نفسه، ص 167.

⁵ - المصدر نفسه، ص 209.

⁶ - المصدر نفسه، ص 245.

⁷ - المصدر نفسه، ص 269.

⁸ - دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية: محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، 1980م، ص 88.

⁹ - مصدر سابق، ص 89.

¹⁰ - المصدر نفسه، ص 90 - 128.

و أما الكتاب الثالث "الميزان" فقد أراد به أن يحدث كتاب "الاعتصام" للشاطي، وأن يعرضه بلسان العصر، وكما أن المؤلف الأصل وهو (الاعتصام) لم يكمله، فكذلك مؤلف "الميزان"⁽¹⁾، فلم يمهله القدر لإتمامه.

قسم دراز كتابه إلى أربعة فصول رئيسية حدد من خلالها منشأ الابتداع في الدين، الأول: تحكيم العقل في الدين والأخذ بالرأي المذموم، والثاني: إتباع الهوى، والثالث: الجهل بتصاريف اللغة وأسايلها، والرابع: الجهل بقواعد الشريعة ومقاصدها، الذي لم يسعفه الأجل لإتمامه.⁽²⁾

ولما كان دراز قد تمثل كثيرا ملكه الشاطي الاجتهادية والنقدية؛ إذ عايشه كثيرا في تخرّج أحاديث كتاب الموافقات الذي حققه والده العالم، فقد رأى المحقق لكتابه "الميزان" أن يستوفي هذا الأصل الرابع من كتاب "الموافقات".⁽³⁾

وقد قدم دراز لهذا مقدمات علمية كثيرة، عالج من خلالها مفاهيم السنة والبدعة في الاستعمالات اللغوية الشرعية، كما عالج المخالفات الشرعية وعلاقتها بالبدع، وعن حدود ذلك في العبادات والمعاملات، وضرب لذلك الأمثلة من التطبيقات العملية للصحابة في التفريق بينهما؛ كمسائل الأحرف السبعة وجمع المصحف وغيرها.⁽⁴⁾

كما عالج أيضا مسألة مهمة تتمثل في وضع الحد الفاصل بين خلاف المبتدعين وخلاف المجتهدين، وعن الحد الفاصل بين خطأ المجتهدين وصوابهم؛ وذلك بعد أن بين أهم صفاتهم وهي ثلاثة: الاطلاع التام على أدلة الأئمة، والتبحر في الدين، ثم التحرر من الهوى والعصبية⁽⁵⁾، كل ذلك «بعلم العالم وعقل الحكيم، يذكر الفروع ليقعد القواعد، ويطرح التساؤلات ليثير الانتباه، ينقد الفكر بلا ترجيح، ويقرر الحق بالدليل بعد الدليل، ويفند الشبهات فيراها المنصف أهون من بيت العنكبوت».⁽⁶⁾

¹ - تقديم يوسف القرضاوي لكتاب زاد المسلم للدين والحياة: محمد عبد الله دراز، ص 12 - 13.

² - ينظر: الميزان بين السنة والبدعة، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط 1، 2003، ص: 51 وما بعدها، 83، 98، 142، 150.

³ - المصدر نفسه، ص 75، والموافقات في أصول الشريعة أبو إسحاق الشاطي، تحقيق عبد الله دراز، المكتبة التوفيقية، القاهرة، بداية الجزء الثاني.

⁴ - الميزان بين السنة والبدعة: محمد عبد الله دراز، ص 51

⁵ - المصدر نفسه، ص 75

⁶ - كلمة عن كتاب الميزان بين السنة والبدعة: محمد أبو سيد أحمد، ضمن كتاب: محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، ص 102.

رابعاً: مؤلفات أخرى.

وهناك أيضاً كتابات أخرى نسجها يراع محمد عبد الله دراز، تعددت موضوعاتها الفكرية، فمنها كتاب "من كنوز السنة" بين فيه مكانة السنة النبوية الشريفة من القرآن والفكر الإسلامي، وتعظيم المسلمين لها، وتفنيدها شبهاً بالأعداء في ترك الاحتجاج بها.

وقد عالج فيه قضايا تكلف في شأنها المتكلفون في التبشير بأبواب الجنة، لدرجة تأمين الناس من مكر الله، أو التفسير منها لدرجة قطع آمالهم في رحمة الله، وقضايا أخرى تتعلق بالمحكّمات والمتشابهات، وعلاقة العقل والهوى بهما، وأورد في ذلك بعض الأحاديث المتعلقة بتأويلات الخوارج الفاسدة، وعقب عليها بأقوال نيرة للسلف الأوائل في سبيل تأصيل الفهم الصحيح للسنة. (1)

كل ذلك بفقهِ عميق، وحافضة واسعة متينة، فقد صرح أنه يروي الصحيحين بالسمع، وسائر الكتب الستة بالإجازة عن أهم أعلام الحديث المعاصرين له. (2)

ومنها كتابه: «الدين»، الذي قدم مباحثه في شكل محاضرات بجامعة القاهرة سنة 1949م، تحت اسم مادة "تاريخ الأديان" عالج فيه مفهوم الدين والتدين، ومصادره الفطرية والخارجية، وعن تطوره عند الشعوب الإنسانية عبر تطوراتها التاريخية، كما عرض لنظريات المفكرين والفلاسفة في نشأة العقيدة الإلهية، لينقدها جميعاً، ويثبت بعدها صحة المذهب القرآني في بيان معالم العقيدة الصحيحة. (3)

ومنها كتابه "نظرات في الإسلام" الذي خصه بالحديث عن فضائل الرسالة الإسلامية وعظمتها التشريعية، ومن الناحية الاجتماعية الأولى بيّن من خلالها متانة العقيدة، وعظمة التشريع الإسلامي، وصلاحيته لكل زمان ومكان، فذكر منه بعض أسرار الشعائر التعبدية التي تشكل أركان الإسلام. (4)

وعالج في الناحية الثانية مناهج الناس في تحديد السلوك القومي، في ثنائيات متناقضة في قضايا اجتماعية وأخلاقية كان قد ذكرها في مؤلفات أخرى. (5)

¹ - مع كتاب المختار من كنوز السنة: بخاري أحمد عبده ضمن كتاب محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه: إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 96 وما بعدها.

² - من أعلام الفكر المعاصر محمد عبد الله دراز، رجب عبد المنصف، المرجع نفسه، ص 85.

³ - ينظر: الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، ص 79 - 102.

⁴ - نظرات في الإسلام: محمد عبد الله دراز، د ط ، ص 13 وما بعدها، ص 65 وما بعدها.

⁵ - يراجع: زاد المسلم للدين والحياة، محمد عبد الله دراز، ص 209 وما بعدها.

ومها كتاباه "عقائد الإيمان وشرائع الإسلام" و "حقيقة الوحي"، اللذان خصهما بشرح أحاديث مختارة لتنزلات الوحي على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وأحاديث أخرى عديدة تناولت عقائد الإيمان الستة، وشرائع الإسلام الأساسية.⁽¹⁾

¹ - عقائد الإيمان وشرائع الإسلام، ط دار الحافظ، وحقيقة الوحي بنفس الطبعة.

الفصل الأول

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في الدراسات القرآنية
المعاصرة

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: حقيقة التفسير الموضوعي و مناهجه في
الدراسات المعاصرة.

المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

المبحث الأول: حقيقة التفسير الموضوعي ومناهجه في
الدراسات المعاصرة

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم التفسير الموضوعي ونشأته في
الدراسات المعاصرة.

المطلب الثاني: أنواع التفسير الموضوعي في الدراسات
المعاصرة.

المطلب الثالث: منهجية البحث في أنواع التفسير
الموضوعي في الدراسات المعاصرة.

المطلب الأول: مفهوم التفسير الموضوعي ونشأته في الدراسات المعاصرة.

وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول: في تحديد المفهوم اللغوي والإصلاحي وتميزه عن الأنواع الأخرى.

الفرع الثاني: التفسير الموضوعي بين العلمية والمنهج النظرية.

الفرع الثالث: مصطلحات التفسير الموضوعي المعاصر.

الفرع الرابع: نشأة التفسير الموضوعي في الدراسات المعاصرة.

الفرع الأول: في تحديد المفهوم اللغوي والاصطلاحي وتميزه عن الأنواع الأخرى.

يتألف مصطلح «التفسير الموضوعي» من جزأين ركبا تركيبيا وصفيا، وتألف منهما بعد ذلك مفهومه الفني العلمي، لهذا لزم في هذه الدراسة التعريف به أولا، ثم التمييز بينه وبين باقي ألوان التفسير الأخرى مفهوما ومنهجيا.

البند الأول: تعريف التفسير الموضوعي.

أولا: في مفهوم التفسير:

أ - في لغة العرب: عند تتبع معاني هذه اللفظة نجد أنها تدور حول الكشف والبيان، سواء في المعاني أم في المحسوسات والأعيان، قال ابن فارس: «الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيان شيء وإيضاحه».⁽¹⁾

وقال الراغب الأصفهاني: «الفسر إظهار المعنى المعقول».⁽²⁾

وقال ابن منظور: «والفسر: كشف المغطى، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل».⁽³⁾

وقد اختلف في مادة اشتقاقه على أقوال، أهمها الأقوال الثلاثة الآتية:

القول الأول: أنه مأخوذة من "الفسرة"، وهو نظر الطبيب في بول المريض لمعرفة علته، قالوا: فكذلك المفسر ينظر في الآية لاستخراج حكمها ومعناها. وممن اختار هذا القول "الزركشي" في البرهان،⁽⁴⁾ و"الأزهري"⁽⁵⁾ في التهذيب.

¹ - معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تح، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط3، 1991م، مادة (فسر)، 504/4.

² - المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ضبط محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 1426هـ، 2005م، ص 381.

³ - لسان العرب: ابن منظور، تح محمد النجار، دار إحياء التراث العربي، دار صادر، بيروت-لبنان، باب الراء، مادة فسر، 5/55.

⁴ - البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1392هـ، 147/2.

⁵ - تهذيب اللغة: الأزهري محمد بن أحمد، تح، عبد السلام محمد هارون، دار القومية العربية للطباعة، 1384، مادة (فسر)، 407/12.

القول الثاني: أنه تفعيل من الفسر، الذي هو البيان والكشف، ومال إلى هذا القول "ابن فارس"،⁽¹⁾ و"الجوهري"⁽²⁾ و"ابن منظور".⁽³⁾

القول الثالث: أنه مأخوذ من مقلوب لفظة (سفر)؛ لقول العرب: سفرت المرأة إذا كشفت قناعها عن وجهها، وعليه يكون اشتقاقه من «التفسير».⁽⁴⁾

وقد ضعف الآلوسي هذا القول بقوله: «والقول بأنه مقلوب السفر مما لا يسفر له وجه».⁽⁵⁾

في حين ذهب الراغب إلى أن الفسر يستعمل لإظهار المعنى المعقول، والسفر لإبراز الأعيان للأبصار.⁽⁶⁾

ولعل ما ذهب إليه ابن فارس وغيره هو الراجح، لدلالة القرآن عليه، قال تعالى: «وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا» [الفرقان/ 33]، أي: «أحسن مما اقترحوه»،⁽⁷⁾ إيضاحاً للحق وبيانا له؛ فكلمة التفسير تدور معانيها في اللغة حول: الاستبانة والظهور وكشف المخبأ والغامض، وإزالة اللبس والخفاء.

ب اصطلاحاً: سنعرض لأهم التعاريف الاصطلاحية، ثم لخلاصة لها في تعريف جامع.

ب-1- عند أبي حيان الأندلسي: عرفه بقوله: «هو علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها، وأحكامه الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمت لذلك»⁽⁸⁾.

ظاهر من هذا التعريف أنه جعل أحوال الأداء النطقي لألفاظ القرآن من ماهية علم التفسير، وإنما ذلك من مباحث علم القراءات لا من التفسير الذي يبحث عن توجيه معاني القراءات فقط.

¹ - معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، 504/4.

² - الصحاح: إسماعيل الجوهري، تح، أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1404هـ، مادة (فسر)، 781/2.

³ - لسان العرب: ابن منظور، باب الرءاء، مادة فسر، 55/5.

⁴ - ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، المكتبة العصرية، بيروت_لبنان، مادة فسر، 192/4.

⁵ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت_لبنان، 1/04.

⁶ - المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص 381.

⁷ - تفسير معارج التفكير ودقائق التدبر: عبد الرحمان الميداني، دار القلم، دمشق، ط1، 2000م، 489/6.

⁸ - تفسير البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، تح عادل عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، 1/121.

وقد وصف محمد أبو شهبه هذا التعريف بالغموض وعدم الوضوح، إذ «لم يصرح بالعرضين الأهمين اللذين نزل لهما القرآن وهما: كونه كتاب الهداية البيّنة... والكتاب السماوي المعجز...»⁽¹⁾.

ب-2- عند الرزكشي: عرفه بقوله: «التفسير هو: علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو و التصريف وعلمي البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ»⁽²⁾.

ج- عند محمد الطاهر بن عاشور: عرفه بقوله: «هو اسم للعلم للباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها باختصار أو توسيع»⁽³⁾.

وهو تعريف موجز، غير أنه لم يشير إلى المعاني القرآنية التي تستفاد من التركيب اللفظي والجملتي؛ وإنما قصر ذلك على اللفظ وحده.

وبالجمع بين هذه التعاريف، نصل إلى أن التفسير هو: «علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، وبيان أحكامه وحكمه الإفرادية والتركيبية بهدف فهم المعنى، سواء كان ذلك باختصار وتوسع، بيانا لهديته البيّنة، وحجة على إعجازه الإلهي».

وقد أشار إلى هذا التعريف بألفاظ متقاربة بعض المعاصرين، كمحمد عبد العظيم الزرقاني⁽⁴⁾.

ثانياً: في تعريف الموضوعي.

أ - في لغة العرب: قال ابن فارس: «"وضع" الواو والضاد والعين، أصل واحد يدل على الخفض للشيء وحطه، ويقال: وضعته بالأرض وضعاً، ووضعت المرأة ولدها، والوضائع: قوم ينقلون من أرض إلى أرض يسكنون بها، والوضيع الرجل الديني»⁽⁵⁾.

¹ - الإسرائيلية والموضوعات في كتب التفسير: محمد أبو شهبه، مكتبة السنة، القاهرة، ط4، 1408هـ، ص 26.
² - البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط3، 1984، 1/13.
³ - التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، 1997م، 1/11.
⁴ - مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الحديث، القاهرة، 2001، 07/2.
⁵ - معجم مقاييس اللغة: أحمد ابن فارس، مادة (وضع)، 117/6.

وقال الراغب: «الموضوعي نسبة إلى الموضوع، والموضوع مشتق من الوضع، وأصله "وَضَعَ"، وهو أعم من الحط ... قال تعالى: "وأكواب موضوعة" (الغاشية / 14)، وقال تعالى: «والأرض وضعها للأنام» (الرحمان / 10)، فهذا الوضع عبارة عن الإيجاد والخلق...»⁽¹⁾.

وأما السمين الحلبي فقد تحدث عن هذه المادة بعدة معان، منها: «أحططنا وأسقطنا ... ومنها الموضوع، ومنها الإيجاد، ومنها البناء والاتخاذ...»⁽²⁾.

وبالنظر في التعاريف السابقة ندرك أن مادة "وضع" استعملت في عدة معان، منها القريب ومنعاً البعيد، وبالنظر في الاستعمال القرآني لها نجد الممدوحة كالأكواب الموضوعة في الجنة، كما نجد لها معاني أخرى مادية كالبناء، ومعنوية كالدناءة، وغير ذلك.⁽³⁾

«والنوعان يلتقيان على البقاء في المكان، وعدم مغادرته»⁽⁴⁾.

ب: اصطلاحاً. لدينا في ذلك تعاريف عديدة:

قال أبو البقاء: «الموضوع هو عبارة عن المبحوث بالعلم، عن أغراضه الذاتية»⁽⁵⁾.

وأورد عبد الستار فتح الله سعيد أن الموضوع له إطلاقات عدة، حديثة ومنطقية وتفسيرية، وأنه حسب علماء التفسير: «القضية التي تعدت أساليبها وأماكنها في القرآن الكريم، ولها جهة واحدة تجمعها عن طريق المعنى الواحد، أو الغاية الواحدة»⁽⁶⁾.

وعرفه مصطفى مسلم بقوله: «هو قضية أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة في العقيدة، أو السلوك الاجتماعي، أو مظاهر الكون تعرضت لها آيات القرآن الكريم»⁽⁷⁾.

وأما عن علاقة "الموضوعي" بالتفسير فقد أشار إلى ذلك عبد الستار سعيد إشارة دقيقة بقوله: «رجعت إلى استعمالات الكلمة في القرآن الكريم فوجدت من معانيها: إيجاد الشيء وإثباته في المكان، مثل: "ونضع الموازين القسط" (الأنبياء / 47) فيكون وصف التفسير (بالموضوعي) ملحوظاً فيه هذا المعنى، لأن المفسر يثبت كل آية في موضعها من المعنى الكلي للقضية التي يبحثها...»⁽⁸⁾.

¹ - المفردات في غريب القرآن،: الراغب الاصفهاني، ص 540-541.

² - عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي، تج. محمد التونجي، عالم الكتب، ط 1، 1993 م، 367/4.

³ - المدخل في التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، دار التوزيع، القاهرة، ط 2، 1991 م، ص 22 - 23.

⁴ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، عمان، ط 2، 1428 هـ، 2008 م، ص 33.

⁵ - الكليات: أبو البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط 2، 1998، ص 868.

⁶ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 20.

⁷ - مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط 2، 1997 م، ص 16.

⁸ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 22.

ثالثا: في تعريف التفسير الموضوعي:

تعددت أقوال العلماء والباحثين المعاصرين في تعريف التفسير الموضوعي، وتنوعت تنوعا راجعا إلى «تدرج وتكامل هذا العلم⁽¹⁾، حيث مر بمراحل متعددة منذ البداية وحتى أصبح علما مشهورا له نظريته ومنهجيته»⁽²⁾، وفيما يلي أهم هذه التعاريف:

أ - **عند محمد باقر الصدر:** عرفه - لما تحدث عن اتجاهات التفسير - بقوله: «وإنما الدراسة الموضوعية هي التي تطرح موضوعا من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية وتتجه إلى درسه وتقييمه من زاوية للخروج بنظرية قرآنية بصدده»⁽³⁾.

لقد أشار باقر الصدر - من خلال هذا التعريف - إلى موضوعات القرآن في كل مجالات الحياة، وإلى الخروج بنظرية عامة تجاهها، ولكنه لم يشر - في هذا التعريف - إلى ماهية التفسير الموضوعي - أو الاتجاه الموضوعي كما يسميه، وإلى منهجيته في طرح مواقفه وموضوعاته؛ إذ كان بصدده إلقاء درس من دروس التفسير، ولم يكن في هذا واقفا على التأصيل المنهجي والعلمي له من كل جهاته.

ب - **أحمد الكومي ومحمد يوسف القاسم:** في أول مؤلف يحمل هذا العنوان، ويبيّن المنهج المتبع من خلاله كما قال عبد الحي الفرماوي في كتابه «البداية»⁽⁴⁾.

حيث عرفاه بقولهما: «هو بيان الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد، وإن اختلفت عباراتها وتعددت أماكنها مع الكشف عن أطراف ذلك الموضوع حتى يستوعب المفسر جميع نواحيه ويلم بكل أطرافه...»⁽⁵⁾.

وعرفاه أيضا بقولهما: «أن يعمد الباحث والناظر في القرآن إلى الآيات التي تتصل بموضوع واحد فيجمعها... ويكون منها الموضوع الذي تتصل به، ثم يعمد إلى جوانب ذلك الموضوع، ويجعله في إطار متناسب وهيكل متناسق، مبرزاً لمراميه... وعلى ذلك ينجلي للقارئ بوضع الآية الهدف الذي يقصد إليه القرآن»⁽⁶⁾.

¹ - هذا ما يراه بعض الدارسين، وإلا فإن المسألة خلافية كما سنرى لاحقا.

² - ووقفات مع نظرية التفسير الموضوعي: عبد السلام حمدان اللوح، مقال بمجلة الجامعة الإسلامية، غزة، المجلد 12، العدد 01، ذو القعدة 1424 هـ، يناير 2004، ص 50.

³ - المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ص 17.

⁴ - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، ط 7، ذو الحجة 1425 هـ، يناير 2005 م، ص 40.

⁵ - التفسير الموضوعي: أحمد السيد الكومي ومحمد أحمد يوسف القاسم، د، ن "1، 1402 هـ، ص 16.

⁶ - مصدر سابق، ص 13.

واضح من هذا التعريف أنه تعريف غير منضبط بضوابط الاصطلاح العلمي من إيجاز وبيانات لماهية التفسير الموضوعي، وذكر لألوانه، بل هو تعريف أقرب إلى ذكر منهجية البحث فيه بإجمال.

ج- عبد الحي الفرماوي: عرفه بقوله: «اصطلاح مستحدث أطلقه العلماء المعاصرون على جمع الآيات القرآنية، ذات الهدف الواحد - التي اشتركت في موضوع ما - وترتيبها حسب النزول - ما يمكن ذلك - مع الوقوف على أسباب نزولها ثم تناولها بالشرح والبيان، والتعليق والاستنباط، وإفرادها بالدرس المنهجي الموضوعي الذي يجليها من جميع نواحيها، وجهاتها، ووزنها بميزان العلم الصحيح الذي يبين الباحث معه، الموضوع على حقيقته، ويجعله يترك هدفه بسهولة ويسر ويحيط به إحاطة تمكنه من فهم أبعاده، والذود عن حياضه». (1)

وهذا التعريف - رغم أنه نقله عن غيره - كسابقه يغلب عليه الشرح والإطناب، ويلاحظ عليه اقتصره على الموضوع القرآني فقط.

د - عبد الستار فتح الله سعيد: عرفه بحسب اعتبارين:

1 - **باعتبار المركب الوصفي:** «هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحددة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها على هيئة موضوعية، بشروط مخصوصة لبيان معناها واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع». (2)

2 - **باعتبار الفن المدون:** «هو الذي تجمع فيه قضايا القرآن الكريم، وتفسيره تفسيراً علمياً على أساس الموضوع، وتدون في بحث مفرد، أو كتاب جامع على نمط موسوعات التفسير التحليلي، بحيث يرجع الباحث إلى الموضوع الذي يريده، ويعلم موقف القرآن منه في يسر وسهولة». (3)

وبعد أن قسم التفسير الموضوعي - باعتبار الرابطة - إلى عام وخاص، عرف الثاني - الذي يمثل حقيقة التفسير الموضوعي - : «جمع الآيات الكريمة ذات المعنى الواحد، ووضعها تحت عنوان واحد، والنظر فيها بما يؤلف منها موضوعاً واحداً، مستخرجاً من الآيات الكريمة على هيئة مخصوصة». (4)

ومع أن هذا التعريف أكثر دقة ووضوحاً وإيجازاً، إلا أنه خصه بالموضوع القرآني فقط، نافياً بذلك باقي أقسامه، وهذا مما يؤخذ عليه.

¹ - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 41.

² - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 20.

³ - المرجع نفسه، ص 21.

⁴ - المرجع نفسه، ص 33.

هـ- محمد الغزالي: جنح الشيخ إلى تعريف مستقل لقسمي التفسير الموضوعي، فقال عن القرآن: «هو تتبع المعنى الواحد في طول القرآن وحشده في سياق قريب، ومعالجة كثير من القضايا على هذا الأساس»⁽¹⁾.

وعرف التفسير الموضوعي للسورة القرآنية بقوله: «هو (من) يتناول السورة كلها يحاول رسم "صورة شمسية" لها تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيدا لآخرها، وآخرها تصديقا لأولها»⁽²⁾.

كما قال عنه أيضا: «النظر المتغلغل في السورة الواحدة المعرفة المحور الذي تدور عليه والخيوط الخفية التي تجعل أولها تمهيدا لآخرها، وآخرها تصديقا لأولها، أو بتعبير سريع تكوين صورة عاجلة لملامح السورة كلها»⁽³⁾.

واضح أن هذا التعريف الثنائي، تعريف دقيق وموجز ومنهجي، غير أنه لم يتسم بالشمولية؛ إذ ركز في تعريفه للتفسير الموضوعي على الوحدة الموضوعية، مهملا الإشارة إلى ماهيته العلمية أو المنهجية بتعبير صريح، رغم إيمائه إلى ذلك، ومع ذلك فإن هذا التعريف يعد من أدق التعاريف وأكثرها منهجية، خاصة ما يتعلق بالسورة القرآنية.

و- مصطفى مسلم: أورد عدة تعريفات واختار واحدا منها، في قوله: «هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر»⁽⁴⁾.

وهو تعريف دقيق وموجز، غير أنه لم يذكر المنهجية العلمية في تناول هذه القضايا، وكما يلاحظ أيضا تعميمية قوله: «المقاصد القرآنية»؛ إذ ذلك «لا يميزه عن سائر العلوم الأخرى»⁽⁵⁾.

ز- عبد الجليل عبد الرحيم: جنح هو الآخر إلى أفراد كل قسم من أقسام التفسير الموضوعي بتعريف، لكنه جمع بينهما فيما أورده من تعريفات؛ حيث قال عنه: «أنه منهج في التفسير مختص بالكشف عن العلوم والهدايات الربانية في الموضوعات المتناولة في الآيات والسور القرآنية»⁽⁶⁾، وقال عنه

¹ نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، منشورات بغداد، الجزائر، ص 6، وعرفه أيضا في موضع آخر بقوله: «تتبع ما جاء في القرآن كله، وشرحها على ضوء الوحي النازل خلال ربع قرن تقريبا»، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ط 5، 2003، ص 128.

² نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 05.

³ تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل: محمد الغزالي، ص 128.

⁴ مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 16.

⁵ التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان، عبد الجليل عبد الرحيم، الجامعة الأردنية، ط 1، 1992 م، 1/ 27.

⁶ مرجع سابق، ص 28.

عنه أيضا: «هو العلم الذي يكشف عن منهج القرآن وأسلوبه في معالجة الموضوعات والقضايا الجزئية المحددة، في إطار سورة أو أكثر، تحقيقا لهداية القرآن فيما قصر فيه جهد البشر»⁽¹⁾. وهو تعريف ينقصه الإشارة إلى منهجية الجمع أو الكشف في التفسير الموضوعي والتحديد بدقة جانب الهداية القرآنية في معالجة الموضوعات.

ح- صلاح عبد الفتاح الخالدي: اختار التعريف التالي: «هو جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن، المتعلقة بالموضوع الواحد، لفظا أو حكما، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية»⁽²⁾، وهو تعريف ركز فيه صاحبه على الموضوع والمصطلح القرآني فقط، رغم أنه طبق منهجيته على جميع ألوانه.

ط- أحمد رحمانى: عرفه بقوله: «هو منهج ينهض بتفسير الآيات المتضافرة على إبراز خصائص موضوع محدد في القرآن كله أو في سورة منه مركزا ومعبرا عن قضية محددة تتبلور عنها نظرية في قضية من قضايا الحياة أو تصور عن أمر من أمور الكون والملكوت»⁽³⁾.

وهو من التعاريف الدقيقة، والمركزة، غير أن ما يلاحظ عليه التكرار للقضية الواحدة المحددة، والاصطلاح ب: "النظرية" متأثرا في ذلك بباقر الصدر وفي هذا عدم دقة في التعبير: «لأن مفهوم النظرية في المجال العلمي أنها تلك التي لم تنزل محط النظر والبحث والتجربة، ولم ترق إلى درجة الحقيقة العلمية التي لا تقبل مجالا للشك والنظر»⁽⁴⁾، ولو اصطلاح بالموقف القرآني لكان أضبط وأدق.

ي- التعريف المختار: قد وفق مصطفى رجب - مع نقص في بعض التحديدات - توفيقا غالبا إلى الجمع بين محاسن التعاريف السابقة، وذلك في قوله: «هو العلم والمنهج الذي يتناول جمع الآيات المتعلقة بموضوع واحد (أو مصطلح واحد)، من جميع سور القرآن الكريم، (قصد الوصول إلى موقف قرآني واضح منه)، أو دراسة سورة قرآنية بعينها بهدف إبراز الوحدة الموضوعية بين جوانبها»⁽⁵⁾.

البند الثاني: في الفرق بين التفسير الموضوعي وبين مناهج التفسير الآخر.

أ - بين التفسير الموضوعي والتفسير التحليلي:

¹ - المرجع نفسه، ص 28 .

² - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 34.

³ - التفسير الموضوعي نظرية و تطبيقا: أحمد رحمانى، منشورات جامعة باتنة، ص 48.

⁴ - التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم، 20/1.

⁵ - التفسير الموضوعي وحاجة عصرنا إليه: مصطفى رجب، مقال بمجلة المنهل السعودية، عدد صفر 1421 هـ، مايو 2000، ص

22-23، بتصرف.

- 1 - يلتزم المفسر في التفسير التحليلي بالترتيب المصحفي بالآيات والسور، بخلاف التفسير الموضوعي، الذي يتناول الترتيب النزولي.
- 2 - يتناول المفسر في التفسير التحليلي عدة موضوعات في موضع واحد، أما في التفسير الموضوعي فلا يتعرض فيه إلا لموضوع واحد.
- 3 - يتعرض المفسر في التفسير التحليلي للألفاظ والآيات القرآنية بالشرح والتحليل، ولا يتعرض في التفسير الموضوعي لذلك إلا بقدر ما يساعد المعالجة الموضوعية. (1)
- 4 - قصد التفسير الموضوعي اكتشاف الموقف القرآني والوحدة الموضوعية، وهذا غير موجود في التفسير التحليلي. (2)

ب - التفسير الموضوعي والتفسير الإجمالي:

- 1 - يلتزم المفسر في التفسير الإجمالي ترتيب المصحف، ولا يلتزمه في التفسير الموضوعي.
 - 2 - يلتزم المفسر في التفسير الموضوعي موضوعاً واحداً، ولا يلتزمه في التفسير الإجمالي. (3)
- ت - بين التفسير الموضوعي والتفسير المقارن:
- 1 - يهدف التفسير المقارن إلى بيان الآيات القرآنية على وفق ما كتبه جمع من المفسرين، بخلاف التفسير الموضوعي الذي يهدف إلى دراسة موضوع قرآني محدد. (4)
 - 2 - لا بد من جمع الآيات التي تتصل بنفس موضوع البحث، بينما لا تشمل المقارنة تفسير القرآن كله لهذا الموضوع؛ بل تكون خاصة بسورة قصيرة أو موضوع معين.
 - 3 - يلتزم التفسير المقارن بالترتيب المصحفي بخلاف التفسير الموضوعي. (5)

الفرع الثاني: التفسير الموضوعي بين العلمية والمنهج:

¹ - ينظر: البداية في التفسير الموضوعي، عبد الحي الفرماوي، ص 50 - 51، والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 31 - 32.

² - المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، ص 25 وما بعدها.

³ - ينظر: البداية في التفسير الموضوعي، عبد الحي الفرماوي، ص 52، ودراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 2001، ص 41-42.

⁴ - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 52-53.

⁵ - المرجع نفسه.

اختلفت أنظار الدارسين وتباينت آراؤهم في كشف حقيقة وماهية التفسير الموضوعي، أهو علم مستقل استنادا إلى الضوابط المنهجية في تحديد التعريف العلمي من موضوع ومنهج وثمرات؟، أم هو منهج من مناهج التفسير المتداولة؟

وسنعرض - إيجازا - لأهم الأقوال المعروضة في شأن هذه المسألة.

البند الأول: التفسير الموضوعي منهج من مناهج التفسير:

ولعل هذا هو القدر المتفق عليه بين أغلب الدارسين والمنظرين المعاصرين للتفسير الموضوعي؛ حتى الذين قالوا بالعلمية أكدوا - قبل ذلك - أنه منهج تفسيري؛ فمن القائلين بالمنهجية محمد باقر الصدر⁽¹⁾، وعبد الحي الفرماوي⁽²⁾، وأحمد السيد الكومي⁽³⁾، وعبد الستار فتح الله سعيد⁽⁴⁾، وعبد الجليل عبد الرحيم⁽⁵⁾، وأحمد رحماني⁽⁶⁾، وأحمد جمال العمري⁽⁷⁾، وزياذ خليل الدغامين⁽⁸⁾، وصلاح عبد عبد الفتاح الخالدي⁽⁹⁾، وغيرهم.

و إذا كان المنهج في العلوم الإنسانية يدل على «الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة». (10)

أو كان يدل - أيضا - على «مجموعة من القواعد والإجراءات والأساليب التي تجعل العقل يصل إلى معرفة حقة بجميع الأشياء»⁽¹¹⁾، فإنه يدل - في علوم القرآن والتفسير - على «مجموعة القواعد

¹ - يراجع: المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، ص 33، ويسميه أيضا بالاتجاه.

² - يراجع: البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 49 وما بعدها.

³ - يراجع: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: أحمد السيد الكومي، ومحمد أحمد يوسف القاسم، ص 17.

⁴ - يراجع: المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 33.

⁵ - يراجع: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، في كفتي الميزان، عبد الجليل عبد الرحيم، 1/ 28.

⁶ - يراجع: التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 43، 48.

⁷ - يراجع: دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني: أحمد جمال العمري، ص 10، 70.

⁸ - يراجع: منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياذ خليل الدغامين، دار البشير، عمان، ط 1، 1416 هـ، 1995 م، ص 16.

⁹ - يراجع: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 34.

¹⁰ - البحث العلمي ومناهجه النظرية: سعد الدين السيد صالح، مكتبة الصحابة - جدة، مكتبة التابعين، القاهرة، ط 2، 1993 م، ص 10، وأصول البحث العلمي ومناهجه: أحمد بدر، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط 9، 1996، ص 34.

¹¹ - أسس البحث العلمي لإعداد الرسائل الجامعية: مروان عبد المجيد إبراهيم، مؤسسة الوراق، عمان، ط 1، 2000 م، ص 60.

المنظمة التي يعتمد عليها الباحث في رؤيته التحليلية أو التفسيرية، سواء أكانت منظمة في إطار العلاقات الشرعية أو الإنسانية أو أي مجال ثقافي في آخر، ويتأثر بالموضوع وروح الدارس وتصوره»⁽¹⁾. ولا شك - بعد هذا - أن المنهجية واضحة جدا في التفسير الموضوعي بما وضعه المنظرون له من قواعد أساسية وضوابط منظمة تضبط للمفسر السير الصحيح في دراسة قضايا التفسير الموضوعي عبر كل أنواعه؛ بل ويمكن اعتبار - أيضا - الخطوات المرحلية التي وضعت في ذلك، قواعد وإجراءات أساسية تجعل العقل الإنساني يتوصل إلى معرفة المقاصد القرآنية العامة والخاصة المتمثلة في مواقف معينة تصحيحية وعلاجية لإحدى موضوعات الحياة الإنسانية العامة.

وقد تنوعت عبارات الدارسين المعاصرين في الإشارة إلى حضور المنهج في قواعده وضوابطه العامة في التفسير الموضوعي؛ إذ نجد هذه العبارات في كتبهم «قواعد وتبويضات ضرورية»⁽²⁾، و «قواعد ومنطلقات منهجية للبحث»⁽³⁾، و «أخطاء يجب تجنبها في منهج التفسير الموضوعي»⁽⁴⁾، و «خصائص التفسير الموضوعي»⁽⁵⁾ وغير ذلك، هذا بالإضافة إلى اصطلاحهم بالخطوات المرحلية للسير للسير مع أنواع التفسير الموضوعي.

وتجدر الإشارة أن المنهج له صلة وثيقة بموضوعاته؛ إذ هو «الطريق والطابع المميز للموضوع، أو وسيلة لإبرازه علميا»⁽⁶⁾ ولهذا فهو يتغير وتتباين قواعده تبعا للمنظومة المعرفية التي ينتسب إليها. كما أن لهذا المنهج أطر ينضبط بها، ويرسم قواعده من خلالها في سياق العملية التفسيرية الموضوعية، هذه الأطر يمكن تقسيمها إلى أطر عامة تتعلق بالمنهج الإسلامي العام المتبع في كشف الحقائق الإسلامية في شتى حقوله المعرفية - ومنها التفسير -، وأطر خاصة تتعلق بالقواعد المنهجية للتفسير الموضوعي؛ إذ تتمثل الأطر العامة - فيما أشار إليها أحمد رحمانى - في «العقل والتجربة، والوحي»⁽⁷⁾ أو هي الأطر التي وصفها ابن تيمية بـ «طرق العلم، وهي: الحس والخبر والنظر»⁽⁸⁾ وتتمثل الأطر الخاصة في الإحصاء، والاستقراء، والتجميع، والتناسب، والتصنيف، والتحليل، والتركيب.

¹ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحمانى، ص 56.

² - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 67.

³ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 87.

⁴ - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 87.

⁵ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحمانى، ص 49.

⁶ - أسس البحث العلمي لإعداد الرسائل الجامعية: مروان عبد المجيد إبراهيم، ص 62.

⁷ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحمانى، ص 56.

⁸ - ينظر: المرجع نفسه، ومجموع الفتاوى: أحمد تقي الدين بن تيمية، مكتبة المعارف، الرباط، 75/13.

ولعل ملاحظة الارتباط العلائقي بين العقل، والتجربة، والوحي هي التي أوحى لمحمد باقر الصدر القول بشائية الواقع والنص في التفسير الموضوعي، بدءاً من الأول وانتهاءً إلى الثاني، مع ملاحظة ما تحمله هذه الحركة الاتجاهية من تراث البشرية وتجاربهم الحياتية التي يراد ضبطها وتصحيحها وفق المعيار القرآني؛ إذ يقول في ذلك: «وإنما وظيفة التفسير الموضوعي دائماً في كل مرحلة ... أن يحمل كل تراث البشرية الذي عاشه، يحمل أفكار عصره، يحمل المقولات التي تعلمها في تجربته البشرية ثم يضعها بين يدي القرآن...»⁽¹⁾.

ويقول أيضاً: «بل هذه العملية تبدأ من الواقع وتنتهي بالقرآن بوصفه القيم والمصدر الذي يحدد على ضوءه الاتجاهات الربانية بالنسبة إلى ذلك الواقع»⁽²⁾.

البند الثاني: التفسير الموضوعي علم مستقل بذاته.

إذا كان أغلبية الدارسين أجمعوا على منهجية التفسير الموضوعي، إلا أنهم اختلفوا هنا في وصفه بالاستقلالية العلمية إلى فريقين: فريق يرى بأنه ليس إلا منهجاً متبعاً في دراسة قضايا التفسير القرآني، وفريق آخر يعتقد أن التفسير الموضوعي علم «له قواعد وأسس وأصول، وله منهج وطريقة يلتزم بها الباحث»⁽³⁾ وله ثمرات يجنيها منه المتمثلة في إبراز المقاصد القرآنية الهدائية لمشكلات الحياة الإنسانية. مثل الاتجاه الأول محمد باقر الصدر،⁽⁴⁾ وأحمد السيد الكومي،⁽⁵⁾ وعبد الحي الفرماوي،⁽⁶⁾ وأحمد جمال العمري،⁽⁷⁾ ودافع عنه كثيراً أحمد رحمانى.⁽⁸⁾ وأما الاتجاه الثاني فدعا إليه عبد الستار فتح الله سعيد،⁽⁹⁾ وصالح عبد الفتاح الخالدي،⁽¹⁰⁾

¹ - المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، ص 22.

² - المرجع نفسه.

³ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 34.

⁴ - المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، ص 33.

⁵ - التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: أحمد السيد الكومي ومحمد أحمد يوسف القاسم، ص 18.

⁶ - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 19، 36، 49 وغيرها.

⁷ - دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني: أحمد جمال العمري، ص 10، 32 وغيرها.

⁸ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحمانى، ص 43.

⁹ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 20.

¹⁰ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 34.

ومصطفى مسلم،⁽¹⁾ وعبد الجليل عبد الرحيم،⁽²⁾ وزباد خليل محمد الدغامين،⁽³⁾ وغيرهم⁽⁴⁾ ممن أكدوا أنه لا يمتنع أن يتصف التفسير الموضوعي بالعملية متى استجمع المواصفات المحققة لذلك، وهذا ما تحقق - في نظرهم - فعلا له.

والملاحظ بدءاً أن بعض هذه الآراء لكلا الاتجاهين قد ذكر من الأدلة والحجج ما يدعم رأيه، وأن الكثير منهم اكتفى بذكر الوصف وشرحه دون ذكر الأدلة على ذلك، كما فعل مصطفى مسلم، وزباد الدغامين، وعباس عوض الله،⁽⁵⁾ حينما اكتفوا بقولهم أنه «علم يتناول المقاصد القرآنية من خلال خلال سورة أو أكثر» في حين اكتفى عبد الستار فتح الله سعيد لما عرفه باعتبار المركب الوصفي بشرح محترزات تعريفه إيجازاً فقال: «(علم): جنس في التعريف»⁽⁶⁾ كما أسماه في موضع آخر بـ «الفن التفسيري الجديد»⁽⁷⁾ كما قيده بالعلمية لما عرفه باعتبار الفن المدون؛ إذ قال عنه: «وهو الذي تجمع فيه قضايا القرآن الكريم، وتفسر تفسراً علمياً...»⁽⁸⁾ ولعل جدة طرحه، وعلمية وسائله وخطواته هي التي بررت له علمية التفسير الموضوعي؛ من حيث أن له قواعد وأصول علمية متبعة، ومهج وطريقة ملتزمة، وثمرات هداية مقتطفة، وهذا ما حمل صلاح الخالدي على الجزم أيضاً بعلمية التفسير الموضوعي.⁽⁹⁾

ولعلمهم جنحوا في إثبات العلمية إلى ما قاله الناظم:

إن مبادئ كل فن عشرة الحد والموضوع ثم الثمرة

وفضله ونسبه والواضع والاسم استمداد حكم الشارع

مسائل والبعض بالبعض اكتفى ومن درى الجميع حاز الشرفا.⁽¹⁰⁾

ولم نر في الاتجاه المقابل من نفي عنه العلمية بأدلة وحجج واضحة؛ إلا ما أشار إليه أحمد رحمانى حينما عقّب على تعريف عبد الستار للتفسير الموضوعي قائلاً: «ولا شك أن اعتباره هذا التفسير علماً

¹ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 16.

² - التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم، ص 28.

³ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زباد خليل محمد الدغامين، ص 14.

⁴ - ينظر: المنح الرئانية في التفسير الموضوعي للآيات القرآنية: عطية طه الزيلة، جامعة الأزهر، 2003م، ص 58.

⁵ - محاضرات في التفسير الموضوعي: عباس عوض الله عباس، دار الفكر، دمشق، ط1، 2007م، ص 18.

⁶ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 20.

⁷ - المرجع نفسه، ص 34.

⁸ - المرجع نفسه، ص 21..

⁹ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 34.

¹⁰ - يراجع: الفقه الإسلامي وأدلته: وهبه الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط2، 1985، كتاب الفرائض، 8/244 هامش 1

هو من باب المبالغات؛ إذ هو في الواقع منهج من مناهج علم التفسير، وليس قائما بذاته؛ لأنه يبحث الموضوع نفسه وهو القرآن، لكن بطريقة تختلف عما ألفناه عند علماء التفسير»⁽¹⁾.

وواضح جدا من خلال هذا القول: أن اشتراك التفسير الموضوعي مناهج التفسير الأخرى في موضوعاتها (تفسير الآيات القرآنية)، وتبعيته لعلم التفسير العام هو ما يؤكد بأنه منهج وليس بعلم، لكن لا يلزم هنا دائما؛ إذ أن هناك علوما كثيرة تدرس القرآن الكريم بطرق متغايرة كالفقه والعقيدة وغيرها. و على كل فالمسألة اجتهادية احتمالية، ولكل أدلته وحججه، ويكفي أن التفسير الموضوعي منهج من مناهج التفسير القرآني حسب عبارات أغلب الدارسين.

البند الثالث: التفسير الموضوعي ليس بعلم ولا بمنهج.

جزم فهد الرومي أن التفسير الموضوعي ما هو إلا طريقة خاصة متبعة في تفسير القرآن الكريم مع باقي أساليبه؛ إذ قال: «فليست الموضوعية في التفسير منهجا... إذ هي ليست إلا أسلوبا من أساليب التفسير، ووسيلة من وسائله... وأساليبه محدودة هي: التفسير التحليلي الإجمالي، المقارن، الموضوعي»⁽²⁾.

بدأ أولا في تحديد بعض المفاهيم الأساسية في هذا المجال، فعرف المنهج بأنه «السبيل التي تؤدي إلى هذا الهدف المرسوم (فهم القرآن)»،⁽³⁾ وعرف الطريقة بأنها: «الأسلوب الذي يطرقه المفسر عند سلوكه للمنهج إلى الهدف أو الاتجاه»⁽⁴⁾.

وضرب أمثلة لهذا الرأي، فقال: «فيصح أن يسلك بالتفسير التحليلي منهج أهل السنة والجماعة، ويصح أن يسلك به منهج الشيعة، بل يصح أي يسلك به الاتجاه العلمي بمنهجه، والاتجاه العقدي كموضوعات «آيات الإيمان بالملائكة»... والاتجاه الفقهي «آيات الجهاد في القرآن»... أو الاتجاه الاجتماعي «دستور الأخلاق في القرآن»...»⁽⁵⁾.

و بعد استفاضته في ضرب الأمثلة لذلك، ختم ذلك بقوله: «فلا شك إذا أن التفسير الموضوعي ليس منهجا مستقلا عما سواه من المناهج، بل لا يصح أن يوصف بالمنهجية... فهو ليس إلا وسيلة للتفسير بتناول كل المناهج التفسيرية»⁽⁶⁾.

¹ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحمان، ص 43.

² - اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: فهد الرومي: جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية 862/3.

³ - المرجع نفسه، 12/1.

⁴ - المرجع نفسه.

⁵ - المرجع نفسه، 863/3-864.

⁶ - مرجع سابق.

ولا شك أن اضطرابه في تحديد المفاهيم بدقة، (المنهج، الطريقة)، جعله يضطرب كذلك في نفي المنهجية عن التفسير الموضوعي، التي تكمن في تلك «القواعد الأساسية التي ينطلق منها الباحث في نظره للقرآن... أما الطريقة فهي تطبيقه لتلك القواعد التي حكمته وقيدته، وكيفية مراعاته لها، والتزامه بها»⁽¹⁾. وقد عرفنا من قبل أهم القواعد المنهجية التي يركز عليها التفسير الموضوعي.

هذا وقد اصطلح عبد السلام حمدان اللوح بمصطلح النظرية، وهو يقصد بها العلمية، معللاً ذلك بجدائته «مما يحتاج إلى نظرية منهجية تضبط هذه الأبحاث وتصحح مسارها»،⁽²⁾ وقد عرفنا أن هذا المصطلح غير دقيق في الدلالة على حقيقة التفسير الموضوعي.

الفرع الثالث: مصطلحات التفسير الموضوعي المعاصرة.

قد اشتهر عند الدارسين المعاصرين جملة من المصطلحات الموظفة في منهج التفسير الموضوعي، بعضها متفق عليها، والبعض الآخر مما اختلفت فيه أنظار هؤلاء الدارسين.

البند الأول: المصطلحات المتفق عليها: وأهمها يتمثل فيما يلي:

أ - الموضوع القرآني: حيث أجمع جميع الدارسين العاصرين، أن هذا المصطلح بمفاهيمه المتعددة هو الذي يعكس حقيقة التفسير الموضوعي.⁽³⁾

وقد أكدوا على أهميته حتى قال عنه عبد الستار: «هو أحدث الأنواع جميعاً، وهو الاصطلاح العلمي الجديد، وهو أولى النوعين باسم "التفسير الموضوعي عند الإطلاق"»،⁽⁴⁾ بل رأى البعض أن جميع الأنواع الأخرى ترجع إليه، ولا يوجد نوع منها مستقل بذاته غيره.⁽⁵⁾

ب الألوان والأنواع: وهما أيضاً من المصطلحات التي اصطالحوا بها وأطلقوها على أقسام التفسير الموضوعي، فمن اصطلاح "بالألوان" مصطفى مسلم،⁽⁶⁾ وصلاح عبد الفتاح الخالدي،⁽⁷⁾ وعطية وعطية طه عطية الزملة،⁽⁸⁾ وغيرهم.

¹ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 70.

² - وقفات مع نظرية التفسير الموضوعي: عبد السلام حمدان اللوح، مقال بمجلة الجامعة الإسلامية، غزة، المجلد 12، العدد الأول، يناير 2004م، ص 45.

³ - ينظر: فهو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 06، والمدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، ص 13، والمدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 24 وغيرهم.

⁴ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 26.

⁵ - دروس في التفسير الموضوعي (التنظير للمنهج): صونيا وافق، مكتبة اقرأ، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2006م، ص 42.

⁶ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 23.

⁷ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 59.

⁸ - المنح الربانية في التفسير الموضوعي للآيات القرآنية: عطية طه عطية الزملة، ص 79.

ومن اصطلاح بمصطلح "الأنواع" أحمد السيد الكومي،⁽¹⁾ وعبد الستار فتح الله سعيد،⁽²⁾ وعبد
وعبد الحي الفرماوي،⁽³⁾ وعباس عوض الله عباس⁽⁴⁾، و ، وغيرهم.

هذا وقد اصطلاح عبد الجليل عبد الرحيم بمصطلح "الأقسام"،⁽⁵⁾ وهو مصطلح مرادف
للمصطلحين السابقين.

ج - الجمع والتجميع: وهو مصطلح أطلق لإحصاء مفردات الموضوع القرآني ذات الدلالات
المتعددة، والذي -الجمع- ييلور مقصد القرآن الكريم تجاه ذلك الموضوع؛ ولذلك عرّف الكثير من
الدارسين التفسير الموضوعي بأنه «جمع الآيات القرآنية، ذات الهدف الواحد، والتي اشتركت في موضوع
واحد».⁽⁶⁾ وهو مصطلح -كما نرى- أطلق على إحدى الخطوات المنهجية المتبعة في الموضوع القرآني
والمصطلح القرآني خصوصاً، وأما إطلاقه على تسمية الموضوع القرآني به كما فعل أحمد رحماني حينما
أسماه بـ "التفسير التجميعي"،⁽⁷⁾ فهو مصطلح تفرد به دون باقي المنظرين المعاصرين للتفسير الموضوعي.

د- منهجية البحث أو خطوات البحث:

وهما مصطلحان أطلقا على الخطوات والطرق المرحلية التي يجب إتباعها أثناء البحث في قسم من
أقسام التفسير الموضوعي، فبعض الدارسين سمى كتابه به كما فعل زياد خليل محمد الدغامين⁽⁸⁾، والكثير
والكثير منهم جعلوه عنواناً فرعياً من بين العناوين الأخرى التي تكشف حقيقة التفسير الموضوعي.⁽⁹⁾

¹ - التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: أحمد السيد الكومي ومحمد أحمد يوسف القاسم، ص 09.

² - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 24.

³ - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 40.

⁴ - محاضرات في التفسير الموضوعي: عباس عوض الله عباس، ص 27.

⁵ - التفسير الموضوعي في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم، ص 1/ 30.

⁶ - ينظر: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: أحمد السيد الكومي وآخر، ص 16، والبداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي،
ص 41، والمدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 21، وغيرهم.

⁷ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحماني، ص 31.

⁸ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد خليل محمد الدغامين، ص 01، 35 وغيرها.

⁹ - ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم من 35، والتفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان الميزان، عبد الجليل عبد
الرحيم، ص 1/ 71، والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح الخالدي، ص 69 وغيرهم.

هـ- التناسب والمناسبات:

وهو أيضا مصطلح يكاد يتفق على صحته واستعماله في مجالات التفسير الموضوعي وأنواعه بين أغلب الدارسين المعاصرين، خاصة ما يتعلق بكشف أوجه الارتباط بين الآيات داخل السورة الواحدة. (1)

البند الثاني: المصطلحات المختلف فيها: ونذكر أهمها فيما يلي:

أ - **الاتجاه التوحيدي:** وهو مصطلح تفرد به محمد باقر الصدر⁽²⁾؛ وذلك حينما فرق بينه وبين ما سماه بـ "الاتجاه التجزيئي" في التفسير، والذي يقف دائما عند حدود فهم هذا الجزء أو ذلك من النص القرآني ولا يتجاوز ذلك غالبا⁽³⁾؛ بينما يتناول الاتجاه التوحيدي (أو الموضوعي) «الدراسة القرآنية القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة»⁽⁴⁾، وهذا يعني أن التوحيد عنده يدل على توحيد والتزام عناصر الموضوع القرآني المتناول بالبحث والدرس.

وهو مصطلح يدل على مفهوم صحيح مرادف لمصطلح "الموضوعي" لكنه لم يتداول في الدراسات المعاصرة، فلم يأخذ به إلا القليلون منهم.⁽⁵⁾

ويلاحظ عليه أيضا توظيف مصطلح "الاتجاه"، وعرفنا من قبل أنه مصطلح يدل على الأهداف والمقاصد القرآنية في دراسة موضوعات الحياة، وأما إطلاقه على ماهية التفسير الموضوعي بكل حقائقه وأركانه ومناهجه، فهو اختزال له في المقاصد فقط؛ إذ الاتجاه يطلق غالبا على "الهدف الذي يتجه إليه المفسرون"⁽⁶⁾، ولعله يقصد بالاتجاه هنا التوجه والسلوك والطريقة، وهو أيضا اختزال التفسير الموضوعي في منهجيته كذلك.

ب - **النظرية القرآنية:** وهو مصطلح استعمله محمد باقر الصدر للدلالة على أهداف القرآن ومقاصده تجاه تلك الموضوعات، حيث أسماه "موقف نظري"⁽⁷⁾، وأسماه أيضا "حقيقة قرآنية"⁽¹⁾، وصرح وصرح بها في موضع آخر من كتابه. (2)

¹ - ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 55، والمراجع السابقة أيضا.

² - المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، ص 12.

³ - المرجع نفسه، ص 11.

⁴ - المرجع نفسه، ص 12.

⁵ - ينظر: التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحمان، ص 47.

⁶ - اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: فهد الرومي، 12/1.

⁷ - المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر: ص 13.

وعرفنا -أيضا- من قبل أن هذا المصطلح "النظرية" غير دقيق في الدلالة على مقاصد القرآن الكريم وأهدافه، حتى وإن اعتمده بعض الدارسين⁽³⁾؛ إذ شتان ما بين الحقيقة والمقصد والهدف وبين النظرية من خلال الفرق بين الإطلاق والنسبية، والكلية والجزئية، والقطعية والاحتمالية.

ج -التفسير الموضوعي التجميعي: وهو مصطلح تفرد به أحمد رحماني؛ حيث أطلقه على التفسير الموضوعي أو التوحيدي كمصطلح مرادف لهما؛ إذ قال عن هذه المصطلحات الثلاثة: «وكلها مصطلحات تشير إلى طريقة واحدة في تفسير القرآن الكريم تجعل "الوحدة الموضوعية" هي غايتها في التفسير»⁽⁴⁾.

والظاهر أن هذا المصطلح يصلح للمنهج دون هذا النوع من التفسير الموضوعي؛ إذ هو اختزال لحقائقه ومقاصده وخطواته في المنهج فقط، كما صرح بذلك أحمد جمال العمري حينما تحدث عن مناهج التفسير الموضوعي.⁽⁵⁾

د- التفسير الموضوعي الكشفي: ما قيل عن التفسير التجميعي يقال أيضا عن التفسير الكشفي؛ صحيح أن أن المصطلح دقيق في الدلالة على أوجه الارتباط بين آيات السورة الواحدة، وفي الدلالة على اكتشاف الوحدة الموضوعية، أو «للخروج بتصور محدد حول موضوعها⁽⁶⁾»، كما عبر أحمد رحماني عن ذلك.

لكن هذا المصطلح غير جامع لحقائق التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، وإنما يختص الكشف بإبراز التناسب بين آيات السور الواحدة، وهذا لا يمثل حتى كل خطوات البحث في السورة القرآنية كما حددها أحمد رحماني.⁽⁷⁾

هـ- التفسير الموضوعي الوجيز، والوسيط، والبسيط: وهي مصطلحات أطلقها عبد الستار فتح الله سعيد للدلالة على أقسام مناهج المفسرين في التفسير الموضوعي؛ وبرر الحديث عنه بقوله: «لم

¹ - المرجع نفسه.

² - المرجع نفسه، ص 29.

³ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 48.

⁴ - المرجع نفسه، ص 31.

⁵ - دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني: أحمد جمال العمري، ص 72.

⁶ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 57.

⁷ - مرجع سابق، ص 65.

يتكلم العلماء عن مناهج المفسرين في التفسير الموضوعي بذاته؛ لأنه لا يزال في طور التطور والاكتمال، وما نقوله هنا بعضه مستنبط من النظر فيما تم منه، وبعضه اقتراح واجتهاد لضبط هذه المناهج»⁽¹⁾.
و بغض النظر عن صحة أو ضعف مفاهيم هذه المصطلحات، إلا أنها مصطلحات جديدة في التفسير الموضوعي، ابتكرها عبد الستار، وصرح بنفسه أنها «اقتراح واجتهاد» في هذا اللون المعاصر من التفسير، ولم يتابع عليها في الاصطلاح بها في باقي الدراسات القرآنية المعاصرة.
هذا وتجدر الإشارة أن أغلب هذه المصطلحات اتفق أو اختلف على تسميتها فقط، وإلا فإن أغلب مفاهيمها الصحيحة ومتفق عليها، بخلاف الكثير من المفاهيم المختلف فيها نظرياً، والمتفق عليها تسمية، فإنها لا تدخل ضمن هذا الإطار؛ كالمصطلح القرآني، والتفسير الموضوعي للسورة القرآنية، وغيرها ممن سنتناولها -إن شاء الله- في مباحث قادمة.

الفرع الرابع: نشأة التفسير الموضوعي في الدراسات المعاصرة.

تباينت أنظار الدارسين المعاصرين حول نشأة التفسير الموضوعي واختلفت، تبعاً لاختلافهم في تحديد حقيقة التفسير الموضوعي، خاصة عند المتقدمين؛ حيث يمكن تصنيف رؤى المعاصرين في هذه القضية إلى رأيين:

البند الأول: التفسير الموضوعي قديم النشأة.

اتفق أغلب الدارسين المعاصرين -على اختلاف التفاصيل- أن للتفسير الموضوعي أصولاً عند المفسرين المتقدمين، بما فيهم الجيل الأول -جيل الرسول صلى الله عليه وسلم- و-الصحابه الكرام- رضوان الله عليهم- مستندين في ذلك إلى أن حقيقة التفسير الموضوعي تكمن في «التجميع والتوزيع لبعض الآيات»⁽²⁾ في نسق معرّفٍ تقابلي تفسر به بعض الألفاظ الغامضة أو المتشابهة بآيات أخرى، فيما يعرف بالتفسير المأثور، أو بتعبير أدق بتفسير القرآن بالقرآن.⁽³⁾

وقد تباينت نظراتهم في تكييف هذه النشأة، والتأصيل لها؛ ففي حين اكتفى البعض منهم بذكر نماذج لهذا التفسير من أقوال النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام، وتابعيهم، ثم ذكروا نماذج لمؤلفات علمية في بعض علوم القرآن كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه وغيرها، والتي تؤكد فكرة الموضوعية⁽⁴⁾ في تفسير كلام الله، سواء كانت هذه الكلمات في العصور المتقدمة أم كانت في

¹ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 26-27.

² - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحمانى، ص 105.

³ - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحى الفرماوي، ص 42، والتفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، مكتبة مصعب بن عمير،

114/1.

⁴ - نقصد بالموضوعية هنا الموضوع، لا ما هو مقابل الذاتية والتحيز.

في العصر الحديث، وذلك كما فعل أحمد الكومي⁽¹⁾، وعباس عوض الله عباس⁽²⁾، وأحمد جمال العمري⁽³⁾، ومحمد نبيل غنایم⁽⁴⁾، وغيرهم.

إلا أن البعض الآخر درسوا هذه النشأة من خلال نظرتهم لتطور التفسير عموماً، وتحدد حاجات الناس إليه عبر عصوره، مفرقين في ذلك بين نظرة المتقدمين ونظرة المحدثين التي اتسمت بالشمول والاختصاص والعلمية؛ وهذا ناتج عن ظهور مصطلح التفسير الموضوعي « في القرن الرابع عشر الهجري عندما قررت هذه المادة ضمن مواد قسم التفسير بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر»⁽⁵⁾ في حين أن المتقدمين عرفوا التفسير الموضوعي، «ولكنه العلم المتسم بالصبغة العملية التي هي الثمرة المرجوة من هذا العلم» كما جزم عبد الجليل عبد الرحيم⁽⁶⁾.

وعلل عبد الحي الفرماوي عدم اهتمام المتقدمين بالتفسير الموضوعي -مصطلحا وتنظيراً- بأنه يرجع إلى «أن حاجيتهم لم تكن ماسة لدراسة موضوعات القرآن الكريم على هذا النحو»⁽⁷⁾، إضافة أنهم لم يسلكوا سبيل التخصص في دراساتهم العلمية⁽⁸⁾.

واعتماداً على مبدأ التخصص نفى عبد الستار فتح الله سعيد أن تدرج المؤلفات القديمة في علوم القرآن -بدءاً من عصر التدوين- ضمن التفسير الموضوعي بمعناه الخاص؛ الذي يكون بين آياته «وحدة في الموضوع والغاية معا»⁽⁹⁾، معللاً ذلك بأن المفسر المتقدم يتناول تفسير الآيات القرآنية على طريقة البحث المطلق، والمقارنة العلمية والاستنباط؛ مما يندرج تحت فنون أخرى غير التفسير الموضوعي مثل «علوم القرآن» أو «دراسات قرآنية»⁽¹⁰⁾، وهو التعليل ذاته الذي اعتمده صلاح عبد الفتاح الخالدي -

1- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: أحمد السيد الكومي ومحمد أحمد يوسف القاسم، ص 20 وما بعدها.

2- محاضرات في التفسير الموضوعي: عباس عوض الله عباس، ص 21 وما بعدها.

3- دراسات في التفسير الموضوعي لقصص القرآني: أحمد جمال العمري، ص 18 وما بعدها.

4- بحوث ونماذج من التفسير الموضوعي: محمد نبيل غنایم: دار القلم، القاهرة، ط1، 1422هـ، 2002م، ص 19 وما بعدها.

5- مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 17.

6- التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم، 1/ 34.

7- البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 44.

8- المصدر نفسه، ص 44.

9- المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 25.

10- المصدر نفسه، ص 32-33.

بصيغ تعبيرية مختلفة- والذي قبلها بكثير من التساهل والتجاوز فقط؛ لأنها «تكون من التفسير الموضوعي بمعناه العام الشامل القرآني، وليس بمعناه الخاص العلمي المنهجي».⁽¹⁾

ويعد أحمد رحماني أهم من تناول نشأة التفسير الموضوعي بصورة منهجية مرحلية؛ إذ بعد أن جرى بعض الدارسين المعاصرين في التفريق بين نشأته الموضوع القرآني وبين نشأته في السورة القرآنية⁽²⁾ أكد أن التفسير الموضوعي من خلالهما قديم النشأة نسبياً⁽³⁾ وأن المصطلح حديث العهد.⁽⁴⁾

وذلك باعتبار أن القصد من التفسير الموضوعي «الدراسة الشاملة للموضوعات المنظمة» المتسمة بـ «العمق والربط والتحليل»⁽⁵⁾، ثم قسّم مراحل تطور التفسير الموضوعي إلى ثلاثة مراحل أساسية (الإرهاصات، التأليف التطبيقي، النضج والتنظير)⁽⁶⁾، كما قسّم كذلك كل مرحلة إلى مرحلة متعاقبتين؛ ففي مرحلة الإرهاصات تحدث عن شواهد للتفسير الموضوعي قبل وبعد التأليف الفقهي لآيات القرآن الكريم في موضوعاته وأبوابه الأساسية، كآيات الصلاة والزكاة وغيرها.⁽⁷⁾

وفي مرحلة التأليف التطبيقي تحدث عن مؤلفات اقترنت من منهج التفسير الموضوعي، سواء كانت في علوم القرآن من ناسخه ومنسوخه، وغيره وأحكامه وغيرها، موافقا في ذلك صنيع الفرماوي⁽⁸⁾ وعبد الله سعيد⁽⁹⁾، أو كانت هذه المؤلفات مختصة في الدراسات اللغوية في القرآن أو ما يعرف بـ "الوجوه والنظائر"، موافقا في ذلك صنيع مصطفى مسلم⁽¹⁰⁾، وكانت هذه المرحلة الأولى ممهدة لمرحلة أخرى تنبه من خلالها العلماء لفكرة الوحدة الموضوعية، ودرسوها دراسة جلية، كما فعل الشاطبي في "موافقاته"⁽¹¹⁾، والذي نص أحمد رحماني أنه أول من عنى بها عناية واضحة.⁽¹²⁾

¹ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 44.

² - ينظر: البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 42_44 ومنهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد خليل الدغامين، ص 16_95 وغيرها.

³ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 105.

⁴ - مصادر التفسير الموضوعي: أحمد رحماني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1998م، ص 03.

⁵ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 105.

⁶ - المرجع نفسه، ص 106-122.

⁷ - مرجع نفسه، ص 106-113.

⁸ - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 43.

⁹ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 30-31.

¹⁰ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 20-21.

¹¹ - ينظر: الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي، 3/343 وما بعدها.

¹² - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 114، 118.

وفي مرحلة النضج والتنظير بيّن أحمد رحماني بروز معالم منهج التفسير الموضوعي بصورة واضحة ومستقلة من خلال مرحلتين متعاقبتين؛ الأولى وضع فيها المعاجم والفهارس التفصيلية للآيات القرآنية كما فعل "جون لا بوم"⁽¹⁾ وغيره، والثانية نظر فيها للتفسير الموضوعي بدءاً من كتابات "أمين الخولي" إلى غاية المؤلفات المعاصرة المنظرة لمصطلح التفسير الموضوعي.⁽²⁾

البند الثاني: التفسير الموضوعي حديث النشأة.

وهو رأي لأقلية الدارسين؛ ممن رأوا أن التفسير الموضوعي مصطلح معاصر، لم يظهر كمنهج مستقل -أو كعلم عند البعض- إلا في القرن الرابع عشر الهجري؛ فقد ناقش "زيد خليل الدغامين" فكرة قدم نشأة التفسير الموضوعي عند بعض الباحثين المعاصرين⁽³⁾، ونفى وضوح التفسير الموضوعي عند المتقدمين كمنهج موضوعي يتجاوز الجمع والتحليل إلى إبراز المواقف الخاصة،⁽⁴⁾ حتى تلك المؤلفات المؤلفات التي عالجت موضوعاً مفرداً، كـ «الناسخ والمنسوخ» و «مجاز القرآن» «لا تصلح تأصيلاً تاريخياً لبداية التفسير الموضوعي⁽⁵⁾»؛ لأن موضوعها لم يقصد به حقيقة التفسير، إضافة إلى ذلك إغراقهم في التجزيئية التحليلية للموضوع المعالج، وفقدانهم للنظرة الشمولية لجوانب ذلك الموضوع من جهات أخرى «فمن بحث في موضوع الأحكام مثلاً، كان كل همه أن يبين الحلال والحرام في الآيات المفسرة... دون الطرق إلى البعد الحضاري لهذه الأحكام».⁽⁶⁾

لكنه من جهة أخرى اعترف بقدوم فكرة الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، مناقشاً عبر كل عصر بعض المؤلفات بما يراه مناسباً لمنهج التفسير الموضوعي المعاصر.⁽⁷⁾

و يعد محمد باقر الصدر أهم من انتصر لهذه الرؤية، نافياً بذلك، و مقراً في آن واحد بوجود بذوره في التفسير الفقهي - وإن كان قليلاً -؛ إذ يقول في ذلك منظراً ومعللاً: «أما ما ظهر على الصعيد القرآني من دراسات تسمى بالتفسير الموضوعي أحياناً من قبيل دراسات بعض المفسرين حول موضوعات معينة تتعلق بالقرآن الكريم كأسباب النزول... فليست من التفسير التوحيدي والموضوعي بالمعنى الذي نريده، فإن هذه الدراسات ليست في الحقيقة إلا تجميعاً عددياً لقضايا من التفسير

¹ - وذلك في كتابه "تفصيل آيات القرآن"، دار الفكر، ط2، 1955، ص 661_671.

² - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحماني، ص 119-122.

³ - كالأستاذ عبد الجليل عبد الرحيم، والكومي، والفرماوي، وغيرهم.

⁴ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زيد خليل الدغامين، ص 19.

⁵ - المرجع نفسه.

⁶ - المرجع نفسه، ص 20.

⁷ - المرجع نفسه، ص 95-105.

التجزئي لوحظ فيما بينها شيء من التشابه، وفي كلمة أخرى ليست كل عملية تجميع أو عزل دراسة موضوعية...»⁽¹⁾.

يبدو أن هذا الرأي _ على قلة أنصاره _ وجيها _ إلى حد ما _ في تأكيد أن جهود السابقين لم ترق إلى استيعاب حدود التفسير الموضوعي ومعالجه المتداولة في عصرنا الحاضر؛ إذ لا يمكن تجزئة حقيقة التفسير الموضوعي أو اختزالها في خطوة أو معلم منه فقط (مرحلة الجمع والتقابل)؛ بل لابد من شفع ذلك بالاستقراء التام لجميع النصوص المتعلقة بالموضوع، وباستخراج النظرية أو الموقف القرآني تجاهه، مما يدفع إلى القول _ بلازم رأيهم _ بأن العلوم والمناهج تظهر فجأة دون مقدمات، أو أن هذه المقدمات لم تكن مصبوغة آنذاك بصبغة العلمية⁽²⁾ المنهجية، وهو بهذا رأي مبالغ فيه.

¹ - المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، ص 17.

² - يقصد بالعلمية هنا وصف التفكير العقلي المنضبط بحدوده المنطقية، وليس مفهوم العلم الأكاديمي المتعارف عليه

المطلب الثاني: أنواع التفسير الموضوعي في الدراسات المعاصرة.

وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول: حقيقة المصطلح القرآني بين النفي والإثبات في الدراسات المعاصرة.

الفرع الثاني: حقيقة الموضوع القرآني في الدراسات المعاصرة.

الفرع الثالث: حقيقة السورة القرآنية بين النفي والإثبات في الدراسات المعاصرة.

الفرع الرابع: التفسير الموضوعي في جملته عند عبد السلام حمدان اللوح.

الفرع الأول: حقيقة المصطلح القرآني بين النفي والإثبات في الدراسات المعاصرة.

اختلفت أنظار الدارسين المعاصرين حول وجود المصطلح القرآني كقسم رئيسي من أقسام التفسير الموضوعي؛ حيث يمكن تقسيمها إلى موقفين متباينين:

البند الأول: المصطلح القرآني ليس من أقسام التفسير الموضوعي.

ولعل هذا القول يمثل رأي أغلب المنظرين المعاصرين للتفسير الموضوعي؛ سواء ممن لم يذكره ولم يشر إليه؛ حينما جنح إلى تقسيم التفسير الموضوعي إلى قسمين رئيسيين: الموضوع والسورة، كما فعل أحمد السيد الكومي⁽¹⁾، وعبد الحي الفرماوي⁽²⁾، وعبد الجليل عبد الرحيم⁽³⁾، وأحمد جمال العمري⁽⁴⁾، وأحمد رحماني⁽⁵⁾، وهو صنيع محمد الغزالي في مقدمة تفسيره⁽⁶⁾، أو في مؤلفاته الأخرى⁽⁷⁾ أو كان ممن اعتبره قسما واحدا فقط، كحال عبد الستار فتح الله سعيد؛ الذي نفى أن يتحقق التفسير الموضوعي إلا فيما أسماه "التفسير الموضوعي الخاص"⁽⁸⁾، ونفى الباقي حينما قال: «... وكذلك يتجنب المفسر الكتابة تحت هذا العنوان فيما يسمى "بالنظام في القرآن" أو الوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم، أو التفسير الموضوعي بمعناه العام كالنسخ في القرآن أو علم المناسبات؛ لأن هذه الجوانب مع جلالها وأهميتها، لكنها خارجة عن "مصطلح التفسير الموضوعي" معناه الجديد المقيد بمعناه الخاص...»⁽⁹⁾

ولم يمنح أكثرهم إلى التعليل في ذلك، إلا ما ورد من إشارات محتشمة عند عبد الستار فتح الله سعيد؛ والذي اشترط فيه قيام رابطة على "وحدة المعنى والغاية بين أطرافه وأفراده"⁽¹⁰⁾؛ لأنه «كلما زادت القيود قلت الأفراد، وازداد التخصص في إطار عكسي»⁽¹¹⁾.

¹ - ينظر: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: أحمد السيد الكومي وزميله، ص 18 .

² - ينظر: البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 40.

³ - ينظر: التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم، ص 30/1.

⁴ - ينظر: دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني: أحمد جمال العمري، ص 70، 72.

⁵ - ينظر: التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 43.

⁶ - ينظر: نحو التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 04.

⁷ - ينظر: تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل: محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ط 5، 2003م، ص 128 وما بعدها.

⁸ - ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 24.

⁹ - المصدر نفسه، ص 57_58 .

¹⁰ - المصدر نفسه، ص 25.

¹¹ - المصدر نفسه، ص 26 .

ومما يستأنس بآرائه أيضا في هذه المسألة، اشتراطه في إحدى خطوات البحث في التفسير الموضوعي (اختيار العنوان)، أن يختار أجمع الألفاظ القرآنية الدالة على موضوعها، بحيث يجمع «الألفاظ المقاربة لمعناه، ثم الألفاظ المقابلة للمعاني السابقة؛ لأن كل حكم يتقرر في النقائص والأضداد سلبا وإيجابا...»⁽¹⁾.

وأذكر أن عبد الحي الفرماوي أكد بأن المصطلحات القرآنية تندرج ضمن «الأشباه والنظائر»، وهو إن كان من علوم القرآن الكريم، لكنه لا يعد ضربا من التفسير الموضوعي؛ بل هو أقرب إلى التفسير اللغوي العام.⁽²⁾

ويعد زياد خليل الدغامين أهم من ناقش هذه المسألة، واعترض على أقوال المجوزين له؛ خاصة ممن أسماهم بـ «المدرسة الأدبية»⁽³⁾؛ والتي اهتمت بدراسة المفردات القرآنية وجماليتها الإعجازية⁽⁴⁾، واعتبرت أن هذه الدراسات ضربا من التفسير الموضوعي، هذا ما دفع الدغامين أن يرد عليهم بالأدلة التالية:

«أولا: أن البحث عن مفردة قرآنية واستخداماتها في القرآن لا يتأتى لجميع مفردات القرآن، ... فهناك كثير من المفردات لم تذكر إلا مرة واحدة في القرآن كله، مثل كلمة مسح، وكلمة مسد، وكلمة أمشاج...

ثانيا: المقصود من البحث عن لفظة واستخداماتها في القرآن هو التعرف بجلاء على المعاني الدقيقة لمفردات القرآن من خلال الاستعمال القرآني لها.

ثالثا: إن هذا التعريف - وإن كانت صورته قريبة من التفسير الموضوعي -، إلا أنه يختلف عنه من حيث الغاية والهدف ومنهجية البحث.

رابعا: إن ذلك سيقودنا إلى تجزئية في التفسير الموضوعي؛ تجزئية لا تعطي تصورا شموليا عن موضوعات القرآن الكريم»⁽⁵⁾.

¹ - مصدر سابق، ص. 60.

² - وذلك في لقاء لي معه في مكتبته الخاص بعين شمس بالقاهرة بتاريخ: 20/06/2006.

³ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد خليل محمد الدغامين، ص 14.

⁴ - كصنيع عائشة عبد الرحمان في كتابها " الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق"، دار المعارف، القاهرة، ط3، ص 210.

⁵ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 14-15 بتصرف.

فليس الأهم في التفسير الموضوعي جمع آيات المفردة القرآنية؛ وإنما يتجاوزها إلى ملاحظة النظرة الشمولية، والوحدة الموضوعية، وهما اللتان غابتا في منهج المدرسة الأدبية في دراسة المفردات القرآنية حسب تعبير الدغامين.⁽¹⁾

كما نفى -من جهة أخرى- أن يكون صنيع نبت الشاطئ في تفسيرها «التفسير البياني للقرآن» ضرباً من التفسير الموضوعي؛ معللاً ذلك بقوله: «فنحن مع تفسير تقليدي للسور ذات الموضوع الواحد، لا تجمع فيه الأستاذة ما يتعرض لهذا الموضوع، ويدور حوله من القرآن؛ وإنما تجمع ما يتصل بألفاظ الآية والسورة من جميع القرآن على نحو اشتقاقي، تهتدي من خلاله -ومعاونة سياق الآية- إلى المعنى البياني والأدبي لهذا اللفظ...».⁽²⁾

ولا تخلو هذه النظرة من تعسف وشطط في التحليل والتعليل معاً؛ فلا تقتصر دراسة المفردة القرآنية على استخراج دلالاتها المعجمية في إطار اشتقاقي بحث؛ بل يتعدى ذلك إلى اكتشاف الوحدة العامة للمفردة، وإلى دراستها دراسة شمولية لكل معانيها السياقية؛ صحيح أنها لا تخلو مما أسماه الدغامين بالنظرة التجزيئية، ولكنها مختصة باكتشاف الدلالات الهدائية لموارد هذه المفردة الاشتقاقية، وهذا قدر كاف للتفسير الموضوعي، خاصة فيما أسماه عبد الستار فتح الله سعيد بـ "التفسير الموضوعي الوسيط".⁽³⁾

البند الثاني: المصطلح القرآني قسم من أقسام التفسير الموضوعي.

وهو رأي لبعض الدارسين المعاصرين، يتقدمهم أصحاب المدرسة الأدبية المعاصرة التي يتزعمها أمين الخولي وعائشة عبد الرحمان⁽⁴⁾، وانتصر له الكثيرون، كمصطفى مسلم⁽⁵⁾، وعبد السلام حمدان اللوح⁽⁶⁾، وعباس عوض الله عباس⁽⁷⁾، وصلاح عبد الفتاح الخالدي⁽⁸⁾.

¹ - مرجع سابق، ص 15.

² - المرجع نفسه،

³ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 26.

⁴ - التفسير البياني في القرآن الكريم: عائشة عبد الرحمان، دار المعارف، ط7، ص 17-18. والتفسير نشأته، تدرجه، تطوره، أمين الخولي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1982م، ص 92 وما بعدها.

⁵ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 23 وما بعدها.

⁶ - وقفات مع نظرية التفسير الموضوعي: عبد السلام حمدان اللوح، مقال مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، ص 65_66.

⁷ - محاضرات في التفسير الموضوعي: عباس عوض الله عباس، ص 27.

⁸ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 59.

هذا الأخير الذي فصل الحديث عن المصطلح القرآني، سواء من الناحية النظرية التأصيلية؛ في تعريفه ورسم حدوده⁽¹⁾، وفي وضع الخطوات المرحلية المنهجية للبحث في المصطلحات القرآنية؛ مراحل بحثية وجمعية أو مراحل ترتيب وصياغة⁽²⁾، أو كان حديثه عنه من خلال النماذج التطبيقية التي قدمها لنا لنا كمثال يؤكد حجم هذا اللون كنوع من أنواع التفسير الموضوعي.⁽³⁾

فليس مفهوم المصطلح القرآني فقط، ملاحظة اشتقاقاته وتصاريفه اللغوية المختلفة فقط، دون استقصاء وشمول على حسب تعبير الدغامين⁽⁴⁾؛ بل إنه يسعى لاستخراج الدلالات والحقائق له، بعد ربط آياته بالجمعة بالواقع وملاحظة الوحدة الموضوعية المختصة به.⁽⁵⁾

وقد لاحظ الخالدي أن التأليف في هذا الإطار قديم النشأة، وما وضعه الراغب الأصفهاني في مفرداته، والدغاماني في وجوهه ونظائره، والسمين الحلبي في عمدته إلا لبنات أولية لهذا اللون⁽⁶⁾، متابعا في ذلك صنيع مصطفى مسلم⁽⁷⁾، وليست نماذج مستقلة تتسم بالدقة والشمول كما قال الدغامين⁽⁸⁾، الدغامين⁽⁸⁾، وقد بين الخالدي أيضا أن هناك فرقا بين المصطلح وبين الموضوع القرآني من خلال البحث البحث في هذا النوع الأخير «أعم وأشمل من الأول، وميدانه في البحث أوسع، ووقفاته الفكرية معه أكثر، ومعالجته الواقعية كحاجات ومشكلات أمته من خلاله أوضح».⁽⁹⁾

و لعل هذه النظرة أرجح لوضوحها وقوة أدلتها وتوفر نماذجها التطبيقية، لكن لا تعمم على كل المفردات القرآنية خاصة تلك التي وردت مرة أو مرات قليلة في القرآن الكريم.

¹ - مرجع سابق، ص 59.

² - المرجع نفسه، ص 72.

³ - كدراسته عن الجهل والجاهلون، المرجع نفسه، ص 97، ودراسته المستقلة «التفسير والتأويل»، و «الإيمان والإسلام».

⁴ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 15.

⁵ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 59.

⁶ - المرجع نفسه.

⁷ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 24.

⁸ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 15.

⁹ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 62.

الفرع الثاني: حقيقة الموضوع القرآني في الدراسات المعاصرة.

لا خلاف بين كافة المنظرين للتفسير الموضوعي في العصر الحاضر في اعتبار هذا اللون؛ بل إنه النوع المتبادر إلى الأذهان إذا أطلق لفظ التفسير الموضوعي، «وهم متفقون تماما على أهمية هذا الاتجاه في البحث، ومقدرون للفوائد العظيمة المرجوة منه»⁽¹⁾، ومتفقون كذلك على تحديد مفهومه وماهيته التي التي تدور «حول بيان المعنى المراد لذلك الموضوع»⁽²⁾؛ وذلك من خلال جمع آياته «المتفرقة في ثنايا سور سور القرآن العزيز، سواء منها ما كان ذا صلة مباشرة بالموضوع الذي يراد بحثه من خلال الآيات، أو كانت صلته بها غير مباشرة، ولكن تمس الحاجة إليها في تحليل الموضوع»⁽³⁾. وهم مع اتفاقهم على هذا، مختلفون في ضبط حدوده الدقيقة، وفي الاصطلاح عليه بتسميات أخرى، وفي تحديد «منهج البحث فيه، وحتى في طريقة التفسير والتطبيق»⁽⁴⁾؛ ولكن نكتفي بعرض آرائهم في ضبط معاملة المفهومية بعد أن عرضنا من قبل آرائهم في الاصطلاح عليه ببعض التسميات.⁽⁵⁾

ففي حين اكتفى أغلب المنظرين للتفسير الموضوعي في تحديد معاملة في «تتبع المعنى الواحد في طول القرآن وعرضه وحشده في سياق قريب، ومعالجة كثير من القضايا على هذا الأساس»⁽⁶⁾، كما كان كان صنيع الكومي⁽⁷⁾، وعبد الحي الفرماوي⁽⁸⁾، ومصطفى مسلم⁽⁹⁾، وعبد الجليل عبد الرحيم⁽¹⁰⁾، وصلاح عبد الفتاح الخالدي⁽¹¹⁾، وغيرهم، في حين اكتفى هؤلاء بهذا التحديد، أصر عبد الستار فتح الله سعيد أن ليس كل جمع لآيات المواضع القرآنية، يعد تفسيراً موضوعياً؛ إذ هو قسمان: تفسير موضوعي عام «وهو الذي بين أطراف موضوعه وحدة في الغاية فقط، وليس في أصل المعنى»⁽¹²⁾، وتفسير موضوعي خاص «وهو الذي يقوم على وحدة المعنى والغاية بين أطرافه وأفراده، فتكون الرابطة

¹ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 21.

² - دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني: أحمد جمال العمري، ص 31.

³ - التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم: 30 / 1.

⁴ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 21، بتصرف قليل.

⁵ - راجع الفرع الثالث من المبحث السابق لهذه الرسالة، عنوان: مصطلحات التفسير الموضوعي، ص 72_76.

⁶ - نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، ص 06.

⁷ - التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: أحمد السيد الكومي وآخر، ص 17.

⁸ - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 41.

⁹ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 16، 27.

¹⁰ - التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم، 30 / 1.

¹¹ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 61.

¹² - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 24.

بينها خاصة وقريبة»⁽¹⁾، وأكد أن هذا النوع الثاني هو الذي أصح أن يطلق على الموضوع القرآني؛ لأنه «كلما زادت القيود قلت الأفراد، وازداد التخصص في اطراد عكسي»⁽²⁾.

وهو كلام دقيق من عبد الستار؛ ولا يظن أن باقي الدارسين يخالفون في هذا التحديد، فأول خطوة يخطوها الباحث يبحث من خلالها في الموضوع القرآني هي اختيار اللفظ الدال عليه، والمشتق من القرآن الكريم⁽³⁾، ولكن الجديد عند عبد الستار هو قوله عن النوع الثاني: «وهو أولى النوعين باسم "التفسير الموضوعي" عند الإطلاق»⁽⁴⁾، وهو تحديد يفهم منه إبعاد النوع الأول عن دائرة التفسير الموضوعي؛ إذ لا يصلح البحث في موضوعات عامة يمكن تجزئتها إلى مواضيع فرعية مستقلة، وهو ما لم ينص عليه - حسب علمي - باقي الدارسين.

وما رآه عبد الستار صحيح ودقيق إلى حد كبير، ولا يعني نفي النوع الأول تماما من دائرة التفسير الموضوعي؛ بل إن ذلك يعد مرحلة أخيرة يصل إليها المفسر بعد أن قطع مراحل أولى في دراسة الموضوعات التخصصية الجزئية، والتي لا يمكن فصلها عن الموضوعات العامة والمحاور الكبرى التي ترتبط بها فيما بينها، وإن كان ارتباطا في الغاية فقط.

¹ - مصدر سابق، ص 25.

² - المصدر نفسه، ص 26.

³ - ينظر مثلا: مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 27، والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح الخالدي، ص 20 وغيرهما.

⁴ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 26.

الفرع الثالث: حقيقة السورة القرآنية بين النفي والإثبات في الدراسات المعاصرة.

اختلفت أنظار الدارسين المعاصرين حول إثبات السورة القرآنية كقسم رئيسي من أقسام التفسير الموضوعي؛ حيث يمكن تقسيمها إلى موقفين متباينين:

البند الأول: السورة القرآنية ليست من أقسام التفسير الموضوعي.

وهو رأي تفرد به عبد الستار فتح الله سعيد، ودافع عنه كثيرا؛ إذ رأى أن التفسير الموضوعي يقوم على القطع واليقين، وهذا ما يفتقد في السورة القرآنية؛ يقول في ذلك: «وأرى -والله أعلم- أن هذا الضرب من الدراسات لا يدخل في التفسير الموضوعي؛ لأن موضوعه وهو «هدف السورة» المتعددة الآيات، أمر التماسي اجتهادي، تختلف فيه الأنظار، فكيف تصنف الآيات في السورة على هدف مختلف على تحديده؟ وكيف يقوم التفسير على الاحتمال؟ مع أن الأصل في التفسير الموضوعي أن يقوم على أساس النصوص ذاتها، أو معانيها المتحققة»، وعد ذلك من الدراسات القرآنية العامة، وليس من التفسير الموضوعي.⁽¹⁾

و هذا القول من عبد الستار رأي مبالغ فيه، ويمكن الرد عليه في النقاط التالية:

أ - أن علم التفسير في معظمه قائم على الاجتهاد، سواء في ذلك التفسير البياني أو الفقهي أو الأثري، أو التحليلي أو الموضوعي، فلا وجه لتخصيص الاتجاه القائل بأن التفسير الموضوعي للسورة القرآنية أنه أمر التماسي اجتهادي، حتى التفسير الموضوعي الخاص، الذي ذكره هو أيضا في أغلبه التماسي، إذا لم ننظر إلى آياته نظرة كلية جامعة، وأغرقنا النظر التحريفي فيها.⁽²⁾

ب - قد قال عبد الستار عن القسم الوسيط من أقسام التفسير الموضوعي عنده «هو الذي يختار فيه المفسر موضوعا يعرضه من خلال سورة واحدة، مثل كعقيدة في سورة الشورى». ⁽³⁾، فهو يجيز دراسة موضوع معين في سورة ما، ثم يرفض الإقرار بأن السورة مشتملة على موضوع واضح، فهذه تجزئية منه في فهم القرآن.

ج - القول بأن التفسير على وجه القطع، لا يعلم إلا تفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا متعذر إلا في آيات قلائل.

¹ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 25.

² - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 114.

³ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 26.

البند الثاني: السورة القرآنية قسم من أقسام التفسير الموضوعي.

وهو رأي باقي الدارسين المعاصرين؛ الذين أكدوا أصالة التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، وأن هذا اللون من التفسير معهود ومألوف عند العلماء؛ بل وقديم النشأة نسبياً، أرجعه الدغامين إلى جهود الباقلاني في بداية القرن 5 هـ⁽¹⁾ حيناً، وإلى الفخر الرازي في بداية القرن 7 هـ حيناً آخر⁽²⁾، وأرجعه أحمد رحماني إلى القرن 8 هـ، إلى جهود الإمام الشاطبي في كتابه "الموافقات"⁽³⁾، مؤكداً أن رؤية الشاطبي كانت واضحة، وتجربته ناضجة، أكثر من صنيع الرازي، والذي وإن قدم نماذج في ذلك، إلا أن رؤيته لم تكن واضحة وضوحاً كاملاً⁽⁴⁾، لا كما نص الفرماوي⁽⁵⁾، ومصطفى مسلم⁽⁶⁾.

و ترتبط بهذا القسم من التفسير الموضوعي فكرة الوحدة الموضوعية للسورة، باعتبارها الغاية المرجوة من هذا اللون التفسيري؛ إذ ينظر الباحث في السورة القرآنية «نظرة موضوعية متدبرة، ويقف مع آياتها وقفة مطولة، ويتعرف على موضوع السورة ومقاصدها وأهدافها... ويخرج من ذلك بتحليل موضوعي موسع... تبدو معها تلك السورة وحدة موضوعية متناسقة»⁽⁷⁾، ولا شك أن بعض المفسرين السابقين والمعاصرين قد كانت لهم بعض التحليلات والتعبيرات حول هذا الموضوع، وكان لهم إدراك لوحدة السور القرآنية؛ فكانت بذوراً أولى «نمت بمرور الزمن نمواً بطيئاً، وهي ما زالت في طور النمو، وقد شكلت هذه البذور الخيوط الأساسية التي نسخ منها المتأخرون فكرة الوحدة الموضوعية في السورة وتطبيقاً» - كما ذكر الدغامين -، من أمثال دراسات سيد قطب، والمعلم الفراهي، ومحمد الغزالي، ومحمد عبد الله دراز، وعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني وغيرهم.

ومحال في موازين المنطق العلمي أن يجتمع لنا هذا الكم الهائل من الدراسات النظرية والتطبيقية لسور القرآن الكريم، والمتفقة في خطوطها الرئيسية الكبرى، ثم نركن إلى القول بإبعاد هذا القسم من دائرة التفسير الموضوعي؛ إذ أن هذه الفكرة كانت واضحة معلومة عندهم، وإن اختلفت مناهجهم

1- منهجية البحث في التفسير الموضوعي للسورة القرآنية: زياد الدغامين، ص 96.

2- المرجع نفسه، ص 98.

3- ينظر الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي، تح عبد الله دراز، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 3/ 350 وما بعدها.

4- التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحماني، ص 117.

5- البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي: ص 43.

6- مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 29.

7- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 64.

وطرقهم في دراستها، الأمر الذي دفع الدغامين إلى القول «وليس بدعا من القول أن نقر هذه الفكرة أو هذا المفهوم، وكأنه أمر مسلم مفروغ منه».⁽¹⁾

الفرع الرابع: التفسير الموضوعي في جملته عند عبد السلام حمدان اللوح.⁽²⁾

و هذا اللون، - كما قال عنه صاحبه - «حديث النشأة والولادة»،⁽³⁾ كما تمنى أن يكون له مستقبلا زاهرا، من خلال إقبال الدارسين عليه نظيرا وتأليفا، لكن ما هي حقيقة هذا النوع من التفسير الموضوعي عند اللوح؟

لم يفصل عبد السلام اللوح في ذلك كثيرا - لا نظيرا ولا تطبيقا -، وكل ما قاله في ذلك لم يتعد بضعة أسطر؛ إذ قال: «وذلك أن القرآن في ترابط سورته وآياته وتناسبها وإحكامها يظهر في جملته وحدة موضوعية واحدة يغطي قضايا وموضوعات موجودة في كل سورة من آياته وسوره، فعلى سبيل المثال موضوع الهداية، فالقرآن الكريم كله هداية لا تستثني من ذلك سورة ولا آية تخرج عن هذا المقصد العام، وكذلك الإعجاز فليس هناك سورة إلا ويتحقق فيها هذا المقصد أيضا، وهكذا المقاصد القرآنية العامة للقرآن تؤخذ من جملته كل لا يتجزأ».⁽⁴⁾

ما يلاحظ عليه أنه وقع منه خلط في مفاهيم كثيرة؛ إذ اصطلح بالمقاصد عن موضوعات القرآن الكريم، والمقصد - وإن كان وثيق الصلة بالموضوع القرآني - لا يعكس ماهية الموضوع بل هو الغاية المقصودة منه؛ إذ قد تكون المقاصد أحيانا مطابقة لموضوعاتها، كما في موضوع سورة النساء مثلا (استقرار المجتمع الإسلامي) داخليا وخارجيا⁽⁵⁾، فمقصد السورة هو حفظ هذا المجتمع، كما قد تكون أحيانا كثيرة أعم من موضوعاتها، كمقصد الهداية والإعجاز الذي اتخذه الباحث مثلا لرأيه هذا؛ إذ كل الموضوعات القرآنية من عقائد وعبادات ومعاملات وحقائق تاريخية وإنسانية وغيرها، تسعى إلى تحقيق الهداية الغرض العام لنزول القرآن الكريم، قال تعالى: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**» [الإسراء/ 09]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن هناك فرقا بين الموضوعات العامة وبين الموضوعات الخاصة التي تصلح للبحث الموضوعي، أو على حد تعبير عبد الستار سعيد الموضوعات التي تندرج ضمن التفسير الموضوعي بمعناه

¹ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 95، ولنصه السابق.

² - عبد السلام حمدان اللوح، أستاذ في كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بغزة الفلسطينية.

³ - وفتات مع نظرية التفسير الموضوعي: عبد السلام حمدان اللوح: مقال بمجلة الجامعة الإسلامية، ص 66.

⁴ - المرجع نفسه.

⁵ - يراجع: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، ص 47.

الخاص «الذي يقوم على وحدة المعنى والغاية بين أطرافه وأفراده فتكون الرابطة بينها خاصة وقريبة»⁽¹⁾، وهذا ما لم ينتبه إليه اللوح.

كما أن دعوته البحث في مقاصد القرآن الكريم باعتبارها كلاً لا يتجزأ، يضيق من دائرة موضوعات القرآن الكريم، ويحصرها في مقاصد معدودة وقليلة، تتعلق بالأهداف العامة للشريعة الإسلامية، وتندرج ضمن ما يسمى بـ «الدراسات القرآنية»⁽²⁾، على تساهل في ذلك، ويقلل من أهمية بحث الموضوعات التفصيلية المتخصصة المتجددة في حياة الناس خاصة في عصرنا الحاضر.

ويكفي في رد ذلك أنه لم يقدم لنا المنهجية التفصيلية في بحث مثل هذه المقاصد التي أشار إليها -التي هي ثمرات التفسير الموضوعي-؛ وإنما اكتفى بالإشارة إلى أوجه الارتباط والتناسب بين السور والآيات القرآنية في تحقيق ذلك، ولعله قصد من هذا ما أشار إليه علماء القرآن من الوحدة العامة في القرآن الكريم بين سور القرآن الكريم بدءاً بسورة الفاتحة وانتهاءً بسورة الناس⁽³⁾، وهو بهذا ليس حديث النشأة كما قال.

¹ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 25.

² - يراجع: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 42-43.

³ - يراجع: الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره: محمد أحمد يوسف القاسم: ص 407.

المطلب الثالث:

منهجية البحث في أنواع التفسير الموضوعي في الدراسات المعاصرة.
وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول: منهجية البحث في المصطلح القرآني بين مصطفى مسلم
والخالدي.

الفرع الثاني: منهجية البحث في الموضوع القرآني في الدراسات
المعاصرة.

الفرع الثالث: منهجية البحث في السورة القرآنية في الدراسات
المعاصرة.

الفرع الرابع: تعقيب ومناقشة.

الفرع الأول: منهجية البحث في المصطلح القرآني بين مصطفى مسلم و الخالدي.

لم يكن مصطفى مسلم دقيقاً في تصور الخطوات المرحلية في بحث المصطلح القرآني؛ بل الظاهر عليه أنه خلط بينها وبين منهجية البحث في الموضوع القرآني⁽¹⁾، مما يوحي بأنه وحد بينهما في المنهجية والخطوات، وإن كان فرق بينهما في المصطلح والمفهوم.

وعلى العكس من ذلك كان صلاح الخالدي دقيقاً في تصور خطواته، واضحاً في تحديد منهجية البحث فيه؛ حيث جعل هذه الخطوات في مرحلتين: مرحلة البحث والجمع، ومرحلة الترتيب والتبويب والصياغة، «ولكل مرحلة خطواتها الفرعية المتدرجة» كما قال⁽²⁾، ولعلها لا توجد عند غيره، ولم يسبق إليها - حسب علمنا -.

وسنقتصر على سرد خطوات المرحلة الأولى عنده -إيجازاً- دون الثانية؛ لأن هذه الأخيرة تتعلق أكثر بالجانب الفني والجمالي والمنهجي العلمي في إخراج البحوث في صورتها النهائية، وأما عن خطوات المرحلة الأولى فأهمها:⁽³⁾

- 1 - اختيار المصطلح القرآني المراد ببحثه بعد تحديد أسباب الاختيار كموضوع "الجهاد في القرآن".
- 2 - تحديد الجذر الثلاثي للكلمة: كـ "جهد" بالنسبة "للجهاد".
- 3 - أخذ معنى الجذر الثلاثي من أمهات كتب اللغة والمعاجم، كمعجم ابن فارس، ومفردات الراغب الأصفهاني، وعمدة الحفاظ للحلي، والكليات للكفوي وغيرها.
- 4 - متابعة ورود الجذر الثلاثي واشتقاقاته في القرآن الكريم، والاستعانة في ذلك بالمعجم المتخصصة، كالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي وغيره، ومن خلاله يقول الباحث بعملية إحصائية شاملة لورود الجذر الثلاثي للمصطلح الذي يبحثه على اختلاف اشتقاقاته وتصريفاته.
- 5 - ربط المعنى اللغوي للمصطلح القرآني مع الاستعمال القرآني، فلا بد للباحث أن يبين توتر معنى "جهد" الأصلي في الألفاظ القرآنية المشتقة منه، وهي الجهاد و"المجاهدة" والجهْد و الجَهْد.

¹ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 37.

² - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 72.

³ - يراجع: المرجع نفسه، ص 72-76.

- 6 - ربط المصطلح القرآني مع السياق الذي ورد فيه، وملاحظة التناسق والانسجام في ذلك.
- 7 - ترتيب الآيات التي أوردت المصطلح القرآني على حسب النزول، ولو بالصورة العامة، وملاحظة تطور معنى المصطلح، والإضافات عليه في الآيات المتأخرة، وملاحظة النسخ، وأسباب النزول، والقراءات الصحيحة.
- 8 - الاطلاع على تفسير الآيات التي أوردت المصطلح في أمهات كتب التفسير، كتفسير الطبري، والزمخشري، والرازي، وابن كثير، وابن عاشور، وسيد قطب، ثم يجمع منها ما ورد فيها من أحاديث وأقوال ماثورة للصحابة والتابعين ومشاهير المفسرين.
- 9 - ملاحظة الإيحاءات والأبعاد الواقعية للمصطلح القرآني المبحوث، ومدى علاجها للمشكلات الاجتماعية والتربوية.
- 10 - الوقفة المتأنية أمام آيات المصطلح الواردة في القرآن واستخلاص الدروس والعبر منها⁽¹⁾
- إن هذا التحديد الدقيق للخطوات المرحلية النظرية المتبعة في بحث المصطلحات القرآنية، ثم ببعض تطبيقاتها في مؤلفات بعض المعاصرين، كمصطلح الأمة في القرآن لأحمد حسن فرحات، والجهل والجاهلون لصلاح الخالدي، يفند ادعاء الدغامين، أن البحث في المصطلحات والمفردات القرآنية يقصد منها التعرف على المعاني المعجمية الدقيقة لها فقط، وإنما يتجاوز ذلك إلى استخلاص الدروس والحقائق القرآنية العامة.⁽²⁾

¹ - مرجع سابق، ص 72-79 بتصرف.

² - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 14.

الفرع الثاني: منهجية البحث في الموضوع القرآني عند الدارسين المعاصرين.

بما أن الموضوع القرآني هو القسم المجمع عليه بين هؤلاء الدارسين، فإنهم -جميعهم- حاولوا وضع منهجية نظرية تسهل للباحث بحث موضوعات القرآن الكريم والوصول إلى غاياته ومقاصده، بعضهم اجتهد في تحديد الخطوات المرحلية، والبعض الآخر كان مقلداً وناسجاً لمنوال من قبله، ولذا سنقتصر على أهم التحديدات المنهجية:

أولاً: الخطوات المرحلية كما يراها أحمد السيد الكومي: وتتمثل فيما يلي:

- 1 جمع الآيات القرآنية التي تخدم موضوعه مستعينا على ذلك بحفظه، والمصحف الشريف، وبعض الكتب التي عنت بجمع الآيات تحت عنوان واحد، أو التي تجمع الآيات المتماثلة في حروف المعجم، كـ " المعجم المفهرس " لمحمد فؤاد عبد الباقي.
- 2 ترتيب هذه الآيات حسب النزول -ما أمكن-، ما نزل في مكة أولاً ثم ما نزل في المدينة ثانياً.
- 3 إيضاح ما قد يكون بين الآيات من موهم الاختلاف والتناقض، والتوفيق بينها.
- 4 تفسير الآيات أثناء عرضها تفسيراً يفهم منه الغرض من هذا التشريع الإلهي، مع تدعيم التفسير بالسنة النبوية، وأقوال السلف الصالح، وإيراد أسباب النزول، إن وجدت... إلخ.
- 5 إخراج الموضوع في صورة متكاملة تامة البناء والإحكام، بمراعاة شروط البحث العلمي، وواضعا نصب عينيه أن يبرز للناس طريقاً من طرق إرشاد القرآن التي هي أقوم،⁽¹⁾ وقد اعتمد هذه الخطوات عبد الحي الفرماوي، غير أنه أضاف إليها فكرة حصر الآيات التي تدور حول هذا الغرض القرآني، والتعرض لمعرفة مناسباتها في سورها.⁽²⁾

ثانياً: الخطوات المرحلية كما يراها عبد الستار سعيد فتح الله.

- 1 -المعرفة الدقيقة لمعنى "التفسير الموضوعي الخاص" المراد مزاولته.
- 2 -تحديد الموضوع القرآني المراد ببحثه تحديداً دقيقاً من حيث المعنى.
- 3 -اختيار عنوان له من ألفاظ القرآن ذاته، أو عنوان متنوع من صميم معانيه القرآنية؛ وذلك باختيار الألفاظ المقاربة لمعناه أو المقابلة له، فموضوع "الجهاد في سبيل الله" له من الألفاظ المقاربة له: القتال، الحرب، الغلب، النصر، الفتح... إلخ، وله من الألفاظ المقابلة: السلام، التولي، الفشل، الرعب، النبذ... إلخ.

¹ - التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: أحمد السيد الكومي وآخر، ص 23-24 بتصرف.

² - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 48-49.

- 4- جمع الآيات الكريمة المتعلقة بالموضوع، والعناية باختيار جوامعها عند إرادة الاختصار، بالاستعانة بالحفظ والرجوع إلى المصحف وإلى المعاجم القرآنية المتخصصة.
- 5- تصنيف الآيات الكريمة من حيث المكي والمدني وترتيبها من حيث زمن النزول ما أمكن ذلك، وليس ذلك بمتعين دائما إلا في الأحكام الشرعية التي تتوقف صحتها على معرفة الترتيب، كآيات التي نزلت على طريقة التدرج التشريعي، مثل: آيات الخمر، والربا.
- 6- فهم الآيات الكريمة قبل الشروع في التفسير الموضوعي، في مواضعها من ترتيب المصحف الشريف، وبذلك يكون التفسير التحليلي ضرورة للتفسير الموضوعي.
- 7- تقسيم الموضوع إلى عناصر مترادفة، منتزعة من الآيات ذاتها، ورد الآيات إلى عناصرها ومواقعها من البناء الكلي للموضوع، مع تفسير موجز لما يحتاج منها إلى تفسير، واستنباط حقائقها القريبة، ورد الشبهات عن الموضوع ذاته.
- 8- التقيد التام في كل هذه الخطوات بقواعد التفسير الموضوعي وضوابطه العلمية.⁽¹⁾

ثالثا: الخطوات المرحلية كما يراها مصطفى مسلم.

والحقيقة أن مصطفى مسلم لم يضيف كثيرا على صنيع عبد الستار سعيد إلا نقطتين، الأولى منهجية، تتعلق بوضع مخطط للبحث، وفق توجيهاته الإجرائية من مقدمة وأبواب وفصول وخاتمة، والثانية مقاصدية تتعلق بإبراز حقائق القرآن الكريم،⁽²⁾ وإن كان عبد الستار قد فصل الحديث عنها في فصل القواعد الضرورية للإتباع بعد أن لم يذكرها صراحة في الخطوات الثمانية التي ذكرها في كتابه.⁽³⁾

رابعا: الخطوات المرحلية كما يراها صلاح عبد الفتاح الخالدي.

- 1- اختيار الموضوع القرآني، على أن تكون مادته من الآيات واسعة وكثيرة في سور القرآن.
- 2- تسجيل الأسباب التي دفعته لاختيار الموضوع، والأهداف التي يريد تحقيقها.
- 3- جمع الآيات التي تتحدث عن الموضوع، إما بألفاظ صريحة مباشرة، أو قريبة، أوله اتصال بها.
- 4- استخراج معاني الألفاظ السابقة من أمهات كتب اللغة والمعاجم العربية، وبيان الصلة بينها وبين الموضوع القرآني الذي يبحث.

¹- المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 56-66 بتصرف.

²- مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 38-39. بتصرف.

³- يراجع المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 67 وما بعدها.

- 5 - حصر الآيات التي استعمل المصطلحات الأساسية لموضوعه، وملاحظة الصيغ والاشتقاقات المختلفة، واستخراج بعض الدلالات والإيحاءات.
- 6 - تسجيل ما يدور حول هذه الآيات من أسباب النزول، ونسخ، وقراءات صحيحة، وترتيبها حسب المكّي والمدني وغير ذلك.
- 7 - قراءة تفسير الآيات التي اختارها من أمهات كتب التفسير، كتفاسير الطبري، والزمخشري، والرازي، وابن كثير، وسيد قطب، وتسجيل تفسيرها بالأقوال المأثورة.
- 8 - بيان الأبعاد المعاصرة للآيات، من خلال تنزيلها على مشكلات العصر وحاجاته.
- 9 - استخلاص الدلالات والعبير واللطائف من الآيات المجموعة، خاصة ذات البعد الاجتماعي والإنساني المعاصر.
- 10 - الاطلاع على الدراسات والأبحاث القرآنية الخاصة المعاصرة ذات الصلة بموضوعه، ومعرفة مدى استفادته منها. (1)

هذا بالإضافة إلى ضرورة إتباع خطوات مرحلة الصياغة والتبويب، التي اشترطها أثناء حديثه عن المصطلح القرآني.

خامساً: الخطوات المرحلية كما يراها أحمد رحمانى: وتتمثل في النقاط التالية بإيجاز.

- 1 - إحصاء المفردات المترددة في القرآن سواء كانت لها علاقة مباشرة أم ضدية بالموضوع.
- 2 - تحديد الموضوع الرئيسي؛ إذ به يتم تحديد المشكلة مثل الإنسان في سورة العصر.
- 3 - وضع الموضوع في مجاله المعرفي لاعتماد أدوات ذلك المجال في التحليل والتفسير، ووضع الفرضيات، وكل ذلك يساهم في تحليل الظاهرة التي هي موضوع البحث.
- 4 - استقراء جميع الآيات التي تم جمعها - المتعلقة بالموضوع - وبالاستئناس بمعاجم الموضوعات والألفاظ والآيات القرآنية والقراءة الواعية والمكثفة للقرآن.
- 5 - تحديد الموضوعات الجزئية المتولدة عن الموضوع الرئيسي مثل: مواصفات الإنسان المفلح في سورة العصر، وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.
- 6 - ترتيب الآيات وفق عناصر الموضوع.
- 7 - وضع فرضيات بخصوص الأفكار والمعاني المستنتجة من الآيات القرآنية.
- 8 - وضع مخطط كلي لتنظيم العلاقات بين العناصر الجزئية: العلاقة بين الإيمان والعمل الصالح.

¹ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح الخالدي، ص 80-82 بتصرف.

- 9 تحليل الآيات وتفسيرها في ضوء التصور الإسلامي ومنهج من جهة، وفي ضوء المجال المعرفي الذي حدد فيه الموضوع من جهة ثانية.
- 10 ربط الموضوع الرئيسي والموضوعات المتولدة عنه على طريقة الانتقال من الأصول إلى الفروع، ربطاً محكماً فيما بينها، بحيث تسوق المقدمات إلى نتائج علمية حقيقية.
- 11 للتأكد من شبكة العلاقات في ارتباط الموضوع الرئيسي بالموضوعات الفرعية.
- 12 تسجيل النتائج المتوصل إليها بعد التأكد من صحتها وعدم مناقضتها للنصوص.⁽¹⁾

سادساً: الخطوات المرحلية كما يراها زياد خليل محمد الدغامين: وتتمثل -إيجازاً فيما يلي:

- 1 - استقراء جميع النصوص القرآنية لحصر الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد، مع مراعاة الترتيب الظاهري لموضوعات القرآن ومقاصده، لا اتباع الترتيب النزولي، وأخذ ذلك من المعاجم الموضوعية المتخصصة الحديثة، و-الابتعاد- قدر الإمكان عن المعاجم القديمة.
- 2 - ضرورة النظر في المكّي والمدني، لمعرفة منهج القرآن في طرح موضوعاته، وطريقته التدريجية في معالجة موضوعات الأحكام الشرعية خاصة.
- 3 - ملاحظة البعد التاريخي والبيئي لها؛ وهو نطاق أوسع من نطاق المكّي والمدني؛ إذ يتعلق بالقصص القرآني فيما قبل ظهور الإسلام.
- 4 - تصنيف آيات الموضوع تصنيفاً علمياً، بتقسيمه إلى مقدمة وموضوع رئيسي، وموضوعات فرعية، وأدلة وبراهين وخاتمة، ولا يلجأ إلى الترتيب التاريخي إلا في آيات الأحكام الشرعية، أو آيات القصص القرآني.
- 5 - الالتفات إلى الواقع أثناء تفسير موضوعات القرآن الكريم، بازدواجية حركية متناسقة بين الواقع والذهن، لتتم بذلك عملية التحلية والتحلية في أوسع معانيها وآفاقها، مع الاستعانة بالتفسير التحليلي المنزه عن التفصيلات اللغوية والفقهية... الخ.
- 6 - استمداد اسم الموضوع المعالج من نصوص القرآن الكريم، قدر المستطاع.⁽²⁾

كما نقل عن بعض الدارسين ضوابط أخرى منهجية وعلمية سنعود إليها لاحقاً.

الفرع الثالث: منهجية البحث في السورة القرآنية في الدراسات المعاصرة.

¹ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحمان، ص 59-62 بتصرف قليل.

² - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد خليل الدغامين، ص 35-44، بتصرف.

سجل أغلب الدارسين المعاصرين الخطوات المرحلية التي يجب إتباعها في دراسة السور القرآنية على اختلاف بينهم في ذلك صياغة وتأصيلاً، سنلخص أهمها فيما يلي:

أولاً: الخطوات المرحلية كما يراها مصطفى مسلم.

- 1 التقديم للسورة بتمهيد يعرّف فيه بأمور تتعلق بالسورة، من حيث أسباب نزولها، ومكيتها ومدنيتها، وغير ذلك.
- 2 محاولة التعرف على الهدف الأساسي للسورة، والمخبر الذي تدور حوله
- 3 تقسيم السورة الطويلة إلى مقاطع أو فقرات.
- 4 ربط هذه المقاطع بالأهداف الأساسية للسورة.⁽¹⁾

ثانياً: الخطوات المرحلية كما يراها زياد الدغامين.

- 1 معرفة البيئة المعنوية التي نزلت فيها السورة حتى ندرك الرابطة بين موضوعاتها وموضوعات البيئة التي نزلت فيها.
- 2 النظر إلى السورة القرآنية بنظرة شمولية من أول آية وحتى نهاية السورة، وتجنب النظر الجزئي الذي يركز على مقدمة السورة أو وسطها أو نهايتها.
- 3 النظر المتأمل في آيات السور لإدراك ما بين آياتها من مناسبات كلية لا جزئية أو موضعية، والتي تغشي نظر الباحث عن النظام العام للسورة.
- 4 التنبيه أن الكثير من السور القرآنية لا تؤدي عرضها الأساسي، وموضوعها الشامل إلا في عدة مراحل التي يجب أن تتعلق فيما بينها.
- 5 ذكر المناسبات بين كل جملة وجملة، وآية وآية، لتظهر من خلالها الصلة القوية المحكمة التي تربط آيات كل مرحلة لإنجاز الموضوع الذي عزمتم السورة على تحقيقه.
- 6 تفسير السورة تفسيراً تحليلياً بما يخدم غرض السورة العام دون الخوض في كل ما يشغل عن ذلك.⁽²⁾

ثالثاً: الخطوات المرحلية كما يراها صلاح عبد الفتاح الخالدي.

¹ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 40 باختصار، هذا وقد اعتمد عباس عوض عباس نفس المراحل، يراجع: محاضرات في التفسير الموضوعي: عباس عوض عباس، ص 43.

² - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد خليل الدغامين، ص 134.

- 1 - ذكر اسم أو أسماء السورة التوقيفية - إن وجدت-، وبيان الصلة بينهما وبين موضوعها العام.
 - 2 - معرفة اسم السورة الاجتهادي، والربط بينه وبين موضوعها العام.
 - 3 - تحديد زمان ومكان نزول السورة، وتصنيف آياتها من حيث المكي والمدني.
 - 4 - بيان جو نزول السورة ومراحلها تقديماً أو توسطاً أو تأخراً، وملاحظة حالة المسلمين آنذاك.
 - 5 - تحديد أهداف السورة الأساسية من خلال القراءة المتدبرة لآياتها عدة مرات، وبيان الجو العام الذي نزلت فيه.
 - 6 - التعرف على شخصية السورة وموضوعها الرئيسي، ثم التعرف على محاور السورة وخطوطها الرئيسية وربطها بعمود السورة.
 - 7 - ربط السورة بما قبلها من السور حسب ترتيب المصحف؛ من حيث التناسب في الموضوع العام لكل منها.
 - 8 - تقسيم السورة الطويلة والمتوسطة إلى أقسام، وتوزيع آياتها على تلك الأقسام.
 - 9 - تقسيم الوحدة إلى دروس موضوعية، وذكر آيات و موضوع كل درس، وبيان الصلة بين آيات كل درس، وبين دروس الوحدة العامة.
 - 10 - استخراج أهم حقائق السورة، والدلالات الواقعية التي تقررها وتعالجها.
 - 11 - الاطلاع على تفسير السورة في أمهات كتب التفسير التحليلي.⁽¹⁾
- هذا بالإضافة إلى خطوات مرحلة التبويب والصيغة الجامعة لكل ألوان التفسير الموضوعي.

رابعاً: الخطوات المرحلية كما يراها أحمد رحمانى:

- 1 - تمهيد يعرض فيها أهم القضايا المتعلقة بالسورة، مثل اسمها، وعلاقتها بما قبل الزمان والمكان وسبب النزول، والفضائل والخصائص.
- 2 - قراءة السورة قراءة تدريبية لاكتشاف الموضوع، والهدف العام لها، وقد يكون ذلك من خلال دلالة اسمها أو من خلال الموضوعات الجزئية التي تحتضنها.
- 3 - تقسيم السورة إلى فقرات للتحكم فيها، وهذه هي الخطوة التحليلية التي تتميز بتجزئة السورة، وتليها خطوة أخرى تركيبية هي الربط.
- 4 - ربط هذه الأفكار وبيان الهدف الموحد الذي ترمي إليه في ابتكار لتصور جديد لموضوع السورة.
- 5 - بحث التناغم الصوتي لبيان دوره في الحفاظ على وحدة السورة.
- 6 - الخروج بتصور محدد عن موضوع السورة كنتيجة لعملية التحليل والتركيب المترابطين⁽¹⁾.

¹ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح الخالدي، ص 82.

هذه هي أهم الجهود المقدمة في وضع خطوات عامة مضبوطة في تفسير السورة القرآنية تفسيرا موضوعيا.

الفرع الرابع: تعقيب ومناقشة.

لقد تعددت آراء الدارسين في التأصيل لقواعد منهجية وخطوات مرحلية يفسر من خلالها القرآن الكريم تفسيرا موضوعيا بألوانه الثلاثة، وما لوحظ مما قدم من هذه الآراء أنها قد تقاربت أو تطابقت بعضها في تأسيس الخطوات المرحلية في البحث عن الموضوع القرآني، باعتبار أنه القسم المجمع عليه بين جميع الدارسين، ثم تضيق بعد ذلك دائرة التقارب في المصطلح والسورة القرآنيين، باعتبار أن المصطلح لم يثبت إلا بعض الدارسين كمصطفى مسلم، وصلاح عبد الفتاح الخالدي، وأما السورة القرآنية فلا تزال وجهات النظر في منهجية البحث فيها متضاربة، ولعل مرد ذلك إلى «القصور في التأسيس النظري لمنهج النظر في وحدة السورة».⁽²⁾

فقد رأينا كم كان صلاح عبد الفتاح الخالدي منهجيا وواضح الرؤية؛ حينما وضع الخطوات للمصطلح القرآني، ثم الموضوع القرآني مفرقا بينهما في أن الأول لا يغادر -من خلاله- المفسر حدود المفردة القرآنية، أما الموضوع القرآني «فإن بحثه أعم وأشمل من الأول، وميدانه في الحث أوسع، ووقفاته الفكرية معه أكثر»⁽³⁾، من خلال النظر في الآيات والألفاظ المترادفة ثم المقاربة ثم المضادة، فموضوعاته الجزئية أوسع من المصطلح القرآني .

صحيح أن الخطوات الأولى، والسابعة والتاسعة، والعاشر، مماثلة تماما للخطوات الأساسية في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني كما قال سامر رشواني⁽⁴⁾، ولكن لا يعني هذا أن في ذلك «نزولا بالتفسير الموضوعي إلى مستوى جزئي هو المستوى اللفظي، أو صعودا بالألفاظ لتضارع الدراسة الموضوعية»⁽⁵⁾، بل إن الباحث في المصطلح القرآني يهمله بدرجة أكبر المعاني الهدائية القرآنية في ظلال دراسة تلك المفردة القرآنية، وأما الموضوع القرآني فيتجاوز ذلك إلى الألفاظ المترادفة أو المتضادة معا، ثم

¹ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحمان، ص 65_66 بتصرف.

² - منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: سامر عبد الرحمان رشواني، دار الملتقى، حلب، سوريا، ط1، 2009، ص 321.

³ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 62.

⁴ - منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: سامر عبد الرحمان رشواني، ص 179.

⁵ - مرجع سابق، ص 180.

إن دراسة المصطلح القرآني لا تخلو من ملاحظة اللطائف البيانية في استعماله في نصوص القرآن الكريم؛ أي: التركيز على الإعجاز البياني للمفردات القرآنية كما نادت بذلك المدرسة الأدبية المعاصرة.⁽¹⁾ والذي يحتاج إلى تأمل في ذلك من هذه الخطوات المرحلية، هي خطوة ترتيب الآيات التي أوردت المصطلح أو الموضوع على حسب النزول التاريخي؛ فلم يحدد الدارسون الترتيب التاريخي بدقة على أسس علمية وذلك بالاعتماد على الروايات الثابتة، -وما أقلها في هذا الجانب-، وهذا ما يؤدي إلى اللبس والغموض في الترتيب بين السور والآيات، وقد ذكر السيوطي ثلاثة تصنيفات للسور القرآنية متباينة فيما بينها، ومسندة إلى بعض علماء الصحابة والتابعين، الأول عن ابن عباس، والثاني عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن، والثالث عن جابر بن زيد، ولم يرحح ترتيباً معيناً بينها.⁽²⁾

وقد اعترف بعض المفسرين المعاصرين الذين انتهجوا نهج التفسير الموضوعي بصعوبة وضبابية هذه الخطوة، كما قال محمد عزت دروزة في تفسيره: «أن القسم الأعظم من السور المكية نزل دفعة واحدة، أو فصولاً متلاحقة، ولم تبدأ سورة جديدة حتى تكون السورة التي قبلها قد تمت»⁽³⁾، بل إنه قد تنزل آيات عدة لسورة جديدة، والسورة السابقة لم تكن قد تمت بعد، كما أكد ذلك محمد الطاهر بن عاشور.⁽⁴⁾

ومن العجيب أيضاً أن نرى جل الذين صنفوا في التفسير الموضوعي واشتروا هذا الشرط فيه، لم يلتزموا في تفاسيرهم «ولم يطبقوه بشمولية في الدراسة الموضوعية إلا في موضوعات الأحكام، وفي الموضوعات التي تتوقف معرفة بعض آياتها على أسباب النزول، لكن الذين درسوا موضوعات العقيدة والأخلاق مثلاً لم يدرسوها على ضوء هذا الشرط، فبقي شرطاً نظرياً لا تسعف المراجع المتوفرة بالوقوف عليه على وجه الدقة والصحة».⁽⁵⁾

هذا ومما اتفقوا عليه هنا، واشتروا في إنجاح التفسير الموضوعي تتبع منهج الحصر الشامل والاستقراء الكامل والإحصاء التام؛ وذلك من أجل النظر إلى الموضوعات القرآنية أو إلى السور القرآنية نظرة كلية شمولية، تضبط التصور الصحيح لها.

¹ - يراجع التفسير: أمين الخولي، دار الكتاب البياني، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص 75 وما بعدها.

² - الإتيان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، تح مصطفى ديب البغا، دار الهدى، عين مليلة، 24/1 وما بعدها.

³ - التفسير الحديث: محمد عزة دروزة، دار إحياء الكتب العربية، 1962، 9_8 / 1.

⁴ - تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، 1984 م، 144/3.

⁵ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد خليل الدغامين، ص 36.

ثم إضافة إلى ذلك ملاحظة العلاقات الفكرية بين عناصر الموضوع القرآني، وأوجه التناسب بينها فيما أسماه أحمد رحماني بعملية التركيب بينها، ويجب في ذلك وضع مخطط كلي لتنظيم العلاقات بين هذه العناصر الجزئية.⁽¹⁾ بعد استكمال عملية التحليل لها، أو ما عرف بالتفسير التحليلي لآيات هذا الموضوع القرآني.

وما استقل به أحمد رحماني ما أكده من وضع فرضيات بخصوص الأفكار والمعاني المستنتجة من تلك الآيات، وعلل لذلك بقوله: «أن عقل الإنسان لا يصيب دائما في الفهم، مما يجعل الفرضيات ووضع الاحتمالات لصور المعاني أكثر أهمية في تدقيق المعاني الحقيقية المقصودة في النص».⁽²⁾

ولا يغني عن ذلك الرجوع إلى أمهات التفاسير في التحقق من صحة تلك الفرضيات، فذلك ما يؤدي إلى تكديس أقوالهم في المرجعية التفسيرية، وربما تحولت بعض آرائهم إلى آراء معصومة بعد أن كانت آراء اجتهادية ونسبية.

أما عن السورة القرآنية، فالتفسير الموضوعي فيها وإن اختلفت بعض خطواته صياغة وترتيا عند هؤلاء الدارسين، إلا أن هناك قدرا مشتركا بينهم يتعلق بدراسة تاريخ نزول السور القرآنية وبيئتها التي نزلت فيها، ثم تفسير آياتها - بعد تقسيمها إلى وحدات ودروس - تفسيراً تحليلياً، ثم إعادة ربط أفكارها فيما بينها في إطار علم المناسبات، والخروج بعد ذلك بتصوير عام لموضوعها في إطار عملية التركيب.

و مع كل هذا تظهر صعوبة كبيرة بين الدارسين في الكشف عن موضوع السورة، كل حسب منهج نظره فيها، ومدى وضوح الرؤية عنده في التمييز بين الفكرة الرئيسية والأفكار الثانوية أو اكتشاف العلاقة بينها.

ولذا اختلفت تعبيراتهم في تحديد الموضوع العام للسورة، أو الفكرة العامة لها، فالبعض منهم عبر عن ذلك بمصطلح "عمود السورة" كما فعل عبد الحميد الفراهي⁽³⁾، وباقي الدارسين ارتضوا تسمية "الوحدة الموضوعية".

¹ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحماني، ص 61.

² - المرجع نفسه.

³ - دلائل النظام: عبد الحميد الفراهي، ص 77 نقلاً عن منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: سامر عبد الرحمان رشواني، ص

وما اشترطه أحمد رحمانى من بحث التناغم الصوتي قصد الحفاظ على وحدة السورة، فهو شرط يصلح للوحدة الموضوعية، والتي تستقل بمنهجية خاصة عن السورة القرآنية؛ إذ غايتها التي يأمل المفسر أن يستنبطها من خلال تفسيره للسورة القرآنية، وليس الجانب الصوتي هنا، بل يتضمن ذلك جوانب أخرى كالتناسب اللفظي، والتناسب التركيبي النظمي، والتناسب السياقي الاجتماعي، وملاحظة بناء السورة وهيكلها وفواصلها، وحتى أساليبها في ذلك.

المبحث الثاني

الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حقيقة الوحدة الموضوعية تاريخها ومسمياتها.

المطلب الثاني: أنواع الوحدة الموضوعية في الدراسات القرآنية المعاصرة.

المطلب الثالث: منهجية البحث في الوحدة الموضوعية في الدراسات

المعاصرة.

المطلب الأول:

حقيقة الوحدة الموضوعية تاريخها ومسمياتها

وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول: مفهوم الوحدة الموضوعية ومكانتها من التفسير الموضوعي

الفرع الثاني: الوحدة الموضوعية بين النفي والإثبات في الدراسات المعاصرة.

البند الفرع: تاريخها ومسمياتها.

البند الفرع: تعقيب ومناقشة.

الفرع الأول: مفهوم الوحدة الموضوعية ومكانتها من التفسير الموضوعي:

تعددت آراء الدارسين في بلورة مفهوم واضح للوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، على حسب المذاهب الأدبية التي ينتمون إليها أحياناً، وتبعاً للنوع الأدبي الذي يشتغلون به أحياناً أخرى.

ولعل مفاهيم بعض الدارسين لها كانت متأثرة بمقاييس النقد الأدبي ومصطلحاته الموظفة في ذلك، كما أن كثيراً من المفاهيم في هذا الشأن (الوحدة) كانت مستقاة من الدراسات الأجنبية القديمة؛ خاصة ما طرحه أرسطو في كتابه "فن الشعر"⁽¹⁾، في مفهوم الوحدة الأدبية، والتي تتمثل في تماسك أجزاء العمل الفني، كتماسك أعضاء الجسم الإنساني الواحد.

وقد واجه المفسر في نقل هذا المفهوم إلى حقل التفسير الكثير من المشكلات المنهجية، كمشكلة نقل المفهوم أيضاً من الدراسات الغربية إلى الدراسات العربية⁽²⁾، ولعلنا سنقتصر هنا على إيراد تعريف الوحدة الموضوعية من المجال التفسيري، ونرجئ المفاهيم الأخرى إلى مطالب لاحقة لمناقشتها، خاصة في الحديث عن مسمياتها عند الدارسين المعاصرين.

أولاً: تعريف الوحدة الموضوعية.

أ: التعريف اللغوي.

1 -الوحدة:

يقول ابن فارس: «(وحد)، الواو والحاء والذال: أصل واحد يدل على الانفراد، من ذلك الوحدة، وهو واحد قبيلته إذا لم يكن فيهم مثيله...»⁽³⁾.

و يقال: «نسيج وحده أنه لا ثاني له، وأصله الثوب الذي لا يسدى على سداه لرقته غيره من الثياب»⁽⁴⁾.

¹ - فن الشعر: أرسطو، ترجمة وتعليق: إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية، فصل طول الحكمة ووحدها، ص 108، 112.

² - يراجع منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 243.

³ - معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تح عبد السلام هارون، باب الواو، 90/6-91.

⁴ - تاج العروس: الزبيدي، تح، أحمد خراج عبد الستار، باب الدال مع الحاء، 272/9.

و جاء في مفردات الراغب: «الواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة، ثم يطلق على كل موجود، حتى أنه ما من عدد إلا ويصح أن يوصف به؛ فيقال: عشرة واحدة، ومائة واحدة، وألف واحد...»⁽¹⁾.

فالوحدة هي التفرد بالشيء واستقلاله به، وعدم وجود نظير له، ولا يمكن تجزئته، وهناك معنى ثانٍ أضافه الراغب، وهو تماسك أجزاء الماهية الواحدة، فهو يدل القوة والتماسك والتفرد.

أما استعمالها في القرآن، فلا يكاد يغير المعنى اللغوي الذي قرر هنا.⁽²⁾

2 - الموضوع: قد تعرضنا له من قبل في التمهيد.⁽³⁾

ب: التعريف الاصطلاحي:

1 - **التعريف الوصفي:** هي «اتحاد الموضوع الذي ذكر متناثرا، وأنه لا تباين فيه ولا اختلاف، بل يؤلف وحدة موضوعية كاملة».⁽⁴⁾

2 - **التعريف العلمي:** هي «أن يكون النص الذي سيق لمعالجة قضية أو مسألة من المسائل، مترابطا في جزئياته، متناسقا في أفكاره، لا يخرج عن فحوى هذه القضية... من أفكار وآراء لا تخدم هذا البحث ولا تفيده»،⁽⁵⁾ وعدم الموضوعية تعني مجموعة من الأفكار المتناثرة التي لا يوجد بينها ارتباط حقيقي.⁽⁶⁾

3 - **التعريف الأدبي:** عرضت الوحدة الموضوعية عند النقاد بما يسمى حديثا "بالوحدة العضوية"، وهي «أن يكون العمل الشعري ذا موضوع واحد، وأن تكون المشاعر التي يثيرها واحدة؛ وذلك يستدعي ترتيبا ينتهي إلى خاتمة... فتكون أجزاء القصيدة كالجسم الحي لكل عضو فيه وظيفته، ولا يمكن نقل عضو منه أو إسقاطه».⁽⁷⁾

1- مفردات غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، تح، عيتاني، دار المعرفة، ص 530.

2- بنظر معجم ألفاظ القرآن الكريم مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 830-829/2.

3- في المبحث السابق، ص 60_61.

4- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد حجازي، مكتبة التفسير، الرقازيق، ص 29.

5- التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان، عبد الجليل عبد الرحيم، 1/35.

6- المرجع نفسه.

7- قضايا النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق: طه عبد الرحيم عبد البر، دار التأليف، القاهرة، ط1، 1983، ص 119.

4 -التعريف التفسيري: هناك تعاريف عديدة، تناولنا بعضها في عنصر التعريف بالتفسير الموضوعي، والغالب عليها عدم الدقة في ذلك؛ كما أنها لم تعط تعريفا مستقلا للوحدة الموضوعية من ناحية، ولم تبرزه تعريفا جامعا مانعا من ناحية أخرى؛ وإنما تعرضت للوحدة الموضوعية أثناء تعريفها للتفسير الموضوعي.

هذا وإن التفريق بين الوحدة الموضوعية للمصطلح والموضوع القرآنيين من جهة، وبين الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية من جهة أخرى هو الأسلم في بيان هذا التعريف.

فالوحدة الموضوعية للمصطلح أو الموضوع تعني «أن القرآن الكريم اشتمل على مصطلحات وموضوعات تفرقت أجزاءها فيه»⁽¹⁾.

ومن أهم التعريفات في هذا تعريف محمد حجازي: «هي البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة، ليظهرها فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذي نبخته لتحقيق الهدف منه»،⁽²⁾ وذلك من خلال التوفيق والجمع بين عناصره المنهجية للخروج بموقف قرآني، أو بنظرية قرآنية في ذلك.

أما الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية فهي تعني بأنها «الموضوع الذي تعالجه السورة في ضوء معطيات آياتها المحكمة، النسج والارتباط بأسلوبها المتميز وخصائصها المعجزة بلوغا إلى مقاصدها الهدائية»⁽³⁾.

ثانيا: مكانة الوحدة الموضوعية من التفسير الموضوعي.

إن التفسير الموضوعي تنبثق فكرته من مفهوم الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، أو في السورة القرآنية الواحدة، فيه هدفه العام، وثمرته المرجوة التي يقصد كل ناهج لمنهج التفسير الموضوعي أن يصل إليها، وأن يوضحها بشكل جلي وواضح في دراسته للسورة الواحدة أو للقرآن الكريم.

و قد أطبقت أقوال الدارسين المعاصرين على أن الوحدة الموضوعية هي الغاية العظمى للتفسير الموضوعي -على اختلاف مناهجهم وطرقهم في دراستها-، وهذه بعض أقوالهم في هذا الصدد.

¹ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد خليل الدغامين، ص 16.

² - الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد حجازي، ص 29.

³ - التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم، 1/ 35-36.

يذكر محمد الغزالي في جهوده لاستنباط موضوع السورة بما سبقه إليه محمد عبد الله دراز، فيقول: «لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع في السورة، وإن كثرت قضاياها». (1)

ويؤكد أمين الخولي على أهمية الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم؛ وذلك حينما أكد أن الترتيب الجديد للمصحف الشريف «قد ترك وحدة الموضوع لم يلتزمها مطلقاً، وقد ترك الترتيب الزمني لظهور الآيات لم يحتفظ به أبداً... وذلك كله يقضي في وضوح بأن يفسر القرآن موضوعاً موضوعاً، وأن تجمع آية الخاصة بالموضوع الواحد...». (2)

وجعل عبد الستار فتح الله سعيد الوحدة الموضوعية الغاية الأخيرة التي يرجوها المفسر الذي يربط بين آيات السورة «برباط علمي يجعل من الموضوع وحدة واحدة مسلسلة ومرتبطة ترتيباً فنياً يتفق على النمط القرآني». (3)

وأكد عبد الحي الفرماوي أن «جمع الآيات التي هي في معنى واحد، وجعلها تحت عنوان واحد وتفسيرها تفسيراً منهجياً موضوعياً، فذلك منهج جديد لكلية أصول الدين (بالأزهر الشريف)... بما يبشر بأهمية هذا المنهج»، كما قال حجازي: «لنصل إلى الغاية المنشودة، وهي الوحدة الموضوعية». (4)

و يقول أحمد رحماني عن مصطلحات "التفسير الموضوعي" و "التفسير التوحيدي" و "التفسير التجميعي": «وكلها مصطلحات تشير إلى طريقة واحدة في تفسير القرآن الكريم تجعل "الوحدة الموضوعية" هي غايتها في التفسير». (5)

وقد أبرز هذه الأهمية زياد الدغامين⁽⁶⁾، ومصطفى مسلم⁽⁷⁾، وصلاح الخالدي⁽⁸⁾، وغيرهم.

1- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، منشورات بغداد، ص 05.

2- التفسير بنشأته، تدرجه، تطوره: أمين الخولي، ص 83.

3- المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 65.

4- البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 40، والوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد حجازي، ص 31.

5- التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحماني، ص 31.

6- منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 16.

7- مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 41-42.

8- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 85.

الفرع الثاني: الوحدة الموضوعية بين النفي والإثبات في الدراسات المعاصرة.

تنوعت الآراء واحتدمت حول ثبوت الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، فالأغلبية من الدارسين المعاصرين على إثباتها، والأقلية على نفيها؛ إما نفيًا عامًا كما فعل المستشرقون، وإما نفيًا جزئيًا في السورة القرآنية كما رأى ذلك العز بن عبد السلام قديمًا، وعبد الستار سعيد حديثًا، وسنقتصر - إيجازًا - على ذكر آراء النافين، والرد عليها، وكما يقال: «بضدها تتميز الأشياء».

أولاً: المستشرقون والوحدة الموضوعية:

زعم المستشرقون أن القرآن الكريم «كتاب لم يأت على نسق الكتب الموضوعية؛ إذ ليست له مقدمة، وليست فيه مباحث موضوعية مرتبة لها مقاصد وأغراض في فصول وأبواب... وإنما اشتملت آيات سوره على أغراض متعددة، فهذه للوعظ، وتلك للزجر، وهذه قصة وأخرى للأحكام...»⁽¹⁾

يقول - مثلاً - المستشرق الفرنسي بلاشير: «إن أشد الشواهد وضوحاً على ذلك نجد في سورة النور؛ حيث تعالج بالتتابع أربعة موضوعات تتعلق إما بالزنا، وإما بروابط اللياقة بين الجنسين، ثم يأتي بيانان: عن النور المنبثق عن الله، وعن قدرة الله الخالقة، لا صلة لهما بما سبق».⁽²⁾

وهذه الشبهات لا تقف أمام النقد العلمي الموضوعي، أولاً؛ لأن الملاحظ على دراسات هؤلاء المستشرقين - إضافة إلى تعصبهم الديني ضد القرآن - يؤكد على حقيقة مأساة المنهج العلمي عندهم من سلوكهم «طريق جمع الآراء والظنون والأوهام والأقوال الشاذة»⁽³⁾، وجهلهم بحقيقة الوحي، واعتباره ظاهرة تاريخية قابلة للتشكيك والطعن، وجهلهم أيضاً باللسان العربي، وعدم إدراك وتدقيق أسلوب القرآن المعجز، وكذلك افتقاد بعض المصادر القرآنية، واهتمام المستشرقين بتحقيقها وتزويرها⁽⁴⁾، كل هذا هذا أدى بهم إلى القول بتفكك آيات القرآن الكريم.

ولا شك أن هذه الآراء مجافية للمنهج العلمي عند المسلمين فيما يسمى بـ "علم المناسبات"، فالمتأمل للقرآن الكريم «يجد - في نظامه - تناسقا وانسجاما بين أصوات كلماته، وتماسكا بين ترتيب

¹ - الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد حجازي، ص 13.

² - القرآن نزوله وتدوينه: بلاشير، ترجمة، رضا سعادة، ط 1، دار الكتاب اللبناني، ص 69.

³ - تاريخ القرآن: عبد الصبور شاهين، ط 1، نخبضة مصر للطباعة: ص 124.

⁴ - ينظر: مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن: عبد الرزاق هرماس، مقال بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة 14، ع 38،

كلماته وجمله، بالإضافة إلى نقاء التعبير، وإيجاز الألفاظ وقوة التأثير، وسموا فريداً فوق كلام البشر، حتى أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - في ذلك»⁽¹⁾.

بل إن تعمق الدارسين المعاصرين لنظام السورة القرآنية أوصلهم إلى أن لها «نظاماً عجيباً لها، وتخطيطاً منطقياً وأسلوباً يتخللها، وتوافقاً عجيباً بين أجزاء تراكيبها»⁽²⁾.

وحتى أن العرب المعاصرين للتنزيل - مع ما عرف عنهم من عداوة شديدة لهذا الدين وكتابه الكريم - لم يقولوا عنه بأنه «مفكك التركيب، مهلهل البناء، مختلف القضايا والأغراض، لا رابطة تربطها، ولا سياق يجمعها»⁽³⁾.

إذن فمن هذا وغيره يتضح أن آراء المستشرقين أوهم غير مؤسسة على المنهج العلمي الصحيح، وعلى مقاييسه الموضوعية الثابتة.

ثانياً: عبد الستار سعيد والوحدة الموضوعية للسورة القرآنية.

قد أنكر عبد الستار فتح الله سعيد وحدة الموضوع في السورة الواحدة، وقال عنها: «وأرى - والله أعلم - أن هذا الضرب من الدراسات لا يدخل في التفسير الموضوعي؛ لأن موضوعه أمر التماسي اجتهادي تختلف فيه الأنظار، فكيف تصنف الآيات في السورة على هدف مختلف على تحديده؟ وكيف يقوم التفسير على الاحتمال؟ مع أن الأصل في التفسير الموضوعي أن يقوم على أساس النصوص ذاتها، أو معانيها المتحققة... وإلى أن تقوم خطة لهذا الضرب علمية، محكمة القواعد، واضحة المعالم، فإننا نعهده في باب الدراسات القرآنية العامة، وليس في التفسير الموضوعي»⁽⁴⁾.

ويمكن الرد على رأي عبد الستار سعيد إجمالاً من خلال النقاط التالية:

1 - «أن التفسير في معظمه قائم على الاجتهاد، سواء في ذلك التفسير البياني أو الفقهي أو الأثري أو غيرها، فلا وجه لتخصيص الاتجاه القائل بوحدة الموضوع في السورة بأنه أمر التماسي اجتهادي، حتى التفسير الموضوعي الخاص الذي ذكره هو أيضاً في أغلبه التماسي

¹ - مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، دار القلم، 2003 م، ص 123.

² - إمعان النظر في تناسب الآي والسور، محمد عبادة الله سيحاني، دار عمار، الأردن، ص 75.

³ - علم المناسبات بين السور والآيات، مصطفى الباجقني، مقال بمجلة المعارج اللبنانية، المجلد 1، العدد 2 - 1991 م، ص 36.

⁴ - المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، ص 25.

اجتهادي، إذا لم ننظر إلى آياتها نظرة كلية جامعة، وأغرقتنا النظر التجزيئي فيها على أنها منفصلة». (1)

2 - إن عدم وجود خطة محكمة في هذا الشأن لا يعني عدم وجود الوحدة الموضوعية في السورة؛ بل إن ذلك يتوقف على تضافر جهود العلماء لبلورتها.

3 - قد قال عبد الستار في القسم الوسيط من التفسير الموضوعي: «هو الذي يختار فيه المفسر موضوعا يعرضه من خلال سورة واحدة: مثل: العقيدة في سورة الشورى». (2)، فهو يرى ويجيز دراسة موضوع معين في سورة ما، ثم يرفض الإقرار بأن السورة مشتملة على موضوع كلي، فهذه تجزيئية منه في فهم القرآن. (3)

4 - القول بأن التفسير على وجه القطع لا يعلم إلا في تفسير النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهذا متعذر إلا في آيات قلائل كما في حديث عائشة. (4)

5 - «لأننا ببساطة شديدة نجد كثيرا من السور القصيرة تبدو فيها الوحدة الموضوعية واضحة جلية كما في سورة "الإخلاص"». (5)

الفرع الثالث: تاريخها ومسمياتها:

سنعرض - إيجاز - لتاريخ تطور الوحدة الموضوعية، ولأهم مسمياتها في نظر المعاصرين.

أولاً: في تاريخ الوحدة الموضوعية:

الحديث عن تاريخ الوحدة الموضوعية هو حديث عن تاريخ التفسير الموضوعي عموماً؛ فلم تكن واضحة عند المتقدمين في كتاباتهم - وإن لم تخل في ذلك من إشارات إليها - والسر في ذلك كما يقول

¹ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، زياد الدغامين، ص 114.

² - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 26.

³ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 115 - 116.

⁴ - أورده الهيثمي عن عائشة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان لا يفسر شيئاً من القرآن برأيه إلا آياً بعدد علمه إياهن جبريل، وقال: رواه أبو يعلى والبخاري بنحوه، وفيه راو لا يتحرر اسمه عند واحد منهما وبقيّة رجاله رجال الصحيح، كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة، تح حبيب الرحمان الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط1، 1984، باب التوقيف في تفسير القرآن رقم 2185، 39/3.

⁵ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحمان، ص 37.

الفرماوي يرجع إلى سببين: «الأول هو: أن التفسير الموضوعي اتجه اتجاهها متخصصا، ومبدأ التخصص لم يكن قديما متجها إليه، وثانيا: إن حاجتهم لم تكن ماسة لدراسة موضوعات على هذا النحو»⁽¹⁾.

ثم إن ما كتبه من موضوعات خاصة كالناسخ والمنسوخ، ومجاز القرآن، وغيرها «لم يقصدها حقيقة التفسير، ولا التعرف على موقف القرآن من كل موضوع بعينه»⁽²⁾.

ويرى مصطفى الجويني أن الجاحظ (ت 255 هـ)، أول من أشار إلى الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم؛ لأنه كان يحيط القرآن بالنظرة الشاملة، وبالتقصي الجزئي لآيات القرآن وموضوعاته، فهو: «يتناول موضوعا في وحدة متكاملة، وفي نسقها التاريخي»⁽³⁾، ومثل لذلك بدرس الجاحظ لموضوع النار في القرآن وموضوعات أخرى، ثم قال الجويني: «حقا لم يطبق الجاحظ منهج التفسير الموضوعي بتفصيلاته كما نفهمه اليوم، ولكن على كل حال هو مدرك لأصل الفكرة، وهو أن يكون الموضوع القرآني في نسق تاريخي متكامل»⁽⁴⁾.

وقد كان للعلماء إشارات إلى الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

يقول أبو بكر بن العربي: «ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، ومنتظمة المباني، علم عظيم...»⁽⁵⁾

ويقول ابن القيم الجوزية: «خير الكلام المسبوك المحبوك الذي يأخذ بعضه برقاب بعض، والقرآن العظيم آياته كلها كذلك فاعرفه»⁽⁶⁾.

وأما المعاصرون فقد تطرقوا لها بشكل أوضح _ وإن لم يكن مكتملا من كل جوانبه _؛ إذ أكد أمين الخولي «أن ترتيب القرآن في المصحف قد ترك وحدة الموضوع لم يلتزمها مطلقا، وقد ترك الترتيب

¹ - البداية في التفسير الموضوعي، عبد الحي الفرماوي، ص 44-45.

² - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص 19.

³ - مناهج التفسير: مصطفى الصاوي الجويني، منشأة المعارف، ص 158.

⁴ - المرجع نفسه، ص 160.

⁵ - البرهان في علوم القرآن: برهان الدين الزركشي، مكتبة دار التراث، 36/1.

⁶ - الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ابن القيم الجوزية، مطبعة السعادة، مصر، ط 1، 1327 هـ، ص 88.

الزماني لظهور الآيات لم يحتفظ به أبداً، وقد فرق الحديث عن الشيء الواحد والموضوع الواحد في سياقات متعددة، وذلك كله يقضي في وضوح بأن يفسر القرآن موضوعاً موضوعاً»⁽¹⁾.

ويرى محمد باقر الصدر أن المقصود بالموضوعية «أن يبدأ من الموضوع وينتهي إلى القرآن، هذا أولاً، وثانياً فهو أن يختار مجموعة من الآيات تشترك في موضوع واحد يقوم بعملية توحيد بين مدلولاتها من أجل أن يستخرج نظرية قرآنية شاملة بالنسبة إلى ذلك الموضوع»⁽²⁾.

و قد قسّم عبد الستار سعيد التفسير الموضوعي إلى عام وخاص « فالأول يقوم على وحدة في الغاية فقط... ككتب أحكام القرآن وغيرها، والثاني يقوم على وحدة المعنى والغاية بين أطرافه وأفراده... كاليهود في القرآن، والصبر في القرآن»⁽³⁾.

أما الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية فلم يتطرق إليها إلا متأخراً؛ بل ولم يشير معظم الباحثين إلى بيان جذور هذه الفكرة وأبعادها «لقناعة أكثرهم بأن المتأخرين أهل السبق والفضل إلى تقرير وحدة الموضوع في السورة، مع أن المتأخرين ما كانوا ليدركوا ذلك لولا تلك البذور التي نثرها علماءنا في حقل الدراسات القرآنية»⁽⁴⁾.

ولعل الباقلاني (ت 403 هـ) أول المصريحين بذلك التناسق العجيب الذي يحكم أسلوب القرآن «وليس ذلك في آية دون آية، وسورة دون سورة، وقصة دون قصة، ومعنى دون معنى»⁽⁵⁾.

يقول الباقلاني: «انظر بعين عقلك... إذا تفكرت فيه كلمة كلمة... ثم فيما ينتظم من الكلمات إلى أن يتكامل فصلاً وقصة، أو يتم حديثاً وسورة...»⁽⁶⁾ ثم تبعه في ذلك الزمخشري (538 هـ)⁽⁷⁾،⁽⁷⁾ والفخر الرازي (ت 606 هـ) الذي قال في سورة فصلت: «وكل من أنصف ولم يتعسف علم أنا

¹ - التفسير نشأته، تدرجه، تطوره: أمين الخولي، ص 83..

² - المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، ص 29.

³ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 25_26.

⁴ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، زياد الدغامين، ص 96.

⁵ - إعجاز القرآن: أبو بكر الباقلاني، تح عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت_لبنان، ص 4، 1997، ص 213.

⁶ - المصدر نفسه، ص 215.

⁷ - تفسير الكشاف: الزمخشري، دار الكتاب العربي، 97/1-98.

إذا فسرنا هذه الآية^(*) على الوجه الذي ذكرناه صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلاماً واحداً منتظماً مسوقاً نحو غرض واحد⁽¹⁾.

وصرح بذلك أيضاً الشاطبي (ت 790هـ) بقوله «إن السورة الواحدة مهما تعددت قضاياها، فهي تكون قضية واحدة، أي: تهدف إلى غرض واحد، وإن اشتملت على عديد من المعاني»⁽²⁾.

ويعد البقاعي (ت 885هـ) أشهر من أوضح من ذلك؛ إذ عرف المناسبات وأهميته فقال «وتتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها...»⁽³⁾، وقد أشار قبله ابن الزبير الغرناطي (ت 808هـ) إلى ذلك أثناء حديثه عن التناسب بين السور القرآنية⁽⁴⁾.

ولا ننسى جهود السيوطي (ت 911هـ) في هذا المجال، من خلال كتبه الكثيرة في هذا الشأن: ككتاب تناسق الدرر في تناسب السور، وكتاب مراصد المطالع، وكتاب الإتقان وغيرها.

وأما عن المعاصرين فقد كانت لهم جهود كثيرة حاولت أن تعمق هذه الفكرة، ولا تعدو بعضها أكثر من كونها اهتمامات جزئية، يعوزها التطبيق العملي في أكثر أحيائها.

و يعد أعلام مدرسة المنار من المهتمين بالوحدة الموضوعية، وإن لم يفسروا القرآن على ضوء موضوع السورة بوجه شمولي، مراعين في ذلك المنهجية الشمولية في البحث عن الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية⁽⁵⁾.

كما صرح بذلك محمد رشيد رضا في ذكر حكمة الجمع بين سورتي يونس والتوبة⁽⁶⁾، وكذلك تعرض لذلك مصطفى صادق الرافعي⁽⁷⁾، وعبد الله بن الصديق الغماري⁽⁸⁾، وعبد الحميد الفراهي في تفسيره "نظام القرآن"؛ بحيث جعل له مقدمة سماها "دلائل النظام"، وعرف النظام بقوله: «معرفة

* قوله تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» فصلت الآية 44 .

¹ - التفسير الكبير: الفخر الرازي: دار إحياء التراث العربي، 133/17.

² - الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي، ط03، المكتبة التوفيقية، المسألة 13، 953/3.

³ - نظم الدرر في تناسب الآي والسور: برهان الدين البقاعي، دار الكتب العلمية، 5/1.

⁴ - يراجع: الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره: محمد أحمد يوسف القاسم، ص 84-85.

⁵ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 105.

⁶ - تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار المنار، القاهرة، ط2، 1947، 141/11.

⁷ - في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، حيث سماها الروح، ص 245.

⁸ - في كتابه "جواهر البيان في تناسب سور القرآن": ينظر: الإعجاز البياني في آيات القرآن الكريم وسوره: محمد يوسف القاسم، ص

روابط الكلام وتركيب أجزائه، وتناسب بعضه، أو هو عمود الكلام، وحسن ترتيبه، سواء كان الكلام جملة واحدة، أم عدة جمل، فلا بد من الوحدة في نظمه، وإلا كان -كلاما- منتشرا». (1)

كما نبه محمد عبد الله دراز للوحدة الموضوعية في بعض كتبه، كالنبا العظيم، ومدخل إلى القرآن الكريم، كما سنتناوله بالتفصيل من خلال هذه الدراسة. (2)

وكان سيد قطب أكثر المفسرين عناية بالوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم، من حيث شمولية التطبيق لما يسميها الشخصية لكل سورة (3)، ثم توالى الدراسات التخصصية بعد ذلك، كان منها كتاب محمد حجازي «الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم» والذي أوضح -من خلاله- أن لكل سورة هدفا وغرضا تسعى لتحقيقه، كما نسجت تفاسير لتحقيق ذلك كتفسير سعيد حوى (4)، وعبد الرحمان الرحمان الميداني وغيرها. (5)

ثانيا: تسمياتها عند الدارسين المعاصرين.

من التسميات الحديثة "الروح"، وهي تسمية فنية أدبية وضعها الأديب مصطفى صادق الرافعي؛ فبعدما تحدث عن الترابط القوي بين عناصر النظم القرآني، وسماه "روح التركيب" حيث قال: «ولولا تلك الروح لخرج أجزاء متفاوتة على مقدار ما بين هذه المعاني وموقعها في النفوس، وعلى مقدار ما بين الألفاظ والأساليب التي تؤديها...». (6)

وقد سماها سيد قطب "بالشخصية"؛ إذ قال في ذلك: «ولقد لاحظنا -كما أثبتنا ذلك مرارا في التعريف بالسور- أن هناك شخصية خاصة لكل سورة، وسمات معينة تحدد ملامح هذه الشخصية...». (7)

1- دلائل النظام: عبد الحميد الفراهي، ص16، نقلا عن منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص106.

2- في الفصل الأخير من فصول هذه الرسالة، ص316 وما بعدها.

3- في ظلال القرآن: سيد قطب، ط دار الشروق، 111/4-112.

4- الأساس في التفسير: سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط5، 1999، 6074/8، 6770/11 وغيرها.

5- معارج التفكير ودقائق التدبير: عبد الرحمان حسن الميداني، دار القلم، دمشق، 39/1 وغيرها.

6- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، ص245.

7- في ظلال القرآن: سيد قطب، 112-444/4.

ومن ذلك تسمية عبد الحميد الفراهي لها بـ "النظام"؛ إذ قال: «ولذلك آمن من آمن بالنظام، ثم جعل الله ما أخفى من النظام على مراتب ... إذ جعل النظام من أكبر ما يحث به على النظر والتأمل ...»⁽¹⁾.

وهناك تسمية مالك بن نبي بـ "الوحدة الكمية"، وهي وحدة شكلية على حسب تعبيره⁽²⁾، أو ما يسميها بـ "وحدة التنزيل"، حيث عرفها بقوله: «هي مجموع الآيات المتتابعة التي تسهم في اكتمال فكرة واحدة، وهذا العدد يمكن أن يهبط إلى الحد الأدنى في آية واحدة، ويمكن أن يرتفع إلى الحد الأقصى في سورة كاملة»⁽³⁾، أي هي «وحدة الفكر»⁽⁴⁾.

وقد اصطلح طه جابر العلواني بـ "الوحدة البنائية"، وقصد منها البناء العام لآيات السورة الواحدة، وقال عنها: «أردنا بما أنه بكل سوره وآياته وأجزائه وأحزابه وكلماته يعتبر كأنه جملة واحدة»⁽⁵⁾.

وقد انفرد أحمد رحماني بما سماه "الوحدة التجميعية"⁽⁶⁾، التي تتعلق بالموضوع القرآني، والتي تؤدي إلى توحيد الآيات حول موضوع محدد⁽⁷⁾، أما وحدة السورة فيسميها بما هو متعارف عليه بـ "الوحدة الموضوعية"⁽⁸⁾.

وقد سماها سعيد حوى بـ "الوحدة القرآنية"، وبنى عليها تفسيره للقرآن الكريم، وقال أنه «قدم لأول مرة نظرية جديدة في موضوع الوحدة القرآنية، وهو موضوع حاوله كثيرون ... ولكن أكثر ما اشتغلوا فيه كان يدور إما حول مناسبة الآية في السورة الواحدة، ومناسبة آخر السورة السابقة لبداية السورة اللاحقة، ولم يزيدوا على ذلك»⁽⁹⁾.

¹ - دلائل النظام: عبد الحميد الفراهي، ص 78، نقلا عن: منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم - دراسة نقدية -: سامر عبد الرحمان رشواني، ص 347.

² - الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ص 233.

³ - المرجع نفسه، ص 225.

⁴ - المرجع نفسه.

⁵ - الوحدة البنائية للقرآن المجيد: طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية، ص 13.

⁶ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 32، 39.

⁷ - المرجع نفسه.

⁸ - المرجع نفسه، ص 33.

⁹ - يراجع: نظرية الوحدة القرآنية في تفسير سعيد حوى: جميلة موجاري، مخطوط، رسالة ماجستير من جامعة الأمير للعلوم الإسلامية بقسنطينة، ص 64، 152.

و سماها محمود البستاني، واصطلح عليها بـ "عمارة السورة القرآنية"⁽¹⁾ أي: "مجموعة من الآيات التي ترتبط إحداها مع الأخرى"، وتقوم عنده -العمارة- على ثلاثة عمد:

الأول: البناء القائم على صلة أجزاء النص بعضها مع الآخر.

الثاني: البناء القائم على هيكلية النص، أي: النظام المعنوي للسورة.

الثالث: الأدوات الموظفة لإنارة هدفه (وسائل تدعم وحدة النظامين المعنوي والأسلوبي).⁽²⁾

ومن بين التسميات تسمية عمران سميح نزال بـ "الوحدة التاريخية" وهي تسمية ناتجة عن تتبعه للمنهج التاريخي في دراسة سور القرآن الكريم وآياته، وعرف -من خلاله- الوحدة التاريخية بقوله: « معرفة المدة الزمنية التي استغرقت في نزول السورة الواحدة، من بدايتها إلى نهايتها؛ إذ لا يمكن ترتيب نزول السور ما لم ينظر إلى السور القرآنية منفردة كوحدة واحدة».⁽³⁾

ويبقى اسم "الوحدة الموضوعية" هو الاسم العلمي الأكاديمي المتعارف عليه، كما عبر عنه أمين الخولي⁽⁴⁾، ومحمد عبد الله دراز⁽⁵⁾، ومحمد حجازي⁽⁶⁾، وعبد الرحمان حسن حبنكة الميداني⁽⁷⁾، ونور الدين الدين عتر⁽⁸⁾، ورفعت فوزي عبد المطلب⁽⁹⁾، وغيرهم.

هذا ومن أهم التسميات هنا "الوحدة العضوية" التي تعني: وحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع، أي: انصهار جميع العناصر العقلية، والمنطقية، والفكرية في شعور واحد يسري في كل أجزاء النص الأدبي، ولا تتعلق بفكرة واحدة.⁽¹⁰⁾

¹ - المنهج البنائي في التفسير: محمود البستاني، نقلا عن: منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: سامر رشواني، ص 314.

² - المرجع نفسه، ص 317.

³ - الوحدة التاريخية للسور القرآنية: عمران سميح نزال، دار القراء، الأردن وغيرها، ط1، 2006، ص 81.

⁴ - التفسير: نشأته، تدرجه، تطوره، أمين الخولي، ص 93.

⁵ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ط، دار القلم، ص 127.

⁶ - الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد حجازي، ص 29.

⁷ - قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل: عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، ط، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط3،

2004م، ص 27.

⁸ - اثر المناسبة في إعجاز القرآن: نور الدين عتر، مقال بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية. العدد 13، 1996م، ص 59.

⁹ - الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية: فوزي عبد المطلب، دار السلام، القاهرة، ص 30، ص 394.

¹⁰ - النقد الأدبي الحديث: غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، 1986، ص 394 .

الفرع الرابع: تعقيب ومناقشة.

رأينا - في الفرع الأول - حدوث تضارب آراء الدارسين في التعريف بالوحدة الموضوعية، وأن ذلك ناتج عن تعدد الرؤى والمناهج في دراستها، خاصة وأن بعضها تأثر بالمنهج الأدبي في ضبط المصطلحات وتحديد المفاهيم، كاصطلاحهم بالوحدة العضوية أو وحدة المشاعر وسريانها في كامل أنحاء النص الأدبي، وهذا في رأينا إخضاع النص القرآني لمعايير نسبية تصلح للنصوص البشرية⁽¹⁾، كما أن باقي التعريفات التي قدمت غير جامعة ولا مانعة، فتعريف محمد حجازي - مع دقته ووضوحه - ليس محصوراً في مستوى السورة، ولكنه شامل لكل القرآن.

كما أن بعضهم خلط بين مفهوم الوحدة الموضوعية ومفهوم التناسب بين آيات السورة، أو بينه وبين مفهوم التفسير الموضوعي، كما فعل عبد الحي الفرماوي⁽²⁾، وصلاح عبد الفتاح الخالدي⁽³⁾، وغيرهما.

ورأينا - في الفرع الثاني - أنه حصل اتفاق الدارسين في تحقق الوحدة الموضوعية؛ سواء على مستوى القرآن الكريم كله، أو على مستوى السورة الواحدة؛ إلا ما عرف عن عبد الستار سعيد إنكاره لهذا النوع الأخير، وذلك قد صدر منه نتيجة ضبابية الرؤية، و تجزيئية الفهم عنده. و أما عن تاريخ الوحدة الموضوعية، فأغلب الدارسين خلطوا في ذلك بين نشأة الوحدة الموضوعية ونشأة التفسير الموضوعي، بل وأدجوها ضمن تاريخ التفسير الموضوعي، وذلك للتعلق الشديد بينهما؛ إذ أن الوحدة هي الغاية والهدف الأساسي من الدراسة الموضوعية للقرآن الكريم.

وقد استطاعت القلة من هؤلاء الدارسين الفصل المنهجي بين نشأة الوحدة والتفسير الموضوعي، كما فعل زياد خليل الدغامين⁽⁴⁾، والذي حاول أن يتتبع المؤلفات القرآنية - قديماً وحديثاً - التي أشارت أشارت إلى وحدة النسق أو الفكرة في دراستها للموضوعات القرآنية طويلاً وعمقاً؛ طويلاً على مستوى القرآن الكريم، وعمقاً على مستوى السورة الواحدة، وقرر في ذلك أن الوحدة الموضوعية في النوع الأول أقدم نشأة منها في النوع الثاني، والتي لم تبرز بوضوح إلا في دراسات المتأخرين.⁽⁵⁾

هذا وقد اصطلح هؤلاء الدارسين على تسمية الوحدة الموضوعية بتسميات كثيرة ومتنوعة على حسب تنوع مناهجهم النظرية في ذلك؛ فتسمية صادق الرافي لها "بالروح" هي تسمية فنية أدبية،

¹ - يراجع: منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 241.

² - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 40.

³ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 64.

⁴ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، زياد الدغامين، ص 96.

⁵ - المرجع نفسه.

وكذلك كان حال سيد قطب في تسميته لها بـ "الشخصية"، فهي تسمية ناتجة عن منهج سيد قطب العام، وهو المنهج الحركي الجمالي.⁽¹⁾

وقد سماها الفراهي بـ "النظام"، وما يلاحظ عليه أنه جعل النظام يشمل الوحدة في آيات محدودة، والوحدة في السورة القرآنية، وذلك في قوله «سواء كان الكلام جملة واحدة، أم عدة جمل فلا بد من الوحدة في نظمه».⁽²⁾

و البعض من الدارسين من سماها حسب طبيعة ومنهج الدرس لديه في دراستها، كما رأينا في تسمية أحمد رحمانى لها "الوحدة التجميعية"، فهي تسمية نظرت إلى منهج الدراسة (المنهج التجميعي)، فهي تسمية تصلح للمنهج وليس لمفهوم الوحدة الموضوعية.

وأيضاً -من ذلك- تسمية عمران سميح نزال لها بـ "الوحدة التاريخية"، وهي تسمية نظرت إلى المنهج التاريخي الموظف في دراسة السورة القرآنية لديه في تتبع ترتيب السور القرآنية، واكتمال وحدتها الزمنية بعد ملاحظة مدة نزول آياتها، وهي أيضاً تسمية غير دقيقة على الوحدة الموضوعية؛ لأن هذه الأخيرة تركز على تناسب آيات السورة الواحدة التي أخذت ترتيباً جديداً مصححاً على غير ما كان عليه الترتيب التاريخي.

وهذا أيضاً ما وجد عند المفكر الجزائري مالك بن نبي؛ والذي وظف أكثر من منهج واحد في دراسته لما أسماه "الظاهرة القرآنية"، فظهرت عنده ما تسمى بـ "وحدة التنزيل"⁽³⁾ و "الوحدة التاريخية"⁽⁴⁾، لكن كانت الوحدة الأولى عنده تدل على اجتماع الآيات في علاج فكرة واحدة جزئية في آية واحدة، أو كلية على مستوى السورة الكاملة، وهو اصطلاح صائب للوحدة الموضوعية، أو "وحدة الفكر"، لكنه راعى في تسميتها الجانب التاريخي في نزول آيات القرآن الكريم (الوحي)، وأما الوحدة الثانية فهي التي تتحدث السورة من خلالها عن حدث وواقع تاريخي، وليست ما لوحظ فيها تاريخ نزول آياتها كما جزم بذلك سميح عمران نزال، وهذا ما يؤكد اختلاف الدارسين حول مفهوم "الوحدة التاريخية"، خاصة وأن البعض منهم لم ير دراسة الوحدة الموضوعية إلا من خلال الترتيب المصحفي وليس الترتيب التاريخي.⁽⁵⁾

¹ - النهج الحركي في ظلال القرآن: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ط، دار الشهاب، ص 203 وما بعدها.

² - فاتحة تفسير نظام القرآن: عبد الحميد الفراهي، ص 50، نقلاً عن: منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 108.

³ - الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي، ص 233.

⁴ - المصدر نفسه، ص 227.

⁵ - كمحمود شلتوت في تفسيره: تفسير القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط12، 2004، ص 292_293.

كما كانت بعض التسميات تسميات دلت على طرح صاحبها لنظرية علمية في هذا الشأن، أكثر من دلالتها على توحيد موضوعات السورة الواحدة، كما كان حال سعيد حوي؛ الذي أسس ما أسماه "نظرية الوحدة القرآنية"⁽¹⁾ التي هي وحدة عامة في القرآن الكريم أكثر شمولاً من الوحدة الموضوعية لكل سورة قرآنية؛ بل إن هذه الأخيرة مرتبطة وتابعة للوحدة القرآنية عنده.⁽²⁾

والبعض الآخر نظر إلى الجانب البنائي للسورة، فظهرت عنده تسمية «الوحدة البنائية» كما أكد ذلك طه جابر العلواني، وأيضاً تسمية مالك بن نبي بـ "الوحدة الكمية"، وتسمية البستاني بـ "عمارة السورة القرآنية"، كما أن آخرين نظروا أيضاً إلى طبيعة موضوعات السورة القرآنية، فغلب على تسميته للوحدة الموضوعية على حسب طبيعة موضوعها الذي عاجلته، كما عرفنا تسمية "الوحدة التشريعية" عند مالك بن نبي⁽³⁾، أي تلك الوحدة التي تركز من خلالها السورة على معالجة موضوع تشريعي، وكذلك الحال بالنسبة لديه للوحدة التاريخية، والتي تدرس - من خلالها - حادثة تاريخية ما.

ومن التسميات التي خضعت للمنهج الأدبي الوحدة العضوية، والوحدة الفنية، فالوحدة الأولى ترجع إلى ما يسمى "الوحدة الشعورية" السارية في جميع أجزاء القصيدة أو النص الأدبي، وهو تحديد أدبي نقدي قديم ومعاصر⁽⁴⁾، وقد اعتمده بعض الدارسين المعاصرين للتفسير الموضوعي، كما هو صنيع أحمد رحماني، حينما قال: «والفرق بينهما (بين العضوية والموضوعية) هو أن الوحدة العضوية لا ترجع إلى التركيب العقلي أو المنطقي أو الفكري، وإنما تعود إلى انصهار جميع العناصر المكونة للنص تماماً كما تنصهر قطعة السكر في الماء لتكون صورة واحدة».⁽⁵⁾

وقد لمسنا من قبل إشكالية نقل مفاهيم ومصطلحات الدراسات الأدبية إلى الدراسات القرآنية، خاصة إذا كانت المفاهيم أجنبية الأصل، أو غير متوافقة خصائص نصوصها الإنسانية مع النص الإلهي، وأما الوحدة الفنية فهي غالباً ما تطلق مرادفة للوحدة العضوية⁽⁶⁾، وقد قيل بأن الوحدة الفنية هي: «وحدة النظم»⁽⁷⁾، أي أنها تهتم بدراسة أسلوب القرآن الكريم.

¹ - الأساس في التفسير: سعيد حوي، 6770/11.

² - ينظر: نظرية الوحدة القرآنية في تفسير سعيد حوي: جميلة موجاري، مخطوط، رسالة ماجستير من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ص 64-65.

³ - الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي، ص 225.

⁴ - قضايا النقد الأدبي: محمد زكي العشماوي، ط . دار النهضة العربية، 1979 م، ص 121.

⁵ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحماني، ص 38.

⁶ - يراجع: الوحدة الفنية للقصة القرآنية: محمد الدالي، د.ن، ص 5-6.

⁷ - منهجية البحث للتفسير الموضوعي في القرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 96.

ومن هذا فإن تعريف محمد حسن باجودة للوحدة الموضوعية هو تعريف للوحدة الفنية؛ إذ قال: «نعني بالوحدة الموضوعية التماسك العضوي، والترابط الفني الدقيق، وهو أن يكون العمل الفني متماسكا إلى أبعد درجات التماسك، بحيث أن كل جزئية تفضي إلى التي تليها...»⁽¹⁾

إن تعدد التسميات للوحدة العامة - خاصة في السورة القرآنية - ملمح أساسي في تغاير المناهج الفكرية والأدبية في التعامل مع النص القرآني، وهو أيضا دليل على نسبية هذه التحديدات وفق إطار الاجتهاد الإنساني في علاقته مع النص الإلهي، ولكن هذا لا يعني انتفاء الوحدة مطلقا في القرآن الكريم بشبهة تعدد وتعارض آراء الدارسين حولها.

¹ - الوحدة الموضوعية في سورة يوسف: محمد حسن باجودة، ط 2، تامة - جدة، 1983م، ص 15.

المطلب الثاني:

أنواع الوحدة الموضوعية في الدراسات المعاصرة

وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول: الوحدة الموضوعية للمصطلح القرآني في الدراسات القرآنية المعاصرة.

الفرع الثاني: الوحدة الموضوعية للموضوع القرآني في الدراسات القرآنية المعاصرة.

الفرع الثالث: الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية في الدراسات القرآنية المعاصرة.

الفرع الرابع: تعقيب ومناقشة.

الفرع الأول: الوحدة الموضوعية للمصطلح القرآني في الدراسات القرآنية المعاصرة.

يرجع القول بالوحدة للمصطلح القرآني إلى بعض الدارسين المعاصرين؛ والذين أثبتوا وجود المصطلح أو المفردة أو اللفظة القرآنية كلون من ألوان التفسير الموضوعي، كما أشرنا إلى ذلك من قبل.⁽¹⁾

وكان رواد المدرسة الأدبية الحديثة أول من عاجلوا الوحدة ضمن دراساتهم للمفردة القرآنية؛ حيث رأى أمين الخولي أن اهتمام المفسر بالنظر في المفردات القرآنية، وملاحظة استعمالاتها اللغوية والقرآنية وسياقاتها التاريخية والنفسية _ في إطار نظرة شاملة تحصر هذه الاستعمالات والسياقات ضمن الوحدة الموضوعية _ كل ذلك يضعه في المسار الصحيح لتفسير القرآن الكريم و دراسته دراسة أدبية كما قال في ذلك: «فجملة القول: أن التفسير اليوم - فيما فهمه - هو: الدراسة الأدبية الصحيحة المنهج، الكاملة المناحي، المتسقة التوزيع، والمقصد الأول للتفسير اليوم أدبي محض صرف».⁽²⁾

كما حدد لنا معالم منهجه الأدبي في التفسير من خلال ما أسماه بالدراسة العامة والدراسة الخاصة حول القرآن⁽³⁾؛ هذه الأخيرة التي يبدأ المفسر _ من خلالها - بدراسة مفردات القرآن في سياقاتها الإفرادية ثم التركيبية، لملاحظة التطور الدلالي الذي مس حياة الألفاظ، ولاستخراج اللمسات البيانية في استعمال القرآن لها.

ولا يمكن ذلك - في رأيه - إلا عن طريق الوصول إلى فهم وحدتها اللغوية، وقد أكد ذلك معيلاً _ في آن واحد _ طريقة أصحاب المعاجم ونظرتهم التحريضية (طريقة المقص والغراء كما قال) في قوله: «وإذا ما فرغ من البحث في معنى اللفظة اللغوية، انتقل بعده (أي المفسر) إلى معناها الاستعمالي في القرآن يتتبع ورودها فيه كله، لينظر في ذلك، فيخرج منه برأي عن استعمالها: هل كانت له وحدة اطرقت في عصور القرآن المختلفة ومناسباته المتغيرة؟ وإن لم يكن الأمر كذلك، فما معانيها المتعددة التي استعمالها فيها القرآن؟»⁽⁴⁾

وقد قدم في ذلك دراسات حول موضوعات المفردات القرآنية في سلسلة أسماها "من هدي القرآن" من أمثال موضوعات: رمضان في القرآن، السلام في القرآن، الفن والبيان في القرآن وغيرها.

¹ - يراجع: أنواع التفسير الموضوعي من المبحث السابق، ص 81_87.

² - التفسير: نشأته - تدرجه - تطوره -: أمين الخولي، ص 79.

³ - المصدر نفسه، ص 85.

⁴ - المصدر نفسه، ص 95.

و تبعته في ذلك زوجته عائشة عبد الرحمان؛ التي عابت على أساتذة الجامعة تقصيرهم في جعل «النص القرآني موضوعاً لدراسة منهجية»⁽¹⁾، التي تبدأ - في نظرها - بفهم «مفردات القرآن وأساليبه، فهما يقوم على الدرس المنهجي الاستقرائي ولمح أسراره في التعبير»⁽²⁾.

و أكدت سلامة منهج زوجها حينما قالت عنه بأنه: «التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه، فيجمع كل ما في القرآن منه، ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك»⁽³⁾.

وقالت في تفسيرها البياني لقصار السور بأنها «ملحوظ فيها وحدة الموضوع وأكثرها من السور المكية حيث العناية بالأصول الكبرى للدعوة الإسلامية»⁽⁴⁾.

فمن ذلك تناولها لأسلوب القسم في تفسير سورة الضحى، وبعد أن تتبعت مواضع القسم بحرف الواو في القرآن الكريم بقولها: «والذي اطمأنت إليه بعد طول تدبر وتأمل في السور المستهله بهذه الواو»⁽⁵⁾، توصلت إلى استنباط معنى جامع لها ولأمثالها هو وحدتها اللغوية العامة.

قالت في ذلك: «و حين نتبع أقسام القرآن في مثل آية الضحى نجد أنها تأتي لافتة إلى صورة مادية مدركة وواقع مشهود، توطئة بيانية لصورة أخرى معنوية مماثلة، غير مشهودة ولا مدركة يماري فيها من يماري؛ فالقرآن الكريم في قسمه بالصبح إذا أسفر، وإذا تنفس، والنهار إذا تجلى ... يجلو معاني من الحق والهدى ... بماديات من النور والظلمة، وهذا البيان المعنوي بالحسي، هو الذي يمكن أن نعرضه على أقسام القرآن بالواو ...»⁽⁶⁾.

وكان صلاح عبد الفتاح الخالدي ممن درس الوحدة الموضوعية للمصطلح القرآني، لكنه لم يشر إلى المنهجية التفصيلية في استخراجها، إلا ما أشار إلى دور السياق في ذلك.

ففي المرحلة السادسة من مراحل البحث الموضوعي في المصطلح القرآني يقول: «ربط المصطلح القرآني مع السياق الذي ورد فيه، وبيان تناسق وتناسب هذا المصطلح مع الآية التي ورد فيها، ومع الدرس الذي وردت فيه الآية، وذلك لبيان الوحدة الموضوعية للدرس»⁽⁷⁾.

¹ - التفسير البياني لقرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن، ط، دار المعارف، ط 5، 15/1.

² - المصدر نفسه، 17/1.

³ - المصدر نفسه، 17/1.

⁴ - المصدر نفسه، 18/1.

⁵ - المصدر نفسه، 25/1.

⁶ - المصدر نفسه، 25/1-26.

⁷ - التفسير الموضوعي النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 75.

كما حث الدارسين على ملاحظة البعد الواقعي للمصطلح وربطه بآياته في القرآن الكريم، وتدبر هذه الآيات «لاستخلاص دلالاتها والانتفات إلى لطائفها واستنباط دروسها وعبرها، وتسجيل حقائقها». (1)

وأما عن النماذج التطبيقية فعرض لبحث أحمد حسن فرحات لمصطلح "الأمة في القرآن الكريم" باشتقاقاته وصيغته الصرفية والنحوية، عارضاً لمفهومه في القرآن الكريم، ثم لمفهومه العربي، ثم قال عن صنيعة في ذلك: «إن كتاب الدكتور أحمد حسن فرحات "الأمة في دلالتها العربية والقرآنية" هو خير مثال للتفسير الموضوعي للمصطلح القرآني». (2)

كما قدم بعض الدراسات في هذا المجال؛ كبحثه عن مصطلح التأويل والتفسير في القرآن الكريم؛ إذ بعد استقراء مواردهما في القرآن الكريم توصل إلى المعنى الجامع الخاص بكل مصطلح في مفهوم القرآن له، فقال عن التأويل مثلاً: «وقد لاحظنا أن التأويل في كل سورة من هذه السور السبع ورد نحو سياق خاص، وأن التأويل في هذه السور كلها بمعنى واحد وهو: بيان العاقبة، وتحديد المآل، وإيجاد المطلوب، وفعل الأمر، وتحقيق الخير». (3)

كما درس -أيضاً- مصطلح "جهل" في القرآن الكريم، استنتج في خلاصة بحثه الوحدة الموضوعية له صرفاً ووضعاً، ومعاني واقعية للجاهلية وعلاج القرآن الكريم لها. (4)

الفرع الثاني: الوحدة الموضوعية للموضوع القرآني في الدراسات القرآنية المعاصرة.

أجمعت كلمة الدارسين المعاصرين على تحقق الوحدة الموضوعية للموضوع القرآني، بعد أن أجمعوا على هذا اللون من التفسير الموضوعي؛ بل لا يطلق التفسير الموضوعي ابتداءً -من غير قيود- ولا يتبادر الذهن إلا على هذا النوع كما قالوا. (5)

وقد رأينا -من قبل- أنهم -جميعاً- جعلوا الوصول إلى استنباط الوحدة الموضوعية غاية التفسير الموضوعي؛ بل عرفوا التفسير الموضوعي بهذه الغاية، وقدموا في ذلك نماذج لموضوعات كثيرة، ومتعددة لاحظوا -من خلال منهجيتهم في ذلك- الوحدة العامة في تلك الموضوعات القرآنية، وبما أنهم لم يختلفوا حولها إلا في ضبط بعض القيود والتحديدات المنهجية، وفي تحديد بعض المفاهيم التأسيسية لها،

¹ - مرجع سابق، ص 76.

² - المرجع نفسه، ص 61.

³ - التفسير والتأويل في القرآن: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ط دار النفائس، 1996م، ص 201.

⁴ - يراجع: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 196، 199.

⁵ - يراجع: المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 26، ومباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 27، والبداية في التفسير الموضوعي، عبد الحي الفرماوي، ص 41 وغيرهم.

كما فعل عبد الستار فتح الله سعيد؛ والذي تحدث عن نوعين من الوحدة، تبعا لرابطة التفسير الموضوعي: وحدة في الغاية دون المعنى (الوحدة العامة)، وهي التي تعكس ما أسماه التفسير الموضوعي العام، ووحدة في المعنى والغاية معا (الوحدة الخاصة)، وهي التي تعكس ما أسماه التفسير الموضوعي الخاص⁽¹⁾، كما أن لهذه الوحدة اتساعا وضيقا شكليا بحسب كمية الآيات المتناولة عنده، فهناك الوحدة الوجيزة في شكل مقالة، ثم تليها الوحدة الوسيطة من خلال سورة، ثم تتسع الحلقة للوحدة البسيطة في القرآن الكريم كله⁽²⁾، وبما أنهم لم يختلفوا أيضا إلا في تسمياتها التي تعكس الاختلاف التنوعي لا الاختلاف التضادي، فإننا سنكتفي هنا -إيجازا- بسرد بعض أقوالهم الدالة على غاية الوحدة الموضوعية للموضوع القرآني.

يقول محمد الغزالي في تعريفه للموضوع القرآني: «تتبع قضية ما في القرآن كله، وشرحها على ضوء الوحي النازل خلال ربع قرن تقريبا».⁽³⁾

وقد علل يوسف القرضاوي لموقعها من التفسير، فقال: «لأن التوفر على موضوع واحد معين، يهيئ له من العناية والبيان والدراسة، مالا يتهيأ له لو درس أثناء التفسير الكلي العام».⁽⁴⁾

و من مراحل البحث الموضوعي عند عبد الستار سعيد أن «يقسم المفسر الموضوع إلى عناصر وأجزاء، منتزعة من صميم المعاني المقدر في الآيات الكريمة، ويربط بينهما برباط علمي، يجعل من الموضوعي وحدة واحدة مسلسلة ومرتبنة ترتيبا فنيا يتفق مع النمط القرآني».⁽⁵⁾

كما أكد أحمد رحماني ذلك أثناء حديثه مصطلحات التفسير الموضوعي في قوله: «وكلها مصطلحات تشير إلى طريقة واحدة في تفسير القرآني الكريم تجعل الوحدة الموضوعية هي غايتها في التفسير».⁽⁶⁾

ومن ذلك حول الدغامين: «إن التفسير الموضوعي تنبثق فكرته من مفهوم الوحدة الموضوعية في القرآن⁽⁷⁾، وقول محمد حجازي في وصف هدف التفسير الموضوعي: «لنصل إلى الغاية المنشودة وهي الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم».⁽⁸⁾

¹ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 24-25.

² - المرجع نفسه، ص 26.

³ - تراثنا الفكري في ميزان العقل والشرع: محمد الغزالي، ص 128.

⁴ - الصبر في القرآن الكريم: يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط3، 1989م، ص 05.

⁵ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 65.

⁶ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 31.

⁷ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد خليل الدغامين، ص 15.

⁸ - الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد حجازي، ص 31.

والوحدة الموضوعية هي مصب التفسير بالمأثور الأقرب إلى الصواب، وهي سبيل بيان معاني القرآن وهدايته، وإظهار فصاحته وبلاغته كما قال الفرماوي⁽¹⁾.
إن هذه النصوص وغيرها _ مما لم تذكر هنا _ كلها تلتقي على تحقق الوحدة الموضوعية وأهميتها في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

المطلب الثالث: الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية في الدراسات القرآنية المعاصرة.

اختلفت أنظار الدارسين في دراسة الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ماهية وتصنيفا ومنهجاً تبعاً لاختلاف نظرتهم إلى التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، وأهم ما اختلفوا حوله -هنا- وحدة الموضوع أم تعدده في السورة القرآنية الواحدة، وسنعرض لأهم الآراء المعاصرة من خلال الفروع التالية:

الفروع الأول: السورة القرآنية ذات وحدة موضوعية مستقلة.

وهو قول لأغلب الدارسين المعاصرين كمحمد عبد الله دراز⁽²⁾، وعبد الحميد الفراهي⁽³⁾، وسيد قطب⁽⁴⁾، و ميسلون الخطيب⁽⁵⁾، ومصطفى مسلم⁽⁶⁾، وأحمد رحمانى⁽⁷⁾، وزياى الدغامين⁽⁸⁾، الدغامين⁽⁸⁾، وصلاى عبد الفتاح الخالدى⁽⁹⁾، وطه جابر العلوانى⁽¹⁰⁾، وغيرهم⁽¹¹⁾.
يقول سيد قطب في تقديمه لسورة الأعراف: «هذه سورة مكية -كسورة الأنعام- موضوعها الأساسى هو موضوع القرآن المكي... العقيدة، ولكن ما اشد اختلاف المجالين الذين تتحرك فيهما السورتان».

ثم يقول: «إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة، وذات ملامح متميزة، وذات منهج خاص، وذات أسلوب معين، وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد»⁽¹⁾.

¹ - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحى الفرماوى، ص 53-54.

² - النبأ العظيم، ص 149-150، ومدخل إلى القرآن الكريم، ص 128، محمد دراز، ط، دار القلم، ونا عودة تفصيلية إلى مفهوم الوحدة الموضوعية عند محمد عبد الله دراز.

³ - فاتحة نظام القرآن: عبد الحميد الفراهي، ص 20، نقلاً عن: منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياى الدغامين، ص 106 وما بعدها.

⁴ - في ظلال القرآن: سيد قطب، 27/1-28.

⁵ - نظرة العجلان في أغراض القرآن: ابن شهيد ميسلون الخطيب، المطبعة العمريية، دمشق، ص 05.

⁶ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 29.

⁷ - التفسير الموضوعي نظرية و تطبيقاً: أحمد رحمانى، ص 33 وما بعدها.

⁸ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياى خليل الدغامين، ص 105.

⁹ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاى عبد الفتاح الخالدى، ص 64.

¹⁰ - الوحدة البنائية للقرآن المجيد: طه جابر العلوانى، ص 815.

¹¹ - وهناك آراء أخرى ذكرها الدغامين في كتابه "منهجية البحث"، ص 108، وما بعدها.

- ويقول ابن شهيد ميسلون: «إن السورة الواحدة تلاحظ فيها غايات ثلاث:
- أولها موضوع تدور حوله، ثانيها مؤمن يتحدث إليه بما فيه هدايته، ثالثها مقتضى حال يدور بين أسباب النزول وداعية القول»⁽²⁾.
- وقد جعل أحمد رحماني الفكرة المهيمنة لمحور التفسير الموضوعي للسورة -أو الكشفي كما يسميه- أولى خصائص التفسير الموضوعي⁽³⁾، والتي -الخصائص- تميزه عن غيره من باقي المناهج التفسيرية؛ بل إن هذه الفكرة المهيمنة داخل السورة الواحدة -عنده- هي التي تؤسس ماهية الوحدة الموضوعية، وتفصلها عن الوحدة العضوية كما قال⁽⁴⁾.
- وقد أثبت هؤلاء الباحثين -من خلال دراساتهم التطبيقية لسور القرآن الكريم- تحقق السورة الواحدة بموضوع واحد تعالجه، وتربط جميع آياتها وموضوعاتها به.
- يقول صلاح الخالدي -مثلا- في دراسته لسورة محمد -صلى الله عليه وسلم-: «إن شخصية السورة هي الجهاد؛ لأن موضوعها هو الجهاد، وهدفها التربية الجهادية...»⁽⁵⁾.
- و لما عرض مصطفى مسلم لقصص سورة الكهف توصل إلى موضوعها الجامع لها في قوله: «وهذا ما دفعنا أن نختار هذا العنوان الدقيق للبحث في تفسير السورة الكريمة: القيم في ضوء سورة الكهف...»⁽⁶⁾.
- وما من سورة قرآنية يشرع عبد الرحمن حسن الميداني في تفسيرها، إلا ويمهد لذلك بذكر موضوعها الرئيسي؛ وهو الذي جعل الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية القاعدة الثانية من قواعد تفسيره الأربعين.⁽⁷⁾
- يقول مثلا في صدر سورة المزمل: «موضوع السورة يدور حول ما يلي: أوامر ووصايا سلوكية للرسول -صلى الله عليه وسلم- وللمؤمنين مقرونة بالوعد، و معالجة للكافرين بالوعيد»⁽⁸⁾.

¹ - في ظلال القرآن: سيد قطب، 1243/3.

² - نظرة العجلان في أغراض القرآن: ابن شهيد ميسلون، ص 05.

³ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 49.

⁴ - المرجع نفسه، ص 37.

⁵ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 287.

⁶ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 178.

⁷ - يراجع: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبد الرحمن الميداني، ط، دار القلم، ص 27.

⁸ - تفسير معارج التفكير ودقائق التدبر: عبد الرحمن الميداني، ط، دار القلم، 155/1.

الفرع الثاني: تبعية الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية للوحدة القرآنية في سورة البقرة عند سعيد حوى.

يتلخص ذلك -عنده- أن سورة الفاتحة ذكرت كل المعاني القرآنية بإجمال، «وجاءت سورة البقرة لتفصل في الطريقتين: طريق المنعم عليهم، وطريق المغضوب عليهم ولا الضالين، ... ثم تأتي السور المتبقية بعد ذلك لتتنظم في أربعة وعشرين مجموعة قرآنية، كل مجموعة تحوي سورتين على الأقل تجمعها وحدة موضوعية، تفصل في معاني سورة البقرة وبالترتيب الوارد فيها»⁽¹⁾.

يقول سعيد حوى في هذا: «إن المعاني الإجمالية في القرآن عرضتها سورة البقرة في آياتها التسعة والثلاثين الآية الأولى، ثم جاءت تنمة سورة البقرة لتخدم المعاني الواردة في الآيات الأولى هذه وجاءت المجموعات تتوالى لتفصل كل مجموعة هذه الآيات بشكل أو بآخر»⁽²⁾.

و هو يقول -إضافة إلى هذا- بالوحدة الموضوعية لكل سورة قرآنية، معنونا لها بعنوان "كلمة في السورة ومحورها"، ومبرهننا عليها من خلال تقديم المعنى العام للسورة، وكذلك معانيها الأخرى⁽³⁾، ولكن بارتباطها دائما بسورة البقرة.

يقول في مقدمة تفسير سورة الجاثية: "هذه مقدمة السورة ... وهي تشعرنا بموضوع السورة ... وإذا كانت السورة تفصل في الآيات السبع الأولى لسورة البقرة، فإن بداية السورة يظهر فيها من البداية صلتها بهذا التفصيل"⁽⁴⁾.

الفرع الثالث: تعدد موضوعات السورة القرآنية.

وهو صنيع بعض الدارسين والمفسرين المعاصرين؛ والذين لاحظوا تعدد موضوعات السورة الواحدة، والمشدودة إلى محور عام يربط بينها، وهذا أيضا من مفهوم الدراسات الأدبية المعاصرة لوحدة النص اللغوي، فهي وحدة عضوية، لا وحدة موضوعية، أي وحدة المشاعر و الترابطات النصية ذوات العناصر والموضوعات المتعددة والمتجانسة.

ولما قسم عبد الحي الفرماوي التفسير الموضوعي إلى نوعين اثنين، قال عن الأول منهما: «الكلام على السورة ككل مع بيان أغراضها العامة، والخاصة وما فيها، مع بيان ربط الموضوعات بعضها ببعض، حتى تبدو السورة وهي في منتهى الدقة والإحكام»⁽¹⁾.

¹ - الأساس في التفسير : سعيد حوى، ط، دار السلام، 1999م، 6770/11، وينظر: نظرية الوحدة القرآنية في تفسير سعيد حوى: جميلة موجاري، رسالة ماجستير من جامعة عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، ص 64-65.

² - الأساس في التفسير: سعيد حوى: 6074/8.

³ - نظرية الوحدة القرآنية في تفسير سعيد حوى: جميلة موجاري، ص 152*154 بتصرف.

⁴ - الأساس في التفسير: سعيد حوى، 5215/9.

ونفى مصطفى ناصف أن يكون للسور المتعددة الأغراض سوى بيان وحدة الإطار العام، وهو بيان -عنده- صعب بسبب أن السورة ليست مبنية على موضوع واحد، ولذلك كانت الوحدة الخاصة بالسورة ليست وحدة موضوع. (2)

وقد نص بعض الدارسين المعاصرين أن محمد عبد الله دراز ممن يقول بالوحدة العضوية للسورة القرآنية؛ حينما تأمل نظام السورة فإذا هي «بنية قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول... بل إن السورة لتلتحم معانيها التحام الأعضاء في جسم الإنسان». (3)

و قد صرح بعض المفسرين المعاصرين بتعدد موضوعات السورة القرآنية في تفاسيرهم - مع أنهم أكدوا وحدة موضوعها مرارا- مما أوهم البعض أن يقولوا بذلك، أو أن ينقلوا عنهم ذلك.

فمع أن محمد الغزالي يقول: «لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع في السورة» (4)، إلا أنه صرح بتعدد قضاياها كما في تفسيره لسورة آل عمران، حينما قال: «يستطيع قارئ سورة آل عمران، أن يستبين -على عجل- موضوع السورة الكريمة، فهي تدور على قضيتين كبيرتين:

الأولى: حوار مع أهل الكتاب...

و الأخرى: تعليق على هزيمة أحد التي أصابت المسلمين...». (5)

¹ - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 40.

² - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 111.

³ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 155، ويراجع من صرح بذلك: منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، سامر عبد الرحمان رشواني، ص 291.

⁴ - نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 05.

⁵ - المصدر نفسه، ص 27.

ومن هذا أيضا تصريح محمود شلتوت بذلك كما في تفسيره لسورة آل عمران؛ حيث ذكر موضوعين رئيسيين للسورة، وهما: « قضية الألوهية وتقرير الحق فيها، والعلة التي تحول بين الناس وبين اعتناق الحق». (1)

مما جعل عبد العزيز عبد الحكيم محمود يقول عنه: «ومن خلال دارستي لمنهج الشيخ شلتوت، رأيت أنه لا يقول بوحدة الموضوع، وإنما يجعل للسورة موضوعات، ولكل موضوع هدف...». (2)

الفرع الرابع: الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية وحدة تبعية للوحدة العامة في القرآن الكريم.

معنى هذا القول -الذي قال به أصحاب المدرسة الأدبية وغيرهم- أن السورة الواحدة لا تتضمن موضوعا كاملا، وإنما تتضح صورته، وتكتمل جوانبه، وتتحقق وحدته العامة بالبحث عنه في باقي سور القرآن الكريم، أي القول بوحدة الموضوع لا بوحدة السورة.

ويعد أمين الخولي أشهر من انتصر لهذا الرأي، فقد أكد أن فهم معاني السورة وأغراضها لا يمكن الوصول إليها «إلا أن يقف المفسر عند الموضوع ليستكملها في القرآن، ويستقصيه إحصاء، فيرد أوله إلى آخره، ويفهم لاحقه بسابقه» (3)، وضرب لنا في ذلك مثالا فقال: «فالناظر في سورة البقرة مثلا يجد من الحديث عن المؤمنين وحالهم ما يحسب أنه يفهم الفهم الصحيح، إذا ما قورن بها في سورة المؤمنون... ثم هو واحد في سورة البقرة عن المنافقون وحالهم مالا يفهم على وجهه إلا مع سورة "المنافقون"». (4)

ولم ير في السورة وحدة موضوعية؛ إذ المقتصر عليها لوحدها يهيم في فهم موضوعات كثيرة غير متكاملة، مما يلبس فهمه النظرة التجزيئية والمعجلة، كما قال: «وليس تفسير القرآن سورة سورة إلا تعرضا مفرقا لموضوعات مختلفة تنظمها السورة الواحدة، ثم يعود المفسر بعد ذلك في السورة الأخرى إلى مثل هذه الموضوعات أنفسها...». (5)

وقد نفى عبد الستار فتح الله سعيد تحقق الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية؛ إذ أنه أقصى التفسير الموضوعي للسورة من التفسير الموضوعي، وعده فقط من باب الدراسات القرآنية. (6)

¹ - تفسير القرآن الكريم -الأجزاء العشرة الأولى-: محمود شلتوت، ط، دار الشروق، 2004م، ص 78.

² - الشيخ شلتوت ومنهجه في التفسير: عبد العزيز عزت عبد الحكيم محمود، مخطوط، رسالة دكتوراه من جامعة الأزهر، ص 305.

³ - التفسير نشأته -تدرجه- تطوره: أمين الخولي، ص 81.

⁴ - المصدر نفسه، ص 81-82.

⁵ - المصدر نفسه، ص 83.

⁶ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 25.

المطلب الرابع: تعقيب ومناقشة.

الوحدة الموضوعية قضية ثابتة في القرآن الكريم، هذا قدر أدنى متفق عليه بين أغلب الدارسين المعاصرين، خاصة ما تعلق بالموضوع القرآني؛ والذي تتحقق وحدته العامة بعد جمع آياته كاملة في نصوص القرآن الكريم، وملاحظة الغاية الكبرى التي تشد إليها عناصرها الفرعية بعد ارتباطها فيما بينها ربطاً محكماً.

ولم يختلف الدارسون المعاصرون حولها إلا في بعض التحديدات المنهجية في دراستها واستنباطها، وهذا لا يخدم في حقيقتها وثبوتها في القرآن الكريم، وهو أمانة نسبية هذه الأفهام البشرية في مقارباتها الاجتهادية لفهم النص القرآني؛ وإنما الذي لم يكن واضحاً من ذلك ما يتعلق بالوحدة الموضوعية للمصطلح القرآني؛ إذ يبدو أنهما لم تؤصل كل جوانبها النظرية المنهجية عند أمين الخولي والتطبيقية المنهجية عند صلاح عبد الفتاح الخالدي.

فالأول منهما لم يخرج عن دائرة التصاريف الاشتقاقية والمعجمية للفظ القرآنية في سياقاتها اللغوية والتاريخية، وذلك لملاحظة التطور الدلالي الذي مس حياة الألفاظ، وفهم وجوه الإعجاز البيانية والنفسية لها؛ فالوحدة الموضوعية التي يتحدث عنها أمين الخولي وزوجه بنت الشاطئ هي وحدة لغوية معجمية دلالية قد خلت في كثير من الأحيان عن وضوح المعاني الهدائية والمواقف القرآنية في علاجاتها التربوية وتصوراتها النظرية لأبعاد ذلك المصطلح الواقعية.

و هذا ليس غريباً عنهما؛ إذ لم يهتما إلا بما أسماه بالدراسة الأدبية الصحيحة المنهج، فالقرآن في نظرهما كتاب العربية الأكبر فقط، وجميع الدراسات القرآنية يجب أن تسعى لتحقيق هذه الغاية فقط.

وهذا ما عابه زياد الدغامين عليهما حينما بيّن أن المقصود من التفسير الموضوعي - في منهج هذه المدرسة الأدبية - هو «التعرف بجلاء على المعاني الدقيقة لمفردات القرآن من خلال الاستعمال القرآني لها».⁽¹⁾

وإنما حقيقة التفسير الموضوعي للوحدة المصطلحية هو في الكشف عن عناصرها، وبيان الصلات التي تربط بين تلك العناصر ومعرفة الغرض القرآني من خلال حقائقه ومواقفه النظرية الواقعية، ودراسة ذلك على ضوء منهج واقعي شمولي كما قال زياد الدغامين.⁽²⁾

¹ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد خليل الدغامين، ص 14.

² - مرجع سابق، ص 18.

ثم إن بعض ألفاظ القرآن الكريم لا يمكن الوصول إلى وحدتها العامة وذلك لقلّة استعمالها في القرآن الكريم، فلم تذكر بعضها إلا مرة أو مرتين، وهذا ما لم يوضحه أمين الخولي؛ بل إن الملاحظ على بعض دراساته التطبيقية أنه خرج عن السياق القرآني إلى سياقات أخرى بنوية وواقعية، لأن اللفظة التي درسها لم ترد إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، كدراسته للفظه رمضان في القرآن الكريم.

كما أنهما -الخولي و بنت الشاطئ- قد أخلا في كثير من الأحيان بمنهج الاستقصاء والحصص فيتبع اللفظة القرآنية في ورودها في القرآن الكريم، وهما اللذان حرصا على ضبط الدراسات القرآنية الموضوعية بهذا القيد المنهجي، وقد رأينا ذلك -مثلا- في دراسة عائشة عبد الرحمن للقسم في القرآن في تفسيرها لصدر سورة الضحى؛ فلم تستقرئ كل ألفاظ القسم في القرآن الكريم، بل أكتفت بدراسة بعض المواضع القرآنية المفتحة بحرف الواو القسمي، وصرحت بأهمية أن تفرد دراسة كاملة للقسم في القرآن الكريم، وهذا ما لم تفعله.

إن الدراسات الأدبية للألفاظ القرآنية -عندهما- أخرى أن تدرج ضمن علم الأشباه والنظائر أو الوجوه والنظائر، كما صرح بذلك عبد الحي الفرماوي⁽⁴⁾؛ ذلك أنها قد ابتعدت عن الدراسات الموضوعية للوحدة المصطلحية من حيث الغاية والهدف ومن حيث منهجية البحث فيها، وهذا أيضا ما وقع فيه صلاح عبد الفتاح الخالدي، الذي لم يشر إلى المنهجية التفصيلية في استخراجها، إلا ما أشار إلى دور السياق في ذلك.

كما أن نظرتة للوحدة الموضوعية للمصطلح القرآني قد طغت عليها التجزئية في كثير من الأحيان؛ حينما ربطها بالسياق الإفرادي لا الشمولي⁽²⁾ لتلك اللفظة في تقابلاتها الاشتقاقية في نصوص القرآن الكريم؛ إذ لم يبين لطائفها اللغوية والهدائية إلا من خلال السياق الموضوعي أو التاريخي لها فقط، دون التناسب والارتباط فيما بينهما على الأقل -ليرتبها وفق عناصر منطقية وواقعية لمفاهيم تلك الصيغ الاشتقاقية للفظه القرآنية، ولكنه عكس الأمر، فاكتفى بدراسة اللطائف الهدائية لكل صيغة اشتقاقية في سياقاتها الجزئية داخل السورة القرآنية، ولم يضع منهجية كاملة في دراسة وجوه التناسبات بينها ولمس الوحدة العامة في القوانين الهدائية القرآنية المستنبطة من ذلك إلا بعض الإشارات العامة كما في دراسة لمصطلح "جهل" في القرآن، أو لمصطلح "التأويل" و"الإيمان" وغيرها.

¹ - وذلك في لقاء لي معه في القاهرة بتاريخ: 2006/06/20.

² - يراجع في هذا: منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 202.

وأما الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية فقد رأينا اختلاف أنظار الدارسين حولها من حيث الثبوت والعدم، ومن حيث الكمال والنسيية، ولم تخل نظراتهم من هنات منهجية؛ فنظرة سعيد حوى لا تعدو مجال النظرية التي أصلها، ولم يوافقها الكثيرون على ذلك. (1)

وقد واجه بعض من أكد أن لكل سورة وحدة موضوعية مستقلة، أو شخصية متفردة _ كسيد قطب _ صعوبة ملحوظة في تحديده لموضوعات السور المكية بالتحديد؛ فكم من سورة ذكر أنها تعالج موضوعات القرآن المكي: الوجدانية و الألوهية، الوحي والرسالة، والبعث، كما في تقديمه لسور: يونس، الرعد، إبراهيم، النحل، الإسراء، الأنبياء، الصف، وغيرها (2)

أما قول الفراهي بالنظام فهو يدل على تناسق أجزاء السورة، ولا يدل بالضرورة على وحدة موضوع بعينه. (3)

وما هو جدير بالذكر هنا التفريق بين الموضوعات والقضايا في ملاحظة وحدة السورة، فالموضوعات تدل على الوحدة أو الفكرة العامة، والقضايا تدل على الأفكار الجزئية، هذا ما فهمناه من تصريح كثير من المفسرين بتعدد قضايا السورة الواحد؛ كمحمد الغزالي ومحمد شلتوت وغيرهما، وهذا ما أوقع البعض في أسر التجزئية حينما اعتقد بتعدد موضوعات السورة الواحدة.

وما يمكن قوله هنا أن لكل سورة «حدودا وأهدافا وأغراضا تدور حولها، فتعرض لتحقيق ذلك إلى عدة معان، وتأخذ من كل معنى ما يتناسب مع هدفها» (4)، فالسورة تتضمن وحدة موضوعية واضحة، وأما جزئياتها الموضوعية فلا تكتمل إلى من خلال دراسة نظائرها في القرآن الكريم دراسة شمولية، ضمن الوحدة الموضوعية للموضوع القرآني.

وكم كان محمد محمود حجازي دقيقا حينما صرح بأن تكرار الموضوع الواحد في كل سورة، يناسبها شكلا وموضوعا، وأن يؤدي إلى ما أسماه "كمال الوحدة الموضوعية". (5)

و لعل في توزيع هذه الموضوعات الفرعية في سور القرآن الكريم فوائد تربوية وأخرى منهجية، الأولى تراعي النفس الإنسانية نشاطا وضعفا في سماع القرآن الكريم، فلا بد من التنوع في معالجة الموضوع الواحد. (1)

1- يراجع نظرية الوحدة القرآنية في تفسير سعيد حوى: جميلة موجاري، ص 386.

2- ينظر مثلا: في ظلال القرآن: سيد قطب، 3/1745، 4/2038، 2077، 2157، 2207، 2363، 6/3549.

3- منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 107.

4- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد حجازي، ص 37.

5- يراجع: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد حجازي، ص 47.

والثانية تؤكد ارتباط الموضوعات القرآنية فيما بينها، وإن درست دراسة مفردة، ولذا لا يصلح «تناول موضوع اجتماعي بمعزل عن جوانبه العقدية والتشريعية، والاقتصادية والسياسية وغيرها، والتي تشترك مع هذا الموضوع في النظرة القرآنية الكلية». (2)

¹ - المصدر نفسه، ص 47، 85

² - الوحدة التاريخية للسورة القرآنية: عمران سميح نزال، ص 95.

المطلب الثالث: منهجية البحث في الوحدة الموضوعية في الدراسات القرآنية المعاصرة

وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول: علم المناسبات وعلوم القرآن و الوحدة الموضوعية في الدراسات المعاصرة

الفرع الثاني: بنية السورة القرآن و الوحدة الموضوعية في الدراسات المعاصرة

الفرع الثالث: ضوابط منهجية متفرقة في كشف الوحدة الموضوعية

الفرع الرابع: تعقيب ومناقشة.

تفاوتت أنظار الدارسين المعاصرين في وضع منهجية علمية واضحة تدرس من خلالها الوحدة الموضوعية بألوانها الثلاثة في القرآن الكريم.

والملاحظ على أغلب هذه التفصيلات المنهجية أنها وضعت للتفسير الموضوعي بصفة عامة، والوحدة الموضوعية لا تشغل من هذا إلا مرحلة واحدة وسطية أو نهائية من مراحل البحث في التفسير الموضوعي، ولم تحدد أغلبية هذه الدراسات المنهجية الدقيقة في استنباط الوحدة الموضوعية بألوانها الثلاثة.

و مع ذلك لم تعدم الإشارة إلى كثير من القيود المنهجية في استنباط الوحدة الموضوعية، وهي في أغليبتها قواعد منهجية عقلية، أو قواعد منهجية عقلية، أو قواعد مستنبطة من بعض العلوم القرآنية. و سنعرض لأهم هذه القواعد المنهجية من خلال الفروع التالية:

الفرع الأول: علوم القرآن والوحدة الموضوعية في الدراسات المعاصرة.

أشار كثير من الدارسين المعاصرين إلى الصلة بين علوم القرآن والوحدة الموضوعية، خاصة من خلال السورة القرآنية الواحدة، وتحدثوا عن بعض علوم القرآن، ومساهمتها في ارتباط أجزاء الموضوع القرآني الواحد، وفي التماسك العضوي لقضايا السورة الواحدة، وإثرائها للموضوع العام، تبين -من خلالها- أهمية الإحاطة بعلوم القرآن كخطوات مرحلية لاستنباط الوحدة الموضوعية العامة.

البند الأول: أسباب النزول ومناسبات الآيات (المكي والمدني).

لم يتحدث كثير من دارسي التفسير الموضوعي عن دور أسباب النزول وملابسات الآيات في استنباط الوحدة الموضوعية، وإنما أشاروا إليه في منهجية البحث في التفسير الموضوعي عموماً.

فقد أكد أمين الخولي حاجة المتفهم لكتاب الله إلى «إدراك الملابسات والمناسبات والأسباب التي أحاطت بما يفهمه من النصوص - إذ هي أضواء لا بد منها لاستجلاء- المعنى»⁽¹⁾ للموضوع القرآني المدروس.

¹ - التفسير نشأته، تدرجه، تطوره: أمين الخولي، ص 82.

و هو هنا يتحدث عن ترتيب آيات الموضوع الواحد ترتيباً تاريخياً وفق المكي والمدني «بحيث يكشف هذا الترتيب لنا عن تلك النواحي التي عرفت أن المفسر المتفهم مضطر إلى مراعاتها وتقديرها؛ وذلك بأن يعرف ترتيبها الزمني، ومناسباتها وملابساتها الحافة بها»⁽¹⁾.

ونجد مثل ذلك عند بعض الدارسين المعاصرين؛ كعبد الستار سعيد⁽²⁾، ومصطفى مسلم⁽³⁾، وعبد الجليل عبد الرحيم⁽⁴⁾، وعمران سميح نزال⁽⁵⁾، وزياد الدغامين الذي اشترط في الموضوع القرآني النظر في المكي والمدني وملاحظة البعد التاريخي والبيئي⁽⁶⁾، وتحدث عن موضوع السورة القرآنية بما أسماه معرفة البيئة المعنوية التي نزلت فيها السورة⁽⁷⁾، وكذلك أشار إلى ذلك المفسرون ودارسوا علوم القرآن المعاصرين عموماً؛ حينما تحدثوا عن خصائص وضوابط المكي والمدني الخطائية وأهميتها في تحقيق الوحدة الموضوعية خاصة للسورة القرآنية كما نجد ذلك عند محمد الغزالي⁽⁸⁾، ومحمد رشيد رضا⁽⁹⁾، ومحمد قطب⁽¹⁰⁾، وغيرهم⁽¹¹⁾.

وهذا إن كان واضحاً عندهم في ملابس الآيات (المكي والمدني)، فإنه نادر لديهم في ملاحظة ذلك في أسباب نزول القرآن خاصة، وأن الكثير منهم يرجع ذلك إلى القاعدة الأصولية «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، قصداً منه لتعميم معاني الآيات وانسجامها في ارتباطها مع الموضوع العام أو موضوع السورة.

و قد تحدث سامر رشواني عن فائدتين للاستعانة بأسباب النزول في فهم الوحدة الموضوعية.

«أ - فهم تطور الأحكام الشرعية في عصر الرسالة، وضرب مثالا للخمر.

¹ - مصدر سابق، ص 83.

² - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 63.

³ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 37، 42.

⁴ - التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم، ص 72.

⁵ - الوحدة التاريخية للسورة القرآنية: عمران سميح نزال، ص 89.

⁶ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 40، 41، 134.

⁷ - المرجع نفسه.

⁸ - نظرات في القرآن: محمد الغزالي، ط، دار الشهاب، باتنة، ص 251.

⁹ - تفسير المنار: محمد عبده ورشيد رضا، 321/4.

¹⁰ - دراسات قرآنية: محمد قطب، ط 6، جار الشروق، 1991م، ص 265.

¹¹ - يراجع المدخل لدراسة القرآن الكريم: محمد أبو شهبه، مكتبة السنة، ص 332، والمكي والمدني لبعدهم الرزاق حسين أحمد، دار ابن عفان، 160/1 وغيرها.

ب - الاستفادة منها في فهم حركة القرآن في الواقع وفعله فيه، من أجل تكوين النظرة الكلية للموضوع المدروس قرآنياً...»⁽¹⁾.

و قد أشار الدارسون إلى هذا؛ حينما أكدوا أن أسباب النزول قد تعلقّت - في معظمها - بالتشريع والأحكام والآداب.⁽²⁾

البند الثاني: علم المناسبات والوحدة الموضوعية في الدراسات المعاصرة.

أكد جميع الدارسين الصلة التي تربط علم المناسبات بالوحدة الموضوعية، لألوانها الثلاثة - خاصة للسورة القرآنية -؛ فكلهم قد أشار إلى أهمية الربط بين الآيات القرآنية، سواء في الموضوع كما نص عبد الستار فتح الله سعيد⁽³⁾، وعبد الحي الفرماوي⁽⁴⁾، أو كان ذلك على مستوى السورة القرآنية كما صرح به مصطفى مسلم⁽⁵⁾ وصلاح عبد الفتاح الخالدي⁽⁶⁾، وغيرهم.⁽⁷⁾

وقد تحدثوا عن مجالات عدة للمناسبات تتحقق من خلالها الوحدة الموضوعية؛ فأشاروا إلى تناسب الألفاظ، والآيات (الجملة)، ومقاطع السورة ومعاقدها فيما بينها، وأغلبها مستمدة من عبارات المتقدمين في هذا العلم.

ولعل أحدث هذه الوجوه التناسبية ظهوراً، وأقلها حضوراً في دراسات المعاصرين، التناسب الصوتي والإيقاعي للأصوات المفردة فيما بينها، أو للأصوات المركبة (المقاطع الصوتية)؛ فلم نر في كتب المصطلح (التفسير الموضوعي) إشارة إليها إلا ما نبه إليه أحمد رحمانى في المرحلة الخاصة في كشف وحدة موضوع السورة، وذلك في قوله: «بجث التناغم الصوتي لبيان دوره في الحفاظ على وحدة السورة»⁽⁸⁾، وطبق ذلك في تفسيره لسورة الضحى⁽⁹⁾ وسورة الملك.⁽¹⁰⁾

¹ - منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 170.

² - يراجع: محاضرات في علوم القرآن: غانم قدوري الحمد، دار عمار، ص 36.

³ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 56.

⁴ - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 48.

⁵ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 58 وما بعدها.

⁶ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 81، 85.

⁷ - يراجع: دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي، ص 74.

⁸ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحمانى، ص 66.

⁹ - المرجع نفسه، ص 129.

¹⁰ - المرجع نفسه، ص 144.

كما نبه إلى ذلك مصطفى صادق الرافعي، وسيد قطب؛ الذي اهتم كثيرا بإبراز شخصية السورة القرآنية في إيقاعاتها وأجراسها وظلالها، وفي تشكيلاتها للصور القرآنية الموضوعية⁽¹⁾. وقد تلقف هذه الإشارات أحمد أبو زيد، وفعلها في إطار دراسة منهجية، وتطبيقية لكثير من سور القرآن الكريم، فكانت دراسة دقيقة وممتعة بيّن فيها من خلال كتابه "التناسب البياني في القرآن"⁽²⁾، دور الأصوات في التأسيس للوحدة الموضوعية خاصة ما تعلق بالسورة القرآنية.

الفرع الثاني: بنية السورة والوحدة الموضوعية في الدراسات المعاصرة.

قلت الإشارات في الدراسات المعاصرة إلى التنبيه إلى دور بنية السورة، وهيكلها الشكلي وأسلوبها وسياقها في تحقيق الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية؛ فلم نر في ذلك دراسات مستقلة، وإنما لمسنا ملاحظات متناثرة في مؤلفاتهم ودراساتهم التي نحت في أغلبها المنهج اللغوي العام من أجل لمح اللمسات الإعجازية للنص القرآني.

ولم نر مثل ذلك في كتب المصطلح -التفسير الموضوعي- تفصيلات في هذا، إلا ما كان من بعض الدراسات التطبيقية التي ركزت على دور السياق في تأسيس وحدة الآية خاصة، وقليل منها من أشار إلى دوره في وحدة النص، وأقل منها من سطر ذلك نظريا في حديثه عن مراحل البحث الموضوعي.

فقد ذكر صلاح عبد الفتاح الخالدي في المرحلتين الخامسة والسادسة للبحث في المصطلح القرآني، حيث يجب ربطه بالاستعمال القرآني والسياق الوارد فيه، وذلك لبيان الوحدة الموضوعية للدرس كما قال.⁽³⁾

ونص أحمد رحماني أن تحكيم السياق تقنية هامة من التقنيات المنهجية العامة المثلى للتفسير الموضوعي.⁽⁴⁾

و أما بقية الدارسين فلم يشيروا إلا إلى دور السياق التاريخي لنزول الآيات والسور «كل ذلك لتكامل شخصية السورة وأجواؤها لإبراز الهدف الرئيسي أو القضايا الرئيسية التي تناولتها السورة»⁽⁵⁾

¹ - ينظر مثلا: في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، المجلد 3، جزء 8/1243.

² - التناسب البياني في القرآن: أحمد أبو زيد، كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1994م، ص 321 وما بعدها.

³ - التفسير الموضوعي بين النظرية التطبيقية: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 75.

⁴ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 63.

⁵ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 44.

وقد أفاد عمرا سميح نزال أن مدة نزول آيات السورة القرآنية تشكل وحدة تاريخية وزمنية تعتبر إطار منهجيا ومعرفيا لفهم وحدة السورة القرآنية ، يقول في ذلك: «إن من أهم ما يعني التفسير الموضوعي به هو موضوعات القرآن كله، أو موضوعات السورة الواحدة، وهذا لا يتم تحقيقه إذا تجاهل المفسر تاريخ النزول... لأن من الأسس المهمة لوظيفة نزول السورة هو معالجتها الزمنية التي نزلت فيها، وما كان يواجه الدعوة الإسلامية من أحداث...»⁽¹⁾.

وأهم من فصل هذه العلاقة من اللغويين المعاصرين تمام حسان؛ الذي حاول أن يخرج قرينة السياق من مفهومها الموضوعي اللغوي إلى مفاهيمه الواسعة غير اللغوية فقال في ذلك: «وقرينة السياق هذه هي كبرى القرائن النحوية؛ لأنها قد تعتمد على شيء من هذه القرائن النحوية المفردة، أو تتجاوزها إلى أمور دلالية من العقل أو من المقام المحيط بالجملة»⁽²⁾.

ومن المقامات المحيطية بالنص الظروف الحسية والنفسية، وكذا المحيط الاجتماعي المحتوي للنص⁽³⁾، فلا شك أن السياق بهذا «إطار عام تنظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية، ومقياس تتصل بواسطته الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداولية ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النص للقارئ»⁽⁴⁾، أي: في بيان الوحدة الموضوعية وتماسكها داخل السورة الواحدة.

ولذا قال تمام حسان: «فلا شك أن قرينة السياق هي روح النص، والقرائن اللفظية هي حرفية النص»⁽⁵⁾.

وأما عن أبنية السورة وأسلوبها التي تسهل على الدارسين التماس الوحدة الموضوعية، فلم يتناولها الدارسون المعاصرون إلا في ثنايا حديثهم عن مميزات القرآن المكية والمدنية «فقرآن مكة يمتاز بأن آياته أوفر عدداً، وأقصر جملاً، وأكثر التزاماً لنغمات موسيقية معنية»⁽⁶⁾، كما امتاز أيضاً «باللهجة الخطابية القوية النافذة إلى الأعماق والقارعة للأسماع والقلوب»⁽⁷⁾، وذلك يناسب موضوعات العقيدة الإسلامية الإسلامية المبنية على الجدل والمناقشة قصد الإقناع، والعكس يقال للقرآن المدني الذي امتازت آياته

¹ - الوحدة التاريخية للقرآن: عمران سميح نزال، ص 92.

² - البيان في روائع القرآن: تمام حسان، القاهرة، عالم الكتب، ط2، 200م، ص 212.

³ - قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل: عبد الرحمان حسين الميداني: ص 53.

⁴ - منهج السياق في فهم النص: عبد الرحمان بودرع، السلسلة كتاب الأمة، الدوحة، العدد 11، السنة 26، 2006م، ص 27.

⁵ - البيان في روائع القرآن: تمام حسان، ص 218-200.

⁶ - بحث جديد عن القرآن: محمد صبيح، دار الشروق، بيروت، ط8، 1403هـ، ص 120.

⁷ - القرآن المجيد: محمد عزة دروزة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص 101، 102.

بالإسهاب، وفواصله بالقلّة، وأساليبه بالإطناب والوضوح والسرد المباشر تناسباً مع موضوعات التشريع وعلاج الأحكام وسن القوانين في مختلف مجالات الحياة الإسلامية. (1)

الفرع الثالث: ضوابط منهجية متفرقة في كشف الوحدة الموضوعية.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، تحدث الدارسون المعاصرون عن ضوابط أخرى اعتقدوها أساساً في منهجية التفسير الموضوعي بألوانه الثلاثة، دون الوحدة الموضوعية، ذلك كما قلنا سابقاً أن الوحدة الموضوعية، - وإن كانت ثمرة التفسير الموضوعي - لها منهجيتها المستقلة عن منهجية التفسير الموضوعي. وقد كانت للضوابط التي ذكرها صلة وثيقة بالوحدة الموضوعية من خلال ربطها بالموضوعات القرآنية كونها مرحلة تأسيسية لها ومن أهم ما ذكره هنا:

1 اختيار عنوان الموضوع القرآني:

وقد اختلفت أنظارتهم في أساس الاختيار؟ فالبعض منهم انطلق في ذلك من نصوص القرآن الكريم، واشترط في الموضوع القرآني أن يكون مشتقاً لفظه من القرآن الكريم، كما نص على ذلك عبد الستار فتح الله سعيد (2)، ومصطفى مسلم (3)، وصلاح عبد الفتاح الخالدي (4)، وعبد الجليل عبد الرحيم (5)، وعبد الحي الفرماوي (6)، وغيرهم.

وفريق آخر رأى أن التفسير يبدأ من خارج النص، أي من واقع الحياة في موضوعاتها العقدية أو الاجتماعية أو الكونية ليعرضها على القرآن الكريم، ويستنتج منه موقفه أو نظريته في ذلك، وهو قول محمد باقر الصدر (7)، وزياد الدغامين (8)، وأحمد رحماني (9)، وغيرهم.

2 منهج الاستقراء (الحصر والإحصاء):

¹ - يراجع: مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، دار الملايين، بيروت، ص 335.

² - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 58.

³ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 37.

⁴ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 70، 80.

⁵ - التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم، ص 60.

⁶ - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 48.

⁷ - المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، ص 17.

⁸ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، زياد خليل الدغامين، ص 28.

⁹ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحماني، ص 68-69.

وهذا الضابط المنهجي مما اتفقت كلمتهم عليه، مؤكدين أهميته في تحقق الوحدة الموضوعية باكمال جزئياتها واجتماعها في نظرة قرآنية كلية.

3 التحليل والتركيب:

أي تقسيم الموضوع الرئيسي إلى قضايا فرعية، وتقسيم السورة إلى مقدمة وقضايا وخاتمة، أو تقسيم الوحدة الموضوعية إلى مجموعة دروس، ثم ربطها فيما بينها لإعادة تركيب الموضوع الرئيسي منها؛ فبعضهم أشار إلى وجوه المناسبات الداخلية للسورة في ذلك، أو مخطط الترابط بين العناصر للموضوع القرآني كما فعل عبد الستار سعيد⁽¹⁾، ومصطفى مسلم⁽²⁾، والخالدي⁽³⁾ وغيرهم.

والبعض الآخر أشار إلى آلية عقلية، ومنطقية في ذلك من خلال توظيف التحليل والتركيب لاختبار الفرضيات والأفكار الموضوعية من قبل؛ التحليل في تجزئة الموضوع إلى عناصره الجزئية لاكتشاف العلاقة بينها، والتركيب في ابتكار تصور جديد لوحدة موضوعية جديدة بعد فهم العلاقات، كما نادى بذلك أحمد رحمانى⁽⁴⁾.

الفرع الرابع: تعقيب ومناقشة

رأينا من خلال المطالب السالفة تفاوت الرؤى، وتعدد الأنظار في وضع منهجية علمية في دراسة الوحدة الموضوعية بألوانها الثلاثة، وقد رأينا - كما كررنا ذلك من قبل - أنها وضعت للتفسير الموضوعي ابتداءً، وأنها لم تفرق بين منهجية ذلك، ومنهجية الوحدة الموضوعية التي تظل من خلال البحث الموضوعي العام فرضية حتى يستطيع المفسر - من طرق أخرى - إثباتها كحقيقة واقعة في سور القرآن الكريم؛ إذ لا يكفي تقسيم السورة إلى مجموعة دروس، ثم الربط بين أفكارها وموضوعاتها عن طريق المناسبات أو السياق للوصول إلى وحدة السورة كما رأينا ذلك من إشارات الدارسين المعاصرين.

وإنما تتحقق وحدة السورة الموضوعية - إضافة إلى ما ذكره - إلى تضافر هذه الضوابط المنهجية في إطار خطة دقيقة مرسومة المراحل والغايات، تتبع خطوة فخطوة حتى تتضح معالم العامة بصورة جلية.

¹ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 65.

² - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 68.

³ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 81.

⁴ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً، أحمد رحمانى، ص 66.

إذ تبدئ هذه المنهجية بتقسيم السورة إلى مجموعة دروس تتضمن قضايا متعددة، وذلك بعد أن يضع المفسر فرضية الموضوع العام، ثم يشرع في الربط بين هذه القضايا على مستويات عدة بدءاً من الأصوات والفواصل ودراسة نظام الآيات، وأساليبها وانتهاء إلى المستوى الدلالي للنص الذي يدرس من خلاله أسباب النزول والسياقات التاريخية والاجتماعية والنفسية الحافة بالنزول للآيات المفردة ثم للنص الكلي، موظفاً قبل ذلك علم المناسبات والجمع والاستقراء، وتركيب كل ذلك في إطار نظرة كلية شاملة.

في حين أنه لم يوظف الدارسون المعاصرون كل هذه الضوابط والآيات؛ بل اقتصرُوا على بعضها، كل حسب نظرتهم إلى الموضوع المدروس، وبعضهم لم يفصل لنا المنهجية الدقيقة في دراسة الموضوع القرآني كما هو حال أمين الخولي.

كما أن البعض الآخر لم يسلم من النظرة التجزئية في الاستعانة بهذه الضوابط المنهجية في دراسة الموضوعات القرآن الكريم، فقد لاحظنا في دراساتهم للسياق والمناسبات والفواصل والأساليب والمناسبات التنزيل أنها لم تتجاوز موضوع الآيات والجمل إلى مستوى النص (السورة) عموماً.

وحتى الشواهد والأمثلة التي درسوها كانت أمثلة تجزئية لآيات عدة لملاحظة معانيها المفردة فقط، خاصة في إطار السورة القرآنية.

ويبدو أن الرؤية المنهجية في ذلك قد اتضحت لأحمد رحمانى؛ حينما نظر إلى ذلك نظرة كلية شاملة في وضعه مخططاً عاماً حصر من خلاله أبعاد السورة في نطاق فكرة واحدة، في شكل فرضية مقترحة في بداية الدراسة، ثم استخدم غريبتها في إطار عمليتي التحليل والتركيب، نزولاً إلى مستوياتها الدنيا ثم صعوداً بها إلى كلياتها الكبرى لابتكاره تصوراً جديداً يتطابق مع فكرة الفرضية الأولى.

أما عن الموضوع القرآني فقد كان الأمر في ذلك واضحاً من خلال الضوابط التي اتفقوا عليها، غير أنها لا تكفي بالتحليل الموضوعي؛ بل يجب أن تتجاوزه في تحليل الآيات مجتمعة بالاستعانة بالترابطات الكلية، والسياقات العامة.

الفصل الثاني:

المنهج التحليلي والموضوعي في تفسير محمد عبد الله دراز.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بتفسيره ومصادره.

المبحث الثاني: المنهج التحليلي في تفسيره.

المبحث الثالث: المنهج الموضوعي في تفسيره.

المبحث الرابع: أهم خصائص ومزايا تفسيره.

المبحث الأول: التعريف بتفسيره ومصادره.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ظروف التأليف.

المطلب الثاني: مصادره في تفسيره.

المطلب الثالث: علاقة مؤلفاته بعضها ببعض.

المبحث الأول: التعريف بتفسيره ومصادره.

لم يترك لنا محمد عبد الله دراز سفراً مستقلاً بتفسير القرآن الكريم؛ وإنما كان ذلك ماثوفاً في رسالة الأكاديمية، ومؤلفاته العلمية، ومقالاته التي كان ينشرها في عدد من الصحف والمجلات والدوريات، أو حتى في تلك الأحاديث الدينية التي كان يلقيها عبر إذاعة القاهرة آنذاك.

كما أنه لم يعرف عنه أنه فسر كل سور القرآن الكريم؛ وإنما كان يختار منها نماذج ومقتطفات يفسرها على حسب ما كانت تستدعيه حاجة التأليف العلمي، والخطاب والوعظي، ودوافع الناس وحاجياتهم في ذلك.

وقد كانت بعض هذه البحوث والدراسات القرآنية حبيسة الظلام، محجوبة عن الناس حتى أخرجها الشيخ أحمد مصطفى فضلية إلى النور، واهتم بتحقيقها وتنزيدها، حتى طبعت مستقلة في كتب ومؤلفات ألفت في قضايا متعددة كنا قد لخصناها من قبل.⁽¹⁾

وجدير بالذكر أن محمد عبد الله دراز كان قرآنياً في كل ما كان يكتب، أو ينشر، أو يخطب ويعظ في كل موضوعات الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كان مهتماً بمعالجتها، شأنه في ذلك شأن كل أعلام مدرسة المنار الإصلاحية الذين انطلقوا من قاعدة القرآن الكريم، وبنوا عليه جميع أفكارهم ودعواتهم الإصلاحية؛ إذ هو كما صرح غير واحد منهم "كتاب الهداية العظمى".⁽²⁾

وأهم مؤلفاته التي خصها أفكاره القرآنية وآراءه التفسيرية: النبأ العظيم، دستور الأخلاق في القرآن، مدخل إلى القرآن الكريم، حصاد قلم، زاد المسلم في الدين والحياة، وأخيراً كتابه دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، وهي محل دراستنا لمنهجه العام التفسيري من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: ظروف التأليف.

اختلفت ظروف تأليف محمد عبد الله دراز، وتنوعت حاجاتها العلمية والواقعية، وتعددت أطرها المعرفية الصادرة فيها، والمنشئة لها، أكاديمياً أم وعظياً أم غير ذلك؛ ولكنه كان -رحمه الله- في كل ما

¹ - ينظر: عنصر المؤلفات العلمية ضمن الفصل التمهيدي من هذه الرسالة، ص 45_54.

² - يراجع مثلاً: تفسير المنار: محمد عبده، دار المنار، القاهرة، ط2، 1947، 07/1، وتفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأولى:

يكتب أو يخط يشغله هم إصلاح أوضاع الناس بهدايات القرآن العظيم، أو إقناعهم بحقائقه وثوابته، وأهم مؤلفاته القرآنية المؤلفات التالية:

الفرع الأول: كتابا "دستور الأخلاق في القرآن" و "مدخل إلى القرآن الكريم".

كما عرفنا من قبل أن محمد عبد الله دراز قد أوفد على رأس بعثة علمية إلى فرنسا من أجل استكمال الدراسات العليا، وقد أخبرنا بذلك حينما قال: «فإن فؤادا -رحمه الله- شرف باسمه الكريم في سنة 1936م -قبل وفاته بقليل- بعثه أزهريه -هي أول البعثات في هذا القرن إلى جامعات أوروبا- مؤلفه من سبعة شباب الأساتذة المدرسين في الكليات، أوفد أحدهم إلى ألمانيا، واثنين منهم إلى إنجلترا، وأربعة إلى فرنسا، وكان لكاتب هذه السطور -يقصد نفسه- شرف عضوية هذه البعثة الفرنسية»⁽¹⁾.

وكان العصر الذي كتب فيه هذه الرسالة وملحقتها -كما عرفنا- عصر حرب ودمار على جميع المستويات؛ فقد عاصر الحرب العالمية الثانية وكتوى بناورها، ولمس عن قرب هذا الخراب الأخلاقي الذي تعيشه أوروبا، طوال أحد عشر عاما، إضافة إلى ما وعاه من النظريات الأخلاقية الغربية المحطمة للأخلاق الفاضلة والقيم الإنسانية، وذلك بتلونها بشعارات كثيرة كالعلمانية والمادية والشيوعية والنازية وغير ذلك؛ حينها أدرك دراز أن مهمته أعظم من نيل درجة دكتوراه دولة من جامعة السوربون، «فقد كان بوسعه أن يحقق هدفه بأقل مما بذل من جهد، ولكنه كان يحمل في ضميره رسالة هذا الدين الداعي إلى السلام»⁽²⁾.

من أجل ذلك خاض دراز معركة العقيدة والأخلاق ضد أصحاب هذه الفلسفات المادية التي تنشر الإلحاد في كل مكان، وتدير ظهرها للقيم الأخلاقية الفاضلة الإنسانية، وتتنكر -في كل زمان ومكان- لخالقها وموجدتها ومشعرها في أدق تشريع وأحكامه، وهو الله عز وجل.

وقد رأى دراز أن يبدأ خوض هذه المعركة أولا ضد أساتذته في السوربون، وأن يكشف لهم -ولعلماء الغرب عموما- تجاهلهم علم الأخلاق القرآني؛ خاصة وأنه لاحظ في دراساته الاستقرائية خلو البحوث والمؤلفات العلمية الغربية -حق والعربية- من ذكر الأخلاق القرآنية كاملة في إطار تصور عام يلم شتاتها، ويجمع متفرقها، وبعضهم قد قصد إغفال ذلك.

¹ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، مصدر سابق، ص 347.

² - مقدمة عبد الصبور شاهين على كتاب "دستور الأخلاق في القرآن" لمحمد عبد الله دراز، ص: ك و.

يقول في ذلك: «إن نظرة سريعة نلقيها على مؤلفات علم الأخلاق العام - التي كتبها علماء غربيون - كافية لنلاحظ فيها فراغا هائلا وعميقا، نشأ عن صمتهم المطلق عن علم الأخلاق القرآني». (1)

وقد درس المؤلفات الغربية والعربية - المهمة بالأخلاق عموما - دراسة نقدية تفصيلية، فوجدها في أغلبها دراسات تجميعية لآيات القرآن الكريم في المجال الأخلاقي دون أن تظهر ذلك في إطار قانون أو نظرية عامة ترسم المبادئ والأسس الأخلاقية القرآنية، وتضع لنا نماذجها وتطبيقاتها الواقعية، وتحدد غاياتها وأهدافها التفصيلية.

وقد نبه - رحمه الله - إلى جهد الإمام الغزالي في هذا الأمر، ولكنه وصفه بالنقص في التصنيف والبناء، ليؤكد بعده نتيجة عامة في قوله: «وهكذا لم ينهض أحد - فيما نعلم - حتى الآن باستخلاص الشريعة الأخلاقية من القرآن في مجموعة، ولم يحاول أحد أن يقدم لنا مبادئها، وقواعدها في صورة بناء متماسك مستقل... و تلك من المهمة التي انتدبنا للوفاء بها هنا». (2)

إذن فواقع العصر العصيب الذي عاشه دراز، وانتشار الفلسفات الإلحادية، وتجاهل الأخلاق القرآنية، كل ذلك دفعه إلى أن يهتم بالبحث الخلقى في القرآن، وأن يرفع النقاب عن حقائقه ومبادئه للغرب الأوربي، وأن يدلهم برفق وبرهان إلى طريق خالقهم ومصدر ذلك؛ إذ كان - رحمه الله - يحمل هم الدعوة إلى الله وتصحيح تصورات الغربيين تجاه الإسلام ولذلك «قام وحده بغزو ثقافي مضاد للثقافة الأوربية في عقر دارها»، (3) وسار في طريق لم يرتده أزهرى قبله.

فقام بإعداد رسالة دكتوراه في علم الأخلاق القرآني باللغة الفرنسية وأتبعها برسالة فرعية لها بعنوان "مدخل إلى القرآن الكريم"؛ حيث بدأ كتابتها في أوائل الأربعينات، وتحمل وطأة الحروب في أوروبا، ولم تمنعه أجواء القصف والغارات من إتمام رسالته، أو حتى في الحفاظ على أوراقه التي دونها أثناء الحرب - قبل ذلك - «فقد كانت صفارة الإنذار كلما انطلقت تنذر بوقوع غارة أخذ الناس يهرعون إلى المخابئ

¹ - في مقدمته لكتاب "دستور الأخلاق في القرآن"، ص 02.

² - المصدر نفسه، ص 08.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: الكتاب الأم في علم الأخلاق القرآني: مصطفى حلمي، ضمن كتاب "محمد عبد الله دراز" دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه": جمع: أحمد مصطفى فضلية، دار القلم، الكويت، ط 1، 1428هـ، 2007م ص 133.

حرصاً على أرواحهم...، أما شيخنا المحترم الجليل فملم يكن يفكر إلا في أوراق بحوثه التي سيقدمها للرسالة، لقد كان ينزل المخبأ متأبطاً أوراقه تاركاً كل ما عداها»⁽¹⁾.

فجد واجتهد في ذلك حتى قدمها للمناقشة في 1947/12/15 في إحدى قاعات السوربون، ونال بها درجة الشرف الأولى

الفرع الثاني: كتاب "النبا العظيم".

هذا الكتاب واحد مما دمج قلم دراز القدير، وأفرزته قريحته الصافية، خصه محاضراته التي كان يلقيها على طلبة كلية أصول الدين بجامع الأزهر الشريف في تفسير القرآن الكريم، ولقد حدثنا -رحمه الله- في مقدمة كتابه عن ظروف تأليفه لأجزاء هذا الكتاب، فقال: «الجزء الأول من كتاب "النبا العظيم" مولود جديد... قديم... جديد في مقطعه ونهايته، قديم في مطلعته وبدايته؛ كان مسقط رأسه في الحرم الجامعي، منذ نيف وعشرين عاماً،⁽²⁾ ولكنه لم يبرز منه يومئذ إلى عنقه وصدوره...»⁽³⁾

ثم قال: «لقد شهد طلاب أمس بداية أمره، حين كان يملي عليهم نجوماً متفرقة، في فترات متلاحقة، وغير متلاحقة... ثم أتت بعد ذلك شؤون⁽⁴⁾ حالت دون إتمام وضعه، بل إكمال طبعه، فبقي القدر الذي طبع منه حبساً في دار الطبع... حتى أذن العلي القدير... أن يضيف المؤلف إليه اليوم خليات أخرى، اكتمل بها قوامه، وأخذ بها أهفته للخروج من نطاق الثقافة الجامعية إلى فضاء الثقافة العالمية...»⁽⁵⁾.

فالهدف من وضع هذا الكتاب كان في بدايته إملاء محاضرات عامة في تفسير القرآن الكريم لطلبة أصول الدين بالأزهر الشريف آنذاك في سنة 1352هـ (1933م)، ارتأى من خلالها أن يقدم نظرات جديدة في القرآن الكريم، ثم ارتقى هذا الهدف، فصيرّه هدفاً عالمياً قدم من خلاله دراز حقائق القرآن

¹ - حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن لمحمد عبد الله دراز: إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 39.

² - حيث قدم هذه الطبعة الثانية في سنة 1957م، وأما الطبعة الأولى فكانت سنة 1933.

³ - النبا العظيم نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز، دار الثقافة الدوحة، 1985، ص 07.

⁴ - ذكر منها سفره إلى فرنسا اثني عشر عاماً، وانشغاله بشؤون علمية كلف بها بعد رجوعه إلى مصر، يراجع المصدر نفسه، هامش ص

08-07.

⁵ - المصدر نفسه، ص 08.

الكريم وخصائصه الإعجازية اللغوية والمنطقية إلى كل إنسان يحيا في هذا الوجود، كما قال "رغبة صادقة في الوصول إلى الحق في شأن هذا القرآن".⁽¹⁾

الفرع الثالث: كتاب "حصاد قلم".

قصة هذا الكتاب كما ذكر الشيخ أحمد مصطفى فضلية، أنه حوى دراسات ومقالات الشيخ المخطوطة التي لم يسبق نشرها، وظلت حبيسة مكتبته المنزلية الخاصة، أو كانت بحوثا علمية نشرت في صحف ومجلات متفرقة ومتناثرة، اقتضت من الشيخ فضلية جهدا طويلا في جمعها ومراجعتها وتنسيقها في ستة أقسام رئيسية، جاعلا عنوانه "حصاد قلم"،⁽²⁾ وقد علل عبد الستار فتح الله سعيد لهذه التسمية بقوله «وفي هذا تذكرة للعاملين المخلصين بأن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا ... بل يحفظ الكلمة الطيبة فلا تموت».⁽³⁾

وقد تعددت ظروف تأليف هذه الأقسام العلمية والاجتماعية؛ فبعضها كان إتماما لبعض مباحث كتبه الأخرى، كما كان حال مباحثه في علوم القرآن وإعجازه فيما أسماه "القرآن في حملته"،⁽⁴⁾ وهو مكمل لخصائص القرآن البيانية في "النبأ العظيم"،⁽⁵⁾ وبعضها حاكتها الظروف العلمية الخاصة، إما في شكل مقالات قرآنية نشرها في مجلات محكمة كالأزهر وغيرها، أو مقالات كانت نزولا لطلب جهات مسؤولة، كما في مقاله عن التاريخ المعماري والثقافي بالأزهر الشريف، الذي ألفه استجابة لطلب الحكومة المصرية آنذاك، تمثيلا لبلاده في هيئة الأمم المتحدة، كتبه باللغة الفرنسية ونشره في جريدة "le monde" الفرنسية الشهيرة، أو كانت بعض هذه المقالات ردود علمية تصحيحا للتصورات الخاطئة، والمفاهيم المنحرفة، للقرآن الكريم، كمقاله العلمي الرصين في نقد مشروع إعادة ترتيب القرآن وفق نزوله الذي قدمته وزارة العدل بالحكومة المصرية آنذاك.⁽⁶⁾

كما كان عبير بعض المناسبات التاريخية، والظروف العالمية إطار معرفيا ودافعا له لوضع كلمات تتناسب وإحياء هذه الذكريات التاريخية، أو توضح مواقف الإسلام تجاه هذه الظروف العالمية، وذلك كحديثه عن معاني الهجرة النبوية، وبيانه للجوانب الإنسانية في الإسلام، ومواقفه من الأديان الأخرى.

¹ - مصدر سابق.

² - مقدمة كتاب "حصاد قلم" لمحمد عبد الله دراز: جمع أحمد مصطفى فضلية، ص 16.

³ - في تقديمه للكتاب، ص 09.

⁴ - المصدر نفسه، ص 21.

⁵ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، مصدر سابق، ص 139 وما بعدها.

⁶ - يراجع: حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 45.

كما كان لظروف مجتمعه المصري وحاجاته المعرفية لفهم رسالة الإسلام نصيب من أحاديثه الإذاعية التي بث فيها خواطره القرآنية في إصلاح المجتمعات الإنسانية، وتهذيب سلوكياتها، وطبعها بطابع الأخلاق الإسلامية الإنسانية الفاضلة.

وأخيراً كانت له خواطر فكرية وإيمانية استدعتها ظروفه الحياتية، وعلاقاته الاجتماعية، ومشاعره الإيمانية، خطها بيراعه الرصين منذ صغره والتحاقه بالقسم الثانوي بمعهد طنطا الأحمدي 1330هـ، ليؤكد لنا بذلك بلاغة الكلمة الطيبة، وأهمية الكتابة في حياة المسلم.

الفرع الرابع: كتاب "زاد المسلم في الدين والحياة".

مضمون هذا الكتاب أحاديث إذاعية للشيخ دراز رحمه الله - عبر أثير إذاعة القاهرة آنذاك، كان يلقيها هو وكوكبة مضيئة من العلماء الأزهريين، ودعاة الإسلام الفاهمين من أمثال محمود شلتوت، ومحمد أبو زهرة، وغيرهما من دعاة الإصلاح والإيمان؛ الذين صبوا جل اهتماماتهم على تطهير الأمة من الزيغ والانحراف، وصيانتها من التردّي والضياع، وإحيائها بالإسلام حياة طيبة.

لقد كانت الأوضاع المتردية والغنائية للمجتمعات الإسلامية، وتخبّطها تحت نير الاحتلال الأوربي، ووقوعها أسيرة له، وحيرتها في إنقاذ أراضيها واسترجاع كرامتها، كان كل ذلك حافزاً لضمير دراز الحي بأتمته، أن يرسل هذه الأحاديث الإذاعية الهادية - مع قلة من إخوانه المصلحين - ليرسم للأمة الإسلامية بسمتها الضائعة، ويعيد لها مكانتها المفقودة.

ومن هذه الأحاديث كما قال الشيخ فضلية «ما يتصل بتفسير كلمة الشريعة والأهداف الخلقية والاجتماعية الكامنة وراء فرض شعائر الصوم والزكاة والحج، ومنها ما يتصل بشرح آداب القرآن في المعاملات، وتحديد أساليب السلوك القويم الذي يجعل من يتمسك به إنساناً كاملاً... كما أن من هذه الأحاديث ما كتب في أثناء العدوان الثلاثي الغاشم على الوطن عام 1956م، وقد أراد بها الأستاذ - رحمه الله - استنفار الرأي العام من هذا العدوان الأثيم، واستنفار الهمم لكي تستبسل في الدفاع عن الحق والعدالة...»⁽¹⁾.

¹ - مقدمة كتاب "زاد المسلم للدين والحياة" ل محمد عبد الله دراز: إعداد: أحمد مصطفى فضلية، ص 25.

ولقد ترجى مجموعة من الأعلام الشيخ دراز - في رسائلهم إليه - أن يطبع هذه الأحاديث الدينية الإذاعية في كتاب ينفع أفراد الأمة جميعاً، كما نقل ذلك الشيخ فضلية عنهم،⁽¹⁾ ولكنه لم يقدر للشيخ دراز ذلك إلى أن جمعها الشيخ فضلية وطبعها في كتاب أسماه بهذا الاسم، مقسماً له إلى ستة أقسام.

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري جمع بعض هذه الأحاديث الإذاعية خاصة ما يتعلق منها بالقرآن الكريم وتفسيره، لثلاثة أقسام من هذا الكتاب فقط، وهي: من وصايا القرآن وثيابك فطهر، القسم الثاني: صفات المؤمن، الثالث: مسؤوليات أدبية بعيدة المدى،⁽²⁾ وسمى ما جمعه بعد ذلك في هذا الكتاب "من خلق القرآن".⁽³⁾

الفرع الخامس: كتاب "دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية".

لما عاد دراز من رحلته العلمية الطويلة من فرنسا إلى وطنه الأم مصر، فاشتغل بالتدريس في جامعة القاهرة، وفي دار العلوم، وفي كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية، فكان أن كلف بتدريس مادة الأخلاق الإسلامية، فاستدعاه ذلك «أن يعود إلى الكتابة الأخلاقية 1953م، أعاد نشرها ثانية في كتابه (دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية)، حيث يتناول المبادئ الأساسية في الأخلاق». ⁽⁴⁾ فكان هذا غالب كتابه، كما أضاف إليه فصولاً أخرى لبعض الجوانب الاجتماعية ككرامة الفرد، والرق، وإصلاحات محمد عبده، ومهد لكل ذلك بفصل ممتع عن القرآن الكريم.⁽⁵⁾

¹ - في تقديمه لكتاب زاد المسلم للدين والحياة: محمد عبد الله دراز، ص 20-24.

² - يراجع: المصدر نفسه، ص 27، 143، 167.

³ - يراجع: كتاب من خلق القرآن: محمد عبد الله دراز، تح عبد الله الأنصاري، ط مطبوعات إدارة الشؤون الدينية والأوقاف بدولة قطر، 1979 م، ص: د

⁴ - من أهم رواد البحث في الأخلاق القرآنية: أحمد عبد الحلیم عطية، ضمن كتاب: محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأفلام تلامذته ومعاصريه: إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 150

⁵ - يراجع: فهرس كتاب: دراسات إسلامية لمحمد عبد الله دراز، ص 185 وما بعدها.

المطلب الثاني: مصادره في تفسيره.

تنوعت المصادر والمؤلفات التي رجع إليها محمد عبد الله دراز في تأليف مؤلفاته القرآنية، وتعددت مجالاتها وتخصصاتها العلمية والمعرفية.

ومن خلال تتبعنا لهذه المصادر والمؤلفات عند محمد عبد الله دراز، بدت لنا ملاحظتان أساسيتان:

الملاحظة الأولى: أن نسبة استعانة دراز بهذه المصادر كانت متفاوتة من كتاب إلى آخر، وعلى حسب الأطر المعرفية والأغراض العلمية التي كانت توجه مؤلفاته العلمية وتطبعها بطابعها الخاص.

فهو في مؤلفاته الأكاديمية كان مكثرا لذكر هذه المصادر العلمية، والتي تشكل -في نظره- مادة علمية خصية تدور حولها تحليلاته المنهجية والموضوعية، كما كان ذلك في كتابيه "دستور الأخلاق في القرآن" و "مدخل إلى القرآن الكريم"، أو كان ذلك بدرجة أقل في بعض مؤلفاته الأخرى التي قدمها على شكل محاضرات علمية في الجامعات المصرية، ككتابه "النبا العظيم" وكتابه "الدين"، ولكنه -رحمه الله- حينما كان يقصد التأليف العام في خواتمه القرآنية وفي أحاديثه الإذاعية الوعظية، فإنه كان لا يستعين بهذه المصادر إلا قليلا ونادرا، وإنما كانت بضاعته في ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وثقافته العامة للتاريخ الإسلامي وحقائقه الكبرى؛ وذلك راجع إلى أصالة ثقافته القرآنية وتشبعه من المصادر الإسلامية الصافية الكتاب والسنة، وقناعته بالاكتماء بهما في عرض الحلول الناجعة لمشكلات الأمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية وغيرها.

ومن أهم مؤلفاته التي عكست قلة المصادر المرجوع إليها، كتابه "حصار قلم" و"دراسات إسلامية" وخاصة كتابه "زاد المسلم" الذي خص أفكاره ومواضيعه القرآنية لأحاديثه الوعظية الإذاعية.

الملاحظة الثانية: تتعلق بتنوع المجالات العلمية والمعرفية لهذه المصادر والمراجع التي استقاها في مؤلفاته القرآنية، تنوع بين العقيدة وعلم الكلام، والأصول، والمذاهب الفقهية، وكتب التصوف والزهد، والسير والتاريخ الإسلامي، وكتب علوم القرآن والأحاديث النبوية الشريفة، وحتى بعض الكتب العامة على حسب الموضوعات التي عالجه في مؤلفاته، ولم يستعن بالتفسير كثيرا إلا في ذكر آراء المفسرين حول بعض معاني الآيات القرآنية المختلف فيها وحولها.

ومن جهة أخرى لاحظنا كثرة اشتغاله بالمؤلفات الغربية لكثير من أعلام المستشرقين الأوربيين والأمريكيين في دراساتهم للقرآن الكريم؛ فلم يخل مؤلف من مؤلفاته الأكاديمية من ذكر مؤلفاتهم وآرائهم؛ بل والإكثار من ذلك لدرجة أن طغى حضورها واستولى على أغلب محاور وفصول موضوعات كتبه على حساب المؤلفات العربية القديمة منها أو الحديثة.

وذلك يرجع إلى العرض العام في تأليف هذه المؤلفات الأكاديمية؛ إذ كان هم دراز -من خلالها- إثبات مصداقية القرآن الكريم، وتأكيده أن حقيقة الوحي حقيقة مستقلة خارجة عن ذات النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي لم يكن له سوى دور التلقي والحفظ - ثم التبليغ والدعوة، والرد على شبهات المستشرقين وأوهامهم وافتراءاتهم على القرآن الكريم ورسول الله الأمين -صلى الله عليه وسلم- سواء أكان هذا الرد تاريخياً وعلمياً من خارج النص القرآني، أم كان من داخله من خلال إثبات إعجازه اللغوي والعلمي والتشريعي الأخلاقي وغيرها من وجوه الإعجاز الأخرى.

ولذا يعد دراز من علماء المسلمين القلائل الذين غزوا الغرب في عقر دارهم، وسلك في ذلك طريقاً لم يرتده أزهرى قبله.

هذا ومن باب الإيجاز والاختصار سنقتصر على ذكر بعض مصادره في آرائه التفسيرية، خاصة ما تعلق منها بالتفاسير وعلوم القرآن الكريم.

1 تفسير "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" لابن جرير الطبري (ت 310 هـ).

حيث نقل عنه في أكثر من موضوع واحد؛ نقل عنه رواية أبي بن كعب - رضي الله عنه - في اختلافه مع صاحبه في مسألة الأحرف السبعة،⁽¹⁾ في كتابه "حصار قلم"،⁽²⁾ و"مدخل إلى القرآن الكريم"،⁽³⁾ وزاد في الكتاب الأول اقتباسيين آخرين؛ الأول في الإجابة عن حقيقة نسخ عثمان للأحرف الست، والإبقاء على حرف واحد هو حرف قريش، بعد زوال الرخصة بالقراءة بالأحرف السبعة للقبائل العربية، وهو رأي اختاره ودافع عنه ابن جرير الطبري.⁽⁴⁾

¹ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري، تح بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1994، 33/1، 37.

² - حصار قلم: محمد دراز، ص 64.

³ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 44.

⁴ - حصار قلم: محمد دراز، ص 66، وينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري، 36/1.

والاقتباس الثاني كان في موضوع أسباب النزول القرآني؛ إذ عالج دراز صيغ ذلك، والروايات المختلفة الواردة فيه، فيرجح منها ما كانت صيغته واضحة وقاطعة كصيغ (النزول)، على ما كانت صيغته ظنية في ذلك، كألفاظ "القراءة" و"التلاوة" وغيرها،⁽¹⁾ وضرب مثالا لذلك في قوله تعالى: « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » [البقرة/97]، ونقل في ذلك عن ابن جرير الطبري حكايته الإجماع في قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه _ مع اليهودي المعاند، وأورد في ذلك الرواية كاملة.⁽²⁾

و أثناء حديثه عن إعجاز القرآن في أخباره الغيبية المستقبلية في "النبأ العظيم" نقل عنه ذلك في موضوعين؛ الأول في إخبار القرآن بغلبة الروم على الفرس في أقل من تسع سنين، وذلك بعد انتصار المسلمين على المشركين في غزوة بدر.⁽³⁾

والثاني في ذكر من أبهم القرآن ذكره، وأوضح صفاته وأوصافه من المشركين المعاندين في قوله تعالى: «سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ» [القلم/16]، وذلك هو الوليد بن المغيرة،⁽⁴⁾ ، وآخر ما نقل عنه ذلك كان في كتابه "دستور الأخلاق في القرآن" أثناء تفسيره الموضوعي لآيات الجنة وصور نعيمها في القرآن الكريم، جعل خاتمة هذا التفسير حديث نقله عن ابن عباس رضي الله عنهما - عن تفسير الطبري، وذلك قوله: «ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء».⁽⁵⁾

2 كتاب "المصاحف" لابن أبي داود (ت316 هـ).

لما كان هذا الكتاب مصدرا مهما في تاريخ الرسم العثماني، وأصلا جامعا لمسألة الأحرف السبعة والقراءات القرآنية،⁽⁶⁾ عول عليه دراز ونقل عنه في ثلاثة مواضع: حديثه أولا عن عدد النسخ القرآنية التي أرسلها عثمان بن عفان رضي الله عنه - إلى الأمصار الإسلامية توحيدا لأمر المصحف، ودرءا

¹ - مصدر سابق، ص 75.

² - المصدر نفسه، ص 77، وجامع البيان في تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري، 1/309.

³ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 78، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري، 6/91.

⁴ - يراجع: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 4/590.

⁵ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 387، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري، 1/93.

⁶ - يراجع: محاضرات في علوم القرآن: غانم قدوري أحمد، دار عمان، الأردن، ط1، 2003، 1423 هـ، ص 63 وما بعدها.

للفتنة والخلاف بين المسلمين،⁽¹⁾ ثم نقلا آخر بين من خلاله الحكم الشرعي في القراءة بالمصاحف الشخصية لمجموعة من الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم- لم يعتمدها عثمان بن عفان -رضي الله عنه - أثناء الجمع الثاني لمخالفتها للرسم العثماني المتفق عليه، والثابت كتابة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في إملاءاته على كتاب الوحي،⁽²⁾ فلا يجوز القراءة بها «لأن القراءات غير العثمانية ليست قرآنا صحيحا يصلح للصلاة».⁽³⁾

وآخر نقولاته عنه في كتابه "مدخل إلى القرآن الكريم" كان حديثا غير منقطع لمسألة الجمع الثاني، وإحراق ما دون المصحف الإمام من المصاحف الأخرى حفظا لوحدة الأمة والنص معا، وبين - من خلال هذا الاقتباس - شرعية ما قام به عثمان بن عفان - رضي الله عنه - بمشورة من الصحابة جميعا وإجماعهم على ذلك.⁽⁴⁾

هذا ولم يكتف دراز بالنقل عن أبي داود فقط في قضية المصاحف والرسم العثماني، بل نقل أيضا عن غيره وعدد الاقتباس في ذلك من الأصول والمصادر القرآنية هدفا منه في رد شبهات المستشرقين المغرضة في هذا الجانب.

3 كتاب "إعجاز القرآن" لأبي بكر الباقلائي (ت 403هـ).

ففي حديثه عن الخصائص الإعجازية لأسلوب القرآن الكريم، ذكر منها خاصية الجمع بين القصد في اللفظ والوفاء في المعاني، ونقل عن الباقلائي نقده للقصائد الشعرية الجاهلية إطنابا في الألفاظ وفقرا في المعاني، وركاكة وضعفا في النظم مقارنة بنظم القرآن الكريم وبلاغته العالية بين ألفاظه الموجزة ومعانيه الغزيرة؛ بلاغة يرى من خلالها - كما قال الباقلائي -: «محاسن متوالية، وبدائع تترا»⁽⁵⁾، كما نقل عنه نقده لمعلقة امرئ القيس من أول بيت فيها في قوله: «... كأنه يريد بيع المنزل، فيخشى إن أخل بحد منه أن يكون بيعه فاسدا أو شرطه باطلا».⁽⁶⁾

¹ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 40، وكتاب المصاحف: ابن أبي داود، تح محب الدين السبحان، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، دولة قطر، ط 1، 1995، 204/1.

² - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 46، وكتب المصاحف: ابن أبي داود، 1/ 240، 204.

³ - المصدر نفسه.

⁴ - المصدر نفسه، ص 52، وكتب المصاحف: ابن أبي داود، 1/ 204_205.

⁵ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 146، وإعجاز القرآن: أبي بكر الباقلائي، مصدر سابق، ص 190.

⁶ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 160، وإعجاز القرآن: للباقلاني، ص 175.

ولما أثار دراز في كتابه "دستور الأخلاق في القرآن"⁽¹⁾ مسألة اختلاط الدوافع الذاتية مع دوافع الإخلاص لله تعالى، وبعد أن ذكر رأي جمهور الأخلاقيين المسلمين الصارم في هذا الجانب والمتشدد في إقصاء الدوافع الذاتية، نقل رأي الباقلاني في رأي الجمهور -بالواسطة عن الغزالي- فقال: «أقد استطاع أبو بكر الباقلاني أن يصف أنصار هذا التجرد المطلق وصفا قاسيا، ففضى بتكفير من يدعي البراءة من الحظوظ، وقال: هذا من صفات الإلهية...»⁽²⁾.

4 كتاب "أسباب النزول" لعلي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت 468هـ).

رجع إليه أولا في تحديده لمفهوم مصطلح "أسباب النزول" وقال عنه: «فالإمام الواحدي يرى في كتاب أسباب النزول، وهو أشهر كتاب ألف في موضوعه -أن كل ما كان في عصور نزول القرآن من الأحوال العامة أو الوقائع الخاصة التي جاء القرآن لبيان الحق فيها يعد من أسباب نزوله»⁽³⁾.

ثم عاد إليه مرة أخرى أثناء حديثه عن فضيلة التضحية وتحمل المشقات من أجل إرضاء الخالق وجلب السرور إلى القلب فيما يسميه بالصفة النسبية للجهد المحمود؛ حيث مثل لذلك بالآية الكريمة: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ» [البقرة/ 207]، وذكر قصتها وسبب نزولها في قصة هجرة صهيب الرومي -رضي الله عنه- المروية في كتب التفاسير والسير⁽⁴⁾.

5- كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي (ت 505 هـ).

وهو من المصادر التي أكثر دراز النقل عنها، ورجع إليه كثيرا خاصة في كتابه "دستور الأخلاق في القرآن" في أكثر من خمسة وعشرين موضعا،⁽⁵⁾ وفي هذا إشارة إلى مدى اهتمام دراز بفكر الغزالي خاصة في علم الأخلاق القرآني؛ كيف لا وهو الذي صرح بجهود الغزالي في جميع آيات الأخلاق وتحليلها رغم ما بدا عليه من نقص في الاستقراء والتأصيل؛ إذ قال عنه: "وأما في المجال العملي فمن الحق أن الغزالي -كما نعلم- قد حاول في كتابه "جواهر القرآن" أن يحلل جوهر القرآن، وأن يردده إلى

¹ - دستور الأخلاق في القرآن:: محمد عبد الله دراز، ص 516.

² - يراجع: إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي، دار الحديث: القاهرة، 2004، 31-30/5.

³ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 69، وأسباب النزول: للواحدي النيسابوري، دار التقوى للتراث، ص 04.

⁴ - أسباب النزول: الواحدي النيسابوري، ص 37.

⁵ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 04، 05، 07، 35، 44، 88، 130، 230، 251، 442، 454، 457، 459، 460، 476، 477، 499، 506، 507، 516، 532، 539، 558، 571، 574، 649.

عنصرين أساسيين، يتصل أحدهما بالمعرفة ويتصل الآخر بالسلوك، وانتهى إلى أن حصر في القرآن من النوع الأول سبعمائة وثلاثاً وستين آية، كما حصر من النوع الثاني سبعمائة وإحدى وأربعين آية. (1)

ومن أمثلة ما نقله عنه ما أراد به أن يؤكد استحالة تحول الشر إلى خير بحسن نية وقوة إرادة وسداجة ضمير، (2) بل أشد من ذلك حينما قال الغزالي عنه: «بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاص بجهله...». (3)

ولا يعني هذا أن دراز متابع للغزالي فيما ينقله عنه؛ بل إنه -أحياناً أخرى- يثبت آراءه وأقواله ثم يعقبها بالنقد والتمحيص؛ فمن ذلك تناوله لقضية ارتباط النية بالأعمال الظاهرة، أو ارتباط الباطن بالظاهر الوارد في الحديث المشهور «نية المؤمن خير من عمله، وعمل المنافق خير من نيته». (4)

أورد تفسير الغزالي لذلك بقوله: «بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل، وكانت النية من جملة الخيرات، وكان العمل من جملة الخيرات، ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل، أي: لكل واحد منهما أثر في المقصود، وأثر النية أكثر من أثر العمل، فمعناه: نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته». (5)

ثم يتعقب دراز هذا التفسير بقوله: «ولكننا حين تابعنا تعليقه لم نتقدم في حل المشكلة التي تشغلنا، فهو يقتصر في الواقع على هذا الاعتبار المشترك، المسلم به من وجهة نظر معينة، أعني: أن الغاية الأخيرة التي يقصدها الشرع الإسلامي هي صحة النفس... ونحن نقول: ليكن!! ولكن هذا الرجحان لوضح بالنسبة إلى الأعمال البدنية وهو صحيح، فهل يكون كذلك في مواجهة العمل القلبي؟ ... وهل النية خير من الجهد الباطني ذاته أولاً؟ ولماذا هذه الأفضلية؟ ذلك ما لم يقله». (6)

¹ - مصدر سابق، ص 459، وجواهر القرآن، أبو حامد الغزالي، تحقيق محمد رشيد رضا، دار إحياء العلوم، بيروت، ط 2، 1986م، ص 80 وما بعدها، 16/7 وما بعدها.

² - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 442.

³ - إحياء علوم الدين: أبي حامد الغزالي، 11/5.

⁴ - ضعيف: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم 5942. 185/6. عن سهل بن سعد، ومن حديث النواس بن سمعان، قال الهيثمي في إسناده: وفيه حاتم بن عباد لم أعرفه وبقية رجاله ثقات، يراجع: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة: ناصر الدين الألباني، ط دار المعارف، الرياض، السعودية، رقم 2216، 244/5.

⁵ - إحياء علوم الدين: أبي حامد الغزالي، 09/5.

⁶ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 460.

6 تفسير "مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير" للفخر الرازي (ت606هـ).

تعد عقلية الرازي - في نظر دراز - في علم الإلهيات والعقائد عقلية معقدة موغلة في التفلسف، ومغرفة في طرح الاستدلالات المتكلفة والألفاظ الغامضة، ولذا نقل رأيه في موضعين من كتابه "دستور الأخلاق"⁽¹⁾ نقل الناقد له، والمضعف لأقواله؛ فبعد أن قدم عنه استدلاله بإمكان وقوع التكليف المستحيل للكفار - انتصاراً للأشاعرة - وذلك في قوله: «وهم على ذلك يفعلون المستحيل:

أولاً: لأن أمراً مما علم الله عدم وقوعه، لا يمكن أن يوجد.

ثانياً: لأنه ربما كان من المتناقض أن يؤمنوا بهذا الوحي الخاص، الذي يقرر أنهم لن يؤمنوا أبداً، ولذلك يكونون في حالي إيمان، وعدم إيمان».⁽²⁾

ثم يعقب على ذلك - دراز - بقوله: «ويقدم فخر الدين الرازي هذا الاستدلال المزوج، ويضعف من حوله الأقوال، كأنما هو العقبة الكؤود التي لن يستطيع العقليون أن يفلتوا منها أبداً».⁽³⁾

7 كتاب "مفتاح العلوم" لأبي يعقوب السكاكي (ت626هـ)

وهو مؤلف ألف في علوم النحو والصرف والبلاغة العربية، لكل علم قسم مستقل من الكتاب، بمصطلحاته وتقسيماته وحدوده وشواهدة؛ إذ عرف السكاكي بكثرة التفريعات المنطقية، والمصطلحات الفلسفية حتى أدخل البلاغة العربية غياهب التخلف والتقليد بعد أن سلب منها مصابيح الإبداع وأنوار التذوق في نظر بعض المعاصرين.⁽⁴⁾

ولما كان دراز قد خصص كتابه "النبأ العظيم" للحديث عن الإعجاز اللغوي والبلاغي للقرآن الكريم، كان لابد له من الرجوع إلى كتاب السكاكي في التأصيل للمفاهيم البلاغية المرتبطة بقضية إعجاز القرآن الكريم، ولكنه لم يكثر الرجوع إليه والنقل عنه، وكأنه أحس بضبابية الكتاب وتكلف صاحبه النائي عن صفاء بلاغة القرآن وجمالياته الإعجازية، فرجع إليه مرتين رجوع الناقد المغربي؛ الأول كان رجوعاً هامشياً من خلال إحالة القارئ على كتاب السكاكي في تعريف مصطلحات البلاغة

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 71، 186.

² - التفسير الكبير: الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 262/1-263.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 71.

⁴ - يراجع: البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط9، ص 288 وما بعدها.

والفصاحة⁽¹⁾ بعد آية سورة هود،⁽²⁾ التي اعتمدها الإمام عبد القاهر الجرجاني من جملة الشواهد القرآنية في تحليله لنظرية النظم المشهورة⁽³⁾، وعاد إليه مرة ثانية في تحديد مفاهيم الإيجاز والإطناب، والمساواة؛ حيث اعتبر السكاكي المقدار الذي يتكلم به أوساط الناس في محاوراتهم ومتعارف خطابهم، هو ضابط المساواة، وهو القدر الذي لا يحمد منهم، ولا يدم في باب البلاغة، فما نقص عنه مع الوفاء به فهو الإيجاز، وما زاد عنه مع الإفادة فهو الإطناب كما قال السكاكي⁽⁴⁾ الذي حكم في ذلك المقياس العرفي والوضعي معا.

ثم تعقب كلامه في هذا وفي تقديره أن عبارات العوام تقع دائما بين الإطالة واختصار، فقال: «وهذا مالا دليل عليه في العرف ولا في الوضع، أما الأول فإن العوام يتكلمون في المعنى الواحد باللفظ المطول تارة، وبالمختصر تارة أخرى. وإن لم يتحروا إصابة المحز في كل منها، وأما الثاني فلأن اللفظ الذي وضع في اللغة لتأدية المعنى الأول مختلف، فمنه ما يؤديه بوجه مجمل، ومنه ما يؤديه بلفظ مفصل، وكل من الإجمال والتفصيل يتفاوت في نفسه تفاوتاً كثيراً»⁽⁵⁾.

8 كتاب "الموافقات في أصول الشريعة" لأبي إسحاق الشاطبي (ت 790هـ).

تعلق دراز بهذا المؤلف القيم تعلقاً كبيراً، طبع به أفكاره القرآنية والإسلامية، وذلك منذ ريعان شبابه؛ إذ عاش لحظة فلحظة تحقيق هذا السفر الأصولي من طرف والده الكريم عبد الله دراز، وتكفل هو بجزء من هذا التحقيق من خلال جهوده المبذولة في تخريج الأحاديث الواردة في هذا الكتاب.

ولذا لم يخل كتاب من كتبه إلا واقتبس فيه من الشاطبي النصوص الكثيرة في سبيل تأصيل أفكاره وقناعاته العلمية القرآنية أو الأصولية، خاصة في كتابه "الميزان بين السنة والبدعة"⁽⁶⁾ الذي هو محاكاة بصيرة لكتاب الاعتصام للشاطبي، ومن يطلع على مؤلفاته القرآنية البحتة "الدستور والمدخل والحصاد والنبأ" يجد أكثر من أربعة عشر اقتباساً لدراز من كتاب الموافقات.

¹ - مفتاح العلوم: أبو يعقوب السكاكي، ت ح عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، ص528_532.

² - في قوله تعالى: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»، [سورة هود/ 44].

³ - يراجع: دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تح محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2005، ص د، ه، 4 وما بعدها.

⁴ - مفتاح العلوم: أبو يعقوب السكاكي، ص387_388.

⁵ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 162.

⁶ - يراجع كتاب "الميزان بين السنة والبدعة" لحمد عبد الله دراز، ص 54، 81، 91، 97، 108، 119، 123، 126.

ففي كتابه "حصاد قلم"⁽¹⁾ رجع إليه في موضوع أسباب النزول، لمعالجة إشكالية علمية أصولية في تعارض عموميات النصوص مع جزئيات حوادثها أي: عموم اللفظ وخصوص السبب، وقد كان - رحمه الله - ضابطاً ودقيق التصوير لأصول الاختلاف بين علماء المسلمين حول هذه القضية؛ خاصة ما أكده أن القول بخصوص السبب الذي نسب إلى الإمام الشافعي لم يفهم قدر فهمه اللائق به؛ خاصة فيمن يعتقد عنه نفي العمومات ابتداءً؛ و إنما أوضح بدقة اختلاف هؤلاء الأعلام حول مراتب العموم في ذلك، واقتبس في ذلك نصاً من الشاطبي في قدر الضوابط بين هذه المراتب وكيفية تنزيلها على أرض الواقع؛ إذ قال: «لقد وقفنا على تحقيق نفيس في هذا المقام بسطه الشاطبي - رحمه الله - في فصل العموم والخصوص من كتاب الموافقات، ونحن نكتفي هنا بعرض خلاصته»،⁽²⁾ وذكر مراتب العموم الثلاثة: الوضعي، واللغوي والشرعي، وبيّن كيفية تنزيلها على الواقع في اجتهادات العلماء.⁽³⁾

وفي كتابيه "النبا العظيم" و"المدخل" رجع إليه في تحديد الوحدة الموضوعية للصور القرآنية من خلال إحكام النظر الشمولي للسورة،⁽⁴⁾ وفي تفصيل هذه الوحدة إلى وحدة مزدوجة أدبية ومنطقية⁽⁵⁾ على التوالي في كتابيه السالفين.⁽⁶⁾

وفي كتابه "دستور الأخلاق في القرآن" نقل عنه في حديثه عن موضوعات متنوعة متعلقة بمفاهيم الواجبات، والجهد والنية،⁽⁷⁾ وقد كان في كل منها معجبا بآرائه ومثمناً لها؛ ففي حديثه عن أسباب ومسببات الواجبات في الشرع الإسلامي، لم يرضه من أقوال علماء المسلمين وآرائهم الذين عاد إليهم، إلا الشاطبي؛ إذ قال: «بيد أن أحداً - فيما نعلم - لم يتوج هذا التدرج قبل الشاطبي (المتوفى عام 790هـ)، فلقد تولاه بالبحث الدقيق للمقارنة الأخيرة... وبعبارة أخرى على ما عبر به المؤلف نفسه: إذا قيل لك: لم تكتسب لمعاشك بالزراعة أو بالتجارة أو بغيرها؟ قلت: لأقيم صلي، وأقوم في حياة نفسي وأهلي... أو قلت: لأن الشارع ندبني إلى تلك الأعمال... فإن قيل لك: إن الشارع أمر ونهى

¹ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 84-88.

² - المصدر نفسه، ص 84.

³ - الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي: تحقيق عبد الله دراز، المكتبة التوفيقية، القاهرة/ 2003، المسألة الثانية، 224/3 وما بعدها.

⁴ - المصدر نفسه، المسألة الثالثة عشر، 350/3 وما بعدها.

⁵ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 130.

⁶ - النبا العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 192، ومدخل إلى القرآن الكريم للمؤلف نفسه، ص 130.

⁷ - يراجع "دستور الأخلاق في القرآن" محمد عبد الله دراز، ص 87، 88، 130، 499، 500، 507، 559.

لأجل المصالح، قلت: نعم، وذاك إلى الله، لا إلي»،⁽¹⁾ ثم قال عنه: «وبقد بحث المؤلف هذه القضية ونقيضها في صفحات جميلة وطويلة في موافقاته...».⁽²⁾

9 - الدر المنثور و"الإتقان" و"لباب النقول" لجلال الدين السيوطي (ت 911هـ).

لم يعتمد دراز كثيرا على السيوطي في تحليل الأقوال ونقدها إلا قليلا، وإنما كان جل اعتماده عليه في إثبات أقوال العلماء؛ إذ السيوطي - كما هو معلوم - اشتهر بنقل التراث الإسلامي وجمعه وحفظه.⁽³⁾

فقد خرج عنه حديثين في كتابه "الدر المنثور في التفسير بالمأثور"⁽⁴⁾، ونقل عنه - أيضا - سبب نزول قوله تعالى: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» [الكهف/110]⁽⁵⁾ من كتابه "اللباب".⁽⁶⁾

ونقل عنه تفسير قوله تعالى: «فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ» [الصفوات/42] أثناء تفسيره لآيات النعيم في الجنة تفسيرا موضوعيا؛ إذ نقل عنه: «أن ضيوف السماء سوف يتعاطونه لمجرد السرور والابتهاج، وليس حاجة إلى حفظ حياتهم أو صحتهم؛ ذلك أنهم لما كانوا قد من الله عليهم بأبدان لا تقبل الفساد لم تعد بهم حاجة إلى أي وقاية».⁽⁷⁾ وهذا كله في كتابه "دستور الأخلاق".⁽⁸⁾

ثم عاد إلى كتاب السيوطي "لباب النقول"⁽⁹⁾ مرة أخرى، ليحدد المصطلحات ويوضح المفاهيم في تعريف سبب النزول، وأيضاً إلى كتابه "الإتقان"، حيث عرّف السيوطي - من خلاله - سبب النزول

¹ - الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي، المسألة السادسة، 2/189، 190.

² - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 500.

³ - يراجع: دراسة محمد بن عقيل موسى للدكتوراه حول كتاب معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، ط جامعة أم القرى بمكة المكرمة، 1996، 2/460.

⁴ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت - لبنان، 1993، والحديث مطلعته: "إن الله فرض عليكم الحج..."، صحيح، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الحج، باب 73 فرض الحج مرة في العمر، رقم 1337، إكمال المعلم بفوائد مسلم: عياض اليحصبي، تح يحيى إسماعيل، دار الوفاء، ط 3، 2005، 4/443-444.

⁵ - وقد نقل عنه أيضا في كتابه "مدخل إلى القرآن الكريم"، ص 39، 40، 44، 45، 130.

⁶ - لباب النقول في أسباب النزول: جلال الدين السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط 4، 1983م، ص 145.

⁷ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي، 7/392.

⁸ - دستور الأخلاق في القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 12، 129، 385، 566.

⁹ - لباب النقول في أسباب النزول: جلال الدين السيوطي، ص 14.

بأنه «الحادث الذي نزلت الآية أيام وقوعه، أو السؤال الذي نزلت الآية عقبه...»⁽¹⁾ ثم أردف تعقيبه عليه بما يراه أرجح للتعريف.⁽²⁾

وأما في كتابه "النبأ العظيم" فقد اعتمد على السيوطي إما في نقل أقوال الأعلام في إعجاز القرآن الكريم البلاغي؛ إذ اقتبس على التوالي قولين لابن عطية الأندلسي بواسطة السيوطي في تحقق الإعجاز البلاغي بوجهه العام،⁽³⁾ أو في إعجاز القرآن الكريم في ألفاظه وكلماته،⁽⁴⁾ كما اقتبس عنه نصاً آخر عن العز بن عبد السلام في نفي ثبوت التناسب في كل سور القرآن الكريم.⁽⁵⁾

وإما في الإحالة إليه في تحديد مفاهيم المصطلحات البلاغية، كالإحالة إليه في تعريف مصطلحي الإيجاز والإطناب.⁽⁶⁾

10 - تفسير "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" لشهاب الدين الألوسي (ت1270هـ)

لم يرجع إليه دراز إلا في موضعين اثنين:

الأول: في حكاية الأقوال عن الصوفية في تفسير الحروف المقطعة في أوائل السور القرآنية، حيث نقل عن الألوسي أن فرقة منهم «تزعم أن كل فاتحة منها تدل بحساب حروفها -وفقاً لقاعدة الجهل- على وقائع معينة في المستقبل كما قيل في ألم الروم، وغسق».⁽⁷⁾

الثاني: كان في كتابه "النبأ العظيم"،⁽⁸⁾ حيث نقل عنه عن بعض القائلين المجهولين قولهم أن التحدي بالإعجاز في القرآن لم يقع بمطلق السورة، بل بسورة تبلغ مبلغاً يتبين فيه رتب ذوي البلاغة

¹ - الإتيان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 101/1.

² - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 69-70.

³ - الإتيان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، 1007/2. وينظر: النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، هامش 1، ص 142.

⁴ - الإتيان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، 1008/2. وينظر: النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 147.

⁵ - الإتيان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، 977/2 والنبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 193.

⁶ - الإتيان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، 808/2 وما بعدها والنبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 153.

⁷ - تفسير روح المعاني: للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 102/1. وكتاب حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 43.

⁸ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 142 هامش 1.

إلى آخر ما قال. (1)

11 كتاب "تاريخ القرآن" للمستشرق الألماني نولدكه (ت1931م).

و هو من أهم مؤلفات المستشرقين الأوربيين المعاصرين في تاريخ القرآن الكريم وحقائقه المليء بالشبهات والأباطيل حول القرآن الكريم، مما جعله قبلة استحسان الكثير من المستشرقين المعاصرين (2)

وبالرغم من ذلك فقد استطاع دراز -بذكائه وإخلاصه- أن يستخرج من كتاب نولدكه أنوار الإسلام في اعترافه -في كثير من العبارات- بحقائق القرآن، وصدق أخبار رسوله -صلى الله عليه وسلم- ووقائعه التاريخية. (3)

فقد ظفر عنه بقول نفيس في الجمع الثاني العثماني للقرآن الكريم؛ فقد أتى القرآن -على حسب تعبير نولدكه- «على أحسن صورة من الكمال والمطابقة». (4)

وقد نقل عنه أيضا تقريره ترددي أوضاع التغالبة من المسيحيين في شرب الخمر (5) في تصديق آية الصراع بين المسيحيين في القرآن الكريم، (6) وفي اعترافه بأمية الرسول -صلى الله عليه وسلم- وفصله بين الأحرف السبعة والقراءات السبعة. (7)

هذه من أهم المصادر العامة التي استقى منها دراز آراءه القرآنية والتفسيرية، وإلا فإن إثباتها جميعا هنا من العجز بمكان، واللمحة هنا كافية عن التفصيل.

وقبل أن نفارق هذا الموضوع، فإننا نشير أن دراز -رحمه الله- كان في كثير من الأحيان ما يبهم عن مصادره، ولا يصرح بأسماء من نقل عنهم ورجع إليهم، وتحدث عنهم، وذلك في قرابة الثلاثين

1- مقدمة تفسير روح المعاني: للألوسي: 27/1-28.

2- يراجع: القرآن نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره: بلاشير، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1974، ص26.

3- يراجع: مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 41، 42، 44، 147، 150.

4- تاريخ القرآن: نولدكه، ترجمة: جورج تامر، 3 أجزاء في مجلد، دار نشر جورج أليز، زوريخ وغيرها، ط2، 1938، ص336.

5- المصدر نفسه، ص 10_11

6- المصدر نفسه، ص12.

7- المصدر نفسه، ص 13_14، 615، ويراجع: جولة في كتاب نولدكه (تاريخ القرآن): أحمد عمران الزاوي، دار طلاس، ط1، 2008،

موضوعاً من مؤلفاته القرآنية،⁽¹⁾ خاصة كتاب "دستور الأخلاق" منها، وذلك لسببين:

الأول: حكايته ونسبته الآراء إلى جمهور العلماء والمفسرين، وذلك يسهل معرفة رأي الأقلية، ويريح من تتبع آراء الجمهور بدقة عند كل الأعلام؛ بل تكفيه في ذلك الإشارة الجامعة، لاشتهار ذلك عنهم.

الثاني: كون أولئك الأعلام مما اشتهروا به بتلك الآراء والأقوال، أو لضعف أدلتهم ومذاهبهم، فيعفيه ذلك عن ذكرهم وإيراد مؤلفاتهم؛ فمثال الأول حديثه عن نزول سورة الأنعام، فقال: «ومذهب الجمهور أنها نزلت جملة واحدة»⁽²⁾، وهذا معروف عنهم، ويبين لنا مذهب الأقلية وهو ما حكاه ابن عطية في تفسيره: «أن النقاش حكى أن سورة الأنعام كلها مدنية»⁽³⁾، وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن ست آيات منها مدنية⁽⁴⁾، ومن الثاني تضعيفه رأي من اعتبر الجهد الأخلاقي قيمة في ذاته، ذكر منه موقفين فلسفيين أحدهما لكانت، والآخر أجهم دراز ذكره لضعفه.⁽⁵⁾

المطلب الثالث: علاقة مؤلفاته بعضها ببعض.

لا يرتاب أي متصفح لكتب محمد عبد الله دراز اشتراكها والتقاءها عند خطوط فكرية واحدة، هي خطوط القرآن الكريم وحقائقه الكبرى في الوجود؛ فمؤلفنا - رحمه الله - اتسم بنظرة جامعة فيما يكتب أو يفكر، ولقد كان منشغلاً بثلاث قضايا قرآنية كبرى توزعت مجالاتها على كافة مؤلفاته وكتبه ومقالاته، وحتى أحاديثه الإذاعية، تلكم القضايا الثلاث هي: العقيدة، والأخلاق، والإصلاح الاجتماعي، والتي صيرته - بعد ذلك - من أهم دعاة الإيمان وحاملي رسالة الإسلام الصافية إلى المجتمعات الغربية - خاصة -، ولذا فإنه كان حريصاً على توظيف أدوات الدعوة ووسائلها الفكرية والأخلاقية من أجل إقناع ملاحدة الغرب بحقيقة الألوهية، وإعجاز القرآن، وكمال التشريعات الأخلاقية والاجتماعية الإسلامية، وأحقيتها بقيادة البشرية إلى حياة الأمن والسعادة والاستقرار.

¹ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن، ص 54، 138، 157، 158، 174، 186، 174، 473، 469، 568، 592، 603، 604، 610، 627، 629، و مدخل إلى القرآن الكريم، ص 36، 163، 169، 172، وحصاد قلم، ص 200، والنبأ العظيم، ص 43، 63، 152، 165، 187، 202، 203، 278 وغيرها.

² - النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، ص 178، هامش 03.

³ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، ط، دار الكتب العلمية، 2001، 320/2.

⁴ - يراجع: تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، ط الدار التونسية، 1984، 121/7.

⁵ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 591.

لقد كان القرآن الكريم نقطة ارتكاز — عند محمد عبد الله دراز في تحقيق القضايا القرآنية الكبرى، فطبع ذلك كل مؤلفاته بهذا الطابع القرآني.

ولقد ارتبطت هذه المؤلفات وتعانقت فيما بينها من جهتين:

الأولى: أفكار متقاربة وفصول شبه متطابقة.

الثانية: إعادة التلخيص والاستفادة من الأفكار السابقة.

فكتابه "دستور الأخلاق في القرآن الكريم" قد هيمنت عليه فكرة رئيسية، «وهي أن الحاسة الخلقية انبعت داخلي فطري، وأن القانون الأخلاقي قد طبع في نفوس الإنسانية منذ نشأتها»⁽¹⁾، وهذا ما يستلزم فكرة أخرى ألح عليها دراز كثيرا في كتابه وهي: «أنه لا مكان للأخلاق بدون عقيدة، والعقيدة هنا تتصل بالأخلاق ذاتها، ومعناها الإيمان بالحقيقة الأخلاقية...»⁽²⁾، فاهتم دراز بهذا التعانق بين العقيدة والأخلاق في كتابه "دستور الأخلاق في القرآن" في حديثه عن مصادر الإلزام الخلقي وحقيقته في الإسلام⁽³⁾، ثم أعاد مرة أخرى في كتابه "الدين" في المبحث الثاني: علاقة الدين بأنواع الثقافة والتهذيب في أوله الدين والأخلاق.⁽⁴⁾

ومن هذا أيضا إعادة ذكره لفصل المسؤولية الذي عالجته في كتابه "دستور الأخلاق في القرآن"⁽⁵⁾، بما لخصه تلخيصا مفيدا في كلا كتابيه "زاد المسلم للدين والحياة" في المجموعة الرابعة منه المعنونة بـ "مسؤوليات أدبية بعيدة المدى"⁽⁶⁾، وكتابه الآخر "حصاد قلم" في القسم الرابع منه المعنون بـ "المجتمع الصالح وكيف يكون؟"⁽⁷⁾.

ثم نراه يعود مرة أخرى إلى الكتابة الأخلاقية سنة 1953، حينما أصدر بحثا صغيرا هاما عنوانه "كلمات في مبادئ الأخلاق" أعاد نشرها ثانية في كتابه "دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية

¹ - حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن: إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 37.

² - من أهم رواد البحث في الأخلاق القرآنية ضمن كتاب محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأفلام تلامذته ومعاصريه، إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 143.

³ - دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، ص 23 وما بعدها.

⁴ - الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان: محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ص 59 وما بعدها.

⁵ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 134 وما بعدها.

⁶ - زاد المسلم للدين والحياة: محمد عبد الله دراز، ص 167 وما بعدها.

⁷ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 296 وما بعدها.

والدولية،⁽¹⁾؛ إذ تناول فيه عرض الأخلاق عند علماء الإسلام كالغزالي وغيره، ثم عند المذاهب غير الإسلامية طبيعية كانت أو نفسية أو اجتماعية أو غيرها، وعقبها بالنقد والتمحيص.

ثم تناول علم الأخلاق وتقسيمه إلى نظري وعملي، ودرس من خلاله العلاقة بين الدين والفلسفة والأخلاق، وهذا ما أعاد ذكره مرة أخرى في كتابه "الدين" في المبحث الثالث عن نزعة التدين، تحدث من -خلالها- عن وظيفة الأديان في المجتمع،⁽²⁾ وفي المبحث الرابع: نشأة العقيدة الإلهية الذي ذكر فيه المذاهب الغربية في تفسيرها، ونقدها هنا كما نقدها في كتابه "الدستور"، ورجح منها ما أسماه بالمذهب التعليمي أو مذهب الوحي الذي كان مذهباً جامعاً لإيجابيات المذاهب الأخرى.⁽³⁾

ومن يتضح فهرسي كتابيه "المدخل" و"النبأ العظيم" يجد تطابقاً تاماً بين أغلب المباحث؛ فقد بحث فيها حقيقة مصدرية القرآن من خلال مرحلتين جامعتين من البحث في مكة والمدينة في كتابه "المدخل"⁽⁴⁾، أو من خلال أربعة مراحل تفصيلية، أضاف فيها البحث في جوهر القرآن من خلال إثبات إثبات وجوه إعجازه الثلاثة العلمي، والتهذيبي، واللغوي الذي فصل القول في معالجه ومستوياته في كتابه "النبأ العظيم"⁽⁵⁾، وأعاد ذكره مجملاً في العنصر الأدبي للقرآن في كتابه "مدخل إلى القرآن الكريم".⁽⁶⁾

بالإضافة إلى هذا أن موضوع السيرة النبوية -وضمنها حقيقة الوحي- لم تغادر أغلب مؤلفاته بعناوين مختلفة، مثل عنوان "في بيان مصدر القرآن" في كتابه "النبأ العظيم"⁽⁷⁾، أو كعنوان "حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - قبل البعثة" في كتابه "مدخل إلى القرآن الكريم"⁽⁸⁾، أو كعنوان "قبسات من السيرة" في كتابه "زاد المسلم"⁽⁹⁾، وغير ذلك.

¹ - دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية: محمد عبد الله دراز، ص 87 وما بعدها.

² - الدين: محمد عبد الله دراز، ص 84 وما بعدها.

³ - المصدر نفسه، ص 164.

⁴ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 137، 161 وما بعدها.

⁵ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 108 وما بعدها.

⁶ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 123.

⁷ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 47.

⁸ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 21.

⁹ - زاد المسلم للدين والحياة: محمد عبد الله دراز، ص 101.

ومن التلخيصات المفيدة في مؤلفاته، إعادة معالجته لموضوع "الحرب والقتال في الإسلام" في كتابه "مدخل إلى القرآن الكريم" ⁽¹⁾ بمقال حول رأي الإسلام في القتال جمع في كتابه "حصاد قلم" ⁽²⁾.

و من هذا أيضا أنه فصّل الحديث عن بعض الأخلاق العملية التي ذكرها في آخر كتابه "دستور الأخلاق في القرآن" في أحاديثه الوعظية عبر إذاعة القاهرة آنذاك، والتي جمعت في كتابه "زاد المسلم" ⁽³⁾.

هذا بالإضافة إلى كثير من العلاقات والإحالات التي ربطت مؤلفاته بشبكة واحدة من المفاهيم والأفكار النابعة أصلا من معين القرآن الصافي.

فمن أمثلة العلاقات، العلاقة بين المسؤولية الأخلاقية والاجتماعية في كتابه "المدخل" ⁽⁴⁾، ونظيرتها في كتابه "دستور الأخلاق" ⁽⁵⁾، و"حصاد قلم" ⁽⁶⁾.

و منها علاقة نقد الأديان في كتابه "المدخل" ⁽⁷⁾ بنظيرتها في كتابه "الدين" ⁽⁸⁾، بل علاقة العنصر العنصر الديني من كتاب "المدخل" ⁽⁹⁾، بما ورد من ذلك في كتابه "الدين" ⁽¹⁰⁾.

ومنها علاقة تفسيره لآية القسط في كتابه "حصاد قلم" ⁽¹¹⁾، بما يشابهها في كتابه "دستور الأخلاق" ⁽¹²⁾،

وذكره في هذا الكتاب الأخير الجزاءات الثلاثة في الأخلاق ⁽¹⁾، بما يقابلها في كتابه "حصاد قلم" ⁽²⁾.

¹ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 63 وما بعدها.

² - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 325.

³ - زاد المسلم للدين والحياة: محمد عبد الله دراز، ص 27 وما بعدها.

⁴ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 94-95.

⁵ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 148 وما بعدها.

⁶ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 275 وما بعدها.

⁷ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 143-168.

⁸ - الدين بحوث ممهدة: محمد عبد الله دراز، ص 175.

⁹ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 75.

¹⁰ - الدين: محمد عبد الله دراز، ص 56 وما بعدها.

¹¹ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 143.

¹² - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 144.

و منها علاقة نقد آراء العهد القديم والجديد في كتابه "دستور الأخلاق في القرآن" (3)، بما ورد في كتابه "الدين". (4)

ومنها علاقة النظرة الشمولية الكلية للسورة القرآنية في كتابه "النبأ العظيم" (5)، بمقابلها في كتابه "المدخل". (6)

و منها إجمالية دراسة سورة البقرة في كتابه "المدخل" (7) وتفصيل ذلك في كتابه "النبأ العظيم" (8)، وغيرها من العلاقات.

و من شواهد الإحالات إحالته في كتابه "المدخل" (9) في موضوع إعجاز القرآن وتنسب آياته وسورة على كتابه "النبأ العظيم". (10)

ومنها إحالته في كتابه "المدخل" (11)، على كتابه "دستور الأخلاق في القرآن" (12)، في موضوعات المسؤولية، والأخلاق العملية، والانبعث الخلقية على التوالي والعكس في إحالته في كتابه "دستور الأخلاق في القرآن" (13)، على كتابه "المدخل" (14) في الجوانب الثلاثة للقرآن (ديني وخلقي وأدبي)، فكل هذا دليل التداخل والاشترك والتلاحم بين مؤلفاته، والنوع من معين القرآن الصافي.

1- مصدر سابق، ص 245.

2- حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 275.

3- دستور الأخلاق في القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 278 وما بعدها.

4- الدين: محمد عبد الله دراز، ص 112.

5- النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 192.

6- مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 127 وما بعدها.

7- المصدر نفسه، ص 128.

8- النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 194.

9- مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 130.

10- النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 192.

11- مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 94-95.

12- دستور الأخلاق في القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 134، 419، 583.

13- المصدر نفسه، ص 09.

14- مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 74 وما بعدها.

المبحث الثاني: منهج محمد عبد الله دراز التحليلي في تفسيره

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: منهجه في العقيدة و علم الكلام والمسائل الفلسفية.

المطلب الثاني: اللغة والمسائل البلاغية والأدبية.

المطلب الثالث: الأحكام الفقهية والمباحث الأصولية والمقاصد

التشريعية في تفسيره.

المطلب الرابع: المنهج العقلي في تفسيره.

المطلب الخامس: التفسير بالمأثور والتفسير العلمي.

المطلب السادس: منهجه في علوم القرآن.

المبحث الثاني: منهج محمد عبد الله دراز التحليلي في التفسير .

حينما نتحدث عن معالم المنهج التفسيري، فإننا نقصد بما «الخطة المرسومة المحددة الدقيقة التي تتمثل في القواعد والأسس والمنطلقات التي تعرف عليها المفسر والتي التزم بها... فلم يخالفها، ولم يخرج عنها». (1)

فالمنهج بهذا بخلاف مالا يسمى بالطريقة التي تعني «الأسلوب الذي سلكه المفسر أثناء تفسيره لكتاب الله، أي: تطبيق المفسر للقواعد والأسس المنهجية التي كانت منهجه في فهم القرآن... كتفسير آيات العقيدة وغير ذلك». (2)

ومعلوم للجميع أن محمد عبد الله دراز لم يكن له تفسير جامع لكل سور القرآن الكريم، ولا حتى للسورة الواحدة -إلا قليلا-، وإنما كانت آراء قرآنية وقضايا تفسيرية متعددة ومتناثرة في كتبه ومؤلفاته القرآنية بالخصوص.

ولذا فإنه لم يؤصل نظريا لقواعد منهجه في دراسة القرآن الكريم -كثيرا- في مقدمات مؤلفاته إلا قليلا، وأما غالب القواعد المنهجية فقد التزمها دراز في دراساته القرآنية، ولم يبرزها لنا في شكل قوالب منهجية نظرية.

فمن الأول قوله في مقدمة كتابه "دستور الأخلاق في القرآن": «ف عندما فقدت الوحدة الأولى لكل سورة لم يستطيعوا أن يكملوا عملهم بإيجاد وحدة منطقية تربط بين الأجزاء المختارة، أو تصنيف منهجي تقتضيه قاعدة التعليم». (3)

وقال أيضا: «ولسوف يختلف منهجنا كثيرا في عرض هذا الجانب عن المنهج الذي اتبعه سابقونا، فلما كنا -أولا- لا نرى من اللازم أن نستوعب النصوص والآيات ذات الاتصال بالموضوع، فقد اكتفينا بأن سقنا بعضا منها... ثم حاولنا من بعد ذلك أن نتجنب التكرار بقدر الإمكان.

¹ - تعريف الدارسين بمنهج المفسرين: صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط1، 2002، ص 17-18.

² - المرجع نفسه، ص 18.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 07.

وأتبعنا أخيراً نظاماً منطقياً بدلاً من التزام نظام السور، أو النظام الأبجدي للمفاهيم...»⁽¹⁾، وقال أيضاً: «ونحن من ناحية أخرى نتخذ من القرآن ذاته نقطة انطلاق، بحيث كان دأبنا الدائب أن نستخرج منه الإجابة عن كل مسألة...»⁽²⁾.

وقال أيضاً: «فعلّمنا على هذا النحو نوع من التأليف، تلتقي فيه الأفكار الأخلاقية من الشرق بنظيرتها من الغرب، في مقارنة واعية، محايدة... رائدها الوحيد في كل مناقشة أن تحتكم إلى العقل الذي يستهدي بالأسانيد الوثيقة»⁽³⁾.

وقال في مقدمة كتابه "النبأ العظيم": «وقد راعيت في أكثر هذه البحوث شيئاً من التفصيل والتحليل، وشيئاً من التطبيق والتمثيل...»⁽⁴⁾.

وقال في مقدمة كتابه "مدخل إلى القرآن الكريم": «... وسوف نقابل في طريقنا بشأن هذا الكتاب المقدس إما بعض الأحكام القاسية فنصححها... وفي هذا سنترك النص القرآني ليتولى الدفاع بنفسه عن نفسه... وتكاد وساطتنا تنحصر في الربط والتنسيق بطريقة منطقية بين أجزاء هذا الدفاع...»⁽⁵⁾.

هذا بعض ما أشار إليه دراز من الجوانب النظرية للمنهج العام المتبع في التفسير، وهي قواعد منهجية تعلق غالباً بالتفسير الموضوعي؛ إذ فرضت منهجية التأليف الأكاديمي عليه تحديد هذه القواعد المنهجية في دراسته للنظرية الأخلاقية في القرآن الكريم، وإلا فإنه -من جهة أخرى- قد وظف الكثير من القواعد المنهجية التفسيرية في تحليلاته وتطبيقاته القرآنية، وإن لم يصرح بذلك من الناحية النظرية التأصيلية.

فمن هذا تبين لنا أن دراز كان واعياً بالمنهج التحليلي وبالمنهج الموضوعي للقرآن الكريم، وكانت له في ذلك قواعد ومفردات منهجية متنوعة في علوم قرآنية كثيرة: كعلم العقائد والفلسفة والكلام، اللغة ومسائل البلاغة، المنهج العقلي، الاجتهاد، علوم القرآن، والفقه والأصول، وغيرها من ناحية، ومن

¹ - مصدر سابق، ص 09-10.

² - المصدر نفسه، ص 13.

³ - المصدر نفسه، ص 18.

⁴ - النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 37-38.

⁵ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 14.

ناحية أخرى: التناسب بأنواعه، الترتيب القرآني، الوحدة الموضوعية، اعتماد السياق، استخلاص العبر والدروس وغيرها.

المطلب الأول: العقيدة والمسائل الفلسفية والكلامية.

لقد حظيت مسائل العقيدة الإسلامية بحضور واضح في الآراء التفسيرية لمحمد عبد الله دراز، أودعها في ثنايا مؤلفاته القرآنية في دراساته للآيات القرآنية التي تحدثت عن العقائد الإسلامية بأركانها وقضاياها الثلاثة الكبرى: الألوهيات، والنبوات، والسمعيات، سواء كان حديثه عنها حديثا تحليليا تفصيليا أثناء عرضه لقضايا فكرية متنوعة، أو كان حديثه عن هذه القضايا العقائدية حديثا موضوعيا أثناء عرضه وتفسيره لموضوعات السور القرآنية المختارة نماذج لذلك.

ولقد عرفنا من قبل أن العقيدة كانت -أولى الأثاني التي شغلت أفكاره وآراءه، خاصة في معاركه ومساجلاته القوية ضد ألوية الفكر الغربي، تصحيحا لأفكارهم الباطلة، وتمحيصا لشبهاتهم الضعيفة حول القرآن ومصدره.

وإضافة إلى ذلك فقد اهتم دراز كثيرا بالمسائل الكلامية والفلسفية، وطرح العديد من القضايا والإشكالات المعرفية والسلوكية العالقة بالأديان جميعا، والتي تدرس في إطار مقارنات الأديان.

لقد كان منهج دراز في كل ذلك متبعا بدقة لمنهج القرآن الكريم الجامع بين خطاب العقل والعاطفة معا، والوارد لاستدلالات القرآن في بناء العقائد، وتصحيح الأفكار، وغرلة الشبهات، ولقد صرح مرارا بأنه يتخذ من القرآن نقطة انطلاق⁽¹⁾، أو لندع القرآن "يدافع بنفسه عن نفسه"⁽²⁾، أو قوله: «لنستنتق القرآن الذي رضيه الملحدون حكما بيننا وبينهم»⁽³⁾، وغير ذلك مما يدل أن دراز كان شغوفا بمنهج القرآن الكريم بيانا للعقائد واحتجاجا لها.

لقد تحدث عن وجود الفرق بين القرآن والفلسفة، وحدد ذلك في كل من مصادرها ومناهجها «فليس القرآن إذن عملا فلسفيا... وهو لا يستخدم طرق الاكتساب الفلسفي، بالإضافة إلى أنه لا يتبع كذلك طرق التعليم التي يتبعها الفلاسفة، وهي طرائق المنهج العقلي التي تقوم على التعريف

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 13.

² - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 14.

³ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 90.

والتقسيم والبرهنة والاعتراضات والإجابات...⁽¹⁾؛ بل إن منهج القرآن كما صرح «يتوجه إلى النفس بأكملها، فهو يقدم إليها غذاء كاملاً يستمد منه العقل والقلب كلاهما نصيباً متساوياً».⁽²⁾

ورغم أن الفلسفة تشترك مع القرآن في الحديث عن «أصل الإنسان ومصيره، وأصل العالم ومصيره، ومبادئ السبب والغاية، وأفكار عن النفس وعن الله»⁽³⁾، إلا أن القرآن يزودها ويزودنا كما قال دراز «بمادة غزيرة في الموضوعات، وفي الاستدلالات»⁽⁴⁾، التي تغني عن استحلاب استدلالات الفلسفة والمنطق.

لقد عالج دراز بهذا المنهج القرآني الكثير من قضايا العقيدة، وعلم الكلام، والفلسفة العقلية، كقضايا: الألوهية والتوحيد⁽⁵⁾، والأسماء والصفات⁽⁶⁾، احترام الرسل وعصمتهم⁽⁷⁾، الجنة وألوان نعيمها⁽⁸⁾، والنار وصور عذابها⁽⁹⁾، الموت والحياة البرزخية⁽¹⁰⁾، الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية⁽¹¹⁾، الرجاء والخوف⁽¹²⁾، وغيرها من قضايا العقيدة.

وعالج أيضاً مجموعة متنوعة من المسائل الكلامية والفلسفية الغربية والإسلامية: كالتكليف والاختيار⁽¹³⁾، والخير والشر⁽¹⁴⁾، والعقل المحض والعقل العلوي⁽¹⁵⁾، والحرية والحتمية⁽¹⁶⁾، واللذة

1- دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 14.

2- المصدر نفسه، ص 14.

3- المصدر نفسه، ص 15.

4- المصدر نفسه، ص 15.

5- المصدر نفسه، ص 34، 546، 66، 68، وغيرها.

6- المصدر نفسه، ص 321، 322، 653، وغيرها.

7- المصدر نفسه، ص 524، 596، 625، 627، وغيرها.

8- المصدر نفسه، ص 370، 382.

9- المصدر نفسه، ص 387، 399.

10- المصدر نفسه، ص 369-370.

11- المصدر نفسه، ص 209.

12- المصدر نفسه، ص 499.

13- المصدر نفسه، ص 29، 56.

14- المصدر نفسه، ص 30.

15- المصدر نفسه، ص 34.

16- المصدر نفسه، ص 132، 190.

والألم⁽¹⁾، والفضيلة والسعادة⁽²⁾، والواجب والإلزام⁽³⁾ وغير ذلك من مسائل علم الكلام والفلسفة الإنسانية.

هذا بالإضافة إلى إشارة للمذاهب الفلسفية الغربية والكلامية الإسلامية.⁽⁴⁾

ومع أن الشيخ دراز -رحمه الله- كان ينتسب -ظاهريا- للمذهب الأشعري الذي كان ولا يزال -يمثله الأزهر آنذاك، إلا أن عشقه القرآن وكثرة رجوعه إليه كان قد رسم طبيعة القضايا العقيدية التي اهتم بها، وحدد له الطرق والمناهج التي درس قضايا العقيدة والفلسفة والفكر الإنساني بها؛ فقد طبع بطابع القرآن، وتحرر في كثير من آرائه من أسر الفكر المذهبي، بل وأبرز جوانب عدة سلوكية وعملية مرتبطة ارتباطا وثيقا بلب العقيدة، كان جلة المفكرين قد تناسوا ذكرها أو دراستها.

فمن حيث موضوعات العقيدة الإسلامية، فإن دراز -رحمه الله- كان مهتما بموضوعات الألوهية، النبوة، والجزاء؛ سواء أكان ذلك أثناء حديثه عنها حديثا مستقلا؛ كما في دراسته لصور النعيم في الجنة، وصور العذاب في النار روحية ومادية، متبعا في ذلك نصوص القرآن الكريم المكية والمدنية⁽⁵⁾، أو كان حديثه عنها حديثا عرضيا أثناء تفسيره لبعض سور القرآن، حيث تطرق إلى موضوعاتها الرئيسية وهي موضوعات القضايا الكبرى العقيدة الإسلامية.⁽⁶⁾

أو كان حتى حديثه عنها من خلال أحاديثه الوعظية عبر إذاعة القاهرة آنذاك.⁽⁷⁾

يذكر مثلا صور النعيم وأخرى للعذاب الروحي والمادي معا، ويستشهد في ذلك بآيات كثيرة من القرآن الكريم، وبعضها من أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- من أجل أن يصحح التصورات -الغريبة خاصة- حول البعث و المعاد والجزاء، فلذلك حرص كثيرا على ربط صور الجزاء الأخروي هنا

¹ - مصدر سابق، ص 247.

² - المصدر نفسه، ص 337-338.

³ - المصدر نفسه، ص 114، 118، 446 وغيرها.

⁴ - المصدر نفسه، ص 207، 208، 210، 214، 68، 70، 522، 542، 641، 670، 672 وغيرها.

⁵ - ينظر مثلا: دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، من ص 368 إلى 379، ومن ص 388-399، و ينظر في موضوعات أخرى، ص 30، 34، 66، 132، 164، 170، 184، 207، 247، 208، 361، 499، 625، وغيرها.

⁶ - يراجع: حصاد قلم، محمد عبد الله دراز، ص 27، 28، 147، 150، 173، 184، 187 وغيرها. والنبأ العظيم: محمد دراز، ص 81، 87، 167، 176، وغيرها.

⁷ - يراجع: زاد المسلم للدين والحياة: محمد عبد الله دراز، ص 30، 31، 239، 243.

بالجوانب الأخلاقية والنفسية والسلوكية من أجل تقربها إلى العقل الإنساني المتسم بالمادية في كثير من الأحيان.

فالإيمان الحق -عند دراز- هو الذي «يثمر أخلاقاً كريمة قبل أن يثمر أعمالاً مستقيمة»⁽¹⁾، وهو في ذلك ذو ثلاث شعب: الاعتراف به، ثم العمل بما يمليه امتثالاً لأوامره، واجتناب لمحارمه، ثم نشره والدعوة إليه.⁽²⁾

يقول دراز في ذلك: «ولسوف نرى في هذا الوصف (الجنة والنار) كيف يسير العنصر الأخلاق، والعنصر المادي معا دائما جنبا إلى جنب»⁽³⁾.

ومن معالم تأصل المنهج القرآني في فكر دراز -في باب العقائد- أنه لم يعول على العقل كثيرا في إثبات العقائد الإيمانية، وحتى في تفسيرها وفق قواعده المنطقية؛ بل رد على كثير من تساؤلات وآراء الفلاسفة هنا.

يقول: «وبإمكاننا معرفة هذا القول الحق (الإيمان بالله) بالذكاء الفطري والعقل والإدراك».⁽⁴⁾

وقد أعلنها صريحة أن «الحقائق الدينية الغيبية لا سبيل للعقل إليها»⁽⁵⁾، وما علينا في ذلك إلا «أن نطبق منهجا مناسباً، بأن نلجأ إلى النصوص التي أوحى إلينا هذه الحقائق».⁽⁶⁾

كما لام كثيرا بعض الفرق الكلامية اضطراب مفاهيم العقل والنص عندهم، وسلوكهم سبيل التعسف الفكري والتأويل الكلامي والشطط المذهبي في كثير من خطاباتهم الفكرية والعقائدية، كما في انتقاده الأشاعرة والمعتزلة في مسألة التكليف بالمحال على الله تعالى⁽⁷⁾ بقوله: «ولكن من ذا الذي لا يرى يرى في هذا الكلام سفسطة خالصة؟»⁽⁸⁾.

¹ - نظرات في الإسلام: محمد عبد الله دراز، د ط، ص 19.

² - المصدر نفسه، ص 20.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 370.

⁴ - دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، محمد عبد الله دراز، ص 21.

⁵ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 68.

⁶ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 66-70.

⁷ - المصدر نفسه، ص 71.

⁸ - المصدر نفسه، ص 74.

غير أنه لا يفهم من هذا أن دراز لا يرى للعقل إطلاق نوراً يستجلي به الإنسان في معرفة مصدر الحق والإيمان، وفي تفسير عقائد الإسلام، كلاً فلقد أثبت ذلك مراراً في غير ما مؤلف من مؤلفاته⁽¹⁾، ووظف في كثير من تحليلاته العقائدية والفكرية المنهج العقلي إضافة إلى مناهج أخرى في هذا المجال⁽²⁾، فهو يؤكد أن القرآن الكريم «جاء ذكراً وتنبهياً للعقول، يوقظها من غفلتها ويخرجها من الظلمات إلى النور»⁽³⁾.

و القرآن حينما يصوغ الأخلاقية فإنه «يحرص على مطابقتها للعقل، وللحكم، وللحقيقة، وللعدالة...»⁽⁴⁾.

ولكنه يؤكد -دراز- أيضاً «أن العقول البشرية لها في إدراك الأشياء طريق معين تسلكه... فكل شيء لم يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن مباشرة، ولم يكن مركزاً في غزيرة النفس، إنما يكون إدراك العقول إياه عن طريق مقدمات معلومة... وكل ما لم تمهد له هذه الوسائل والمقدمات لا يمكن أن تناله يد العقل بحال...»⁽⁵⁾.

من ذلك ما فصله القرآن من حدود الإيمان من «بدء الخلق ونهايته، ويصف الجنة وأنواع نعيمها، والنار وألوان عذابها... فعلى أي نظرية عقلية بنيت هذه المعلومات الحسابية، وتلك الأوصاف التحديدية»⁽⁶⁾.

ومن قضايا المنهج في فهم دراز لعقائد القرآن اشتغاله بمقابلة هذه العقائد بنظيراتها في التوراة والإنجيل أو ما يعرف بمقارنة الأديان، أو مقابلتها للنظريات الفلسفية العامة والخاصة؛ وذلك أنه يرى -والحق كذلك- أن القرآن الكريم رسالة فكرية عقلية للبشرية جمعاء قديماً وحديثاً، وأن الكتب السماوية السابقة قد اشتملت -رغم تحريفها- أصول الحقائق الكبرى المتعلقة بالله، والكون والإنسان، المفصل

¹ - ينظر: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 164، 214، 219، 266، 298، 335، 342، 361، 368، 403، 404، 467، 517، 574، 689، وغيرها. و مدخل إلى القرآن الكريم، ص 94، 75، 123، 164، وغيرها، و حصاد قلم: محمد دراز، ص 101، 110، 154، 168، 169، 177، 195، 218، 222، 225، 226، وغيرها. و دراسات اجتماعية وإسلامية: محمد دراز، ص 21 وغيرها.

² - ينظر: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 107، 172، 214، 303، 409 وغيرها.

³ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 220.

⁴ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 406.

⁵ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 68.

⁶ - المصدر نفسه: محمد دراز، ص 68-69.

ذكرها في القرآن، وهي التي شكلت الخلفية الفكرية لثقافة محمد دراز في دراساته لنظريات الغرب، ومواجهاته لأفكارهم ومفاهيمهم.

إن مثل هذه الدراسات المقارنة تشكل وحدة فكرية عامة ضبطت_ وتضبط_ العقل الإنساني في مسيرته الخالدة، إنها - كما قال دراز- «وحدة الطريق، تتلاحق خطواته ... أو وحدة البناء، يبدأ بوضع أساسه، ثم لا يزال تتسع أركانه ويرفع بنيانه، حتى يصل إلى حد التمام».⁽¹⁾

وقد سلك دراز في معالجة هذه القضايا الفلسفية والفكرية التي عجت خاصة مؤلفاته الثلاثة: الدستور والمدخل، والنبأ⁽²⁾، طريقين ومسلكين.

الأولى: تحليلية تفصيلية لكل قضية فكرية يتناولها بالمعالجة، بدءاً من نظريات الغرب المقدمة فيها ثم بعرض آراء فلاسفة الإسلام، المتقدمين والمتأخرين فيها، وإبداء الرأي الراجح فيها بعد نقدها جميعاً.⁽³⁾

الثانية: إجمالية موضوعية أثناء معالجته للموضوعات العقائدية والفكرية في القرآن الكريم، قاصداً منها بيان وحدة الأديان فيها، وناقداً لآراء الفلاسفة والمستشرقين الغربيين منها.

من أهم القضايا الفلسفية التي أثارها مسألة أصل الوجود الإنساني والكوني، ثم مسألة الاتصال بين عالمي الغيب والشهادة، مما يعرف بظاهرة الوحي⁽⁴⁾، حيث انطلق -دراز- في سبيل إثبات المسألة الأولى من فكرة إله واحد خلق الكون والإنسان، وأنفذ سنته وآثاره فيهما، هذه الفكرة الجوهرية التي أثبتتها الديانات السماوية الدينية السابقة، وما دعوة القرآن إليها في نظر دراز_ إلا عودة « إلى الوحدة الأصلية التي يستجيب لها، ويعتز لها ذوو النفوس السامية».⁽⁵⁾

و بما أن الخطاب موجه هنا إلى العقل الأوري، فإن التأسيس والتأصيل المعرفي لهذه المسألة يجب أن يستند إلى دلائل العقل وقوانينه المنطقية، ولذا ثنى دراز تقرير هذه الفكرة بدلائلها العقلية، فذكر من

¹ - زاد المسلم للدين والحياة: محمد عبد الله دراز، ص 30.

² - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: دراز، ص 14، 30، 34، 88، 97، 100، 112، 114، 118، 123، 138، 164، 169، 172، 173، 185، 189، 194، 196، 199، 208، 223، 247، 333، 334، 338، 339، 412، 422، 438، 458، 490، وغيرها. و مدخل إلى القرآن الكريم: دراز، ص 81، 83، 123، 139، 150، 157، 164، 168، 182، 190، 191، وغيرها. والنبأ العظيم: دراز، ص 65، 69، 85، 96، 104، وغيرها.

³ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: دراز، ص 96، 125، 208، 438، 670، وغيرها.

⁴ - يراجع مدخل إلى القرآن الكريم: دراز، ص 83، 86، 89، 141، 147، 168، وغيرها.

⁵ - المصدر نفسه، ص 77.

ذلك قانون الأثر والمؤثر والمستحيل عقلا، والثبات والتغير وغيرها⁽¹⁾، مبيّنا إذعان العقل السليم لهذه القوة المؤثرة المتقنة، بعد اعتراف الفطرة والنفس بها.

غير أن التفسير الديني هنا أرجح من التفسير العلمي؛ إذ يتسم الأول بأنه « يتخطى الإدراك العلمي ويسمو عليه، لأنه يوافق الفكرة العلمية ويحتويها، بل ويتجاوزها إلى ما لا نهاية... فالمتناهي يحتل ركننا صغيرا من اللامتناهي»⁽²⁾، وما على العقل إلا أن يقف موقفا وسطا في ذلك يجمع فيه بين البحث والتسليم، وهو ما دعا القرآن إلى الوقوف عنده فيما يسميه دراز، "الوسط المعقول".⁽³⁾

وكان هدف دراز من هذا التأصيل تهيئة العقل الأوربي لتقبل المعجزات الإلهية التي تؤيدها دعوة أنبياء الله، وللاعتراف بإمكانية التواصل بين الغيب والشهادة وفق قواعد العقل المنطقية المتفق عليها. و من ثم شرع في إثبات قضية الوحي الإلهي لأنبيائه، وخصص لها فصولا عديدة من المدخل⁽⁴⁾، والنبأ⁽⁵⁾، ثم من الدستور بصورة أقل من ذلك⁽⁶⁾.

و نراه في ذلك يحشد لها الأدلة والحقائق التاريخية والعقلية والنفسية والاجتماعية والعلمية وغيرها، ما يرسخ صدقها ومصداقيتها، كما يعرض في ذلك من شبهات الغربيين الواقعة والمتوقعة، ويدحضها شبهة شبهة بقواعد العقل المنطقية، حتى يبين لهم رابانية القرآن وصحة نظريته الأخلاقية.

من ذلك أنه فند نظرية الوحي النفسي الذائعة الصيت عند الغربيين⁽⁷⁾، ورأى فيها ثوبا جديدا لقول قديم أَلصقت قريش تهمه بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فكان «غذاء هذه الأفكار المتحررة في العصر الحديث مستمدا من فتات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى»⁽⁸⁾.

¹ - بنظر: حصاد قلم: دراز، ص 122، 167، 176، ومدخل إلى القرآن الكريم، ص 75، 76، 79، 81، 88، 123 وغيرها.

² - مدخل إلى القرآن الكريم: دراز، ص 83.

³ - المصدر نفسه.

⁴ - المصدر نفسه، ص، 133، إلى آخر الكتاب (حوالي أكثر من 60 صفحة).

⁵ - النبأ العظيم، دراز، من ص 47 إلى ص 179، بل في نظرنا إلى آخر الكتاب، فالكتاب مخصص لإثبات مصدريّة القرآن تاريخيا ومنطقا وإعجازا.

⁶ - دستور الأخلاق في القرآن: دراز، ص 287، 288، 670، 673، وغيرها.

⁷ - أشهر من نقد هذه النظرية: محمد رشيد رضا في كتابه الوحي المحمدي، دار الكتب، الجزائر، ص 88، وما بعدها.

⁸ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 97.

كما تطرق إليها في كتب أخرى وفندها منهجياً وموضوعياً، بالتتبع الدقيق لها. في المرحلتين المكينة والمدنية، وأعظم ما فيها كمال منهجه الأخلاقي.⁽¹⁾

و نراه في كل هذا قد وظف كثيراً من المصطلحات الفلسفية⁽²⁾، والبراهين المنطقية⁽³⁾، كما انتقد انتقد في هذا الصدد الكثير من المذاهب والفلسفات الغربية.⁽⁴⁾

المطلب الثاني: اللغة والمسائل البلاغية والأدبية.

يعد دراز من عمالقة البيان في عصرنا الحاضر، فقد جمع بين «ثقوب عقله، وحدة ذكائه في إبراز أخفى وأدق أسرار البيان القرآني المعجز في آية من كتاب الله»،⁽⁵⁾ بل في القرآن الكريم كله.

ولهذا اعتنى دراز في مؤلفاته كلها وأكثر من قضايا اللغة العربية، وعلوم البلاغة، وبيان أسرار القرآن في مستوياته الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وقد كان في ذلك متبعاً منهج الإمام الجرجاني البلاغي الممتع الجامع بين الذوق والنظر العقلي في كتابيه «أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز»⁽⁶⁾، ومتأثراً بمنهج مدرسة المنار القائم على تذوق الأساليب الرفيعة، ومزاولة الكلام البليغ مع التفتن لنكته ومحاسنه⁽⁷⁾، وذلك وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهدايته الناس إلى مصدر هذا الكلام البليغ.

¹ - يراجع: مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 183، 191. و حصاد قلم: محمد دراز، ص 195، 237. وحقيقة الوحي: محمد دراز، جمع هيثم حافظ، دار الحافظ، د ت، ص 19 وما بعدها. ودراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية: محمد دراز، ص 10-32.

² - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن، محمد دراز، ص 34، 138، 247، 595، 114، 125، 596، 646، 650، 672، وغيرها. ومدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 98، 83، 190، وغيرها.

³ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 622، 523، 609 وغيرها. ومدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 75، 76، 79، 83، 87، 123، 163، وغيرها. و النبا العظيم: محمد دراز، ص 68 وغيرها.

⁴ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن، ص 57، 94، 112، 133، 175، 189، 267، 282، 339، 410، 438، 581، 606 وغيرها.

⁵ - كتاب النبا العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز، عبد العظيم إبراهيم المطعني ضمن كتاب عبد الله دراز، دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، جمع أحمد مصطفى فضلية، دار القلم، الكويت، ط1، 2007م، ص 177.

⁶ - يراجع مقدمة محمود شاكر على كتابي أسرار البلاغة، ط، دار المدني، جدة، السعودية، ط01، 1991م، ص 12 وما بعدها، ودلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004م، ص أ- ب- ج. وكتاب: الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: محمد كريم الكواز، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ص 176، 250.

⁷ - تفسير المنار: محمد عبده، 21/1 وما بعدها.

وقد حفلت مؤلفات دراز-خاصة المؤلفات باللغة العربية منها- بكثير من مسائل اللغة، والدقائق الصوتية، والتراكيب اللفظية، والصور البيانية، والمباحث البلاغية والأسلوبية والنحوية؛ بل تطرق إلى بعض العلوم اللغوية الحديثة كعلم الدلالة، وإلى بعض المناهج الأدبية الحديثة كالتصوير الفني لمشاهد القرآن، بل استقل ببعض النظرات البيانية كما سنرى ذلك بعد قليل.

فأول مستويات الإعجاز القرآني الذي اهتم دراز بتحليله التناسب الصوتي، فالعجب في أصوات القرآن مواقع نظمها بعضها مع بعض، في نظام صوتي متناسق يستروح النفوس، ويؤثر عليها، وتجد بعد ذلك سلطانا عجيبا عليها.

يقول دراز: «إن أول شيء أحسنه تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيما منوعا يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعا بالقسط الذي يساعد على ترجيع الصوت به ... إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى».⁽¹⁾

ثم يتلو ذلك ما أسماه جمال تناسق الحروف وتأليفها في: «مجموعات مؤتلفة مختلفة... لا كركرة، ولا ثرثرة، ولا قارة ولا معازلة ... بل تراه وقد امتزجت فيه البادية وفخامتها برقة الحاضرة وسلاستها».⁽²⁾

وهذا الائتلاف يكون للأصوات والحروف والكلمات أيضا؛ فقد لاحظ دراز بعد استقراء لفواتح السور القرآنية المستهلة بالحروف المقطعة أنها «تتناول جميع أجناس الحروف من مهموس ومجهور، وشفوي وحلقي، وشديد ورخو، وغير ذلك»⁽³⁾، وفي هذا مظهر عجيب لتناسب أصوات القرآن الكريم.

وعلى هذا رجح استهلال بعض السور القرآنية بحروف معينة، لكثرة ورودها في تلك السور كسور: ص، و، ق، ون، والقلم.⁽⁴⁾

¹ - النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، ص 134.

² - المصدر نفسه، ص 135.

³ - حصاد قلم، محمد عبد الله دراز، ص 193.

⁴ - مصدر سابق، ص 194.

و من أمثلة بلاغة الكلمة عنده قوله تعالى: «وَلَا يَسْتَشْنُونَ» [القلم/ 18]؛ إذ ارتكب أصحاب الجنة خطيئتين استحقوا بسببهما غضب الله وإهلاك جنتهم: نسيان الله، وحرمان الفقراء من ثمراتها، «هاتان الخطيئتان نبه القرآن عليهما بكلمة واحدة...، لا يَسْتَشْنُونَ، لا يستشنون في يمينهم مشيئة الله، ولا يستشنون من ثمرهم حق الفقراء»⁽¹⁾.

كما اهتم كثيرا بشرح المفردات وإيضاح التراكيب القرآنية، تناسباً مع بسطه وتحليله لمعاني الآية المفسرة؛ فمن أمثلة شرح المفردات، شرحه كلمة إحساناً، من قوله تعالى: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» [الإسراء/ 23]، قال: «وتأتي كلمة إحساناً من الفعل المتعدي (أحسن) بمعنى: فعل الخير، أو أتقن، أو تأتي من غير المتعدي (أحسن إليه) بمعنى: رحمه»⁽²⁾، وغيرها من الأمثلة الكثيرة.⁽³⁾

ومن أمثلة شرح التراكيب عنده قوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ» [الملك/ 26]، يقول دراز: «كأنه يقول: لو كنت أخبرتكم بشأن الساعة عن علم بحقيقتها... لأخبرتكم بزمانها وسائر تفاصيلها، لكن هذا الاطلاع على الحقائق بذواتها ليس عندي، ولا عند أحد من الخلق»⁽⁴⁾.

وتفطن دراز أيضاً لبلاغة اختيار الأفعال في القرآن الكريم، وأساليبه البيانية؛ فمن ذلك بيانه سر مجيء الفعل مضارعاً في قوله تعالى: «قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» [البقرة/ 91]، يقول في ذلك: «وانظر كيف زاد هذا المعنى ترشيحاً بإخراج الجريمة الأولى وهي جريمة القتل في صيغة الفعل المضارع تصويراً لها بصورة الأمر الواقع الآن، كأنه يريد بذلك أن يعرض علينا هؤلاء القوم أنفسهم وأيديهم ملوثة بتلك الدماء الزكية»⁽⁵⁾.

و تحت عنوان "دقة التعبير القرآني"⁽⁶⁾، أبرز لنا بلاغة الأساليب القرآنية باستفاضة وعمق، وركز على أن سمة الإيجاز بنوعية⁽¹⁾، هي أهم مزايا الأسلوب القرآني.⁽²⁾

¹ - المصدر نفسه، ص 203-204.

² - دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، ص 394 هامش (1).

³ - يراجع: المصدر نفسه، ص 138، 158، 147، 247، 251، 286، 306، 181، 187، 204، 214،

223، 232، 237، 239، وغيرها، ومدخل إلى القرآن الكريم، ص 170.

⁴ - حصاد قلم، محمد عبد الله دراز، ص 184.

⁵ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 158.

⁶ - مصدر سابق، ص 152.

ودراز حينما يحلل هذا الأسلوب، فإنه لا يكتفي بذكر المعاني الغزيرة الموجزة من ورائه، بل يمهّد لذلك بتحليل القضايا النحوية والأغراض البلاغية المتعلقة بها؛ فيذكر في ذلك المواقع النظامية للحروف والكلمات الواردة في الآية بدءاً ووسطاً وفاصلة، ويعدد الأغراض الدلالية لهذا النظم الخاص، ويفصل في السمات الإعجازية للأسلوب القرآني، فيذكر منها أنه جامع لفضائل بيانية على تباعد ما بين أطرافها، قصداً في اللفظ ووفاء في المعنى، خطاباً للعمامة والخاصة معاً، إقناعاً للعقل وإمتاعاً للعاطفة، بيانا وإجمالاً، إيجازاً في الألفاظ وغزارة في المعاني.

من شواهد ذلك قوله تعالى: « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضِّي إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » [يونس/ 11]، فقد كان الكلام العادي لهذه الآية متضمناً تعجيلين واستعجالين، تعجيل الله للناس الشر كتعجيله لهم الخير، إذا استعجل الناس كلا التعجيلين، ولكنه ذكر هنا تعجيل واحد من الله، واستعجال واحد من الناس.⁽³⁾

وقد أحاط القرآن هنا المعنى المحذوف بحروف وكلمات تنبه عليه، فذكر "لو" الامتناعية بيمينيا، وحرف التفرغ (الفاء) يسارا، وعزز ذلك بتحويل صيغة النتيجة (يعجل) من الماضي إلى المضارع، ثم من الغيبة إلى التكلم، وأبقى من الأطراف المحذوفة من كل جنس مذكور يدل عليه، وعدل عن التطابق بين الشرط وجوابه إلى ما هو أفخم وأهول، وعن الرجوع بالضمير في خاتمة الآية، تحصيلاً لغرضين مهمين: أحدهما التنبيه على أن منشأ هذا الاستعجال هو عدم إيمانهم بالبعث، والثاني التنبيه على أن قاعدة الإمهال من الله قاعدة عادية لهم ولأمثالهم⁽⁴⁾.

كما نجد لبعض القضايا الأدبية الشعرية والروايات الشعبية حضوراً في بعض مؤلفات دراز - رحمه الله -⁽⁵⁾، فمن ذلك إشارته عرضاً لقضية الانتحال في الشعر الجاهلي التي تحمس لها كثيراً طه حسين⁽⁶⁾، وذلك أثناء دراسة دراز واتقاءه لاحتمال مصدرية القرآن من شعر أمية بن أبي الصلت، يرد دراز على

¹ - إيجاز بالحذف، وإيجاز بالقصر، ينظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1996م، 1446هـ، 29/2.

² - يراجع: النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 143 وما بعدها.

³ - المصدر نفسه، ص 171.

⁴ - المصدر نفسه، ص 172-174 بتصرف.

⁵ - يراجع دستور الأخلاق في القرآن، ص 286، 276، 383، 528، 590، 628 وغيرها. و مدخل إلى القرآن الكريم، ص 86، 152، 153، وغيرها. و النبأ العظيم، ص 111، 145، 148، 149، 160، 185، وغيرها.

⁶ - ينظر: في الأدب الجاهلي: طه حسين، مطبعة فاروق، القاهرة، ط3، 1933، ص 113 وما بعدها.

طه حسين في ذلك بأسلوب مجمل وعلمي فيقول: «...فإن تعميم هذا العمل المشبوه بحيث يشكل كل الشعر العربي أو الجاهلي على الأقل سيتضمن نوعاً من المبالغة، إلا أنه لا يكفي أن يكون النص صحيحاً لكي يمكن اعتباره مصدراً للنص المشابه له، وإنما يجب أن يكون سابقاً له في التاريخ، ولكن قضية أسبقية شعر أمية بالنسبة لآيات القرآن قضية مستحيلة الحل...»⁽¹⁾ إلى آخر ما قاله في هذا الشأن.

و عموماً فإن المسائل اللغوية والبلاغية والأدبية قد تعدد ذكرها، وكثر ورودها في تفسير دراز من خلال مؤلفاته القرآنية خاصة النبأ م التي تضمنها تفسيره هي: بلاغة الحروف⁽²⁾، والكلمات⁽³⁾، والجمل⁽⁴⁾، الترادف اللفظي⁽⁵⁾، والمشارك اللفظي⁽⁶⁾، التشبيه والتمثيل⁽⁷⁾، الكناية والتعريف⁽⁸⁾، الحقيقة الحقيقية والمجاز⁽⁹⁾، التقديم والتأخير⁽¹⁰⁾، الإيجاز والمساواة والإطناب⁽¹¹⁾، الاستعارة⁽¹²⁾، الاستفهام⁽¹³⁾، النهي⁽¹⁴⁾، صيغ التفضيل⁽¹⁵⁾، السياق⁽¹⁶⁾، الالتفات⁽¹⁾، بلاغة القصر⁽²⁾، والوصف⁽³⁾، والمقابلة⁽⁴⁾، الترتيب النحوي⁽⁵⁾، الاحتباس⁽⁶⁾، قضايا معجمية كالاشتقاق⁽⁷⁾، وقضايا وقضايا نحوية⁽⁸⁾، وغيرها كثير

- 1- مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 152.
- 2- النبأ العظيم، ص 165-169، 173، 198 وغيرها، وحصاد قلم، ص 168 وزاد المسلم للدين والحياة، ص 141.
- 3- زاد المسلم للدين والحياة، ص 150، 151، وحصاد قلم، ص 161، 166، 180، 203، 227، 228.
- 4- مدخل إلى القرآن الكريم: ص 125. و النبأ العظيم، ص 144، 151، 152، 155، 159، 170، وغيرها.
- 5- دستور الأخلاق في القرآن، ص 663، 664، 667، وحصاد قلم، ص 143، 168 وغيرها.
- 6- دستور الأخلاق في القرآن، ص 371، 473، 474، و النبأ العظيم، ص 151، 155، وغيرها.
- 7- النبأ العظيم، ص 165، 169، 202، 205 وغيرها، وزاد المسلم للدين والحياة، ص 46، 78، وغيرها.
- 8- حصاد قلم، ص 179، 199، 211، 234، 237، والنبأ العظيم، ص 102، 103، 149، 167 وغيرها.
- 9- دستور الأخلاق في القرآن، ص 158، 415، 433 وغيرها.
- 10- حصاد قلم، ص 147، 162، 170، 156، 208، 155، و النبأ العظيم، ص 162، 164، وغيرها.
- 11- النبأ العظيم، ص 162، 164، وغيرها.
- 12- دستور الأخلاق في القرآن، ص 260، 327، 447، 495، وحصاد قلم، ص 144، 181، 202، 233 وغيرها.
- 13- حصاد قلم، ص 152، 209، 222، وغيرها.
- 14- زاد المسلم للدين والحياة، ص 38، 39، 45، 46، وغيرها.
- 15- دستور الأخلاق في القرآن، ص 522، 535، وحصاد قلم، ص 164.
- 16- دستور الأخلاق في القرآن، ص 373، وحصاد قلم، ص 170، 199، 211، 236، وغيرها، والنبأ العظيم، ص 50، 76، 153، 156، 171، 174، 203، 204، 287، وغيرها.

المطلب الثالث: الأحكام الفقهية والمباحث الأصولية والمقاصد التشريعية في تفسيره.

تعرض دراز -رحمه الله- في مؤلفاته القرآنية -خاصة الدستور- لموضوعات كثيرة من أبواب الفقه الإسلامي القديمة منها والحديثة، وأضاف إلى ذلك موضوعات أخرى من الأحكام القضائية والدستورية، ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالموضوعات الخمسة الرئيسية (النية، المسؤولية، الواجب، الجهد، والجزاء) التي بلورت النظرية الأخلاقية القرآنية، فتناول كل ذلك بعقلية المجتهد الناقد الذي لا يتقيد فيها بمذهب معين، ولا يكتفي بترديد الآراء القديمة من المذاهب، بل يعرض أهمها عرضاً أميناً، ويناقش أدلتها، وينتقد آراءها، ثم يرجح ما يراه موافقاً لروح التشريع العام، ومسائراً للدليل الشرعي دون تعصب أو انحياز.

هذه العقلية الفقهية الفذة قد كوّنت ملكاتها الفكرية الاجتهادية من التعمق في فقه أصول التشريع، وكلياته الكبرى، ومقاصده العامة، وحكمه وأسراره العامة والخاصة على مستوى الأنفس والآفاق، وقد ساعد على ذلك -أيضاً- تمكنه من القواعد الأصولية، ومسالكها الاستنباطية؛ إذ أن هذه العقلية العلمية هي التي تعصم صاحبها من الخطأ في التفكير أو في الاستدلال، ومن خلالها تراءى لنا أن دراز لم يعرض الفقه على أنه نتاج فكر مذهبي محلي في بيئة معينة، بل أطلقه فكراً عالمياً، ينطلق من النص، ويغور في أعماقه وأسراره، ويناقش به الأفكار الإنسانية إسلامية كانت أو غربية.

فكان من أهم القضايا التي ناقشها مع فلاسفة الغرب آنذاك: تعدد الزوجات، وانتشار الإسلام بالسيف، وانقطاع الوحي أو استمراره.⁽⁹⁾

و إضافة إلى ذلك اهتم بالرؤية الكلية التي تندرج تحتها المسائل الفقهية؛ فمن ذلك بيان سلم الحقوق والواجبات، كما في تفسيره لآية القسط⁽¹⁰⁾، حيث قال: «ذلك أننا لو أحصينا أوامر الشريعة

¹ - حصاد قلم، ص 176، 209، والنبأ العظيم، ص 154، 174، وغيرها.

² - حصاد قلم، ص 184.

³ - دستور الأخلاق في القرآن، ص 411، 415، و حصاد قلم، ص 171.

⁴ - النبأ العظيم، ص 158، وحصاد قلم، ص 187.

⁵ - النبأ العظيم، ص 135، 155، 156، 166، 196، وغيرها، وحصاد قلم، ص 209، 236، وغيرها.

⁶ - النبأ العظيم، ص 158، وحصاد قلم، ص 171، 196.

⁷ - دستور الأخلاق في القرآن، ص 473، 474.

⁸ - النبأ العظيم، ص 155، 158، 159، 166، 168، و حصاد قلم، ص 195، 199، 207 وغيرها

⁹ - يراجع كتابه: مدخل إلى القرآن الكريم، ص 28، 31، 55، 68، 163، 166.

¹⁰ - في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ» [المائدة/ 8].

ووصاياها، لوجدناها ترجع إلى أصلين عظيمين، الأصل الأول، أداء الحقوق الإلهية...، الأصل الثاني: رعاية الحقوق الإنسانية...»⁽¹⁾ ومنها تأصيل القواعد الكبرى للتشريع، كقوانين الاستخلاف⁽²⁾، وتحديد المفاهيم كالفطرة والأفضلية وعلاقة الإنسان بربه، وحقيقة الخطاب الشرعي⁽³⁾، والقوانين والسنن والسنن الكونية⁽⁴⁾، والاجتماعية⁽⁵⁾، وغير ذلك.

فمن الأحكام الفقهية التي درسها، أحكام الصلاة، الصيام، الحج⁽⁶⁾، النية والعبادات⁽⁷⁾، التكليف⁽⁸⁾، الزكاة⁽⁹⁾، البيوع⁽¹⁰⁾، العقود الربوية⁽¹¹⁾، الزواج والطلاق⁽¹²⁾، القتل والقصاص⁽¹³⁾، أحكام اليمين⁽¹⁴⁾، الحدود و التعزيرات⁽¹⁵⁾، كسب الموارد وتسييرها⁽¹⁶⁾، الاعتكاف⁽¹⁷⁾، السفر والقصر⁽¹⁸⁾، أحكام الحرابة⁽¹⁹⁾، الإكراه على المعاصي⁽²⁰⁾، وغير ذلك.

من أمثلة ذلك بيانه أسرار تعدد زوجات النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ إذ قال: «وإذا بحثنا الظروف التي عقدت فيها زيجاته الأخرى، نجد أن أغلبها فرضت عليه، ليس بدافع من ضرورة تشريعية

1- حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 143.

2- دستور الأخلاق في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ص 448.

3- المصدر نفسه، ص 289، 405، 434، 622.

4- المصدر نفسه، ص 408.

5- المصدر نفسه، ص 406، 487، 495.

6- نظرات في الإسلام: محمد عبد الله دراز، ص 32، 654.

7- دستور الأخلاق في القرآن: ص 431، 463.

8- المصدر نفسه، ص 433.

9- المصدر نفسه، ص 426، 435، 616.

10- المصدر نفسه، ص 552-553.

11- المصدر نفسه، ص 555، و النبأ العظيم، ص 281.

12- مدخل إلى القرآن الكريم، ص 109، والدستور، ص 548.

13- دستور الأخلاق في القرآن، ص 426، و مدخل إلى القرآن الكريم، ص 109.

14- دستور الأخلاق في القرآن، ص 174، 558.

15- المصدر نفسه، ص 262، 407.

16- المصدر نفسه، ص 488.

17- المصدر نفسه، ص 651.

18- المصدر نفسه، ص 663.

19- المصدر نفسه، ص 231.

20- المصدر نفسه، ص 203-204.

مشابهة، وإنما لاعتبارات إنسانية سامية، مثل مواساة وتشريف زوجة شهيد، أو مهاجر مات بين أصحابه...»⁽¹⁾.

ومن الموضوعات القانونية والدستورية التي تناولها: المسؤولية الجنائية والمدنية⁽²⁾، الواجب الفردي والواجب العام⁽³⁾، والحق العام والحق الخاص⁽⁴⁾، شروط الأهلية⁽⁵⁾، حيل قانونية⁽⁶⁾، الشخصية التكليفية والشخصية الوضعية⁽⁷⁾، العقاب والعفو⁽⁸⁾، قوانين دستورية⁽⁹⁾، وغيرها.

كما كان من منهج دراز الفقهي أنه يربط الأحكام الشرعية بقواعدها الفقهية والأصولية، وحكمها وأسرارها التشريعية، فمن القواعد التي تضمنها كتابه الدستور، تجنب أسوأ

الشرّين، وتقبل أخفهما⁽¹⁰⁾، حجم المشقة وتيسير التكاليف⁽¹¹⁾، حدود التيسير⁽¹²⁾، قاعدة تداول الأموال وتوزيع الثروة⁽¹³⁾، قاعدة التدرج⁽¹⁴⁾، وغيرها.

ومن القواعد الأصولية الموظفة عنده: الإطلاق والتقييد⁽¹⁵⁾، الإبهام والتفسير⁽¹⁶⁾، العموم والخصوص⁽¹⁷⁾، العزائم والرخص⁽¹⁾، مسالك الاستنباط⁽²⁾، التعليل بالقياس⁽³⁾، وبالمصالح⁽⁴⁾، تعارض

¹ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 166.

² - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 426.

³ - المصدر نفسه، ص 451.

⁴ - المصدر نفسه، ص 427، 429.

⁵ - المصدر نفسه، ص 429.

⁶ - المصدر نفسه، ص 553.

⁷ - المصدر نفسه، ص 435، 436.

⁸ - المصدر نفسه، ص 267، 268.

⁹ - المصدر نفسه، ص 262، 427.

¹⁰ - مصدر سابق، ص 508.

¹¹ - المصدر نفسه، ص 655.

¹² - المصدر نفسه، ص 657.

¹³ - المصدر نفسه، ص 495.

¹⁴ - المصدر نفسه، ص 621، 649، 83، 265.

¹⁵ - المصدر نفسه، ص 153، 174، 209، 433، 653.

¹⁶ - المصدر نفسه، ص 158، 166، 231، 467، 653.

¹⁷ - المصدر نفسه، ص 159، 215، 263، 652.

تعارض الأدلة⁽⁵⁾، تحقيق المناط والعلل⁽⁶⁾، مصادر التشريع⁽⁷⁾، التعليل التعبدي⁽⁸⁾، مفهوم المخالفة⁽⁹⁾، سد الذرائع⁽¹⁰⁾، الصحة والبطالان⁽¹¹⁾، وغيرها.

فمن أمثلة ذلك تناوله لموضوع تعارض المشقة مع الواجبات الشرعية المنوطة بالمكلفين، أي: تعارض الضرورة مع التكليف ضمن مبحث الجهد من كتابه "دستور الأخلاق في القرآن"، فقد استطاع بنظره الشامل، وحاسته الاجتهادية، وفقه بالمقاصد والواقع، أن يجمع بين النصوص الشرعية هنا، بين نصوص التكليف ونصوص الرخص، يقول في ذلك: «إننا لو تأملناه من قريب لرأينا أن الضرورة لم تلغ التكليف، وإنما هي ترفع أثر المخالفة فحسب، فمتى وقعت هذه المخالفة عفا الله عنها، «وَمَنْ يُكْرِهَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [النور/ 33]...» ثم بين مجالات الجهد في الإسلام، وحدود التيسير والاعتدال...⁽¹²⁾

ومن معالم نظره الفقهي المتميز، تحديده لمفهوم الاجتهاد، وصفات المجتهدين، فالمجتهد الذي يعتبر قوله في الإجماع هو الذي حاز «صفة العالم المتخصص في المادة، أعني أن يحقق الشروط المطلوبة فيمن يكون له حق الرجوع مباشرة إلى المصادر، ليستقي منها الأحكام على منهج العلماء». ⁽¹³⁾

و أما عن شروط المجتهدين، فيقول: «ويلزمهم بعد ذلك أن يعرفوا اللغة معرفة عميقة، في أسلوبها الحقيقي، وفي أسلوبها المجازي، وأن يحسنوا إدراك الأفكار الأساسية، والأفكار الثانوية... ويلزمهم فضلا عن ذلك أن يكونوا على قدم راسخة في تاريخ التشريع الإسلامي للمسألة، وأن يحيطوا بأسباب النزول،

¹ - المصدر نفسه، ص 206، 434، 540، 655.

² - المصدر نفسه، ص 621.

³ - المصدر نفسه، ص 55، 158، 228، 230، 266، 559، 642.

⁴ - المصدر نفسه، ص 328، 407، 408، 543.

⁵ - المصدر نفسه، ص 204، 274، 507، 655.

⁶ - المصدر نفسه، ص 433، 501، 556، 559، 580.

⁷ - المصدر نفسه، ص 37، 46، 146، 432، 543، 616.

⁸ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 192.

⁹ - المصدر نفسه، ص 163، 174.

¹⁰ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 439، 551.

¹¹ - المصدر نفسه، ص 574، 665.

¹² - مصدر سابق، ص 655، 657.

¹³ - المصدر نفسه، ص 46.

وبالناسخ والمنسوخ إن وجد، وأخيرا يجب أن يتعمقوا روح الشرع، وغاياته التي يهدف إليها، من خلال تطبيقاته على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحابته». (1)

و إن من الصفات التي يجب أن يتحلى بها المجتهد: العلم (2)، والصرامة (3)، التعقل (4)، الإخلاص والحرية (5)، والنقد البناء (6)، وغير ذلك.

ولم ينس دراز التحلي بهذه الصفات في دراساته العلمية، ففي عرضه لآراء المذاهب الفقهية (7) والغريبة (8)، نراه يعرضها بأمانة تامة، ثم ينقدها نقدا علميا من كل جوانبها، ويرجح منها ما يراه موافقا لروح النصوص والشريعة الإسلامية.

فمن ذلك مثلا تناول الخلاف الفقهي المشهور بين المالكية والشافعية والحنابلة من جهة، والأحناف من جهة مقابلة حول اشتراط النية في الوضوء والغسل، وقد كان من أمانته وعلمه وإخلاصه أنه عرض رد الأحناف أو ما أسماه بـ "أتباع الفقه العراقي" على أي استثناء من شأنه أن يقوض المبدأ العام للنية الذي أعلن عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه لازم لا ينفصل عن كل نشاط أخلاقي. (9)

يقول في ذلك: « فبدأوا بتبني التأويل الشائع للحديث عن النية، وأن بطلان العمل غير المصحوب بالنية هو وجه من وجوه الكلام فحسب ... وهكذا يقررون مع خصومهم في الرأي أن الواجب الذي لا يؤدي بحضور القلب، بل باعتباره أمرا لن تكون له قيمة إيجابية ... ولكنهم لا يرونه باطلا مطلقا، أو ذنبا ...» (10)

¹ - المصدر نفسه.

² - المصدر نفسه، ص 262.

³ - المصدر نفسه، ص 263.

⁴ - المصدر نفسه، ص 265.

⁵ - المصدر نفسه، ص 444.

⁶ - المصدر نفسه، ص 46.

⁷ - ينظر: المصدر نفسه، ص 231، 235، 262، 270، 432، 551، 557، 559، 663.

⁸ - ينظر: المصدر نفسه، ص 57، 67، 99، 118، 150، 178، 189، 227، 267، 339، 410، 438، 458،

481، 581، 606، 671، وغيرها.

⁹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 432.

¹⁰ - المصدر نفسه، ص 432 - 433.

ثم يعرض لهم تفسيراً آخر في قوله: «فإذا أتى هؤلاء الشراح إلى افتراض أن الحديث ينص على الإبطال الكلي للعمل غير المصحوب بالنية، التزموا بتقييده، حيث يطبقونه فقط على الواجبات الأساسية التي يؤمر بها لذاتها...»⁽¹⁾.

ثم يعقب عليه برد عقلي مكين ومنهجي، فيقول: «هذا التفسير المزدوج لا يبدو لأعيننا كافياً، لأنه في جزئه الأول يهمل المعنى الحقيقي للكلمات دون ضرورة ظاهرة، وهو في جانبه الثاني يستبعد جميع الواجبات المساعدة بصورة منهجية...»⁽²⁾.

ثم يغوص في استجلاء أسباب الخلاف وتحريم محل النزاع، فيقول: «وعلى ذلك فإننا نعتقد أن هذه الاستثناءات كلها تقوم على سبب عميق هو أننا ندرك أحياناً من وراء الواجب الإيجابي الفعال الذي يقتضي بالإجماع حركية الإرادة ضرورة أخرى سلبية أو منفعة...»⁽³⁾.

و من عباراته في تتبع حكم التشريع: «ولندكر أن تعبير القرآن - مع ذلك - يبدو أنه يفتح

الباب لهذا الإجراء على أنه غاية التطور التشريعي في هذا الموضوع»⁽⁴⁾.

وذلك أثناء عرضه لموضوع حدود العرض كالزنا والقذف وغير ذلك.

و قد بين أيضاً بعض حكم القتال في الإسلام بقوله: «نعتقد أنه قد وضح الآن: وهو إبعاد الخطر، فالإسلام يدين روح التدبير وروح السيطرة...»⁽⁵⁾، ثم يستشهد لذلك بأن الفتوحات الإسلامية الإسلامية قد حققت استتباب النظام والأمن وحقن الدماء، في حين أن حركة الإصلاح البروتستانتي قد كلفت أوروبا الكثير من الضحايا والأموات.⁽⁶⁾

المطلب الرابع: المنهج العقلي في تفسيره.

¹ - المصدر نفسه، ص 433.

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر نفسه، ص 434.

⁴ - مصدر سابق، ص 265.

⁵ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 65.

⁶ - المصدر نفسه، ص 68.

للعقل مكانة مرموقة، وقيمة عالية - في نظر دراز - في القرآن الكريم، بله في الشريعة الإسلامية عموماً، تتجلى هذه القيمة في تأسيس القرآن نظرياته العلمية على أسس العقل وقواعده المنطقية، وفي ذلك يقول دراز: «ولقد رأينا في الواقع مدى العناية التي يلتزم بها القرآن، وهو يصوغ أوامره، فهو يحرص على مطابقتها للعقل، وللحكمة وللعدالة وللإستقامة، إلى جانب قيم أخرى يتكون منها بناء الضمير الأخلاقي ذاته».⁽¹⁾

وقد بين أن العقول «وسيلة العلم الباطني»⁽²⁾، الذي يقوم على التأمل والتدبر الموصل إلى طريق الإيمان بالله تعالى؛ فمن حرم نفسه توظيفه توظيفاً أمثلاً لم يستطع أن يتقدم خطوة نحو الإيمان، بل إن الكفار يوم القيامة تنقطع معاذيرهم أمام الله، إذ وهب لهم عقولاً فلم يتفكروا بها في صدق دعوة المرسلين.⁽³⁾

وعلى هذا بنى دراز منهجه في تدبر آيات القرآن الكريم، خاصة الكونية منها، وفي تحديد ومناقشة التصورات الفكرية لبني الإنسان؛ بل إنه يؤكد أن ذلك منهج القرآن الذي «يعتمد في مناقشاته على المنطق وأحاديث الأنبياء ليعيد المشركين الضالين إلى حظيرة التوحيد».⁽⁴⁾

وما المنطق - في نظر دراز - إلا متمثلاً في تلك القوانين العقلية العامة المتفق عليها، ومن ذلك ذكر دراز قانوني استحالة التناقض، والثالث المرفوع لما عالج مسألة تعارض الإرادة مع العقبات في إنفاذ الجهد؛ إذ قال في ذلك: «فإما أن يبدو لنا توقع هذه العقبات العصبية في اللحظة التي تتحفز فيها الإرادة نحو التنفيذ، وبذلك يحتنق عمل الإرادة في المهد؛ إذ أنه من التناقض أن نريد ما لا يمكن إرادته».⁽⁵⁾

غير أنه أوضح كثيراً قصور العقل عن إدراك المسائل الغيبية خاصة، وأن النص مقدم عليه في ذلك؛ إذ هو مقتبس ممن يسميه دراز بـ "العقل العلوي"، أو "العقل الإلهي"⁽⁶⁾، المتسم بالنور اللاهوائي، و «الذي يمكن أن يحل محل النور الفطري»⁽⁷⁾، ولا شك أيضاً كما قال أن «تفسير الكون عن طريق

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 406.

² - حصاد قلم: محمد دراز، ص 182.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 172.

⁴ - دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية: محمد دراز، ص 19.

⁵ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 448، وأيضاً ص 479.

⁶ - المصدر نفسه، ص 34.

⁷ - المصدر نفسه.

الدين نابع من عقل أكمل من عقل العلم»⁽¹⁾، ولهذا وجب تقديم السمع على العقل⁽²⁾؛ ذلك «أن العقول البشرية لها في إدراك الأشياء طريق معين تسلكه، وحد محدود تقف عنده ولا تتجاوزه»⁽³⁾، من مقدرات الحس أو الخيال، ومع ذلك فإن تلك العقلية «مستمدة في غالب الأمر على خطأ الحس أو سوء الخيال»⁽⁴⁾.

إنما تكمن وظيفة العقل - عنده - في استثمار الأرض والانتفاع من خيراتها والأكل من رزقها، قياما بواجب الجهد وانتفاعا بحق التسخير⁽⁵⁾، وذلك حظه في الدنيا ثم الحرص على نجاة نفسه وسعادتها، وذلك بالتعرف على ما في أحداث يوم القيامة «من خطر جاثم أو أمل يسعى للحصول عليه»⁽⁶⁾، وذلك حظه في الآخرة.

وفي هذا وجب - عند دراز - التفريق بين العقل الخالص وبين العقل الفاسد بأوهام العادات، وسلطان المنفعة المادية، فهو: «عقل ساقط فاسد، لكثرة ما سخر نفسه لخدمة الغريزة البهيمية ... وحين يستأثر العقل في زهو بسلطة حسم النقاش ألا يجعل من نفسه بذلك حكما وخصما في آن؟»⁽⁷⁾.

غير أننا لاحظنا أن دراز - في بعض الأحيان - يخرج عن هذا المنهج الذي قرره والتزم به، فلا ينزل العقل منزلته الثانية بعد النص؛ بل إنه يحتكم إليه في تأويل بعض العقائد الغيبية الثابتة من طريق المنقول، فمن ذلك أنه أول صفة العلو لله تعالى أثناء تفسيره لقوله تعالى: «أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ» [الملك/16]، يقول في ذلك: «فإن رب العرش كما وصفه القرآن لا يحده زمان ولا مكان ... وكل دلائل العقل والنقل تدفع هذه الصورة المحدودة وترشد إلى أن التعبير ... توجيهه للبصائر إلى معنى العظمة والعلو اللائقين بجلال الله تعالى»⁽⁸⁾.

المطلب الخامس: التفسير بالمأثور والتفسير العلمي.

¹ - مدخل إلى القرآن الكريم: دراز، ص 82.

² - حصاد قلم، دراز، ص 172، 215.

³ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 68.

⁴ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 166.

⁵ - المصدر نفسه، ص 176.

⁶ - المصدر نفسه، ص 184.

⁷ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز ص 404.

⁸ - حصاد قلم: محمد دراز، 177.

التفسير المأثور كما عرفه غير واحد - «ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نقل عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وما نقل عن الصحابة والتابعين (على خلاف في ذلك)، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله من نصوص كتابه»⁽¹⁾.

وفي هذا الصدد يستبعد صلاح عبد الفتاح الخالدي تفسير القرآن بالقرآن عن دائرة المأثور، لأنه ثابت يقينا لا يحتاج إلى تمحيص⁽²⁾، ويرد عليه بالتسمية الأخرى "التفسير النقلي"⁽³⁾.

وقد اعتمد دراز كثيرا على التفسير بالمأثور بطرقه الثلاثة في جميع مؤلفاته العلمية، لكن بدرجة متفاوتة، ومرتبة فيما بينها؛ فالأصل القرآن ثم السنة ثم أقوال الصحابة والتابعين، فإن لم يجد فلا أقل من أن يستأنس بإجماع العلماء وآرائهم التفسيرية لتلك الآية.

يقول دراز: «ها هنا إذا وحيان سماويان، كلاهما منزل من عند الله بشهادة القرآن، أحدهما: وحي نصي حربي ... ذلك هو القرآن الكريم، والثاني وحي معنوي توجيهي ... وهذا هو السنة المطهرة»⁽⁴⁾، ويضيف إلى ذلك: «هكذا تبين لنا أن القرآن الحكيم ... هو الذي جعل هذه التشريعات النبوية كلها بيانا وتفصيلا لما جاء به الدستور القرآني نفسه»⁽⁵⁾، كما يؤكد أننا يجب أن نبدأ بالقرآن أولا «والحق أن جميع العلماء متفقون على أن يروا في تعاليم السنة العملية أو مأثور النبي - صلى الله عليه وسلم - مصدرا ثانيا عظيم الأهمية للشريعة الإسلامية بعد القرآن كلمة الله»⁽⁶⁾.

ومحمد دراز من رجال المدرسة العقلية الحديثة⁽⁷⁾، المكثرين من الاحتجاج بالروايات المأثورة الثابتة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وله في ذلك نظرات ناقدة في أسانيد هذه الروايات، ونظرات

¹ - التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، مكتبة مصعب بن عمير، 2004 م، 1/112.

² - تعريف الدارسين بمنهج المفسرين، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 200.

³ - أصول التفسير وقواعده، خالد عبد الرحمن العك، ص 111-112.

⁴ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 244.

⁵ - المصدر نفسه، ص 246.

⁶ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 37.

⁷ - قد أخطأ فهد الرومي تعميمه أن رجال هذه المدرسة يقللون من التفسير بالمأثور، ومؤلفات بعضهم ترد عليه، وذلك في كتابه:

اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ط 3، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1997 م، 2/743.

أخرى ثابتة في فقه هذه الأحاديث، ثم بدرجة أقل احتجاجه بأقوال الصحابة والتابعين⁽¹⁾، وأما القرآن فلا تكاد تخلو منه صفحة من صفحات مؤلفاته.⁽²⁾

و هو القائل عن تفسير القرآن بالقرآن: [2] «والآيات القرآنية لا تعالج هذه الفكرة (الجزء الإلهي) بنفس الطريقة، فبعضها لا يعطينا منها سوى فكرة عامة غير محددة، والآخر يمنحها تحديدا يتفاوت في درجة دقته...». ⁽³⁾

فمن أمثلة تفسير القرآن بالقرآن، وقوفه مليا عند قوله تعالى: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» [القلم/04]، في تفسير خلق النبي - صلى الله عليه وسلم - المبثوث في آيات القرآن الكريم، يقول في ذلك «... وأي خلق أعظم من خلق القرآن، الذي كان هو خلقه عليه الصلاة والسلام، «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» [الأعراف/199]. «فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» [آل عمران/159]. «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» [التوبة/128]. ⁽⁴⁾

ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة تفسيره لقوله تعالى: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ» [المؤمنون/60].

قال دراز: «أخرج الحاكم بإسناد صحيح عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قلت يا رسول الله، قول الله تعالى: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ» [المؤمنون/60] أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال -عليه الصلاة

¹ - يراجع نقده للحديث سندا ومتنا مثلا: دستور الأخلاق في القرآن، ص 271، 547، 266، وغيرها.

² - ينظر: دستور الأخلاق في القرآن: ص 64، 86، 138، 165، 238، 278، 329، 363، 453، وغير ذلك، وحصاد قلم، ص 138، 140، 162، 164، 186، 197، 227، وغيرها. والنبأ العظيم، ص، 54، 67، 72، 91، 113، 167، 169، 205، 125، 26، وغيرها. وزاد المسلم للدين والحياة، ص 62، 84، 108، 134، 171، 200، 217، وغيرها.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 363.

⁴ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 197.

والسلام- « لا، ولكن الرجل يصوم ويصلي ويتصدق وهو مع ذلك يخاف ألا يتقبل الله منه»⁽¹⁾
(2)

و من ذلك أيضا تفسير قوله تعالى: «ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقَرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ» [الأنعام/ 131]، يقول في ذلك: «وقد أكملت السنة النبوية لحسن الحظ هذا الإيجاز في النص، واستخرجت منه صراحة نتائجها، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المبتلي حتى يبرأ، وعن الصبي حتى يكبر (يحتلم)»⁽³⁾⁽⁴⁾، إلى غير ذلك من الأمثلة التي تكون السنة المطهرة من خلالها مفسرة لمجمل القرآن، أو موضحة لمبهمه، أو مخصصة لعامه، أو مقيدة لمطلقه، أو حتى مستقلة بأحكام وتفسيرات لم ترد في القرآن الكريم.⁽⁵⁾

و من أمثلة تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين، قوله تعالى: «وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا» [البقرة/ 25]، حيث قال: «وقد استطاع ابن عباس أن يقول: «إنها ليس لها منها سوى الاسم»، وفي موضع آخر: «مما جعل ابن عباس يقول وهو من أصوب المفسرين رأيا بين صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: «ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء»⁽⁶⁾

وأما التفسير العلمي الذي هو تحكيم الإصطلاحات العلمية في عبارات القرآن⁽⁷⁾، أو الاستناد إلى حقائق العلم التجريبي ونظرياته في شرح آيات الطبيعة والإنسان والتي وردت في القرآن الكريم في

¹ - صحيح : أخرجه الحاكم في المستدرک علی الصحیحین، قال: صحیح علی شرط الشیخین ولم یخرجاه، وقال الذهبي: صحیح، تحقیق حمدي الدمرداش محمد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2000م، كتاب التفسير، الباب 23، تفسير سورة المؤمنون، حديث 3486، 4/1308.

² - زاد المسلم للدين والحياة: محمد عبد الله دراز، ص 84-85.

³ - روي بألفاظ كثيرة، فأما هذا اللفظ فصحيح، رواه أبو داود في سننه (الحدود)، باب في الجنون يسرق أو يصيب حدا، دار الجنان، رقم 4398، 2/544، والنسائي (الطلاق)، باب من لا يقع طلاقه من الأزواج، رقم 3432، صحيح سنن النسائي: الألباني، مكتبة المعارف، 2/478، وغيرها، ينظر: جامع الأصول من أحاديث الرسول: ابن الأثير، المكتبة التجارية، 3/506، 611.

⁴ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 166.

⁵ - يراجع دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 101، 148، 160، 200، 249، 270، 343، 431، 473، 563، 597، 614، 664، وغيرها. وحصاد قلم: محمد دراز، ص 140، 162، 169، 186، 197، 207، وغيرها.

⁶ - يراجع: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، تح، حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط1، 2003م، 1/102، وهو في كتاب: دستور الأخلاق في القرآن، ص 387، 415، 416.

⁷ - التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، 2/180.

سياقات شتى⁽¹⁾، فإنه بخلاف الإعجاز العلمي الذي يعنى بطريقة القرآن في التعبير عن الحقائق العلمية دون نظرياته وفرضياته.⁽²⁾

وهذا الذي وضح في منهج دراز التفسيري، فلم يتجاوز شرح الحقائق العلمية المجملة في القرآن الكريم إلى ذكر آراء علماء الكون والإنسان مثلاً، والتي قد لا تتعدى مجال النظريات أو الفرضيات.

وقد لاحظنا أن دراز قد أوضح السنن الكونية والشرعية في القرآن من تسخير وتعمير واستخلاف، وموقف القرآن من هذه العلوم، وذلك قبل أن يشرح حقائقها القطعية الواردة في القرآن الكريم؛ إذ قال مثلاً: «وفيما يتعلق بنمو الزراعة، والتجارة، والصناعة، وتطور الكشف والحضارة بعامة، نجد (القرآن) يدعونا دائماً إلى تحقيقه... (فكل) ما يوجد في الأرض، وعليها، وكل ما يوجد في البحر والهواء، مسخر للناس من لدن العناية الإلهية».⁽³⁾

والقرآن الكريم - كما يرى دراز - إنما أشار إلى هذه الحقائق العلمية المركوزة في الأرض والسموات من أجل دلالة الناس على خالقهم، وهدايتهم بها، وتحقيق السعادة لهم المادية والروحية معاً، ولذا قال: «وليس للعلم أو الصناعة من غاية في سعيهما غير هذه الغاية».⁽⁴⁾

وقد أشار إجمالاً إلى الإعجاز العلمي في كتابه "النبأ العظيم"⁽⁵⁾، وفصل القول في مؤلفات أخرى⁽⁶⁾؛ فمن ذلك توقفه عند الإشارات العلمية، في قوله تعالى: «وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ» [يس / 33].

يقول في ذلك: «ولكن صياغتها على أدق وجوه التعبير العلمي، تجعل للعلماء في كل آية منها آيات... فهل عرف علماء النبات منذ كم قرن كشف لنا القرآن ما اكتشفوه هم؟ من اشتمال النبات

¹ - مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه: عدنان محمد زرزور، دار القلم، دمشق، ط2، 1998، ص 231.

² - ينظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل: عبد الرحمان الميداني، دار القلم، دمشق، ط3، 2005، ص 232، 233.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 487 - 488.

⁴ - المصدر نفسه، ص 376.

⁵ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 108.

⁶ - يراجع: مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 81، 84، 187. وحصاد قلم، ص 151، 165، 166، 175، 178،

183، 187، 223.

على أعضاء تناسلية، أعضاء تذكير، وأعضاء تأنيث، وأن ظهور الثمرة إنما يكون بالتزاوج بينهما...»⁽¹⁾، إلى آخر ما قاله هنا.

والملاحظ أن دراز لا يفصل كثيرا في هذه الشروحات العلمية لهذه الحقائق القرآنية، وإنما يقتصر على الإجمال بقدر ما يكشف ذلك عن هدايات الله تعالى في الأنفس والآفاق.

لما شرع الحديث عن الآيات الكونية في سورة النبأ مثلا، قال في ذلك مبينا الحكمة القرآنية منها: «نرى القرآن الحكيم يسرد علينا من براهين قدرة الله، ودلائل حكمته، ومظاهر عنايته ما فيه مقنع لمن يتبغي الحق في شأن هذه النشأة الأخرى»⁽²⁾، ثم ذكر الحقائق العلمية للأرض والجمال ونظام الزواج، والنوم، وغير ذلك، فمنهج دراز في هذا الباب الإجمال والاقتصار على الحقائق العلمية وربطها بهدايات الله تعالى.⁽³⁾

المطلب السادس: منهجه في علوم القرآن.

الفرع الأول: وجوه الإعجاز في تفسيره.

أكثر دراز القول في إعجاز القرآن الكريم، ورأى من خلاله المعجزة الكبرى والحجة البالغة في بيان أن هذا القرآن كلام الله تعالى، وأن محمد -صلى الله عليه وسلم- رسول من الله، حملة تبليغ هذا القرآن إلى الناس كافة.

وهو يرى -أيضا- أن في الإعجاز «منهج القرآن الكامل (الذي) ينهض دليلا كافيا على مصدره الرباني»⁽⁴⁾، أي: أن الإعجاز عنده -ضربان-: داخلي وخارجي؛ فالأول منهما يعبر عن وجوه الإعجازية من ذاته استقلالاً، والثاني يتجسد في رد شبهات أعداء الإسلام عنه، وتصحيح مفاهيمهم حول مصدره، وحول علاقة الوحي الإلهي بشخصية النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وقد أحصى دراز وجوها كثيرة لإعجاز القرآن الكريم، خص ثلاثة منها بالتفصيل والتأصيل، من غير إقصاء الوجوه الأخرى يقول تحت عنوان "النواحي الثلاث للإعجاز": «فلنأخذ الآن -بعون الله

¹ - حصاد قلم، ص 151.

² - المصدر نفسه، ص 222 - 223.

³ - يراجع: مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 187.

⁴ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 190.

وتوفيقيه- في دراسة هذه النواحي الثلاثة من الإعجاز القرآني: أعني ناحية الإعجاز اللغوي، وناحية الإعجاز العلمي، وناحية الإعجاز التهذيبي الإصلاحي»⁽¹⁾.

و قد أكد أيضا على تعدد وجوه الإعجاز⁽²⁾، فقال ممثلا عن القرآن الكريم أنه اشتمل «على الحكم النظرية والعملية، وعلى العبر الماضية، والنذر المستقبلية، وعلى علوم النفوس والأكوان، وعلى كل ما فيه صلاح المعاش والمعاد...»،⁽³⁾ فالإعجاز القرآني بهذا وجوه متعددة: لغوي، غيبي، علمي، إصلاحي اجتماعي، تأثيري، عقائدي أخلاقي، تشريعي وغير ذلك، غير أنه رأى أن أعظمها أثرا، الإعجاز اللغوي؛ لأن هذه الناحية هي التي وقع من جهتها التحدي بالقرآن جملة وتفصيلا في سورة منه⁽⁴⁾، ثم يليه الإعجاز الأخلاقي التشريعي، حينما قدم القرآن الكريم نظرية كاملة، وإصلاحات عملية للمشكلات الأخلاقية التي عانتها ولا تزال تعانيها البشرية والمجتمعات الإنسانية وسط فوضى وعقم النظريات الإنسانية الفاسدة، يقول دراز: «ولعل هذا الجانب هو السمة البارزة من سمات القرآن»⁽⁵⁾

فمن هذه الوجوه الإعجاز التأثري للقرآن على نفوس وأفئدة المستمعين إليه؛ حيث تمثل ذلك في الإحساس الفطري بهذه الإعجاز خاصة عند العرب الأوائل المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم -، يقول دراز في ذلك: «ولقد أدرك الكفار هذا التأثير في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - واختلفوا في التماس التفسير والتعليل له؛ إذ وجوده ظاهرة غريبة إلى درجة أن أطلقوا عليه "سحرا" وحتى في عصرنا الحاضر... يعترفون بالسمو والجلال والهيبة التي ينفرد بها النص القرآني»⁽⁶⁾.

وفي تفسير قوله تعالى: «لَمَّا سَمِعُوا الذُّكْرَ» [القلم/ 51] يقول: «فيرون فيه ما هو فوق طاقتهم جزالة ورسانة، وصفاء ديباجة، وسحر بلاغة...»⁽⁷⁾.

¹ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 108.

² - حدد دراز الحد الأدنى الذي تنزل إليه التحدي بالإعجاز هو ما يؤدي معنى تاما، سواء في آية طويلة، أو سورة قصيرة، ينظر: المصدر نفسه، ص 142.

³ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 215.

⁴ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 108.

⁵ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 08.

⁶ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 126.

⁷ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 219.

ومن هذا ما يسميه الإعجاز بالقوة المؤثرة؛ إذ قال: «إننا نشعر بقوة التسامي في تلك الآيات المنزلة حتى أنها تتغلغل في نفوسنا»⁽¹⁾، بل فيه قوة تؤثر ولا تتأثر، «وتتضاءل دونها قوة كل عالم، وكل زعيم، وكل شاعر وكاتب»⁽²⁾.

ومن وجوه الإعجاز عنده الإعجاز الغيبي في إخبارات القرآن عن الأنبياء الماضية أو المستقبلية، يقول في ذلك «وتعلن آيات أخرى عن نصر الإسلام، ودوام العقيدة الإسلامية... كذلك تنبأ القرآن بالانشقاق الدائم بين صفوف النصرانية» [المائدة/ 14]، وتشتت الإسرائيليين [الأعراف/ 168]...»⁽³⁾، إلى آخر ما قاله هنا.

وهناك أيضا ما يسمى بالإعجاز العددي للقرآن؛ وذلك كما في تفسيره لقوله تعالى: «الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا» [الملك/ 3]، يقول: «وإنما اختير هذا العدد بالذات لأنه هو الذي يتم فيه التحدي العالمي؛ إذ هو القدر الذي تدركه الأبصار في كل عصر بالعين المجردة...»⁽⁴⁾.

ولكنه -رحمه الله- ركز كثيرا تحليلاته للإعجاز اللغوي والنظمي للمعاني القرآنية الناصعة والخالدة، متأثرا في ذلك بمنهج الجرجاني، والذي أكد إعجاز القرآن في نظمه أو ما يسميه بـ "معاني النحو" أو "المعاني الإضافية"، التي تنشأ عن طريق دقائق التركيب اللغوي للقرآن الكريم.⁽⁵⁾

يقول الزركشي: «... فإنه لا بد من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز من الحقيقة والمجاز وتأليف

النظم... وأن يعتمد ما سبق له الكلام حتى لا يتنافر»⁽⁶⁾.

ولذا لاهتم دراز بإبراز مستويات الإعجاز اللغوي الصوتية والصرفية والنحوية البلاغية والدلالية، وعد من خلالها الكثير من المسائل البلاغية والبيانية الإعجازية، من تناسق أصواته، وائتلاف حروفه

¹ - دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية: محمد دراز، ص 13.

² - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 108.

³ - دراسات إسلامية: محمد دراز، ص 29-30.

⁴ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 166.

⁵ - يراجع: دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 55، 66، 70، 80، 106، 146، وغير ذلك.

⁶ - البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، 1/ 311 النوع 21.

وكلماته، وبلاغة أساليبه البيانية من كتابات واستعارات وتشبيهات واستهلالات، وتقدم وتأخير، وتناسق وتصوير وغير ذلك. (1)

فمن ذلك أنه أبرز بلاغة التقديم والتأخير في قوله تعالى: «وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ، وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» [القلم/ 3-4]، يقول في ذلك: «ولقد كان من قضية الترتيب الوجودي أن يقدم وصف الخلق الحاضر على وعد الجزاء المستقبل، غير أنه قد حولف هذا الترتيب والله أعلم مسارعة إلى الترفيه عن قلب النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - الذي كان لا يلمح في الأفق أملاً قريباً في هداية قومه... وكان مع ذلك صباراً على تلقي الوحي وحفظه والعمل به وعلى تكذيب قومه... فكان في حاجة عاجلة إلى سند نفسي يفتح له باب الأمل في المستقبل البعيد». (2)

ومن أمثلة الإيجاز الذي يعد أبلغ وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن عند دراز برأي بديع واجتهاد جديد لم يسبق إليه، الإيجاز بالحذف في قوله تعالى: «وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» [البقرة/ 91]، يقول: «وانظر إلى الآداب العالية في عرض الجريمة الثانية وهي جريمة الشرك، فإنها كما كانت أغلظ من سابقتها وأشد نكراً في العقول نبه على ذلك ألطف تنبيه بحذف أحد ركنيها، فلم يقل: اتخذتم العجل إلهاً، بل طوى هذا المفعول الثاني استشباعاً للتصريح به في صيغة الأول، وبيانا لما بينهما من مفارقة... وكم في هذا الحذف من تعبير وتهويل!!». (3)

كما ربط كثيرا من المسائل البلاغية والبيانية بموقعية الكلم في النظم القرآني.

الفرع الثاني: أسباب النزول ومناسباته.

¹ - يراجع: النبأ العظيم: محمد دراز، ص 73، 76، 80، 84، 154، 155، 157، 159، 160، 163، 164، وغيرها، وحصاد قلم: ص 144، 148، 152، 161، 164، 166، 171، 177، 179، 196، 197، 199، 209، 222، 234، وغيرها.

² - حصاد قلم: محمد دراز، ص 196-197.

³ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 159.

خص دراز مبحثاً كاملاً من كتابه "حصاد قلم" ⁽¹⁾، للحدّث عن أسباب نزول القرآن الكريم، تأصيلاً للمفاهيم، وتحديد للعبارات، وترجيحاً للروايات، وتنزيلها على الواقع بعد ذلك لعلاج ما يواجه من الناس من المشكلات.

و منهجه في كل هذا التحقيق والتنقيح والترجيح، والتعويل على أسباب النزول وتحكيمها في مواضعها، ثم تعميم معانيها على حالاتها المشابهة لها، وذلك بعد تنقيح أقوال وآراء الفقهاء والأصوليين فيها.

ففي المفهوم يورد تعريفين: أولهما للواحد النيسابوري أنه كل ما كان في عصور نزول القرآن من الأحوال العامة أو الوقائع الخاصة ⁽²⁾، وثانيهما للسيوطي الذي عرفه بقوله: «هو الحادث الذي نزلت الآية أيام وقوعه أو السؤال الذي نزلت الآية عقبه» ⁽³⁾، ثم انتقد تعريف السيوطي وأبدى عليه ملاحظتين:

الأولى: أن من الآيات ما يتراخى نزولها عن أسبابها، مثل قصة الإفك، وليس فقط ما حدده السيوطي من الاتصال الحكمي بينهما.

الثانية: إغفاله الآيات المبنية على العوائد الجارية في الجاهلية؛ إذ هي محل تعويل الفقهاء في تأصيل الأحكام، وذلك زائد على الوقائع الجزئية التي اقتصر عليها السيوطي، دون هذه العوائد التي -ربما- أدخلها في علم التفسير. ⁽⁴⁾

وأما عن الأهمية فقد بين حاجته الأولى «للمفسر باطلاعه على وجهة النص ومغزاه الأصلي» ⁽⁵⁾، كما قال ابن تيمية: «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب» ⁽⁶⁾.

ثم أردف إلى ذلك فائدتين أرفع شرفاً؛ الأولى: تعين الباحث على فهم إعجاز نظم القرآن في مطابقة الكلام لمقتضى أحوال الخطاب، والثانية: تعينه على معرفة علل الأحكام، وضبط مقاصد

¹ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 69، وما بعدها، المبحث السادس.

² - أسباب النزول: الواحد النيسابوري، ص 04.

³ - الإتيان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، 1/ 101.

⁴ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 69-71 بتصرف.

⁵ - المصدر نفسه، ص 71.

⁶ - مقدمة في أصول التفسير: أحمد بن تيمية، مؤسسة الريان، بيروت - لبنان، ط 2، 2001، ص 25.

الشريعة أو استخراج قواعدها القياسية، وضرب لذلك ستة أمثلة مصدقة لهذا التنظير، كما في قول نافع: «كان ابن عمر يرى الحرورية⁽¹⁾ شرار خلق الله، إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين». (2)(3).

ثم درس صيغ أسباب النزول، بنظر منهجي أصولي ثابت، وقسمها إلى ثلاثة أقسام:

- قسم متفق عليه: وهو متمثل في ذكر الصحابي قصة الآية المنزلة، أو أن يصرح بلفظ النزول، أو أن يسوق روايته بصيغة الجزم: ك أنزل الله كذا⁽⁴⁾.
- و قسم متفق على عدم الاعتداد به: وذلك أن يعبر بصيغة أخرى كالقراءة أو التلاوة، أو أن يعبر بصيغة النزول من غير جزم كقوله: أحسب أو أظن. (5)
- وقسم مختلف فيه: وهو ما لا تذكر فيه واقعة ما، بل يكفي بأن يقال: إن الآية نزلت في إباحة كذا أو منع كذا، ورجح أنها لا تعتبر حجة نقلية. (6)

أما إذا تعارضت الروايات في هذا الباب، فقد قدم هنا رؤية أصولية زواج فيها بين الجمع والترجيح بطرق كثيرة من ناحية الصيغة أو من ناحية رجال الأسانيد، والجمع يكون بتعدد الأسباب أو تعدد نزول الآيات، وأورد في ذلك شواهد معروفة عند علماء علوم القرآن في هذا الشأن. (7)

والعجيب أنه يمزج ذلك بآراء هؤلاء العلماء، وينقدها نقداً فقهياً حديثياً، ويخلص بعد ذلك بملخص موجزة جامعة لأرجح الآراء في هذه المسائل العويصة. (8)

وختم هذا المبحث بالمسألة الأصولية الشهيرة في تعارض العموم والخصوص في اختلاف العلماء حولها، وقد وظف في نقد آرائهم عقليته الأصولية المنهجية التي اكتسبها من قراءته العميقة لفقه الشاطبي

¹ - هم الخوارج نسبة إلى حروراء بلد على دجلة و الفرات لجأور و تحصنوا به بعد ما خرجوا على علي ابن أبي طالب فخرج إليهم فيها و قاتلهم حتى شئت شملهم ، وهم فرق كثيرة، منهم الإباضية و الأزارقة و أهمهم المحكمة الأولى، ينظر: الملل والنحل: الشهرستاني، تح محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص 92.

² - يراجع كتاب: الاستدكار: ابن عبد البر، تعليق سالم محمد عطا وآخر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002، 501/2.

³ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 72.

⁴ - المصدر نفسه، ص 75، ويراجع: الإتيقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، 1/ 101.

⁵ - المصدر نفسه، ص 76، و يراجع: الإتيقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، 1/ 102.

⁶ - المصدر نفسه، ص 76، و يراجع: الإتيقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، 1/ 102.

⁷ - المصدر نفسه، ص 76-80، و البرهان في علوم القرآن: الزركشي، 1/ 29 وما بعدها.

⁸ - المصدر نفسه، ص 80-81.

، وقد نقل عنه هنا نصا دقيقا في توزيع النصوص على مراتب العموم الثلاثة، والمسألة تطلب من مظاهرها. (1)

وقد استشهد كثيرا بأسباب النزول سواء في تفسيره التحليلي أو الموضوعي، معمما لمعانيه، شأنه في ذلك شأن المناسبات التنزيلية المعتمدة أيضا في هذا الشأن. (2)

يقول في ذلك: «بل إنه حتى في الحالة التي لا يشتمل نص التشريع فيها على لفظ عام، وحتى لو كان منزلا بمناسبة ظرف فردي، فإنه يعتبر من حيث المبدأ قابلا للشمول». (3)

فمثال استشهاده بسبب النزول ما ورد في تفسيره لقوله تعالى: «**وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ**» [القلم/ 10]، حيث قال: «أكثر المفسرين على أن هذه الأوصاف تشير إلى الوليد بن المغيرة المخزومي، وقيل: هو الأحنش بن شريف... ونحن لا يفيدنا شخص من نزلت في الآيات، وإنما تعينا العبرة في صفاته...». (4)

ومثال استشهاده بسبب النزول حكايته للحوار الذي جرى بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وأم العلاء التي قالت في عثمان بن مظعون - رضي الله عنه - لما توفي: «شهادتي عليك لقد أكرمك الله»، فقال - صلى الله عليه وسلم - : «وما يدريك أن الله أكرمه... ثم قال: والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي...» (5)، ومصادقه في كتاب الله تعالى: «**قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ**» [الأحقاف/ 09]. (6)

الفرع الثالث: التحذير من الإسرائيليات.

¹ - ليس غرضنا هنا سوى التمثيل، وإلا فمن أراد التأصيل لهذه المسألة فليراجع: كتاب الموافقات في أصول الشريعة: للشاطبي، تعليق عبد الله دراز، المكتبة التوفيقية، القاهرة، الفصل الرابع: في العموم والخصوص، 3/ 217 وما بعدها .

² - يراجع دستور الأخلاق في القرآن: دراز، ص 39/ 54، 64، 152، 236، 350، 397، 463، 493، 547، 552، 565، 618، 632، 916، وغيرها، وحصاد قلم: دراز، ص 180، 200، 207، 218 وغيرها، والنبأ العظيم: دراز، ص 54، 56، 57، 60، 62، 71، 76، 80، وغير ذلك.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: دراز، ص 270.

⁴ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 200، والنبأ العظيم: محمد دراز، ص 80.

⁵ - صحيح أخرجه البخاري في صحيحه عن خارجة بن زيد بن ثابت: ك/ الجنائز، ب/ الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه، ط الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 2008، رقم 1، 1242/ 346.

⁶ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 63.

الإسرائيليات هي «مجموعة الأخبار التي أصلها من اليهود، وهذه قد تكون من التوراة على ما دخلها من تحريف، أو مما كتبه عليها من شروح وزيادات وسموه بالتلمود»⁽¹⁾

ومحمد دراز من رجال المدرسة العقلية الحديثة الذين شنوا «حملة شعراء على الإسرائيليات، وحذروا من تناولها في تفسير القرآن الكريم، وعابوا على المفسرين السابقين تناولهم لها، واعتبروا أن هذا خطأ لا يغتفر»⁽²⁾.

ولهذا عزف دراز عن الأخذ بالإسرائيليات مصدرا لتفسير القرآن الكريم⁽³⁾؛ لأنه «لا يمكن قبول مزاعمهم بأن محمد - صلى الله عليه وسلم - كان قد تأثر بتعاليم اليهود بعد هجرته للمدينة المنورة حيث اتصل بأخبار اليهود...»⁽⁴⁾.

فسعي دراز العزوف عن الإسرائيليات كان نتيجة لهدفه العام في إثبات مصدريّة القرآن الكريم، واستقلاله من الأخذ بالتعاليم اليهودية أو المسيحية أو غيرها من الجهات الأخرى.⁽⁵⁾

كيف لا، وهو يرى أن موقف القرآن الكريم منهم كان سلبيا في كثير من آياته المكية قبل المدنية؛ «فقد وصفهم القرآن بالبخل بما عندهم من العلم... ورماهم بتحريف التوراة وبترها، تلبيسا على الناس وكتمانا للحق، كما كان من مقاصد القرآن الكريم بيان ما اختلف فيه أهل الكتاب، وتبين الحق لهم»⁽⁶⁾، فالأصل أن يتلقوا من القرآن الكريم تعاليم الحق، وتفاصيل الهدى، لا أن نقبل بآرائهم في تفسير القرآن المخالف لهم، وعلى سبيل المثال، فإنه يرى أنه لا يمكن الأخذ بالقصص الديني اليهودي والمسيحي، لأن «الرجوع إلى النص القرآني يثبت لنا العكس تماما، فالسور المكية هي التي تعرض أطوار قصص التوراة بتفاصيلها الدقيقة، ولم تترك للسور المدنية سوى فرصة استخلاص الدروس منها...»⁽⁷⁾

¹ - ينظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، ص 12-14.

² - اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: فهد الرومي، 755/2، و منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: للمؤلف نفسه، ط، رئاسة إدارة البحوث العلمية، الرياض، ط2، 1403هـ، 1993م، ص 316.

³ - ينظر: محمد عبد الله دراز، وجهوده في الفقه الإسلامي المعاصر: حافظ محمد منير الأزهرى، دار القلم، الكويت، ط1، 1430هـ، 2009م، ص 97.

⁴ - دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية؛ محمد دراز، ص 88.

⁵ - يراجع: مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 143، وما بعدها.

⁶ - يراجع: النبأ العظيم: محمد دراز، ص 88-92.

⁷ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 168.

ولا يعني هذا عزوفه عن المقارنة بين القرآن والكتب السماوية الأخرى؛ بل قد كان هذا منهجه في إثبات مصدرية القرآن الإلهية، في تقاطع تعاليمه الأخلاقية مع بقايا التعاليم الأخلاقية الصافية في التوراة والإنجيل، في إطار منهج مقارن رائع.⁽¹⁾

و لكنه في تفسيره لبعض السور والآيات القرآنية لم يستشهد بالإسرائيليات إطلاقاً، لقناعته أن في القرآن الكريم والسنة المطهرة ما يقنع الطالب هنا.

و الحق أن أخبار بني إسرائيل ما علم بصحته أخذ به شريطة «أن يناسب روح القرآن وأن يتفق مع النقل والعقل، وألا ينقل إلا بقدر الحاجة استثناساً به لا احتجاجاً».⁽²⁾

يقول أحمد شاکر: «إن ذكر الإسرائيليات في تفسير القرآن وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات... شيء آخر... فأني تصديق لرواياتهم أقوى من أن نقرها بكتاب الله».⁽³⁾

الفرع الرابع: المكي والمدني والقراءات.

اعتنى محمد عبد الله دراز كثيراً بالمكي والمدني في القرآن الكريم في دراسة الموضوعات العامة والجزئية، وكان هدفه في كل ذلك إثبات المصدر الإلهي للقرآن الكريم، وإعجازه في دراسة هذه الموضوعات؛ بل إنه وظف المنهج التاريخي هنا في تتبع تفاصيل الأحداث، وسيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- في كل من العهد المكي والمدني حتى يثبت الانفصام الواضح بين الوحي الإلهي وشخصية النبي -صلى الله عليه وسلم-.⁽⁴⁾

وقد بين إشراك موضوعات المكي والمدني، تأصيلاً وتذكيراً، عقائد وأخلاقاً وتشريعات؛ فقال في رده لمن دعا إلى ترتيب القرآن حسب أجواء نزوله: «أما إن كان لا يسوغ في ذوقه بوجه عام أن السور المكية بما فيها من أصول العقائد، وأصول مكارم الأخلاق، والترغيب والترهيب، وتوضع في ثنايا السور المدنية بما فيها من القوانين المدنية، والقواعد الحربية، وشعائر العبادة وسائر الشرائع التفصيلية، فيقال له:

¹ - يراجع: المصدر نفسه، ص 137-176.

² - التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، 1/131-132.

³ - عمدة التفسير حول تفسير ابن كثير: أحمد محمد شاکر، دار الوفاء، المنصورة، 1/15.

⁴ - يراجع النبا العظيم: محمد دراز، ص 85، 96، ومدخل إلى القرآن الكريم، ص 137 وما بعدها.

كيف استسغت إذا أنه لا تكاد تخلو سورة مدنية من آيات التوحيد أو الجزاء أو الوعظ أو غيرها من المقاصد المكية...»⁽¹⁾.

كما بيّن أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما، فقال: «فإن مقاصد القرآن وأهدافه في السور المكية والمدنية واحدة: وهي إصلاح العقائد، وتنظيم مناهج السلوك للأفراد والجماعات، وإنما يفترق المكي عن المدني بالإجمال والتفصيل، وما لا غنى للقواعد المكية عن رسم طرقها العملية، كذلك لا غنى للفروع عن الاستناد إلى قواعدها الكلية»⁽²⁾.

واعتماداً على أجواء النزول المكي والمدني، أو ما يعرف بـ "الترتيب النزولي"، عالج دراز -رحمه الله- الكثير من الموضوعات القرآنية، كموضوعات الحرب الشرعية في الإسلام والقرآن⁽³⁾، وتعدد الزوجات⁽⁴⁾، والبخل والسرف⁽⁵⁾، والرسول في القرآن⁽⁶⁾، وموقف القرآن من أهل الكتاب⁽⁷⁾، والسلم والأمان⁽⁸⁾، وغير ذلك.

وأيضاً من هذا أنه ضمّن كتابه "دستور الأخلاق في القرآن" الكثير من الموضوعات الجزئية التفصيلية التي كان عالج بعضها ضمن المنهج النزولي للآيات والسور القرآنية⁽⁹⁾، يقول مثلاً عن التوجيه القرآني بالأوامر المطلقة: «لقد قمنا بنوع من الإحصاء العام، فأدهشتنا ندرة التعاليم القرآنية التي اقتصرنا في تحليل حكمتها على سلطة الأمر وحده... ومع ذلك نجد في عشر آيات، كلها بعد الهجرة»⁽¹⁰⁾، وذلك بعد أن صنّف آياتها إلى مجموعتين: "مكية برمز أ" و"مدنية برمز ب".

¹ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 49.

² - المصدر نفسه، ص 49.

³ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 63.

⁴ - المصدر نفسه، ص 163.

⁵ - زاد المسلم للدين والحياة: محمد دراز، ص 45.

⁶ - المصدر نفسه، ص 108.

⁷ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 88 وما بعدها.

⁸ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 37.

⁹ - ينظر: دستور الأخلاق في القرآن بمباحثه الخمسة المسؤولة الإلزام والواجب، الجزاء، النية، والجهد.

¹⁰ - المصدر نفسه، ص 282.

وكان يخلص إلى هذه الإحصاءات العامة كما في الجزاءات الطبيعية⁽¹⁾، والجزاءات الإلهية⁽²⁾، والتأييد الإلهي للمؤمنين⁽³⁾، وغير ذلك.

غير أنه لم يعالج كل الموضوعات القرآنية بهذا المنهج؛ بل كان يعتمد كثيرا على ترتيب عناصرها في المصحف الشريف، قال عنه: «فكان لابد أن يراعى في مواقعها من هذا البنيان معنى آخر غير ترتيبها الزمني؛ بحيث يألف من كل مجموعة منها باب ويألف من جملة الأبواب كتاب... تبرز به وحدتها البيانية في مظهر لا يقل جمالا وإحكاما عنها في وضعها الإفرادي التعليمي»⁽⁴⁾.

و أما عن القراءات القرآنية فرجع إليها تأصيلا واستشهادا على حسب حاجته إليها في تشقيق المعاني التفصيلية للآية القرآنية الواحدة.

ولما كانت سهام المستشرقين المغرضة قد وجهت إلى القراءات القرآنية وما يتعلق بها من الرسم العثماني، وتدوين المصحف وجمعه، والأحرف السبعة، والنقط والإعجام، فقد استدعى كل ذلك من دراز التأصيل لها، ودراسة هذه القضايا في الإطار التاريخي لعناية المسلمين بالقرآن الكريم؛ فبيّن صحة النص القرآني ودقته، وتضمنه الأحرف السبعة المتمثلة في سبع لغات من لغات العرب، وأنها بقيت إلى اليوم، ولا يمكن لعثمان -رضي الله عنه- أن يحذفها، بل اعتمدها جميعا⁽⁵⁾، وهي بخلاف القراءات السبع؛ إذ هي فرع من الأولى⁽⁶⁾، وأن عثمان -رضي الله عنه- اقتصر عمله على إبعاد القراءات الضعيفة والأوجه الشاذة التي كانت منتشرة ومتداولة إلى منه لبعض الصحابة والذين اقتنعوا بعمل الجماعة، وبكل هذا أنقذت وحدة النص⁽⁷⁾.

فلما كان الحرف الذي أعاد به عثمان -رضي الله عنه- جمع القرآن حرفا شاملا «لهذه الأحرف، لخلوه من الإعجام ولمراعاته مواضع الاختلاف في التفخيم والوقف وغيرهما»⁽⁸⁾ كان طبيعيا أن تختلف

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 331.

² - المصدر نفسه، ص 355، 360، 363.

³ - المصدر نفسه، ص 352.

⁴ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 51-52.

⁵ - يراجع مدخل إلى القرآن الكريم، محمد دراز، ص 39-52، وحصاد قلم: محمد دراز، ص 61-68.

⁶ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 64.

⁷ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 48-52.

⁸ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 68.

القراءات القرآنية، ولكنه اختلاف تنوع و ثراء للمعاني القرآنية، قام بها عمود إعجاز القرآن في تعدد معانيه ودلالاته في اتحاد ألفاظه ومبانيه.

توقف دراز مليا عند آية إبداع خلق السماوات من قوله تعالى: «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ» [الملك/ 03]، يقول في ذلك: «أما دقة هذه الصنعة وبراءتها من العيب، فإن العيب في صنعة البناء عيبان: عيب في شكل البنيان يخل بالتشاكل والتناسب بين جوانبه... وهذا هو "التفاوت"، وعيب في جوهر البنيان يخرج عن قانون الصنعة ويشد به عن سنن الحكمة، وتجعله عرضة للتفكك والانهيار، وهذا هو "التفاوت"، وقد جاءت الآية بمجموع قراءتها منزهة لصنعة السماء عن كلا النوعين»⁽¹⁾.

الفرع الخامس: قضايا النسخ، المحكم والمتشابه في تفسيره.

يعرّف النسخ في اصطلاح الأصوليين بأنه «بيان انتهاء حكم شرعي بطريق شرعي متراخ عنه»⁽²⁾، أو عبارة عن «طريق شرعي يدل على أن الحكم الذي كان ثابتا بطريق شرعي لا يوجد بعد ذلك مع تراخيه عنه على وجه لولاه لكان ثابتا»⁽³⁾.

و يطلق النسخ على معنيين: إما النسخ الكلي: أي رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي آخر رفعا كلياً، وإما تخصيصه لعامه، أو تقييده لمطلقه، أو زيادة شرط أو مانع، وبذلك يرفع الحكم الشرعي عن بعض أفرادها، لا عنهم جميعاً كما في الأول.

يقول ابن القيم الجوزية: «والنسخ بالمعنى العام الذي يسميه السلف نسخاً هو رفع الظاهر بتخصيص أو تقييد أو زيادة شرط أو مانع أو حال أو صفة، فهنا كثير من السلف يسميه نسخاً، حتى سمي الاستثناء نسخاً»⁽⁴⁾.

¹ - المصدر نفسه، ص 167، والقراءة الأولى "التفاوت" قراءة الجمهور، والقراءة الثانية "التفاوت" قراءة حمزة والكسائي وخلف: ينظر: الدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرى: عبد الفتاح القاضي، درا الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص 231، ومعجم القراءات القرآنية: أحمد مختار عمر وآخر، مطبوعات جامعة الكويت، ط2، 1988م، 185/7.

² - نهاية السؤل شرح منهاج الوصول: جمال الدين الأسنوي، عالم الكتب، د ت، 548/2.

³ - المحصول في علم الأصول: الفخر الرازي، دار الكتب العلمية، 523/1.

⁴ - إعلام الموقعين عن رب العالمين: ابن القيم الجوزية، مكتبات الكتب الأزهرية، د ت، 316/2.

وهذا ما اهتم دراز بتجليته، وتحديد مفهومه بدقة حتى لا تضطرب الأفهام-وقد وقع من المستشرقين- في فقه الكثير من الأحكام الشرعية ذوات النصوص المتعاقبة؛ فتحت عبارة "النسخ في القرآن" يقول: «وهو مصطلح ينطوي على اللبس منذ قديم، ويعني عمل نسخة خطية، كما يعني الإلغاء، ويستخدم في القانون والفقهاء بمعنى "وقف تطبيق قانون مؤقت"، ولكن مع توسيع المعنى قصد به بعض المفكرين كل توضيح أو تحديد لمدلول أية عبارة، ولقد أسرف ابن حزم في استخدامه بهذا المعنى (1)...» (2).

وقد اختلف العلماء قديما وحديثا حول إثبات النسخ ونفيه (3)، وما يهمننا منه موقف محمد دراز من ذلك في تفسيره؛ فالشيخ لا يميل إلى القول بالنسخ ولا يقبله في الأخبار والمبادئ الأخلاقية، بل ويعتبره من قبيل القول بالبداء (4) على الله تعالى، وأما في الأحكام فلا يقبله إذا كان التعارض غير حقيقي بين النصوص الشرعية قرآنا وسنة، يقول في ذلك: «ففي مجال المعرفة النظرية لم ولن يوجد ناسخ أو منسوخ في التعاليم المنزلة، ومعنى النسخ الحصول على علم جديد، فإذا طبقنا ذلك على علم الله سبحانه وتعالى، يكون ذلك عين الكفر واللامعقول، وعلى العكس في المجال العملي، فقد وجد النسخ بالفعل سواء في تعاليم الدين الواحد، أو في التعاليم من دين إلى دين آخر» (5)، ويضيف قائلا: «والحل لا يتدخل لتغيير بعض الأشياء في بنية العقل، وإنما يتدخل في مدة الفعل ليفرض عليه في اللحظة المناسبة قرارا منسجما مع الإرادة» (6).

ثم بيّن بعض أسراره ومقاصده المجمععة في مقصد الإصلاح بالتدرّج فقال: «فمن المتفق عليه أن المشرع الناجح لا يعامل الناس في مرحلة الانتقال بنفس الطريقة التي يعاملهم بها بعد أن وصل نضجهم

¹ - يميل دراز إلى تقليل الآيات المنسوخة والناسخة في القرآن دون تحديد عددها، ولعله -حسب تشدده ونقده للآراء- يرى ذلك في خمسة مواضع فقط، كما حققه ولي الله الدهلوي في كتابه الفوز الكبير في أصول التفسير، مركز ودار القرآن الكريم، الجزائر، ط1، 2010م، ص 58، وما بعدها.

² - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 172.

³ - يراجع: أصول الفقه الإسلامي: وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، 933/2 وما بعدها.

⁴ - يعترف البداء بأنه تجدد العلم وظهور الخطأ في الحكم، وقد نسبته اليهود إلى الله تعالى؛ حينما رأوا بأن الله تعالى ظهر له أمر كان يجهله، فقدر الحكم على الأمر الجديد-تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا-، ينظر: الملل والنحل: الشهرستاني، 1/118-119.

⁵ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 172.

⁶ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 78-79.

إلى مرحلته الأخيرة... فهذا المسلك التدريجي في التعليم والتشريع ليس عيباً، وإنما هو أنجع المناهج في تكوين النفوس الواعية المستنيرة المشبعة بالحكمة، والأهم المنظمة والخلق المتين»⁽¹⁾.

كما أوضح أيضاً أن للنسخ درجات متفاوتة متعلقة بظروفها الخارجية المنوطة بعمل المكلف، فقال في موضوع تعارض الواجب مع الظرف الخارجي: «فإن الحل سوف يتمثل -في الواقع- في تعديل للواجب تبعاً لظروف الحياة الجديدة... وسوف يكون ذلك بحسب مقتضيات الظرف، سواء أكان تغييراً، أم تخفيفاً، أم تأجيلاً، أم حتى إلغاء...»⁽²⁾.

و قد عالج بهذا المنهج الكثير من القضايا الفكرية العويصة والشائكة، كموضوعات: آية السف والقتال⁽³⁾، وتحويل القبلة⁽⁴⁾، والقراءات الشاذة⁽⁵⁾، وحبس النساء الزانيات أو رجمهن⁽⁶⁾، والقدرة القتالية القتالية والعديدية للجيش الإسلامي⁽⁷⁾، وغير ذلك⁽⁸⁾.

بيّن -على سبيل المثال- الحكمة بمنهج التدرج في تحويل القبلة، فقال: «ولقد سماه علماء الظاهر نسخاً، وما هو بنسخ إلا في الصورة والرسم، أما في جوهره فهو التدرج والترقي في توحيد كلمة الأديان... فبيت المقدس هو بين الإخوة، والكعبة هي بيت الأسرة، وهي منزل الجد الأعلى... وإنما كان همه (الإسلام) أول الأمر وآخره هذا الانضمام والالتزام بين أسرة المؤمنين، وفي وحدة القصد...»⁽⁹⁾.

و أما عن المتشابه الذي فيعرف عند الأصوليين بأنه «اللفظ الذي خفي المراد منه، فلا تدل صيغته على المراد منه، ولا سبيل إلى إدراكه؛ إذ لا توجد قرينة تزيل الخفاء»⁽¹⁰⁾، وعكسه المحكم.

¹ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 173.

² - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 79.

³ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 66، 164، 167، وحصاد قلم: محمد دراز، ص 331.

⁴ - نظرات في الإسلام: محمد دراز، ص 35.

⁵ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 40، 48.

⁶ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 265.

⁷ - المصدر نفسه، ص 79-80.

⁸ - كنسوخ فرضية قيام الليل: ينظر: المصدر نفسه، ص 77، وكحقيقة التقوى، المصدر نفسه، ص 653.

⁹ - نظرات في الإسلام: محمد دراز، ص 35، 36.

¹⁰ - أصول الفقه: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1990م، ص 128-129.

وقد اختلف العلماء في تفسير المتشابه إلى أقوال عدة، وصلت إلى أحد عشر قولاً⁽¹⁾؛ ذكر دراز -رحمه الله- منها معنيين: الأول: ما انغلقت معانيه على الناس، فلا يمكن أن يعرفوا دلالاته إلا عن طريق النص، وذلك كحروف فواتح السور القرآنية.

والثاني: ما أجملت معانيه في مواضع، وفصلت في مواضع أخرى، وفق قاعدة أسلوب النفي والإثبات، ولعل هذا المعنى الأخير هو المفسر لآية آل عمران⁽²⁾ عند دراز؛ حيث يقول في ذلك: «ليس «ليس أخطر على الباحث في الشريعة الإسلامية من الوقوف عند أطرافها الجملة؛ لأنه بذلك يدع نصوصها تتصادم وتتخاصم... حتى إذا سعى في الصلح بينها برأيه لم يأمن على نفسه الهوى... وهذا شأن اتباع المتشابه الذي نهى الله عنه»⁽³⁾، ويكون ردها إلى محكماتها «حين يلتبس حلها في تلك الآيات الجامعات التي تلتقي فيها الأطراف على قدر...»⁽⁴⁾

ومن هذا أوضح وسطية الإسلام في تشريع القتال بين طرفي الإفراط والتفريط، بين التسامح الضعيف، والهجوم القتالي العنيف، فقال: «أجل إن القرآن الحكيم لم يكتف في تعيين مراده بأنه كان يدعو إلى السلم في ظروف وملابسات عادية توائمه، ويأمر بالقتال في ظروف وملابسات استثنائية تحتمه...»⁽⁵⁾.

الفرع السادس: الحروف المقطعة في أوائل السور.

قد أطل الباحثون الكلام حول حروف التهجي المقطعة التي افتتح الله بها أوائل بعض سور القرآن الكريم، وإذا كان بعضهم قد اقتصر على ذكر أربعة آراء للعلماء هنا⁽⁶⁾، فإن دراز -رحمه الله- أوصلها إلى عشرين قولاً أو تزيد.⁽⁷⁾

¹ - ينظر مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الحديث، القاهرة، 227/2-231.

² - في قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» [آل عمران/07].

³ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 325.

⁴ - المصدر نفسه.

⁵ - المصدر نفسه، ص 332.

⁶ - ينظر: تفسير معارج التفكير ودقائق التدبر: عبد الرحمان الميداني، دار القلم، 208-205/1.

⁷ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 36.

وقد خصص لها مبحثاً مستقلاً من كتابه "حصاد قلم"⁽¹⁾، ثم رجع إليها بعد ذلك في تفسير مطلع سورة القلم⁽²⁾، ولخص هذه الآراء في ثلاثة أقوال رئيسية ناقشها ونقدتها بروح علمية، بما فيها آراء المستشرقين؛ فالأول منها من قبيل المتشابه⁽³⁾، والثاني منها يوضح حكمتها الإعجازية على مصدرية القرآن الإلهية، وأسرارها التنبؤية لأسماع العرب حتى يقبلوا إلى القرآن الكريم، ودروسها التعليمية لكل قارئ مبتدئ للقرآن الكريم⁽⁴⁾، ومن هذا ذكر بعض مزاعم المستشرقين أن في ذكر هذه الحروف «توطئة للتلاوة برسم اللحن الذي سيكون عليه إيقاع النغم الخاص بكل واحدة منها»، زاد عليه⁽⁵⁾ «ولكن هذا لا يستقيم له في السور كلها كافة مثل «ق والقرآن المجيد... وهو بعد فرض استقامته إنما يكون من المقاصد التبعية، لا الأصلية»⁽⁶⁾.

ثم ذكر الرأي الثالث -مذهب الصوفية- المفسر لمعانيها، وهو في ذلك على شعب كثيرة، لم تستند على النص في ذلك، وإنما هو ضرب من الاستحسان النفسي والفكري، وهو في كل ذلك يميل إلى الرأي الأول، فيقول: «أن أقربها إلى السلامة وأبعدها عن الزلل هو الوقوف عند القول الأول»⁽⁷⁾، ويقول: «إننا نميل ميلاً شديداً إلى قول السلف»⁽⁸⁾ ومع ذلك يمتنع -عنده- تذوق المعاني، ولكن بشرطين: الأول عدم التعسف في التعليل والثاني عدم القطع بمراد الله فيها، والمسألة اجتهادية على حسب قوة الإدراك وذوق العربية⁽⁹⁾.

ومن هنا حاول أن يتذوق سر بداية سورة القلم بحرف النون، فقال في ذلك: «فإنها (السورة) تدور على تبرئة للنبي -صلى الله عليه وسلم- من الجنون والفتون، وعلى تحذيره من الضجر بقومه كما فعل ذو النون عليه السلام، «وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ» [القلم/ 48] والله أعلم»⁽¹⁰⁾.

¹ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 35 وما بعدها.

² - المصدر نفسه، ص 191 وما بعدها.

³ - المصدر نفسه، ص 36-37.

⁴ - المصدر نفسه، ص 38-39.

⁵ - المصدر نفسه، ص 39.

⁶ - المصدر نفسه، ص 40.

⁷ - المصدر نفسه، ص 44.

⁸ - المصدر نفسه، ص 192.

⁹ - المصدر نفسه، ص 44.

¹⁰ - المصدر نفسه، ص 194.

الفرع السابع: منهجه في القصص القرآني.

عرض المفسرون للقصة القرآنية من خلال ثلاثة مناهج: التأويل والتخييل والإسراف في الروايات القصصية الضعيفة⁽¹⁾، والقليل منهم _ من المحققين _ من يلتزم بالمنهج الصحيح، والذي «خلاصته الوقوف عندما ورد في القرآن الكريم، مع الاحتفاظ بدلالة الألفاظ اللغوية على معانيها، وإفادتها لواقع هي تعبير صحيح عنه، دون أن تزيد عليه بما لم يرد فيه اعتمادا على روايات لا سند لها... ودون تحيف لمعانيها، باعتبار أن الكلام تخييل لا يعبر عن واقع... و دون صرف للألفاظ عن معانيها الوضعية إلى معان أخرى، من غير صارف...»⁽²⁾.

ومحمد دراز من هؤلاء القلة الذين التزموا النص القرآني، حتى في قصصه المبتوثة في سوره؛ فهو يؤكد أولا غيبية هذه القصص في القرآن وهي تشكل إعجازه في هذا الجانب⁽³⁾، ثم يزيد أيضا سبق القرآن الكريم في هذا الجانب على الكتب السماوية الأخرى⁽⁴⁾، وأن في القرآن _ خاصة السور المكية _ أكثر فيه «قصص التاريخ القديم بشره وفساده، والعقاب الأليم الذي نزل بأمره...»⁽⁵⁾.

و قد كان مهتما بإبراز أهداف القصة القرآنية من ترغيب وترهيب، مؤكدا أن هذا هو غرض القرآن الكريم من ذكر قصصه، ولا يهمله في ذلك تفاصيل الأحداث؛ يقول في ذلك: «... وهنا تضرب السورة (يسن) أقرب الأمثلة التاريخية التي يرجى أن يكون فيها الرسول-صلى الله عليه وسلم- وأصحابه خير أسوة... تلك هي قصة الحواريين أصحاب عيسى -عليه السلام- الذين أرسلوا بمثل دعوة محمد...»⁽⁶⁾.

ويقول أيضا: «وهكذا يستخدم القرآن بلا توقف تاريخ الأمم القديمة العاصية، حتى يكون لدى الظالمين الذي يخلفونهم على الأرض مثل أسلافهم»⁽⁷⁾.

¹ -راجع: الإعجاز القصصي في القرآن: سعيد عطية علي مطاوع، الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2006م، ص 73 وما بعدها.

² -راجع: تفسير القرآن الكريم: محمود شلتوت: دار الشروق، القاهرة، ط12، 2004، ص 44.

³ -مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 155.

⁴ -المصدر نفسه، ص 154.

⁵ -المصدر نفسه، ص 171.

⁶ -حصاد قلم: محمد دراز، ص 149.

⁷ -دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 348.

و بعد ذكره لنصوص قرآنية في بعض القصص السابقة المتعلقة بالأغنياء والمترفين يصل إلى النتيجة التالية: «فالمهم هو إثارة الانتباه لدى الأغنياء والأقوياء ليروا أن أمنهم وترفهم بمكان من الوهم والبطلان». (1)

و لما عالج قصة أصحاب الجنة أحاطها بأغراضها مقدمة وخاتمة، ففي التمهيد لها يقول: «إنها رواية ذات فصول خمسة، أربعة منها تمثل تقلبات النفس الإنسانية وانفعالاتها المختلفة، وواحد منها يتخللها تصور تصريف القدر، وسخريته في تدبير الإنسان». (2)

ويقول في نهايتها: «كما أنه كما اختبر الله أصحاب البساتين بسعة الرزق، ووفرة الثمار، اختبر قريشا بالمال والبنين، وكما أن النعمة أبطرت أصحاب البساتين، فنسوا ذكر الله، ومنعوا حق المساكين، كذلك أبطرت النعمة قريشا وسخروا من نبيهم... كذلك ستكون عاقبة قريش أن يعاقبوا بزوال ما هم فيه من رغد ولين عيش...». (3)

وكما يهتم دراز باستنباط العبر من القصص القرآني، كذلك يولي عناية بالغة باستخراج النكات البلاغية في توظيف عناصر القصة، وإعجاز مشاهدتها الحوارية.

فمن ذلك تحليله للاستعارة التصريحية في قصة يونس -عليه السلام- من قوله تعالى: «وَهُوَ مَكْظُومٌ» [القلم/ 48]، يقول في كلمات مختصرة يصف نفسية يونس -عليه السلام-: «خافت الصوت، محبوس الأنفاس في هذا الصندوق الحيواني، ولكن الله سمع دعاه فاستجاب له ونجاه من الغم...». (4)

ثم عقب القرآن ذلك بالاحتراس المعنوي في قوله تعالى: «فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» [القلم/ 50]، حتى يبين أن خطأ يونس -عليه السلام- لم يكن معصية أو ذنبا خالف به أمرا صريحا من ربه، وإنما هو خطأ في الاجتهاد، فكان «الأحرى بالرسول أن يترشوا بالهجرة ريثما يرد إليهم الإذن فيها بصريح النص». (5)

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 349.

² - حصاد قلم: محمد دراز، ص 203.

³ - المصدر نفسه، ص 206-207، بتصرف قليل.

⁴ - المصدر نفسه، ص 217.

⁵ - المصدر نفسه، ص 218.

المبحث الثالث: المنهج الموضوعي عند محمد دراز في تفسيره.
وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: اعتماد التناسب وأنواعه.

المطلب الثاني: المزاوجة بين الكشف والتجميع.

المطلب الثالث: الموازنة بين السور القرآنية.

المطلب الرابع: بين الترتيب النزولي والترتيب المصحفي.

المطلب الخامس: اعتماد البيان الإحصاء والاستواء في تفسيره.

المطلب السادس: توظيف واعتماد منهجية التفسير التحليلي ضمن التفسير الموضوعي.

المطلب السابع: استنباط المواقف والتصورات واستخلاص الدروس والعبر.

المبحث الثالث: المنهج الموضوعي عند محمد دراز في تفسيره.

كما وظف محمد عبد الله دراز المنهج التحليلي في تفسيره، كذلك كان -رحمه الله- مدركا وموظفا للمنهج الموضوعي تأصيلا وتطبيقا.

فمن ذلك أنه قدم بمقدمة لدراسته حول ما أسماه "علم الأخلاق القرآني" أو "النظرية القرآنية"⁽¹⁾ في علم الأخلاق، بين فيها معالم هذا المنهج التفسيري المعاصر.

قال: «ولذلك بدا لنا من الضروري أن نتناول الموضوع من جديد، وأن نعالجه تبعا لمنهج أكثر سلامة... حتى نري علماء الغرب الوجه الحقيقي للأخلاق القرآنية، وذلكم في الواقع هو هدفنا الأساسي من عملنا هذا».⁽²⁾

وانتقد الدراسات والمؤلفات حول الأخلاق القرآنية أنها لم تحقق روح المنهج الموضوعي، فقال: «وهكذا لم ينهض أحد -فيما نعلم- حتى الآن باستخلاص الشريعة الأخلاقية من القرآن في مجموعته، ولم يحاول أحد أن يقدم لنا مبادئها، وقواعدها في صورة بناء متماسك مستقل عن كل ما يربطه بالمجالات القريبة منه».⁽³⁾

وقال أيضا: «ولسوف يختلف منهجنا كثيرا في عرض هذا الجانب عن المنهج الذي اتبعه سابقونا، فلما كنا -أولا- لا نرى من اللازم أن نستوعب النصوص والآيات ذات الاتصال الموضوع...».⁽⁴⁾

ومن ذلك أيضا أنه درس التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، فكان من بين ما قاله في ذلك: «وأما إن أحببت أن نريك نموذجا من السور المتجمعة كيف التأممت منها سلسلة واحدة من الفكر تتلاحق فيها الفصول والحلقات...».⁽⁵⁾

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 02.

² - المصدر نفسه، ص 04.

³ - المصدر نفسه، ص 08.

⁴ - المصدر نفسه، ص 09.

⁵ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 191.

و أما المصطلح القرآني فلم يكن واضحا لديه في إطار دراسة مستقلة، بل كان مقتصرًا على مجرد إشارات غير جامعة له، كمصطلح التقوى⁽¹⁾، وغيره.⁽²⁾

وتتجسد أهم مفردات المنهج الموضوعي في تفسير دراز فيما يلي:

المطلب الأول: اعتماد التناسب وأنواعه.

لا شك أن علم التناسب يكشف عن وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، مما يساعد على إبراز ما بين أجزاء القرآن من ترابط وتناسق، وما يجمعه من شتات الموضوع الواحد المبثوث في طول القرآن الكريم وعرضه.

وقد برز محمد عبد الله دراز في هذا الجانب، واشتهر به عند الدارسين المعاصرين⁽³⁾، وكان - رحمه الله - أكثرًا من ذكر الروابط الوشائية بين آيات القرآن وسوره، على أوجه متنوعة، وأنواع كثيرة، ومؤكداً أن هذا الترابط العميق بين أحاديث «المختلفة المعاني، المتباعدة الأزمنة، المتنوعة الملابسات في حديث واحد مسترسل هو مظنة التفكك والاختضاب، ومظنة المفارقة والتفاوت»⁽⁴⁾، هو الذي عكس حقيقة الإعجاز القرآني في نظمه وتناسق بنيانه، بل يمتد ذلك إلى السورة بأكملها، فإذا هي «بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول...»⁽⁵⁾.

ولذلك اهتم بتقديم النظريات والمفاهيم الأساسية في هذا العم، قبل أن يقدم - بعد ذلك - النماذج والتطبيقات؛ إذ وضع مفهومًا علميًا للتناسب، وبيّن أهميته وإعجازه، فقال - واصفاً آيات القرآن - بأن التناسب بينها «هو تناسق أوضاعها وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها»⁽⁶⁾.

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 453 وما بعدها.

² - ينظر: حصاد قلم: محمد دراز، ص 170.

³ - في دراسات حوله: كدراسة: محمد عبد الله دراز وجهوده البلاغية لمحمد أمين أبو شهبة بالأزهر الشريف، ودراسة موازنة بين الباقلائي وعبد الله دراز في إعجاز القرآن لصالح لغربي بقسنطينة.

⁴ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 178.

⁵ - المصدر نفسه، ص 188.

⁶ - المصدر نفسه، ص 176.

وانتقد علماء الأخلاق المسلمين أنهم «جعلوا من مختاراتهم مجرد جمع لمواد متفرقة، لا تربط بينها روح قرابة، ولا يظهر فيه أي تسلسل للأفكار»⁽¹⁾، كما انتقد من لم ير القرآن في جملته إلا أشتاتا من الأفكار المتنوعة، عولجت بطريقة غير منظمة، وبدون أي رباط منطقي بينها، والتناسب أيضا عنده «نظام (داخل السورة) لا يتداخل فيه جزء مع جزء آخر، وإنما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة». (2)

كما قد أوضح قيمة إعجاز القرآن في هذا فقال: «ليس ذلك بالأمر الهين كما قد يظنه الجاهل بهذه الصناعة، بل هو مطلب كبير يحتاج مهارة وحنقا ولطف حس في اختيار أحسن المواقع لتلك الأجزاء، ثم يحتاج مثل ذلك في اختيار أحسن الطرق لمزجها بالإسناد، أو بالتعليق، أو بالعطف أو بغيرها». (3)

ثم يؤكد ذلك بقوله: «تلك حال المعنى الواحد الذي تتصل أجزاءه فيما بينها اتصالا طبيعيا، فما ظنك بالمعاني المختلفة في جوهرها...، هذا شأن الأغراض المخلفة إذا تناولها الكلام الواحد في المجلس الواحد، فكيف لو قد جئ بها في ظروف مختلفة وأزمان متطاولة...» (4)

كما لم يفته أن يشير إلى أهم الطرق، والطرائق التي تربط بها آيات القرآن الكريم، وتتسق بها مقاطعه وأفكاره؛ إذ قال: «وعلى هذه القاعدة ترى القرآن يعمد تارة إلى الأضداد يحاور بينها، فيخرج بذلك محاسنها ومساوئها في أجلى مظاهرها، ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد، فيجعلها تتعاون في أحكامها يسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير أو التفرغ، أو الاستشهاد أو الاستنباط، أو التكميل أو الاحتراس إلى غير ذلك، وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي، أو تجاور شيئين في الوضع المكاني، دعامة لاقترائهما في النظم... فإن لم يكن بين المعنيين نسب... رأيته يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر إما بحسن التخلص والتمهيد، وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وضع يتلاقى فيه المتباعدان». (5)

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 07.

² - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 127.

³ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 172.

⁴ - المصدر نفسه، ص 177.

⁵ - المصدر نفسه، ص 195.

ومن هنا تنوعت أوجه المناسبات وتوزعت وجوه الارتباطات ووشائجها في مؤلفاته القرآنية، فمنها: التناسب بين الآيات⁽¹⁾، والتناسب بين الحروف⁽²⁾، والتناسب بين الألفاظ والكلمات في الآية الواحدة⁽³⁾، والتقابل بينها في آيات متتالية⁽⁴⁾ أو التقابل بين الكلمات في مقطعين متتاليين⁽⁵⁾، والتناسب بين المقاطع⁽⁶⁾ على وجه التضاد⁽⁷⁾، أو الاستطراد⁽⁸⁾، أو الارتباط بينها في معنى جامع⁽⁹⁾ أو جامع⁽⁹⁾ أو الارتباط بين الآيات على وجه السببية⁽¹⁰⁾، أو المسببية⁽¹¹⁾، أو البدلية⁽¹²⁾، أو التخلصية⁽¹³⁾ أو التفسيرية⁽¹⁴⁾، أو التكميلية الإضافية⁽¹⁵⁾، أو الاحتراسية⁽¹⁶⁾، أو التقابلية⁽¹⁷⁾، أو بالتدرج من الخاص إلى العام⁽¹⁸⁾، أو من العام إلى الخاص⁽¹⁹⁾، والتناسب بين الآية وفاصلتها⁽²⁰⁾، وبين الآية ومناسبة النزول⁽²¹⁾،

¹ - ينظر: النبأ العظيم: محمد دراز، ص 171، 198، 200، 207، وغيرها، وحصاد قلم، ص 158، 163، 167، 178، 186، 195، 220، وغيرها.

² - ينظر: النبأ العظيم: محمد دراز، ص 158، 167، 198، وحصاد قلم، ص 168 وغيرها.

³ - ينظر: النبأ العظيم: محمد دراز، ص 155، 159، 198، وحصاد قلم، ص 146، 152، 167، 176، 179، 186، 195، 219، 229 وغيرها.

⁴ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 174.

⁵ - المصدر نفسه، ص 228.

⁶ - المصدر نفسه، ص 148، 152، 156، 167، 213، 236، والنبأ العظيم: محمد دراز، ص 201، 203، 224، 225، 240، 243، وغيرها.

⁷ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 172، 150، 182، 199، 207، والنبأ العظيم: محمد دراز، ص 200.

⁸ - حصاد قلم: دراز، ص 148، 156، 169، 181، 205، 211، 332، والنبأ العظيم، ص 230، 234، 258، وغيرها.

⁹ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 235.

¹⁰ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 230-231، وحصاد قلم، ص 185، 195، 28، 215، 229، 231.

¹¹ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 198، 201، 204، 213، 230، 239، والنبأ العظيم، ص 225.

¹² - حصاد قلم: محمد دراز، ص 179، 214، 225.

¹³ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 137، 170، 173، 178، 183، والنبأ العظيم، ص 242، 247، 276، وغيرها.

¹⁴ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 179، 173.

¹⁵ - المصدر نفسه، ص 214.

¹⁶ - المصدر نفسه، ص 153، والنبأ العظيم: محمد دراز، ص 158.

¹⁷ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 178.

¹⁸ - المصدر نفسه، ص 165، 207، 209.

¹⁹ - المصدر نفسه، ص 168، 199، 232.

²⁰ - المصدر نفسه، ص 146، 165، 174، 185، والنبأ العظيم: محمد دراز، ص 174.

²¹ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 233، 237.

والتناسب بين فاصلتين متتاليتين⁽¹⁾، وبين آية وآيات عديدة بعدها⁽²⁾، أو بين أول الآيات وآخرها في مقطع واحد⁽³⁾، ثم التناسب النزولي بين سورتين⁽⁴⁾، أو متجاورتين في المصحف بداية و خاتمة⁽⁵⁾، أو التناسب بين شطري الآية⁽⁶⁾، أو بين آيتين في سورتين مختلفتين⁽⁷⁾، أو تناسب بين المعاني⁽⁸⁾، والنظائر⁽⁹⁾ وغير ذلك.

سنقتصر على بعض أمثلتها وشواهدنا، فمنها التناسب بين كلمات الآية الواحدة، وذلك في قوله تعالى: «رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً» [النبا/ 37-38]، يقول في ذلك: «وأي شيء يمنع الله من ذلك، وهو رب السماوات والأرض وما بينهما، يتصرف في ملكه كيف يشاء، وهو "الرحمان"... ليس لأهل السماوات ولا أهل الأرض أن يعترضوا عليه (لا يملكون منه خطاباً) فضلاً عن أن يملكوا رداً لقضائه، أو إغلاقاً لخزائن نعمائه، وكيف يملك أحد منهم هذه المعارضة في يوم الفصل، في حين أن الروح الأمين وسائر الملائكة يقفون يومئذ صفا...»⁽¹⁰⁾.

ومن أمثلة التناسب بين أول الآيات وآخرها في مقطع واحد، قوله تعالى: «وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُثُلٌّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ» [القلم/ 16/09]، يقول في ذلك: «بدئت هذه الصفات، وضمت كما ترى بما هو تفریط في حق الله خاصة، ففي البداية ذم لكثرة الحلف بالله، وفي النهاية نص على مقابلة نعمته بتكذيب آياته، أما سائر المساوئ

¹ - المصدر نفسه، 174.

² - مصدر سابق، 175، و النبا العظيم: محمد دراز، ص 198، 211.

³ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 201

⁴ - المصدر نفسه، ص 189.

⁵ - المصدر نفسه، ص 189، و مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 131.

⁶ - المصدر نفسه، ص 141.

⁷ - المصدر نفسه، ص 183

⁸ - المصدر نفسه، ص 164

⁹ - المصدر نفسه، ص 152، 196

¹⁰ - المصدر نفسه، ص 129

النفسية والاجتماعية فقد سردت فيما بين الطرفين، هذا الأسلوب في تعظيم حق الله، وتأکید حرمة مخالفتين مرتين: مرة في فاتحة الحديث، ومرة في خاتمته...»⁽¹⁾.

ومن أمثلة التناسب ببديع التخلص، قوله تعالى: «لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» [البقرة/ 177] مع ما قبلها وما بعدها؛ يقول في ذلك: «انظر إلى حسن التخلص في ربطه بين المقصد القديم، والمقصد الجديد على وجه به يتصلان لفظاً، وبه ينفصلان حكماً، فهو في جمعها لفظاً كأنه يضع إحدى قدميك عند آخر الماضي، وثانيتها عند أول المستقبل، ولكنه في تقريرها حكماً بأداتي النفي والاستدراك كأنما يحول قدميك جميعاً إلى الأمام...»⁽²⁾.

ومن أمثلة التناسب بين كلمات الآية أو الآيتين في شطرين متقابلين قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [البقرة/ 208-209]، قال في ذلك عن الآية الأولى: «فكان صدر الآية تبصيراً بطرق الهداية، وعجزها تحذيراً من طرق الغواية»⁽³⁾.

ومن أمثلة التناسب بين فاصلتين في آيتين متتاليتين قوله تعالى: «إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقاً وَهِيَ تَفُورٌ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ» [الملك/ 7-8]، فيقول عن وصف النار في الآية الأولى ثم الثانية: «قد اكتمل حرها وازداد حتى فاض فهي تغلي على القدور، ثم تترقى الآية التالية في وصف ما في النار من طاقة حرارية...»⁽⁴⁾ وهذا تناسب بين الآيتين، ولكن فاصلة الآية الأولى "تفور" كانت مفتاحاً للعذاب الجسماني «لتبين مراتبه التصاعدية في التعذيب والإيلام»⁽⁵⁾ وهنا يتبته دراز للتناسق العجيب بين الفاصلتين المتتاليتين، فيقول: «هنا تم تصوير روعة العذاب الجسماني، فينتقل الحديث إلى وصف ألم العذاب النفساني في صورة محاورة بين خزنة النار وبين أصحاب النار...»⁽⁶⁾

¹- المصدر نفسه، ص 201.

²- النبأ العظيم: محمد دراز، ص 247.

³- حصاد قلم: محمد دراز، ص 141.

⁴- المصدر نفسه، ص 171.

⁵- المصدر نفسه.

⁶- المصدر نفسه، ص 171.

ونختم هنا بإيراد مثال للتناسب بين خاتمة السورة السابقة وبداية السورة اللاحقة، بين سورتي عبس والتكوير؛ إذ قال دراز في ذلك: «كان ختام السورة السابقة إنذاراً شديداً بيوم، أوله فزع... وكان من شأن هذا الإنذار المزدوج (أوله وآخره) أن يثير سؤالاً مزدوجاً عن كنه الحادث الجلل الذي يورث الناس هذا الدهول عند الصدمة الأولى، وسؤالاً عن سر هذا الفرح أو الحزن البادي على الوجوه بعد ذلك، فحاء صدر سورة التكوير عن هذين السؤالين في جملة واحدة تتألف من أربع عشرة آية قصيرة».⁽¹⁾

والعجيب أنه يرجع بعض المعاني والتفسيرات اعتماداً على التناسب والتقابل بينها في النظم القرآني؛ فمن ذلك أنه رجوع عود الضمير في قوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى» [البقرة/ 16]، على الكافرين والمنافقين في آن واحد، لا كما رأى جمهور المفسرين أنه عائد على المنافقين فقط⁽²⁾؛ إذ عوّل على النظم فقال: «وأما في النظم فلأن تناولها للطائفتين يتم به حسن المقابلة بين الإشارتين في قوله: «أولئك على هدى»، وقوله: «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى»، ثم به يتم جمال الصنعة في تفريق الأقسام ثم جمعها، ثم تفريقها ثم جمعها...».⁽³⁾

المطلب الثاني: المزوجة بين الكشف والجمع.

ونعني به أن الشيخ دراز يزاوج بين منهجي الكشف لعلاقات السورة، والتجميع لنظائرها في سور أخرى «بما تفرق في القرآن الكريم من معانٍ تجتمع معه في موضوع واحد... ليكشف أن هذا المعنى الجزئي يملأ فراغ حبة في عقد الموضوع حتى يتكون منه ومن سائر المعاني الموزعة في القرآن حول ذلك الموضوع موضوع تام كامل العناصر»⁽⁴⁾، سواء للموضوع العام وللموضوعات الجزئية.

فمن أمثلة النوع الأول أنه لما عالج قضية إثبات اليوم الآخر ورد إنكار المشركين لوقوعه، لم يكتف بتساؤلهم عنه هنا في سورة النبأ، بل تتبع أهم تساؤلاتهم في القرآن الكريم، وصنفها على حسب نياتهم فقال: «فجعلوا يخوضون في هذا الشأن على وجوه شتى، تارة يتساءلون فيما بينهم تفكها وتهكما وتعجبا «هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَيِّنُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى

¹ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 231.

² - يراجع: تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، 1984، 1/297. و تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 1/78.

³ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 202.

⁴ - قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل: عبد الرحمان الميداني، دار القلم، دمشق، ط3، 2004م، ص 13.

اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ» [سبأ/7-8]، وتارة يتسابقون إلى سؤال النبي والمؤمنين، لا سؤال تثبت واستكشاف للحق، ولكن سؤال إنكار «أَبَدْنَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَلَمْ نَجْعَلْ لَكُمْ جَسَداً جَدِيداً» [الإسراء/49]، «إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» [الأنعام/29]، أو سؤال تشكك «إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ» [الجاثية/32]، أو استبعاد «ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» [ق/03]، أو استبطاء «مَتَى هَذَا الوَعْدُ» [سبأ/29]، أو تعنت وتعجيز «فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [الدخان/36]». (1)

ومن أمثلة تجميع جزئيات الموضوعات الفرعية داخل السورة الكثيرة في مؤلفاته (2)، تجميع آيات الجزء الإلهي في الحياة العاجلة (3)، وفي الحياة الأخرى (4)، ماديا أو روحيا ناصا على ذلك بقوله: «ولنذكر أولا الآيات القرآنية التي يكتفي القرآن فيها بإقرار هذا المبدأ على وجه الإيجاز» (5)، وقوله: «وفي بعض الآيات... وفي مواضع أخرى...» (6)، وقوله: «فالنصوص المتعلقة بالجزءات الروحية العاجلة تبلغ...» (7)، وغير ذلك.

وبهذه الميزة المنهجية يؤكد دراز أهمية التجميع في إكمال صورة الموضوعات القرآنية المعالجة، بعد تمام وضوحها في سورها الخاصة، وذلك راجع كما قال محمد محمود حجازي إلى خاصتين مترابطتين فيما بينهما: «تنجيم الوحي في ثلاث وعشرين سنة، ووحدته الكاملة في التاريخ، والتشريع، والتربية السليمة». (8)

1- حصاد قلم: محمد دراز، ص 221-222.

2- يراجع: دستور الأخلاق في القرآن، ص 54، 158، 216، 291، 380، 585، 628، 670 وغيرها، ومدخل إلى القرآن الكريم، ص 130، 132، 170، 171، والنبأ العظيم، ص 70، 84، 88، 92، وزاد المسلم للدين والحياة، ص 54، 56، 108، 111، وغيرها. ودراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، ص 19، 24، 120، 123 وغيرها.

3- دستور الأخلاق في القرآن، ص 345، 362.

4- المصدر نفسه، ص 363، 400.

5- المصدر نفسه، ص 344.

6- المصدر نفسه، ص 347.

7- المصدر نفسه، ص 360.

8- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد محمود حجازي، ط، دار الزقازيق، ط2، 2004م، ص 79.

كما أن جمع جزئيات هذه الموضوعات يشكل مظهرا من مظاهر «كمال الوحدة الموضوعية وتناسقها في جميع السور التي تكرر فيها الموضوع». (1)

المطلب الثالث: الموازنة بين السور القرآنية.

وهذا منهج أصيل عند دراز في التفسير الموضوعي عموما، وفي بيان الوحدة الموضوعية خصوصا، وهو في ذلك يوازن بين سورتين متجاورتين في المصحف فقط (2)، أو في الترتيب النزولي (3)، أو في كلا الترتيبين (4)، أو بين سورة واحدة وباقي سور القرآن الكريم (5)، وهذا نهج جديد عند الشيخ، أو حتى بين بين مناهج السور المكية. (6)

كما تشمل الموازنة أيضا الموضوعات الجزئية بعضها مع بعض، وكذلك الأساليب القرآنية في بعض موضوعات القرآن الكريم. (7)

فمن أمثلة الموازنة بين سورتين متجاورتين في الترتيب المصحفي الموازنة بين سوري الملك والقلم، فقد أشار فقط إلى وجه التمايز بينهما فقال: «حدثنا سور الملك عن الله تبارك اسمه وعن مصير الكافرين به، وتحدثنا سورة القلم عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعن حال المكذبين له...». (8)

كما قد أشار - في مقام آخر - إلى وجه التشابه، ولكن هذه المرة بين سورتين متجاورتين في

الترتيب النزولي، سورة العلق وسورة القلم، إذ قال في ذلك: «وما هو جديد بالملاحظة، أن هاتين السورتين اللتين افتتح بهما الوحي... قد صدرت كلتاهما بالتنويه بشأن القلم...». (9)

ولكنه فصل الموازنة بين وجوه التمايز والتشابه؛ حينما جمع الدراسة بين سورتين اشتركتا في الترتيب المصحفي والنزولي معا، هما سورتا يونس وهود؛ إذ هما متشابهان في الغرض العام، وحتى في مطالعتهما

1- المصدر نفسه، ص 87.

2- حصاد قلم: محمد دراز، ص 189.

3- المصدر نفسه.

4- المصدر نفسه، ص 24 وما بعدها.

5- المصدر نفسه، ص 105.

6- المصدر نفسه، ص 147.

7- دستور الأخلاق في القرآن، ص 275، 291، 452.

8- حصاد قلم: محمد دراز، ص 189.

9- المصدر نفسه، ص 189.

ومقاطعتهما؛ إذ بدأ أولاً بعرض أغراض وموضوعات كل سورة على حدى، ثم جمع وجوه التشابه بينهما، ثم فرق وعدد وجوه التمايز، فوجه الشبه بينهما أن كليهما «بدأت بالعقائد الثلاث، وأردفت عليها القصص، وختمت بالخاتمة»⁽¹⁾ أما وجوه التمايز فكما يل:

1 - شغلت العقائد الثلاثة ثلاثة أرباع سورة يونس، وشغلت القصص الربع الباقي، في حين أن العقائد شغلت سدس سورة هود، وخمسة أسداس الباقية للقصص ولواحقه.

2 - ما طوى من قصص الأنبياء في آية واحدة من سورة يونس قد فصل في ست وأربعين آية من سورة هود، وأن ما فصل هناك من قصة موسى وهارون قد لخصنا هنا في أربع آيات.

3 - بدأت سورة هود علاج العقائد بإثبات الرسالة والقرآن، ثم البرهنة عليه بالتحدي، ثم من ناحية شهادة الكتب السابقة له، وبدأت سورة يونس ذلك من ناحية الداعي وسيرته، ثم من ناحية طبيعة الكتاب، ثم من ناحية التحدي بسورة واحدة.⁽²⁾

ومن أمثلة التناسب بين الموضوعات الجزئية، موازنته الدقيقة بين الجزء الأخلاقي والجزء الشرعي، فبعد تحليل آيات كل منهما، يصل بعد ذلك إلى تلخيص وجوه التمايز والتشابه بينهما، فيقول: «على الرغم من اختلاف طبيعتهما، وتعارض مجالات تأثيرهما، ومناهجهما، وأهدافهما، بحيث يؤثر أحدهما مباشرة على النفس الإنسانية ويستهدف المطلق، على حين لا يبلغ الآخر مباشرة سوى الحواس الظاهرة، ولا يرى أمامه سوى النظام الاجتماعي، على الرغم من هذا كله، فإن بين نوعي الجزء... حظاً مشتركاً هو أنهما ينتميان إلى مجال الواقع، وأنهما يمارسان في هذه الدنيا».⁽³⁾

إن منهج المقارنة بهذا هو الذي يحدد الموضوعات القرآنية المدروسة في كل سورة بجددة، بعد أن

يضع نصوصها في أمكنتها الطبيعية بدقة.⁽⁴⁾

¹ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 27.

² - المصدر نفسه، ص 27-28 بتصرف.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 275، 276.

⁴ - ينظر: حصاد قلم: محمد دراز، ص 30.

المطلب الرابع: بين الترتيب النزولي والترتيب المصحفي.

أكد محمد عبد الله دراز أولاً أن الترتيب المصحفي توقيف ووحى من الله تعالى، اتفق عليه المسلمون، وهو الذي يجب أن يتبع في تفسير القرآن الكريم، وكشف مزاياه الإعجازية، حتى لا يؤدي خلافه إلى «إفساد النسق، وتشويه جماله، ونقض بنيانه المحكم الوثيق»⁽¹⁾.

يقول مؤكداً ذلك في رده لمن دعا بإعادة ترتيب المصحف وفق نزوله: «ألا فليعلم حضرته - إن لم يكن يعلم - أن الأمر كذلك في السور (التوقيفية)، وأن الأمة لم تختلف في شأنها اختلافاً يعتد به إلا في موضع واحد، وهو جعل سورة التوبة بعد سورة الأنفال بغير بسملة... ولكن جمهور العلماء أجمع على أنه توقيفي كسائر السور...»⁽²⁾.

وبالمقابل فإنه جزم بأن الترتيب النزولي كان مقترنا بالآيات القرآنية المنزلة على النبي - صلى الله عليه وسلم - في العهدين المكي والمدني، وأما السور القرآنية فلم تخضع للترتيب النزولي أو الترتيب المنطقي، وإنما «كان هناك تصميم لكل سورة، فضلاً عن تصميم أو خطة عامة للقرآن في جملته»⁽³⁾.

وليس الأمر - كما يُظن - أن هناك فجوة أو هو صدمة عنيفة بين السور المكية والمدنية في ترتيبها المصحفي، يخرج القارئ عن المعاني المتسلسلة التي فرضها السياق التاريخي كنزول السور القرآنية، بل إن «مقاصد القرآن وأهدافه في السور المكية والمدنية واحدة: وهي إصلاح العقائد، وتنظيم مناهج السلوك للأفراد والجماعات»⁽⁴⁾.

كما أننا لو «نفذنا إلى المعاني والأساليب لوجدنا ضرباً أخرى من التسلسل التعليمي والبياني تلتحم فيه السورة مع ما قبلها وما بعدها في أحسن وضع وأحكمه»⁽⁵⁾.

وهنا كما قال دراز كي نفهم الحكمة من الترتيب النزولي والمصحفي يجب أن نفرق بين مقامين مختلفين: «مقام التنزيل والتعليم، ومقام التدوين والترتيل، وهما مقامان قد وضعا من أول يوم لتحقيق غرضين متفاوتين، فكان أولهما يعتمد حاجات التشريع، وثانيهما يرتبط بحاجات الوضع البياني»⁽¹⁾.

¹ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 58.

² - المصدر نفسه، ص 47.

³ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 129.

⁴ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 49.

⁵ - المصدر نفسه، ص 55.

فأما حكمة الترتيب النزولي، فهي الدلالة على الخطة التربوية والتشريعية التي اتبعتها الوحي في علاج النفوس وحل المشكلات⁽²⁾، وتأسيس منهج الحياة الصحيحة «على حسب حاجات النفوس من الإصلاح والتعليم، وروعيته في ذلك حكمة التدرج والترقي في التشريع على أحسن الوجوه وأكملها».⁽³⁾

وعلى هذا عالج دراز الكثير من الموضوعات القرآنية ليضع بين أيدينا خطة القرآن الكريم وموقفه في دراسة هذه المباحث النظرية والواقعية والتي تجمع بين خاصيتي التصور الصحيح، والإصلاح الواقعي المتين، وذلك كموضوعات النظرية الأخلاقية القرآنية الخمسة: المسؤولية⁽⁴⁾، الإلزام أو الواجب⁽⁵⁾، الجزاء⁽⁶⁾، النية والدوافع⁽⁷⁾، وأخيرا الجهد بنوعية الحمود والمذموم⁽⁸⁾، وموضوعات أخرى عالجها دراز وفق هذا المنهج.⁽⁹⁾

فمن ذلك عرضه لمراحل دعوة النبي - صلى الله عليه وسلم - لأقاربه: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ» [الشعراء/214] إلى دعوة مكة بأسرها «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِنَّ آيَاتِنَا» [القصص/58]، ثم القرى المجاورة «وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا» [الأنعام/92]، ثم البشرية جمعاء «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» [الأنبياء/107].⁽¹⁰⁾

و إن من أهم حكم الترتيب المصحفي عند دراز - والمتفق عليه - الدلالة على إعجاز القرآن الكريم البياني في شكل «وجه هندسي منطقي بليغ، تبرز به وحدتها البيانية (السور) في مظهر لا يقل جمالا وإحكاما عنها في وضعها الإفرادي التعليمي».⁽¹¹⁾

¹ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 51.

² - ينظر: مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 131.

³ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 51.

⁴ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 134.

⁵ - المصدر نفسه، ص 19.

⁶ - المصدر نفسه، ص 243.

⁷ - المصدر نفسه، ص 419.

⁸ - المصدر نفسه، ص 583.

⁹ - يراجع: مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 131-132.

¹⁰ - المصدر نفسه، ص 131.

¹¹ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 51-52.

و تكون السورة القرآنية بهذا مكونة من وحدة مزدوجة منطقية، وأدبية وهي بذلك تشكل كما قال: «معجزة المعجزات».⁽¹⁾

ومن أهم الحكم أيضا هنا كما قال دراز: «أن هذا المنهج القرآني في تلوين البيان وتنويع العلوم ليس فقط من أهم المقاصد البلاغية، تشويقا إلى الحديث، وتطويرا للنشاط، وترويجا للنفس من عناء العلائق البشرية... بل هو كذلك من أحكم الوسائل التربوية العملية... من شأنه أن يمكن العقول والقلوب من هضم القوانين وتمثلها، وأن يحول النفوس إلى قوى محركة تمد الإرادات بأقوى بواعثها».⁽²⁾

فمن ذلك أنه لما عالج الجزاء الإلهي في الآخرة في آياته المكية 80 آية، وآياته المدنية 58 آية، وصور النعيم في الجنة (102 مكية، و70 مدنية)، لاحظ أن هذه الآيات موزعة على سور كثيرة لا على هذا النسق المعالج؛ لأن القرآن «لا يحرص كثيرا على أن يحدث في الروح هذا الأثر المضلل الناشئ من صورة محدودة منتهية... وإذا كان يلمس القلب فإنما يلمسه بحكمة واعتدال، ولكنه من ناحية أخرى لا يكشف لنا عن نفسه على أنه ثمرة علم بلغ هدفه منذ البداية... وإنما هو ثمرة تعليم منزه متدفق، يبدو مع ذلك أنه متصل بخطة توقيفية، لا تجارب فيها ولا تنقيحات».⁽³⁾

وبيّن في نماذج متعددة الترابط الفكري والمعنوي بين السور في الترتيب المصحفي؛ كاستهلال سورة الفاتحة المصحف؛ لأنها وقعت «موقع الفهرس الذي يعرض بإيجاز محتويات الكتاب قبل الدخول في تفاصيله»⁽⁴⁾، وقد جسدت الدعاء بالهداية، وسدت سورة البقرة هذه الحاجة في بدايتها، فلو «أنا وضعنا الفاتحة على ترتيب نزولها... بين سورتي المدثر وأبي لهب، كيف كان يبدو بها موضعها... وكيف يصبح القرآن كتابا بغير فهرس؛ بل جسما بلا رأس».⁽⁵⁾

ويتعدى هذا الترابط إلى كل سورتين متجاورتين في الترتيب المصحفي؛ كالتقابل بين سورتي الأحقاف ومحمد صلى الله عليه وسلم بداية وختاماً، وقد «وضعت في آخر الأحقاف قنطرة لطيفة

¹ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 130.

² - حصاد قلم: محمد دراز، ص 49.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 384.

⁴ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 56.

⁵ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 56-57.

للعبور منها إلى المعنى الجديد؛ فلقد كان الإنذار بإهلاك الفاسقين في آخر السورة الأولى خير توطئة للأمر بنوع من أنواع هذا الإهلاك في السورة التي تليها»⁽¹⁾.

فالشيخ دراز بهذا يعتمد كلا الترتيبين في مقامين مختلفين، ولكنه في أحيان كثيرة لا يلتزم بكلا الترتيبين، في دراسته لكثير من الموضوعات القرآنية كموضوعات، مخالقات القرآن لطبع الرسول - صلى الله عليه وسلم -⁽²⁾، وموقف القرآن من أهل الكتاب⁽³⁾، والرسول في القرآن⁽⁴⁾؛ بل ذلك ملاحظ على موضوعات النظرية الأخلاقية في كتابه "الدستور"⁽⁵⁾، مما يدل أن دراز يعتمد نمطا ثالثا في الترتيب، هو ترتيب وفق النسق الفكري والمنطقي لأجزاء الموضوع القرآني الواحد.⁽⁶⁾

المطلب الخامس: اعتماد السياق، الإحصاء، والاستقراء في تفسيره.

لا شك أن مراعاة السياق للألفاظ والجمل والآيات في مواقعها من الضوابط المهمة في صحة تفسير القرآن عموما، وفي سلامة التفسير الموضوعي خصوصا، فيجب «أن تربط الآية بالسياق الذي وردت فيه، ولا تقطع عما قبلها وما بعدها، ثم تجر جرا لتفيد معنى، أو تؤيد حكما يقصده قاصد»⁽⁷⁾.

يقول الزركشي: «الرابع: دلالة السياق، فإنها ترشد إلى تبين الجمل، والقطع بعدم احتمال غير

المراد... وهو من أعظم الدلالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره»⁽⁸⁾.

ولهذا اعتمده محمد دراز كثيرا في تفسيره، لأنه الأنسب في التفسير الموضوعي بم ينبهه على عموم الآيات، وانسجامها مع غرض السورة وأهدافها العامة، ثم يأتي بدرجة أقل الدلالة على عموم معاني الألفاظ القرآنية؛ خاصة إذا تقيدت هذه الألفاظ وتلك الآيات بأسباب نزولها، ففي بعض الأحيان

¹ - المصدر نفسه، ص 49.

² - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 54.

³ - المصدر نفسه، ص 88، و مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 162.

⁴ - زاد المسلم للدين والحياة: محمد دراز، ص 108.

⁵ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن، محمد دراز، ص 57، 68، 147، 149، 201، 257، 356، 399، 374، 452، 586، 587، 656، 725، 746، وغير ذلك.

⁶ - يراجع: المصدر نفسه، ص 375، 376، 488، 507، 551، 629، وغيرها.

⁷ - كيف نتعامل مع القرآن العظيم: يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط4، 2005م، ص 238.

⁸ - البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، 200/2-201.

يعتمد في تفسيرها سياقاتها التاريخية والنفسية إضافة إلى سياقاتها اللغوية الموضوعية، مما يعكس سعة نظرة دراز في اعتماد السياق.

واللغة في كثير من الأحيان لا تميز لنا بدقة المعاني المطلوبة، بل تخلط بينها في ألفاظ جامعة، وتترك لنا مهمة تمييز المعنى الدقيق المراد منه، بحسب السياقات، أو الظروف التي يستعمل فيها⁽¹⁾ مثل هذه الألفاظ.

من ذلك أنه لم يتقيد بتحديد الشخص - حسبما أشار إليه المفسرون - في قوله تعالى: «وَلَا تُطَعُّ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٌّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» [القلم / 10-15]، بأنه الوليد بن المغيرة أو الأحنس بن شريق، أو أبو جهل⁽²⁾، وإنما قصد التعميم هنا اتكالا على سياق الآيات والسورة (مواجهة مواجهة النبي - صلى الله عليه وسلم - لآتهامات الأعداء في مكة وغيرها)، فقال في ذلك: «ونحن لا يعيننا شخص من نزلت فيه الآيات، وإنما تعيننا العبرة في صفاته وما تظنه إلا صاحب المقالة السفهية...»⁽³⁾.

وعلى هذا فإنه كان كثير التعويل على مناسبات وظروف التنزيل في تفسير الموضوعات الجزئية، والعامية للصور القرآنية؛ فمن ذلك ملاحظته التخبطات الفكرية للمشركين تجاه مسألة اليوم الآخر، إبان العهد المكي، ونزول سورة النبأ - بعد ذلك - معالجة لهذه الشكوك والشبهات.⁽⁴⁾

ومن أمثلة ترجيح المعاني اعتمادا على قرنية السياق، قوله تعالى: « وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً» [النساء / 10]، يقول في ذلك: «قد يكون معناه: يجد في الأرض حرية ورخاء، وقد يكون معناه: يجد في الأرض منجاة من أعدائه، ويؤدي عمله في أوسع مجال، وهذا التفسير الأخير يتفق مع السياق «أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا» [النساء / 97]».⁽⁵⁾

¹ - دستور الأخلاق في القرآن، محمد دراز، ص 423.

² - يراجع: تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 71/29.

³ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 200.

⁴ - المصدر نفسه، ص 221-222.

⁵ - دستور الأخلاق في القرآن الكريم: محمد دراز، ص 346.

غير أنه في بعض الأحيان لا يقتصر على دلالة السياق الموضوعية، بل يتعداها إلى اعتبارات لغوية وأخرى عقلية، فمن ذلك توقفه عند قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» [الطور/21].

يقول في ذلك: «إننا حين نرجع إلى النص العربي نلاحظ أن كلمة (ألق) يمكن أن تفسر بمعنى (شبه)، أو بمعنى (أبع وضم)، فإذا لم يكن في السياق شيء يحتم أحد هذين المعنيين، فإن هناك مع ذلك عدة اعتبارات لغوية، وأخرى ذات طابع عقلي، تدفعنا إلى أن نختار المعنى الأخير»⁽¹⁾.

ثم بين أن العقل لا يمنع الاستقرار في منزلة واحدة إذا لم يكتف الأولد بنوهم الطبيعية، بل أضافوا إليها البنية الروحية، في التأسى والافتداء الحسن، ومع ذلك «فإن هذا الاتحاد في جنة الله لا ينفي مطلقا التدرج في الجزاء، ولا يستتبع بالضرورة اختلاطا في القيم، فنحن ندرك جيدا أن أعضاء جمعية واحدة متدرجون في مناصبهم، مختلفون في وظائفهم، متفاوتون في استحقاقاتهم...»⁽²⁾.

وأما عن الاستقراء أو الإحصاء - كما يسميه دراز - فهو عمدة التفسير الموضوعي؛ إذ يعكس منهج التجميع لآيات القرآن الكريم التي تعالج الموضوع نفسه.

وقد عول دراز عليه كثيرا، وبنى عليه منهج تجميع آيات الموضوعات الأساسية للنظرية الأخلاقية⁽³⁾، وموضوعات أخرى عامة⁽⁴⁾، وحتى إحصائه بعض الألفاظ والمصطلحات القرآنية⁽⁵⁾، ولقد بلغ مجموع الآيات الكلي التي أحصاها مثلا في كتابه "دستور الأخلاق في القرآن" 1333 آية مكية، و1060 آية مدنية تحت عناوين بلغ عددها 355 عنوانا.⁽⁶⁾

وقد بذل في ذلك مجهودا عظيما «في إعداد هذه الإحصائيات يدويا، وفي زمن لم يكن الحاسوب الإلكتروني قد اخترع بعد»⁽⁷⁾، ولعل أبرز مثال على ذلك تتبعه لموارد لفظة الألوهية (الله) في القرآن

¹ - المصدر نفسه، ص 158.

² - المصدر نفسه، ص 159.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 147 وما بعدها، 282 وما بعدها، 344 وما بعدها، 482 وما بعدها و 587 وما بعدها.

⁴ - المصدر نفسه، ص 453، 486.

⁵ - المصدر نفسه، ص 453، 486.

⁶ - يراجع: مقال بعنوان: في عبقرية الشيخ اللغوية، محمد عبد العظيم علي، نشر في كتاب: حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد دراز، إعداد مصطفى فضلية، دار القلم، الكويت، ط1، 1426هـ، 2005م، ص 94.

⁷ - المرجع نفسه.

الكريم؛ إذ يقول في ذلك: «الواقع أن هذا الكتاب في صفحاته الخمسمائة التي يتألف منها عادة، بلغت القائمة التي أحصيناها لذكر الله فيه عددا: 10620 مرة، أي: أن الله مذكور في الصفحة المكونة من 15 سطرا عشرين مرة، وليس سوى 32 صفحة يقل في كل منها ذكر الله عن عشر مرات»⁽¹⁾ وهو لا يكتفي هنا بإحصاء اشتقاق المصطلح في القرآن الكريم، بل يتعدى ذلك إلى ذكر مناقضاته وأضداده، وذلك قصد سبر الموقف القرآني من كل جوانبه.

فمن ذلك أنه تحدث عن صور الجزء الإلهي العاجل في الحياة الدنيا، فذكر نصوصا كثيرة أشارت إلى محبة الله للطائعين ومعيته لهم، ثم قال بعد ذلك: «ونقيض هذه المذكورات كلها قلما يغيب عن أعيننا...»⁽²⁾، ثم سرد نصوصا أخرى أشارت إلى غضب الله وسخطه على العاصين والكافرين. وهو أيضا - إضافة إلى ذلك - يستخدم جداول عامة يسجل فيها هذه الأفكار المحصاة بأرقامها وأبعادها ولطائفها، وذلك كتسجيله للجزءات الإلهية في شكل أرقام إحصائية للآيات المكية والمدنية قائلا في ذلك: «فتلك إذن أرقام تتحدث ببلاغة أكثر من أي تحليل نظري».

وقد تأصل منهج الإحصاء والاستقراء عند دراز تأصلا مكينا، وانبثقت منه ملامح المنهج الموضوعي عنده، ألا وهي: التجميع، والتصنيف، والشمولية، ثم استنباط النظريات والمواقف العامة، وذلك حسب النصوص المتوفرة بين يديه، في كل موضوعات النظرية الأخلاقية القرآنية.

فبدأ أولا بجمع النصوص التي تعالج فكرة واحدة، ثم يصنفها في مجموعات متميزة، ثم يرمز للنصوص المكية برمز "أ"، وللنصوص المدنية برمز "ب"، ثم يلمح أفكارها وأبعادها، ويدرس جزئياتها وعناصرها، وهو - أحيانا كثيرة - يغفل ذكر بعض الآيات ليرجى ذكرها لاحقا، كما في قوله: «كيما نحتفظ به في المجموعة الثالثة»⁽³⁾، وقوله: «فكان علينا أن نغفل هذه الآيات، من حيث لا تتصل بالمجموعة التي تهمننا الآن»⁽⁴⁾ وغيرها، كما أنه - أحيانا أخرى - يقتصر على الإحصاء الناقص لك الموضوع، معللا ذلك بقوله: «وإذن فلسوف يكون من المجازفة والتخبط أن نشرع في إحصاء كامل لكل الانحرافات،

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، هامش 5، ص 486.

² - المصدر نفسه، ص 358.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 322.

⁴ - المصدر نفسه، ص 292، هامش 4.

أو حتى أن نجري تصنيفا عاما لمختلف أنواع هذه المجموعة»⁽¹⁾ في موضوع النيات السيئة، وقوله أيضا: «فقد اكتفينا بأن سقنا بعضا منها، ذا دلالة كافية على القواعد المختلفة للسلوك، ثم حاولنا من بعد ذلك أن نتجنب التكرار بقدر الإمكان».⁽²⁾

لما درس مثلا آيات الجزاء وفق ترتيبها النزولي والمنطقي، قال: «وإذا كانت ضرورة التحليل، وسهولة الإحصاء قد اضطرانا إلى أن نفرّد العنصرين المكونين للحياة السعيدة...»⁽³⁾، ثم بيّن هدف التصنيف لها ومنها، فهو - كما قال - «أن نعطي للقارئ إحساسا دقيقا بمنهج التبليغ الذي اتبعه القرآن...»⁽⁴⁾، ثم استنبط نتائجها وتصوراتها القرآنية، ومنها أن «القرآن يعلن أن النفس الإنسانية مستودع قانون أخلاقي فطري»⁽⁵⁾، ومنها وهن الآراء التي تصف الأخلاق الدينية «بأنها تضرب صفحا عن الضمير، فرديا كان أو جماعيا، وأنها تستمد كل قوتها، وكل سلطتها من إرادة علوية...»⁽⁶⁾.

ولدراز تعبيرات كثيرة للدلالة على منهج الإحصاء، كالتصريح به كما مر بنا آنفا، أو التصريح بالعدد للآيات المجموعة⁽⁷⁾، أو تعبيرات عامة، كقوله: «فإن القرآن يؤكد لنا في مواضع كثيرة»⁽⁸⁾، وقوله: «ونلاحظ فيما يتعلق بالقرآن أنه في جميع المواضع...»⁽⁹⁾، وقوله: «والذي يتقصى فواتح السور القرآنية...»⁽¹⁰⁾، وغير ذلك.⁽¹¹⁾

ومن أبرز الأمثلة على ذلك دراسته للقسم الوارد في سورة التكويد⁽¹²⁾، وبعد تتبع دقيق لمواضعه في القرآن توصل إلى خلاصة عامة مفادها كما قال: «وكل أقسام القرآن منشورة كانت أو مطوية، إنما

¹ - المصدر نفسه، ص 546.

² - المصدر نفسه، ص 10-09.

³ - المصدر نفسه، ص 384-383.

⁴ - المصدر نفسه، ص 399.

⁵ - المصدر نفسه، ص 403.

⁶ - المصدر نفسه.

⁷ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 291، 303، 318، 319، 328 وغير ذلك.

⁸ - المصدر نفسه، ص 571.

⁹ - المصدر نفسه، ص 663.

¹⁰ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 191.

¹¹ - كقوله أيضا: «ومن أول القرآن إلى آخره...»، مدخل إلى القرآن الكريم، محمد دراز، ص 85.

¹² - في قوله تعالى: «فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ» [التكويد/15].

هي استشهادات بحق على حق، وأكثرها استشهاد بالحقائق الحسية المسلمة على الحقائق الغيبية المتنازع فيها...»⁽¹⁾.

وإذا كان هذا الاستقراء كاملاً، فأغلب استقراءاته ناقصة وبعضها غير صحيح، وقد اعترف بذلك حينما قال: «ولسنا ندعي أننا قدمنا إحصاء منزها عن الخطأ، ولكن على الأقل قدمنا الأحداث الرئيسية...»⁽²⁾، ونظائر هذا في تفسيره كثيرة.⁽³⁾

ولا يُكتفى ببعض الآيات القرآنية دون الأخرى في الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم، بحجة تفادي التكرار، أو وضوح الفكرة في بعضها أو غير ذلك - كما قال دراز -، وإنما يتعلق نجاح التفسير الموضوعي - خاصة للموضوع القرآني - بمدى تحقيق الإحصاء الكامل لكل النصوص والآيات، وليس هناك ما يسمى بالتكرار الناقص حسب تحقيق أهل التخصص في هذا المجال.⁽⁴⁾

المطلب السادس: توظيف واعتماد منهجية التفسير التحليلي ضمن التفسير الموضوعي.

عرفنا من قبل أن الدارسين المعاصرين اشترطوا تفسير الآيات المجموعة «تفسيرا تحليليا تظهر من خلاله كل الفوائد والمقاصد والأهداف التي توصل إلى بلورة ذلك الموضوع»⁽⁵⁾، كخطوة هامة من خطوات البحث الموضوعي سواء للموضوع القرآني أو للسورة القرآنية⁽⁶⁾، أو حتى للمصطلح القرآني عند عند من اعتمده.⁽⁷⁾

وبهذا يظهر أن التفسير الموضوعي لا يستغني عن التفسير التحليلي أو الموضوعي - كما يسميه محمد الغزالي وكما قال - «بل هو تكميل له وجهه ينضم إلى جهوده المقدورة»⁽⁸⁾؛ وذلك «لأن التفسير

¹ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 234.

² - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 400.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 153، 148، 250، 391، 549، 625، 652، وغيرها، والنبأ العظيم، ص 88-92، وغيرها.

⁴ - يراجع منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 35، 37، والتفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحمان، ص 60، وغيرها.

⁵ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 52.

⁶ - يراجع: منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 45، 138، والتفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحمان، ص 61، 66.

⁷ - يراجع: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 76.

⁸ - نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، ص 06.

التفسير التحليلي ينصب على معرفة دلالة الكلمة اللغوية ودلالاتها الشرعية، والتعرف على الرابط بين الكلمات في الجملة، وبين الجمل في الآية، وبين الآيات في السورة...»⁽¹⁾.

وقد أكد محمد دراز كثيرا على أهمية التفسير التحليلي في معرفة وجوه الارتباط والعلائق بين الآيات القرآنية مما يعكس وحدة النسق، وتماسك البناء القرآني، ولكنه يشترط قبل تحقق ذلك الالتزام بالرؤية الشاملة لجو السورة العام، ويقول في ذلك: «فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضوعية بين جزء وجزء... إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها، وضبط مقاصدها على وجه يكون معاوناً له على السير في تلك التفاصيل على بينة»⁽²⁾.

وهو ينادي بفهم معاني الآيات وفق المنهج التحليلي، فيقول مثلاً عن استحضرار رقابة الله علينا في أنفسنا داخل نظام التوجيه القرآني للأخلاق: «ومع ذلك فلا شيء يمنع قارئ القرآن وهو يجتهد في تفهم الأفكار التي تضمنتها الآيات من أن يتأثر بها تبعاً للحالات التي تتحدث عنها أولاً...»⁽³⁾، ونظائر ذلك كثيرة في تفسيره⁽⁴⁾.

ومن أمثلة ذلك تفسيره التحليلي لقوله تعالى: « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ » [غافر/28].

يقول دراز: «إن ذنب هذا الرجل هو أنه قال ربي الله، وأقام الأدلة على دعواه... ولكن... تعالوا نقدر حساب أرباحنا وخسائرنا في قبول دعوته... إنه يزعم أنه يحمل رسالة إلهية، ويتوعد مخالفها بعقوبة السماء، فإن فرضنا أنه كاذب فلن يعود إثم كذبه إلا على نفسه...»⁽⁵⁾.

كما أن دراز لا يكتفي في تحليل المعاني القرآنية الموضوعية بالمنهج التحليلي، بل يعتمد كذلك المنهج الإجمالي التلخيصي⁽¹⁾، والمنهج المقارن بين الموضوعات والنظريات التفسيرية، ويعلل له قائلًا:

¹ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 51.

² - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 192.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 322.

⁴ - يراجع: المصدر نفسه، ص 138، 241، 323، 383، 454، 557، 629 وغيرها، وحصاد قلم، ص 144، 167، 185، 193، 194، 205، 211، 227، 238، وغيرها، وزاد المسلم للسدين والحياة: ص 34، 39، 50، 81، 133 وغيرها.

⁵ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 157.

«فإن ذلك سوف يكون مفيداً؛ إذ يعين على استخراج المفهوم القرآني في هذا الموضوع، بما يتميز به من تركيب وغناء».⁽²⁾

فمن نماذج التفسير الإجمالي شروعه في تفسير القسم الأول من أقسام الحديث عن اليهود الأربعة في سورة البقرة؛ إذ يقول في ذلك: «استهل الخطاب في هذا القسم بثماني آيات يعرّف فيها بني إسرائيل بتفاصيل المنن التي امتن بها عليهم مرة بعد مرة...».⁽³⁾

ومن نماذج التفسير المقارن تلك الموازنات العديدة بين الأخلاق القرآنية من جهة والأخلاق العلمانية والأرسطية أو النظريات الفلسفية الحديثة من جهة أخرى.⁽⁴⁾

المطلب السابع: استنباط المواقف والتصورات واستخلاص الدروس والعبر.

يؤكد الدارسون المعاصرون في التفسير الموضوعي، أن من أهم مراحل المقاصدية استخلاص الدروس والدلالات وملاحظة الأبعاد الواقعية والاجتماعية للموضوعات العامة والخاصة في القرآن الكريم؛ بل نصوا أن تسجيل الحقائق القرآنية في شكل التصورات والمواقف من أهم خطوات البحث في منهج التفسير الموضوعي بألوانه الثلاثة.⁽⁵⁾

ولا غرو أن يعتمد محمد دراز هذه المفردة المنهجية في التفسير الموضوعي؛ إذ ذلك يستجلي هداية الله عز وجل في خلقه، خاصة المعرضين عنه، ويبين أنها «هداية كاملة بالبيان الوافي الشامل لكل شيء».⁽⁶⁾

¹ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: ص 222، 245، 382، 462، 471، 618، وغيرها، وحصاد قلم: محمد دراز، ص 153، 161، 165، 170، 180، 189، 213، 231، وغيرها.

² - دستور الأخلاق في القرآن: ص 277.

³ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 224.

⁴ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: ص 409، 623، 670، 674، 683، وغيرها.

⁵ - يراجع: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح الخالدي، ص 67، 71، 75، والتفسير الموضوعي في كفتي الميزان، عبد الجليل عبد الرحيم، 1/ 72، 73.

⁶ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 224.

كيف لا وهو الذي صرح بأن هدفه العام هو إقناع الغرب بمداية القرآن، وتقريب حقائقه إليهم، فالقرآن - كما قال - «دعوة عالمية تهدف إلى تطهير العادات وتوضيح العقائد والتقريب بينها، وإسقاط الحواجز العنصرية والوطنية، وإحلال قانون الحق والعدل محل قانون القوة الغاشمة».⁽¹⁾

و هو في استخلاصه الدروس العامة يجمع بين استنباط التصورات الصحيحة، وتقديم المواقف والحلول القرآنية للأزمات التي تعاني منها البشرية في كل زمان وكل مكان، ويرى أن ذلك أثر معجز للقرآن من ناحيتي النظرية والتطبيق، كيف لا؟ وهو الذي لام على من قبله أنه لم يقم «باستخلاص الشريعة الأخلاقية من القرآن في مجموعه»⁽²⁾، وأكد أن القرآن «قد تميز بذلك الامتداد الرحب الذي ضم فيه جوهر القانون الأخلاقي كله»⁽³⁾، وأضاف في دراسته للنظرية الأخلاقية أن «تنظيم النصوص بمجموعها على هذا الوجه يبني لنا منهجا كاملا للحياة العملية كما رسمها القرآن: كيف ينبغي على الإنسان أن يسلك مع نفسه، وفي أسرته ومع الناس أجمعين؟ وما المبادئ التي يجب أن تحكم العلاقات بين الحاكمين والمحكومين، وبين الدول والمجتمعات؟ ... وكيف يؤدي الإنسان العبادة لله؟ وكل ذلك قد قيل بطريقة واضحة محددة»⁽⁴⁾، وقد «أتاحت الشريعة القرآنية للنفس الإنسانية أن تطمئن إلى سعادة مزدوجة، تجمع أيضا بين النقيضين: خضوع في الحرية، ويسر في المجاهدة، ومبادأة في الاستمرار، وقليل من فهم تلك الحكمة الرفيعة».⁽⁵⁾

فمن ذلك أنه استخلص الكثير من القواعد الإصلاحية القرآنية في مجال العقائد⁽⁶⁾، والجوانب الاجتماعية⁽⁷⁾، والاقتصادية⁽⁸⁾، والتربوية⁽⁹⁾، والأخلاقية⁽¹⁰⁾، والأسرية⁽¹¹⁾، وأخرى إصلاحية بالقُدوة والمثل الأعلى⁽¹⁾، وبالعقاب وردع الإجرام⁽²⁾، وغيرها.

1- مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 15.

2- دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 08.

3- المصدر نفسه.

4- المصدر نفسه، ص 10.

5- مصدر سابق، ص 11.

6- يراجع: زاد المسلم للدين والحياة: محمد دراز، ص 33، 87، 239، وغيرها، وحصاد قلم: دراز، ص 138، 173 وغيرها.

7- يراجع: النبأ العظيم، محمد دراز: ص، 266، وما بعدها، وحصاد قلم: محمد دراز، ص 141، 144، 145، وغيرها.

8- يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 487، 506، وحصاد قلم: محمد دراز، ص 176، وغيرها.

9- يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 167، 233، 149، 261، 266، 318، 408، وغيرها.

10- يراجع: المصدر نفسه، ص 441، 451، 493، 503، 537، 667 وغيرها.

11- يراجع: المصدر نفسه، ص 386، 547، وغيرها، والنبأ العظيم: محمد دراز، ص 269، 270.

و أبرز مثال على ذلك أنه وضع خاتمة عامة لكل فصول النظرية الأخلاقية سجل فيها أهم النتائج والحقائق القرآنية، والدروس والعبر وأهمها التصورات العامة للنظرية الأخلاقية، وهي :

- 1 دينية الأخلاق القرآنية تجمع بين الإيمان والعقل، وذات نظام تربوي فريد صالح لكل شرائح المجتمع.
- 2 أن الأخلاق الدينية تنفرد في مجال " النية والقصد " ابتغاء وجه الله دون منازع.
- 3 تقسّم الأخلاق القرآنية بالتوفيق بين الجوانب الإنسانية والإلهية، الفردية والاجتماعية، باجتماعها في فكرة مركزية، هي فكرة التقوى.
- 4 - الواجب بهذا هو شعور الاحترام مركب من جناحي الحب والخوف وهو خلق الحياء وغيرها. (3)

¹ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 335، 337، حصاد قلم: محمد دراز، ص 196، 197، 212 وغيرها.

² - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 266، 407 .

³ - يراجع: المصدر نفسه، ص 675 وما بعدها.

المبحث الرابع: أهم خصائص ومزايا تفسيره.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الخصائص النظامية والشكلية.

المطلب الثاني: الخصائص المعنوية والمضمونية.

المطلب الثالث: الخصائص اللغوية والبلاغية.

المبحث الرابع: أهم خصائص ومزايا تفسيره.

بعد هذه الجولة الممتعة والطواف الشيق في التعرف على معالم منهج الشيخ محمد دراز، برزت لنا ثلاثة خصائص ومزايا التقت عندها مؤلفاته القرآنية: خصائص نظامية شكلية، وخصائص معنوية مضمونية، وخصائص بلاغية بيانية ولغوية، وتفصيلها يرد في المطالب التالية:

المطلب الأول: الخصائص النظامية والشكلية.

وهي مزايا وخصائص تجسد الحاسة المنهجية، والمنحى الأكاديمي لمحمد عبد الله دراز وخاصة في مؤلفاته العلمية منها، ولعل أهمها يتمثل فيما يلي:

الفرع الأول: التنظيم وترتيب العناوين ووضوح الجداول والفهارس.

المطلع على مؤلفات دراز العلمية سينبهر بدقة التنظيم، و حسن العرض، وبراعة نسق الموضوعات المتنوعة، وإخراجها في شكل عناوين علمية دقيقة، وموزعة على محاورها العامة، سواء أكانت عناوين عامة شكلت الفهارس العامة للموضوعات الرئيسية، أم كان عناوين فرعية تفصيلية منبثقة من العناوين الأولى، متسلسلة فيما بينها تسلسلا منطقيًا وفق أنساقها الفكرية، ومرتبة فيما بينها حسب تدرج أفكار الموضوعات القرآنية المعالجة الجزئية تدرجا من الأعلى إلى الأدنى، أو العكس، فليس هناك نشاز ولا اختلاف بين العناوين المتجاورة.

وقد صرح دراز بأنه وزع عناوين الموضوعات القرآنية وفق أنساقها الفكرية، لا على حسب تسلسل الآيات القرآنية وفق الترتيب النزولي أو المصحفي؛ فهو يقول في ذلك: «وعلى هذا النسق»⁽¹⁾، ويقول: «فإن صياغتها للفكرة سوف تكون مختلفة اختلاف يسيرا»⁽²⁾، ويقول عن سورة البقرة بأنها «نسق واحد من البيان تتعاقب فيه الجمل والكلمات»⁽³⁾، وهو يقول عن الآيات القرآنية المصنفة ضمن نظام التوجيه القرآني «فسوف نرى أن الوصايا القرآنية تقوم على أسس مختلفة، ولكنها يمكن أن ترتد إلى ثلاث مجموعات كبيرة هي: المسوغات الباطنة، واعتبارات الظروف المحيطة وموقف الإنسان، واعتبارات النتائج المترتبة على العمل»⁽⁴⁾، وحتى النصوص المختارة فهي تلك النصوص «التي يحتل فيها

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 551.

² - المصدر نفسه، ص 507.

³ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 191.

⁴ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 283_284.

العنصر الباطن المكان الأول»⁽¹⁾، أي: على حسب نسق الفكرة الأولى، ثم شرع في معالجة الآيات القرآنية في هذا الجانب وفق التدرج من الأعلى إلى الأدنى، كما قال: «فإذا انتقلنا الآن من المجموع إلى التفصيل، ومن النظرية العامة إلى الأحكام، فلسوف نجد أيضا الفضائل الرئيسية العملية...»⁽²⁾.

ومن هذا أيضا تسلسل عناوين كتابه "النبأ العظيم" المتجاوزة المائة عنوان من الأجواء الخارجية إلى داخل النصوص القرآنية، في إثبات مصدرية القرآن، ومن الحديث عن الأساليب العامة إلى الحديث عن بلاغة الحروف في إعجاز القرآن، ثم الرجوع مرة أخرى إلى الحديث عن النص القرآني في جملة تماسكا لبنيته، ووحدة في نسقه ونظامه، ثم بالرجوع إلى التفصيل في الحديث عن وجوه الارتباط بين الآيات والمقاطع القرآنية لسورة البقرة - النموذج المختار - وذلك بعد أن أشار إلى نظامها المعنوي العام.⁽³⁾

ومن شواهد الانتقال من الأدنى إلى الأعلى، الانتقال في دراسته للجزء من القريب إلى البعيد، أي من الجزء الدنيوي إلى الجزء الأخروي⁽⁴⁾، ولكنه خالف الترتيب في تفصيله للجزء الإلهي الدنيوي⁽⁵⁾، فبدأ بالجانب المادي ثم الجزء العقلي والأخلاقي ثم الجزء الروحي، انتقالا من الخارج إلى داخل نسق الفكرة القرآنية هنا، وخالف ذلك في حديثه عن صور النعيم في الجنة مخالفه تماما.⁽⁶⁾

ومن ميزات العناوين العامة أو الخاصة لهذه المؤلفات التشابه والتقارب بينها في كثير من الأحيان، أو حتى التطابق والتداخل بينها أحيانا أخرى، فمن ذلك التقارب بين مراحل البحث عن مصدرية القرآن بين "النبأ العظيم" ومدخل إلى القرآن الكريم، فهما مرحلتان أساسيتان في "المدخل"⁽⁷⁾، وأربعة مراحل في "النبأ العظيم".⁽⁸⁾

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 286.

² - المصدر نفسه، ص 291.

³ - يراجع: النبأ العظيم: محمد دراز، ص 196، وما بعدها.

⁴ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 345 وما بعدها.

⁵ - يراجع: المصدر نفسه.

⁶ - يراجع: المصدر نفسه، ص 370 وما بعدها.

⁷ - يراجع: مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 137 وما بعدها.

⁸ - يراجع: النبأ العظيم: محمد دراز، ص 65، وما بعدها.

و من العناوين المتطابقة، عنوان "العدل والفضل" بين كتاب "نظرات في الإسلام"⁽¹⁾ وكتاب "زاد المسلم"⁽²⁾، وعنوان "الهجرة النبوية بداية عهد جديد" بين كتاب "زاد المسلم"⁽³⁾ وكتاب "حصاد قلم"⁽⁴⁾، وكتاب "قلم"⁽⁴⁾، وغير ذلك مما عرفنا جله سابقا.⁽⁵⁾

وجدير بالتنبيه هنا أن محمد دراز لا يصطلح بالعناوين الفرعية أثناء تفسيره لكثير من السور القرآنية، بل يحلل آياتها تحليلا علميا من أولها إلى آخرها دون عناوين تفصيلية لها، وذلك مبثوث في مؤلفاته الأخرى، خاصة كتابه "حصاد قلم"⁽⁶⁾، وهو تأليف قرآني لم يلتزم فيه القيود المنهجية.

ومن المزايا النظامية هنا توظيف الجداول ووضع الفهارس العامة، والأول قليل جدا في كتابه "دستور الأخلاق في القرآن"؛ حيث ذكره مرتين، الأولى في تلخيص عناصر التوجيه القرآني وجزءاته، وقال عنه: «فتلك إذن أرقام تتحدث ببلاغة أكثر من أي تحليل نظري»⁽⁷⁾، والثاني في إصباح القيم الأخلاقية للمواقف الإنسانية الموافقة أو المخالفة للأخلاق أو الفطرة، مجليا قيمتها برمز كتابي وآخر رياضي.⁽⁸⁾

وأما نظام الفهارس فقد أضاف منها في مؤلفاته الأكاديمية -الدستور والمدخل- فهارس الأحاديث الشريفة والأعلام والفرق والقبائل والأماكن، وقائمة المصطلحات الأجنبية والعربية، حسب حروف المعجم في كتابه "الدستور"، وفهرسا آخر للمراجع العربية والأوروبية في كتابه "المدخل"⁽⁹⁾، ولا ندري سر الفصل بينها في كتابين هما امتداد لمؤلف واحد.

1- نظرات في الإسلام: محمد عبد الله دراز، ص 77.

2- زاد المسلم للدين والحياة: محمد دراز، ص 211.

3- المصدر نفسه، ص 216.

4- حصاد قلم: محمد دراز، ص 383.

5- تحت مطلب: علاقة مؤلفاته بعضها ببعض، من هذه الرسالة، ص 170 وما بعدها.

6- يراجع: حصاد قلم: محمد دراز، ص 93، 97، 147، 155، 161، 189، 221، 231.

7- دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 403.

8- المصدر نفسه، ص 496.

9- المصدر نفسه، ص 781 وما بعدها، ومدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 194.

الفرع الثاني: التلخيص والإجمال والختم بالدعاء.

وهذه خاصية شكلية بارزة في تفسير محمد عبد الله دراز، سواء أكانت تلخيصات للآيات السابقة⁽¹⁾ أو تلخيصات للمقاصد أو الأغراض⁽²⁾، أو حتى للموضوعات القرآنية⁽³⁾، وهو -في بعضها- بعضها- يعمد إلى التفسير الإجمالي للربط بين هذه الآيات والمقاصد والموضوعات بهذه التلخيصات، سواء أكان ذلك في مقدمة السورة، أم في وسطها، أم في ختامها.

فمن ذلك إبرازه التناسب بين آيات المكذبين للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وبين آيات قصة أصحاب الجنة في سورة القلم؛ إذ قال في ذلك: «بسط الله في الآيات السابقة الخصال العشر التي أقسم بها من يكذب بالوحي والنبوة وكانت خاتمة هذا ... أن فتنته بالمال والبنين كانت سببا في بطره وفي تقوُّله على القرآن أنه أساطير الأولين... فقد أراد الله أن يبين ما فيها من ضلال... فضرب له ولأمثاله مثلا ممن أنعم الله عليهم بسعة الرزق... وذلك هو مثل أصحاب الجنة».⁽⁴⁾

و من أمثلة تلخيص الموضوعات والمقاصد، تلخيصه مسائل العقيدة قبل الشروع في دراسة مسائل الشريعة ومقاصدها في سورة البقرة؛ إذ قال: «نعم، لقد تم (إصلاح العقيدة) التي هي روح الدين وجوهره، فليبدأ (تفصيل الشريعة) التي هي مظهر الدين وهيكله... لقد أزيلت شبهة المعاندين، وأقيمت الحججة عليهم، فلم يبق إلا إنارة السبيل للسالكين...».⁽⁵⁾

ومن ذلك أيضا التلخيص بالربط بين قضايا النظرية الأخلاقية في القرآن؛ فمن ذلك قوله في الفصل الخامس المخصص للجهد: «الآن وقد ميزنا بصورة كافية، بين عنصرين متميزين في البناء الأخلاقي هما: "النية" و "العمل" وبعد أن حددنا الدور المزدوج للنية، يبقى علينا أن نجلو الأهمية الفائقة للعنصر الثاني "العمل" وهو السلاح الوحيد المحجومي والدفاعي في معركة الفضيلة».⁽⁶⁾

¹ - ينظر: حصاد قلم: محمد دراز، ص 149، 153، 157، 163، 165، 202، وغيرها. والنبأ العظيم: محمد دراز، ص 171، 206، 282 وغيرها.

² - ينظر: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 417، 449، 518 وغيرها، والنبأ العظيم: محمد دراز، ص 196، 198، 221، 234، 258 وغيرها. وحصاد قلم: محمد دراز، ص 161، 173، 183 وغيرها.

³ - ينظر دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 462، 585، 617، 634، 654، وغيرها. وزاد المسلم للدين والحياة: محمد دراز، ص 41/49، 53، 61، 68، 80 وغيرها. والنبأ العظيم: محمد دراز، ص 70، 88، 92، 200، 231 وغيرها.

⁴ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 202-203.

⁵ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 258.

⁶ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 585.

ومن هذا أيضا تلخيصه لقضايا العقيدة الثلاثة: الألوهية، النبوة، والمعاد في أول سورة يس، في قوله: «أنها (السورة) بدل أن تتناول أركان العقيدة على ترتيبها الوجودي المعهود (الله - الرسول - اليوم الآخر) تقدّم شأن الرسالة، فتجعله في مكان الصدارة، ثم تتبعه بالركنين الأخيرين..»⁽¹⁾.

ثم في وسط السورة بقوله: «قلنا إن ركن النبوة والرسالة، كان هو الركن الذي أحلته سورة يس مكان صدارتها... وقد قررت فيه رسالة محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بشهادة شاهد لا يحتاج إلى تزكية... (ثم يقول) هنا تم الحديث عن الركن الأول، والآن تأخذ الآيات، في تقرير الركنين الآخرين بادئة بأولهما وأولاهما فتبسط لنا...»⁽²⁾.

ثم لا ينسى أيضا أن يلخص مقاصد الركن الثاني قبل أن ينتقل إلى الركن الثالث في وسط السورة، فيقول: «وهنا تم الحديث عن الركن الثاني تقريراً للإلهيات ودلالاتها وإبطالا للوثنيات وضلالاتها، وكان ختم الحديث بهذا الاستفهام التهكمي من جانب المشركين، فتحا للحديث عن الركن الثالث والأخير ركن الحساب والجزاء...»⁽³⁾.

ثم يرجع في خاتمة السورة ملخصاً الأركان الثلاثة ليفصلها مرة أخرى في ثوب جديد، فيقول: «عرضت علينا سورة يس، من أمر النبوة وأعبائها، وأمر الألوهية وآلائها، وأمور القيامة وأنبائها، ما يشاء الله لها أن تعرضه... عرضت علينا ذلك كله مرتين: مرة في افتتاح السورة، رمزا وحيا وعنوانا مطويا، ثم في امتداد السورة حديثا مرتلا وقوة مفصلا، والآن وهي على وشك الرحيل تريد أن تعرض علينا عرضة ثالثة بين الإجمال والتفصيل تحت ظلال جديدة...»⁽⁴⁾، ثم يربط بينها بالتلخيص بداية وختاماً.

ومن الملاحظ هنا أنه - في بعض الأحيان - يعمد إلى أسلوب السؤال في تلخيص العناصر السابقة، قبل الشروع في تحليل العناصر الموالية⁽⁵⁾؛ فمن ذلك ربطه بين المسوغات الباطنية والاعتبارات الخارجية (الجزئات الطبيعية) للفصل الأخلاقي، بمجموعة أسئلة، قائلاً في ذلك: «وكيف تقنع بالواجب إنسانا مستغرقاً في شؤونه، أو آخر مستسلماً لشهواته، إذا كنت تطلب منه أن ينقطع تماماً عن ماضيه

¹ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 147.

² - المصدر نفسه، ص 150.

³ - المصدر نفسه، ص 152.

⁴ - المصدر نفسه، ص 153.

⁵ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: ص 368، 361، 404، 495، 517، وغيرها، وحصاد قلم: محمد دراز، ص 166، 169، 172، 178، 184، وغيرها.

كله...؟! وإذا كنت فضلا أن يسوغ في نظره أمرك إياه... فأية نتيجة يمكن أن تحصل عليها من هذه التربية إن لم تكن أن تفقد تلميذك كل ثقة بنفسه...؟!»⁽¹⁾ إلى آخر ما قاله هنا.

وأما الختم بالدعاء فهي خاصية تكاد تنفرد بها حواطره القرآنية وأحاديثه الإذاعية في تفسيره بعض موضوعات الأخلاق القرآنية.⁽²⁾

فمن أمثلة ما يختم به السور القرآنية بالدعاء، ما ختم به سورة غافر (المؤمن) بقوله: «اللهم نصرك الذي وعدتنا... ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، آمين»⁽³⁾.

المطلب الثاني: الخصائص المعنوية والمضمونية.

وهي خصائص ومزايا كثيرة جدا في تفسيره، ولعل أهمها يتمثل فيما يلي:

الفرع الأول: دقة المناقشة والتعقيب على المفسرين، والفقهاء، والفلاسفة، والمستشرقين.

عرفنا -من قبل- أن دراز اكتسب ملكة فكرية اجتهادية، لم يلتزم بها بمذهب معين، ولم يقلد رأيا من الآراء الإسلامية، بل كان يختار منها أقوالها أدلة، وأمتنها مذهبا، وأوقفها للكتاب والسنة وروح التشريع العام.

فاكتسب بهذه الملكة الاجتهادية، حرية فكرية، وتحررا من العصبية المذهبية من جهة، واكتسب بها -أيضا- عقلية ثوارة نقادة للآراء والأقوال، مسيارة لما فيها من حق أو باطل؛ فهو لا يرضى بكل ما يروى أو يقال، بل يناقشها بدقة وتحليل، ويكشف زيفها وخطأها بعلمية وتفسير، موسعا نقاشه في مجالات فكرية عدة، على حسب ما استدعاه إليه البحث العلمي، سواء في تأصيل النظرية الأخلاقية، أو حتى في بيان إعجاز القرآن التناسي، أو في تفسير بعض السور القرآنية.

وناقدا -إضافة إلى ذلك- أكثر من جهة فكرية واحدة، فمرة مع المفسرين، وتارة أخرى مع الفقهاء، وتارة ثالثة مع الفلاسفة والمستشرقين، يناقشهم نقاش الند للند؛ فقد تميز بثقافة شمولية كوّنها في

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 335.

² -يراجع: زاد المسلم للدين والحياة: محمد دراز، ص 48، 60، 63، 71، 75 وغيرها.

³ -حصاد قلم: محمد دراز، ص 159.

فرنسا بدراسته «الفلسفة والمنطق، والأخلاق، وعلم النفس، وعلم الاجتماع على أيدي أساتذة السوربون، والكوليج دي فرانس...»⁽¹⁾.

وهو يستخدم في سبيل ذلك مصطلحات وعبارات كثيرة تعكس هذه الميزة المنهجية الفذة، كانتقاده المستشرقين الغربيين بقوله: «كي نرى مدى صحة هذه الملاحظات»⁽²⁾، وقوله: «يكون في نظرهم»⁽³⁾، وقوله «ينتاهم الهوى»⁽⁴⁾، وقوله: «وقول قاصر»⁽⁵⁾، وأيضاً وصفه إياهم بالغفلة⁽⁶⁾، والتخبط والتناقض⁽⁷⁾، والغرابة⁽⁸⁾، وعدم الجدوية⁽⁹⁾، والجهل بالتاريخ⁽¹⁰⁾، وما هو خلاف العقل⁽¹¹⁾ وغير ذلك.

وكانتقاده -أيضاً- الفلاسفة العرب والغربيين بقوله: «حين تابعنا تعليقه لم نتقدم في حل المشكلة التي تشغلنا»⁽¹²⁾، وقوله: «نرى عيب جميع النظريات الأخرى»⁽¹³⁾، وقوله: «نرجو إبعاد هذه الحالات»⁽¹⁴⁾، وقوله: «فهذه الأفكار كلها غريبة تماماً عن فكرة القانون الأخلاق»⁽¹⁵⁾، ووصفه نظرية كانت بأنها «تظل دائماً غير مثبتة، بل نقول: إنها غير قابلة للإثبات أيضاً»⁽¹⁶⁾، وغير ذلك.

¹ - حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز، إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 41.

² - مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ص 168.

³ - المصدر نفسه، ص 164.

⁴ - المصدر نفسه.

⁵ - المصدر نفسه، ص 191.

⁶ - المصدر نفسه، ص 139.

⁷ - المصدر نفسه، ص 151.

⁸ - المصدر نفسه، ص 163.

⁹ - المصدر نفسه، ص 164.

¹⁰ - المصدر نفسه، ص 166.

¹¹ - المصدر نفسه، ص 156.

¹² - دستور الأخلاق في القرآن، محمد دراز، ص 460.

¹³ - المصدر نفسه، ص 458.

¹⁴ - المصدر نفسه، ص 431.

¹⁵ - المصدر نفسه، ص 339.

¹⁶ - المصدر نفسه، ص 438.

وكانتقاده -أيضا- المفسرين بقوله: «لقد قال المفسرون كما يتخلصوا من هذا التعارض»⁽¹⁾، وقوله: «ولقد نستطيع أن نعترض»⁽²⁾، وقوله: «لا يحقق على وجه الدقة التطابق المطلوب»⁽³⁾، ووصفه ووصفه بعض الحالات الأخلاقية بأنها «عصية على كل التفسيرات»⁽⁴⁾، وغير ذلك.

وكانتقاده -أخيرا- الفقهاء والقانونيين بقوله: «نفهم الحدة والقسوة لدى المدرسة الظاهرية»⁽⁵⁾، وقوله: «والشاطبي -والحق يقال- يعترف بذلك»⁽⁶⁾، وقوله: «حاول أتباع الفقه العراقي»⁽⁷⁾، وقوله: «لا يبدو لأعيننا كافيا»⁽⁸⁾، وغير ذلك.

فمن ذلك مثلا أنه درس المقياس عند الفقهاء، الذي به نحكم على اليمين بصدق أو كذب، وأورد عن الأحناف أنهم لم يهتموا بالتفتيش عن نية الحالف، وإنما كانوا يكتفون بدلالة الكلمات المنطوقة⁽⁹⁾، فيجوزون بهذا حيلة هذا الحالف، سواء أصحابته نية حسنة أم نية سيئة فاسدة.

فلا يكتفي دراز في انتقادهم بإيراد آراء المذاهب الأخرى فيهم؛ وإنما يستقل بالنقد والمناقشة، فهو يقول عنهم: «بيد أن أكثر ما يدهش في موقف الأحناف هو أنه قليلا ما يتسق مع نظريتهم العامة، الكثيرة الاعتماد على العقل، ونحن نعلم كيف كانوا في مواجهة النصوص المقدسة... محاولين دائما أن يدركوا علتها... ولكنهم حين يتعرضون لتفسير عقد، أو نذر... فإنهم كانوا يمسكون عن كل تفسير، ويقبلون جميع الوسائل الملتوية، بشرط واحد فقط، هو ألا تتعارض هذه الوسائل مع النص الجامد للقاعدة المقررة»⁽¹⁰⁾.

¹ - مصدر سابق، ص 157.

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر نفسه، ص 138.

⁴ - المصدر نفسه، ص 156.

⁵ - المصدر نفسه، ص 559.

⁶ - المصدر نفسه، ص 508.

⁷ - المصدر نفسه، ص 432.

⁸ - المصدر نفسه، ص 433.

⁹ -يراجع مثلا:قاعدة: الأيمان مبنية على الألفاظ لا على الأغراض، من كتاب " حاشية رد المختار على الدر المختار: شرح تنوير الأبصار":

محمد أمين المشهور ب ابن عابدين، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1992، 743/3.

¹⁰ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 559.

كما أنه حكم على صنيعهم في عدم تفتيش بعض شروط العقوبة بعدم التحقيق، وذلك في قوله عنهم: «وربما كانت هذه نقطة ضعفهم».⁽¹⁾

ومن شواهد ذلك أيضا أنه انتقد قول بعض العلماء في فواتح السور القرآنية بالحروف المقطعة أنها الأكثر دورانا في القرآن، انتقد ذلك قائلا: «ولكنه قول يحتج في إثباته إلى إحصاء دقيق».⁽²⁾

وكما أنه كان يعمد إلى التلخيص بالأسئلة كذلك نراه هنا ينتقد كثيرا بالأسئلة وموظفا في ذلك ما يعرف بالمنهج التعليمي حتى يخلص إلى فكرة واضحة غير قابلة مرة أخرى للمراجعة، وذلك كثير في تفسيره.⁽³⁾

الفرع الثاني: إبراز أسرار وحكم التشريع القرآني.

لقد وفق محمد عبد الله دراز كثيرا في إبراز غايات القرآن، وفي تصوير أهدافه التشريعية في إصلاح الدنيا والدين؛ بل كما قال: «وحتى نرى علماء الغرب الوجه الحقيقي للأخلاق القرآنية»⁽⁴⁾، وذلك ببيان أن هذا التشريع الإلهي قائم على «العدل المطلق، المبرأ من الهوى والميل، ومن الجهل والجور، بل هو التشريع الوحيد الذي يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان؛ ذلك أنه منهج قائم على العلم بحقيقة الإنسان وحاجاته، وما يصلحه وما يفسده»⁽⁵⁾، ولذا فقد تميز هذا التشريع بالخلود، كما تميز بالعدالة المطلقة، وبالمقاصد والغايات النبيلة.

لقد قرر دراز - كما عرفنا من قبل - أن الشريعة الإسلامية قد أتاحت «للنفس الإنسانية أن تطمئن إلى سعادة مزدوجة»⁽⁶⁾، وذلك «حين قرن كل حكم في الشريعة بما يسوغه، وحين ربط كل تعليم من تعاليمه بالقيم الأخلاقية التي تعد أساسه».⁽⁷⁾

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 560.

² - حصاد قلم: محمد دراز، ص 194.

³ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 339، 378، 405، 443، 448، 460، 515، 542، 461، 570، 672، وغيرها، ومدخل إلى القرآن الكريم، ص 116، 148، 168، وغيرها، وحصاد قلم: ص، 148، 178، 189، 199، 210، 233، وغيرها.

⁴ - دستور الأخلاق في القرآن، ص 04.

⁵ - عظمة القرآن الكريم: محمود الدوسري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط1، 1426هـ، ص 272، 273.

⁶ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 11.

⁷ - المصدر نفسه، ص 58.

ووصف أيضا بعض هذه القيم، فقال: «فالأمر الإلهي يسوغ في نظرنا بتطابقه مع تلك الحقيقة الموضوعية»⁽¹⁾، ويقول أيضا: «يبد أن هذا الطابع العميق الذي يؤلف جوهر العدل، والخير في ذاته»⁽²⁾.

وهي قيم كيفية أكثر منها كمية، متممة بالعمق في التفاصيل، وبالشمول للزمان والمكان ولأحوال الإنسان؛ إذ هي تعكس «الرسالة التي امتدت طولا حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضا حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقا حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة»⁽³⁾، وذلك بأن وضعت نظاما للموازن والمقاييس التي توزن بها أعمالنا، فهي بهذا جاءت لصالح البشرية أو هي - كما قال دراز - «ثمرّة ناضجة لموقفنا المتعاطف تجاه شرع الله»⁽⁴⁾.

وهو يتساءل عن القانون والإنسان في أيهما وجد من أجل الآخر، فيبين به الحكمة العامة للشرع؛ إذ يقول: «فالإنسان قد وجد من أجل نفسه، والشرع غاية، ولكنه ليس الغاية الأخيرة، إنه ليس سوى حد وسط بين الإنسان، كما هو ناشئا يتطلع إلى الحياة الأخلاقية... وبين الإنسان كما ينبغي أن يكون في قبضة الفضيلة الكاملة...»⁽⁵⁾، وسرد مجموعة من الفصائل القرآنية في ذلك.

وقد يصرح دراز -مرات- بمصطلح الحكمة التشريعية، وأحيانا كثيرة أخرى لا يصرح بذلك، وإنما نستشف ذلك من خلال تحليلاته القرآنية.

فمن أمثلة الضرب الأول تفسيره الحدود الشرعية على الزاني المحصن وغير المحصن، فيقول في ذلك: «ولنذكر أن تعبير القرآن -مع ذلك- يبدو أنه يفتح الباب لهذا الإجراء، على أنه غاية التطور التشريعي في هذا الموضوع...»⁽⁶⁾، ثم بين أن هذه الإجراءات «يقصد الإسلام بها أن يعالج بعض الاضطراب في السلوك الإنساني، وبعض جرائم القانون العام...»⁽⁷⁾.

1- دستور الأخلاق في القرآن : محمد دراز، ص 162.

2- المصدر نفسه.

3- الإسلام دعوة شاملة: يوسف القرضاوي، مقال بمجلة الأزهر، ذي القعدة 1396هـ، ص 1392.

4- دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 237.

5- المصدر نفسه، ص 257.

6- المصدر نفسه، ص 265.

7- المصدر نفسه، ص 262.

ومن ذلك أيضا علاجه لبعض المشاكل الفكرية الأخلاقية على مستوى الجهد، كثنائتي الصبر والعطاء، والعزلة والاختلاط، فقال: «أتاح لنا بحث المشكلتين السابقتين أن نطالع أفق التشريع، فالجهد المادي لا يزيد عن الجهد الأخلاقي؛ إذ ليس له في نظر الإسلام سوى قيمة تتناسب مع الخير الذي يستهدفه الشرع».⁽¹⁾

وأما أمثلة الضرب الثاني فيه كثيرة عنده، على حسب المجالات الفكرية المدروسة لديه، فمنها: الحكم التشريعية في تحريم الرذائل⁽²⁾، والحكم التشريعية في حفظ العرض⁽³⁾، وفي تشريع الحدود والتعزيزات⁽⁴⁾، وفي تشريع الصيام والعبادات⁽⁵⁾، وتعدد الزوجات،⁽⁶⁾ والقتال في الإسلام⁽⁷⁾، والتشريع والتشريع الجنائي بصفة عامة⁽⁸⁾، وغير ذلك.⁽⁹⁾

فمن ذلك تفصيله في أهداف الحرب الشرعية في الإسلام - كما يسميها - تصحيحا لنظرة الغرب الخاطئة تجاه الإسلام، وبعد أن يورد نصوصا من القرآن والسنة وأحوال المسلمين الأوائل في هذا يحدد أهداف القتال، قائلا: «ما هو إذن الهدف من هذا التشريع؟ يعتقد أنه قد وضع الآن، وهو إبعاد الخطر، فالإسلام يدين روح التدمير... بل أنه لا يريد فرض إيديولوجية عالمية»⁽¹⁰⁾، كما أن الجهاد في الدعوة يخضع لقواعد ومبادئ، فالأصل حرص المسلم على هداية غيره، والالتزام بالحكمة والإقناع واللين، وقبول الآخر، بل أعظم من ذلك التسامح معهم، وبرهم ما أمكن ذلك⁽¹¹⁾.

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 651.

² - المصدر نفسه، ص 309، 318.

³ - المصدر نفسه، ص 270، 272.

⁴ - المصدر نفسه، ص 266 وما بعدها، 407.

⁵ - المصدر نفسه، ص 616، 635، 636.

⁶ - المصدر نفسه، ص 715، 716، و مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 166.

⁷ - دستور الأخلاق في القرآن، ص 330، 331، و مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 63، 67، 171، 173، وحصاد قلم: محمد دراز، ص 325، 333.

⁸ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 262، 264.

⁹ - كحكم الخلق والإيجاد، والموت والحياة، ينظر: حصاد قلم: محمد دراز، ص 163.

¹⁰ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 65.

¹¹ - المصدر نفسه، ص 66-67.

بل إن الرجوع إلى التاريخ الإسلامي يؤكد التزام المسلمين بهذا المبدأ العظيم، الذي فقدته المسيحيون في حروب حركة الإصلاح البروتستانتية المشهورة، فلم يعتنق مسلمو البلاد المفتوحة الإسلام بإكراه، بل بطواعية واختيار.⁽¹⁾

المطلب الثالث: الخصائص اللغوية والبيانية.

محمد عبد الله دراز كاتب بليغ، ولغوي ذواق، جمع بين الصدع بقوة الحق، والإقناع به، وبين إشراق الأسلوب، وحلاوة البيان، والإمتاع به؛ قد أوتي بلاغة رفيعة اكتسبها من تعمقه في علومها، وتأثره بمنهاج أعلامها - خاصة الجرجاني - وتذوقه لسحر البيان وجمال القول.

فقد وصفه عبد العظيم المطعني بقوله: «كان قلمه في مجال الكلمة يقوم بمهمات جيش عرمرم في مجال الجهاد، تثبيتاً للحق، ونصرة للدين...».⁽²⁾

ولذا فقد كان من أهم أدباء عصرنا الحاضر المبرزين في هذا المجال، متسماً بخصائص لغوية وبيانية جمّة وغزيرة في تفسيره، ولعلنا نقتصر الحديث على بعضها فيما يلي:

الفرع الأول: الثقافة اللغوية الواسعة، والحس البلاغي الرفيع.

فقد أجمع أغلب من عرف دراز عن قرب أن الرجل متبحر في العلوم اللغوية، قد أخذ من كل علم منها نصيباً كبيراً وتمكن منه تمكن العالم اللغوي المجتهد المثبت من أصوله ومصادره، لا أخذ الطالب المتعجل من بعض أطرافه ومراجعته؛ فهو صاحب عبقرية لغوية فذة جمعت بين الثقافة الموسوعية والاجتهاد المستقل، انفرد بآراء لغوية، واجتهادات بلاغية لم يسبق إليها في هذا الشأن لا من قديم ولا من جديد.

وقد اكتسب هذه الموهبة اللغوية «بما أتاه الله من قلب صاف، وعقل وقاد ولسان زرب، وعلم واسع»⁽³⁾، وعشق لسحر البيان وإعجاز القرآن.

¹ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 69.

² - كتاب النبأ العظيم: الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز: عبد العظيم المطعني، ضمن كتاب محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، جمع أحمد مصطفى فضلية، ص 173.

³ - المرجع نفسه.

والمدهش هنا أنه لم يكن موسوعياً فقط في اللغة العربية ومصطلحاتها الإسلامية والفلسفية؛ بل كان صاحب «مستوى رفيع في اللغة الفرنسية التي لم يتعلمها في صغره في مدرسة أجنبية، وإنما درسها في سن الرجولة بجهوده الشخصية... لقد بلغ في لغته الفرنسية وأسلوبه مستوى أديب فرنسي من الطراز الأول، وتميزت لغته الفرنسية برشاقة الجمل، وجمال الأسلوب، ووضوح الأفكار وبخاصة الإسلامية، والدقة في اختيار العبارات والمصطلحات، مع ثراء بلا حدود في الكلمات والمترادفات، والعبارات، والأوصاف، والتراكيب اللغوية مع القدرة على تحليل ودراسة الفكر المعارض... وضرب الأمثلة في بساطة وقوة»⁽¹⁾.

قال عنه صهره السيد محمد بدوي: «فعرفت أنه كان قد أتقن الفرنسية إبان طلبه للعلم في الأزهر الشريف استعداداً لذلك اليوم الذي يقوم فيه بواجبه العلمي والديني»⁽²⁾.

ومن تشبعه باللغة الفرنسية إحاطته أيضاً بثقافتها، فقد كان ملماً بأفكارها وتاريخها وحتى الأمثال الشعبية السائدة فيها؛ فمن ذلك ذكره للمثل الفرنسي:

"Une hirondelle ne fait pas le printemps" وترجمته: إن عندليبا واحدا لا يصنع الربيع⁽³⁾، وذكره لمثل آخر: Noblesse oblige، وترجمته: إن النبل ملزم⁽⁴⁾.

ومن أمثلة تعمقه في اللغة الفرنسية قوله: «ولقد أثبتت للغة الفرنسية هذا المقياس المزدوج للقيمة، حين أطلقت كلمة (Mérite) على كل صفة فطرية أو مكتسبة، جديرة بالتقدير، حتى لو كانت الجمال أو الغنى»⁽⁵⁾.

فإذا ما رجعنا إلى اللغة العربية وجدنا له اجتهادات وآراء لغوية وبلاغية فريدة لم يسبق إليها، و ذلك كتقريره أن القرآن إيجاز كله يستوي في ذلك مواضع الإطناب والإيجاز والمساواة التي اتفق علماء

¹ - في عبقرية الشيخ اللغوية: محمد عبد العظيم علي، ضمن كتاب حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز، إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 92.

² - في مقدمته لكتاب: دستور الأخلاق في القرآن، ص ح.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 602.

⁴ - المصدر نفسه، ص 628.

⁵ - المصدر نفسه، ص 593، 594.

البلاغة على تقسيم الكلام إليها⁽¹⁾، وهو يعرض أيضا نظرات جديدة في إعجاز القرآن اللغوي سواء على مستوى تناسق الأصوات أو ما أسماه بـ "القشرة السطحية"⁽²⁾، أو على مستوى ألفاظه وجمله أو ما أسماه بـ "خصائص القرآن البيانية"⁽³⁾، وقد رفض الشيخ في هذا الكتاب وهو محق التسليم بوجود أي حرف أو أداة، أو كلمة زائدة في القرآن ليس لها معنى أساسي تؤديه، بخلاف ما قاله جل المفسرين أنها للتأكيد. (4)

والشيخ -أيضا- قد رزق حسا بلاغيا رفيعا، وذوقا بيانيا عاليا، اكتسبه من قراءاته النقدية الكثيرة للإمام عبد القاهر الجرجاني، ولعل أدنى إطلالة إلى بعض مؤلفاته القرآنية -خاصة النبأ العظيم والحصاد- ترينا الكم الهائل من الصور البيانية التي وظفها، والأساليب الرفيعة التي استعملها في تحليل بلاغة القرآن الكريم، وعرضها عرضا جديدا كأنه يعرضها لأول مرة، كما يعرض أفكاره المبتكرة، إذ أنه -كما قال البيومي- «كان طرازا خاصا من المفكرين، حيث لم يكتب غير الجديد الطريف الذي لم يسمع به القارئ من قبل»⁽⁵⁾، ولذا تنوعت الصور البيانية في تفسيره من استعارات⁽⁶⁾، وتشبيهات⁽⁷⁾، وتشبيهات⁽⁷⁾، وكتابات⁽⁸⁾، وأساليب بديعية متممة بالتعدد الدلالي⁽⁹⁾، والتقابل السجعي⁽¹⁰⁾، والتقارب التعبيري بين المعاني⁽¹¹⁾، وغير ذلك.

- 1- يراجع النبأ العظيم: محمد دراز، ص 162، وما بعدها. ومحمد عبد الله دراز، دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 176.
- 2- النبأ العظيم: محمد دراز، ص 139.
- 3- المصدر نفسه، ص 139.
- 4- المصدر نفسه، ص 164، ويراجع: تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 46/25.
- 5- النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: محمد رجب البيومي، 2/ 239.
- 6- يراجع دستور الأخلاق في القرآن، ص 260، 323، 327، 339 وغيرها. والنبأ العظيم: محمد دراز، ص 80، 84، 157، 171، وغيرها.
- 7- يراجع: حصاد قلم، ص 148، 216، 226، 238، وغيرها، ودستور الأخلاق في القرآن، ص 490، 637 وغيرها.
- 8- يراجع: المصدر نفسه، ص 179، 211، 234، 237 وغيرها.
- 9- يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 421، 473، 627، 652 وغيرها.
- 10- يراجع: حصاد قلم: محمد دراز، ص 141، 169، 189، 208، 217، 229، 237، وغيرها.
- 11- يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 375، 378، 605، 641، 667، وغيرها.

يؤكد ذلك البيومي بقوله: «ولكن كتاب "النبأ العظيم" لم يقتصر على التصوير الفني وحده... كما ذهب الأستاذ سيد قطب - رحمه الله -، بل نظر إلى القرآن فكرة وصورة وتعبيرا وجدلا وحوارا...».

(1)

وإنه ليصعب علينا أن نختار نموذجا لذلك، فكل صفحة من صفحات مؤلفاته صادقة وشاهدة على هذه الخصائص البيانية الرفيعة، ولكن يكفينا منها أسلوبه البديع في الكشف عن بلاغة الصور الفنية في سورة التكوير؛ إذ يقول في آخر تحليله الممتع: «حقا إنها آية من آيات الجمال والجلال فتبارك الخالق المصور، هذا نور العيون والأبصار جئ به هنا شاهد على أخيه نور القلوب والبصائر والعلم والهدى...».

(2)

الفرع الثاني: التوفيق بين الدقة العلمية وإشراق الأسلوب. (3)

فكثيرا «ما ضحى علماء كبار بجمال الأسلوب ونصاعته في سبيل تحديد الفكرة التي يعالجونها وإيضاحها، وعلى النقيض من أولئك جاءت أساليب بعض العلماء فارغة جوفاء حينما ولوا وجوههم شطر التجويد في الأسلوب، والتنميق في الشكل، فسودوا صحائف يحسبها الظمان ماء، وما هي إلا سراب».

(4)

والشيخ محمد عبد الله دراز كان من القلة القليلة التي جمعت «بين أصالة الفكر ودقة التعبير وجمالياته، بين عمق الرأي ونصاعة الأسلوب ورونقه»،⁽⁵⁾ الأمر الذي جعل من تحليلاته حديثا ممتعا لا يمل، وبيانا شافيا لا يشبع منه، وترك بعد ذلك آثاره العميقة في نفوس الأدباء والمفكرين، فقد نصح محمد رجب البيومي الكتاب والمؤلفين أن يقتدوا بأسلوب دراز الهادئ والجامع بين قوة الفكرة وسلاسة الأسلوب وجماله؛ لأنه - كما قال - «قد رأينا كثيرا من المخطئين يرجعون عن آرائهم حين يلمسون قوة

¹ - النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: محمد رجب البيومي، 253/2.

² - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 235.

³ - يراجع: النبأ العظيم عرض وتحليل منصور الأحمد ضمن كتاب: محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأفلام تلامذته ومعاصريه: إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 188.

⁴ - المرجع نفسه.

⁵ - المرجع نفسه بعنوان: من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر: رجب عبد المنصف، ص 80.

المنطق، وسلامة التأيين، وعفة اللفظ، وما رأينا واحدا من هؤلاء يرجع عن رأيه الخاطئ لأنه قوبل بالسباب»⁽¹⁾.

فمن اطلع مثلا على كتابه "دستور الأخلاق في القرآن"، يجد فيه تنوعا أسلوبيا من المؤلف في النسخة الفرنسية، وثناء بيانيا، وبراعة في ترجمة روح أسلوب دراز في النسخة المترجمة إلى اللغة العربية، وقد عرفنا كيف يختار دراز الكلمات الفرنسية بدقة حتى تدل على المعاني المفصلة لها بانسجام.

ولئن كان دراز صرح في الكتاب السابق عدم انتهاجه التنويع في الأساليب البيانية، موضحا سر ذلك بقوله: «وكان من المناسب بعد أن زرنا ثمرات الفكر أن نعني بأزهار الأسلوب، بيد أنه لما كان هذا الترف غريبا بعض الشيء عن طريقتنا التي اعتدناها في الكتابة باللغة الفرنسية، فقد كنا نخشى إن بحثنا عن البريق أن نحدد المحكم المتين... فنحن مقتنعون إذن بتقدم أفكارنا، ومصطلحاتنا كيفما جاءت إلى العقل عارية، بسيطة صادقة»⁽²⁾.

إلا أنه في مؤلفات أخرى -خاصة النبأ والدستور- قد أبدع في غرس وجني أزهار الأسلوب، كما أبدع من قبلها في زرع ثمرات الفكر، ولنتأمل حديثه في التأصيل لعلم المناسبات -على دقته- في قوله: «فيا ليت شعري: إذا كانت كافة الأجزاء والعناصر التي تتألف منها وحدة السور منوطة بأسباب لم تكن كلها واقعة ولا متوقعة، وكان لا بد لتمام هذه الوحدة من وقوع تلك الأسباب كلها في عصر نزول القرآن... فما الذي أخضع دوره الفلك لنظام هذه الوحدات وجعل هذه النوازل تتوارد بأسرها في إبان التنزيل...؟ أليست مطاوعة تلك الأحداث الكونية ومطاوعتها بدقة دائما لنظام هذه الوحدات البيانية، شاهدا واضحا على أن هذا القول وذلك الفعل كانا يجيئان من طريق واحدة، وأن الذي صدرت هذه الكلمات عن علمه، هو نفسه الذي صدرت تلك الكائنات عن مشيئته»⁽³⁾.

ولعل السر من وراء ذلك كما قال البيومي أن دراز كان «يؤثر البحث الهادئ دون عجلة، ويضع الخطة المحكمة دون تسرع، ولا يهمله طال الأمد في بحثه أم قصر، إن الذي يهمله جدا أن يستخرج من المعلوم مجهولا...»⁽⁴⁾.

¹ - النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: محمد رجب البيومي، 2/ 250_251.

² - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 685.

³ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 189.

⁴ - النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: محمد رجب البيومي، 2/ 239.

لا نستطيع أن نوجز القول عن دراز هنا، إلا أن نقول كما قال فيه أنور الجندي: «هذا الرجل من الأزهر فيه أصالة المؤمن، وثقافة المسلم، والقدرة البيانية العربية الفائقة».⁽¹⁾

¹ - الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز: في آثاره العلمية ضمن كتاب محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه: إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 53.

الفصل الثالث

قضايا التفسير الموضوعي عند محمد عبد الله دراز،
وتحته أربعة مباحث:

المبحث الأول: حقيقة التفسير الموضوعي، مصدريته، ومنهجية البحث فيه عند
محمد عبد الله دراز

المبحث الثاني: حقيقة الوحدة الموضوعية وملامحها عند محمد عبد الله دراز

المبحث الثالث: تقييم وتقويم منهج محمد عبد الله دراز في قضايا التفسير
الموضوعي

المبحث الرابع: أثر فكر محمد عبد الله دراز القرآني في الدراسات الموضوعية
المعاصرة

المبحث الأول:

حقيقة التفسير الموضوعي، مصدريته ومنهجية البحث فيه عند
محمد عبد الله دراز،

ويشمل أربعة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم التفسير الموضوعي وأهميته

المطلب الثاني: أنواع التفسير الموضوعي عند دراز

المطلب الثالث: منهجية البحث في التفسير الموضوعي عند محمد عبد
الله دراز

المطلب الرابع: من أهداف التفسير الموضوعي عند محمد عبد الله دراز

التفسير الموضوعي - كما عرفنا - من أهم مناهج التفسير - على القدر المتفق عليه - في عصرنا الحاضر، والتي بدأت الكتابات المنهجية فيه تؤصل لمفاهيمه، وأنواعه، ومناهجه من خلال منتصف القرن العشرين، وقد تنوعت هذه الكتابات المنهجية نظرياً وتطبيقاً، ورؤية وفكرًا، وتطوراً ونضجاً، على حسب اتضاح الرؤية، واستكمال المنهج، ووفرة الكتابات التأصيلية في هذا المجال.

وقد أشار غير واحد⁽¹⁾، أن محمد عبد الله دراز كان من أبرز المؤلفين في منهج التفسير الموضوعي، وذلك من خلال دراساته التطبيقية لبعض موضوعات القرآن الكريم، في عدد من سورته، أو في سورة واحدة منه.

فمن هذا أنه قد ورد في افتتاح تفسيره لبعض السور القرآنية من كتابه "حصاد قلم"⁽²⁾، الإشارة إلى أنها كانت ضمن الجهود الدينية والفكرية التي قدمتها إذاعة القرآن الكريم للجماهير المصرية آنذاك - من أجل تقديم تفسير موضوعي للقرآن الكريم، تحت عنوان "الحياة من القرآن"، وقد ورد أنها «استهلتهها بنموذج من أرفع نماذج التفسير العصري، وأكثرها عمقا ودقة وأصاله، حاول من خلاله العالم الراحل محمد عبد الله دراز أن يقدم لفاتحة الكتاب ولسورة البقرة من خلال الحلقات الست التي تنبض بفكره الحي، ونظرتة الكلية الشاملة»⁽³⁾.

وهنا تتصدر مجموعة من الأسئلة الهامة تنتظر من هذا البحث أن يجيب عنها إجابة صريحة، وهي: ما مفهوم التفسير الموضوعي عند محمد عبد الله دراز؟ هل يعد علما في نظره أم أنه يقتصر على وصف المنهجية؟ هل هنا تعريف واضح له؟ وكيف ينظر إليه مقابلة بالاتجاهات الأخرى للتفسير؟ وما هي ألوان وأنواع التفسير الموضوعي عنده؟ هل كانت واضحة معالمها، وحدودها مبنية، ومنهجيتها مفصلة عند دراز؟ ما مصداق ذلك في كتبه ومؤلفاته؟ وما هي أهم الأهداف الكلية والمقاصد العامة عند دراز من خلال نهج منهج التفسير الموضوعي؟

¹ - كالشيخ محمد الغزالي في كتابه: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص 05، وغيره.

² - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 109.

³ - المصدر نفسه.

المطلب الأول: مفهوم التفسير الموضوعي وأهميته.

لم يقدم محمد عبد الله دراز فصولاً مستقلة من كتبه، يؤصل - من خلالها - للتفسير الموضوعي، ويفرّع لألوانه وأنواعه، ويفصل منهجية البحث فيه، ويحدد أهدافه ومقاصده في إطار دراسة نظرية كاملة.

إنما قدم نتفاً من ذلك في مقدمة كتابه "دستور الأخلاق في القرآن" (1)، وفي صفحات من "المدخل" (2)، و "النبأ" (3) و "الحصاد" (4)، وفصل بعد ذلك دراسات لموضوعات وسور قرآنية، ضمّنها هذه التحديدات العلمية، والطرق المنهجية، والمقاصد القرآنية.

الفرع الأول: في مفهوم التفسير الموضوعي:

قدم لنا دراز مفاهيم كثيرة للتفسير الموضوعي، متفرقة في تعابيره وتحليلاته التفسيرية، ومتنوعة في مباحث مؤلفاته وفصولها، مما أوجب علينا تتبع هذه العبارات وتحليلها، حتى نصل إلى المفاهيم الأساسية للتفسير الموضوعي عنده.

يؤكد أولاً أن القرآن الكريم في جملته - بسوره المتفرقة نزولاً والمتجاورة مصحفاً - قد تضمّن وعالج الكثير من الموضوعات العقائدية والفكرية والاجتماعية والفقهية وغيرها، وذلك من أجل إرساء منارات الهداية الإلهية للبشرية جمعاء.

يقول تحت عنوان "محتوى القرآن": «يعالج القرآن قبل كل شيء الحق الأسمى والفضيلة وكل ما تبقى من محتوياته ونصوصه، كمعرفة الروح وعلوم طبيعة السماوات والأرض، والتاريخ والنبوة والندر، وما شابه ذلك، ليست سوى وسائل لتقوية رسالة القرآن وإعطائها وزناً أكبر، وإقناعاً أشد» (5).

فموضوعات القرآن الكريم متعددة، وعناصرها موزعة على سوره وآياته، وعلى الدارس أن يتأملها ويتدبرها، حتى يتعرف بدقة على رسالة القرآن الحقيقية، وإن أسمى هذه الموضوعات القرآنية هي ما أسماها

¹ - دستور الأخلاق في القرآن : محمد عبد الله دراز، ص 01 - 18، وأيضاً، ص 286، 375، 409، 686، وغيرها.

² - مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ص 127 - 132.

³ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 176 إلى آخر الكتاب

⁴ - حصاد قلم، محمد عبد الله دراز، ص 45 - 59، وينظر أيضاً: دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية: محمد عبد الله دراز، ص 94 - 102.

⁵ - وذلك ضمن مفهوم وأنواع الوحدة عند دراز، من هذه الرسالة، ص 328.

"الحق الأسمى" أو العقائد الدينية، وهو أيضا ما أكده بقوله: «فإن مقاصد القرآن وأهدافه في السور المكية والمدنية واحدة: وهي إصلاح العقائد وتنظيم مناهج السلوك للأفراد والجماعات».⁽¹⁾

وقد لاحظ أن هذه الموضوعات وغيرها متداخلة داخل السور القرآنية لحكم إعجازية نظمية، وأخرى هدائية علاجية؛ فمن ذلك قوله: «ولذلك بني نظم القرآن في آياته وفي سوره على وجه من التداخل والتعاقب بين الاعتقاديات والعلميات والبواعث والزواجر؛ بحيث يظهر بعضها بعضا على تقرير كل واحدة منها وتثبيتها في النفوس».⁽²⁾

ويؤكد - تبعا لهذا - أن هذا التداخل والتعاقب كان متوافقا مع منهج قرآني فريد روعي في ترتيب السور فيما بينها ترتيبا مصحفيا دقيقا؛ إذ يقول في ذلك: «ولكنه من ناحية أخرى لا يكشف لنا عن نفسه على أنه ثمرة علم بلغ هدفه منذ البداية، ولا على أنه ثمرة خيال جامع... وإنما هو ثمرة تعلم منزه متدفق، يبدو مع ذلك أنه متصل بخطة توقيفية، لا تجارب ولا تنقيحات».⁽³⁾

معنى هذا القول أن التداخل بين الموضوعات خضع لمنهج تعليمي متدرج لعناصر هذه الموضوعات؛ الأول فالذي يليه على حسب حاجات النفوس من الإصلاح والتعلم، في تنوع الأحداث وتدرجها.

ثم إن ذلك يجسد إعجاز القرآن الكريم في توزيع العناصر والموضوعات بآياتها في أمكنتها الخاصة المحددة من نظم السورة، توزيعا منسجما ومتوافقا، كأنها أنزلت متجانسة في زمن واحد، وما ذلك إلا توافقا مع الخطة المسبقة، والمخطط الهيكلي البديع لكل سورة من سور القرآن الكريم، فما هي إلا أن توضع كل آية، ويدرج كل موضوع في مكانه من السورة، كما توضع كل لبنة في موضعها المناسب من حيطان الدار الواحدة.

و لا يعني هذا انعدام الموضوعية للسورة القرآنية، فذلك موضعها الخاص، ولا يُستعجل بالنتائج قبل معرفة مفردات منهجه الموضوعي، أو منهجيته التفصيلية في النظر التفسيري في كل سورة، فتلك دراسة لم نصل إليها بعد⁽⁴⁾.

¹ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 49.

² - المصدر نفسه، ص 50.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 384.

⁴ - وذلك ضمن مفهوم وأنواع الوحدة عنده، من المبحث القادم من هذه الرسالة، ص 328.

وحينما نرجع إلى دراسته للأخلاق القرآنية نجده كذلك يضع بين أيدينا الكثير من المفاهيم العلمية للتفسير الموضوعي ، ويفصل الحدود المنهجية التي تضبط هذه العملية التفسيرية، ويرسم خطواتها المرئية، ويحدد أهدافها وأبعادها المقاصدية؛ فمن ذلك أنه قد انتقد الدراسات الإسلامية و الاستشرافية بأنها لم تدرس الأخلاق الدينية والقرآنية ضمن حدود النص القرآني، بل استقوا أصول ذلك ومبادئه من اجتهادات الفكر الإنساني بمعزل عن الوحي الإلهي؛ فقال: «وإذن فلم يكن هنالك سوى كتب إنسانية محضة ... ولم يظهر فيها النص القرآني كلية، أو هو لا يكاد يظهر إلا بصفة ثانوية».(1)

فمن مفاهيم التفسير الموضوعي الأساسية عند محمد دراز هنا، دراسة الموضوعات العقائدية والسلوكية والاجتماعية وغيرها ، ضمن النص القرآني بصفة كلية أساسية؛ إذ هو الأصل الحاكم عليها، فلا يعزل أو لا يجعل فرعا تابعا.

ومن ذلك أيضا قوله: «ولذلك بدا لنا من الضروري أن نتناول الموضوع من جديد، وأن نعالجه تبعا لمنهج أكثر سلامة، من أجل تصحيح هذه الأخطاء، وملء هذه الفجوة في المكتبة الأوروبية، وحتى نري علماء الغرب الوجه الحقيقي للأخلاق القرآنية».(2)

فالدراسات السابقة لم تمثل تحقيق المنهج النموذجي في دراسة موضوعات القرآن دراسة صحيحة، ومنها موضوع الأخلاق القرآنية،فما وجه قصور هذه الدراسات الإستشرافية والإسلامية عن استيفاء الدراسة الصحيحة لموضوعات القرآن في إطار التصور الصحيح لقواعد هذا المنهج النموذجي؟

وما هو أصلا هذا المنهج النموذجي الذي يقصده دراز بأنه أكثر سلامة من غيره؟

يجيبنا دراز على ذلك بأن المستشرقين «انحصرت كل جهودهم في أن جمعوا عددا قليلا أو كثيرا من الآيات القرآنية المتعلقة بالعبادة، أو بالسلوك، وترجموها ترجمة حرفية».(3)

كما أكد بأن جهود العلماء المسلمين في حصر آيات القرآن الكريم التي تعالج القضية الأخلاقية - وأهمهم جهود أبي حامد الغزالي - سواء أكانت تتعلق بالمعرفة، أم كانت متعلقة بالسلوك جهود

1- دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 04

2- المصدر نفسه، ص 04.

3- دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 03.

قاصرة ، وذلك بقوله: «ومن المؤسف أن هذا النوع من الحصر والتصنيف الذي يعد خطوة أولى في سبيل إعداد المواد للتشيد لم يعقبه ما يقتضيه من عمل ضروري يهدف إلى إعلاء البناء».⁽¹⁾

فلا يكفي لتأسيس الدراسة الصحيحة ضمن المنهج الموضوعي النموذجي، جمع الآيات وحصر موضوعاتها، بل ذلك يتعداه إلى إعلاء البناء الذي يزيده دراز توضيحا بقوله: «فليس هناك عالم أوروبي واحد حاول أن يستخلص من القرآن مبادئه الأخلاقية العامة، فضلا عن ذلك فلم يكن لدى أي من بينهم اهتمام بأن يصوغ قواعده العملية، ويقدمها في صورة دستور كامل»⁽²⁾، وقوله عن المذاهب الإسلامية إنهما: «لم تعن دائما بوجهة النظر الأخلاقية بمفهومها الخاص، فإن النظرية الأخلاقية التي يقدمها هؤلاء تصدر في جانب كبير منها - على الأقل - عن روح المذهب الذي ينتمي إليه مؤلفوها ... لأن القرآن لا يرد ذكره فيها إلا بصفة مكتملة...».⁽³⁾

فالمنهج الموضوعي إذن ينطلق من تصور جديد يتخذ النص القرآني أصلا له، بجمع وحصر آياته التي عاجلت عناصر الموضوع المراد دراسته، من أجل استخراج المبادئ القرآنية وصياغة الدستور القرآني، واستنباط ما أسماه بـ "النظرية القرآنية الحقة"⁽⁴⁾، و "القاعدة القرآنية"⁽⁵⁾، و "القانون الأخلاقي"⁽⁶⁾، و "المبدأ القرآني"⁽⁷⁾، و "المفهوم القرآني"⁽⁸⁾ و "الحكمة القرآنية"⁽⁹⁾ و "القاعدة الأخلاقية"⁽¹⁰⁾ و "الحقائق الأساسية"⁽¹¹⁾، و "المقياس الأخلاقي"⁽¹²⁾، و "النظام القرآني"⁽¹³⁾، وغير ذلك مما يؤكد سلامة هذا المنهج في الرجوع إلى النص القرآني بصفة كلية، لاستخراج المفهوم الخاص به تجاه الموضوع المعروض عليه، وما هذا المفهوم - في حقيقة الأمر - إلا مبادئ خاصة، وقواعد عامة وتصورات كاملة صحيحة،

¹ - المصدر نفسه، ص 06.

² - المصدر نفسه، ص 03.

³ - المصدر نفسه، ص 05.

⁴ - المصدر نفسه، ص 02 - 27 - 686.

⁵ - المصدر نفسه، ص 146.

⁶ - المصدر نفسه، ص 17.

⁷ - المصدر نفسه، ص 482 - 596.

⁸ - المصدر نفسه، ص 05 - 409.

⁹ - المصدر نفسه، ص 672.

¹⁰ - مصدر سابق، ص 675.

¹¹ - المصدر نفسه، ص 17.

¹² - المصدر نفسه، ص 544.

¹³ - المصدر نفسه، ص 375.

ومواقف علاجية حكيمة، تبرز هدايات الله في الأنفس والآفاق، ومن خلال عرضها على موازين القرآن الكريم أو ما أسماه بـ "المقياس"، لنصل بعد ذلك إلى المرحلة الأخيرة وهي صياغة النظرية القرآنية أو قاعدته أو قانونه أو دستوره أو نظامه⁽¹⁾ في كل هذه الموضوعات المطروحة عليه.

وقد استنبط بدوره انطلاقاً من ملاحظة الهدايات واستنباط المواقف القرآنية والتصورات والنظريات في المجال الأخلاقي التي سجلها في مظان متنوعة من كتابه "دستور الأخلاق في القرآن"، تأتي في مطالب لاحقة هنا.⁽²⁾

ومن معالم هذا المنهج الموضوعي عند دراز ضرورة تجريد النصوص القرآنية ذات الاتصال بالموضوع الواحد، وتخليصها من موضوعات ومباحث أخرى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى توحيد المعالجة والدراسة وتركيزها داخل النص القرآني دون أطر وعلوم إسلامية أخرى، وإلا حادت الدراسة القرآنية الموضوعية عن مجالها القرآني، وتحولت إلى مجال الدراسات الثقافية الإسلامية العامة.

قال مؤكداً ذلك: «ولم يقتصر الأمر في هذه الكتب على أن نجد النصوص القرآنية ذات المغزى الأخلاقي، وقد غرقت بطريقة غامضة وسط نصوص تتصل بموضوعات فقهية، أو أصولية، أو كلامية، أو كونية، أو غيرها».⁽³⁾

و لكن هل يكتفى بالجمع والحصر للآيات القرآنية ذات الصلة بالموضوع المدروس، وبالاقتران على النص القرآني، والانتفاء إلى استنباط المواقف والتصورات القرآنية العامة والخاصة، دون خطة مرحلية تفصيلية في دراسة عناصر الموضوع الفرعية، ودون منهج عام يضبط تلك الموضوعات الفرعية في شبكة من العلاقات الترابطية بينها يعكس نموذجية هذا المنهج الموضوعي في تفسير القرآن الكريم، ويجسد وحدة موضوعاته العامة؟

يجيبنا دراز - بلهجة جازمة - على ذلك بقوله: «فإن جميع المؤلفين - بما فيهم الغزالي - وقد جمعوا بطريقتهم الآيات القرآنية بترتيب السور، جعلوا من مختاراتهم مجرد جمع لمواد متفرقة، لا تربط بينها روح قرابة، ولا يظهر فيه أي تسلسل للأفكار، ولذلك فعندما فقدت الوحدة الأولى لكل سورة لم

¹ - لنا عودة بالتفصيل في معاني هذه المصطلحات أثناء الحديث عن أهداف التفسير الموضوعي عنده، من هذا المبحث، ص 313.

² - ضمن مطلب أهداف التفسير الموضوعي عند دراز من هذه الرسالة، ص 313.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 06 - 07.

يستطيعوا أن يكملوا عملهم بإيجاد وحدة منطقية، تربط بين الأجزاء المختارة، أو تصنيف منهجي تقتضيه قاعدة التعليم»⁽¹⁾.

فالخطة التفصيلية يقوم أساسها على الربط بين عناصر الموضوع وقضاياها الفرعية ضمن شبكة من التناسبات الخاصة والعامة، حتى تظهر وحدتها التناسقية، أو الأدبية، أو الوحدة الأولى على حسب تعبير دراز هنا.

فإذا ما تحققت هذه الوحدة التناسبية سهل بعد ذلك تحقيق الوحدة الفكرية الموضوعية في كامل القرآن الكريم، أو في سورة واحدة من سوره، أو ما يسميها دراز بالوحدة المنطقية التي تربط بين الأجزاء المختارة حتى تحقق أيضا وحدة الرؤية والدراسة بعد ذلك.

هذه الخطة التناسبية التفصيلية يعضدها كما قال تصنيف منهجي تقتضيه قاعدة التعليم، فما المقصود بهذين القيدتين عند دراز؟

إنه يقصد بالتصنيف المنهجي حضور التصور العقلي والذهني الكلي لجوانب الموضوع وعناصره المرئية، ثم صياغة دراسة ضمن منهج علمي ونسق فكري متتابع متناسق مع شمولية التصور الذهني المسبق للموضوع القرآني دراسته.

فقد أعلن أن من منهجه في دراسته الأخلاق القرآنية: «واتبعنا أخيرا نظاما منطقيًا بدلا من التزام نظام السور (الذي تبعه الإمام الغزالي)، أو النظام الأبجدي للمفاهيم (كما فعل جون لا بوم)»⁽²⁾.

بل قد التزم بهذا المنهج حتى في دراساته للموضوعات الأخلاقية التفصيلية المكوّنة للنظرية الأخلاقية؛ للمسؤولية والأجزاء والدوافع وغيرها.

فمن ذلك قوله: «وعلى هذا النسق»⁽³⁾ وقوله: «وما علينا إلا أن نستنبط ثم نصوغ رأي الأخلاق الإسلامية...»⁽⁴⁾ وقوله: «فإن صياغتها للفكرة سوف تكون مختلفة اختلافا يسيرا»⁽⁵⁾ وغير ذلك.

¹ - مصدر سابق، ص 07.

² - المصدر نفسه، ص 10.

³ - مصدر سابق، ص 551.

⁴ - المصدر نفسه، ص 488.

⁵ - المصدر نفسه، ص 507.

إذن فهي صياغة منهجية خاصة تخضع تفصيلاتها للخطة الفكرية التي يرسى دعائمها من يدرس موضوعات القرآن الكريم، وفق مقومات هذا التصور الذهني الشمولي.

وأما المنهج التعليمي فهو -عنده- قاعدة تطبيقية تعكس معالم النظام المنطقي الذي ركن إليه دراز في دراسة موضوعات القرآن الكريم، ويتجسد التعليم القرآني في آيتين: في تحديد مضامين الموضوعات العامة والفرعية واستنتاج مقاصدها ودروسها العملية.

ثم يتعدى ذلك إلى مفهوم أساليب المعالجة الموضوعية في حد ذاتها؛ إذ يعبر التعليم القرآني -هنا- عن ثنائيتين أساسيتين في الفكر وفي الأسلوب، عرضاً ورداً، سؤالاً وجواباً، طرحاً ومناقشة، افتراضاً واستنباطاً، في سلسلة من هذه الثنائيات التي تبني على أسسها عملية التعليم الفكري واللغوي، والتي اعتمدها القرآن -في نظر دراز- في طرح مواقفه تجاه القضايا الإنسانية والكونية المعروضة عليه، والذي اعتمده دراز بعد ذلك في التأصيل للنظرية الأخلاقية القرآنية من ناحيتي النظرية والتطبيق كما سنعرف ذلك لاحقاً.⁽¹⁾

يقول دراز في ذلك: «فالنصوص (القرآنية) في عملنا هذا مجمعة في فصول بحسب نوع العلاقة التي سيقى القاعدة لتنظيمها، وقد ميزت في داخل كل طائفة عدة مجموعات صغيرة من النصوص، وضعنا لها عنواناً فرعياً يوجز التعليم الخاص الذي يستقى منها، بحيث يتاح للقارئ أن يجد الحكم الذي يبحث عنه بسهولة.»⁽²⁾

فالمنهج الموضوعي -من خلال هذا النص- بجميع لنصوص قرآنية متعددة من سور متنوعة، وتصنيفها وفق أصول فكرية موحدة بينها، توضع لها عناوين عامة تجمعها وتندرج ضمنها مجموعة من النصوص الجزئية أو الصغيرة -على حد تعبير دراز- والتي تعالج قضايا فرعية، وترتبط هذه العناوين والمضامين فيما بينها ارتباطاً فرعياً وثيقاً عن طريق شبكة من العلاقات الذهنية أو اللغوية، -كما نص دراز هنا- التي تعبر عن علم المناسبات بين الآيات والسور، وكل هذه الدراسة يلزم أن تنطلق من تصور واضح ومن رؤية شمولية سابقة عليها، هذا التصور وهذه الرؤية تشكل القاعدة القرآنية الفكرية العامة، والتي تسهل على الدارس تحديد المنهجية العلمية في دراسة موضوعات القرآن.

¹ - في المطلب الثالث من هذا البحث: منهجية البحث في أنواع التفسير الموضوعي عند دراز، ص 295.

² - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 10.

تتجسد هذه القاعدة الفكرية على متسويين: على مستوى الموضوعات القرآنية في كامل سور القرآن وأغلبها، وهذا هو مفهوم الإطار المعرفي أو النفسي أو الفكري أو غيرها؛ والذي يحدد معالم الدراسات القرآنية الموضوعية التفصيلية⁽¹⁾، ثم على مستوى السورة القرآنية الواحدة، وذلك هو مفهوم الرؤية الشمولية لمحور السورة ومحطاتها الفرعية المرحلية، أو ما يسميه الدارسون المتخصصون بالوحدة الموضوعية والنظر الكلي في السورة.⁽²⁾

يقول دراز: «وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضا واحدا نرسم به خط سيرها إلى غايتها، ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها...».⁽³⁾

هذا النظام المعنوي للسورة هو نظام عام، يشمل موضوعاتها ومقاصدها، وحتى أجزائها وقضاياها الفرعية، وفي هذا يقول دراز - ناصحا الدارس للسورة لصلاتها الموضوعية -: « فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضوعية بين جزء وجزء منه ... إلا أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها، وضبط مقاصدها على وجه يكون معاوناً له على السير في تلك التفاصيل عن بينة»⁽⁴⁾، ونقل بعض كلام العلماء في الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية.

وعود على بدء إلى مفهوم النظام المنطقي الذي أشار إليه دراز في مقدمة كتابه "دستور الأخلاق في القرآن"، وجعله معياراً أساسياً بني عليه دراساته لموضوعات القرآن الكريم، فقد نص أنه نظام مغاير لنظام المفاهيم الأبجدية التي قدمها جون لابوم في كتابه "تفصيل آيات القرآن الكريم"⁽⁵⁾، الذي وضعه باللغة الفرنسية، وقسمه إلى ثمانية عشر باباً كبيراً، وكل باب تدرج تحته مجموعة من الموضوعات القرآنية المتعددة، وقد كان منهجه في ذلك «وضع جميع الآيات التي نزلت عن موضوع واحد في فصل على حدته»⁽⁶⁾، وقد رتبت آياته على حسب تدرج نسق الفكرة من العموم إلى الخصوص، لا على حسب الترتيب المصحفي أو التاريخي، اللهم إلا الترتيب بين الآيات نفسها للسورة الواحدة، فهذا لم يخالف فيه الترتيب المصحفي، وهذا واضح جلي لمن تأمله كتابه.

¹ - يراجع في هذا: منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد خليل محمد الدغامين، ص 42، 134، والمدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 58، والتفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحمان، ص 60، 61 وغيرها.

² - يراجع: المراجع السابقة، ومباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 41 وغيره.

³ - النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، ص 192.

⁴ - المصدر نفسه.

⁵ - تفصيل آيات القرآن الحكيم: جون لابوم، نقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1955 م.

⁶ - المصدر نفسه، في مقدمته بقلم محمد فريد وجددي، ص 05.

فإذا ما رجعنا بالتحليل والمقارنة وجدنا أن النظام المنطقي عند دراز - نظرية وتطبيقا - لا يختلف عن النظام الأبجدي للمفاهيم عند لابوم في قضية الجمع والتصنيف؛ فكلا النظامين قد اعتمدا جمع الآيات وفق نسق الفكرة العامة الجامعة، ثم صنفت تحت عناوين ضابطة لها؛ بل لعل هذا الإجراء المنهجي يكون غير واضح بين تفرع العناوين الجزئية عن بعضها البعض، وترتيبها فيما بينها ترتيبا منطقيا عند محمد دراز، كما في جمعه لنصوص الأخلاق العلمية في القرآن بفروعها الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية⁽¹⁾، فلا منطوق في الترتيب مثلا بين العناوين التالية (التحكم في الأهواء، الامتناع عن شهوتي البطن والفرج، كظم الغيظ، الصدق، الرقة والتواضع، التحفظ في الأحكام)⁽²⁾، وغيرها كنت متوافقة توافقا منطقيا.⁽³⁾

وإنما يختلف النظامان عن بعضهما البعض في أن النظام المنطقي يخضع جمع الآيات وتصنيفها للقاعدة المسبقة والنظرة الشمولية، ويؤكد على استخلاص المواقف والأحكام قصد تسهيل البحث عنها والوصول إليها دون عناء أو تدبر.

إضافة إلى هذا أن النظام المنطقي للموضوع القرآني - وفق القاعدة والعلاقات - يساهم في تكوين المنهج الذي يرسم معالم الدراسة الموضوعية في القرآن الكريم، ولذا قال دراز: «وتنظيم النصوص بموضوعها على هذا الوجه يبني لنا منهجا كاملا للحياة العملية كما رسمها القرآن».⁽⁴⁾

والتفسير الموضوعي - في نظر دراز - منهج يجمع بين النظرية والتطبيق، أو بين الجانب العملي والجانب النظري كما يفضل دراز تسميته.⁽⁵⁾

ففي الجانب العملي درس دراز الأخلاق القرآنية العملية، وكشف - من خلالها - رحابة النظام القرآني هنا، وجدته في إضافة فصول جديدة في علم الأخلاق وصفها دراز بأنها "ختمت إلى الأبد العمل الأخلاقي".⁽⁶⁾

¹ - دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، ص 689 وما بعدها.

² - المصدر نفسه، ص 694 - 696.

³ - المصدر نفسه، ص 711 وما بعدها.

⁴ - مصدر سابق، ص 10.

⁵ - المصدر نفسه، ص 08.

⁶ - المصدر نفسه، ص 09.

وفي الجانب النظري اتخذ دراز من النص القرآني وحده نقطة انطلاق، بغية - كما قال - الرجوع المباشر إلى النص لاستخراج الإجابة عن كل مسألة تعرض عليه، ولإبراز هدايات الله في الأنفس والمجتمعات في الجوانب الأخلاقية فقط، دون الجوانب الأخرى، والتي لا تشغل مكانا مركزيا ضمن هذا المنهج الموضوعي.⁽¹⁾

وهنا بين دراز أن هذا التعليم الأخلاقي القرآني مفارق للتعليم الإنساني أو الفلسفي - كما يسميه دراز - في المصادر وفي المنهج المتبع؛ فالقرآن الكريم «لا يقدم إلينا هذه الحقائق الأساسية مجتمعة في صورة نظام موحد»⁽²⁾، لموضوعات كثيرة، كل موضوع قد توزعت عناصره في سور متنوعة من القرآن الكريم، و«إن دراسة مثل هذا الموضوع لجديرة أن يخصص لها عمل مستقل»⁽³⁾، في إطار المنهج الموضوعي.

وما هو ملفت للانتباه هنا أن دراز أشار أن الجانب العملي للأخلاق القرآنية غالبا ما تستخرج منه المواقف العلاجية الواقعية للمشكلات الأخلاقية التي تعاني - ولا تزال - منها البشرية، في حين أن الجانب النظري غالبا ما يفيد التصورات والنظريات القرآنية الصحيحة مقابلة للآراء الإنسانية المتضاربة، وذلك من غير انتفاء أن يتضمن الجانب العملي مفهوم التصورات النظرية، أو أن يتضمن الجانب النظري المواقف العلاجية الواقعية، ولكنه حضور التذكير والتأكيد، لا حضور التأصيل والتأسيس.

ففي الجانب العملي للأخلاق القرآنية، كشف عن خصائص لها ثلاثة نظريات: رحابة جوهر القانون الأخلاقي، وصياغة تنوع التعاليم الأخلاقية في وحدة منطقية وفكرية، وتأسيس النظرية القرآنية، والبناء الأخلاقي المقدس.⁽⁴⁾

كما خط لنا بعض معالم منهجه الموضوعي في دراسة الأخلاق النظرية والعلمية في القرآن الكريم، تجدر الإشارة إليها بالتفصيل لاحقا.⁽⁵⁾

وأما في الجانب النظري فقد التزم الرجوع المباشر إلى النص القرآني من أجل استخراج الإجابة منه عن كل مسألة كما قال⁽¹⁾، وما هذه الإجابات في حقيقة الأمر إلا مواقف قرآنية عملية للمشكلات

¹ - المصدر نفسه، ص 13.

² - المصدر نفسه، ص 15.

³ - المصدر نفسه، ص 15.

⁴ - مصدر سابق، ص 08-09.

⁵ - من خلال المطلب الثالث: منهجية البحث في التفسير الموضوعي عنده، ص 295.

الإنسانية الواقعية، كما أنه لم ينس أن يسجل في خاتمة بحثه عن الأخلاق القرآنية أهم النتائج التي توصل إليها، وهي -لا شك- نتائج تجمع بين التنظير المبدع، والتطبيق المنتج.⁽²⁾

أما عن طبيعة العملية التفسيرية ضمن المنهج الموضوعي عند دراز، فهي لا تعتمد تفسير كل آيات السورة القرآنية الواحدة، وإنما يعرض بالتفسير للآيات التي تساهم في تحقيق الوحدة العامة للسورة القرآنية، كما أنه -أيضا- ينتقل في تفسيرها من المعاني الكلية إلى جزئياتها التفصيلية -على حسب المقام- وفق المنهج الاستنباطي الذي يعنى بافتراض مسبق، وإطار معرفي متقدم، ورؤية شمولية مخططة ترتبط بها وتصدقها الآيات المفسرة -بعد ذلك- تفسيراً تحليلياً أو إجمالياً.

قد علمنا من قبل قوله: «إنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضاً واحداً نرسم به خط سيرها إلى غايتها، ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها، لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى».⁽³⁾

كما أوصى أيضا الدارسين للصور القرآنية بقوله: «وملاك الأمر في ذلك أن تنظر إلى النظام المجموعي الذي وضعت عليه السورة كلها»⁽⁴⁾، وضرب لنا مثلا بنظام عقد المعاني في سورة البقرة على صفة الإجمال، ثم شرع في تفسيره على صفة التفصيل.⁽⁵⁾

خلاصة القول أن التفسير الموضوعي -في نظر دراز- منهج فكري يتخذ النص القرآني أصلا له، وينطلق من تصور جديد، ورؤية شمولية وقاعدة متقدمة بتخطيط مسبق، تتمثل إجراءاته في تجميع آيات القرآن الكريم التي عرضت لنفس الموضوع الفكري الفلسفي أو الواقعي المعيشي المعروف على القرآن الكريم، أو تفسير بعض أو جل⁽⁶⁾ آيات السورة الواحدة، وفق نظرتها الكلية، و تخطيطها المسبق، كل ذلك وفق نظام منطقي واضح، يضبط الشرائح العلائقية بين الموضوعات الفرعية، والآيات القرآنية في إطار حكم المناسبات، وذلك للوصول إلى تحقيق الوحدة الأدبية والمنطقية للموضوع في القرآن أو في السورة، ولابتكار التصورات الصحيحة، والمواقف والحلول الواقعية للمعضلات الإنسانية قديما وحديثا، وذلك وفق قاعدة التعليم القرآني وفي إطار نظرية قرآنية خالصة.

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 13.

² - المصدر نفسه، ص 686-687.

³ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 192.

⁴ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 196.

⁵ - المصدر نفسه، ص 197-284.

⁶ - هذا القيد على حسب ما يحقق الوحدة الموضوعية العامة داخل السورة القرآنية الواحدة.

الفرع الثاني: أهمية التفسير الموضوعي عند محمد عبد الله دراز.

لاشك أن التفسير الموضوعي هو تفسير العصر وتفسير المستقبل؛ إذ له أهمية كبرى، وفوائد كثيرة، وأهداف جمة - باتفاق جميع الدارسين المعاصرين -⁽¹⁾؛ فالتفسير الموضوعي «يحقق للمسلمين فوائد عديدة؛ من حيث صلتهم بالقرآن الكريم، وتعرفهم على مبادئه وحقائقه، ومن حيث تشكيل تصوراتهم وتكوين ثقافتهم، ومن حيث عملهم على إصلاح أخطائهم، وتكوين مجتمعاتهم، ومن حيث حسن عرض القرآن والإسلام على الآخرين، والوقوف أمام الأعداء والمخالفين».⁽²⁾

ولم يكن محمد عبد الله دراز بغفلة عن تحديد هذه الأهداف والقواعد، والتخطيط الفكري والعلمي والإصلاحي من أجل تحقيقها وإنجازها على أرض الواقع، ولكنه كان - رحمه الله - واسع النظر في هذا الجانب، فلم يكن مقتصرًا على رسم هذه الأهداف العلمية والإصلاحية، بل كان يرى - قبل ذلك - أن للتفسير الموضوعي أهمية أكاديمية وضرورة تأليفية في سد فجوات المكتبة الإنسانية بمثل هذه الدراسات العميقة التي تربط بين الواقع الإنساني - بتعقيده ومتطلباته - والقرآن الكريم، وتؤكد حضور هذا الأخير وصلاحيته لكل زمان ومكان، فليس القرآن كتاب دين فقط، تتلى آياته، وترتل في مجالس العبادة، ثم يرد - بعد ذلك - إلى رفه ومكانه من خزانة الكتب، ولا علاقة له - بعد ذلك - بالتنظير العلمي أو الإصلاح الإنساني.

فمن أهمية التفسير الموضوعي عند دراز التأسيس لموضوعات ونظريات جديدة، لم يسبق دراستها عمداً أو غفلة؛ إذ يقول في ذلك: «فلم يكن شروعا في هذا المؤلف الجديد من القرآن، عبثا نضيع فيه وقتنا، ونثقل به على قرائنا، ونزحم به مكتباتنا، فإذا لم يأت عملنا هذا بشيء جديد في عالم الشرق أو الغرب، فلن يكون سوى مضیعة وزحمة وإثقال».⁽³⁾

ومن أهمية التفسير الموضوعي عند دراز ملء الفجوة الرهيبة في المكتبات الغربية والإسلامية في مثل هذه الموضوعات القرآنية والتي تضع - بين أيدينا - الدستور القرآني وإضافاته القيمة في هذا المجال.

¹ - يراجع مثلا: المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 40، ومباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 30، والتفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم، 37/1، وغيرها.

² - التفسير الموضوعي بين النظرية التطبيقية: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 56.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 01-02.

يقول في ذلك: «إن نظرة سريعة نلقيها على مؤلفات علم الأخلاق العام - التي كتبها علماء غربيون - كافية لنلاحظ فيها فراغا هائلا وعميقا، نشأ عن صمتهم المطلق عن علم الأخلاق القرآني». (1)

ويقول أيضا: «فإن الإضافة القرآنية في هذا الباب ذات قيمة لا تقدر، ولسوف يفيد منها تاريخ النظريات الأخلاقية سعة، وعمقا، وتوافقا، كما تفيد المشكلة الأخلاقية ذاتها منها، في حل مصاعبها سواء في ذلك المصاعب المتجددة والدائمة». (2)

فالأهمية هنا علمية منهجية في بلورة النظريات الأخلاقية بلورة ناضجة متكاملة، وفي إضافة أبواب جديدة للنظريات الإنسانية من ناحية كثيرة الموضوعات، وتلك ميزة السعة، ومن ناحية دقة المنهج، وصحة المعالجة، وتعدد الأفكار، وكمال التصورات والمواقف والنتائج، وهذه ميزة العمق، وقد تكون متوافقة في بعض جوانبها وموضوعاتها مع الفلسفة الإنسانية، وهذه هي ميزة التوافق.

و قد تكون هذه الأهمية أيضا أهمية عملية واقعية، من خلال تقديم الحلول العلاجية للمشكلات الأخلاقية الإنسانية الدائمة أو المتجددة.

ومن أهم ملامح أهمية التفسير الموضوعي العلمية تصحيح أخطاء الكتاب - خاصة الغربيين منهم - في نظرهم للقرآن الكريم، وفي أحكامهم على منهجه في علاج موضوعات الحياة الإنسانية والكونية والإيمانية؛ إذ يقول في ذلك: «ولذلك بدا لنا من الضروري أن نتناول الموضوع من جديد، وأن نعالجه تبعا لمنهج أكثر سلامة، من أجل تصحيح هذه الأخطاء وملء الفجوة في المكتبة الأوربية، وحتى نري علماء الغرب الوجه الحقيقي للأخلاق القرآنية». (3)

و أما عن المكتبة الإسلامية فيقول عنها - وعن غيرها - «فلم تكن الأخلاق القرآنية إذن الموضوع الرئيسي للدراسة والتقنين لدى المسلمين أو المستشرقين، لا من الناحية النظرية، ولا من الناحية العملية». (4)

وأما مركزية الأهداف العلمية والعملية للتفسير الموضوعي فنجزئها لاحقا. (5)

¹ - المصدر نفسه، ص 02.

² - المصدر نفسه، ص 02.

³ - مصدر سابق، ص 04.

⁴ - المصدر نفسه، ص 04.

⁵ - في المطلب الرابع من هذا البحث: أهداف التفسير الموضوعي عند دراز، ص 295.

المطلب الثاني: أنواع التفسير الموضوعي عند محمد عبد الله دراز.

إذا تأملنا جيدا ما قدمه محمد عبد الله دراز من نماذج قليلة في التفسير الموضوعي، خاصة في كتابه "دستور الأخلاق في القرآن" و"النبا العظيم"، و"حصاد قلم"، و"مدخل إلى القرآن الكريم"، و"زاد المسلم للدين والحياة" بصفة أقل حجما ودراسة، ثم إذا تأملنا ما سلف ذكره من مفهوم التفسير الموضوعي عنده تبين لنا أنه سلك التفسير الموضوعي وفق نوعيه الرئيسيين الموضوع والسورة القرآنيين.

ولعل هذا التقسيم هو تقسيم باعتبار نوعية ومجال الدراسة القرآنية الموضوعية، وهناك -أيضا- إضافة إلى هذا الاعتبار، اعتباران آخران: الأول منهما التقسيم باعتبار شكل وحجم الدراسة، والثاني منهما باعتبار الرابطة بين قضاياها وموضوعاته، وفيما يلي بعض التفصيل لهذه الاعتبارات:

الفرع الأول: باعتبار نوعية، منهج، ومجال الدراسة القرآنية الموضوعية.

إذ يتنوع التفسير الموضوعي على حسب مجال الدراسة، فهناك دراسات تقتصر على معالجة موضوعات متعددة في سورة واحدة من سور القرآن الكريم، ودراسات أخرى تتعدى ذلك إلى جل وأغلب سور القرآن الكريم، وذلك هو مجال الموضوع القرآني.

كما يتنوع المنهج المتبع في هذه الدراسات من منهج تجميعي استقرائي للموضوع القرآني، وآخر كشفي استنباطي للسورة القرآنية.

أولا: التفسير الموضوعي للموضوع القرآني عند دراز

لم يقدم محمد عبد الله دراز نماذج كثيرة لدراسة موضوعات القرآن الكريم؛ إذ درس منها ما استدعته الضرورة العلمية، والتأليف الأكاديمي في عرض صورة الإسلام على الفكر الغربي عرضا صحيحا، والتأكيد على حضور القرآن ودواميته، وبيان مواقفه الإصلاحية الصائبة والدقيقة في كثير من الأفكار والنظريات والمشكلات المعرفية والكونية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، والتي وقعت في برائنها العفنة اليوم البشرية، ببعدها واستغنائها عن مصدر هدايتها وسعادتها، القرآن الكريم.

فمن أهم الموضوعات القرآنية في ذلك التي اهتم دراز بدراساتها: النظرية والدستور الأخلاقي في القرآن، وضمّنه موضوعات هامة، كحقيقة المسؤولية، معوقاتنا، وحلول لمعضلاتنا⁽¹⁾، وقبل ذلك حقيقة

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 134، 241.

الإلزام ومصادره وخصائص التكليف وسلم الواجبات بين الفلسفة الغربية والقرآن الكريم⁽¹⁾، ثم موضوع الجزء الإلهي العاجل والآجل حسب تصور القرآن⁽²⁾، ثم موضوع النية والدوافع ودورها في إنتاج القيم الأخلاقية⁽³⁾، ثم أخيرا موضوع الجهد وأنواعه ومحفزاته في القرآن الكريم.⁽⁴⁾

ومن أمثله أيضا في مؤلفات أخرى مواضيع: حقيقة الحرب والجهاد في القرآن، وقضايا الإيمان والتوحيد، وأخلاق اليهود في نظر القرآن، من كتابه "المدخل"⁽⁵⁾، ومواضيع: مكونات المجتمع الصالح الخلقي والاجتماعية والروحية، والقتال في الإسلام والقرآن، وموقف الإسلام من الأديان الأخرى، ودساتير الأخوة الإنسانية في القرآن، من كتابه "الحصاد"⁽⁶⁾، ومواضيع: كيف عالج القرآن الكريم رذيلة البخل، وأسلوب البذل في القرآن، والرسول - صلى الله عليه وسلم - في القرآن، وهجرته - صلى الله عليه وسلم - في القرآن، وصفات المؤمنين في القرآن، والعدل في القرآن الكريم من كتابه "الزاد"⁽⁷⁾، إضافة إلى موضوعات أخرى: كآداب القرآن بين المثالية والواقعية، ومناهج الناس في السلوك وقيمها في القرآن.⁽⁸⁾

هنا ولا يعني أن دراز لم يرجع إلى النص القرآني في دراسة موضوعات فكرية وعقائدية واجتماعية أخرى، ولكن لم يكن يدرسها ضمن المنهج الموضوعي من خلال الجمع والإحصاء واستنباط المواقف والنظريات والتصورات، وإنما كانت مجرد مختارات قرآنية لا تشكل بينها روح قرابة معنوية، ولا تخضع لنظام منطقي واضح، ونسق فكري مخطط، وإنما كانت علاجات قرآنية آنية ووجيزة، هدفها بيان الأحكام الشرعية مباشرة من غير دراسة جامعة.

¹ - مصدر سابق، ص 19-125.

² - المصدر نفسه، ص 343-403.

³ - المصدر نفسه، ص 419-581.

⁴ - المصدر نفسه، ص 583-669.

⁵ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 63، 78، 86، 162.

⁶ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 296، 325، 363، 373.

⁷ - زاد المسلم للدين والحياة: محمد عبد الله دراز، ص 41، 83، 103، 124، 145، 211.

⁸ - ينظر: محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث: إعداد مصطفى فضلية، ص 402، 410.

وقد شمل هذا الاستشهاد القرآني جميع قضاياها المدروسة، بما فيها بعض الموضوعات السالفة الذكر هنا، وموضوعات أخرى كثيرة جدا تفصيلية ومرتبطة بالموضوعات القرآنية الكبرى⁽¹⁾ المدروسة عنده بمنهج التفسير الموضوعي.

وإطالة خاطفة لمؤلفاته، تحيل إلى هذه الموضوعات التي لم يقصد منها الدراسة الجامعة وفق المنهج الموضوعي، كما في موضوعات: معاتبه الرسول - صلى الله عليه وسلم - والنبوءات، وموقف الإسلام من أهل الكتاب من كتابه "النبأ"⁽²⁾، وموضوعات الحدود والقتال، والحق العام والحق الخاص، وبعض القضايا الفقهية والجنايئة والدستورية من كتابه "الدستور"⁽³⁾، وموضوعات: المعجزات والفضائل الفردية والجماعية، والقصص اليهودي والمسيحي من كتابه "المدخل"⁽⁴⁾، وموضوعات: كرامة الفرد، والرق، والمسؤوليات الأدبية، وموقف الإسلام من الربا من كتابه "الدراسات"⁽⁵⁾، وغير ذلك.

وذلك راجع - كما عُرف من قبل - أن محمد دراز كان رجلا قرآنيا قد جعل من القرآن الكريم أصله الأصيل في دراساته الفكرية والدعوية والإصلاحية.

وعود على بدء إلى النظرية الأخلاقية وموضوعاتها الأساسية، لنرى تفاصيلها المرحلية، ولنتحقق مدى موافقتها للمفاهيم الأساسية التي حدد بها محمد دراز منهج التفسير الموضوعي.

قد علمنا - من قبل - أن هذه الدراسة العلمية الأكاديمية كانت نتاجا لمناخ نفسي وواقعي فرضه واقع الخراب الأخلاقي ومتعلقاته من الهيمنة العسكرية والنهب والاحتكار الاقتصادي، والفساد السياسي، والانحلال الأخلاقي الذي وقعت في برائته العفنة دول أوروبا إبان الحرب العالمية الثانية، فكان ذلك حافزا لمحمد دراز أن يؤلف في المشكلة الأخلاقية، وأن ينقب في أعماق القرآن الكريم، -مصدر الهداية التي تغفلت عنه أوروبا-، ويضع -بعد ذلك- بين أيديهم التصورات النظرية الناضجة في علم الأخلاق العام وخصائصه النموذجية سعة، وعمقا، وطولا، وي طرح المواقف العلاجية لهذه المشكلات الأخلاقية، ويصحح بذلك المفاهيم الأوروبية الخاطئة حول القرآن الكريم وقضاياها الدينية والأخلاقية.

¹ - هذا وصف يقصد به الموضوعات القرآنية العامة التي تتضمن موضوعات فرعية معالجة هي أيضا في القرآن الكريم، فإذا اجتمعت الموضوعات الثانية تشكلت آليا الموضوعات الأولى.

² - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 88، 77.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 262، 426، 429 وغيرها.

⁴ - مدخل إلى القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 168.

⁵ - دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية: محمد عبد الله دراز، ص 119، 125، 165.

وقد استطاع بهذا أن يؤسس لعلم الأخلاق القرآني تأسيسا معرفيا متكاملًا من ناحيته النظرية والعملية، وأن يثبت إعجاز وهداية القرآن في التعليم الأخلاقي، وقد هيمنت على رسالته - كما عرفنا - فكرة رئيسية «هي أن الحاسة الخلقية انبعت داخلية فطرية وأن القانون الأخلاقي قد طبع في النفس الإنسانية منذ نشأتها»⁽¹⁾، كما أبرز أيضا «أنه لا مكان للأخلاق بدون عقيدة، والعقيدة هنا تتصل بالأخلاق ذاتها، ومعناها الإيمان بالحقيقة الأخلاقية كحقيقة قائمة بذاتها تسمو على الفرد»⁽²⁾.

ولا نريد إعادة تلخيص موضوعات النظرية الأخلاقية الأساسية عنده، فقد لخصت من قبل⁽³⁾، ولكن نريد معرفة كيفية دراسته، خاصة إذا علمنا أنه درس علم الأخلاق مرة أخرى في كتابه "دراسات"⁽⁴⁾، بطريقة مغايرة مما يفرض هنا معرفة الطريقة لا المنهجية.⁽⁵⁾

عرض دراز لعلم الأخلاق في كتابه "الدراسات" عرضا منطقيًا إنسانيًا، ودرس مفاهيمه الأساسية في نظر المؤسسين والدارسين له - خاصة الغربيين منهم - على مراحل أربعة أساسية، الأولى في التعريف اللغوي بالأخلاق وتقسيمها إلى غريزية ومكتسبة، ثم إرداف ذلك بالتعرف الفلسفي لعلم الأخلاق وتقسيمه إلى نظري وعملي، موردا في ذلك آراء الفلاسفة الغربيين ومناقشا لهم، ثم تتلوها المرحلة الثانية في بسط اعتراضات المدرسة الاجتماعية الفرنسية⁽⁶⁾ للنظريات الأخلاقية القديمة، مناقشا إياهم مناقشة عقلية منطقية دقيقة، ومفندا بعد ذلك اعتراضاتهم الوهمية.⁽⁷⁾

ثم تعقبها المرحلة الثالثة في بسط مقارنة بين الأخلاق الفلسفية والأخلاق الدينية أو القرآنية من حيث الموضوع، ومن حيث الواضع ومن حيث البواعث والأهداف⁽⁸⁾، ثم ختمها بمرحلة رابعة بيّن فيها علاقة علم الأخلاق بالتربية بحسب آراء الفلاسفة الغربيين.⁽⁹⁾

¹ - مقدمة كتاب دستور الأخلاق في القرآن: بقلم السيد بدوي، ص: ي ب.

² - المصدر نفسه، ص: ي د.

³ - في التعريف بمؤلفاته العلمية من الفصل التمهيدي لهذه الرسالة، ص 47.

⁴ - ينظر دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية: محمد عبد الله دراز، ص 175-214.

⁵ - أما منهجية البحث عنده، فتتعرّف عليها خلال المطلب الموالي لهذا المطلب مباشرة.

⁶ - هي مدرسة فلسفية جديدة، ظهرت في فرنسا في القرن 19 م، من أعلامها أوجيست كونت، وإميل دوركايم، وليفي بريل، اشتهروا بالفلسفة الواقعية، وبإبعاد الدين والفلسفة القديمة والأخلاق لأنها لا تتبع من عقلية الفرد ينظر:

⁷ - دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية، محمد دراز، ص 191-197.

⁸ - مصدر سابق، ص 198-209.

⁹ - المصدر نفسه، ص 210-214.

أما دراسة الأخلاق في كتابه "الدستور"، فقد عرض لها عرضاً منطقياً قرآنياً؛ حيث جعل من النص القرآني أصلاً ومرجعاً أساسياً في دراسته المشكلة الأخلاقية، ومن أجل أن يؤسس لنظرية قرآنية كاملة ومتكاملة، كان حقاً على البشرية أن تتمسك بما لتصحح تصوراتها وأفكارها، ولتصلح أعمالها ومشاكلها، ولذا فقد قسم بحثه إلى مقدمة وخاتمة وموضوعات أساسية يلتزم بها القانون الأخلاقي، ويتشكل بها الدستور أو النظرية القرآنية في علم الأخلاق.

سجّل في مقدمته الإطار المعرفي والعلمي للأخلاق القرآنية (الدينية)، وحدد الإشكالية المنهجية الأساسية للكتابة فيها؛ من حيث خلو المكتبات الغربية والإسلامية من التأصيل لها، كعلم مستقل له مبادئه، وموضوعاته، وأهدافه ونظرياته، كما نقد أغلب الدراسات العلمية السابقة—من حيث النظرية والتطبيق—بأنها لم تصل إلى هذا المستوى من النضج التأليفي، ولم تبرز نظرية القرآن في علم الأخلاق، ومواقفه الإصلاحية للمشكلات الأخلاقية، لأنها لم تتبع المنهج الموضوعي الذي تظهر به الأخلاق القرآنية في شكل وحدة منطقية لا تقبل الانقسام، ومقدمة—أيضاً—لنا «أطراً معدة على هيئة دوائر مشتركة المركز، كل واحدة منها قابلة لأن تتسع وتنكمش في توافق مع المجموع، بل لقد تتداخل هذه الدوائر بالتبادل دون أن تطغى إحداها على الأخرى».⁽¹⁾

ثم قدم معالم منهجه الذي سيدرس به الأخلاق القرآنية، اعتمد فيه على التصنيف المنطقي، والدراسة المقارنة، والرجوع إلى النص القرآني مباشرة لاستخراج الإجابات والتصورات والمواقف من ناحيتي النظرية والتطبيق.

وقدم أيضاً أسئلة علمية منهجية عن أسس النظرية الأخلاقية ومكوناتها، فأخذ «يتأمل في النص القرآني باحثاً عن سمات "الواجب" وعن طبيعة "السلطة" التي ينبعث عنها "الإلزام" أو التكليف، وعن درجة "المسؤولية" الإنسانية وشروطها، وعن طبيعة "الجهد" المطلوب للعمل الأخلاقي، والمبدأ الأسمى الذي يجب أن يحفز "الإرادة" للعمل».⁽²⁾

وعلى هذا قسم كتابه إلى فصول خمسة لهذه الموضوعات الأخلاقية الأساسية، مرتبة فيما بينها بهذا الترتيب الدقيق، فالإلزام الخلقي هو الأساس الذي حدد الفكرة الرئيسية للكتاب وهدفه العام، وهو الذي ضمن فكرة القانون الأخلاقي الداخلي، والواجب الأخلاقي، والقيم الأخلاقية، ومصدر التلقي، ثم تنبثق عن فكرة الإلزام فكرة المسؤولية بجوانبها الأخلاقية والدينية والاجتماعية، وهي موضوع الفصل

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله، دراز، ص 10.

² - مصدر سابق، ص 16 - 17.

الثاني، كما يترتب على الإلزام والمسؤولية بالضرورة مبدأ "الجزاء"، وهو موضوع الفصل الثالث، وهنا تحدث عن مفهومه وأنواعه في القرآن الكريم.⁽¹⁾

ثم بيّن محل الجزء وهو العمل الأخلاقي بجانبه الأساسيين، النية والجهد، فبدأ بدراسة النيات وأنواعها، ودوافعها، ثم عالج المؤلف في الفصل الخامس من كتابه مسألة «طبيعة الجهد الإنساني الذي يأمر به القرآن الكريم، ودرجة هذا الجهد وقيّمته في اكتساب الثواب»، وجوانب أخرى تابعة له.

ثم ختم بحثه النظري بخاتمة عامة سجل فيها أهم النتائج التي توصل إليها.

كما عرض في القسم الثاني من الكتاب الأخلاق العلمية عرضاً سريعاً لآياتها دون شرح، عرضاً منطقياً تحاشى فيه التكرار والترتيب السوري، والأبجدي للمفاهيم الأخلاقية.

ثالثاً: التفسير الموضوعي للسورة القرآنية.

كذلك كان هذا اللون من التفسير الموضوعي واضح المعالم، بيّن التقاسيم، مرحلي المنهجية، مفصل الخطة والأهداف، قائماً على رؤية شمولية، وقاعدة فكرية عامة، وملاحظة الموضوع والمحور العام الذي سعت السورة لتحقيقه عبر مراحل منهجية متعاقبة، كل ذلك كان واضحاً في نظر وفكر محمد عبد الله دراز.

فالتفسير الموضوعي للسورة القرآنية بهذا يعني «الكشف عن ذلك الموضوع وبيانه، على كيفية طرحه، وإبراز أجزائه وعناصره على ضوء منهج محدد، وضمن أطر ثابتة»⁽²⁾، تحقق - بعد ذلك - أهداف الموضوع ومقاصده العامة والخاصة، وتبرز بذلك وحدة السورة الفكرية والمنطقية عن طريق شبكة من العلاقات والمناسبات بين أجزاء السورة الواحدة، أو بين السور القرآنية في ترتيبها المصحفي أو النزولي.⁽³⁾

وقد قدم محمد عبد الله دراز في ذلك نماذج تطبيقية - وإن كانت قليلة - تعكس مفاهيمه النظرية، ومنهجيته التطبيقية في تفسير السورة القرآنية تفسيراً موضوعياً، وكشف وحدتها المنطقية المعنوية، والأدبية البيانية.

¹ - ينظر بالتفصيل مقدمة السيد بدوي للكتاب، ص ي - ي ط.

² - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، زياد خليل الدغامين، ص 95.

³ - يراجع: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم، 1/36، والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 64، والتفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحمان، ص 65، 94.

شغلت معظم هذه النماذج التطبيقية بعض فصول كتابه «الحصاد»، في سور: الفاتحة، حلقات من سورة البقرة، يسن، غافر، الملك، القلم، النبأ، والتكوير⁽¹⁾، في حين أنه اكتفى بنموذج واحد فسر به سورة البقرة تفسيراً موضوعياً في كتابه «النبأ»⁽²⁾.

كما قدم بعض المفاهيم النظرية التي تؤصل لعملية التفسير الموضوعي للسورة القرآنية؛ ففي كتابه «مدخل إلى القرآن الكريم» قرر أنه لا تفسر السورة القرآنية إلا من خلال النظر الكلي الشامل الذي يوسع مجال الرؤية، ويظهر التناسق بين موضوعات السورة، فإذا هي بعد ذلك وحدة واحدة.

يقول في ذلك: «بل يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء، ليتسع مجال الرؤية وتحيط بالكل في نظرة شاملة، تستطيع وحدها أن تلاحظ التناسق بين الأجزاء والتوافق في التركيب، فبمثل هذه النظرة ينبغي دراسة كل سورة من سور القرآن الكريم لنقدر أبعادها الحقيقية»⁽³⁾.

فهذه النظرة يستطيع المفسر أن يتوصل إلى استنباط موضوع السورة، وأن يلاحظ التناسق الذي يرسم وحدتها العامة بين موضوعاتها ومقدمتها وخاتمها، وأن يفسر - بعد ذلك - معاني الآيات والمقاطع تفسيراً تحليلياً وإجمالياً يرتبط بموضوعها الأساس، ويوضح وحدتها الرئيسية.

وعلى المفسر أيضاً - عند دراز - أن يلاحظ انتقال الموضوع بين أجزاء السورة بداية ووسطاً وختاماً، وأن يربط معاني آيات السور به؛ إذ يقول دراز: «فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذي ستعالجه في خطوطه الرئيسية، ثم يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتداخل فيه جزء مع جزء آخر، وإنما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة، وأخيراً تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة»⁽⁴⁾.

وهنا مفهوم هام في تأسيس التفسير الموضوعي للسورة القرآنية نبه إليه دراز، ألا وهو دور ما أسماه هنا «النظام» في إبراز وحدة السورة، وفي تفسير أجزاء السورة وفق موضوعها، وفي الربط المنطقي بينها من غير تداخل، بل يحتفظ كل جزء بموقعه وفكرته الخاصة مع ارتباطه مع سائر أجزاء السورة العام، وهذا هو علم المناسبات وعلاقته.

¹ - حصاد قلم، محمد عبد الله دراز، ص 93، 109، 147، 155، 161، 189، 221، 237.

² - النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، ص 191.

³ - مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ص 128.

⁴ - مصدر سابق، ص 128.

وأضاف إليه - أيضا - معرفة الأساليب الخاصة لكل سورة؛ إذ يساعد ذلك على التفريق بين الفكرة الرئيسية والأفكار الثانوية، وعلى تسهيل الربط بين أجزاء السورة؛ وفي ذلك يقول دراز: «ومن المفهوم أن تركيز عبارات القرآن الكريم وجزالة معناها قد تترك بين كل جزء وآخر نقاطا للوصل، وعديدا من الخيوط الإرشادية، مما جعل المفسرين يختلفون في الربط بين هذه الأجزاء»⁽¹⁾.

و في كتابه "النبأ العظيم" لم يتوان التأكيد على ضرورة ملاحظة التناسق والارتباط بين أجزاء السورة الواحدة، وأن ذلك لا يمنع من تفسيرها قطعة قطعة، تفسيراً تحليلياً وإجمالياً، مادام ذلك يعكس الإطار العام، ويبرز الوحدة الفنية والمعنوية للسورة القرآنية.

ومن هذا أيضا ملاحظة التعلقات والمناسبات الداخلية لأجزاء وقضايا السورة، تعلقا تسلسليا وتناسقيا، وفي ذلك يقول: «اعمد إلى سورة من تلك السور ... وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين، كيف بدأت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ ...»⁽²⁾.

وقد نبه دراز أيضا - أنه لا يلزم في التفسير الموضوعي تتبع كل آيات السورة بالشرح والتفصيل، وبيان أوجه الارتباط بينها بيانا تفصيليا، إلا ما كان منها مبرزا للنظام المعنوي للسورة؛ وذلك في قوله: «اعلم أن ليس من ههنا الآن أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض، فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير ... وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضا واحدا...»⁽³⁾.

كما أنه أكد مرارا ضرورة استحضار الرؤية الشمولية والنظر الكلي لمحور السورة وقضاياها الأساسية قبل الشروع في تفسير آياتها تفسيراً تحليلياً؛ فهو القائل في ذلك: «فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضوعية... إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء لأجزائها، وضبط مقاصدها على وجه يكون معاوناً له على السير في تلك التفاصيل عن بينة»⁽⁴⁾.

ففي تفسير سورة التكوير - مثلا - يفتح بإيراد وجه التعلق والارتباط بينها وبين السورة التي سبقتها في الترتيب المصحفي (سورة عبس)، ومن خلال ذلك تبدو ملامح العنصر الأول لسورة التكوير

¹ - المصدر نفسه، ص 129.

² - النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، ص 187.

³ - مصدر سابق، ص 191_192.

⁴ - المصدر نفسه، ص 192.

بالظهور، في حديث القرآن عن أسباب الفرع يوم القيامة في سلسلة متلاحقة من الانقلابات الكونية، فيشرح مفرداتها ويفسر تراكيبيها بإجمال بعد أن كان قد حدد آياتها، ورسم مقطعها، وبين أوجه الارتباط، ومعاني التناسب بين آيات هذا الموضوع الأول من موضوعات العقيدة الإسلامية (اليوم الآخر) التي عاجلتها السورة. ⁽¹⁾ ثم ينتقل إلى تفسير مقطع آخر تضمن مجموعة من الآيات بعدد محدود (من الآية 15 إلى الآية 29)، بعد أن ربط بينه وبين المقطع الأول المفسر، إذ تضمن المقطع الأول تقريراً لوقوع اليوم الآخر ومقدماته، وكان المقطع الثاني يتجه إلى دعمه «بضروب من البيان والتقرير من شأنها أن ترد إلى النفوس طمأنينتها وثقتها به، وأن تزيح عنها غبار الارتباب فيه». ⁽²⁾

توقف - في تفسيره لمعاني المقطع الثاني - عند محطات بيانية وعقائدية فكرية، وضح غامضها وفصل مجملها، وربط بين عناصرها، وأظهرها في تناسق فكري، وتجانس منطقي، وسحر بياني.

فمن المحطات البيانية في هذه السورة توقفه عند اللمسات البيانية في توظيف أسلوب القسم المسبوق بلا، الدالة - في ظاهرها - على النفي، ثم توقفه عند بلاغة الصورة الفنية لفلق الصبح وتنفسه تذوقاً وبيانا. ⁽³⁾

و هذه المحطات البيانية طريق برهاني تحليلي للمحطات العقائدية التي عاجلت موضوع الرسالة الملائكية في شخص جبريل - عليه السلام - والرسالة البشرية في شخص النبي - صلى الله عليه وسلم - وبيان صفاتها في تناسق فكري استطرادي. ⁽⁴⁾

وهو في كل ذلك يتنقل في تفسيره بين مفردات المنهج التحليلي، فيستعين بمناسبات النزول، وأجواء التنزيل، ويحلل معاني القراءات، ويشرح معاني المفردات والتراكيب، كما ينتقل أيضاً بين مفردات المنهج الموضوعي، فيربط بين الآيات بوجه عدة من التناسبات، ويركز على تفسير القضايا الكبرى التي احتوتها السورة دون الإيغال في تحليل معانيها التفصيلية، ويعتمد أيضاً منهج التجميع لبعض القضايا التي تحتاج إلى إيضاح أكثر، وبيانا أشمل. ⁽⁵⁾

¹ - حصاد قلم، محمد عبد الله دراز، ص 231 - 232.

² - المصدر نفسه، ص 233.

³ - المصدر نفسه، ص 234 - 235.

⁴ - مصدر سابق، ص 235 - 238.

⁵ - المصدر نفسه، ص 236 - 239.

ثم يختتم تفسيره للسورة بإضافة الركن الثالث من أركان العقيدة الإسلامية هنا، وهو تقرير عقيدة الألوهية وبيان علاقتها مع الأفعال الإنسانية فيما عرف بالقضاء والقدر، حيث أوجز تفسيرها، وبين حكمة ختم السورة بها، واستخرج منها حقائق التصور الصحيح للعقيدة الإسلامية.⁽¹⁾

ثالثا: حقيقة التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني عند محمد عبد الله دراز.

وهنا تُفتح نافذة للتساؤل عن مدى وضوح فكرة المصطلح القرآني عند دراز، كما وضحت عنده فكرتا الموضوع والسورة، خاصة إذا علمنا اتفاق الدراسات المعاصرة على اللونين الأخيرين، واختلافهم حول اللون الأول؟

فهل كان دراز يعي فعلا هذا اللون التفسيري؟ وهل كان يدرك حقائقه وأبعاده الاصطلاحية والمفاهيمية؟ وهل كانت له في ذلك منهجية مرحلية وخطة مفصلة؟ فضلا عن أن تكون لديه دراسات مستقلة حول مصطلحات قرآنية مختارة؟

بالرجوع والتفحص العميق لمؤلفات محمد عبد الله دراز، لا نجد أنه أصل نظريا أو طرح مفهوم المصطلح القرآني، وميزه عن باقي ألوان التفسير الموضوعي، وإنما قدم بعض النماذج التطبيقية لبعض المصطلحات القرآنية، كمصطلحات: الرحمة، والله، والتقوى في كتابه "الدستور"⁽²⁾، ومصطلح: الزفير والشهيق، والإسلام والسلام في كتابه "حصاد قلم"⁽³⁾، وأيضا ورد هذا المصطلح الأخير في كتابه "الدراسات"⁽⁴⁾، وهي نماذج لم يكن الهدف منها دراسة المصطلح في إطار المنهج الموضوعي؛ فبعضها لم يستوف الجمع والإحصاء، كما في مصطلح الرحمة؛ فقد ذكر بعض السياقات القرآنية التي وردت فيها هذه اللفظة، ولم يرد من ارتباطاتها السياقية بألفاظ أخرى، إلا لفظي (رأفة) و (فضل)، وفي الارتباط الأول تحمل معنى الكرم، وفي الارتباط الثاني معنى الحفظ من الشرور، والتخلص من العقوبة.⁽⁵⁾

ولكن هذه اللفظة اقترنت في القرآن الكريم بألفاظ أخرى لم يذكرها دراز، كإلهدى من قوله تعالى: «وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ» [الأعراف/ 154]، وكالرضوان من قوله تعالى: «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ» [التوبة/ 21]، وكلفظة

¹ - المصدر نفسه، ص 239 - 240.

² - دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، ص 371، 453، 486.

³ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 170 - 363 - 364.

⁴ - دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية: محمد دراز، ص 222.

⁵ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 371 هامش 03.

إمام من قوله تعالى: «وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً» [هود/ 17]، وفي لفظة البركة من قوله تعالى: «رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ» [هود/ 73]، وغير ذلك.⁽¹⁾

وكذلك الأمر مع توظيفه لمصطلح مسلمون ومسلمين في بحثه عن الإسلام في الديانات السابقة، فلم يذكر في ذلك إلا تسعة نصوص⁽²⁾، رغم أنهما يقارب ذكرهما في القرآن الكريم الأربعين موضعاً.⁽³⁾

وقد كان موفقاً في إحصاء موارد تكرر ألفاظ: الله، التقوى، والزفير، والشهيق، كما كان موفقاً في تسجيل لطائفها وحقائقها التصورية، ومواقفها العملية الدعوية، وذلك بالرغم من أنها لم تُدرس في إطار نسق فكري محوري ابتداءً، وإنما كانت استطرادات عرضية، أو حقائق فرعية، أو أهداف نهائية تطبع الموقف القرآني العام.

فمن الاستطرادات العرضية توقفه عند لفظي الزفير والشهيق⁽⁴⁾، وحقائقيهما أثناء تفسيره للمقصد الثاني (اليوم الآخر) من سورة الملك⁽⁵⁾؛ إذ يقول في ذلك: «وقد جاء ذكر "الشهيق" هنا وفي سورة الفرقان "الزفير" وجاء في سورة الأنبياء ذكر زفير أهلها، وفي سورة هود "زفيرهم وشهيقهم معا"»⁽⁶⁾

وبعد هذا الإحصاء يذكر المعاني الدقيقة السياقية فيقول: «ومن تأمل مواقع هذه الأوصاف المختلفة تبين له وجه اختلافها، فالشهيق حركة النفس أخذاً واجتذاباً، والزفير: حركة النفس طرداً ودفعا، والذي يحسه المقبل على النار عن بعد إنما هو زفيرها وقذفها بالحرارة واللهب، وهذا هو الذي ورد في سورة الفرقان «إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا» [الفرقان/ 12]، فإذا اقترن منها ودخل بابها كان أعظم إحساسه بحركة اجتذابها وابتلاعها كما في هذه السورة «إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ» [الملك/ 07]، فإذا استقر به المقام فيها كان تصوير حاله في تعذيبه أهم من تصوير النار نفسها وهناك يجتمع له كلا الأمرين، غير أن الزفير أسبق وأوضح تعبيراً عن الألم، ولذلك

¹ - للاستزادة: يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، 11406 هـ، 1986 م، ص 306 - 307.

² - حصاد قلم، محمد عبد الله دراز، ص 363 - 364، ودراسات إسلامية: محمد دراز، ص 222.

³ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص 357.

⁴ - من قوله تعالى: «إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ» [الملك/ 07].

⁵ - حصاد قلم، محمد دراز، ص 170.

⁶ - المصدر نفسه، ص 170.

أفرد في سورة الأنبياء «لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ» [الأنبياء/100]، وقُدِّم في سورة هود «لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ» [هود/106].⁽¹⁾

و من الحقائق الفرعية توقفه عند كثرة ورود لفظة الجلالة (الله) أثناء معالجته للنية الحسنة في الإخلاص والاتصال بالمثل الأعلى، وذلك من خلال دراسته لموضوع النية والدوافع، الجزء الرابع من النظرية الأخلاقية القرآنية.⁽²⁾

يقول في ذلك: «والقرآن لا يقتصر على النصوص المحددة التي غالبا ما تأتي في ألفاظ مستوعبة لتقدم لنا المثل الأعلى على أنه الموضوع الوحيد الذي يجب أن يضعه الإنسان نصب عينيه... ولكن القرآن من أوله إلى آخره يوجهنا نحو هذا الهدف... بحيث يمكن القول بأن سيطرة هذه الفكرة الإلهية هي التي تحكم الخطاب القرآني، ولكي نقتنع بذلك ما علينا إلا أن نفتح هذا الكتاب كيفما اتفق، لا أقول: إنه لا توجد صفحة واحدة فحسب، بل إنه لا يوجد سطر واحد في المتوسط، لا نجد فيه ذكر الله، سواء باسمه، أو بضميره، أو ببعض صفاته».⁽³⁾

و ذكر أنه أحصى ذكر الله في القرآن عشرة آلاف وستمئة وعشرين مرة⁽⁴⁾، ثم استنتج حقائقه في هذا الباب فقال: «ولا تظن أن هناك تدريبا أبلغ تأثيرا من هذا حتى نبقي على انتباهنا يقظا، وحتى نجعل نيتنا طاهرة ونزيهة».⁽⁵⁾

ومن الأهداف النهائية في تتبع موارد الألفاظ عنده، توقفه أيضا عند لفظة التقوى عند معالجته قضية تفضيل النية على العمل مع موضوع النية والدوافع⁽⁶⁾، فهو يعتبر أن الدراسة يجب أن تنطلق من تصور «العلاقة بين ملكة اتخاذ القرار، وبين القدرة على التنفيذ في كلا جانبيها الباطني والظاهري»⁽⁷⁾، أي على مستوى القلب والجوارح.

1- المصدر نفسه، ص 170-171.

2- دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 483 وما بعدها.

3- مصدر سابق، ص 486.

4- المصدر نفسه، ص 486، هامش 05.

5- المصدر نفسه، ص 487.

6- المصدر نفسه، ص 450 وما بعدها.

7- المصدر نفسه، ص 452.

فليست تقوى الله وصف الحالة واحدة من هاتين الحالتين، بل هي مجموع تضافهما معاً؛ إذ ليس من أهداف القانون الأخلاقي، - كما قال دراز - «أن تثبت العدالة في الدنيا (وهذا مظهر الجوارح)، وإنما هدفها كذلك تقويم شخصنا (وهذا مظهر القلب)». (1)

والتقوى بهذا هي المرحلة الأخيرة التي يتبغي تحقيقها من أهداف القرآن في كل مجالاته الأخلاقية والعقائدية والتشريعية وغيرها، وهذا ما توصل إليه دراز بعد إحصائه لمواردها في القرآن، رغم أنه اقتصر في دراسته هنا على بعض مواضعها دون جل المواضع، وفي هذا يقول: «ولنأخذ على سبيل المثال فكرة: (تقوى الله) التي تكاثرت حولها جميع الأحكام القرآنية تقريباً، والتي ورد ذكرها أكثر من مائتي وعشرين مرة في القرآن». (2)

ثم استنتج حقائق التصور هنا فقال: «إن القرآن يعني بهذه اللفظة موقفاً طائعاً يحترم الأمر الإلهي، وأن هذا الأمر مسموع ملبي على أوسع معانية «وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى» [البقرة/189]، وبخاصة حين يقتزن بالأمر التحريمي في مقابل البر «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ» [المائدة/02]، وهو في كلتا الحالتين يبدو غالباً أنه يستهدف طاعة كاملة، تشتبك فيها القوتان: البدنية والأخلاقية». (3)

الفرع الثاني: باعتبار شكل وحجم الدراسة.

وهذا التقسيم شكلي ينظر إلى مساحة الدراسة وحجمها من حيث الإيجاز أو التفصيل، فبعضها اقتصر فيه دراز على جمع بعض الآيات أو أقلها، مع تعليقات عليها مختصرة أو بدونها، وهذا ما يمكن تسميته بالتفسير الموضوعي الوجيز، وكلما زادت مساحة الدراسة انتقل لون التفسير الموضوعي من الإيجاز إلى البسط، وبينهما درجة الوسط. (4)

1- المصدر نفسه، ص 456.

2- المصدر نفسه، ص 453.

3- مصدر سابق، ص 453.

4- هذا التقسيم الثلاثي الشكلي، مقتبس لفظاً لا معنى من تقسيم عبد الستار فتح الله سعيد لمناهج التفسير الموضوعي، الوجيز من خلال مقالة أو محاضرة وغيرها، والوسيط من خلال سورة واحدة، والبسيط في القرآن الكريم كاملاً بالاستقراء والإحصاء، ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 26-27.

أولاً: التفسير الموضوعي الوجيز: وهو ما ورد في دراسة صغيرة لا تتجاوز الصفحات من البحث، وما كان -أيضاً- مقتصرًا على جمع بعض الآيات أو أقلها، ملونة ببعض التعليقات والملاحظات الوجيزة دون دراسة مستفيضة.

ويمكن التمثيل لذلك من أعمال دراز، بموضوع السلم والإسلام في كتابه "الحصاد"⁽¹⁾، و"الدراسات"⁽²⁾، فلم يتجاوز ذلك صفحة واحدة.

وبموضوعات: نفسية الرسول - صلى الله عليه وسلم - والعدل من كتابه "الحصاد"⁽³⁾، وأيضاً بموضوعات هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، والرسول - صلى الله عليه وسلم - في القرآن، والعدل من كتابه "زاد المسلم"⁽⁴⁾، وموضوعات: المعجزات، ومراحل الدعوة الإسلامية، وموقف القرآن من الخمر، والنصارى واليهود، وفكرة الله في مكة المدينة، وشخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - من كتابه "المدخل"⁽⁵⁾، وموضوعات الأخلاق العملية الفردية، والأسرية، والاجتماعية، وأخلاق الدولة التي أوردها في القسم الثاني من كتابه "الدستور"⁽⁶⁾.

ثانياً: التفسير الموضوعي الوسيط: وهو ما زادت فيه مساحة الدراسة، إلى استزادة في الجمع للآيات القرآنية، وإلى بسط للشروح والتعليقات؛ حيث تتضح -من خلاله- نواة الدراسة الموضوعية من غير أن تكون شاملة في ذلك، في إطار نسق فكري مبني على الاستقرار والاستيعاب في الجمع والشرح.

وليس التفسير الوسيط هنا كما قال عبد الستار فتح الله سعيد أنه ما «يختار فيه المفسر موضوعاً يعرضه من خلال سورة واحدة، مثل العقيدة في سورة الشورى مثلاً، أو من خلال مجموعة سور: «كآل حم السبعة»، أو من خلال القرآن الكريم كله، حينئذ يلزم المفسر اختيار جوامع الآيات الكريمة، التي تمثل أطراف الموضوع وعناصره، ثم يعرضها عرضاً وسطاً»⁽⁷⁾.

1 - حصاد قلم: محمد دراز، ص 363، 364.

2 - دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية: محمد دراز، ص 222.

3 - حصاد قلم: محمد دراز، ص 212-213.

4 - زاد المسلم للدين والحياة: محمد دراز، ص 108، 120، 211.

5 - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 83، 131، 132، 146، 162، 170.

6 - دستور الأخلاق في القرآن الكريم: محمد دراز، ص 689 وما بعدها.

7 - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 26.

فليس هذا المقصود هنا بقدر ما يقصد منه التوسط في جمع الآيات، وفي تحديد الدراسة، وفي رسم الأهداف والتصورات التي تكون بدرجة أقل من نظيراتها في إطار الدراسة الموضوعية الشاملة.

ولعل أبرز الشواهد والدراسات على هذا اللون التفسيري عند دراز، الموضوعات الخمسة الأساسية المؤسسة للنظرية الأخلاقية القرآنية: الإلزام، والمسؤولية، والجزاء، والنية والدوافع، والجهد.⁽¹⁾

ويمكن التمثيل له أيضا بدراسة العنصر أو الحق الديني، والعنصر أو الخير الأخلاقي، والعنصر أو الجمال الأدبي في القرآن الكريم.⁽²⁾

فلا تندرج هذه الموضوعات ضمن الدراسة الشاملة ذات الاستقراء الدقيق، والجمع التام، والنظرة النسقية الكلية، والأهداف التصورية والعملية النهائية، فلم تصل -حسب النماذج التي قدمها دراز- بعد إلى هذا المستوى.

ويجدر التنبيه هنا أن وسطية هذا اللون التفسير لا تعني التزام نقطة وسط بين الإيجاز والتفصيل في الجمع والدراسة ورسم الأهداف، بل الوسطية هنا دراسة موضوعية حركية تنطلق في إطار عملية جمع وإحصاء وتخطيط منطقي، تنفصل في ذلك عن مستوى الجمع الجزئي فقط، وتصدع هذه الدراسة الحركية في مستويات متتالية قلة أو كثرة، دون أن تصل إلى مستوى الدراسة الموضوعية الشاملة ذات المنهج الشمولي، والنسق الفكري الواضح، والتصورات والمواقف النهائية.

وهذا ما ينطبق على الموضوعات القرآنية السالفة الذكر، فليست في مستوى نسقي واحد، ولا في حجم دراسي موحد، بل هي متكاملة وموطئة لدراسة أشمل.

ثالثا: التفسير الموضوعي البسيط: وهو ما اكتملت فيه الدراسة الموضوعية مساحة ومنهجها وأهدافها، وبلغت الذروة العليا في ذلك، ينظر إليها الناظر موقفاً نهائياً، ونظرية قرآنية تامة.

ويمكن التمثيل له ببعض⁽³⁾ موضوعات السور القرآنية عنده، كما في تفسيره مثلاً لسورة يس؛ إذ إذ يعرض للموضوع في أولها ووسطها وختامها، يفسر آياتها تفسيراً تحليلياً، ويربط بينها بأنواع عدة من التناسبات العامة والخاصة، ثم يرجعها إلى موضوعاتها الأساسية، وموضوعات العقيدة الإسلامية.⁽¹⁾

¹ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 19، 134، 243، 419، 583.

² - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 75، 93، 123.

³ - يمكن مناقشة هذا القيد، أثناء دراسة حقيقة الوحدة الموضوعية عند دراز في المبحث القادم من هذه الرسالة، ص 394.

ولعل أشهر مثال له في أعمال دراز دراسته للأخلاق القرآنية في رسالته العلمية الأكاديمية "دستور الأخلاق في القرآن"، فهي دراسة علمية استوفت معالم المنهج الموضوعي، من حيث التتبع الدقيق، والإحصاء الشامل لآيات موضوعات النظرية الأخلاقية، ومن حيث تحديد المفاهيم ووضع التعريفات لمصطلحاتها، والفروق بينها، ومن حيث رسم المنهجية المرحلية في الدراسة الموضوعية، - كما سنعرفها لاحقاً-، ومن حيث استنباط المواقف والتصورات والتأسيس للنظرية القرآنية، والدستور الكامل، والبناء المتناسك، والقانون الأخلاقي المتميز عن غيره من النظريات الإنسانية سعة، وعمقا، وتجديدا، أصالة، ومرونة.

فالأخلاق القرآنية «قد رفعت ذلك البناء المقدس، وجملته، حين ضمت إليه فصولا كاملة الجدة، رائعة التقدم، ختمت إلى الأبد العمل الأخلاقي».⁽²⁾

و إلى هذين الطريقتين من حصر الموضوع في نطاق السورة، أو أفراد كتاب مستقل له، أشار عبد الستار سعيد تحقق التفسير الموضوعي البسيط بهما عمليا.⁽³⁾

الفرع الثالث: باعتبار الرابطة.

وهذا اللون اصطلاح عليه عبد الستار سعيد، وقسمه إلى قسمين أساسيين: عام تقوم بين «أطراف موضوعه وحدة في الغاية فقط، وليس في أصل المعنى»⁽⁴⁾، وآخر خاص يشمل وحدة المعنى والغاية معا، كاليهود في القرآن، أو الصبر وغيرهما، أما الأول فمثاله الأحكام القرآنية؛ إذ يتضمن قضايا متعددة، كل واحدة منها تصلح للبحث القرآني على حدى، كالصلاة والحدود، والعدة والجهاد...

فإذا ما رجعنا إلى أعمال دراز القرآنية، وجدنا مصداق ذلك للموضوعات القرآنية المدروسة؛ فبعضها يندرج ضمن التفسير الموضوعي العام، والبعض الآخر تقوم بين عناصر الوحدة الخاصة في المعنى والغاية معا.

وقد تقابلت هذه الموضوعات العامة والخاصة عند دراز في ثنائيات تعلقية تعكس ارتباط الأفكار الجزئية بالفكرة الرئيسية، التي لا تتحقق إلا بعد مراحل متعاقبة من الأنساق الفكرية، والارتباطات

¹ - ينظر: حصاد قلم: محمد دراز، ص 147-154.

² - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 09.

³ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الله فتح الله سعيد، ص 24.

⁴ - المرجع نفسه، ص 24.

المعنوية، فمن ذلك ورود موضوعات السلم والإسلام، والقيم، والدعوة إلى الخير ضمن موضوع أعم منها، هو موضوع: موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها.⁽¹⁾

ومها أيضا تعلق موضوعات: الألوهية والتوحيد، ودعوة الأنبياء، وعبادة العرب الوثنية، وفكرة الأسباب والمسببات، وتفسير الظواهر الكونية، والمعجزات، وخلود الروح، وبعث الأجساد ليوم القيامة، ضمن موضوع الحق الديني في القرآن⁽²⁾، ومنها أيضا الموضوعات الأساسية للنظرية الأخلاقية القرآنية؛ إذ ترتبط عناصرها وأطرافها في المعاني المدروسة، وفي الأهداف المسطرة، وهي توطئ لاستنباط القانون الأخلاقي والنظرية القرآنية، فلا يمكن فهم حقيقة النظرية القرآنية لمفاهيمها الخاصة، وتصوراتها النظرية، ومواقفها العملية، دون المعرفة الدقيقة بمعاملها ومكوناتها؛ إذ كيف حددت الشريعة معالم الإلزام وحدود الواجب، ومراتب التكليف والمسؤولية وشروطها، وما هي الوسيلة الناجعة لكسب الفضيلة؟ والمبدأ الأسمى الذي ينبغي أن يحد الإرادة عن العمل؟ ما طبيعة هذا العمل وما درجاته وأنواعه، وكيف يكتسب العمل الصالح والنية الطاهرة؟

و«كما زادت القيود قلت الأفراد، وازداد التخصص»⁽³⁾، وبهذا يمكن أن تخصص هذه الموضوعات الخاصة إلى موضوعات أحص تنضبط بأصولها؛ فموضوع الجزاء يمكن أن تدرس عناصره الأخلاقية، أو القانونية أو الإلهية، كل عنصر على حدى، كما يمكن مثلا أن يفصل الجزاء الإلهي مثلا إلى موضوعات مستقلة بالدراسة كالجزاء الروحي، أو الجزاء المادي الحسي، الجزاء الدنيوي، أو الجزاء الأخروي، وغير ذلك.

¹ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 363.

² - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 78، 80، 82، 83، 86، 88.

³ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 26.

المطلب الثالث: منهجية البحث في أنواع التفسير الموضوعي عند محمد عبد الله دراز.

تعرفنا قبل قليل على أنواع التفسير الموضوعي عند محمد دراز، وعرفنا أنه يميل -على الأرجح- إلى القول بنوعيه الأساسيين، الموضوع والسورة القرآنيين، فكانت له في ذلك رؤية واضحة، ومنهجية مفصلة، ومنهجاً متبعاً، بخلاف المصطلح القرآني، الذي لم تكن عنده لديه رؤية كلية واضحة، أو منهج موضوعي شمولي، أو نظام منطقي بين، أو خطة تفصيلية مسبقة، أو أهداف مقاصدية مستقلة بحدود المصطلح القرآني النسقية.

فإذا كانت هذه الكلية واضحة، وهذا المنهج الموضوعي معروفاً عنده في الموضوع والسورة، فهأهنا -الآن- موضع معرفة المنهجية البحثية المرحلية، والخطة التفصيلية المتبعة في دراسة الموضوعات القرآنية سواء أكان ذلك على مستوى السورة القرآنية، أم على مستوى القرآن الكريم كله.

الفرع الأول: منهجية البحث في الموضوع القرآني.

تتبين المنهجية المرحلية عند دراز من خلال النظرية الأخلاقية القرآنية وموضوعاتها الخمسة الأساسية، فللنظرية الأخلاقية منهجية خاصة، وللموضوعات الخمسة الأخرى منهجيتها الخاصة. ولا يقصد بهذا المفارقة بينهما، بل هي منهجية متقاربة لم تتطابق خطواتها المرحلية تبعاً لاختلاف أطراف الموضوعات القرآنية المطروحة، وهي بالنهاية منهجية واجدة ذات حدود مرحلية متقاربة.

ولنبداً بتلخيص الموضوعات الخمسة مشيرين إلى منهجيتها بنوع من الإيجاز:

أولاً: المسؤولية: ويمكن تحديد خطواتها المرحلية في النقاط التالية:

- 1 - تحديد المصطلح (المسؤولية)، وبيان حقيقته وأبعاده.
- 2 - تحديد الإطار المعرفي الذي يعالج فيه الموضوع، أي: الإطار النظري الفلسفي والنفسي والأخلاقي.
- 3 - تصنيف مجالات الموضوع، وتحديد ظروفه الواقعية والنفسية وشروطه في القرآن الكريم.⁽¹⁾

وهنا تحدث عن معوقات تأصل المسؤولية في ذاتنا، وأنواع السلطة في القرآن والفرق بين المسؤوليات الثلاثة، الدينية، الاجتماعية، والأخلاقية.⁽¹⁾

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 137-141.

- 4 - تصنيف الآيات القرآنية من غير التزام بالترتيب المصحفي للمسؤوليات الثلاثة، وعالج أيضا شروط المسؤولية من خلال الطابع الشخصي، ثم الأساس القانوني، والعنصر الجوهرى للعمل، وحرية الفعل والإرادة، بنصوص من القرآن الكريم غير خاضعة للترتيب المصحفي، ونصوص أخرى من سنة النبي - صلى الله عليه وسلم -⁽²⁾
- 5 - التوسع والاستطراد في موضوعات إسلامية وقانونية (موانع الأهلية) لها علاقة بموضوع المسؤولية، مستشهدا بنصوص من القرآن والسنة.
- 6 - استخدام منهج المقارنة بين النظرية القرآنية في بعض جوانب المسؤولية الأخلاقية (العلاقة بين الإرادة والحرية)، وبين النظريات الفلسفية الغربية الحديثة بأبرز أعلامها ومفكرها، بل ومسجلا لآراء مدراس الفكري الإسلامي الأساسية، موظفا - بعد ذلك - النقد والتمحيص، لهذه النظريات الإنسانية جميعا، بل وحتى لبعض أفكار الكتب المقدسة، مرجحا - في ذلك - رأي أهل السنة - كما قال - بنصوص من القرآن الكريم، معلنا موقفه وتصوراته في هذه المسألة.⁽³⁾
- 7 - ينتقل - بعد ذلك - إلى معالجة عناصر المسؤولية الاجتماعية، فيقارن بين المسؤولية المدنية والمسؤولية الجزائية (العقابية والأخلاقية) في نقاط اتفاق وأخرى للاختلاف، منطلقا - في ذلك - من واقع النصوص الدينية القديمة (التوراة والإنجيل)، والقوانين البشرية القديمة، والنظريات الغربية الحديثة، ثم معقبا على ذلك بسرد مقررات النظرية الإسلامية بقوله: « فهل نجد ما يقابل ذلك في الإسلام؟ »⁽⁴⁾، في قضايا اجتماعية متعددة: كالحراية، والقتل الخطأ، وأخطاء المهنة وغيرها، في نصوص القرآن والسنة، وبشروحات الفقهاء والمفكرين.⁽⁵⁾
- 8 - يضع في نهاية دراسة المسؤولية خاتمة يسجل فيها التصورات القرآنية الصحيحة عن المسؤولية وأبعادها وأنواعها وشروطها وموانعها ومقررا أن دراسة العناصر السابقة بمنهج التحليل أدى إلى تسهيل إعادة «بناء الفكرة القرآنية عن المسؤولية»⁽⁶⁾، واستنتاج مبادئها العامة، واستثناءاتها الخاصة.

ثانيا: موضوع الإلزام والواجب: وتكمن خطواته في النقاط التالية:

- 1- مصدر سابق، ص 147-148.
- 2- المصدر نفسه، ص 148-180.
- 3- المصدر نفسه، ص 180-221.
- 4- المصدر نفسه، ص 230.
- 5- المصدر نفسه، ص 222-240.
- 6- مصدر سابق، ص 241-242.

- 1 - تحديد مفهوم الإلزام، وأبعاده، وحدوده، ومرادفاته (الأمر، الكتابة، الفرض)، وعلاقته بالقاعدة الأخلاقية. (1)
- 2 - تحديد الإطار المعرفي الفلسفي للإلزام، وتقسيمه إلى عناصر فكرية مترابطة، بقوله: «وجب علينا الآن أن نتغلغل أكثر في معرفة طبيعته، دارسين مصادره، وخصائصه، ومناقضاته». (2)
- 3 - تحليل مفهوم المصادر الأخلاقية، ومصطلحاتها انطلاقاً من الفلسفة الغربية (برجسون)، ووقوفاً عند النص القرآني تعقياً على الأول، وإبراز للعناصر الغائبة عنه في النصوص القرآنية، ثم مناقشة تحديد السلطة الأخلاقية (مصدر الإلزام) عند كانط الفيلسوف الفرنسي، وتعقيبه بإبرازها في النص القرآني (فكرة ووحى) بصفة عامة، ثم بصفة تفصيلية القرآن والسنة والإجماع والقياس، دائماً بالنظرة الغربية والإسلامية. (3)
- 4 - تسجيل الحقائق والتصورات النظرية لمصدر الإلزام الخلقى وصفاته، والعلاقة بينه وبين العقل، وحكمه في شرعه وخلقه بنصوص من القرآن الكريم. (4)
- 5 - تحليل مفهوم خصائص التكليف الأخلاقي (العنصر الثاني) على وجه الإجمال (الشمولية الواقعية وغيرها)، ثم على وجه التفصيل (إمكان العمل، اليسر العملي، وحدود الواجبات وتدرجها)، منطلقاً من الآراء الغربية ناقداً لها، ومتوقفاً عند الآراء الإسلامية بالتمحيص وترجيح موقف القرآن الكريم منها. (5)
- 6 - التوسع أثناء التحليل إلى موضوعات عقائدية وفقهية وفلسفية (الفصل الإلهي والإنساني، النسخ، التدرج في الأحكام، القتال وغيرها) من القرآن والسنة وأقوال العلماء. (6)
- 7 - إتمام عناصر الإلزام النسقية، بتحليل تناقضاته الثنائية (الوحدة والتنوع، السلطة والحرية)، حسب نظريتين متناقضتين، الأولى نظرية الواجب الصارم لديكارت، والثانية نظرية التجربة والاختبار، مضعفاً لمذهبهما في ذلك. (7)

1 - المصدر نفسه، ص 21-22.

2 - المصدر نفسه، ص 23.

3 - المصدر نفسه، ص 23-49.

4 - المصدر نفسه، ص 50-53.

5 - المصدر نفسه، ص 53-96.

6 - المصدر نفسه، ص 68-86.

7 - مصدر سابق، ص 96-123.

8 - وأخيرا يوضح حقيقة النظرية القرآنية الداعية إلى الوسطية بين المثل الأعلى والواقع، بين المطلق والنسبي كما قال، هذه الازدواجية التي رسمت حكم التشريع الإسلامي، وبهما كما قال «تنفجر شرارة المعرفة الحقة»⁽¹⁾، لذا أوضح مفهومها وأبعادها وشواهداها من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، ومقاصد الشريعة، وآراء الفقهاء.⁽²⁾

ثالثا: الجزء: ويمكن تحديد خطواته المرحلية في النقاط التالية:

- 1 - تحديد الإطار المعرفي، وتشكيل مفهوم الجزء.
- 2 - تقسيمه إلى ثلاثة عناصر أساسية: أخلاقي، قانوني، إلهي.⁽³⁾
- 3 - الشروع في تحليل الجزء الأخلاقي بأسئلة وإشكالات عن طبيعته ومجالاته ومعوقاته، خاصة العلاقة التعارضية عند البعض بينه وبين الواجب، يفك هذا التعارض بضرورة التفريق بين علم الأخلاق والنزعة الأخلاقية، وناقش استبعاد بعض المدارس الغربية لفكرة اللذة والألم عن موضوع الجزء الأخلاقي، مبينا ارتباطها بالضمير الداخلي، بنصوص من السنة النبوية والقرآن الكريم في موضوع التوبة النصوح وأركانها ولواحقها، وفي تفصيل محاسن الفضيلة ومساوئ الرذيلة في موضوعات مختارة اعتباطا، وملخصا حقيقة الجزء الأخلاقي في ختام التحليل بقوله: «إن الجزء الأخلاقي الثوابي يتمثل في الحسنه والسيئة».⁽⁴⁾
- 4 - الانتقال إلى تحليل مفهوم الجزء القانوني وأبعاده، بعد أن ربط بينه وبين سابقه، فالقانون شرط الأخلاقي في شقه العقابي، فدعاه ذلك إلى معالجة النظام العقابي وحكمه التشريعية في موضوع الحدود بنصوص القرآن والسنة، بتحليل أخلاقي ونفسي دقيق وبديع، سجل فيه الحقائق والتصورات الإسلامية.⁽⁵⁾
- 5 - الربط بين الجزاءات الثلاثة - أثناء التمهيد للجزاء الإلهي - من حيث أوجه الاتفاق والاختلاف، مجالات ومناهج وأهدافا.⁽⁶⁾

1 - المصدر نفسه، ص 126.

2 - المصدر نفسه، ص 125-134.

3 - المصدر نفسه، ص 245.

4 - المصدر نفسه، ص 245-261.

5 - المصدر نفسه، ص 261-275.

6 - مصدر سابق، ص 275-276.

6 -التخلص بعد العلاقات إلى الجزء الإلهي العاجل والآجل في إطار ما أسماه بنظام التوجيه القرآني، وضمنه أيضا الخطوات التالية:

أ تحديد الإطار المعرفي، وطرح الفرضية العامة في ذلك؛ فمن هذا تحديد مكانته في نظام التربية الأخلاقية القرآنية، وطرح شكوك الغربيين حول ما أسموه بجنة محمد بدلا من صحراء العرب.

ب - رسم منهج البحث عن طبيعة الجزء الإلهي وأنواعه، فهو منهج التفصيل، والرجوع إلى النص القرآني ابتداءً لتصحيح التصورات الخاطئة.⁽¹⁾

ج- اعتماد منهج المقارنة بين النصوص القرآنية ونصوص الكتاب المقدس معللا ذلك بقوله: «فإن ذلك سوف يكون مفيدا؛ إذ يعين على استخراج المفهوم القرآني في هذا الموضوع، بما يتميز به من تركيب وغناء».⁽²⁾

فبيّن الجانب المادي من الجزء الإلهي من نصوص التوراة والإنجيل، مع ملاحظة الفرق بين دنيوية التوراة وروحانية الإنجيل.

د- الشروع في تحليل نظام التوجيه القرآني، بعد القيام بإحصاء دقيق للآيات المكية والمدنية - بصفة عامة- التي عاجلت التعاليم الأخلاقية، واستنساخ تصورها العام في تحليلها بالجزئات الأخلاقية والإلهية أكثر من تعلقها بالواجب المجرد.⁽³⁾

هـ- التفصيل في تصنيف الآيات وفق أنواعها الجزائية (المسوغات الباطنية، الظروف المحيطة، ونتائج العمل)، مبتدأ بأشدها وضوحا، وأوسعها عموما، الجانب المادي، فمستوى المشاعر الجماعية، ثم للجانب العقلي الروحي بالنسبة للجزء الدنيوي، وللسعادة والعقوبة الحسية قبل السعادة والعذاب الروحي في الجزء الأخروي.⁽⁴⁾

¹ - المصدر نفسه، ص 276-277.

² - المصدر نفسه، ص 277.

³ - المصدر نفسه، ص 282-283.

⁴ - المصدر نفسه، ص 284-337، 345-360.

و- ترتيب الآيات داخليا على حسب النسق الفكري للعنصر المعالج، بدءا بذكر العام قبل الخاص، وبذكر الخير قبل الشر، بذكر آثار التقوى والعبادة قبل آثار إهلاك القرى الظالمة في القرآن من غير ترتيب مصحفي ولا نزولي.⁽¹⁾

و أما في العنصر الثاني (تأييد المؤمنين) فقد ذكر من الوعود الإلهية بالنصر والتمكين في نصوص مرتبة وفق النسق الفكري التسلسلي، وذكر مقابلة من وعيد الله للكافرين المستكبرين بالهزائم، ومذكرا بالعبارة العامة من ذلك في توريث الأرض للمؤمنين.⁽²⁾

ز - سحتم تحليله لهذه العناصر بذكر إحصائيات إجمالية للآيات المكية والمدنية، والرمز للأولى بالمجموعة "أ"، وللثانية بالمجموعة "ب".⁽³⁾

ح- ربط العناصر بعضها ببعض بمقدمات تمهيدية في كل عنصر، بين علاقته مع ما قبله، كما في ربطه الجانب الأخلاقي والعقلي بالجزء الإلهي الجامع لهما.⁽⁴⁾

و هكذا لباقي العناصر المدروسة، ربط بعضها ببعض في دراسة متصلة.

ط- تصنيف وإحصاء الخطوط الفكرية العامة للجزءات الإلهية الثلاثة، دون التفصيل؛ إذ يقول: «ولسنا ندعي أننا قدمنا إحصاء منزها عن الخطأ، ولكننا على الأقل قدمنا الأحداث الرئيسية في جداول، كل في إطاره الخاص».⁽⁵⁾

ي - تقديم بعض الملاحظات الفكرية والمنهجية عن طريقة القرآن في الحديث عن بعض الجزاءات الإلهية، والتوقف عندها بالشرح والتحليل، واستنتاج اللطائف والتصورات.⁽⁶⁾

ك - اعتماد منهج المقارنة الأسلوبية، والمقابلة بين صور الجزاء الإلهي، وملاحظة طريقة القرآن في هذا التقابل بين الأضداد بين الصور والألفاظ والمعاني، وبهذا قابل بين صور الجنة وصور النار، بين السعادة والشقاء.⁽⁷⁾

¹ - مصدر سابق، ص 287-318، 321-327، 328-352.

² - المصدر نفسه، ص 350-352.

³ - المصدر نفسه، ص 291، 303، 319، 328، 331، 352، 355، 360، 363، وغيرها.

⁴ - المصدر نفسه، ص 353.

⁵ - المصدر نفسه، ص 400.

⁶ - المصدر نفسه، ص 383-387.

⁷ - المصدر نفسه، ص 388 وما بعدها.

ل -تسجيل الحقائق القرآنية النهائية في صيغ شمولية تصورية، وهو يستخرج في ذلك النظرية القرآنية، وتسجيل اللطائف والدلالات اعتمادا على استقراء النصوص القرآنية، وربطها بالواقع الإنساني، بل ومعالجة مشكلاته.⁽¹⁾

م -استخدام الجداول لإثبات الإحصاء العام للجزئات الإلهية في شكل أرقام إحصائية بالتفصيل ثم بالإجمال في خاتمة بحثه عنه، ليسجل بها دعائم النظرية القرآنية في الجزاء ودرجاته، وليقارن بها نظرية الغرب، كتابا مقدسا، أو نظريات فلسفية.⁽²⁾

رابعا: النية والدوافع وأثرها في القيم الأخلاقية: وتكمن خطواتها في النقاط التالية:

أ -القسم الأول: مفهوم النية وأبعادها في القرآن: وخطواتها كالآتي:

- 1 -إدراج الموضوع في إطاره المعرفي، والتعريف به (النية والدوافع)، وعرض المذاهب الفلسفية الأخلاقية فيه طرحا موجزا، ومناقشتهم في ذلك.⁽³⁾
- 2 -تناول الفروق بين أنواع النيات الأخلاقية والنفسية واختيار التقسيم المتناول بالدرس، وتعليل ذلك «من أجل مزيد من الوضوح»⁽⁴⁾، كما أنه تحدث عن أنواع أخرى من النيات كالفاعلة والفرضية والمعطلة والمحققة وغيرها.⁽⁵⁾
- 3 -وضع المفهوم المناسب للنية على حسب تقسيمه المعتمد، والبدء بالقسم الأول (العمل)، ثم الحديث عن عناصرها الشعورية الثلاثة تفصيلا.⁽⁶⁾
- 4 -التمهيد لمعالجة هذه العناصر الشعورية بأسئلة تمهيدية.⁽⁷⁾
- 5 -إظهار التناسب بين عناصر الأربعة لماهية النية، أثناء البدء في تحليل كل عنصر، ومعالجة مجالاته الفكرية والفلسفية والاجتماعية.⁽⁸⁾

¹ - مصدر سابق، ص 352، 382، 410 وغيرها.

² - المصدر نفسه، ص 401-417.

³ - المصدر نفسه، ص 421-423.

⁴ - المصدر نفسه، ص 423.

⁵ - المصدر نفسه، ص 423.

⁶ - المصدر نفسه، ص 424-425.

⁷ - المصدر نفسه، ص 425.

⁸ - المصدر نفسه، ص 425، 436، 450، 462.

6 - الإيغال في التحليل بالانطلاق من اعتبارات الفكر الغربي، ومسائل الفقه الإسلامي، وظروف الواقع الاجتماعي، وشواهد الفعل الأخلاقي وتعقيها بالتصور الإسلامي، والقانون الأخلاقي من نصوص القرآن والسنة وآراء الفقهاء.⁽¹⁾

7 - استنباط التصورات القرآنية ومواقفه الإصلاحية من بعض المعضلات الفلسفية والواقعية لقضية النية (درجة فاعليتها، وأفضليتها على العمل، واكتفاؤها بذاتها في تحقيق العمل الأخلاقي).⁽²⁾

ب - القسم الثاني: دوافع العمل: ويمكن تلخيص خطواتها في النقاط التالية:

1 تحديد الإطار المعرفي بإعادة تلخيص الجزء الأول للنية، ثم التعريف بالبعد الدافعي أو الغائي للإرادة الذي أخره كما قال «خضوعاً لحاجة المنهج».⁽³⁾

2 طرح الإشكاليات الهامة للبحث عنها في شكل أسئلة عامة مطروحة على القرآن الكريم، وصرح بأن الإجابة تستمد منه من أجل الوصول إلى «النظرية القرآنية في هذا الصدد».⁽⁴⁾

3 تحديد مفهوم مصطلح النية في معنيين في آن واحد من خلال حديث الأعمال المشهور، ثم معالجة حقيقتها ودوافعها الرئيسية، متناولاً رؤى الفلاسفة الغربيين والإسلاميين، مبينا اختلاطها على بعض الصالحين، وجلائها عند الله مستشهداً بنص قرآني واحد على ذلك⁽⁵⁾

4 اعتماد منهج المقارنة بين المنطق العقلي والرقابة الإلهية (الإيمان) في دفع النية إلى إحداث الفضائل، مبينا نقص الأول ورحابة الثاني وآثاره على النفس الإنسانية، مستشهداً على ذلك بثلاثة نصوص غير مرتبة ترتيباً مصحفياً.⁽⁶⁾

5 تقسيم النيات إلى ثلاثة أقسام إتباعاً للتشريع القرآني للأعمال (واجب، محرم، جائز)، وملاحظة تعبيرات ذلك في القرآن، ثم تبرير عوامل هذا التقسيم، والبدء في عرض هذه الأقسام (حسنة + قبيحة + جائزة)، بعد أن وعد بوزنها بميزان القرآن، والحكم على فرضياتها، وقد أكد أن هذه الخطة «قد تحددت بالفعل رغم أنها شديدة التعقيد، والتداخل».⁽⁷⁾

¹ - مصدر سابق، ص 425-470.

² - المصدر نفسه، ص 426، 431، 444، 457.

³ - المصدر نفسه، ص 472.

⁴ - المصدر نفسه، ص 472.

⁵ - المصدر نفسه، ص 473-477.

⁶ - المصدر نفسه، ص 480.

⁷ - مصدر سابق، ص 482.

- 6 يتطلق في عرض القسم الأول (النية الحسنة) من التحديد الفلسفي لها في نظرية "كانط" الشكلية، ثم يعقب عليها بميزة القرآن في ملء هذا الشكل الكانطي الفارغ برقابة الله وعبوديته، ثم ما ينتج عن ذلك من الإخلاص له في نصوص متعددة، ومنفرة عن الهوى والرياء الاجتماعي وفق النسق الفكري، ثم حدد المبدأ المحدد للإرادة المنقطعة عن جميع الدوافع في القرآن، مستأنسا بالحديث الشريف، ومستنبطا معنى "النية الحسنة" حسب ما أسماه "مفهوم القرآن" بألفاظ غير محددة، معتمدا إحصاء لفظ الجلالة كمثال على ذلك.⁽¹⁾
- 7 دراسة الفرق بين النية والعمل، وحصص النزاهة الأخلاقية في ست حالات، ثم ربط الدوافع بالمثل الأعلى في الإسلام، مقتبسا نصوصا من أعلام الفكر الإسلامي.⁽²⁾
- 8 عرض المبدأ القرآني في المؤصل لعلاقة الأسباب بالنتائج بنظرة معتدلة، والموازنة بين آثار الأعمال ومقاصد الشريعة في دفع الأضرار الكبرى، وأنها تكمن في تسوية الدافع لا في إنارة الواجب، ثم قسم الغايات إلى ثلاثة أقسام، ملاحظا أن القرآن قدم لنا شكلين للنية: الإخلاص، ثم الاقتران بالعلل النفسية.⁽³⁾
- 9 بعد سلسلة من المقارنات توصل إلى استخلاص الصيغة العامة لمختلف الدرجات الأخلاقية (توحيد الإرادة مع موضوع الشرع، شكلا أو جوهرًا).⁽⁴⁾
- 10 انتقل إلى القسم الثاني: الغاية الذاتية (المنفعة)، طرح فيه آراء الأخلاقيين وناقشها، وخلص إلى تقسيم ثلاثي: الثواب والعقاب والبراءة، مساوي للتقسيم الشرعي، التكليف والتحريم والإباحة من نصوص القرآن والسنة، مفصلا تحليل حقيقة براءة النية وشروطها، معالجا مسألة غاية انعقاد النية وعمل الواجب بين التجرد للمثل الأعلى وبين الخوف والرجاء، مناقشا مذاهب الأخلاقيين في ذلك، ومبيننا وسطا أخلاقيا (مباحا) لم يوافق عليه القرآن أو يرفضه، ثم مؤكدا ضرورة إرضاء الله تعالى بنصوص من القرآن والسنة.⁽⁵⁾
- 11 يستخلص أثناء التحليل لكل فكرة الحقائق والتصورات القرآنية الدقيقة التي ترسم القانون الأخلاقي ونظريته في هذا الموضوع، وذلك في شكل فكرة مركزية ووحدة موضوعية، فمن ذلك استنتاجه قانون الحياء الجامع للأخلاق الإسلامية في قوله: «وهو ما يفسر مرة أخرى

¹ - المصدر نفسه، ص 483-486.

² - المصدر نفسه، ص 530-545.

³ - المصدر نفسه، ص 508-513.

⁴ - المصدر نفسه، ص 514.

⁵ - المصدر نفسه، ص 515-530.

الفكرة المركزية لهذه الدراسة، أعني: أن النظرية الإسلامية تجمع مختلف المبادئ اللازمة للحياة الأخلاقية في تركيب منسجم، بحيث تجعلها جميعا تتجه نحو الوسط العادل».⁽¹⁾

و من هذا أيضا توصله إلى أن غائية الإرادة لا تطلب الكمال في ذاته، بل لإرضاء الله تعالى.⁽²⁾

12 -انتقل إلى الحديث عن النية الآثمة وطرقها الكثيرة، فقدم نماذج منها: نية الإضرار، ونية التهرب من الواجب، ونية كسب غير مشروع، ونية إرضاء الناس، ثم تناول مسألة اختلاط النيات والمبدأ القرآني في التعامل مع صاحبها من نصوص قرآنية ونبوية، ومذاهب الفقهاء وآراء الأخلاقيين⁽³⁾، معتمدا في ذلك نظرية الغزالي في تقسيمها إلى ثلاثة مجموعات: مرافقة ومشاركة ومعاونة، معقبا عليها بمساواة الأولى والثانية، ومفصلا الثالثة حسب تقدم القوة الأخلاقية، وقوة الهدى والعاطفة، وأعطى أمثلة لذلك، ونقل عن علماء الأخلاق التحذير من تطرق بواعث أخرى تفسد نية الإخلاص.⁽⁴⁾

13 ثم خلص إلى خاتمة هذا الموضوع، ملخصا فيها أهم النتائج، رابطا بين النية وبين حقيقة الواجب باعتباره ينطلق منها، وإطارها للمقياس القرآني المفرق لأنواع النيات، وبعد تصريحه بتتبع النصوص توصل إلى الحقائق العامة هنا في صيغ دقيقة.⁽⁵⁾

خامسا: الجهد: ويكمن تلخيص خطواته في النقاط التالية:

1 تحديد الإطار المعرفي له، ببيان صلته بموضوع النية، وتعريف الجهد وإظهار حقيقته، من القواميس الغربية، ثم اختار منها معنى الصراع ضد الشرور، وصدقه بآيات من القرآن الذي أمر به تحت مصطلح "الجهد".⁽⁶⁾

2 تحديد الإشكالية العامة للبحث في أسئلة ثلاثة توجب البحث عنها في القرآن.⁽⁷⁾

3 تحديد الفكرة العامة القرآنية للجهد، ثم تجزئتها إلى عناصر ودروس متسلسلة.⁽⁸⁾

¹ - مصدر سابق، ص 531.

² - المصدر نفسه، ص 541-532.

³ - المصدر نفسه، ص 570-545.

⁴ - المصدر نفسه، ص 575-570.

⁵ - المصدر نفسه، ص 581-577.

⁶ - المصدر نفسه، ص 587-585.

⁷ - مصدر سابق، ص 589.

⁸ - المصدر نفسه، ص 589-588.

- 4 - الشروع في تحليل الفكرة الأولى وهي علاقة الجهد بقيمة الأخلاقية (علاقة تلازم)، ثم أورد موقفين فلسفيين هنا، نظرية كانط القائلة باستحالة قدرة الإنسان أداء واجب معين، والنظرية الثانية التي قللت من قيمة وثواب العمل، كما أورد الخلاف بين الأخلاقيين في النهوض بالتكاليف دون جهد، ثم توصل إلى تفرقة القرآن هنا بين نوعين من الجهد: جهد المدافعة، والجهد المبدع.⁽¹⁾
- 5 - عرف جهد المدافعة، وبين ضرورته ومراتبه في الناس، وعوامل الشر المتصارعة في نفوسهم ومفهوم الأخلاقية ضد مقاومتها، كما ضعف مذهب القائلين بالقيمة الذاتية غير المشروطة بالجهد، بنصوص قرآنية قال عنها: «أنا نبقي للنصوص هدفها الشامل».⁽²⁾
- كذلك فصل تحليل الجهد المبدع ومعانيه، وأفضلية مراتبه في نظر القرآن.⁽³⁾
- 6 - أقام مقارنات بين هذه الدرجات للجهد المبدع، من تأملاته في النصوص القرآنية والنبوية يستنبط الحقائق الأخلاقية: فهي جامعة بين الواجب والخير، وهي متسمة بالتدرج ومراعاة طبيعة الإنسان، ودالة على سلمها الأخلاقي، المتمثل في مبدأ التوازي، والتدرج وغير ذلك، بنصوص من القرآن والسنة.⁽⁴⁾
- 7 - إظهار التناسب بين عناصر الجهد، بأسئلة تمهيدية وتلخيصات ابتدائية للوصول بينها.⁽⁵⁾
- 8 - الانتقال بين العناصر المدروسة وفق النسق الفكري؛ إذ بدأ ذلك بجهد المدافعة ثم عقبه بالجهد المبدع، كما بدأ بالجهد الباطني ثم عقبه بالجهد الظاهري، الجهد الطبيعي، ثم الجهد المختلط بالهوى، كل ذلك من خلال نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.⁽⁶⁾
- 9 - طرح مسائل متنوعة واقعية من أجل الإجابة عنها قرآنا وسنة، كالصبر والعطاء، العزلة والاختلاط، الجهد والترفق، ثم استنبط الحقائق القرآنية هنا في وسطية الأخلاق الإسلامية في الجهد الإنساني، واصفا هذه الميزة بالفقه القرآني والمنطقة المركزية.⁽⁷⁾

1 - المصدر نفسه، ص 589-594.

2 - المصدر نفسه، ص 595-611.

3 - المصدر نفسه، ص 611_622.

4 - المصدر نفسه، ص 623-629.

5 - المصدر نفسه، ص 629.

6 - المصدر نفسه، ص 594، 630 وغيرها.

7 - مصدر سابق، ص 661.

- 10 - استنباط النظرية القرآنية فيما أسماه بالمقياس القرآني الوسطي من ناحيتين: خارجية سلوكية، وداخلية فردية، وأهمية العمل في ذلك للترقي في درجات الأخلاقية. (1)
- 11 - وضع خاتمة لخص فيها مفهوم الجهد في القرآن، الحمود والمذموم، ومتخلصا إلى وسطية الأخلاق الإسلامية، ومفارقتها لنظرية الوسط العادل الأرسطية، متبعا في ذلك النصوص القرآنية، مدعمة بالنصوص النبوية لتصل إلى ذروة التأصيل والتجديد والإصلاح. (2)

سادسا: الدستور الأخلاقي في القرآن: ويكمن تلخيص خطواته في النقاط التالية:

- 1 - وضع مقدمة علمية، حدد فيها الإطار المعرفي للموضوع المدروس، وإشكالياته العلمية والمنهجية، ورسم فيها قواعد منهجه الموضوعي المتبعة في معالجة عناصر النظرية الأخلاقية، وأهدافه المسطرة من وراء ذلك. (3)
- 2 - قسم الموضوع إلى قسمين رئيسيين: نظري عاجل من خلاله الموضوعات الخمسة الأساسية للنظرية الأخلاقية، واستخلص نتائجها وحقائقها من ناحيتي التصور، والحلول الواقعية، وقسم تطبيقي حصر فيه أمهات الأخلاق العملية. (4)
- 3 - ترتيب الموضوعات الأخلاقية الخمسة فيما بينها ترتيبا نسقيا فكريا، وإظهار التناسب بينها في شكل أسئلة منهجية تمهيدية، توضح سلاسة الانتقال من الأولوية إلى الأخروية، ومن الافتراضات إلى النتائج، ومن الإطلاق إلى التقييد.
- 4 - الإيغال في تحليل الجانب النظري للأخلاق الإسلامية بمناهج ثلاثة: التحليلية، والموضوعية، والمقارنة، منطلقا في ذلك من الواقع الفلسفي أو الاجتماعي بأفكاره ومشكلاته، يعرضها على نصوص القرآن والسنة، و أفهام المفكرين المسلمين، في ثنائيات أسلوبية، ليستنبط منها حقائق التصور، ومواقف العلاج التعليمي القرآني لقضايا أخلاقية كثيرة مرتبطة بحياة الناس وانشغالهم الفكرية والسلوكية.

1- المصدر نفسه، ص 662-668.

2- المصدر نفسه، ص 670-674.

3- المصدر نفسه، ص 1-17.

4- المصدر نفسه، ص 19-771.

وبالمقابل من ذلك الاقتصار في عرض الأخلاق العملية على النصوص القرآنية فقط، معللا ذلك بقوله: «ولكننا كيلا نضخم كتابنا الذي تضخم فعلا، سوف نكتفي بعض مجرد وبسيط لهذه المقتبسات النصية، إلا في حالة الضرورة مع تصنيفها تصنيفا منهجيا، تبعا للمجالات المختلفة».⁽¹⁾

5 - تصنيف القضايا المطروحة للدراسة تصنيفا منهجيا وفق النظام المنطقي وقاعدة التعليم، وليست خاضعة للترتيب المصحفي أو النزولي، ثم ملاحظة دوائرها المشتركة، واستنباط وحدتها المنطقية والعضوية.

6 - الرجوع في كثير من الأحيان إلى نصوص السنة النبوية، وآراء الأخلاقيين، ومذاهب الفقهاء من أجل تجلية الموضوع من كل جوانبه، من غير الخروج عن جو النصوص القرآنية، كما قال: «أما القرآن الذي تكمله تعاليم الرسول -صلى الله عليه وسلم-»،⁽²⁾ وكما قال أيضا: «ولا داعي للإكثار من نصوص السنة، فإنها تمضي بنا بعيدا، ولنعد إلى نص القرآن».⁽³⁾

7 - وضوح ثنائية النص والواقع في الجانب النظري والتطبيقي للموضوع الأخلاقي؛ إذ ينطلق -في الجانب النظري- من الواقع الفلسفي والاجتماعي المشحون بمشكلاته وأسئلته ليعرضها على النص القرآني، في حين أنه يعكس الاتجاه في الجانب التطبيقي أو العملي للأخلاق الإسلامية، وذلك ليزود القارئ بمنظومة أخلاقية عملية جاهزة على جميع المستويات والأصعدة، تسهيلا لتطبيقها وترجمتها في أرض الواقع.

8 - الحرص دائما على استنباط الحقائق القرآنية على مستويين رئيسيين: مستوى التصورات النظرية، ومستوى المواقف العلاجية العملية، بتعبيرات ومصطلحات متعددة: كالنظرية أو المفهوم، والدستور، والقانون، والقاعدة، والبناء المتناسك، والمنهج التبليغي، والنظام والوصايا وغير ذلك.

9 - وضع خاتمة لكل فصل سجل فيها أهم نتائج النظرية الأخلاقية لكل عنصر من عناصرها، ثم وضع خاتمة عامة لكل الفصول ضمّنها التصورات النظرية والمواقف العملية، والوحدة الموضوعية العامة (فكر التقوى)، ووسطية الأخلاق الإسلامية، كما استنبط الدستور والنظرية

¹ - مصدر سابق، ص 688.

² - المصدر نفسه، ص 673.

³ - المصدر نفسه، ص 260.

العامّة، ووصفها بأنها «تركيب لتراكيب»⁽¹⁾، و«بناء عضوي»⁽²⁾، و«قلب النظام»⁽³⁾، وغير ذلك.

الفرع الثاني: منهجية البحث في السورة القرآنية.

تتبين المنهجية المرحلية هنا بين اتجاهين متقاربين، تخطئهما النظرة السطحية، ولا يفرق بينهما إلا التأمل العميق في مطالع ومقاطع وخواتيم السور المفسرة عنده؛ إذ يركز دراز من خلال الاتجاه الأول، على تفسير السورة تفسيراً موضوعياً من كل جوانبها البحثية المرحلية المعروفة المعالم عند أغلب الدارسين المعاصرين⁽⁴⁾، ويتضح هذا جلياً في أغلب السور القرآنية المفسرة التي خصها كتابه "الحصاد"⁽⁵⁾.

في حين أنه كان يركز - في الاتجاه الثاني - على وجوه التناسب والربط بين الآيات أو مقاطع سورة البقرة⁽⁶⁾، حتى تظهر السورة بعد ذلك في ترابط عضوي وبناء أدبي رفيع، ولم تظهر المعالم الأخرى للمنهجية التفسيرية بصورة جلية كما ظهرت في الاتجاه الأول.

أولاً: الاتجاه الأول: وهو اتجاه التفسير الموضوعي العام: ويمكن حصر خطواته المنهجية في

النقاط التالية:

- 1 - تحديد الإطار التاريخي، والمعرفي لنزول السورة القرآنية، وذلك بالتطرق إلى استحضار أجواء نزول السورة، وإبراز التناسب بينها وبين السور التي سبقتها في الترتيب المصحفي أو النزولي.
- 2 - تحديد موضوع السورة أو قضاياها الرئيسية باختصار وإرساء النظرة الكلية الشمولية لمحور ومقاصدها الأساسية.
- 3 - تقسيم السورة بعد ذلك إلى مجموعة من الدروس أو المقاطع أو المجموعات أو القضايا الأساسية محددة بآياتها، وربطها بمحورها العام.

¹ - مصدر سابق، ص 686.

² - المصدر نفسه، ص 686.

³ - المصدر نفسه، ص 687.

⁴ - يراجع مثلاً: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 64.

⁵ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 97، 109، 147، 155، 161، 189، 221، 231.

⁶ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 191 وما بعدها.

- 4 - تفسير دروس السورة وحلقاتها الرئيسية تفسيراً يجمع بين الإجمال والتحليل، ويوفق بين النظرة العلمية والتذوق البلاغي، يفصل فيه بعض معاني ألفاظ السورة أو آياتها، ويجمع فيه أفكار مقاطعها الجزئية دون أن يخرج عن إطار المحور العام الذي حدد مسبقاً وفق النظرة الكلية.
- 5 - إظهار وجوه التناسبات، ومعاني الارتباطات المتعددة بين الآيات أو بين الألفاظ أو بين المقاطع والمجموعات، مع موضوعات السورة أو مطلعها أو وسطها أو ختامها، حتى تظهر السورة - بعد ذلك - بنية مبهوكة، ووحدة عضوية وأحياناً يظهر هذه التناسبات في شكل تقابلات بين معاني المقاطع غير المتتالية، سواء أكانت واقعة في قسم واحد من السورة كما في سورة الفاتحة⁽¹⁾، أم كانت متقابلة في أقسام متعددة كما في تقابل قضايا العقيدة الثلاثة (الألوهية، الرسالة، المعاد) في سورة يسن مطلعاً ووسطاً وختاماً.⁽²⁾
- 6 - توظيف مناهج متنوعة في تحليل معاني السورة، فمنها منهج الإحصاء لبعض موضوعات السورة في القرآن الكريم كاملاً، ويتبعه في ذلك المنهج التجميعي لعناصرها المفرقة، وأحياناً يوظف المنهج التعليمي، سواء في ترتيب عناصر الموضوعات الجزئية نسقياً، أو في إعادة التلخيص، والترتيب، والإيجاز أو التفصيل مع ما يتناسب مع ذهن القارئ.
- 7 - تسجيل الحقائق التصورية، والمواقف العملية العامة أو الخاصة، في بداية السورة، أو بين آياتها ومقاطعها، أو في ختامها.

هذه هي أهم خطوات البحث المنهجي الإجمالية عنده، التي تلتقي فيما بينها في هذه الخطوات الرئيسية، وإلا فإن كل سورة منها لا تتضمن كل هذه الخطوات المنهجية، بل بعضها أو جلها فقط، وتفصيله سيأتي لاحقاً.⁽³⁾

ثانياً: الاتجاه الثاني: اتجاه البحث عن الوحدة العضوية.

¹ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 97.

² - المصدر نفسه، ص 147.

³ - في البحث الثاني: الوحدة الموضوعية عند محمد دراز، من هذه الرسالة، ص 350.

وهو اتجاه تفسيري أقل منهجية بحثية من الأول، وأكثر منه تحليلاً وتفصيلاً؛ إذ يركز كثيراً - داخل هذا الاتجاه - على إبراز وجوه المناسبات ومعاني الترابط بين الآيات والمقاطع، أكثر دقة، وأغزر وجوهاً، حتى يتضح التناسق والانسجام بين آيات متجاورة موقعا، متباعدة نزولاً مختلفة أحداثاً وأسباباً⁽¹⁾، وتبدو بذلك وحدتها البنائية، ونسقتها الأدبي.

ولا يعني هذا غياب الخطوات المنهجية الأخرى في تفسير السورة القرآنية هنا، فلا بد من حضورها، ولكنه حضور المساهمة في رسم حدود السورة، لا حضور التأسيس لتمامسكها العضوي، وبنائها الأدبي، ونسقتها المعنوي.

تتضح هذه المنهجية المرحلية في تفسيره لسورة البقرة في كتابه "النبأ"⁽²⁾، من خلال الخطوات التالية:

- 1 - تقديم فرضيات علمية حول وحدة السورة البنائية، ونسقتها البياني.
- 2 - تحديد الإطار المعرفي والتاريخي، وذلك بالتعريف بها، وإحصاء آياتها وعد أسباب نزولها، وفترات تنزيلاتها الزمنية في العهد المدني.⁽³⁾
- 3 - تحديد منهج الدراسة النظري، ببيان الهدف العام منها، ورسم منهجية التفسير بإحكام النظرة الكلية، والفهم الدقيق لفروق المعاني بين الآيات مع اتحاد النسق، وذكر وجوه المناسبات في ذلك، وملاحظة حسن الموقع في التجاور.⁽⁴⁾
- 4 - تحديد دروس السورة وتقسيمها إلى أربعة مقاصد ومقدمة وخاتمة إجمالاً.⁽⁵⁾
- 5 - تقسيم كل قسم منها إلى مجموع من الأفكار الأساسية بعناوينها الواضحة، وتفسيرها تفسيراً إجمالياً، ولا يلجأ إلى تفسير الألفاظ تفسيراً تحليلياً إلا إذا دلت على الربط بين المقاصد القرآنية، وآيات سورة البقرة.⁽⁶⁾
- 6 - الإيغال في الربط بين معاني مقاصد أقسام وآيات سورة البقرة بإظهار وجوه التناسبات الداخلية بينها، حتى تبدو السورة كما قال بنية محبوكة، وصورة حية⁽¹⁾، موظفاً في ذلك

¹ - هذا ما أكده دراز في كتابه النبأ العظيم، ص 179.

² - المصدر نفسه، ص 191 وما بعدها.

³ - المصدر نفسه، ص 191.

⁴ - المصدر نفسه، ص 191-196.

⁵ - المصدر نفسه، ص 196.

⁶ - المصدر نفسه، ص 225، 229، 247، 275.

تعبيرات عدة كقوله: «هكذا موقع هذه الجمل الثلاث»⁽²⁾، وقوله: «وهكذا انساق الحديث»⁽³⁾، وقوله: «فانظر كيف وضع بينهما حلقة الاتصال»⁽⁴⁾، وقوله: «بمثابة الدهليز بين الباب والدار»⁽⁵⁾، وغير ذلك كثير مما استغرق ذلك أكثر تفسيره للسورة.

7 - ومن هذا أيضا إظهار الموازنات والتقابلات بين بعض الأفكار والمقاطع حتى يرجح بها بعض معاني الآيات المختلف فيها، كترجيحه عود الضمائر في أمثال أوائل السورة إلى الكافرين والمنافقين معا.⁽⁶⁾

8 - استنباط اللطائف والتصورات النظرية، واستخراج الدروس والمواقف العملية أثناء التحليل الإجمالي قليلا، أو في عناوين المقاصد والأفكار غالبا وكثيرا.

9 - الالتفات إلى التفسير البياني البلاغي للصور البيانية أثناء التفسير الإجمالي، من أجل تسهيل التسلسل المعنوي، والتدرج المنطقي، والوصل بين المقاصد ومعاني الآيات⁽⁷⁾، كما يلتفت أحيانا إلى التفسير الفقهي - من غير استطراد ولا تفصيل - توضيحا للفكرة، ودلالة على حسن الانتقال والتخلص.⁽⁸⁾

10 - يجتمه أخيرا بخاتمة يذكر فيها موضوع السورة العام، وينوه بتماسك موضوعاتها ومقاصدها الفرعية، ويؤكد إعجاز القرآن في ترتيب آياته المتباعدة نزولا، وبراعته في تشكيل وحدته العضوية، وبنيته المحبوكة.⁽⁹⁾

المطلب الرابع: من أهداف التفسير الموضوعي عند محمد دراز.

¹ - مصدر سابق، ص 283، 284.

² - المصدر نفسه، ص 198.

³ - المصدر نفسه، ص 210.

⁴ - المصدر نفسه، ص 225.

⁵ - المصدر نفسه، ص 242.

⁶ - المصدر نفسه، ص 202-203، هامش 02.

⁷ - المصدر نفسه، ص 200، 225، 229.

⁸ - المصدر نفسه، ص 278-279.

⁹ - المصدر نفسه، ص 283، 284.

تتنوع الأهداف وتتعدد المقاصد التي يبتغيها المفسر أو من يسلك منهج التفسير الموضوعي، وتلتقي كلها في مصب إبراز هدايات الله تعالى في الأنفس والآفاق، وبيان حقائقه، والدلالة على مصدره، وصيغ البشرية جمعاء بصيغة العبودية لله، وجلب سعادتهم في الدارين.

و هذا محل اتفاق بين جميع الدراسات القرآنية المعاصرة، والتي فصلت هذه الأهداف وسطرتها فيما يعرف بأهمية التفسير الموضوعي⁽¹⁾، وكان عبد الستار سعيد رائدهم في ذلك وأكثرهم دقة ومنهجية.⁽²⁾

وقد فصل دراز القول هنا تفصيلا جلياً؛ إذ قال: «إن تعاليم القرآن موجهة للعالم بأسره، فهي للناس في شتى أرجاء العالم كافة بغض النظر عن أصلهم، أنزلت إليهم لتدخل السرور والبهجة إلى قلوبهم وتطهر نفوسهم، وتهذب أخلاقهم، وتوحد مجتمعهم، وتستبدل سطوة القوة بالعدل والأخوة، وقد أكد الله عز وجل أن في القرآن حلولاً لجميع قضايا البشر».⁽³⁾

كما عرفنا من قبل أنه كان يهدف إلى إرساء التصورات النظرية الصحيحة، والمواقف العملية الناجمة لقضايا البشر ومشكلاتهم، كما في قوله: «كما تفيد المشكلة الأخلاقية ذاتها منها، في حل مصاعبها، سواء في ذلك المصاعب المتجددة والدائمة»⁽⁴⁾، وقوله: «حتى نرى علماء الغرب الوجه الحقيقي للأخلاق القرآنية»⁽⁵⁾، وقوله: «وتنظيم النصوص بمجموعها على هذا الوجه يبي لنا منهجا كاملا للحياة العملية كما رسمها القرآن: كيف ينبغي على الإنسان أن يسلك مع نفسه، وفي أسرته، ومع الناس أجمعين؟... وما هي المبادئ التي يجب أن تحكم العلاقات بين الحاكمين والمحكومين، وبين الدول والمجتمعات؟... وكيف يؤدي الإنسان العبادة لله؟... وكل ذلك قد قيل بطريقة واضحة محددة».⁽⁶⁾

¹ - يراجع مثلاً: مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 30 والبداية في التفسير الموضوعي: عبد الحى الفرماوي، ص 53، والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 56، والمدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، ص 17 وغيرهم.

² - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 40 وما بعدها.

³ - دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية: محمد عبد الله دراز، ص 95.

⁴ - دستور الأخلاق في القرآني: محمد عبد الله دراز، ص 02.

⁵ - المصدر نفسه، ص 04.

⁶ - المصدر نفسه، ص 10.

وقد استخدم مصطلحات عدة للدلالة على هذه الأهداف الجامعة بين التصورات المتكاملة، والحلول الناجعة، فالأخلاق الإسلامية مجموعة من "المبادئ القرآنية" ذات أصول فكرية وسلوكية عامة تجتمع عندها مجموعة التصورات النظرية والأخلاق العملية على جميع المستويات الإنسانية، تعرف هذه الأصول—عند دراز— "بالقاعدة القرآنية" و"القانون الأخلاقي"، يتسمان بالثبات والمرونة، وبكثرة ورحابة موضوعاتها، وجدة خصائصها، واكتمال صورتها، واقتراحها بأصولها، وبمعايير قانونية صارمة أيضا، تخضع "العمل الأخلاقي" لما أسماه ب"المقياس الأخلاقي القرآني" نظريا أو عمليا لتقييمه وتقويمه، وتصنيفه من شوائب الهوى، ومصالح الفردية، ونزعات المنفعة المادية، وإظهاره بصورة أقوى وأبهى وأجلى، ويقدم لنا ما يسميه "الحقائق الأساسية" و "المفهوم القرآني" و "الحكمة القرآنية" وفق "المنهج القرآني"، وطريقة "النظام المنطقي"، وليقدم لنا "الوصايا القرآنية" و"التبليغ والتعاليم القرآنية"، وفق "المنهج التبليغي القرآني" و "قاعدة التعليم"، كل ذلك يقدم في وحدات موضوعية، وبناءات متماسكة ب "المعنى الشمولي والمعنى التوزيعي"، لتتضح في النهاية صورة ما أسماه ب "النظرية الحققة" أو "صورة دستور كامل"، و"النظام القرآني" و "الشريعة الأخلاقية من القرآن".

ومن أهداف الشريعة القرآنية من وراء هذه التنظيمات والمصطلحات والمقاصد كما قال دراز أنها استطاعت «أن تبلغ كمالا مزدوجا، لا يمكن لغيرها أن يحقق التوافق بين شقيه: لطف في حزم، وتقدم في ثبات، وتنوع في حرية».⁽¹⁾

وكلما أتاحت—أيضا— «الشريعة القرآنية للنفس الإنسانية أن تطمئن إلى سعادة مزدوجة، تجمع أيضا من النقيضين، خضوع في الحرية، ويسر في المجاهدة، ومبادأة في الاستمرار، وقليل من فهم تلك الحكمة الرفيعة».⁽²⁾

ولا تتوقف مقاصد التفسير الموضوعي—في نظر دراز— عند هذا الحد، بل إنها تتعداها إلى غيرها، التي يمكن أن تلخص في مقصدين اثنين أساسيين كانا قطب الرحى لجميع كتابات ودراسات ومقالات دراز القرآنية:

¹ - مصدر سابق، ص 11.

² - المصدر نفسه، ص 11.

- المقصد الأول: إثبات مصدرية الله تعالى للقرآن الكريم.

وهذا مقصد قرآني من الجلاء بوضوح لمسه كل من قرأ أو درس مؤلفات دراز وأفكاره القرآنية⁽¹⁾، في أقواله الصريحة، أو في تحليلاته القرآنية.

فمن أقواله الصريحة قوله: «ومن أي معين تستقي (شريعة الواجب القرآني) سلطانها؟ ولسوف يجيبك: ... بأن العقل والوحي -على هذا- ليس سوى ضوء هاد، مزدوج، لموضوع واحد، وترجمة مزدوجة لواقع واحد أصيل، تمتد جذوره في أعماق الأشياء»⁽²⁾، وقوله أيضا: «إذا كان النوران: الفطري والموحي ينبثقان من مصدر واحد فحسب، فيجب أن نخرج أخير بأن الله سبحانه هو الذي يرشدنا دائما إلى واجبنا، ما ظهر منه وما بطن»⁽³⁾.

وقوله أيضا: «وأن الذي صدرت هذه الكلمات عن علمه، هو نفسه الذي صدرت تلك الكائنات عن مشيئته»⁽⁴⁾، وقوله: «أليس ذلك وحده آية بينة على أن هذا النظم القرآني ليس من وضع البشر، وإنما هو من صنع العليم الخبير»⁽⁵⁾، وقوله أيضا: «منهج القرآن الكامل ينهض دليلا كافيا على مصدره الرباني»⁽⁶⁾، وأما تحليلاته الفكرية العلمية فأغلب كتاباته حول تحقيق هذا المقصد خاصة "النبأ"⁽⁷⁾.

- المقصد الثاني: تفصيل جماليات النظم القرآني، وإثبات إعجازه البياني والتشريعي.

وهو مقصد قرآني مكمل للمقصد الأول ودال عليه، على كمالية المنهج القرآني، وتام صورته في ذلك، فلا يعترضه نقص عقل الإنسان وهفواته، سواء ذلك في ترابط أجزائه داخل السورة أو في القرآن الكريم، ووروده في صورة فنية وأدبية رفيعة (إعجاز نظمي بياني)، أو كان ذلك في تكامل موضوعاته، وجدة فصولها، ونجاعة حلوله، وبلوغه مستوى الكمال المنزه عن الخطأ والنقد (إعجاز تشريعي)، فمن الإعجاز

¹ - يراجع مثلا كتاب: الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره: عبد الغني بركة، ص 265. وكلمات بعض العلماء في كتاب: محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه: أحمد مصطفى فضلية، ص 174، 199 وغيرها.

² - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 16.

³ - المصدر نفسه، ص 36، وينظر: دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية: محمد عبد الله دراز، ص 83.

⁴ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 189.

⁵ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 190.

⁶ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 190، 191.

⁷ - يراجع: النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 44 إلى آخر الكتاب.

الأول قوله: «ولا شك أن طريقة القرآن هذه ليست لها مثل على الإطلاق...»⁽¹⁾، وقوله: «تصميم يتحدى الطبيعة ونجاحه معجزة المعجزات»⁽²⁾ وقوله: «لعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه هو معجزة المعجزات»⁽³⁾.

ومن الإعجاز الثاني قوله عن مكان القرآن في قلوب المسلمين: «وهو عندهم ليس مجرد كتاب صلوات، أو أداة نبوية، أو غذاء للروح، أو تساييح روحانية فحسب، بل إنه أيضا القانون السياسي وكنز العلوم ومرآة الأجيال، إنه سلوى الحاضر، وأمل المستقبل»⁽⁴⁾.

وقوله أيضا: «فعلى حين أن هذه الحقائق الأساسية قد برزت إلى الوجود في ضوء القرآن اللامع، منذ أربعة عشر قرنا، نجد أن مجتهدي المفكرين ممن يبحثون عن هذه الحقائق خارج ضوء القرآن يصدرن دائما عن تردد وارتياب، ولا يصلون إلى أبعاض منها إلا بعد جهد جهيد، دون أن يتوقوا الوقوع في أخطاء فادحة»⁽⁵⁾.

¹ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 129.

² - المصدر نفسه، ص 130.

³ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 284.

⁴ - دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية: محمد عبد الله دراز، ص 106.

⁵ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 17.

المبحث الثاني:

حقيقة الوحدة الموضوعية ولامحها في تفسير محمد عبد الله دراز.

ويشمل أربعة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الوحدة الموضوعية وأنواعها عند محمد عبد الله دراز.

المطلب الثاني: مسمياتها ومواضيعها في تفسيره.

المطلب الثالث: الوحدة الموضوعية والدفاع ضد المستشرقين.

المطلب الرابع: الملامح العامة للوحدة الموضوعية، والعضوية عند محمد عبد الله دراز.

المطلب الأول: مفهوم الوحدة الموضوعية وأنواعها عند محمد عبد الله دراز.

لا شك أن قضية الوحدة هي الثمرة المقصودة من عملية التفسير الموضوعي بين جميع الدراسات المعاصرة، سواء أكان ذلك للألوان المتفق عليها (الموضوع والسورة)⁽¹⁾ أو للمختلف فيها (المصطلح القرآني).⁽²⁾

وكما أشار بعضهم إلى جلاء المنهج الموضوعي عند دراز، كذلك أشار أن دراز كان أيضا من أبرز المؤلفين المعاصرين الذين أبرزوا قضية الوحدة العامة في القرآن الكريم أو في سورة من سوره بشكل جلي، بحيث اتضحت واكتملت تصور الوحدة الموضوعية عنده نظرية وتطبيقا.⁽³⁾

وهذه لا شك فرضية علمية مطروحة هنا، تستوجب البحث والتنقيب عنها في فكر دراز ومؤلفاته من أجل الحصول على إجابة شافية عليها، وأول ما يبحث عنه هنا المفهوم والحقيقة المعرفية والبنائية.

الفرع الأول: في مفهوم الوحدة الموضوعية عند محمد عبد الله دراز.

قدم لنا محمد دراز كثيرا من المفاهيم لقضية الوحدة في القرآن الكريم كاملا، أو على مستوى السورة الواحدة، قد سلف ذكر بعضها أثناء عرض آرائه ودراساته في حقيقة التفسير الموضوعي، وتصورات النظرية.

لذا سنعرض لها ولغيرها هنا إيجازاً قراءة تأملية في مؤلفاته القرآنية التالية: "دستور الأخلاق" و"النبأ العظيم"، و"مدخل إلى القرآن"، و"حصار قلم".

عرفنا -من قبل- أنه انتقد جميع المؤلفين -قبله- لموضوع الأخلاق القرآنية بأنهم «جعلوا من مختاراتهم مجرد جمع لمواد متفرقة لا تربط بينها روح قرابة، ولا يظهر فيه أي تسلسل للأفكار».⁽⁴⁾

واضح من هذا القول أن مفهوم الوحدة عند دراز ينطلق من تلاؤم عناصر المواد المتفرقة لموضوع واحد أو عدة موضوعات -بهذا الإطلاق الوصفي- وانسجامها فيما بينها، وذلك بسرّيان روح واحدة

¹ - يراجع البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 40-41، والمدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 24-25، ومنهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 13، 35، 93، وغيرها.

² - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 23، والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح الخالدي، ص 59.

³ - يراجع: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 05، والوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد حجازي، ص 47-48، وغيرها.

⁴ - مقدمة دستور الأخلاق في القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 07.

تجمع بينها، كأنها روح قرابة تجمع بين الناس، فإذا تمكنت هذه الروح وتغلغل هذا الانسجام بين هذه المواد المتفرقة، ظهر بعد ذلك تدرج طبيعي في انتقال الأفكار وتسلسلها بين هذه العناصر المتفرقة وفق نظام منطقي يسيرها، وهي في ذلك متحدة العناصر، مركونة إلى روح واحدة تجمع شتاتها، وتوحد بين ما تنافر منها.

و لكن ما طبيعة هذه المواد المتفرقة والأفكار المتسلسلة، هل هي موضوعات متعددة مرتبطة بإطار واحد، يمكن أن يفرد كل موضوع منها بالدراسة المستقلة؟ أم أنها عناصر متقابلة من موضوع واحد؟

يجيبنا دراز -من خلال- دراسته لموضوع الأخلاق القرآنية_ على ذلك إجابات متعددة؛ فمنها انتقاده الدراسات السابقة عليه عدم استخراجها المبادئ الأخلاقية وقواعدها من القرآن «في صورة بناء متماسك مستقل عن كل ما يربطه بالمجالات القريبة منه»⁽¹⁾، ويضيف أيضا «فلما كنا -أولا- لا نرى من اللازم أن نستوعب النصوص والآيات ذات الاتصال بالموضوع...»⁽²⁾

كما أشار أيضا أن اجتماع نصوص المغزى الأخلاقي فيما بينها وفق علاقة منطقية تربطها، وصف مجمل ومطلق قيد -بعد ذلك- باجتماع أطرها العامة في «هيئة دوائر مشتركة المركز، كل واحدة منها قابلة لأن تتسع، وتنكمش في توافق مع المجموع، بل لقد تتداخل هذه الدوائر بالتبادل دون أن تطغى إحداها على الأخرى»⁽³⁾.

فهنا مفهوم دقيق قدمه دراز، وهو تصريجه بتحقيق هذه الموضوعات المجتمعة فيما بينها -أطر عامة كما يسميها- فكرة واحدة أو موضوعا جامعا لها، يمثل صورة بناء متماسك لها فيما بينها، ويعزلها عن الموضوعات الأخرى القريبة لها، خاصة -إذا علمنا- أنه انتقد بعض الدراسات الإسلامية أنها لم تجرد الموضوع الأخلاقي عن موضوعات أخرى فقهية أو أصولية أو كلامية وغيرها.⁽⁴⁾

هذه الموضوعات المتعددة تجتمع في دوائر مشتركة المركز، غير مستقلة عن بعضها البعض، بل هي متداخلة، وكل موضوع يمكن أن يتضمن موضوعات فرعية متعددة، ولكن لا يعني حركية هذه الدوائر المشتركة استقلاليتها التامة، بل هي مرتبطة بمركز أصلي أو فكرة جامعة لها.

¹ - مصدر سابق، ص 08.

² - المصدر نفسه، ص 09.

³ - المصدر نفسه، ص 10.

⁴ - المصدر نفسه، ص 07.

غير أن القرآن الكريم لم يرد بهذه الصورة المنهجية، بل قد تجاوزت فيه هذه الدوائر المشتركة بمراكزها معاً في سورة، وهو - في ذلك - مغاير للأعمال الفلسفية المنطقية وطرائقها المنهجية في التعريف بالموضوع وتقسيمه والبرهنة عليه، وإيراد الاعتراضات ومناقشتها، بل موضوعاته متجاوزة ومتلائمة «وإن دراسة مثل هذا الموضوع لجديرة أن يخصص لها عمل مستقل»⁽¹⁾ كما قال.

بل قد صرح دراز بهذا التقابل الثنائي في مفهوم الوحدة حينما قال: «ولذلك فعندما فقدت الوحدة الأولى لكل سورة لم يستطيعوا أن يكملوا عملهم بإيجاد وحدة منطقية، تربط بين الأجزاء المختارة»⁽²⁾.

وقد زادنا وضوحاً في تبادل وتداخل الموضوعات داخل دوائرها المشتركة بأن ذلك التبادل يتم وفق خاصية شمولية المركز، وتوزع دوائره؛ فمن ذلك أنه درس خصائص التكليف الأخلاقي، فأثبت شمولية قواعده، ثم تتبع بعض عناصره في القرآن، قائلاً في ذلك: «وهو ما قد يحمل على معنى توزيعي»، أي أن هذه القاعدة التكليفية تتوزع على عناصر ودوائر متعددة، ماثورة في القرآن الكريم.

كما فصل الحديث عن مفهوم الوحدة في إطار السورة الواحدة، وذلك في كتبه "النبأ" و"المدخل" و"الحصاد"، بتفصيل في الأول وإيجاز في الثاني والثالث؛ ففي كتابه "النبأ العظيم"، عرف الوحدة وجعلها من أهم خصائص الإعجاز القرآني، وقد قدم لها مفاهيم مؤسسة هامة وكثيرة، كما درس معاني الارتباط داخل السورة، ونظام عقد المعاني والموضوعات فيها.⁽³⁾

عرّف أولاً الوحدة بقوله - عن جمال ثروة المعاني القرآنية للسورة الواحدة - : «هو تناسق أوضاعها، واثلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها»⁽⁴⁾.

كما تحدث عن هذه العناصر المؤتلفة، فقال عنها: «وأن أطرافها وأوساطها تستوي في تراميها إلى الغرض، ويستوي هو في استهدافه لها، كما تستوي أبعاد نقط الدائرة بالقياس إلى المركز، ويستوي هو

¹ - مصدر سابق ص 15.

² - المصدر نفسه، ص 07.

³ - أشير إلى مفهوم الارتباط عند دراز، في رسالة الماجستير عنوانها: الإعجاز البياني بين الباقلاني وعبد الله دراز: غربي صالح، مقدمة من قسم اللغة، شعبة اللغة العربية والدراسات القرآنية بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، 2000/99م، ص 153-160.

⁴ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 176.

بالقياس إلى كل منها»⁽¹⁾، سواء كان ذلك للمعنى الواحد أم للموضوعات المتعددة داخل السورة، وتنوع أساليبها، وفي ذلك يقول أيضا: «وأعجب أنه مع كونه أكثر الكلام افتنانا وتنوعا في الموضوعات، هو أكثره افتنانا وتلوينا في الأسلوب في الموضوع الواحد، فهو لا يستمر طويلا على نمط واحد من التعبير، كما أنه لا يستمر طويلا على هدف واحد من المعاني...»⁽²⁾، بل يشكل ذلك «منظرا مؤتلفا»⁽³⁾.

هذه الوحدة المتناسكة والمنظر المؤتلف متحقق رغم وجود العوامل المقطعة لأوصاله، وهي: تعدد المعاني المجتمعة، وتباعدها في زمن النزول، وطريقتها في التجاور الموقعي.⁽⁴⁾

وقد أضاف -أيضا- مفهوما دقيقا وجديدا مرتبط بتجاور الآيات داخل السورة من غير تنافر بينها، وذلك في قوله: «إذا لرأيت من خلال هذا التوزيع الفوري المحدود أن هناك خطة تفصيلية شاملة قد رسمت فيها مواقع النجوم كلها من قبل نزولها، بل من قبل أن تخلق أسبابها... وأن هذه الخطة التي رسمت على أدق الحدود والتفاصيل قد أبرمت بتأكيد العزم والتصميم»⁽⁵⁾.

هذه الخطة المحكمة هي التي خلقت الائتلاف بين النصوص، حتى من كان منها أبعد مرتبة موقعية عن الأخرى، بل جعلت السورة «بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، أقيم على كل أصل منها شُعْبٌ وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول»⁽⁶⁾، فالتماسك البنيوي بين أجزاء السورة الواحدة ومقاصدها هو الذي سير من كثرتها وحدة موحدة، أبرزتها في أحسن صورة، وأدق منظر.

وقد يكون التمسك هنا بين الجمل والكلمات، كما يكون بين المعاني والأفكار، وفي ذلك يقول دراز عن الوحدة أنها: «سلسلة واحدة من الفكر تتلاحق فيها الفصول والحلقات، ونسق واحد من البيان تتعانق فيه الجمل والكلمات»⁽⁷⁾.

¹ - المصدر نفسه، ص 176-177.

² - المصدر نفسه، ص 178.

³ - المصدر نفسه، ص 178.

⁴ - المصدر نفسه، ص 178-180.

⁵ - المصدر نفسه، ص 184.

⁶ - مصدر سابق، ص 188.

⁷ - المصدر نفسه، ص 191.

كما فصل لنا مجموعة من القواعد المنهجية التي تساهم في اكتشاف وحدة السورة، فذلك يكون بإحكام النظر الشمولي في السورة كلها، وبعتماد وجوه المناسبات بين الآيات وفق هذه النظرة الكلية، وملاحظة الانسجام بين هذه الأجزاء وإن كانت غير متحدة أو متقاربة⁽¹⁾، فذلك يخلق تجاور ملائما حسنا، ووحدة عامة متينة.

وقد رد في كتابه "المدخل"⁽²⁾ شبهات المستشرقين نفي تحقق وصف الوحدة داخل السورة القرآنية، فلا يمكن أن تكون «سلسلة من الحروف والصوتيات تخفي تشبثا وتفرقا جوهريا في المعنى، وترك فواصل لا يقبلها المنطق في مسيرة الأفكار، وتقفز قفزات مفاجئة في السورة عند الانتقال من موضوع إلى موضوع جديد»⁽³⁾، كما أكد -مرارا- على أهمية النظرة الشاملة لكل أجزاء السورة، وملاحظة وجود خطة سابقة، وتصميم محكم لكل سورة مما يبرز «التناسق بين الأجزاء والتوافق في التركيب»⁽⁴⁾، خاصة إذا علمنا «أن السور القرآنية تنوع موضوعاتها، ولا تخضع لأي من الفرضين أو الترتيبين السابقين»⁽⁵⁾، أي: الترتيب التاريخي والترتيب المنطقي.

كما أكد أن النص القرآني يتسم بالتماسك والتناسق وخدمة كل جزئية للإطار العام للسورة، فعمدة انسجام السورة يتجلى في الارتباط الوثيق بين قيمها المعنوية وقيمها اللفظية الشكلية.⁽⁶⁾

كما يساهم في ذلك التوافق الأسلوبي للوحدات المشكلة للنص، بحيث يتجلى هذا التشابك الأسلوبي «من خلال انسجام الموضوعات وتناسقها وائتلافها، ومن ثم فإن السورة القرآنية محكمة التأليف متجانسة المعاني، وثيقة الصلات».⁽⁷⁾

بل إن ذلك لم يمتد إلى وجود «تخطيط آخر ذي طابع أسلوبين وبمقتضاه يمكن ملاحظة الأجزاء التي ستتجاوز مجهزة مقدما بطريقة معنية، بحيث يتزاور بعضها مع بعض بدون تصادم أو ثغرات، كل ذلك مع تنوع الموضوعات واختلاف البعد الزمني الذي يفصل بين كل موضوع وآخر».⁽⁴⁾

¹ - المصدر نفسه، ص 192-196.

² - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 127-132.

³ - المصدر نفسه، ص 127.

⁴ - المصدر نفسه، ص 128.

⁵ - المصدر نفسه، ص 129.

⁶ - الإعجاز البياني بين الباقلائي وعبد الله دراز: غريبي صالح: رسالة ماجستير، ص 153.

⁷ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 130.

كما صرح في هذا الكتاب بأنواع من الوحدة، يليق الرجوع إليها لاحقاً.

ورجع في كتابه "الحصاد" مرة أخرى ليؤكد دور النظام الكلي، والخطة المرسومة في رسم وتماسك أجزاء السور والتي أخذت ترتيباً مصححياً جديداً وفق مقام التدوين والترتيل، فكان بذلك تأليفاً «على وجه هندسي منطقي بليغ، تبرز به وحدتها البيانية في مظهر لا يقل جمالا وإحكاماً عنها في وضعها الإفرادي التعليمي».⁽²⁾

كما طرح أيضاً فكرة النظام الذي يعد الخيط الجامع في الربط بين السور، وفي التنسيق بين مسائل السورة الواحدة ذات الوحدة المستقلة كما قال⁽³⁾، وما هذا النظام في حقيقة الأمر إلا علم المناسبات وطرائقه بين الآيات والسور.

ومن معاني الوحدة عنده تفرد كل سورة بموضوعها ومنهجها وأسلوبها الخاص، وأهدافها المتميزة؛ حتى وإن كانت سور أخرى مجاورة لها أو غير مجاورة تشاركها في أصل الموضوع، وفي ذلك يقول: «وأنت تقرأ السورة والسورة من القرآن فترى بينهما التشابه في المقصد والجوهر، بل ربما رأيت بينهما تمام التطابق في المبتدأ والخبر... ولكنك لا تلبث أن تجد نفسك أمام شيء جديد من وسائل التأثير ومسالك الإقناع، وألوان العبر، وطرق الأداء بالإثبات والنفي والإجمال والتفصيل وما إلى ذلك»⁽⁴⁾، ويشبه ذلك بقوله: «غير أن اللون واحد والطعم مختلف».⁽⁵⁾

كما حدد -في نص آخر- مجالات الاختلاف بين السور ذوات الموضوعات المشتركة، فقال: «لا نكاد نجد سورتين منها (السور المعالجة لأصول العقيدة) تتحدان مشرباً وأسلوباً، ولا مادة ولا ترتيباً، بل نرى لكل سورة لونها ومزاجها، ومادتها ومنهجها، فتبارك الله الذي لا تنفذ كلماته، ولا يمل حديثه، ولا تحصى آياته».⁽⁶⁾

خلاصة القول أن مفهوم الوحدة عند دراز يقوم على التناسق الدقيق، والاتئلاف المنظم، والجمع المحكم بين عناصر ما أسماه بـ "الثروة المعنوية"، التي قد تتحقق في المعنى والموضوع الواحد، كما قد تتحقق

¹ - المصدر نفسه، ص 131.

² - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 51-52.

³ - المصدر نفسه، ص 53.

⁴ - المصدر نفسه، ص 23.

⁵ - المصدر نفسه، ص 23.

⁶ - مصدر سابق، ص 147.

أيضا بين المعاني المختلفة، والموضوعات المتفرقة، حيث يتم هذا الترابط وفق خطة مرسومة، وشكل هندسي، وتخطيط منطقي وأسلوب دقيق، بحيث يشغل كل جزء موقعه المكين ويلتئم مع جاره، كأنهما أنزلا معا، رغم تنوع المعاني، وتباعد الزمان، كل ذلك يتشكل في بنية محبوكة وصورة بهيمة، ووحدة مستقلة.

وكل سورة تجسد هذه الوحدة المستقلة، وتنفرد بها عن غيرها في المادة، والأسلوب والاستدلالات، ومنهاج المعالجة، والأهداف المسطرة والمتوخاة.

ولا ننسى أنه أشار وعالج - في مؤلفاته السابقة - أنواع الوحدة للسورة القرآنية، وحلل مفاهيمها، وذكر شواهدا وأمثلة، ومحلها سيأتي مستقبلا. (1)

الفرع الثاني: أهمية الوحدة للسورة القرآنية في تحقيق الإعجاز.

تحقق الوحدة العامة للسورة القرآنية خصوصا - وفي القرآن الكريم لموضوعاته المعالجة عموما - أهدافا ومقاصد جمّة، وتشغل بذلك موقعية كبرى، وأهمية بالغة لمنهجية التفسير الموضوعي، كما عرفنا بعضها سابقا. (2)

وقد عد دراز - رحمه الله - أن الترابط البيوي، والائتلاف التماسكي بين عناصر وأجزاء وأفكار السورة حتى تبدو وحدة عضوية ومعنوية قوية وبهيمية، أن ذلك خير وأوضح برهان على إعجاز القرآن البياني، وأفصح دليل أنه تنزيل من عند الله العظيم الخبير.

يقول في ذلك: «هذه الوحدة من العجائب نظرا للظروف التي تتم فيها وتجعلها مستحيلة بالنسبة للقوى البشرية». (3)

وفصل بعض معالم هذه العجائب البيانية، ويشرح ضعف القوى البشرية عن تحقيقها، فيقول: «وهل كنت مبقيا على روح البيان بعد حذف ما تحذف، أم كنت مزهقا لها وأخذت الرأس بالذنب، ولكن انظر بعد هذا التصرف في أوضاع الحديث بالطي والنشر والحذف والذكر والفصل والوصل، هل ترى إلا رونقا وانسجاما في كل سياق كأن لم يكن هناك طي ولا حذف؟ و من ذا الذي يستطيع أن

¹ - في الفرع الثالث من هذا المطلب: أنواع وحدة السورة عند محمد دراز، ص 328.

² - أثناء التعرض لأهمية التفسير الموضوعي، ثم لأهدافه ومقاصده من المبحث الأول هنا، ص 274، 312.

³ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 128.

يجمع من هذه الأعضاء الممزقة جسما واحدا؟ ومن ذا الذي يستطيع لو جمعها أن ينفخ فيها الروح فإذا هي تجري فيها ماء الحياة؟»⁽¹⁾.

و قد أكد بأن هذا التأليف المحكم يعكس قدرة بيانية كاملة، وعلمنا شاملا دقيقا؛ إذ قال في ذلك: «بل هو مطلب كبير يحتاج مهارة وحذفا ولطف حس في اختيار أحسن المواقع لتلك الأجزاء... ثم يحتاج مثل ذلك في اختيار أحسن الطرق لمزجها بالإسناد، وبالتعليق، أو بالعطف أو غيرها»⁽²⁾.

والعجز البشري عن هذا التنسيق النظامي يكون في المعنى الواحد، ويكون أشد وضوحا منه في المعاني المختلفة، فالتأليف النظامي المتلاحم - كما قال دراز - «أمر إن تيسر لقليل من الناس في المعنى الواحد الذي تتصل أجزاؤه فيما بينها اتصالا طبيعيا... فإن المعاني المختلفة في جوهرها يحتاج مهارة وحذفا في التأليف بين أمزجتها المتناثرة حتى لا يكون جمعها في الحديث كالجمع بين القلم والمنشار...»⁽³⁾.

بل إن هذا أيضا يسري حكمه على الخاصة؛ «فالشعراء حينما يجيئون في القصيدة الواحدة بمعان عدة، أكثر ما يجيئون بها أشتاتا لا يلوي بعضها على بعض، وقليل ما يهتدون إلى حسن التخلص من الغرض إلى الغرض»⁽⁴⁾.

وقد استدلل لإعجاز هذه الوحدة الترابطية، وهذا النسق المنظم بجانبين: جانب تاريخي يتمثل في عجز العرب الأوائل عن إدراك هذا الإعجاز، وذلك في قوله: «أما العرب الذين تحداهم القرآن بسورة منه، فلقد علمت لو أنهم وجدوا في نظم سورة مها مطمعا لطامع، بل مغمزا لغامز، لكان لهم معه شأن غير شأنهم، وهم هم، وأما البلغاء من بعدهم فما زلنا نسمعهم يضربون الأمثال في جودة السبك، وإحكام السرد بهذا القرآن حين ينتقل من فن إلى فن»⁽⁵⁾.

وجانب ثاني ذوقي عماده التجربة والتأمل في أسلوب السورة كاملا، بنظرة كلية مسبقة، وفي ذلك يقول: «اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد، وما أكثرها في القرآن، -فهي

¹ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 31.

² - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 176.

³ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 33.

⁴ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 177.

⁵ - مصدر سابق، ص 187.

جمهرته-، وتنقل بفكرتك معها مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين: كيف بدأت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟... ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها قد نزلت بنحوها...»⁽¹⁾.

وهذا التدوق البياني لتمامك وجمالية النظم القرآني لسوره الطويلة أو القصيرة، لا يتحقق إلا بالتأمل العميق، والتدبر الدقيق، وفي هذا يقول دراز: «أجل، إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعاني حشيت حشوا، وأوزاعا من المباني جمعت عفوا، فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول»⁽²⁾.

كما جرب بنفسه هذا المنهج التدوقي على مجموعة من السور القرآنية كان قد كلف بتدريسها لطلاب الأزهر، وقد خط بذلك قاعدة هامة في قوله: «فقد كنا نبحت عما إذا كان هناك نوعا من الترابط في الأفكار التي تتناولها السورة الواحد، ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن هناك تخطيطا حقيقيا واضحا ومحددا يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة»⁽³⁾.

أما لماذا اتضح العجز البشري هنا من محاكاة التأليف النظمي المحكم، والنظم النسقي المنسجم، لسور القرآن الكريم جميعا - فرادى أو جمعا - فذلك راجع - في نظر دراز - أن النظم القرآني العجيب اجتمعت عليه ثلاثة موانع وعوائق متينة، لو صادفت النظم البشري لما استقام لكلامه طبع، ولا التئم له شمل؛ تلك العوائق الثلاثة هي كما قال دراز: «عناصر معنوية مختلفة، وظروف زمانية منفصلة، وأوضاع تأليفية عجلية ومشتتة»⁽⁴⁾.

فمعلوم اتفاقا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يؤمر بوضع كل آية تنزل عليه موقعها المناسب من السورة⁽⁵⁾، فبهذا تتجاوز مجموعات عديدة من الآيات القرآنية، وهي متنوعة المعاني،

¹ - المصدر نفسه، ص 187.

² - المصدر نفسه، ص 188.

³ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 128.

⁴ - النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، ص 186، هامش 01.

⁵ - رواه الترميذي في سننه، كتاب التفسير، 10 باب ومن سورة التوبة، رقم 272، من حديث يزيد الفارسي، وقال عنه: " هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس، وقد اختلف الأئمة الحفاظ في تعيين اسمه وضبطه، فقيل: هو يزيد بن هرمز، وقيل: هو أبان بن يزيد الرقاشي الضعيف، فالأول قال عنه أبو حاتم: " لا بأس به" (الجرح والتعديل، 294/9)، ووثقه ابن حبان، وصحح له الحاكم ووافقه الذهبي، وقد ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترميذي، رقم 3294، 380/1، وخالفه محمود ممدوح بقوله: " ومقتضى تحسين الترميذي للرجل أنه صدوق عنده، نص على ذلك الحفاظ في " تعجيل المنفعة، وسكت عليه في الفتح، وهذا

متباعدة في النزول الزمني بينها، سريعة الحلول بمواقعها من السور من غير تأخير ولا تأني ولا دراسة للعواقب، وفي ذلك يقول: «انظر إلى الإنسان حين يأخذ في ترتيب أجزاء المركب بعد جمعها، ألا تراه خاضعا لسنة السير الطبيعي التي يخضع لها كل سائر إلى غرض ما حسي أو عقلي؟ فهو إن قطع سبيله خطوات لم يستطع أن يجتاز أحرها قبل أولها، وإن صعد فيه درجات لم يستطع أن يؤخر عن أعلاها». (1)

ويؤكد صعوبة هذا الصعود أو الاجتياز فيقول: «فلو أنك نظرت إلى هذه النجوم عند تنزيلها، ونظرت إلى ما مهد لها من أسبابها، فرأيت كل نجم رهينا بنزول حاجة مسلمة، أو حدوث سبب عام أو خاص، إذا لرأيت في كل واحد منها ذكرا محدثا لوقته، وقولا مرتجلا عند باعته، لم يتقدم للنفس شعور به قبل حدوث سببه، ولرأيت فيه كذلك كلا قائما بنفسه لا يترسم نظاما معيناً يجمعه وغيره في نسق واحد». (2)

هذا بالإضافة إلى الطريقة التي اتبعت في تأليف هذه الأبنية من أجزاءها، فتوضع كل جزء فور نزوله في موقعه الخاص من السورة، مما جعل دراز يجرم - ويجزم معه كل عاقل - «أن طريقة القرآن هذه ليست لها مثيل على الإطلاق». (3)

وهذا ما يعني أيضا أن «هذا التصرف في الدقائق لا يكون إلا ممن قتلها خيرا وأحاط بها علما، والجاهل الملقن لا يأمن أن يتصرف فيها هذا التصرف ... ولا يكون ممن لا يدري ما في غده، ولا ممن يقع في البداءة في العلم، فيقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما قلت كذا أو لما فعلت كذا» (4)

فلا يستطيع الإنسان - ولو تحالف مع العالم كله - أن يقترب من هذا الكمال التأليفي؛ لأنه كما قال دراز: «تلك حدود رسمتها قوانين الفطرة العامة، فلا يستطيع أحد أن يتخطاها، سواء في

يعني أن الحديث حسن على الأقل، التعريف بأوهام من قسم السنن إلى صحيح وضعيف، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، ط1، 2000، 3/322_323.

¹ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 180.

² - المصدر نفسه، ص 183.

³ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 129.

⁴ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 31.

صناعاته المادية أو المعنوية، فالبناء والحائك والكاتب والشاعر في هذه الحدود سواء»⁽¹⁾، وضرب في ذلك الكثير من الأمثلة.

فإذا كان كذلك، فأين يكمن سر هذا التأليف العجيب المتجاوز لقدرة الإنسان؟.

يجيبنا دراز - بكل ثقة ووضوح ويقين - أن ذلك يرجع إلى الخطة التفصيلية الدقيقة المرسومة لكل جزء من السورة، وإلى التصميم المسبق لكل سورة - بل لسور القرآن الكريم كاملة -، والذي خطه علم الله تعالى الواسع والشامل والمتجاوز حدود الزمان والمكان وقصور الإنسان، وذلك حينما قال: «من هذا نقول إنه لا بد كان هناك تصميم لكل سورة، فضلا عن تصميم أو خطة عامة للقرآن في جملته، بمقتضى كل منهما كان كل وحي جديد يوضع في مكانه توا بين آيات هذه السورة أو تلك من السور المفتوحة».⁽²⁾

والإعجاز أوسع من ذلك، فلو «أن هذا الإنسان الغريب الذي جاء القرآن على لسانه كان قد أحصى ما سوف يلد الزمان من مفاجآت الحوادث المستقبلية صغيرة وكبيرة في مدى دهره، ثم قدر ما سوف تتطلبه تلك النوازل من تعاليم الفرقان، فما علمه بالنظام البياني الذي ستوضع عليه صيغة تلك التعاليم؟ ثم ما علمه أيّ هذه التعاليم سيكون قرينة لهذا الجزء أو ذلك...».⁽³⁾

كما أن من العجب والإعجاز هنا أن هذا الترابط التأليفي المحكم قد حقق لكل سورة قرآنية صورة مؤتلفة، ووحدة مستقلة شكلت شخصيتها المعنوية والبيانية، وإيقاعها الموسيقي، وتشكيلها الأسلوبية الخاص بها، وهذا خارج عن طاقة البشر.

يقول دراز - عن السورة القرآنية -: «ومما يعطيها هذه الروعة البالغة أنها كانت حالما تكمل كل سورة بجمع تلك الأجزاء المتفرقة، تصبح وحدة كاملة فنيا ولغويا ومنطقيا، وإنك لتسمع خلال أجزاء الكتاب - على التساوي - إيقاعا موسيقيا خاصا، وهناك الأسلوب المشترك المنسجم والخطة المنطقية...».⁽⁴⁾

الفرع الثالث: أنواع الوحدة للسورة القرآنية عند محمد عبد الله دراز.

¹ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 180.

² - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 129.

³ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 189.

⁴ - دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية: محمد عبد الله دراز، ص 95.

لعل هذه الأنواع اتضحت بعض معالمها من خلال ما سبق تقديمه -هنا- من مفاهيم الوحدة، وأهميتها الإعجازية في نظر محمد عبد الله دراز:

أولاً: الوحدة العضوية: تعتبر من أهم أنواع الوحدة للسورة القرآنية التي نادى بها دراز، وشرح مفاهيمها، وفصل معالمها، ومصطلحاتها ومسمياتها.⁽¹⁾

فالتعريف السابق له للوحدة يكاد ينطبق على هذا النوع بدرجة كبيرة؛ إذ يتحقق ذلك بالترابط بين أجزاء السورة والانسجام بين عناصرها، حتى تتضح بذلك صورة مؤتلفة كاملة، وهذا الذي قاله دراز حينما تحدث عن زينة الثروة المعنوية في القرآن الكريم، وأن جمالها يتجسد في «تناسق أوضاعها، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إنها لتنظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها».⁽²⁾

ثم يشرح لنا طبيعة هذا الترابط الوشائجي، ومفهوم هذا الاتحاد النسقي، فيقول: «وأنت قد تعرف أن الكلام في الشأن الواحد إذا ساء نظمه انحلت وحدة معناه، فتفرق من أجزائها ما كان مجتمعاً، وانفصل ما كان متصلاً، كما تبدد الصورة الواحدة على المرآة إذا لم يكن سطحها مستويًا...».⁽³⁾

وقد صرح بهذا الاصطلاح ومفاهيمه التناسقية أثناء حديثه عن الخطة المسبقة والتصميم المعجز لسور القرآن جميعاً ومواقعها، وذلك في مقارباته الاستفهامية من قوله: «وكيف يمكن مجرد تجميع وتقريب هذه القطع المبعثرة بعضها من بعض بدون تعديل أو لحام أو وصلات -رغم تنوعها الطبيعي وتفرقتها التاريخي- أن يجعل منها وحدة عضوية متجانسة يتوافر فيها ما نرجوه من التماسك والجمال؟»⁽⁴⁾، ثم يستنتج منها دلالتها على مصدرها، وأنها تأليف وتنزيل من حكم حميد، فلا يمكن للبشر أجمعين أن يشيدوا مثل هذا «البناء الأدبي الرفيع وهو القرآن».⁽⁵⁾

فالوحدة العضوية عند دراز تُؤسس من خلال هذا التجانس البديع بين عناصر متنوعة طبيعياً ومعنوياً، مختلفة تاريخياً وزماناً، فتدرج كلها في "مجموعة واحدة" وتنظم منها «وحدة محدودة ذات ترتيب ومقدار بعينه»⁽⁶⁾، وفق خطة تفصيلية مسبقة وشاملة، قد رسمت مواقع الآيات والنجوم من سورها، بل

¹ - ينظر: منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (دراسة نقدية): سامر عبد الرحمان رشواني، ص 291.

² - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز: ص 176.

³ - المصدر نفسه، ص 176.

⁴ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز: ص 130.

⁵ - المصدر نفسه، ص 130.

⁶ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 184.

وتحدد أقربها وأبعدها تجاورا وترتيباً «على شكل هندسي منطقي بليغ، تبرز به وحدتها البيانية»⁽¹⁾، ويستقل بذلك «ديوان كامل التقسيم والتبويب، جيد التنسيق والترتيب، مترابط متماسك في جملته وتفصيله، كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً».⁽²⁾

كيف يتم هذا التماسك النظمي، والائتلاف المقطعي كي تتحقق -بعد ذلك- الوحدة العضوية، خاصة إذا علمنا أن ليس هناك لحام أو وصلات رابطة بينها؟

يجيبنا دراز بأن ذلك يتم عن طريق وجوه بديعة من المناسبات والعلاقات الترابطية المرتكزة على النظرة الشاملة الكلية للسورة، ثم بملاحظة الروح العامة التي تستشري أوصالها وتياراتها في كل أجزاء السورة، فإذا هي بعد ذلك وحدة محكمة، لا انفصام لها، غير أن مفهوم الوحدة العضوية لا يعاد هذه الروح فقط، وتمحى بها الوحدة الخاصة لكل جزء منها، فهذا ليس مقصوداً عند دراز؛ إذ كل جزء من السورة بمثابة عضو من جسم الإنسان يرتبط بخصائصه ووظائفه البيولوجية، ثم يساند باقي أعضاء الجسد في وظائف أخرى تكاملية قريبة وبعيدة.

وفي ذلك يقول دراز: «بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بها عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرابين والعروق والأعصاب، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً؛ كما يأخذ الجسم قواماً واحداً، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية»⁽³⁾، وفي قوله: «حتى يكون عن وحدتها الصغرى وحدة جامعة أخرى».⁽⁴⁾

كما يفصل لها شبكة الوشائج العلائقية بين الأجزاء والعناصر المختلفة، -والتي شكلت ما أسماه بالعقدة والمقياس الدقيق لبراعة الفنون- فيقول: «وعلى هذه القاعدة ترى القرآن يعمد تارة إلى الأضداد يجاور بينها، فيخرج بذلك محاسنها ومساوئها في أجلى مظاهرها، ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون في أحكامها بسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير أو التفرع، أو الاستشهاد، أو الاستنباط، أو التكميل أو الاحتراس إلى غير ذلك. فإن لم يكن بين المعنيين

¹ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 51-52.

² - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 186.

³ - مصدر سابق، ص 188.

⁴ - المصدر نفسه، ص 177.

نسب ولا صهر بوجه من الوجوه ونحوها، رأيته يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر، إما بحس التخلص والتمهيد، وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وضع يتلاقى فيه المتباعدان، ويتصافح به المتناكران»⁽¹⁾.

و يصف كل هذه الوجوه بقوله: «وهذه كلها وجوه حسنى لو نظر إليها بين آحاد المعاني لأغنى بعضها عن بعض في إقامة النسق»⁽²⁾.

وقد جعل النظر في هذه الوحدة العضوية لكل سورة المرحلة الثانية بين مرحلتين من مراحل التفقه في علوم القرآن ومعانيه، مرحلة فهم مسأله مسألة مسألة، ومرحلة أخيرة في النظر في مجموعة سور القرآن جميعا بهذا النحو من الترتيب المصحفي⁽³⁾.

والوحدة العضوية -عند دراز- تتحقق بين العناصر المتنوعة، والأجزاء المختلفة سواء للموضوعات القرآنية في كامل سور القرآن الكريم، أو ضمن مستوى السورة الواحدة.

فمن النوع الأول دراسته للنظرية الأخلاقية بعناصرها الخمسة الأساسية (الإلزام، المسؤولية، الجزاء، النية والدوافع، الجهد)؛ إذ عرفنا دقة احتلالها لمواقعها من صلب النظرية الأخلاقية، ووجوه التعلقات التفرعية بين كل موضوع وآخر؛ بل إن دراز بيّن علاقتها جميعا وموقعها من النظرية الأخلاقية، تناسقا وائتلافا وانسجاما؛ إذ يقول في ذلك: «فإذا نظرنا إلى النظرية الأخلاقية للقرآن في مجموعها لأمكن وصفها بأنها (تركيب لتراكيب)...»⁽⁴⁾.

ويضيف أيضا قائلا: «ولا ينبغي أن نرى في هذه الوحدة بين المختلفات مجرد رصف للمتناقضات... إنها بناء عضوي حقيقي تتعاون فيه كل العناصر، وتتساند كل الوظائف، ولقد استطعنا أن نشهد كيف يمتزج المثالي بالواقع العملي الصلبد، وصرامة الإطار تسير مع المرونة في المضمون، جنبا إلى جنب، فيشتركان معا في حفظ النظام، وفي تحقيق التقدم، ورأينا كيف يكتمل العقل بالإيمان، وكيف يعتمد الإيمان على العقل، وكيف يراقب الفرد حسن سير الحياة الأخلاقية العامة...»⁽⁵⁾.

¹ - المصدر نفسه، ص 194-195.

² - المصدر نفسه، ص 195.

³ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 53.

⁴ - دستور الأخلاق في القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 686.

⁵ - المصدر نفسه، ص 686-687.

ومن النوع الثاني تحليله الممتع لموقعية سورة الفاتحة من المصحف، ولتناسق موضوعات القرآن كاملة داخلها؛ إذ يقول في ذلك: «فكل شيء في القرآن من الإلهيات، والنبوات، والمعاد، والأعمال، والأخلاق، وعبر التاريخ، قد وضعت مفاتيحه في هذه الكلمات القليلة بأسلوب لا يبدو عليه طابع العد والسرد، وإنما هو ماء الحياة ينساب في جداوله غداء للعقول والأرواح».⁽¹⁾

إن الوحدة العضوية بهذا تحقق ما أسماه دراز بمقام التدوين والترتيل الذي ارتبطت بحاجات الوضع البياني، والإعجاز النظمي.⁽²⁾

ثانيا: الوحدة الموضوعية:

فقد أشار محمد دراز إلى هذا النوع للوحدة العامة داخل السورة القرآنية أو خارجها، ودرس مفاهيمها الأساسية، وتسمى بمصطلحاتها العملية، وأولها - في ذلك - عناية واهتماما ثانيا بعد اهتمامه بالوحدة العضوية.

فقد علمنا - من قبل - أنه انتقد الدراسات الإسلامية أنها لم تستطع أن تستخرج النظرية القرآنية في علم الأخلاق؛ لأنها لم تجرد النصوص القرآنية ذات المغزى الأخلاقي عن نصوص أخرى متصلة بموضوعات فقهية، أو أصولية، أو كلامية، أو كونية، وغيرها، ولا تتصل بالنص القرآني إلا من بعيد⁽³⁾، كما أنه ألزم نفسه بمنهج خاص في قوله: «لا نرى من اللازم أن نستوعب النصوص والآيات ذات الاتصال بالموضوع...».⁽⁴⁾

كما أنه - أيضا - انتبه وصرح بفكرة المركز للموضوعات أو الأطر المعنوية والدوائر الفكرية المتنوعة والمختلفة، «كل واحدة منها قابلة لأن تتسع، وتنكمش، في توافق مع المجموع، بل لقد تتداخل هذه الدوائر بالتبادل، دون أن تغطي إحداها على الأخرى».⁽⁵⁾

غير أن محمد عبد الله دراز قد صرح في أكثر من موضع من مؤلفاته القرآنية بتعدد الموضوعات داخل السورة القرآنية الواحدة⁽⁶⁾؛ فمن ذلك قوله: «فإن كنت قد أعجبتك من القرآن نظام تأليفه البياني

¹ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 56.

² - المصدر نفسه، ص 51.

³ - دستور الأخلاق في القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 06-07.

⁴ - المصدر نفسه، ص 09.

⁵ - المصدر نفسه، ص 10.

⁶ - كما في كتابه "مدخل إلى القرآن الكريم"، و"النبا العظيم"، و"حصاد قلم".

البياني في القطعة منه، حيث الموضوع واحد بطبيعته، فهلّم إلى النظر في السورة منه، حيث الموضوعات شتى والظروف متفاوتة، لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز»⁽¹⁾، وقوله: «اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد وما أكثرها في القرآن»⁽²⁾، كما أنه عدد لنا بعض الفوائد في تجاوز هذه الموضوعات المختلفة داخل السورة الواحدة، فقال: «فلو أن ذاهبا ذهب يمحو تلك الفوارق الطبيعية بين المعاني المختلفة التي ينتظمها القرآن في سورة منه إذا جرده من أولى خصائصه، وهي أنه لا يسترسل في الحديث عن الجنس الواحد استرسالا لا يرده إلى الإطالة المملة...»⁽³⁾.

ومنه أكثر صراحة قوله: «ولذلك بني نظم القرآن في آياته وفي سوره على وجه من التداخل والتعاقب بين الاعتقادات والعمليات والبواعث والزواجر بحيث يظهر بعضها بعضا على تقرير كل واحدة منها، وتثبيتها في النفوس...»⁽⁴⁾.

هذا التصريح بتعدد الموضوعات وهذا التحليل لإبراز الوحدة العضوية لكل سورة بوجوه عدة من المناسبات هو الذي أوهم البعض من الدارسين المعاصرين حتى جزم بانعدام الوحدة الموضوعية في فكر دراز وتفسيره التأليفي.⁽⁵⁾

ولكن مهلا، فإن بعضا من التأمل الدقيق في عبارات دراز، وتحليلاته التفسيرية، بنظرة شاملة، يصير هذا الجزم ظنا وشكا مرجوحا، ويحقق الوحدة الموضوعية عند دراز بصفة أشبه بالقطع.

فكما أنه صرح بتعدد الموضوعات داخل السورة القرآنية الواحدة، كذلك صرح بوحدها الموضوعية؛ فمن ذلك قوله: «فما ظنك بالمعاني المختلفة في جوهرها المنفصلة بطبيعتها؟... حتى لا يكون عن وحدتها الصغرى وحدة جامعة أخرى»⁽⁶⁾.

وقوله -عن أجزاء السورة- أنها: «تؤدي مجموعها غرضا خاصا»⁽⁷⁾.

¹ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 177.

² - المصدر نفسه، ص 187.

³ - المصدر نفسه، ص 194.

⁴ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 49-50.

⁵ - ينظر: منهج التفسير الموضوعي دراسة مقارنة: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 295.

⁶ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 177.

⁷ - المصدر نفسه، ص 188.

فكما أنه صرح بتعدد الموضوعات في نصوص متعددة، كذلك صرح بالوحدة الموضوعية هنا، فإذا ما انتقلنا إلى تحليلاته التفسيرية لبعض السور القرآنية، نجد أنه يصل إلى نتائج واحدة، فمنها قوله: «فقد كنا نبحث عما إذا كان هناك نوعاً من الترابط في الأفكار التي تتناولها السورة الواحدة، ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن هناك تخطيطاً حقيقياً واضحاً ومحدداً، يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة، فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذي ستعالجه في خطوطه الرئيسية، ثم يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتداخل فيه جزء مع جزء آخر، وإنما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة، وأخيراً تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة».⁽¹⁾

ومنها تصريحه بأقوال متعددة وواضحة في تفسيره لسورة البقرة؛ فمنها في مقدمة تفسيره لها قوله بأنها «سلسلة واحدة من الفكر تتلاحق فيها الفصول والحلقات، ونسق واحد من البيان تتعاقب فيه الجمل والكلمات»⁽²⁾، وقوله: «الهدف من اختيار السورة: رسم خط سيرها، وإبراز وحدة

نظامها المعنوي»⁽³⁾، وقوله: «نظام عقد المعاني في سورة البقرة إجمالاً وتفصيلاً»⁽⁴⁾، إلى غير ذلك.

ولكنه يؤكد في نصوص أخرى أن الوحدة الموضوعية مرحلة ثانية تتفرع عن الوحدة العضوية إيجاداً ونفياً؛ وفي ذلك يقول: «ولذلك فعندما فقدت الوحدة الأولى لكل سورة لم يستطيعوا أن يكملوا عملهم بإيجاد وحدة منطقية تربط بين الأجزاء المختارة»⁽⁵⁾، وقوله أيضاً: «فلا بد إذا لإبراز تلك الوحدة الطبيعية "المعنوية"، من إحكام هذه الوحدة الفنية "البيانية"، وذلك بتمام التقريب بين أجزاء البيان والتأليف بين عناصره، حتى تتماسك وتتعاقد أشد التماسك والتعاقد».⁽⁶⁾

كما أنه أكد من جهة أخرى أن كلتا الوحدتين المعنوية والبيانية مقصودتان في المنهج الموضوعي، سواء أكان ذلك في السورة القرآنية، أم تعداها إلى كامل سور القرآن الكريم، فإذا تعانقتا معا شكلت لنا

¹ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 128.

² - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 191.

³ - مصدر سابق، ص 191.

⁴ - المصدر نفسه، ص 196.

⁵ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 07.

⁶ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 176.

ما أسماه بالوحدة المزدوجة؛ وفي ذلك يقول: «فإذا كانت السورة القرآنية من نتاج هذه الظروف، تكون وحدتها المنطقية والأدبية في نظرنا معجزة المعجزات، ولقد صرح بوجود هذه الوحدة المزدوجة كثير من ذوي الاختصاص في هذا الشأن»⁽¹⁾.

وأكتفى هنا بذكر بعض الأعلام، ونقل عن الشاطبي نصا في ذلك في كتابه "النبأ"⁽²⁾.

وأما عن هذه الوحدة المزدوجة للموضوع القرآني، فإن لما درس النظرية الأخلاقية بعناصرها الخمسة الرئيسية استنبط من تناسقها وائتلافها الوحدة العضوية في قوله: «فإذا نظرنا إلى النظرية الأخلاقية للقرآن في مجموعها لأمكن وصفها بأنها (تركيب لتراكيب)... فهي متحررة ونظامية، عقلية وصوفية، لينة وصلبة، واقعية ومثالية، محافظة وتقدمية، كل ذلك في آن»⁽³⁾.

كما وصفها بأنها بناء عضوي تتعاون فيه كل العناصر، ليتمخض لنا بعد ذلك وحدتها الموضوعية المقصودة في فكرة مركزية لهذه النظرية الأخلاقية، وذلك في قوله: «هذه الجدلية كلها، هذا المد والجزر يتردد حول المبدأ الوحيد الذي يقع في قلب النظام، والذي يمكن أن يتلخص في فكرة التقوى...»⁽⁴⁾.

بقيت هنا مسألة تصريجه بتعدد الموضوعات داخل السورة، فهذا يرجع -بعد التأمل الدقيق- إلى أن هذه الموضوعات تمثل الأفكار الثانوية للسورة؛ فإذا تجانست هذه الأفكار الثانوية فيما بينها، وجسدت الوحدة العضوية، سهل -بعد ذلك- تشكيل فكرتها الرئيسية ووحدها الموضوعية، وهذا ملمح قد يخفى على كثير من المفسرين؛ وفي ذلك يقول دراز: «والواقع أنه قد يصعب في بعض السور التمييز بين الفكرة الرئيسية والأفكار الثانوية، أو اكتشاف العلاقة بين هذه الأفكار بعضها وبعض، أو بينها وبين النواة المركزية للسورة...»⁽⁵⁾.

كما قد يرجع ذلك إلى نقص في منهجية البحث عند دراز كما سنعرف ذلك لاحقا.⁽⁶⁾

ثالثا: وحدة المقاصد أم تعددها:

¹ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 130.

² - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 192.

³ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 286.

⁴ - مصدر سابق، ص 687.

⁵ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 130-131.

⁶ - في تقويم منهجه في الوحدة الموضوعية من المبحث الثالث من الفصل الأخير، ص 428.

هذا وقد صرح دراز بوحدة الأغراض في كتابه "النبأ"، حينما يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضا خاصا، كما يأخذ الجسم قواما واحدا، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية⁽¹⁾، ولكنه قد صرح بتعددتها وتنوعها أثناء تفسيره لبعض السور القرآنية⁽²⁾، مما يوحي بأن وحدة الغرض متعلقة بوحدة الاتجاه، أو بالوحدة العضوية، أو يدل ذلك على نقص منهجية البحث عنده بين التنظير والتطبيق.⁽³⁾

المطلب الثاني: مسمياتها، ومواضيعها في تفسيره.

اصطلح دراز بمصطلحات وتسميات كثيرة مرادفة لمصطلحي الوحدة العضوية، والوحدة الموضوعية، تنوعت منهجية وأهدافا، واختلفت دلالات وأبعادا، كما أنه -من جهة أخرى- درس بعض السور القرآنية، وحدد لنا موضوعاتها الرئيسية بطرائق متعددة، وبيانات متباينة، وهذا محل دراستنا في الفرعين الآتيين:

الفرع الأول: مسميات الوحدة العضوية والموضوعية عند محمد عبد الله دراز.

قد ضمن دراز مؤلفاته القرآنية الكثير من المصطلحات العلمية والأدبية، كمسميات مرادفة أو قريبة الدلالة على مفاهيم الوحدة العامة للسورة القرآنية، أو حتى لجميع سور القرآن الكريم في موضوعات خاصة معالجة، عرف بعض منها -سابقا-، والكثير منها لم نطلع عليه بعد، وهذا محل بيانه إيجازا.

أولا: مسميات الوحدة العضوية:

¹ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 188.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 196، وحصاد قلم: محمد دراز، ص 111، 161 وغيرها.

³ - أثناء تقويمه من المبحث الثالث المقبل من هذه الرسالة، ص 428.

أ- **المسميات العلمية الأكاديمية:** ويقصد بها الاصطلاحات الأكاديمية المستنبطة عن الموازنة بين المفاهيم، والتحليل العلمي لأنواعها وأصنافها، على حسب القدر المتفق عليه بين الدارسين المعاصرين في إطار ضوابط التفسير الموضوعي.

- الوحدة الأولى وروح واحدة:

وهما مسميان وظفهما دراز في مقدمة كتابه "الدستور"، لتأصيل منهجه الموضوعي في دراسة النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم، وهما مسميان وظفا بدقة للدلالة على التماسك والائتلاف بين عناصر النظرية الأخلاقية، وفي ذلك يقول: «فعندما فقدت الوحدة الأولى لكل سورة»⁽¹⁾، ويقول: «وإنما تبدو أصالة هذا التعليم الأخلاقي في أجلى صورها، في طريقته التي سلكها لتقديم تلك الدروس المختلفة عن الماضيين، وتقريبها، بحيث يصوغ تنوعها في وحدة لا تقبل الانفصام... (كما) دفعها جميعا في اتجاه واحد، ثم نفخ فيها من روح واحدة»⁽²⁾.

- وحدة عضوية:

وهو مصطلح أكاديمي تكاد تتفق عليه كلمة الدارسين المعاصرين⁽³⁾، وقد استعمله دراز قليلا، وأحاطه بمبرادات كثيرة؛ إذ يقول دراز متسائلا - في كتابه المدخل -: «وكيف يمكن مجرد تجميع وتقريب هذه القطع المبعثرة... أن يجعل منها وحدة عضوية متجانسة؟»⁽⁴⁾.

- الوحدة الأدبية أو الوحدة البيانية أو الوحدة الفنية:

وهي مصطلحات تهتم بالأسلوب القرآني ونظمه الإعجازي، خاصة ما دل منه على الترابط والانسجام⁽⁵⁾، وقد صرح دراز بمصطلح "الوحدة الأدبية" في كتابه "المدخل"⁽⁶⁾، وبمصطلح "الوحدة

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 07.

² - المصدر نفسه، ص 09.

³ - ينظر مثلا: التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحمان، ص 39، ومنهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: سامر عبد الرحمان رشواني، ص 291.

⁴ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 130.

⁵ - يراجع منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 96، والوحدة الموضوعية في سورة يوسف: محمد حسن باجودة، ص 15، والوحدة الفنية في القصة القرآنية: محمد الدالي، ص 05-06.

⁶ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 127-130.

البيانية" في كتابه "النبأ"⁽¹⁾، وكذلك "الحصاد"⁽²⁾، وبمصطلح "الفنية" في كتابه "النبأ"⁽³⁾، وكذلك "الحصاد"⁽⁴⁾، و"الدراسات"⁽⁵⁾.

-**النظم والنسق**: أما المصطلح الأول فمستعمل قديما وحديثا⁽⁶⁾، وبخلافه المصطلح الثاني الذي الذي لم يستعمل إلا في الدراسات الحديثة والمعاصرة.⁽⁷⁾

وقد استعملهما دراز غالبا في كتابه "النبأ"؛ كما في قوله: «وسبب ثالث كان أجدر أن يزيد نظم السورة تفكيكا، ووحدتها تمزيقا»⁽⁸⁾، وقوله: «... لا يترسم نظاما معينا يجمعه وغيره في نسق واحد»⁽⁹⁾، و«واحد»⁽⁹⁾، وقوله: «فيستقيم له النسق بين هذه المقطوعات كلها»⁽¹⁰⁾، وقوله: «فأقبل على تدبير هذا النظم الكريم»⁽¹¹⁾، وقوله: «ونسق واحد من البيان».⁽¹²⁾

وقد لاحظنا أنه يستعمل أيضا مصطلح "النظام" للدلالة على الترابط والانسجام بين أجزاء السورة، كما سبق هنا، وكما في بحثه في سورة البقرة أن يبرز «وحدة نظامها اللغوي»⁽¹³⁾، وفي قوله أيضا: «كان قد أعد لهذه المواد المبعثرة نظامها»⁽¹⁴⁾، وقوله: «في نظام واحد».⁽¹⁵⁾

- الوحدة بالتفرد أو بالإضافات:

1- النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 176.

2- حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 52.

3- النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 176.

4- حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 32-33.

5- دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية: محمد عبد الله دراز، ص 95.

6- منهم المحاضر، والباقلاني، والخطابي، والجرجاني الذي اشتهر بالتأصيل لنظرية النظم.

7- ينظر منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 301.

8- النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 179.

9- مصدر سابق، ص 183.

10- المصدر نفسه، ص 185.

11- المصدر نفسه، ص 187.

12- المصدر نفسه، ص 191.

13- المصدر نفسه، ص 191-192.

14- المصدر نفسه، ص 190.

15- حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 53.

فقد يستعملها أحيانا مجردة من غير أوصاف مضافة، كما في قوله: «وكان لابد لتمام هذه الوحدة»⁽¹⁾، وأحيانا أخرى كثيرة يلحقها بأسماء وأوصاف، فمن ذلك قوله: «وحدة السور»⁽²⁾، أو «وحدة السورة»⁽³⁾، وقوله: «وحدة محكمة لا انفصام لها»⁽⁴⁾، وقوله: «وحدة مستقلة»⁽⁵⁾، وقوله: «وحدة كاملة»⁽⁶⁾، وقوله: «وحدة جامعة أخرى»⁽⁷⁾، وقوله: «الوحدة المزدوجة»⁽⁸⁾، وهي أوصاف تعبر تعبر غالبا عن التماسك العضوي بين أجزاء السورة، اللهم إلا الأوصاف الثلاثة الأخيرة، فإن دلالتها أعم من الوحدة العضوية دون إقصائها كما سنعرف مستقبلا.

ب - المسميات الأدبية الشخصية:

وهي مسميات خضعت لمسار المنهج الأدبي البياني المتبع في الدراسة، ولم توظف في كل الدراسات الحديثة والمعاصرة، وإنما تلتبس غالبا عند الأدباء الذين اهتموا بالدراسة البيانية للقرآن الكريم.

- صورة:

وهو مصطلح أدبي يطلق على التمام العناصر المكونة للنص وتماسكها في نسق واحد، حتى تتشكل - بعد ذلك - صورة واحدة لهذا التماسك، وهذا ما قصده دراز من استعمال هذا المصطلح، بأوصاف إضافية له تحدد بدقة الإطار الترابطي لعناصرها؛ فمن ذلك قوله: «حتى يكون منها صورة واحدة فنية»⁽⁹⁾، وقوله أيضا: «ولكنه حين يجمع الأجناس المختلفة لا يدعها حتى يبرزها في صورة مؤتلفة»⁽¹⁰⁾، وقوله: «ويقدمها في صورة دستور كامل»⁽¹¹⁾.

¹ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 189، وقوله أيضا: «وحدة محدودة»، ص 184.

² - المصدر نفسه، ص 189.

³ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 127.

⁴ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 176.

⁵ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 53، ومدخل إلى القرآن الكريم: ص 127.

⁶ - دراسات إسلامية: محمد عبد الله دراز، ص 95.

⁷ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 177.

⁸ - مدخل على القرآن الكريم: محمد دراز، ص 130.

⁹ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 33.

¹⁰ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 194.

¹¹ - دستور الأخلاق في القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 03.

-تركيب لتراكيب وبناء عضوي أو متماسك وروح قرابة:

وهي مسميات أدبية موضوعة بدقة للدلالة على الائتلاف والانسجام بين عناصر الصورة، أو العمل الأدبي الواحد أو المتعدد.

فالمصطلح الأول وضع للدلالة على الوحدة الجامعة لتربط عناصر النظرية الأخلاقية فيما بينها، وكما كان دراز دقيقاً حينما قيد تحقيقها بتناسق المجموع، فقال: «فإذا نظرنا إلى النظرية الأخلاقية للقرآن في مجموعها لأمكن وصفها بأنها تركيب لتراكيب»⁽¹⁾، كما نبه إلى أن هذا الائتلاف بين المختلفات ليس مجرد إضافة للمضافات، بل هو كما قال «بناء عضوي حقيقي تتعاون فيه كل العناصر، وتتساند كل الوظائف»⁽²⁾.

وهو المصطلح ذاته الذي استعمله في انتقاده للدراسات الإسلامية أنها تتبعت الأخلاق القرآنية بنوع من الحصر والتصنيف دون الربط بينها في صورة موحدة، أو كما وصف عملهم بقوله: «لم يعقبه ما يقتضيه من عمل ضروري يهدف إلى إعلاء البناء»⁽³⁾، وفي قوله: «ولم يحاول أحد أن يقدم لنا مبادئها، وقواعدها في صورة بناء متماسك مستقل عن كل ما يربطه بالمجالات القريبة منه»⁽⁴⁾.

كيف يكون التأليف بين لبنات هذا البناء الأخلاقي المتماسك والمستقل عند دراز؟ يجيبنا بأن ذلك ينطلق من "روح قرابة"⁽⁵⁾ بين هذه العناصر، فإذا استطاع المفسر أن يلحظ أواصر التشابه والاشتراك بين المواد المتفرقة، توصل إلى الربط بينها، وتشيد بنائها المتماسك ووحدها العضوية، تماماً كما يعرف الواحد منا قرابته بأواصر مشتركة في النسب أو الدم أو غيرها، فإذا وصلها تشكلت -بهذا الوصال- وحدة العائلة الصغيرة أو الكبيرة.

-تسميات أخرى:

وكتابه "النبأ العظيم" حاشد بتسميات أدبية أخرى، كقوله: «حتى يكون له مزاج واحد واتجاه واحد»⁽⁶⁾، وقوله: «في سلك واحد»⁽¹⁾، وقوله: «أدخلها كلها في مجموعة واحدة»⁽²⁾، وقوله: «بنية

¹ - المصدر نفسه، ص 686.

² - المصدر نفسه، ص 686.

³ - مصدر سابق، ص 06.

⁴ - المصدر نفسه، ص 08.

⁵ - المصدر نفسه، ص 07.

⁶ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 177.

متماسكة»⁽³⁾، وقوله: «يسري في جملة السورة اتجاه معين»⁽⁴⁾، وقوله: «دمية حسناء... والعقد التنظيم... والمزاج العجيب»⁽⁵⁾، وقوله: «حلة موشية»⁽⁶⁾، وقوله: «بنية محبوكة مسرورة»⁽⁷⁾، وقوله: «لا أقول أحسن دمية، بل أجمل صورة حية»⁽⁸⁾، و«سيكة واحدة، وعرق واحد، وماء واحد»⁽⁹⁾، و«اللوحه القرآنية»⁽¹⁰⁾ ومنها أوصاف: اللون، والمزاج، والمنهاج، والمشرّب⁽¹¹⁾.

ثانيا: مسميات الوحدة الموضوعية:

الظاهر أن محمد عبد الله دراز لم يوظف مسميات متنوعة لهذا الفرع من الوحدة، ولعله لم يول ذلك اهتماما بليغا، كما اهتم بالوحدة العضوية ومسمياتها.

أ المسميات العلمية الأكاديمية:

وأهم هذه التسميات "الوحدة المنطقية"، التي توحى بالترابط والتسلسل الآلي، وفي هذا يقول - ناقدنا للمؤلفين السابقين في الأخلاق القرآنية-: «لم يستطيعوا أن يكملوا عملهم بإيجاد وحدة منطقية»⁽¹²⁾، يظهر فيها كما قال «تسلسل للأفكار»⁽¹³⁾.

ومنها أيضا مصطلح "الوحدة المعنوية"⁽¹⁴⁾، أي: ارتباط المعاني بعضها مع بعض، في فكرة واحدة رئيسية، موحدة لها.

¹ - المصدر نفسه، ص 179.

² - المصدر نفسه، ص 184.

³ - المصدر نفسه، ص 188.

⁴ - المصدر نفسه، ص 188.

⁵ - المصدر نفسه، ص 190.

⁶ - المصدر نفسه، ص 193.

⁷ - المصدر نفسه، ص 283.

⁸ - المصدر نفسه، ص 284.

⁹ - المصدر نفسه، ص 269.

¹⁰ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 382.

¹¹ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 147.

¹² - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 07.

¹³ - المصدر نفسه، ص 07.

¹⁴ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 131.

وفي السياق أيضا استعمل مصطلح "الفكرة الرئيسية" في علاقتها مع الأفكار الثانوية داخل السورة الواحدة، ومصطلح "الفكرة الرئيسية" لمباحث النظام الأخلاقي، وعناصر النظرية القرآنية في علم الأخلاق، كما في قوله: «بيد أننا لو بحثنا في مجال هذا النظام عن فكرة مركزية، عن الفضيلة الأم التي تتكاثف فيها كل الوصايا، فسوف نجدتها في مفهوم (التقوى)». (1)

ب - المسميات الشخصية:

قد استعمل دراز في ذلك تسميتين اثنتين:

الأولى مصطلح "الوحدة الطبيعية" الذي وظفه مصطلحا مرادفا للوحدة المعنوية، وذلك في كتابه "النبأ العظيم". (2)

والثانية: مصطلح "النواة المركزية"، الذي استعمله في الدلالة على الفكرة الرئيسية للسورة

القرآنية، وعلاقتها وترابطها بالأفكار الثانوية. (3)

ثالثا: ملاحظة سريعة:

هذا وقد تحتل بعض التسميات السابقة الدلالة على الوحدة الموضوعية، كـ "الوحدة المستقلة"، و"وحدة السورة"، و"الوحدة الجامعة"، كذا أن بعضها يصح إطلاقه للدلالة على الوحدتين معا في آن واحد، كمصطلحات "الوحدة المزدوجة"، و"الوحدة الكاملة"، و"النسق الواحد"، و"البناء المتناسك"، وغيرها.

الفرع الثاني: مواضعها في تفسيره.

لم يفسر محمد عبد الله دراز القرآن الكريم كاملا، إلا سورا قليلة بعدد خص سورة واحدة منها (البقرة) كتابه "النبأ العظيم"، في حين أن باقي السور المفسرة كانت محل نظراته القرآنية التحليلية من كتابه "الحصاد"، وهي سور: الفاتحة، البقرة، يس، الملك، غافر، القلم، النبأ، والتكوير.

¹ المصدر نفسه، ص 681.

² النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 176.

³ مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 131.

أولاً: الوحدة الموضوعية في سورة الفاتحة.

افتتح دراز تفسير السورة بإبراز خطوط ثلاثة رئيسية (الثناء على الله، واستمداد المعونة منه واستلهاً الهداية منه)، ثم بين سر تسميتها بالفاتحة، وأم الكتاب، محصياً في ذلك موضوعات القرآن، وحصرها في شعبتين: الحق والخير نظرياً وعملياً، ولم ينس في ذلك أن يربطها بسورة الفاتحة.⁽¹⁾

ثم شرع في تحليل مقاصدها تحليلاً إجمالياً، وهو في ذلك حريص على إظهار الترابط بينها، بوجوه بديعة من الموازنات والمناسبات، كما كان يعتمد منهج التجميع لبعض الموضوعات الداخلية للسورة، ويسجل في كل ذلك اللطائف والتصورات والمواقف، ويلخص مقاصد السورة في وحدة عضوية متماسكة.

وفي كل هذه التحليلات التفسيرية كان يربط كل مقصد، وكل مقطع، بل كل آية بموضوع رئيسي للسورة، في تناسق عجيب يجسد وحدتها الموضوعية العامة، ألا وهي: بيان الجانب الإلهي والجانب الإنساني نظرياً وعملياً.⁽²⁾

ثانياً: الوحدة الموضوعية في سورة البقرة.

قد تناول تفسيرها في موضعين مختلفين، وبمنظرة مغايرة في كل موضع؛ ففي كتابه "الحصاد"، عرّف بالسورة، وأحصى آياتها، وقسمها إلى مقصدين ومقدمة وخاتمة بعناوينها، فالمقصد الأول كان لإرساء أصول الدعوة الإسلامية، وكان المقصد الثاني لبسط شرائع الإسلام⁽³⁾، ولكنه أوصلها إلى أربعة مقاصد في كتابه "النبا"⁽⁴⁾، مفصلاً لكل مقصد من التقسيم الأول مقصدين متفرعين عنه، مما يوحي أن الهدف من هذا التفصيل هنا إظهار حسن التنسيق، وبراعة الائتلاف بين هذه المقاصد -على كثرتها-، أي: إبراز الوحدة العضوية الأدبية لأجزاء السورة.

كما أنه قسم المقصد الأول -من مقصدين أساسيين- من كتابه "الحصاد" إلى ست حلقات فسّر منها مائة وأربع آيات من مجموع مائة وسبع وخمسين آية، وهو في كل حلقة يركز على تفسير

¹ حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 97-99.

² المصدر نفسه، ص 109.

³ مصدر سابق، ص 111.

⁴ النبا العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 196.

معاني المقصد الأول، عبر تقسيمات وتفريعات جزئية وتفصيلية⁽¹⁾ لو أتمها إلى نهاية السورة لوضحت لديه -ولدينا- الفكرة المركزية للسورة.

أما في كتابه "النبأ" فقد كان تركيزه -في ذلك- كثيرا على إبراز وجوه الانتقال من مقصد إلى آخر، ومن مقطع إلى آخر، في تحليل تفصيلي للمعاني الجزئية.

وبمتابعة تفسيره لمقاصد السورة نجد أنه ذكر في المقصد الرابع، عنصر الإحسان بعد ما سلف ذكر عنصرى الإيمان والإسلام⁽²⁾، وفي هذا اكتملت الرؤية، واتضحت السورة، ليكشف عن موضوع السورة -حسب رأيه- في خاتمتها، ألا وهو: التعريف بالدعوة الإسلامية، وبيان معالمها، رجالها وأعدائها.⁽³⁾

ثالثا: الوحدة الموضوعية في سورة يس.

قد صرح في بدايتها، وحزم بتميز كل سورة من سور القرآن بوحدها العضوية واستقلاليتها بموضوعها الخاص، حتى وإن اشتركت معها سور أخرى في تناول هذه القضايا الكبرى، والأصول الجامعة، فلكل سورة مزاجها ومادتها ومنهجها⁽⁴⁾، ثم أوضح علاج السورة لقضايا العقيدة الكبرى (الألوهية، الرسالة، المعاد)، لمنهج تعليمي خاص بها، بدأت به بعنصر الرسالة، فالألوهية، فالمعاد، متداخلة فيما بينها، فدعاه ذلك إلى تفسير أجزائها ومقاطعها مقطعا فآخر تفسير إجماليا، مبرزا -خلالها- وجوه التناسب بين آياتها وهذه القضايا الكبرى، ودروسها ومواقفها التصورية والعملية، مركزا -في ذلك- على منهج الموازنة التناسبية بين آيات هذه الأركان الثلاثة في بداية السورة، ووسطها، وفي ختامها في تسلسل أفكارها وترابط عناصرها.⁽⁵⁾

رابعا: الوحدة الموضوعية في سورة غافر (المؤمن):

صرح بموضوعها ابتداء في قوله: «هي عرض لقضية النزاع والصراع، بين دعاة الحق والخير، وبين جند الشر والباطل».⁽⁶⁾

¹ حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 111.

² النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 282.

³ المصدر نفسه، ص 283.

⁴ حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 147.

⁵ المصدر نفسه، ص 148-154.

⁶ المصدر نفسه، ص 155.

وبعد تحديد الفكرة العامة وبمنهج الاستنباط التحليلي شرع في تحليل هذه القضية الكلية بقوله: «ثم تأخذ السورة في تطبيق هذه القاعدة الكلية»⁽¹⁾، فحلل بذلك مقاطع السورة تحليلاً إجمالياً، ومظهرها للتناسب بين مراحل الصراع، وأجزاء صورة النزاع بين موسى -عليه السلام- وفرعون، ثم ظهور جهة ثالثة محايدة ابتداءً، ثم مناصرة للحق ثانياً -متمثلة في شخصية المؤمن، مستنبطاً منها مواقفها التحررية-⁽²⁾، وفي منتصف السورة توقف تفسير دراز عندها، ولم يستمر إلى نهايتها.

خامساً: الوحدة الموضوعية في سورة الملك:

حدد دراز الموضوع الرئيسي للسورة في مقصدين أساسيين: التعريف بالله وصفاته، والتحذير من عاقبة الكفر به، ثم إثبات يوم الآخر للحساب والعقاب.⁽³⁾

ولكنه فصل الحديث عن المقصد الأول في مقصدين متفرعين عنه، وذلك في الشطر الأول من السورة، في نظرة شمولية ومنهج يجمع بين التحليل لغوامض الألفاظ والتراكيب، والإجمال لمعاني مقاطعها الترتيبية، والمتعلقة بصفتي الملك الشامل، والقدرة الكاملة.⁽⁴⁾

كما كان -ولا يزال دأبه في هذا التحليل- مهتماً بإبراز إظهار التناسب والترابط بين آيات تفرع الصفات الإلهية وتحققها في عالم الخلق والآفاق، وآيات التعريف باليوم الآخر، على وجوه عدة كالتنظير، والاستطراد، وعلى تحليل الصور البيانية، اعتماداً على السياق ومحور السورة العام؛ بل والأهم من هذا توظيف الموازنات والتقابلات بين مقصدي السورة في أول السورة ثم في وسطها في الجولة الثانية من التعريف بصفات أخرى لله، هي صفات العلم واللفظ والخبرة، والتسخير، ثم في الحديث عن اليوم الآخر بتفنيد الشبهات حوله بعد إثباته في المرة الأولى، ثم في ختامها⁽⁵⁾، مرجعاً الحديث عن اليوم الآخر إلى صفات الله تعالى، مما يوحي بالتقاء أجزاء السورة في موضوع: التعريف بصفات الله تعالى في المعاش والمعاد.

سادساً: الوحدة الموضوعية في سورة القلم:

¹ المصدر نفسه، ص 155.

² المصدر نفسه، ص 156-159.

³ المصدر نفسه، ص 161.

⁴ مصدر سابق، ص 161-168.

⁵ المصدر نفسه، ص 173-187، وقد قال في بداية سورة القلم: «حدثتنا سورة الملك عن الله تبارك اسمه وعن مصير الكافرين»،

يبتدئ دراز - كعادته - تفسير السورة بإبراز موضوعها الأساسي ووحدها العامة، وذلك من خلال التقابل التناسلي بينها وبين السورة التي سبقتها في الترتيب المصحفي (الملك)، أو في الترتيب النزولي (العلق)، وذلك في قوله: «وتحدثنا سورة القلم عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعن حال المكذبين له»⁽¹⁾.

ثم يقسم هذه الوحدة الموضوعية إلى خمسة مجموعات أساسية بآياتها المحددة، بأفكار مترابطة فيما بينها، تحقق الوحدة العضوية، وتصدق الوحدة الموضوعية، ليحلل بعدها آيات كل مجموعة تحليلاً وسطاً بين التفصيل والإجمال، ويربط بين معانيها بوجوه متعددة من المناسبات والعلاقات، يحقق بها تماسكها العضوي، ويعلل بها ترتيبها التنزيلي؛ بل كثيراً ما كان يربطها بموضوع السورة الأساسي، كربطه مطلع السورة بموضوعها حينما قال: «ولعله لمثل هذا المعنى صدرت سورة القلم بحرف (ن) فإنها تدور على تبرئة للنبي - صلى الله عليه وسلم - من الجنون والفتون...»⁽²⁾.

وهكذا يمضي بهذا المنهج في تفسير مجموعات السورة بآياتها، مقطعا وآية، بل تراكيباً وألفاظاً، ويحلل من القصص الواردة في السورة (أصحاب الجنة، ويونس - عليه السلام - مع قومه)، ما يقرب الصورة، وينزل مفاهيمها ودروسها على واقع النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أن يأتي على خاتمة السورة، فيربطها بموضوع السورة ومطلعها، من خلال إيراد تهمة قريش للنبي - صلى الله عليه وسلم - بالجنون، الذي برأه الله منه ابتداءً في بداية السورة.⁽³⁾

سابعاً: الوحدة الموضوعية في سورة النبأ.

يستحضر دراز الإطار التاريخي لنزول السورة في مواقف المشركين تجاه الدعوة المحمدية، ليستنبط منه موضوعها الأساسي في علاج القرآن لتخبطات المشركين الفكرية تجاه يوم البعث والمعاد، كما نص على ذلك في مقدمة تفسيره للسورة.⁽⁴⁾

وبنفس قواعد المنهج السابقة يشرع في تحليل معاني الآيات بصورة إجمالية لكل مجموعة من غير أن يحدد حدودها العامة مسبقاً، ولكنه كان يحرص دائماً على إبراز المناسبات العامة والخاصة داخل

¹ المصدر نفسه، ص 189.

² المصدر نفسه، ص 194.

³ مصدر سابق، ص 195-218.

⁴ المصدر نفسه، ص 222.

السورة بين الألفاظ والكلمات، وبين الآيات المتتالية، وبين المقاطع والمجموعات بتقريرات ممهدة، أو أسئلة مستفهمة تنتظر منطقيا أجوبتها فيما يليها. (1)

وقد لخص ذلك في خاتمة السورة، حينما قال: «هذه هي عبرة السورة ومغزاها، والنتيجة المنطقية التي تنتهي إليها مقدماتها، أنبأتنا السورة بنبئها العظيم عن يوم البعث، ثم بسطت لنا دلائله وشواهدده، ثم جعلته هو يوم الفصل وتقرير المصير، ثم صورت هذا المصير الأخير في صورتيه المتقابلتين نعيم خالص دائم، أو شتاء خالص دائم». (2)

ثامنا: الوحدة الموضوعية في سورة التكويد.

وهي آخر سورة مفسرة عنده؛ حيث شرع بإظهار التناسب بين مقدمتها وبين خاتمة السورة السابقة لها في الترتيب المصحفي (عبس)، وبه حدد أول موضوعات السورة (انقلابات الكون قبل يوم القيامة)، وحلل معاني آياتها الأربع عشرة تحليلا إجماليا في سرد متتابع لأحداث تدمير العالم القديم ثم حلقات لإنشاء العالم الحديث. (3)

ثم انتقل بعدها إلى مجموعة أخرى (أربعة عشر آية) مدعمة للمجموعة الأولى، ومفصلة الحديث بتذوق بياني عن أدلة الخلق والآفاق على صدق الوحي، ومبلغه، ومستقبله، وهنا تخلص إلى الحديث عن موضوع الرسالة والتبليغ، وصفات صاحبها الوسيط والمستقبل.

وبطريق الأسئلة والأجوبة والاستطراد يتخلص في خاتمة تفسيره للسورة إلى تقرير العنصر الثالث من موضوعات السورة، ثم يجعلها جميعا في قوله: «تناولت السورة إلى هذا الحد ركنين عظيمين من أركان الإيمان ركن البعث وركن الرسالة، ولكنها لا تريد أن تودع القارئ قبل أن ترقى به إلى الحقيقة الثالثة الكبرى عقيدة الألوهية العظمى». (4)

¹ المصدر نفسه، ص 222-229.

² المصدر نفسه، ص 229.

³ مصدر سابق، ص 231-233.

⁴ المصدر نفسه، ص 239.

المطلب الثالث: الوحدة الموضوعية والدفاع عنها ضد المستشرقين.

قد ذكر فهد الرومي أن أصحاب المدرسة العقلية الحديثة - ومنهم محمد عبد الله دراز - قالوا بالوحدة الموضوعية في القرآن أو في السورة، كردة فعل على مزاعم المستشرقين، وذلك أثناء عرضه لموقف النافين والمثبتين للوحدة الموضوعية.

يقول في ذلك: «وقف رجال المدرسة العقلية الحديثة على هذين السبيلين ورأوا - وهم في مواجهة المستشرقين الذين حاولوا أن يلجوا من هذا المدخل إلى الطعن في القرآن - أن يغلقوا عليهم هذا المنفذ ويطلوا كيدهم، ورأوا أن السبيل إلى ذلك لا يكون إلا بنفي القول الثاني⁽¹⁾، والأخذ بالقول الأول⁽²⁾، وإثبات الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية بصورة جلية يثبت ارتباط الآي بعضها ببعض فتتناسق آياتها وتتلاحم حتى تكون كالسبيكة الواحدة».⁽³⁾

¹ أي قول النافين لها.

² أي: قول المثبتين لها.

³ منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: فهد الرومي، مؤسسة الرسالة، ط2، 1403هـ، 1983م، ص 225.

ولا شك من قرأ لمحمد عبد الله دراز يدرك أن الرجل «خاض معركة العقيدة والأخلاق ضد زبانية الاستعمار من أصحاب الفلسفات المادية، التي تبدئ وتعيد في نطاق الحمأ المسنون، وأصبح للإلحاد منابر تنشر أراجيفه التي تبلل الفكر، وتذهب بنور الإيمان»⁽¹⁾، وتطعن في مصدرية القرآن وإعجازه.

لذا رابط دراز وقدم الأدلة والبراهين الساطعة على إعجاز القرآن في تماسك آياته، وائتلاف موضوعاته وأجزائه، خاصة على مستوى السورة القرآنية، وذلك في كثير من مؤلفاته القرآنية.⁽²⁾

فقد قال تحت عنوان "خطأ كثير من العلماء بشأن وحدة السور القرآنية": «وقبل أن نترك هذا الفصل ينبغي أن نركز بعض الجهد على نقطة غفل عنها جميع المستشرقين... وهي طريقة القرآن الكريم في معالجة أكثر من موضوع في السورة الواحدة، فعندما لاحظ بعضهم بنظرته السطحية عدم توافر التجانس والربط الطبيعي بين المواد التي تتناولها السورة، لم ير القرآن في جملته إلا أشتاتا من الأفكار المتنوعة، عولجت بطريقة غير منظمة، وبدون أي رباط منطقي بينها، بينما رأى البعض الآخر أن علة هذا التثبيت المزعوم ترجع إلى الحاجة إلى تخفيف الملل الناتج عن رتابة الأسلوب، وهناك فريق آخر لم ير في الوحدة الأدبية لكل سورة... إلا نوعا من التعويض لهذا النقص الجوهرى في وحدة المعنى، وفريق آخر يضم غالبية المستشرقين رأي - هو يهدف إلى تبرئة الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي قدم كل سورة من القرآن على شكل وحدة مستقلة، أن هذا العيب يرجع إلى الصحابة الذين جمعوا القرآن وقاموا بهذا الخلط عندما جمعوا أجزاءه ورتبوا على شكل سور».⁽³⁾

ثم يفند هذه الآراء، ويرد شبهات من أنكر الوحدة الأدبية أو الوحدة المعنوية، أو اتهم الصحابة في هذا، وذلك في قوله: «إن هذه التفاسير لا تبدو صالحة للأخذ بها؛ إذ أن السنة والأثر الصحيح متفقان على أن السور كانت بالشكل الذي نقرأها به اليوم، وبتركيبها الحالي منذ حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، إذن قد يرجع السبب إلى عيب أصيل لا تكاد تجدي معه التبريرات السابقة إذا كانت حقا وحدة السورة لا تعدو أن تكون سلسلة من الحروف والصوتيات تخفي تشبيتا وتفرقا جوهريا في المعنى...».⁽⁴⁾

¹ حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن، إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 32.

² يراجع: مدخل إلى القرآن الكريم، ص 127، والنبأ العظيم، ص 108، 189، 190، ودستور الأخلاق في القرآن، ص 04، 17، ودراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية، ص 95.

³ مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 127.

⁴ المصدر نفسه، ص 129.

كما أنه جعل الوحدة خصيصة مميزة من خصائص الإعجاز اللغوي، الذي أثبت به مصدرية القرآن، ورد فيه على شبهات المستشرقين.⁽¹⁾

وقد جعل -أيضا- من أهدافه في إبراز المنهج الموضوعي لدراسة النظرية الأخلاقية في وحدة عضوية وموضوعية قوله: «وحتى نري علماء الغرب الوجه الحقيقي للأخلاق القرآنية، وذلك في الواقع هو هدفنا الأساسي من عملنا هذا».⁽²⁾

ولكن لا يدل هذا على أن الوحدة العامة التي أثبتها -بوضوح- دراز عكست ردة فعل ضد شبهات المستشرقين؛ بل إن هذه الميزة البيانية والمنطقية طابع أصيل، وملح عتيق من ملامح إعجاز القرآن الكريم اللغوي، وهذا ما درسه دراز ابتداء، قبل أي يسافر إلى أوروبا ويخوض معركة العقيدة والقرآن؛ بل قد صرح أن ذلك هدفه ابتداء، وذلك في قوله -في مقدمة كتابه النبأ- «فهذه بحوث في القرآن الكريم، أردت بها أن أنعت كتاب الله بجليته وخصائصه، وأن أرفع النقاب عن جانب من الحقائق المتصلة به».⁽³⁾

فالوحدة إذن من أبرز حقائق القرآن، وخصائصه الإعجازية التي قصد دراز من دراستها كشف غطاء الجهل الغربي عنه.

¹ النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 108.

² دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، ص 04.

³ النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 37.

المطلب الرابع: الملامح العامة للوحدة الموضوعية والعضوية عند محمد عبد الله دراز.

قد اتضح من قبل وجود الوحدة العامة في تفسير محمد عبد الله دراز، وأنها -في ذلك- على نوعين أساسيين: عضوية وموضوعية، أدبية ومنطقية، طبيعية وفنية، إلى غير ذلك من الأسماء والأوصاف.

و قد كانت له منهجية مغايرة لأختها في البحث عن الوحدة العضوية أو الوحدة الموضوعية - كما عرفنا ذلك من قبل-⁽¹⁾، مما يوحي ذلك -أيضا- باختلاف ملامح الكشف عنهما، وبيان اكتمال حدودهما ومعالمهما.

الفرع الأول: الملامح العامة للوحدة الموضوعية عند محمد عبد الله دراز.

قد أثبت دراز هذا النوع من الوحدة العامة داخل السورة القرآنية في أغلب السور القرآنية التي فسرهما في كتابه "حصار قلم"، وقد ظهرت بعض ملامحها الترابطية التناسبية، وفيما يأتي محل تفصيلها:

أولا: التناسب بين اسم السورة وموضوعها:

¹ في تحليل منهجية البحث في التفسير الموضوعي عند دراز من المبحث السابق، ص 311_314.

قد تدل -أحيانا- أسماء السورة توقيفية كانت أم اجتهادية على موضوعها الأساسي، وفكرتها المركزية، ويكون الارتباط بينهما يجسد وحدة موضوعية عامة للسورة القرآنية.⁽¹⁾

وهذا ما أشار إليه دراز في تفسيره لسورة غافر أو المؤمن؛ إذ قال في ذلك: «وقد بلغ من طرفة هذا الأسلوب أن السورة اسمها من اسم صاحبها (سورة المؤمن) تلك المحاورة البارعة، بل المحاجة البليغة، التي على لسان رجل من قوم فرعون».⁽²⁾

فهنا ارتباط وثيق بين اسم السورة (المؤمن)، وبين موضوعها: الصراع بين الحق والباطل، بين الكفر والإيمان، بين الإفساد والإصلاح، المتمثل في شخصية هذا المؤمن.

ثانيا: التناسب بين المطلع والموضوع:

فغالبا ما يذكر الموضوع العام في بداية السورة، ثم تتولى -بعد ذلك- دراسته، وتحليل عناصره الثانوية في شكل مجموعات أو دروس متلاحقة.

وقد درس دراز هذا الارتباط في سور متعددة، فمنها قوله في سورة يس: «اثنا عشر آية تستهل بها هكذا سورة يس، كأنها نص خطاب الاعتماد ورد به الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليتقدم به أمام أمته محتوما بختام مرسله، ومبيناً فيه كنه مهمته وحدودها، وموقفه من العقبات التي تعترض طريقها...»⁽³⁾، وقوله أيضا: «عرضت علينا ذلك كله مرتين: مرة في افتتاح السورة رمزا وحيا، وعنوانا مطويا، ثم مرة في امتداد السورة حديثا مرتلا وقولا مفصلا».⁽⁴⁾

ومنها قوله في سور الملك: «استهلت السورة الكريمة بكلمة من التمجيد... وأخذت السور تفصل من صفات الله الحسنى ما يعد في جملته وتفصيله برهاناً على هذه العظمة، وهذا الكمال المتزايدين اللانهايين».⁽⁵⁾

¹ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 84.

² حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 157.

³ مصدر سابق، ص 149.

⁴ المصدر نفسه، ص 153.

⁵ المصدر نفسه، ص 161.

ومنها قوله في سورة القلم: «ولعله لو قيل إن كل حرف من الحروف التي في صدر السورة يرمز إلى معنى مهم يراد التنبيه عليه في أثنائها ويكون هذا الحرف بارزا فيه، لعله لو قيل هذا لكان أقصر في الدعوى وأقرب إلى القبول... ولعله لمثل هذا المعنى صدرت سورة القلم بحرف (ن)، فإنها تدور على تبرئة للنبي -- صلى الله عليه وسلم -- من الجنون والفتون، وعلى تحذيره من الضجر بقومه كما فعل ذو النون عليه السلام...»⁽¹⁾.

ثالثا: التناسب بين المطلع والخاتمة:

حيث يجسد الارتباط الوثيق بينها، والتعلق الظاهر منها وحدة موضوعية واحدة للسورة القرآنية في كل أنحاء وأجزائها ومقاطعها.

ومن أمثلة هذا الارتباط عند دراز، قوله في سورة يس: «والآن وهي على وشك الرحيل، تريد أن تعرض علينا عرضة ثالثة بين الإجمال والتفصيل تحت ظلال جديدة، وفي ألوان غضة طريفة،

كان حديثها أنفا عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - تقريراً لرسائله وتحديدًا لمهمته، أما هنا فستحدثنا عن خلقه وشيمته، تبرئته له من نزعة الشعر ونزغته»⁽²⁾.

ومنها قوله في خاتمة تفسير سورة الملك: «يقول لهم: أخبروني إن سلب الله عنكم نعمة الماء الذي به حياتكم وحياة أنعامكم وزروعكم... سؤال تعرف جوابه الفطرة، ويكاد كل من ألقى عليه هذا السؤال يجب قائلًا: الله رب العالمين»⁽³⁾.

فلا شك أن في هذا تناسقا تفريعيا من موضوع تفصيل صفات الله تعالى، والتي ابتدأت السورة الكريمة الإشارة منها إلى صفتي الملك والقدرة.

ومنها أيضا قوله في خاتمة تفسير سورة القلم: «فبدأت السورة الكريمة بإعلان طهره وبراءته من نقيصة السفه والجنون، وأثبت مكانها التنويه بعقله الحصيف، وعلمه الراسخ، وخلقه العظيم... وبعد أن أوسع البيان في هذا كله جاء أخيرا وأخيرا فقط... يسير إلى مقاتلهم الفاجرة»⁽⁴⁾.

¹- المصدر نفسه، ص 194.

²- مصدر سابق، ص 153.

³- المصدر نفسه، ص 187.

⁴- المصدر نفسه، ص 219.

رابعاً: التناسب بين مقاصد السورة الواحدة.

إذ تهدف السورة القرآنية إلى تحقيق مقاصد متعددة في أعدادها، ومتناسقة مع موضوع السورة في حقيقتها وأبعادها.

ففي سورة الملك مثلاً، كان حرص دراز بالغاً على الربط بين مقاصدها وأهدافها الكبرى، فإذا تحقق الائتلاف بينها، تحقق التناسق بين مقاصد السورة وموضوعها العام؛ وفي ذلك يقول دراز: «وهكذا تنتظم العقيدة بطرفيها الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، على أن هذين الأصلين يرجعان عند التحقيق إلى أصل واحد هو التعريف بالله مبدئاً ومعيداً، معطياً، مرغوباً ومرهوباً...»⁽¹⁾

وبعد هذا التناسق العام، يسهل بعد ذلك التنسيق بين مقاصد السورة وفق هذه النظرة الكلية؛ فمن ذلك قول دراز: «وهنا أشرفت السورة على الانتهاء من المقصد الأول وهو التعريف بالله وصفاته، والدخول في المقصد الثاني وهو ذكر اليوم الآخر، فجيء بآية واحدة موجزة تجمع المقصدين كليهما لتكون ختاماً لما قبلها، وافتتاحاً لما بعدها « قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُخْشَرُونَ » [الملك/24]... بهذا التخلص البديع تهيأت الفرصة للحديث عن هذا الحشر الموعود، وهو المرحلة الأخيرة في هذه الجولة الثانية»⁽²⁾.

خامساً: التناسب بين الخاتمة والموضوع:

قد أشار دراز أن خواتيم السور القرآنية تتناسق مع موضوعاتها الرئيسية، كما هو شأن مقدماتها ومطالعها، وذلك في إطار تحقيق وحدة عامة لها؛ فمن شواهد في تفسيره، أنه ربط بين خاتمة سورة الملك وموضوعها، فقال في ذلك: «وكانت آخر خطوة خطاها البيان كما رأينا تذكيراً لصفة الرحمان، وندبا إلى الإيمان وإخلاص التوكل عليه، فكان هذا إعداداً للنفوس لاستماع الحديث عن المقصد الأول، وهكذا تعود السورة إليه كرة ثالثة لتختتم بمثل ما بدأت به من تمجيد الله، والتذكير بقدرته ونعمته»⁽³⁾.

كما أشار إلى هذا أيضاً بين خاتمة سورة غافر وموضوعها الرئيسي⁽⁴⁾.

سادساً: التناسب بين المقاطع والموضوع:

¹ المصدر نفسه، ص 161.

² مصدر سابق، ص 183.

³ المصدر نفسه، ص 186.

⁴ المصدر نفسه، ص 159.

وهذا أيضا من بين الوجوه البارزة في تحقيق الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية عند دراز؛ فقد طرح - في تفسيره لسورة غافر - قضية كلية هي موضوع السورة المتمثل في عرض الصراع بين الحق والباطل، ثم راح يصدق تحقق هذه القضية الكلية في مقاطع السورة الأساسية، فكان من بين تلك المقاطع حديث القرآن عن الصراع بين موسى وفرعون؛ وفي ذلك يقول دراز: «ثم تأخذ السورة في تطبيق هذه القاعدة الكلية، فتختار مثالا من بين أمثلتها العديدة، ذلك هو موقف فرعون وملاه حين جاءهم موسى بالآيات فلم ينقضوا حجته بحجة مثلها، ولكنهم أخذوا يتشاورون كيف يستخدمون سلاح القوة والعنف...»⁽¹⁾.

كما يضيف أيضا قائلا: «ونعود إلى سياق الحديث عن خصومة فرعون لموسى، فنقول: إن السورة بعد أن عرضت علينا منظر هذين المعسكرين، وبعد أن صورت اشتدادا الأزمة بينهما، قدمت إلينا لوحة ثالثة، تطف من حدة الموقف»⁽²⁾.

سابعا: التناسب بين موضوع السورة وأجواء التنزيل.

وهذا ملمح جلي، ووجه قوي في استجلاء الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية؛ إذ يعكس الجو العام لنزول آيات السور جملة واحدة - أو أغلبها أو بعضها - غالبا الفكرة المركزية لها، أو الموضوعات الأساسية، «وهي ما كان يشغل القرآن والمسلمين وقت نزولها من المسائل والأحكام، حتى ندرك الرابطة بين موضوعاتها وموضوعات البيئة التي نزلت فيها»⁽³⁾.

ولعل من أبرز الشواهد على ذلك في تفسير دراز، ما أشار إليه من المناسبة التاريخية التي نزلت إبانها سورة النبأ، في تناسقها مع موضوع السورة الأساسي الذي هو: رد شبهات وتخططات المشركين في إنكار يوم البعث وأهواله.

وفي ذلك يقول دراز: «كان ميلاد الدعوة المحمدية صدمة قوية لعقول المشركين ومثارا لدهشتهم وعجبهم منها ومن كل شيء فيها... ولعل أكبر عجبهم من حديثه عن النشأة الآخرة وإعلانه أن الناس مبعوثون بعد موتهم...»⁽⁴⁾.

¹ المصدر نفسه، ص 155-156.

² مصدر سابق، ص 156.

³ المصدر نفسه، ص 156.

⁴ المصدر نفسه، ص 221.

وبعد أن يورد استفساراتهم من آيات القرآن المتنوعة، يربطها بموضوع السورة، فيقول: «بإزاء هذه التخبطات الفكرية أنزل الله سورة النبأ تعجبا وتهوينا من خوضهم، وإكبارا وتهديدا للشأن الذي يخوضون فيه». (1)

ثامنا: التناسب بين سورتين متجاورتين أو غير متجاورتين

وذلك إما أن تكون السورتان متجاورتين في الترتيب المصحفي، فيكون الارتباط بين خاتمة الأولى ومقدمة أو مطلع الثانية؛ وذلك كما في إظهار التناسب بين سورتي الفاتحة والبقرة في قوله: «فما هو إلا أن أعلن المؤمنون مطلبهم هنا قائلين «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»، وإذا بالقرآن يزف إليهم هديته وهدايته قائلا لهم: «دونكم الهدى الذي تطلبونه، فكانت أول كلمة في القرآن بعد الفاتحة هي «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» (2).

ومثل هذا أيضا بين سورتي الواقعة والحديد، والطور والنجم، والنجم والقمر، والقمر والرحمان (3)، وعبس والتكوير (4)، والملك والقلم، وذلك ما يسميه دراز بـ "نظام السلام" أو "أسلوب الحال المرتحل" (5).

وقد يكون الارتباط بينهما مطالعا وخاتمة، كما في التناسب بين سورتي الأحقاف ومحمد _ صلى الله عليه وسلم _ في قوله: -ردا على شبهات من أنكر الترتيب المصحفي-: «فليقرأ حضرته أول سورة محمد «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» [محمد/01].

وليقرأ صدر السورة التي قبلها إلى قوله: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [الأحقاف/05]، وليقل لنا: أين المفارقة بين هذين الحديثين؟ ثم ليقرأ في ختام سورة الأحقاف قوله تعالى: «بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ» [الأحقاف/35]، وفي ختام سورة محمد قوله تعالى: «وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ» [محمد/38]، ثم لينظر هل يرى أحسن من هذا تقابلا بين البدايتين وتوازنا بين النهايتين... (6) ثم يبين -بعد ذلك- أن

¹ المصدر نفسه، ص 222.

² مصدر سابق، ص 106.

³ المصدر نفسه، ص 55.

⁴ المصدر نفسه، ص 231، 189.

⁵ المصدر نفسه، ص 48.

⁶ المصدر نفسه، ص 49.

سورة محمد ___ صلى الله عليه وسلم ___ قد استقلت جميعا بالحديث عن موضوع القتال، وأن سورة الأحقاف قد مهلت له في خاتمها. (1)

ويسمى دراز هذا النوع من الارتباط بـ "التوازي والمحاذاة" (2).

وقد يكون هذا الارتباط بينهما -أيضا- مطالعا ومقاطعاً وموضوعات وخاتمة بأسلوب المقارنة والموازنة، قصد إبراز تميز كل سورة منهما بموضوع معين؛ وذلك كما في الموازنة بين سورتي يونس وهود من قوله: «هذا وجه الشبه بين السورتين،... فكلتاها قد بدأت بالعقائد الثلاث، وأردفت عليها القصص، وختمت بالخاتمة، فلنرجع البصر كرة أخرى لنعرف الفوارق بينهما» (3)، وذكر أن سورة يونس عاجلت العقائد في ثلاثة أرباعها، والرابع الأخير للقصص، في حين أن سورة هود اهتمت بالعقائد في سدسها، وخمسة أسداسها كانت للقصص، كما أن سورة يونس قد فصلت الحديث في قصة موسى عليه السلام وأوجزت قصة نوح عليه السلام، وعكست ذلك سورة هود. (4)

وبعد هذه المقارنة يخلص إلى قاعدة ذهبية هنا في قوله: «فإذا تكرر فصل منها في سورتين وجدته في إحداهما مفصلاً، ووجدته في الأخرى مجملاً وبالعكس؛ لأن ذكره في إحداهما جيء به قصداً وفي الأخرى عرضاً». (5)

وإما أن التناسب -أيضا- بينهما في الترتيب النزولي إضافة إلى ترتيبها المصحفي، كما في التناسب بين سورتي يونس وهود (6)، وبين القلم والعلق. (7)

تاسعا: التناسب بين فاصلة الآية وموضوع السورة.

و هذا وجه بديع، وارتباط دقيق بين أصغر وحدات السورة التركيبية، وبين النص كله كوحدة موضوعية للسورة القرآنية، تناسقا وائتلافا وإعجازا.

¹ المصدر نفسه، ص 55.

² المصدر نفسه، ص 55.

³ مصدر سابق، ص 27.

⁴ المصدر نفسه، ص 27-28.

⁵ المصدر نفسه، ص 28-29.

⁶ المصدر نفسه، ص 24.

⁷ المصدر نفسه، ص 189.

ولعل من أبرز شواهد هذا التناسب عند دراز، إظهاره الارتباط بين موضوع سورة الملك (التعريف بالله تعالى وصفاته الحسنى، ومصير الكافرين به)، وبين فواصل الآيات الأولى، والثانية، والثالثة عشر، والرابعة عشر، والتاسعة عشر على التوالي.

و من أقواله في ذلك قوله: «فأما من أدبر واستكبر فبأخذه الله باسمه "العزير المقتدر" الذي لا يمتنع شيء على قدرته، وأما من أقبل وأتاب فيتجلى الله عليه باسمه "الغفور"...»، وقوله: «وهكذا الشطر الثاني بيانا لصفة جديدة من الصفات الحسنى فوق صفات الملك والقدرة التي فصلها الشطر الأول، تلك هي صفة العلم والمراقبة الإلهية لشؤون الإنسان، ولا يخفى ما فيها من تميم وحسن مقابلة لمعاني الابتلاء والجزاء التي صدر بها السورة الآية (2)...»⁽¹⁾، وقوله: «لابد إذن أن يكون مطلعاً على دقائق الملك والملكوت محيطة بوجوه الأحكام والإتقان... وعلى الجملة بصير بالأسلوب الحكيم في كل صنعه فتبارك الله رب العالمين».⁽²⁾

عاشرا: التناسب بين وسط السورة وأطرافها.

ويبدو هذا واضحا في ربط دراز بين آية البر الجامعة في وسط سورة البقرة [الآية/177]، مع مقصدي الإيمان والإسلام، حيث شغل مقصد الإيمان الجناح الأول للسورة، في حين شغل مقصد الإسلام الجناح الثاني لها.

وليس الارتباط هنا عضويا كما سنعرف لاحقا⁽³⁾، ولكنه ارتباط بينهما في إطار موضوع السورة الجامع لهما؛ وفي ذلك يقول دراز: «نعم لقد تم إصلاح العقيدة التي هي روح الدين وجوهره، فليبدأ تفصيل الشريعة التي هي مظهر الدين وهيكله... وأنت فقد رأيت كيف مهدت السورة لهذا التحول؛ إذ وضعت برزخا يربط أطراف الحديث... ولو أنك تلفت الآن التفاتة يسيرة إلى جانبك، لرأيت أدنى هذا البرزخ إليك تلك الآية الجامعة (آية البر) التي انتظمت أصول الدعوة بشطريها: النظري، والعملية...».⁽⁴⁾

والعملية...».⁽⁴⁾

الحادي عشر: التناسب بين مقاصد السورة.

¹ المصدر نفسه، ص 189.

² مصدر سابق، ص 179.

³ أثناء الحديث عن حسن التخلص ضمن ملامح البحث عن الوحدة العضوية، من الفرع القادم، ص 364.

⁴ النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 258-259.

ويظهر هذا في الربط بين مقاصد الإيمان، الإسلام، والإحسان في سورة البقرة، وفي ذلك يقول دراز: «هكذا تناول البيان حتى الآن: 1- حقائق الإيمان. 2- شرائع الإسلام... هل بقي في بنية الدين شيء فوق هذه الأركان؟».

نعم، لقد بقيت ذروته العليا، وحليته الكبرى...

بعد الإيمان... و الإسلام... بقي الإحسان... مطلب عزيز لا يطبق الوفاء به كل مؤمن، ولا كل مسلم، وإنما يجرم حول حماة صفوة الصفوة من المتقين... وكأنه لعزة هذا المطلب ونفاسته صان الله درته اليتيمة في هذه الآية الواحدة، التي توج بها هامة السورة «وَأِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ» [البقرة/284].⁽¹⁾

الثاني عشر: التناسب بين الموضوعات الفرعية أو بينها وبين الموضوع الأساس.

و يظهر هذا جليا في الربط بين الموضوعات الخمسة للنظرية الأخلاقية، أو بينها وبين الفكرة المركزية التي تجمعها جميعا، في إطار تحقيق الوحدة الموضوعية للموضوع القرآني.

فمن أمثلة ذلك أنه كان يربط بينها بتلخيص للموضوع السابق، وطرح أسئلة وإشكاليات للبحث في الموضوع اللاحق؛ وذلك كما في قوله: «تتمثل العلاقة بين الإنسان والقانون لأعيننا في شكل حركة إقبال وإدبار، مكونة من ثلاثة أزمنة، ولقد كنا مع فكرة الإلزام ما نزال في نقطة البداية، ولكننا مع فكرة الجزاء، نجد أن دائرة هذه العلاقة الجدلية سوف تقفل، فهي الوحدة الأخيرة في ثالث، وهي أشبه بالكلمة الأخيرة في حوار».⁽²⁾

و من ذلك قوله أيضا: «وبعد أو وفقت الأخلاق القرآنية بين الاختلافات، وأجابت عن جميع المقتضيات المشروعة، على صعيد الجزاء، هل تبدو هذه الأخلاق لا مبالية في مجال "النية"، وذلك من وجهة نظر عرضنا للموضوع؟»

أتكفيها المطابقة المادية، أيا كان المبدأ الذي يلهمها، أو حتى في غيبة الشعور بالواجب كلية؟...
تلكم هي المسألة التي تواجهنا الآن بإلحاح، وهي ما خصصنا له الفصل التالي».⁽³⁾

¹ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 282.

² - دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، ص 245.

³ - المصدر نفسه، ص 417.

وقوله أيضا: «الآن وقد ميزنا بصورة كافية، بين عنصرين متميزين في البناء الأخلاقي هما: "النية"، و"العمل"، وبعد أن حددنا السورة المزدوج للنية، يبقى علينا أن نجلو الأهمية الفائقة للعنصر الثاني "العمل"، وهو السلاح الوحيد الهجومى والدفاعى في معركة الفضيلة».⁽¹⁾

فهذا ترابط تفرعى، منطقي، تكميلي، تفصيلي تلازمي بين هذه الموضوعات الفرعية، ومن أقواله في الترابط الاستنباطي بين الأفكار الثانوية والفكرة المركزية «بيد أننا لو بحثنا في مجال هذا النظام عن فكرة مركزية، عن الفضيلة الأم... فسوف نجدتها في مفهوم التقوى... وعلى هذا الصعيد يبدو لنا "الاحترام" في المركز بين شعورين متطرفين، يركبهما ويلطفهما: "الحب" و"الخوف"، ولما كان "الاحترام" ناتجا بصورة ما عن تزاوجهما فإنه يؤدي دورا مزدوجا، حين يستخدم كمحرك، ولحام في آن واحد، ويطلق عليه في جانبه الأخير بخاصة "الحياة"»⁽²⁾

الثالث عشر: التصنيف المكي والمدني، وموضوعات سورهما.

رأينا من قبل أن دراز اعتنى بالمكي والمدني كثيرا في دراسة الموضوعات القرآنية، من ناحيتي الإجمال والتفصيل، ووفقا لمقام التنزيل والتعليم.⁽³⁾

ورأى أن السور المكية والمدنية تتفق في موضوعات وتختلف في أخرى؛ فالأولى فصلت الحديث في موضوعات العقائد والسلوك، والقصص، والثانية منهما فصلت الحديث في موضوعات الفروع العملية، والأحكام التشريعية، وعالج بذلك موضوعات متعددة: كالقتال، والبخل، والسلم، وغيرها.

وقد حقق ذلك من خلال تصنيف الآيات القرآنية، المجموعة وفق منهج الإحصاء الناقص، وتقسيمها إلى مجموعتين رئيسيتين، يرمز للمجموعة الأولى برمز "أ"، والثانية برمز "ب"، ثم يتبع أفكارها المتسلسلة وفق النسق المنطقي، ليستنبط منها فكرتها المركزية، أو يصدق بها هذه الفكرة من بداية الدراسة إلى نهايتها.

فمن ذلك مثلا أنه درس قضية الجنة في القرآن ضمن موضوع الجزاء الإلهي وطرح افتراضا تساؤليا في بداية الدراسة عن ماهيتها ودرجاتها ونعيمها، ثم قسم آياتها المجموعة من القرآن إلى قسمين نسقين، المتع الروحية، ثم المتع الحسية.

¹ المصدر نفسه، ص 585.

² مصدر سابق، ص 681-682.

³ يراجع: منهجية في المكي والمدني، ص 208، وفي الموازنة بين السور المكية، ص 227 من هذه الرسالة.

سرد هذا المتع الروحية والحسية في آيات مكية ثم مدنية موضحة بعناوينها الموجزة، ليصل بعدها إلى كشف تماسك أجزائها ووحدة فكرتها. (1)

و في ذلك يقول: «اجمع الخطوط الثلاثة التي رسمناها عن الأرض والمبنى، والسكان، وضعها على الأساس الأخلاقي والروحي الذي عرضنا، من قبل، وحينئذ سوف تجد بين يدك اللوحة

القرآنية، عن حياة الفردوس...». (2)

كما أن معالم هذه المنهجية عنده، سلك أسلوب الموازنة بين سورتين مكيتين، كالموازنة بين سورتي يونس وهود، والتي عرفناها من قبل. (3)

الرابع عشر: اعتماد الإحصاء والاستقراء.

وقد عرفنا من قبل كيف كان يعول دراز كثيرا على منهج إحصاء الآيات القرآنية المندرجة ضمن فكرة واحدة، في تحقيق الانسجام التام، والنواة المركزية لتلك الموضوعات المدروسة، ففي الرجوع إلى ذلك الموضوع غنى عن إعادته وتكراره هنا. (4)

الفرع الثاني: الملامح العامة للوحدة العضوية عند محمد عبد الله دراز.

تتخذ الوحدة العضوية أشكالا ترابطية، وأنماطا ائتلافية، وملامح مغايرة عن نظيراتها للوحدة الموضوعية، التي عرفنا أنها تتعاقب مطالعها ومطالعها وخواتيمها بموضوع السورة الأساس، وفكرتها المركزية، أما هنا فإن الارتباط لا يتعلق بموضوع السورة، أكثر ما يتجلى في الارتباطات البيانية اللغوية، والمنطقية المعنوية بين آيات ومقاطع السورة الواجدة، وهذا ما تحقق فعلا عند دراز في تفسيره لسورة البقرة من كتابه "النبا العظيم"؛ فقد كان هدفه من ذلك كما قال أن يرينا هذه السورة الطويلة «سلسلة واحدة من

¹ ينظر: دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 368-387.

² مصدر سابق، ص 382.

³ يراجع: منهجه الموضوعي في الموازنة بين السور المكية والمدنية، ص 227 من هذه الرسالة.

⁴ يراجع: منهجه الموضوعي في اعتماد السياق والإحصاء، ص 232 من هذه الرسالة.

الفكر تتلاحق فيها الفصول والحلقات، ونسق واحد من البيان تتعاقب فيه الجمل والكلمات»⁽¹⁾، وأن يبرز «وحدة نظامها المعنوي»⁽²⁾.

وأن ذلك لا يعني محو الفوارق الطبيعية بين المعاني المختلفة داخلها؛ لأن ذلك يؤدي إلى إزالة «التداعي المعنوي والنظمي من بينها»⁽³⁾.

كما قدم -من قبل تفسيرها- وجوها من المناسبات الائتلافية الفرعية: كالمضدية، والتنظير، أو التفرغ، أو الاستشهاد، أو الاستنباط، أو التكميل، أو الاحتراس، أو التخلص أو إمالة الصيغ التركيبية بعضها على بعض وغير ذلك⁽⁴⁾، والمتمثلة فيما يلي:

أولاً: التناسب الفرعي الاستشهادي: ويظهر هذا في الارتباط بين الآيات الثلاثة الأولى لسورة البقرة، وذلك في قوله: «وألحقت بهذه الأحرف الثلاثة، جمل ثلاث: أما أولاهن فإعلان للسامع أن ما سيتلى عليه الآن هو خير كتاب أخرج للناس... وأما الأخريان فيدعمان هذا الحكم بالحجة والبرهان»⁽⁵⁾.

ثم قال -بعد ذلك-: «هكذا كان موقع هذه الجمل الثلاث بعد تلك الأحرف الثلاثة موقع التنويه بالمقصود بعد التنبيه إليه»⁽⁶⁾.

ثانياً: التناسب الاستطرادي التكميلي: وذلك في كيفية الانتقال من الحديث عن الكتاب إلى الحديث عن الناس، وفي ذلك يقول دراز: «عمد إلى الطائفة الأولى فجعل الحديث عنها من تمام الحديث عن هداية القرآن نفسه قائلاً: «إنه هدى للمتقين»⁽²⁾ الذي يؤمنون» فكانت هذه "اللام الجارة" هي المعبرة السرية التي انزلت عليها الكلام وانصب انصباباً واحداً إلى نهاية الحديث عن المؤمنين»⁽⁷⁾.

¹ -النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 191.

² -المصدر نفسه، ص 191.

³ -المصدر نفسه، ص 194.

⁴ -مصدر سابق، ص 194-195.

⁵ -المصدر نفسه، ص 198.

⁶ -المصدر نفسه، ص 198-199.

⁷ -المصدر نفسه، ص 199.

ثالثا: التناسب الاستثنائي: ويظهر ذلك في كيفية الانتقال من الحديث عن المؤمنين إلى الحديث عن الكافرين، وذلك في قوله: «هكذا انتقل الحديث... لا على وجه اقتران الحديثين في القصد أول الأمر، إذا العطف أحدهما على الآخر، بل على وجه يبني فيه بعض الكلام بعض، إجابة لهذا السؤال الذي نطقت به الحال⁽¹⁾، وإزالة لذلك التعجب الذي أثاره سابق المقال». (2)

ويسمي دراز هذا الوجه من التناسب بالاستئناف البياني.

رابعا: التناسب البدلي التكميلي: وذلك في الانتقال في الحديث من الكافرين إلى المنافقين، وذلك يقول دراز: «وجرى الحديث عن هؤلاء إلى نهايته، فانظم الشكل إلى شكله، وعطفت الطائفة الثالثة على أختها؛ لأنهم في التجاني عن الهدى مشتركون». (3)

خامسا: التناسب الاستشهادي: ويظهر في ضرب القرآن الأمثال للمؤمنين من جهة، والكافرين والمنافقين من جهة أخرى، وفي ذلك يقول دراز: «على أن هذه الأوصاف التحقيقية لم تكن وحدها لتشفي النفس من العجب من أمرهم؛ فالعهد بالناس أنهم إنما يختلفون في الأمور الغامضة لا في الحقائق البينة، فاختلاف هؤلاء في شأن القرآن على وضوحه يعد شاذًا عن العادات الجارية، محتاجًا إلى وصف تمثيلي يقربه من المشاهد المحس... لذلك ضرب الله لكلمات الطائفتين مثالًا يناسبها». (4)

سادسا: التناسب التفريعي المنطقي: وذلك في حديث القرآن عن أركان العقيدة الثلاثة (الألوهية، الرسالة، المعاد) في الآيات (21-25)، وذلك في قوله: «هذه المطالب الثلاثة هي الأركان الثلاثة للعقيدة الإسلامية، تراها قد بسطت مرتبة على ترتيبها الطبيعي من المبدأ إلى الواسطة إلى الغاية...». (5)

سابعًا: التناسب الاستنباطي: وذلك في الانتقال من الحديث عن هذه العقائد الثلاثة إلى الحديث عن هداية القرآن فيها؛ إذ يقول في ذلك: «وهكذا انساق الحديث من ذكر هذه النماذج

¹ والسؤال تقديره: لم لا تنفذ حقائق القرآن إلى كل من يسمعا؟.

² المصدر نفسه، ص 200.

³ مصدر سابق، 200.

⁴ المصدر نفسه، 202.

⁵ المصدر نفسه، 208.

المتفاوتة إلى استنباط القاعدة الكلية منها، ببيان أن هذه هي طريقة القرآن في هدايته، فهو يضرب الأمثال كلها، ويبيّن الحقائق حلوها ومرها...»⁽¹⁾.

ثامنا: التناسب التفصيلي: ويظهر هذا في تفصيل معان كانت قد أجملت من قبل، كرجوع النظم إلى الحديث عن العقائد الثلاثة (من الآية 28 إلى الآية 39)، يقول دراز: «أما في الركن الأول فقد سمعته هناك يأمر بعبادة الله، وتسمعه هنا ينهى عن الكفر به، وهناك ذكرهم بنعمة إيجادهم مجملة، وهنا يذكرهم بها مفصلة...»

وأما في الركن الثاني فقد ذكر هناك نبوة هذا النبي الخاتم _ صلى الله عليه وسلم _ وهنا يذكر نبوة ذلك النبي الأول آدم، لنعلم أن نبينا لم يكن بدعا من الرسل...

وأما في الركن الثالث، فقد رأيت هناك يصف الجنة والنار بما لهما من وصف رائع أو مروع، وتراه هنا يكتفي عن وصفهما بذكر اسمهما، وتعيين أهلهما...»⁽²⁾.

ومن هذا أيضا تفصيل الحديث عن بني إسرائيل في آيات عديدة من السورة [من الآية 49 إلى الآية 161]، بعد أن أجمل ذكرهم من قبل في الآية 40.⁽³⁾

و من هذا أيضا تفصيل شرائع الإسلام بعد أن ذكرها مجملة في آية البر.⁽⁴⁾

تاسعا: التناسب من حيث التمهيد أو حسن التخلص.

حيث يمهد بتمهيد فيه استرواحة وتعميد الطريق للانتقال بين مقصدين متباعدين، كما يتخلص أيضا بين قضيتين متتاليتين بحرف أو جملة لغوية.

فمن أمثلة التمهيد عنده الفصل بين الحديث عن بني إسرائيل إلى تفصيل الشرائع الإسلامية بمدخل مكون من خمس عشرة آية (163-177)، قرر فيها وحدة الخالق المعبود، ووحدة الأمر المطاع، وإجمال الشرائع الدينية، وفي ذلك يقول: «لكن القرآن... لم يشأ أن يهجم على المقصود مكتفيا بهذا

¹ المصدر نفسه، 201-211.

² مصدر سابق، ص 211-212.

³ المصدر نفسه، ص 221-222.

⁴ المصدر نفسه، ص 247-248.

التمهيد، بل أراد أن يقدم بين يديه شقة تستجم النفس فيها من ذلك السفر البعيد، وتأخذ أهبتهما لرحلة أخرى إلى ذلك المقصد الجديد»⁽¹⁾.

و من أمثلة حسن التخلص عنده الربط بين مقصدي الإيمان والإسلام، في قوله: «انظر إلى حسن التخلص في ربطه بين المقصد القديم، والمقصد الجديد على وجه به يتصلان لفظاً، وبه ينفصلان حكماً... فهو في جمعها لفظاً كأنه يضع إحدى قدميك عند آخر الماضي، وثانيهما عند أول المستقبل، ولكنه في تفريقها حكماً بأداتي النفي والاستدراك كأنما يحول قدميك جميعاً إلى الأمام...»⁽²⁾.

عاشراً: التناسب النظائري التقابلي.

أي: أنه يقابل بين النظائر والأشبهاء مقاطعاً ومقاصد وآيات؛ فمن أبرز شواهد ذلك إبراز نظائر خصلتي الصبر، والوفاء بالعهد التطبيقية في موضوعات تشريعية من السورة: كالقصاص، والصيام، والجهاد، والحج، وشؤون الأسرة، والمجتمع.⁽³⁾

ومن هذا أيضاً المقابلة بين النهي عن التحليل والتحرير بالأهواء بعد التوحيد في الآية 173 مع الأمر بالتوجه إلى القبلة في قصة إبراهيم عليه السلام؛ إذ قال في ذلك: «ومما زاد موقعه هنا حسناً أن مجيئه في سياق ذكر التوحيد وقع عدلاً لمجيء حكم القبلة في سياق ذكر ملة إبراهيم، فكلاهما فرع عظيم يتصل بأصل عظيم»⁽⁴⁾.

الحادي عشر: التناسب الاحتراسي.

وذلك بأن تذكر تبعات المقصد أو الموضوع التي يمكن الاستغناء عنها، ولكن ذلك يؤدي إلى خلل في الكلام، أو شطط في الفهم، أو أن ذكره يكون مخرجاً لانسداد الكلام، أو لوقوع أزمت تنظر المخرج.

¹ المصدر نفسه، ص 241.

² المصدر نفسه، ص 247.

³ مصدر سابق، ص 259-270.

⁴ المصدر نفسه، ص 246.

وهذا ما ربط به دراز بين الحديث عن الصلاة والحديث عن الجهاد؛ وذلك في قوله: «إن الحديث يعود الآن إلى شأن الجهاد، وإن الخطاب هنا بالصلاة وغيرها يتوجه إلى المجاهدين من حيث هم مجاهدون، ليحل المشاكل التي يثيرها موقف الجهاد نفسه قبل أن يوجه إليهم الأمر الصريح بالقتال»⁽¹⁾، وذكر بعض المشاكل أثناء الحرب.

هذا ويسمي دراز الانتقال هنا بـ "حسن التلطف"؛ إذ رأى للصلاة هنا فائدة هندسية، قبل الجهاد وأثناء وبعده، فقد احتسب بهذه الفوائد لينفي بها شبهة الاقتضاب⁽²⁾ في الانتقال إلى الصلاة.⁽³⁾

الثاني عشر: التناسب بالمنهج التعليمي.

الذي يؤدي عملية الانتقال بين مقصدين فأكثر عن طريق الأسئلة والأجوبة المتتابعة، ويسمى أيضا بالاستطرادي؛ فمن ذلك أنه تأمل علاج القرآن للشؤون الأسرية بعد الإنفاق والجهاد، فرأى كما قال: «هل يصعد القرآن بنا توا إلى تفصيل هذه الشؤون المنزلية المشتبكة المتشعبة؟ كلا إن هذا البيان التربوي الحكيم لن يهجم بنا عليها دفعة، ولكنه يستلطف في الوصول بنا إليها على معرج من الأسئلة والأجوبة، تتصل أوائلها بالأحكام الماضية: الإنفاق والجهاد (215-218)، وتتصل أواخرها بالأحكام التالية: مخالطة اليتامى، وشرائط المصاهرة، وموانع المباشرة (220-237) حيث نتلقى في شأن الحياة الزوجية دستورا حكيما...»⁽⁴⁾.

الثالث عشر: التناسب التضادي.

كالانتقال من الحديث عن الإنفاق والسخاء إلى الحديث عن الربا والجشع، وفي ذلك يقول: «وكان هذا الاقتران بينهما في البيان إبرازاً لمدى الافتراق بين قيمتهما في حكم الضمائر الحية...»⁽⁵⁾

الرابع عشر: التناسب بإمالة الصيغ بعضها على بعض.

¹ المصدر نفسه، ص 277.

² الاقتضاب هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ابن القيم الجوزية، ص 140.

³ النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 277.

⁴ مصدر سابق، ص 269.

⁵ المصدر نفسه، ص 281.

ويكون ذلك بأوضاع لغوية معينة، تجعل من النظم مطواعا ومرنا لإيجاد انسجام منطقي، وائتلاف عضوي بين مقاطع أو مقاصد أو أجزاء أو آيات من السورة الواحدة؛ فمن ذلك ربطه بين قواعد الإيمان في آية البر الجامعة مع قواعد الشرائع الإسلامية ومجالاتها المتعددة، وفي ذلك يقول: «فتراه هنا يجمع بين الطرفين "الإيمان بالله واليوم الآخر"، وختم بالواسطة "الإيمان بالملائكة والكتاب والنبين"؛ ذلك لأن من هذه الوسائط تعرف الأحكام الشرعية... فأحرها لتتصل بما تلك الأحكام... ومن هنا اتصل ببيان تلك الشرائع التي وصلت إليها عن طريق النبوة».⁽¹⁾

وتكاد أغلب هذه الوجوه الارتباطية، والتعلقات التناسبية تتكرر في الوحدة العضوية المتحققة في الموضوع القرآني، أي: في موضوع النظرية الأخلاقية القرآنية، خاصة وجوه: التفريع والتكميل والتفصيل والاستطراد والاستشهاد للموضوعات الخمسة المكونة للنظرية الأخلاقية، أو حتى لموضوعاتها التفصيلية، وعناوينها الفرعية، والتي شكلت بالتامها وتناسقها مع بعضها البعض وحدة بنائية لا تقبل الانفصام، أو أنها كما قال دراز "تركيب لتراكيب"⁽²⁾ وأنها أيضا «بناء عضوي حقيقي تتعاون فيه كل العناصر، وتتساند كل الوظائف».⁽³⁾

وقد علمنا أن هذه الارتباطات العضوية قد خضعت للنظام المنطقي، والمنهج التعليمي (قاعدة التعليم كما يسميها دراز)، اللذين التزمهما دراز في تحقيق روح قرابة بين عناصر النظام الأخلاقي (وحدة أولى عضوية)، ثم في تحقيق تسلسل الأفكار فيما بينها، واشتركا في فكرة مركزية (وحدة ثانية موضوعية).

فمن أمثلة التناسب التفرعي المنطقي، العلاقة بين عناصر الإلزام، المسؤولية، والجزاء بهذا الترتيب المقصود؛ إذ قال دراز - في إظهار أولوية الإلزام على العنصرين الآخرين - : «يستند أي مذهب أخلاقي جدير بهذا الاسم - في نهاية الأمر - على فكرة الإلزام L'obligation، فهو القاعدة الأساسية، والمدار، والعنصر النووي الذي يدور حوله كل النظام الأخلاقي».⁽⁴⁾

ثم بين - وجه التناسب التفرعي - فقال: «يرتبط بفكرة الإلزام، ناتجان يستلزم أحدهما الآخر بدوره، ويؤيده ويدعمه هما: فكرة المسؤولية، وفكرة الجزاء، والواقع أن هذه الأفكار الثلاثة يأخذ بعضها

¹ المصدر نفسه، ص 248.

² دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 686.

³ المصدر نفسه، ص 686.

⁴ المصدر نفسه، ص 21.

بمحز بعض، ولا تقبل الانفصام، فإذا ما وجدت الأولى تتابعت الأخريات على إثرها، وإذا اختفت، ذهبنا على الفور في أعقابها»⁽¹⁾.

ومن أمثلة التناسب التفصيلي مثلاً للموضوعات التفصيلية، تفصيل مفهوم النية السيئة التي تكون منحرفة وغير متطابقة مع قصد المشرع؛ فقد فصلها إلى أهم أنواعها ومجالاتها: نية الإضرار، ونية التهرب من الواجب، ونية الحصول على كسب غير مشروع، ونية إرضاء الناس (الرياء)⁽²⁾.

ونختم هنا بمثال للتناسب التضادي، الربط بين صور النعيم في الجنة وبين صور العذاب في النار، لتجلية الجزاء الإلهي الأخروي، وفي ذلك يقول دراز: «بيد أن القرآن يصف بالتفصيل حياة أهل الجنة، وأهل النار بعد البعث، ولسوف نرى في هذا الوصف كيف يسير بين مقام الطائعين ومقام العاصين جليلة لدرجة أن من الممكن أن نكون هذه الصورة...»⁽³⁾.

¹ المصدر نفسه، ص 136.

² المصدر نفسه، ص 546.

³ مصدر سابق، ص 388.

المبحث الثالث: تقييم وتقويم منهج محمد عبد الله دراز في قضايا التفسير الموضوعي.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: في حقيقة التفسير الموضوعي وقضاياها الأساسية.

المطلب الثاني: في منهجية البحث في التفسير الموضوعي وتطبيقاته وأهدافه العامة.

المطلب الثالث: في حقيقة الوحدة الموضوعية وقضاياها الأساسية.

المطلب الرابع: في منهجية البحث في الوحدة الموضوعية وتطبيقاتها.

المطلب الأول: في حقيقة التفسير الموضوعي وقضاياه الأساسية.

كانت لدراز جهود معتبرة وآراء مفصلة، حاول من خلالها أن يؤصل للتفسير الموضوعي، وأن يكشف بها عن حقيقته وماهيته، وأن يفصل معالمه وحدوده، كما كانت له -أيضا- منهجية مرحلية، وخطة تفصيلية اتبعها في نماذجه التطبيقية للموضوعات القرآنية أو للسور القرآنية، وإن كان لم يصرح بها أقوالا ونصوصا.

وكل هذه الجهود والآراء، والمنهجيات والتطبيقات تستدعي وقفة علمية ونقدية لتقييم إيجابياتها وتمييزها، ثم لتقويم سلبياتها وتصحيحها حتى تدرك بذلك قيمة الجهود، ووزن المنهج العلمي الذي اختطه دراز في دراساته الفكرية ضمن إطار التفسير الموضوعي.

الفرع الأول: في مفهوم التفسير الموضوعي.

قدم دراز مفاهيم كثيرة، ومتنوعة للتفسير الموضوعي، حيث يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أصناف: آراء موافق عليها، وأخرى مخالف فيها، وثالثة أخيرة إبداعية تجديدية.

اتفقت رؤية دراز مع آراء الدارسين المعاصرين أن في القرآن الكريم موضوعات عقائدية وفكرية واجتماعية وفقهية وغيرها، قد تناثرت في السور القرآنية المتعددة النزول، وقد امتزجت هذه الموضوعات داخل السورة الواحدة لحكم وغايات نظرية وعملية ذكرت عندهم⁽¹⁾، وما على المفسر -بعد ذلك- إلا أن يتأمل مليا في تجميع عناصر الواحد من سور القرآن المتفرقة، وذلك كما قال دراز عن موضوع مصير الإنسان: «وإن دراسة مثل هذا الموضوع لجديرة أن يخصص لها عمل مستقل»⁽²⁾.

كما اتفقت معه أيضا هذه الدراسات المعاصرة أن هذه الموضوعات المتنوعة متعلقة بحياة الناس وانشغالهم المتكررة، ليسعى القرآن -بعد ذلك- إلى علاج مشكلاتها، وتصحيح أخطائها، وتقرير بدائلها.

¹ يراجع مثلا: المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، ص 12-13، والتفسير بشأنه، تدرجه، تطوره: أمين الخولي، ص 73-81، والمدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 24-27، والبدائية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرمواوي، ص 39، وما بعدها وغيرهم.

² دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 15.

يقول أحمد الشرباصي: «إن ما عرضه القرآن من موضوعات يعتبر بحق عمدا قوية في بناء الأمة ونهضتها، وبها يطمئن الناس إلى أن القرآن ليس بعيدا عن حياتهم»⁽¹⁾، كما طرح أيضا جملة من الآراء والمفاهيم تحتاج إلى وقفة تأملية موجزة وأهمها:

أ التفسير الموضوعي بين العلمية أو المنهج:

فقد عرفنا من قبل أن دراز يرى في هذا الضرب من التفسير منهجا أكثر سلامة، من المناهج السابقة عليه؛ ذلك أنه يركن إلى تصور جديد برؤية شمولية ونظرة كلية، يتخذ النص القرآني أصلا له في الموضوعات التي يعرضها عليه، ويبحث في ذلك إلى آلية منهجية متمثلة في جمع النصوص والآيات القرآنية التي عاجلت عناصر الموضوع الواحد المراد دراسته، وذلك بعد إحصائها واستقراء مواضعها من سور القرآن الكريم، من أجل استخراج المبادئ القرآنية، وصياغة الحقائق والمفاهيم والمواقف والتصورات النهائية، أو ما يسميها بـ "النظرية القرآنية".

وقد رأينا من قبل اتفاق أغلب الدارسين على هذا الوصف والاتجاه، حتى الذين أثبتوا له العلمية كوصف مستقل، رأوا بأنه يستند إلى قواعد الجمع والحصر والاستقراء والتصنيف والتحليل والتركيب، وهي معالم أو إجراءات تحقق وصف المنهج.⁽²⁾

ولم يخرج على هذا الإجماع إلا بعض الآراء النادرة والضعيفة، والتي جازمت أن التفسير الموضوعي إنما هو طريقة خاصة في النظر وتفسير القرآن الكريم.⁽³⁾

ولعل ذلك يرجع إلى الاختلاف في تحديد مفهوم المنهج، خاصة وأنه لم يعرف علماء المسلمين اصطلاح "المنهج" بمعنى «جملة القواعد العامة المصوغة من أجل الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها في فرع من فروع المعرفة»⁽⁴⁾، إلا في العصر الحديث، ولكنه كان مستخدما بمعان متعددة هي أقرب إلى معناه اللغوي⁽⁵⁾؛ فقد استخدم بمعنى الطريق الواضح⁽⁶⁾، أو أسلوب الشاعر أو الكاتب.⁽⁷⁾

¹ منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 21.

² وذلك في المطلب الثاني من المبحث الأول ضمن الفصل الأول لهذه الرسالة، ص 67

³ وذلك في نفس العنصر من هذه الرسالة، ص 71.

⁴ مناهج البحث العلمي: عبد الرحمان بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط3، 1977م، ص 05.

⁵ المنهج مشتق من نهج: يقال: طريق نهج، بين واضح، ينظر مادة نهج من لسان العرب.

⁶ المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ط، دار المعرفة، ص 508.

⁷ منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: سامر عبد الرحمان رشواني، ص 32.

ب - أصول التفسير الموضوعي:

وقد أكد دراز -مرارا- أن التفسير الموضوعي يرتكز إلى الرؤية الشمولية، والنظرة الكلية، سواء ذلك للموضوعات القرآنية المدروسة، أو لمحور السورة العام، لينشأ عنها -بعد ذلك- التصور الواضح لأبعاد الدراسة النصية والدلالية على مستوى القاعدة الفكرية في كلا المستويين: مستوى الموضوعات القرآنية المضبوطة بالإطار المعرفي أو الفلسفي أو النفسي، والذي يحدد وجهة النصوص القرآنية وأهدافها، ثم على مستوى السورة القرآنية المضبوطة بالرؤية الكلية لمحورها العام.

وهذا عين ما طرحته الدراسات المعاصرة، وأكدت عليه، كأصل أصيل، وركن ركين تتضح به معالم التفسير الموضوعي كمنهج مستقل مغاير للمناهج الأخرى⁽¹⁾.

غير أن جل هذه الدراسات قد اقتصررت في ذلك على مستوى السورة القرآنية، ولم تشر صراحة إلى النظرة الكلية الفكرية للموضوعات القرآنية، إلا ما أشار إليه زياد الدغامين من تحقق هذه النظرة من ملاحظة البعد التاريخي والبيئي، ثم البعد المعرفي لتصنيف الموضوع المراد دراسته⁽²⁾، أو ما ميزه أحمد رحماني كخاصية من خصائص التفسير الموضوعي والمتمثل في الفكرة المهيمنة المسبقة، أو ما جعله إحدى المراحل المنهجية المهمة لهذا المنهج التفسيري، والمتمثل في وضع الموضوع في إطاره المعرفي أو النفسي أو غيرهما⁽³⁾.

وقد أبدع دراز هنا في طرح فكرة الخطة المسبقة، والتخطيط الهيكلي الكلي والذي جعله مفهوما ملازما للرؤية الكلية، والنظرة الشمولية، سواء للموضوع القرآني في خطته الهيكلية المتواجدة سلفا، والتي نتج عنها نزول السور على حسب النزول، ووفق ما يسميه دراز بمقام التنزيل والتعليم⁽⁴⁾؛ فموضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الإنسانية أو الكونية متممة بنسق فكري كلي سابق على نزول سور القرآن، وارتباطها بأحداثها.

¹ يراجع: التفسير الموضوعي نشأته، تدرجه، تطوره: أمين الخولي، ص 85، ومنهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 41-42، 134، ومباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 41، والتفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 60-61 وغيرها.

² منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 41-42.

³ التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 49-60 وغيرها.

⁴ حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 51.

كما أن هذه الخطة الهيكلية متعلقة أيضا بالسورة القرآنية، والتي -من خلالها- تجاوزت الآيات في نظم واحد، رغم تنوع موضوعاتها، واختلاف زمن نزولها، والتي من خلالها تتم الارتباطات وتتحقق التناسبات بين آيات السور بأدق وأجمل صورة، ولعله لم يشير إلى هذا المفهوم الدقيق الذي طرحه دراز إلا محمد محمود حجازي في كتابه "الوحدة الموضوعية في القرآني الكريم"، كما في قوله: «كأن هذه الآية نقلت من مكان معلوم برقم معلوم لتوضع في مكانها المعروف».⁽¹⁾

وغالب الظن أنه قد تأثر بدراز في ذلك؛ خاصة وأن هذه الآراء والتحليلات لم تكن بعيدة عن اعترافه وتأثره بصنيع دراز في تفسيره لسورة البقرة.⁽²⁾

ومن أسس التفسير الموضوعي وأصوله عند دراز ارتكازه على مفهوم النظام المنطقي أو الأساس النسقي في دراسة موضوعات القرآن الكريم؛ فالنظام المنطقي تصور ذهني شمولي ذو قواعد نسقية ترابطية، تضبط حركية الأفكار المدروسة في تسلسل ذهني ومرحلية فكرية تراتبية، فتصنف ضمن هذا النسق الترابطي الموضوعات والأفكار التي ترتبط بمضمونه وحدوده، كما تبعد من الدائرة النسقية الموضوعات والأفكار الأخرى، والنظام المنطقي بهذا غير النظر الكلي والرؤية الشمولية للموضوعات أو للسور القرآنية، والذي يتعلق بالتصور الذهني المسبق على الدراسة والتحليل والتركيب المنهجي، دون أن يضبط الهيكل النسقي الذي تتموقع فيه الأفكار والموضوعات آليا وتسلسلا أولويا.

غير أن دراز نوه في مقدمة كتابه "الدستور" بأن ذلك أصل ضابط في دراسته الأخلاق العملية في القرآن، كما هو ظاهر قوله، وحديثه عن الجانب العملي للأخلاق⁽³⁾، وهذا موهم بالاختلاف والإشكال؛ لأن هذا النظام المنطقي سار أيضا حتى على الجانب النظري الذي لم يذكره ضمنه، أي: أن فصول الموضوعات الأخلاقية الخمسة (الإلزام، المسؤولية، الواجب، النية، الجهد)، مقسمة إلى فصول مرتبة قصدا ترتيبا أوليا وفق قواعد هذا النظام المنطقي النسقي، كما رتب ضمنها موضوعات كثيرة بحسب نوع العلاقة الرابطة بينها، المرتبطة أيضا بالقواعد المنطقية النسقية.

¹ الوحدة الموضوعية في القرآني الكريم: محمد محمود حجازي، ص 58.

² المصدر نفسه، ص 47-48.

³ دستور الأخلاق في القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 10.

كما مر بنا من قبل -أيضا- أن هذا النظام المنطقي لا يتعد كثيرا عن النظام الأبجدي للمفاهيم المعروف عن جون لايوم وغيره؛ فالقاعدة المنظمة للموضوعات أو النصوص، والعلاقات الرابطة بينها تكاد تكون موحدة في كلا النظامين.⁽¹⁾

ولعل النظام المنطقي -في نظر دراز- يقترب إلى مفهوم الخطة الهيكلية المسبقة التي رتب وفقها عناصر الموضوعات بنصوصها القرآنية، وهذا ما أشار إليه عبد الستار سعيد أثناء رده على شبهة القول أن الجمع الموضوعي استدراك على الله تعالى؛ الذي لو شاء لأنزل قرآنه بهذا الجمع الموضوعي، فقال: «فالجواب: أن الله تعالى جعل القرآن موضوعات محددة مرتبة من أول الأمر... فيجمع موضوعيا من سوره، للدراسة، لا للتلاوة».⁽²⁾

هذا ولم تفصل الدراسات المعاصرة في طبيعة هذا النظام المنطقي للموضوعات أو السور، إلا ما أشاروا إليه من أهمية الإدراك الكلي للقرآن⁽³⁾، وقليل منهم من أشار إلى شمولية هذا النظام النسقي لعناصر الموضوع، أو موضوعات السورة القرآنية.

فمن ذلك قول أحمد رحماني - عن الإدراك الكلي -: «فهو يبحث في أعماق النص من خلال موضوع محدد ليكشف الجدول الإحصائي للموضوعات الجزئية المتعلقة بالموضوع الرئيسي في السورة أو في القرآن، وليكتشف في الوقت نفسه البنية التي تتعاقب فيها هذه الموضوعات المتفرعة عنه».⁽⁴⁾

و من الأسس والأصول العامة التي يتحقق بها التفسير الموضوعي فكرة الوحدة الموضوعية الكلية للقرآن، وذلك باتفاق الدارسين قديما وحديثا.⁽⁵⁾

ج - مفهوم التفسير الموضوعي:

لم يقدم دراز لنا تعريفا جامعا مانعا للتفسير الموضوعي، يحدد لنا فيه معالمه، ومنهجيته، وأهدافه باختصار، وإنما طرح ركائز مفاهيمية له منشورة في مقدمة كتابه "الدستور" و"النبأ" خاصة؛ فأشار أولا إلى قضية المنهج فيه من خلال الحثيات المنهجية له، والمتمثلة في الجمع والاستقراء، والربط أو التناسب،

¹ كما مر بنا في العنصر الأول للمبحث الأول من هذا الفصل الأخير، ص 271.

² المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 92.

³ يراجع مثلا: البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 56، ومنهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 42، 134، ومباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 41.

⁴ التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 51.

⁵ كالشاطبي والبقاعي وعبد الحميد الفراهي، وأمين الخولي وغيرهم كثير.

والتصنيف، وهذا ما أشارت إليه أغلب الدراسات المعاصرة، و التي عرفت التفسير الموضوعي باعتبار المنهج⁽¹⁾.

كما أشار دراز أيضا إلى فكرة المفهوم أيضا، وذلك حينما أوضح مبدأ التفسير الموضوعين ثم محله، ثم غايته، في مقدمة كتابه "الدستور"؛ فالمبدأ ينطلق من النظر الكلي والخطة المفصلة والنظام المنطقي والوحدة العامة أو ما يعرف بـ "أصول التفسير الموضوعي"⁽²⁾، والمحل يتمثل في النصوص القرآنية المجموعة، ثم المدروسة بالحديث المنهجية السالفة الذكر، ثم يختم المفهوم بذكر الغايات والمقاصد، والتي أجلاها دراز بمصطلحاتها ومعالمها ومجالاتها المتنوعة.

وهذا ما تناثر في مؤلفات أخرى معاصرة، ونص عليه أعلام كثير، كمحمود حجازي⁽³⁾، وعبد الجليل عبد الرحيم⁽⁴⁾، ومحمد باقر الصدر⁽⁵⁾، ومصطفى مسلم⁽⁶⁾، وغيرهم.

إذن يقوم مفهوم التفسير الموضوعي بهذا على عنصرين رئيسيين:

الأول: المنهج الخاص به في دراسة النصوص القرآنية على نسق خاص، ورؤية كلية.

الثاني: تحديد الأبعاد الثلاثة لحقيقته وماهيته وهي: المبدأ والمحل، والغايات.

وهذا العنصر الثاني ينحصر بذاته في فكرتين أساسيتين: الكلية في النظر والرؤية، والقضية أو الموضوع، وهو المتمثل في المعاني والأفكار المنبثقة عن الآيات القرآنية⁽⁷⁾.

ومن المفاهيم الأساسية التي أبرزها دراز للتفسير الموضوعي تحديد طبيعته العملية التفسيرية هنا؛ إذ تنأى عن التحليل المفصل، أو تفسير كل آيات السور ومفرداتها وتراكيبها؛ وإنما يفسر من الآيات، ويحلل من التراكيب، ويشرح من المفردات ما يتعلق بمعاني وأفكار الموضوعات الجزئية، أو الموضوع الأساسي بطريقة مباشرة، وهذا المفهوم المنهجي يتعلق بمفهوم القضية أو الموضوع المنبثق من الآيات.

¹ يراجع: دراسات في القرآن الكريم التفسير الموضوعي: محمد عبد السلام، درا الفكر الإسلامي، القاهرة، ط2، 1987م، ص 22، والبداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 41، والمدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 21 وغيرهم.

² منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (دراسة نقدية): سامر عبد الرحمن رشواني، ص 75.

³ الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد محمود حجازي، ص 31.

⁴ التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم، ص 39/1.

⁵ المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، ص 12-13.

⁶ مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 16.

⁷ التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحمان، ص 51.

د خصائص التفسير الموضوعي:

أشارت بعض الدراسات المعاصرة إلى خصائص عدة يقوم بها مفهوم التفسير الموضوعي وأهمها: الفكرة المهيمنة فيه، وتركيب الآيات القرآنية في إطار جديد، أو الموضوعات الجزئية في إطار الموضوع الكلي، وإبراز العلاقة بين النص والواقع بدءاً وانتهاءً، ثم تسجيل النتائج⁽¹⁾، وهذه خصائص فكرية ومفهوماتية.

أما عن الخصائص الأخرى المتمثلة في اكتشاف البنيات والعلاقات، والالتزام بالموضوع الواحد، والإدراك الكلي، فهي خصائص منهجية تصلح أن تدرج ضمن قواعد ومنطلقات التفسير الموضوعي للخاصيتين الأوليتين، وأن تدرج أيضاً ضمن أصول التفسير الموضوعي، وذلك ينطبق على الخاصية الأخيرة من هذه الخصائص الثلاثة المذكورة آنفاً.

فهل تحققت هذه الخصائص المفهوماتية والفكرية في نظر دراز لمفهوم وحقيقة التفسير الموضوعي؟

يظهر أن بعض هذه الخصائص كان واضحاً جلياً في تحليلات دراز التفسيرية؛ إذ قد أُلح دراز على ضرورة تحقيق وصف التركيبية والإطار الجديد الناتج عنها من أجل إنجاح التفسير الموضوعي؛ فلا تكفي في ذلك عملية التجميع لوحدها لتأسيس النظر الموضوعي—وهذا ما وقعت فيه الدراسات الاستشراقية والعربية التي انتقدها دراز—؛ وإنما لا بد من إفادة الإطار الجديد الذي يتحقق عند دراز من خلال إيجاد روح القرابة، والتسلسل المنطقي، بين الموضوعات أو الجزئيات، ثم من خلال استنباط الصور الكاملة، وإعلاء البناء القرآني كاملاً في جميع موضوعاته المطروحة عليه، وكذلك الحال متعلق ومتحقق بتسجيل النتائج؛ إذ يمثل ذلك مفهوم الغايات التي يركز عليها التأصيل المعرفي لحقيقة التفسير الموضوعي.

وأما عن علاقة الواقع بالنص القرآني وحركته الموضوعاتية نحوه، فهذا ما اتفقت عليه أغلب الدراسات المعاصرة—إن لم نقل كلها⁽²⁾، وقد بدأ هذا واضحاً عند دراز في دراسته الأخلاق القرآنية في إطار المنهج الاستقرائي والإحصائي المقارن للجانب النظري من كتابه "الدستور"، ولكنه—من جهة أخرى—رأى أن القرآن الكريم لم يقتصر على تصحيح التجارب البشرية المعروضة عليه—كما فعل دراز

¹ - يراجع: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح الخالدي، ص 91-92، والتفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحمان، ص 49-53، والتفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان، عبد الجليل عبد الرحيم، 1/ 71-72 وغيرها.

² - يراجع: المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، ص 26-27، ومنهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 28-31، والتفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحمان، ص 50-51 وغيرها.

نفسه في عرض النظريات الغربية على مقياس القرآن الكريم، وغربلتها به في إطار المنهج المقارن كما سيأتي مستقبلاً⁽¹⁾؛ ولكن القرآن الكريم أيضا استقل أولا بتزويد الإنسانية بمنظومة معرفية هائلة، وبجزمة من الإصلاحات والمواقف السلوكية والعملية تتجاوز حصيلة التجارب البشرية إلى آفاق الإنسان وأبعاد المستقبل؛ إذ كما قال زياد الدغامين أن «ثراء التفسير الموضوعي ليس مستمدا من التجربة البشرية فحسب؛ لأن التجربة البشرية لا تكشف عن مكونات القرآن الكريم... لكن الذي يثريه هو النظر الدائم والربط المستمر بين القرآن والواقع، وبين الواقع والقرآن»⁽²⁾.

فإذا ما تحققت الانطلاقة الثنائية معا تحققت معادلة فكرية منهجية بصورة آلية؛ فالانطلاق من الواقع يحقق الدواء والشفاء لمشكلاته، والانطلاق من القرآن يحقق الكشف والبناء لمفاهيم القرآن وموضوعاته المعرفية والسلوكية.⁽³⁾

وهذا ما أكده دراز، حينما قرر بأن الجانب النظري للأخلاق القرآنية الذي أتقن دراسته لم يستوف رفع وتشبيد البناء الأخلاقي بصورة كاملة، بل في القرآن الكريم منظومة أخلاقية هائلة من الأجدار أن تستخرج وتستنبط منه مباشرة؛ لأنها تجاوزت في ذلك قصور الواقع الإنساني إلى مكونات غائبة عنه في تجاربه السالفة وأحداثه المستقبلية، فانطلق دراز في ذلك من النصوص القرآنية ليكشف لنا هذه الأخلاق العملية الشاملة⁽⁴⁾.

هذا ولم تتوضح عنده خاصية الفكرة المهيمنة إلا في إطار الموضوع القرآني، في اكتشافه الفكرة المركزية، والمحور الأساسي للموضوعات الأخلاقية المدروسة عنده، أما حالها على مستوى السورة القرآنية، فقد كانت غامضة ومجملية غير موضحة ولا مفصلة، إيضاحا فكريا ومنطقيا، وتفصيلا معرفيا ومنهجيا، كما سيأتي لاحقا.⁽⁵⁾

هـ _ قواعد ومنطلقات التفسير الموضوعي:

¹ - أثناء مناقشته في منهجية البحث الموضوعي من المطلب المقبل مباشرة، ص 384.

² - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 30.

³ - المرجع نفسه.

⁴ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 688.

⁵ - في المطلبين الثالث والرابع، أثناء مناقشته عن مفهوم الوحدة الموضوعية عنده، نظريا تأصيليا، وعمليا تطبيقيا، ص 394.

وهي تلك القواعد المنهجية التي أشارت إليها أغلب الدراسات المعاصرة في إطار القواعد والمنطلقات⁽¹⁾، أو في إطار شروط نجاح التفسير الموضوعي⁽²⁾.

ولما كانت هذه القواعد والشروط متعلقة بالآليات المنهجية ابتداءً، وذلك كالتراطات والمناسبات، والالتزام بعناصر القرآن، وبالموضوع الواحد، والتدقيق التام قبل التقعيد والتأصيل وتجنب الاستطراد وغيرها، فسترجأ إلى المطلب التالي، وتحلل ضمن منهجية البحث الموضوعي عنده، من ذلك الموضوع القريب من هذا الموضوع⁽³⁾.

ولكن الأهمية المنهجية تفرض هنا وقفة نقدية لمفهومين منهجيين برزا في فكر دراز التأصيلي للتفسير الموضوعي، ألا وهما: التصنيف المنهجي وفق قاعدة التعليم، ثم الرجوع والالتزام بالنص القرآني في الدرس الموضوعي.

فقد مر بنا أن التصنيف المنهجي هو حضور التصور العقلي الكلي لجوانب الموضوع وعناصره المرحلية، المتتالية ثم صياغة دراسة ضمن نسق فكري ومنتابع، وأن هذا التصور وهذه الصياغة تركزان على المنهج التعليمي المتشعب إلى شعبتين: الأولى متمثلة في تحديد مضامين المعاني المدروسة واستنتاج مقاصدها ودروسها العملية، أي: العبر والغايات المصاغة في عناوين دالة عليها، وهذا ما اتفقت عليه الدراسات المعاصرة وربطت نضج التفسير الموضوعي به⁽⁴⁾، والشعبة الثانية: متمثلة في ثنائية المعالجة الموضوعية وفق القاعدة التعليمية، وهذا مفهوم دقيق لطبيعة الدراسة ضمن التفسير الموضوعي، في طرح القضية على القرآن الكريم، ثم استخلاص الإجابة عنها من نصوصه الكثيرة، في ثنائية أسلوبية متلازمة ومتتابعة.

وقد بدا هذا واضحا في دراسة الأخلاق القرآنية، في موضوعاتها التفصيلية أو العامة؛ إذ كان غالبا ما يطرح هذه القضايا في شكل أسئلة متعددة ثم يتولى الإجابة عنها من نصوص القرآن التحليلية عنده؛ بل كان يربط بين الموضوعات بأسئلة تمهيدية كانت بمثابة جسور التواصل بين هذه الموضوعات الأخلاقية.

¹ - يراجع: المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 67، والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح الخالدي، ص 87.

² - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحمان، ص 75.

³ - في المطلب الثاني الموالي هنا، ص 384.

⁴ - يراجع: المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 59-60، ومباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 37-38، والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح الخالدي، ص 77.

وهذا ما لم تشر إليه الدراسات المعاصرة بأسلوب واضح وجلي، ولكن يبدو أن هذا الأسلوب الدراسي أسلوب شخصي يختلف من مفسر إلى آخر، كل على حسب رؤيته للموضوع ومقاصده من دراسته، وليس يعكس الأسلوب العلمي النموذجي المتبع في جميع الدراسات والأبحاث ضمن التفسير الموضوعي.

فدراز كان متشعباً بالمنهج المنطقي التعليمي، وكان مهتماً بإقناع الفكر الغربي، ورد شبهاتهم، وإبراز الحقائق القرآنية بهذا المنهج العلمي، وكانت دراساته في ذلك أكاديمية علمية متعلقة بأطراف التعليم المعرفي، وبأساليبه المحددة، كما أن هذا المنهج تبلور عند دراز توافقا مع المنهج المقارن بين النظريات الغربية والإسلامية والنص القرآني، الذي أثر دراز إتباعه بالكلية في دراسته الأخلاقية.

وأما الالتزام بالنص القرآني فهو يعكس -عند دراز- المفهوم الحقيقي للتفسير الموضوعي في أنه منهج يرجع إلى النص القرآني ابتداءً، ويحتكم إليه أصلاً حكماً في دراسة الموضوعات المتنوعة، وذلك بعرضها على معايير ومقاييسه.

وقد دعا دراز هنا إلى ضرورة تجريد النصوص القرآنية عن النصوص الإنسانية الأخرى، وانتقد في ذلك الدراسات الإسلامية والغربية أنها صيرت النصوص القرآنية نصاً هامشياً، ولم تظهره بصورة مستقلة في ذلك، كما أنه دعا أيضاً إلى تجريد النصوص القرآنية من المجالات القريبة من الجانب الأخلاقي: كالجوانب الفقهية أو الأصولية وغيرها، وهذا متفق ومجمع عليه بين الدراسات المعاصرة.⁽¹⁾

يقول عبد الستار سعيد في ذلك: «فيجب على المفسر الالتزام بالعناصر التي استخرجها من النظر في الآيات الكريمة... ولا يصح أن يضيف عنصراً للموضوع من أي مصدر غير القرآن الكريم».⁽²⁾

ولكن السؤال الذي يطرح هنا: هل التزم دراز بهذا القيد المنهجي في دراساته التطبيقية، كما التزم به نظرياً، وأكد مراراً؟

لعل الجواب عن هذا السؤال يرجأ ويؤجل إلى المطلب القادم.⁽³⁾

¹ - يراجع في ذلك: التفسير نشأته وتدرجه تطوره: أمين الخولي، ص 81، 95، ومباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 37، والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 87 وغيرها.

² - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 67.

³ - أثناء مناقشة منهجيته العامة في التفسير الموضوعي، ص 384 من المطلب القادم.

الفرع الثاني: في أهمية التفسير الموضوعي.

فقد مر بنا من قبل أن دراز كان يرى في هذا المنهج التفسيري أهمية بالغة، وضرورة قصوى لدراسة موضوعات القرآن الكريم، منقسمة في ذلك إلى شعبتين أساسيتين:

- أ - أهمية نظرية علمية تتعلق بالتأليف الأكاديمي الجديد، تصحيحاً لأخطاء الآخرين، وملء فجوة المكتبات العالمية من مثل هذه الدراسات وغيرها القائمة على منهج التفسير الموضوعي.
- ب - وأهمية أخرى عملية واقعية تتمثل في الأهداف والمقاصد القرآنية المبتغاة من دراسة هذه الموضوعات.

وهذا محل اتفاق بين الدراسات المعاصرة التي فصلت القول في جوانب أهمية التفسير الموضوعي، وعدادوا فيه تفاصيل متعددة، لم يشر إليها دراز، ولم يفصلها تفصيلاً بينها كما هو منصوص في هذه الدراسات⁽¹⁾، خاصة منها تفصيلات عبد الستار سعيد المنهجية الدعوية، وصلاح الخالدي الفكرية الحركية⁽²⁾، وهذه هي طبيعة الدراسات الإنسانية؛ فالتأخر يستدرك على المتقدم بتفصيلات جديدة أو يلبسها أثواباً متجددة، تتناسب مع حركية الدراسات العلمية والأكاديمية.

الفرع الثالث: في أنواع التفسير الموضوعي عند محمد عبد الله دراز.

كانت فكرة ألوان وأنواع التفسير الموضوعي واضحة في نظر دراز، وفي فكره القرآني، فاتجه بذلك إلى تأسيس دراسات قرآنية لهذه الأنواع وفق المنهج العام للتفسير الموضوعي، واشتهر بذلك عند العام والخاص.

فقد كان واعياً لنوعي التفسير الموضوعي الشهيرين في الدراسات المعاصرة: الموضوع القرآني في القرآن الكريم كله، ثم السورة القرآنية بدراسة موضوعاتها وإظهار وحدتها العامة، يربط الموضوعات بعضها ببعض «حتى تبدو السورة وهي في منتهى الدقة والإحكام»⁽³⁾.

¹ - يراجع: المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 40-55، والبداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 53، ومباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم: ص 30 وغيرها.

² - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 40-55، والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 56-58.

³ - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 40.

وقد درس بنفسه -تبعاً لهذا التقسيم الثنائي- موضوعات عدة، سواء في القرآن الكريم كله، كموضوعات: البخل، القتال، الإسلام، أسلوب البذل، هجرة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، مناهج الناس في السلوك، وأبرزها في ذلك: النظرية الأخلاقية، أم كانت موضوعات متعلقة وخاصة بسور قرآنية معينة، وغالبيتها كان قد خصها كتابه "حصاد قلم".

كانت أغلب الموضوعات المدروسة عنده من القسم الأول (الموضوع القرآني)، موضوعات مدروسة بمنهج دعوي خطابي لا بمنهج موضوعي أكاديمي، لم تخضع في ذلك للمعايير المنهجية الأساسية للتفسير الموضوعي من إحصاء وجمع للآيات، ثم ترتيبها نسقياً ودراستها دراسة موضوعية، ثم استنباط المواقف والتصورات والنظريات منه؛ وإنما كانت مجرد مختارات قرآنية، تركز على علاجات قرآنية آنية ووجيزة، وتهدف إلى بيان الأحكام الشرعية، والمواقف العلاجية مباشرة من غير دراسة جامعة، بخلاف دراسته الأكاديمية عن الأخلاق القرآنية في كتابه "الدستور"، فقد اتضحت -في ثناياه- منهجية مغايرة شكلاً ومضموناً لمنهجته في باقي الموضوعات القرآنية؛ بل يتجلى هذا التغير المنهجي في إعادة كتابته عن علم الأخلاق القرآنية في كتابه "الدراسات"؛ إذ لم تؤسس على دراسة جامعة موضوعية للنصوص القرآنية جمعاً، وتناسباً، ودراسة موضوعية، واستنباطاً للمواقف والتصورات.

أما السور القرآنية المفسرة عنده، فكانت -على قلتها- نموذجاً تطبيقياً مصدقاً لوضوح رؤية التفسير الموضوعي في فكر دراز، ونضجه المنهجي في هذا المجال الوليد والبكر في أوانه، لكن كان ذلك بطريقتين متغايرتين بين كتابه "الحصاد" وبين كتابه "النبا العظيم"، كما سيأتي لاحقاً.⁽¹⁾

والعجيب من ذلك أنه كان يجمع في هذه الدراسات بين التنظير والتطبيق، سواء للموضوع القرآني في مقدمة كتابه "الدستور"، أو للسورة القرآنية في كتابيه "المدخل" و"النبا"، فكان يرسى -من خلالها- محطات فكرية تأسيسية لمنهج التفسير الموضوعي، ثم للوحدة العامة في القرآن، وكان بجانب ذلك يزاوجها بنماذج قرآنية تطبيقية، مما ينبئ عن الجهد الكبير المبذول من طرف دراز في هذا المجال؛ ومن ضخامة هذا الجهد ومشقته أنه استطاع أن يحصر الموضوعات الأخلاقية الكثيرة في نطاق خمسة عمد شكلت النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم.

¹ - وذلك في مناقشة أنواع الوحدة عنده ومنهجته فيها من المبحث القادم، ص 406.

ومن نضج الحثيات المنهجية عنده - خاصة علم المناسبات - ترتيبه هذه العناصر الخمسة الأساسية، بل قضاياها الفرعية ترتيباً دقيقاً قائماً على التفرع المنطقي، والاستطراد النسقي، تتلازم فيما بينها تلازم الحبات وتواليها في خيط المسبحة.

أما النوع الثالث لأنواع التفسير الموضوعي، وهو المصطلح القرآني - المختلف بين الدارسين المعاصرين -⁽¹⁾، فلم يوضحه دراز كلون مستقل، ولم يؤصل نظرياً لمفاهيمه ومنهجيته؛ وإنما قدم بعض النماذج التطبيقية التي لا تنهض دليلاً على وضوح هذا اللون في نظر دراز وفكره القرآني؛ إذ لم يدرس هذه المصطلحات في إطار نسق فكري ابتداءً، بل كانت استطرادات عرضية في تفسيره لبعض آيات السور القرآنية، كما لم تكن له أيضاً منهجية علمية واضحة كانت قد أوصلته بطريقة سلسلة إلى استنباط اللطائف والحقائق التي سجلها لهذه المصطلحات القرآنية.

ولا أدل على ذلك أنها لم تستوف الجمع والإحصاء، ولم تبرز التناسبات بين موارد هذه المصطلحات في القرآن الكريم، كما لم يشر دارس واحد من الدارسين المعاصرين دراسة دراز لهذا النوع من أنواع التفسير الموضوعي، رغم أنهم أشاروا إلى سبقه في النوعين الأولين، كما نص على ذلك - مثلاً - عبد الستار سعيد في كتابه "المدخل إلى التفسير الموضوعي".⁽²⁾

هذا هو الاعتبار الأول والأساسي في دراسة دراز التفسير الموضوعي بنوعيه الرئيسيين، أما الاعتباران الباقيان - شكل الدراسة ونوع الرابطة -، فلم يكونا واضحين عند دراز، ولم تشر الدراسات المعاصرة أن دراز سلك هذا المسلك، أو اعتمد هذا التقسيم؛ بل إن هذا التقسيم استقل به عبد الستار سعيد في حديثه عن مناهج التفسير الموضوعي الثلاثة (الوجيز، الوسيط، البسيط)، وفي اعتماده الرابطة من حيث المعنى والغاية (العام، والخاص)⁽³⁾، مما أوحى لنا تحقق هذا التقسيم في تفسير دراز؛ وذلك بعد ملاحظة كثرة الموضوعات القرآنية، وتداخلها في كتاب واحد عنده، وملاحظة الشبه بين حدودها وأطرها، وحدود التقسيمات التي اعتمدها عبد الستار سعيد.

على أن هذه الموضوعات الكثيرة المتقابلة في إطار الموضوع العام تختلف فيما بينها، وتتغاير في نسبة وضوح الرابطة الخاصة بين جزئياتها وآياتها معنى وهدفاً، وفي نسبة كمال المعالجة فيها لتدل على هذه الرابطة الخاصة.

¹ - كما مر بنا تحليل أنواع التفسير الموضوعي في الدراسات المعاصرة من الفصل الأول، ص 82.

² - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 36، 89، 90.

³ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 24-27.

فأبرزها وأوضحها في ذلك الموضوعات الخمسة للنظرية الأخلاقية، وحتى قضاياها الفرعية؛ فكل موضوع من هذه الموضوعات الخمسة قد اتضحت فيه الروابط المعنوية، والتناسبات المقاصدية بين عناصرها الفرعية.

كما أن هذه العناصر الفرعية-بدورها- قد زادت فيها القيود المعنوية والمقاصدية، فكانت نموذجاً صالحاً للدلالة على هذا النوع الخاص، وإن كانت -بعد ذلك- ترتبط معانيها ومقاصدها بالموضوعات الأصلية التي تندرج ضمنها.

أما لماذا اختلف حجم الدراسة وشكلها الكمي بين الموضوعات القرآنية المدروسة عنده، فهذا راجع إلى نسبية جمع الآيات القرآنية لعناصرها الفرعية، فطبيعي أن يختلف حجمها بهذا التنوع في طبيعة النصوص القرآنية لكل موضوع، على أن لهذا أيضاً سبب آخر يتعلق بطبيعية وكيفية الإحصاء والاستقراء الذي اتبعه في عملية التجميع القرآني، سيأتي لاحقاً.⁽¹⁾

¹ - في مناقشة منهجيته المرحلية في التفسير الموضوعي، من المطلب القادم، ص 384.

المطلب الثاني: في منهجية البحث في التفسير الموضوعي، وتطبيقاته، وأهدافه العامة.

كما وضعت من قبل جهود دراز النظرية والتأصيلية لمفاهيم التفسير الموضوعي الأساسية، ولتقسيماته وأنواعه الرئيسية عنده في ميزان النقد العلمي، بيانا لإيجابياتها وسلبياتها، ووضعها في إطارها التقييمي والتقويمي من الدراسات المعاصرة في التفسير الموضوعي، سيكون أيضا هنا وقفة نقدية بنفس الميزان والمعايير لجهوده المنهجية في البحث العلمي في النوعين الأساسيين للتفسير الموضوعي عنده، ولمقاصدهما العامة.

الفرع الأول: في المنهجية المرحلية وقواعدها التأسيسية للبحث في التفسير الموضوعي.

قدّم دراز نماذج تطبيقية في التفسير الموضوعي بنوعيه الأساسيين، بحوثات منهجية مرحلية واضحة، كما بدت -من خلال هذه المنهجية- قواعد عامة تأسيسية، فصلت القول فيها بعض الدراسات المعاصرة، مما يستدعي هنا وقفة نقدية مقارنة بين منهجية دراز وبين منهجية هذه الدراسات المعاصرة في هذا المجال.

أولا: المقارنة في منهجية البحث المرحلية للموضوع والسورة القرآنيين: لما كان مؤلف دراز

"دستور الأخلاق في القرآن" مؤلفا ضخما في حجمه، متنوعا في موضوعاته وقضاياها، فإن المنهجية العلمية استدعت هنا وقفة متأنية وملخصة لهذه الموضوعات لمعرفة نسبية منهجيتها المرحلية تطابقا، أو تقاربا، أو تناقضا فيما بينها، فاستدعى ذلك تبعا دقيقا لها، وتأملا مفصلا لمراحلها، مما أوحى -بعد ذلك- بمنهجية واحدة ذات حدود متقاربة عند دراز لهذه الموضوعات الأخلاقية، وهي ملخصة في النقاط التالية:

- 1 - تحديد المصطلح القرآني، مرادفاته ومناقضاته -أحيانا-، وبيان الإشكالية العامة التي ينطلق البحث منها، في شكل أسئلة متنوعة.
- 2 - تحديد الإطار المعرفي أو الفلسفي أو النفسي أو الاجتماعي للموضوع المدروس.
- 3 - تحليل المفاهيم الأساسية والأبعاد المعرفية الاصطلاحية للموضوع، انطلاقا من الواقع الاجتماعي أو الفلسفي الإنساني المطروح.
- 4 - تقسيم الموضوع إلى عناصر أساسية متفرعة عنه، ثم الشروع في تحليلها عنصرا عنصرا، من خلال جمع آياتها القرآنية، بمنهج الإحصاء والاستقراء، وترتيبها فيما بينها ترتيبا نسقيا داخليا، وتصنيفها تصنيفا عاما من حيث نزولها، أو مكيتها ومدنيتها، وتحليلها تحليلا

تفصيلاً أو إجمالاً - حسب طبيعة الموضوع -، ثم استنباط تصوراتها العامة، وموافقها العملية.

5 - اعتماد التناسب بين هذه القضايا والموضوعات في وجوه عدة من الارتباطات المنطقية، والتفرعات النسقية.

6 - اعتماد مناهج التحليل، والمقارنة، والدراسة الموضوعية لمعاني الآيات المدروسة، بنسب متغايرة فيما بينها؛ فأحياناً يتوغل كثيراً في تحليل المعاني الدقيقة، ويستطرد الحديث إلى موضوعات عرضية، ويكثر من آراء الفلاسفة والأخلاقين، ومن نصوص السنة النبوية وأقوال الصحابة والفقهاء.

و أحياناً أخرى يعتمد المقارنات بين الكتب المقدسة، والمقابلة بين صور الجزء الأخرى.

7 - استنباط التصورات القرآنية الصحيحة، والمواقف العلاجية الناجمة للمشكلات الأخلاقية التي يتعرض لها بالتحليل والنقد والمعالجة.

8 - وأخيراً إبراز الدراسة في صورة منهجية لائقة، من حيث الإخراج الفني، والتقديم والختم، والتقسيم المنهجي، وإظهار العناوين والفصول والمراجع، والجوانب المنهجية المتبقية.

فإذا ما رجعنا إلى الدراسات المعاصرة بالقراءة والمقارنة، لم نجد لها تختلف اختلافاً جوهرياً في هذه المراحل المنهجية؛ بل تكاد تتفق في مجموعها مع هذه المراحل المنهجية المستنبطة من نماذج دراز التطبيقية.

فأغلب هذه الدراسات قد أشارت إلى مراحل: التحديد الاصطلاحي، وجمع الآيات لمنهج الإحصاء والاستقراء، وتصنيفها مكيًا ومدنيًا، وتقسيم الموضوع إلى عناصر مترابطة، وإظهار التناسبات بينها، واستنباط الحقائق والمواقف العلاجية منها، وذلك واضح وجلي في مؤلفات: عبد الستار سعيد

(1)، وعبد الحي الفرماوي⁽²⁾، وأحمد السيد الكومي⁽³⁾، وعبد الجليل عبد الرحيم⁽⁴⁾، ومصطفى مسلم⁽⁵⁾،
وزياد الدغامين⁽⁶⁾، وصالح الخالدي⁽⁷⁾، وغيرهم.

والعجيب أن في هذه المؤلفات زيادات وإضافات في بعض هذه المراحل المنهجية فيما بينها، وهي
إضافات موجودة وملاحظة عند دراز.

فما اشترطه زياد الدغامين من ضرورة الالتفات إلى الواقع أثناء التفسير⁽⁸⁾ متحقق عند دراز، وما
حدده أحمد رحماني من منهجية وضع الموضوع في مجاله المعرفي «لإعتماد أدوات ذلك المجال في التحليل
والتفسير ووضع الفرضيات»⁽⁹⁾، ملاحظ بوضوح في مصطلحات ومناقشات دراز الأخلاقية من
موضوعاتها الخمسة الأساسية، وما اقترحه سامر عبد الرحمان رشواني من الدراسة الدلالية والدراسة
النصية السياقية، التناسبية، والمنطقية⁽¹⁰⁾ متحققة أيضا في دراسات دراز الأخلاقية؛ حتى أن ما فصله
الخالدي من مراحل الصياغة العلمية، تكاد أغلبها تنطبق على أعمال دراز هنا؛ إذ أن دراسته هنا قد
تلونت بالمنهج العلمي الأكاديمي.

بل إن دراز ركز كثيرا على منهج المقارنات بين آراء النظريات الإنسانية وبين حقائق النصوص
القرآنية، واعتمد أساليب المقابلات البيانية، والصور الفكرية، مما يدل بأن المقارنة منهجية مرحلية مهمة
في التفسير الموضوعي، وهذا ما لم تشر إليه الدراسات المعاصرة بشكل جلي وصریح.

بل حذرت بعض هذه الدراسات من الإيغال في المقارنات؛ لأنها تخرج التفسير الموضوعي عن
مجاله المعرفي والمنهجي، إلى مجال التفسير المقارن، أو الدراسات القرآنية والإسلامية.

1- المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 56-66.

2- البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 48-49.

3- التفسير الموضوعي للقرآني الكريم: أحمد السيد الكومي ومحمد أحمد القاسم، ص 23-24.

4- التفسير الموضوعي للقرآني الكريم في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم: 71/1-73.

5- مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 37-39.

6- منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 35-45.

7- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صالح الخالدي، ص 80-82.

8- منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآني الكريم: زياد الدغامين، ص 43.

9- التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 60.

10- منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 172، 202.

أما عن منهجية دراز في السورة القرآنية، فقد ظهر له في ذلك اتجاهان متقاربان، كان في الاتجاه الأول مفسراً للسورة القرآنية من كل جوانبها البحثية المرحلية المعروفة، بخلاف عمله المنهجي في الاتجاه الثاني الذي ركز فيه كثيراً على وجوه المناسبات الداخلية، والروابط البيانية بين مقاطع وآيات سورة البقرة من كتابه "النبأ"، كما مر بنا ذلك من قبل.⁽¹⁾

ففي الاتجاه الأول برزت معالم: التحديد التاريخي والمعرفي للسورة، واستنباط اللطائف والتصورات، أو استخراج الدروس والمواقف العملية، والتحليل العلمي والفكري بشكل أوضح من بروزها في الاتجاه الثاني، بروز الاستئناس والتأكيد.

كما برزت وجوه المناسبات الداخلية خاصة، والتفسير البياني الأدبي والتفصيل في تقسيم السورة إلى أقسام متعددة في الاتجاه الثاني بشكل أوضح من بروزها في الاتجاه الأول، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن هناك حيثيات منهجية خاصة بكل اتجاه متصلة به ومستقل بها؛ فإظهار التناسبات الخارجية بين السور المتجاورة في الترتيب المصحفي أو النزولي، وتحديد الموضوع الرئيسي ودلالة أسماء السور في بداية التفسير، وتوظيف مناهج الإحصاء والتجميع والتعليم، حيثيات منهجية يكاد يستقل بها الاتجاه الأول.

في حين أن وضع الفرضيات العلمية حول وحدة السورة في بداية التفسير، وتفصيل أقسام السورة إلى عناوين فرعية كثيرة، وتوظيف منهجية التقابلات الأسلوبية، معالم منهجية يكاد يستقل بها الاتجاه الثاني.

وعلى كل حال، فهناك توافق كبير، وتطابق في كثير من الأحيان، بين هذه المراحل المنهجية التي أصلها دراز تطبيقاً تفسيريًا، وبين نظيراتها المنتشرة في الدراسات المعاصرة، المثبتة لهذا النوع من أنواع التفسير الموضوعي.⁽²⁾

غير أن النقد هنا يوجه إلى دراز أنه أكثر من الربط بين أقسام السورة، حتى تبدو وحدة محكمة نسيجا ومنطقا، على حساب الحيثيات، المنهجية الأخرى، والتي لا تكاد تستحضر في جميع السور المفسرة، كدلالة اسم السورة الذي ورد في سورتي غافر، والنبأ، أو كالتحديد التاريخي والنزولي الذي غاب

¹ - يراجع المطلب الثالث من مبحث التفسير الموضوعي وقضاياها المنهجية من هذا الفصل الأخير، ص 328.

² - يراجع: مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 40، ومنهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 134-139، والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 82-86، وغير ذلك.

في سنور الفاتحة، البقرة، والملك، أو كإظهار التناسبات الخارجية الذي غاب في سور: يسن، غافر، والنبأ.

كما أنه لم يفصل الحديث عن أجواء نزول السورة، في بداية الدعوة، أم في وسطها، أم في ختامها، و لم يربط ذلك بواقع المسلمين آنذاك، أو ما يسميه زياد الدغامين بـ "البيئة المعنوية لنزول السورة"⁽¹⁾، وذلك لأهميتها في التفسير الموضوعي.

وعلى كل حال كذلك، فإن دراز استطاع أن يقيم بحثه هنا على أسس منهجية، و«امتاز عمله بالدقة والضبط، والتطبيق المنهجي على بعض السور»⁽²⁾، وكان في ذلك صاحب «نظرية علمية تتطلب البحث الوئيد» كما قال البيومي.⁽³⁾

ثانيا: القواعد والمنطلقات المنهجية عند دراز بين القوة والضعف.

قد ذكر الدارسون المعاصرون هنا مجموعة من القواعد والشروط المنهجية التي يجب توفرها في عملية التفسير الموضوعي، تتطلب تأملا عميقا في تفسير دراز الموضوعي، لمعرفة حضورها عنده، أو غيابها في ذلك.

أ - الالتزام التام بعناصر القرآن:

وذلك بأن يلتزم الباحث البقاء مع آيات القرآن الكريم التي جمعها، ولا يخرج بها إلى أطر أخرى، كالسنة النبوية، والفقهاء الإسلامي بمدارسه المتنوعة، بل الفكر الإنساني بمذاهبه المتناقضة، وإلا أصبحت الدراسة بعد ذلك إسلامية عامة، لا قرآنية خاصة، كما نص بعض الدارسين هنا.⁽⁴⁾

وقد خرج دراز كثيرا عن أجواء النصوص القرآنية إلى مجالات إنسانية فكرية وفلسفية وفقهية متنوعة، رغم أنه اشترط لزوم النص القرآني نظريا، وانتقد الدراسات السابقة جعلها النص القرآني هامشيا، وذلك باعتماد منهج المقارنة الاستقلالية بين النظرية الغربية وبين القرآن الكريم، بل الفقه

¹ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 134.

² - المرجع نفسه، ص 112.

³ - البيان القرآن: محمد رجب البيومي، ص 141.

⁴ - يراجع: المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 67، ومنهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 46، والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح الخالدي، ص 87-88 وغيرها.

الإسلامي عموماً، بعد أن أخذ في ذلك بنصيحة أحد أساتذته في جامعة السوربون⁽¹⁾، ويا ليت له لم يأخذ بها.

حيث ظهر هذا الخروج أولاً في الألفاظ والمصطلحات التي استخدمها، كقوله: «هي وجهة نظر الفقه الإسلامي»⁽²⁾، وقوله: «ليس هذا مطلقاً هو الموقف في الشريعة الإسلامية»⁽³⁾، وقوله أيضاً: «وحسبنا أن نقرأ هذا التدرج في الوصايا الإسلامية»⁽⁴⁾، وذكر منها حديثاً واحداً.

كما تعدى ذلك إلى تحليلات سياقية متعددة، خرج فيها دراز عن النص القرآني؛ فمن ذلك أنه كان يقرن القرآن بالأحاديث النبوية الكثيرة، التي تورد في محل التأصيل لا الاستشهاد كما نصت الدراسات المعاصرة⁽⁵⁾، وذلك كما في قوله: «أما القرآن الذي تكمله تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم»⁽⁶⁾؛ بل العكس من هذا؛ إذ شرع أحياناً في معالجة موضوع ما (النية غير المباشرة مثلاً) بحديث نبوي شريف، ثم يعقبها بعد ذلك بنصوص قرآنية أخرى.⁽⁷⁾

وأحياناً يعتمد على الأحاديث اعتماداً كلياً، لدرجة أن خصص لها صفحة كاملة⁽⁸⁾، بل لا يعتمد يعتمد—أحياناً أخرى—نصاً قرآنياً واحداً، مركزاً في ذلك على استحضر الأحاديث، كما في دراسته مسألة تفضيل النية على العمل، وذلك في قوله: «ليس لدينا في هذا الصدد سوى نص وحيد، هو حديث مشهور»⁽⁹⁾، مما دعاه ذلك أن يستشعر بكثرة الاستشهاد بالأحاديث على حساب النصوص القرآنية، فيقول: «ولكن لا داعي للإكثار من نصوص السنة، فإنها تمضي بنا بعيداً، ولنعد إلى نص القرآن»⁽¹⁰⁾، إلا أنه استمر على تلك الوتيرة فيما بعدها من الصفحات⁽¹¹⁾

¹ - يراجع مقدمة دستور الأخلاق: محمد دراز، ص 17.

² - مصدر سابق، ص 460، 234.

³ - المصدر نفسه، ص 460، 234.

⁴ - المصدر نفسه، ص 612.

⁵ - يراجع المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 68-69، والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح الخالدي، ص 88، ومنهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: سامر رشواني، ص 227، وغيرهم.

⁶ - دستور الأخلاق في القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 673.

⁷ - المصدر نفسه، ص 473.

⁸ - المصدر نفسه، ص 599-601.

⁹ - المصدر نفسه، ص 459.

¹⁰ - المصدر نفسه، ص 260.

¹¹ - المصدر نفسه، ص 263-266.

ب التقييد التام بصحيح المأثور في التفسير. (1)

فالغالب على دراز أنه كان يورد الأحاديث الصحيحة في تفسيره، وكانت له في ذلك نظرات في أسانيد الأحاديث ومتونها بمنهج نقدي حديثي⁽²⁾، ولكنه في بعض الأحيان يورد بعض الأحاديث، ولا يتحقق من صحتها، ولا يعتمد في تخريجها الرجوع إلى كتب السنة المتخصصة في ذلك، كما في رجوعه إلى كتابي أبي طالب (قوت القلوب 2/336)، وابن تيمية (الحسبة ص 92) في تخريج حديث: «لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، ولا يقبل قولاً ولا عملاً إلا بنية»⁽³⁾.

ج - تجنب الحشو والاستطراد في التعليق. (4)

وهذا ملاحظ أيضاً على دراز في كثير من القضايا والموضوعات الأخلاقية، فيستطرد إما في تفاصيل بعض جزئيات العناصر المدروسة، وكان يكفيه منها الإجمال في التعليق؛ وذلك كاستطراده الحديث عن التوبة، وأركانها، وشروطها، وآثارها في تقرير الجزاء الإصلاحي⁽⁵⁾، ولو اكتفى بهذا العنصر الأخير لكان أفضل له، كما أنه أحياناً أخرى يكثر من ذكر القضايا الفلسفية، ويستطرد في تصنيفها، ومناقشتها لأزيد من عشرين صفحة متتابعة، ثم يعقبها بعد ذلك بالنصوص القرآنية، كما في مسألة الحرية.⁽⁶⁾

وعلى كل حال، فهو يستطرد كثيراً في قضايا فرعية، وموضوعات هامشية، لصفحات عديدة تبعده عن الموضوع المدروس، كما في المثال السالف الذكر، لكنه يتحكم - أحياناً أخرى - في استطراداته، فلا يجاوز بها الصفحة أو الصفحتين، كما في حديثه عن موانع الأهلية والمسؤولية، ثم استطراده الحديث عن سلوك الأطفال في أحكام الشرع، ثم قال بعد ذلك: «ولنقف عند هذا الحد من الاستطراد»⁽⁷⁾.

¹ - يراجع المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 71.

² - ينظر: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 271، 275، 459، 466.

³ - حديث موضوع، أخرجه ابن حبان في الضعفاء (1/150) من طريق أحمد بن الحسن بن أبان المصري بسنده عن ابن مسعود مرفوعاً، وله طرق أخرى ضعيفة، ولا يخل إسناد منها من كذاب، والأصح أنه من قول الثوري، وقيل من قول علي بن أبي طالب، أو الحسن البصري، ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة: الألباني، حديث رقم 983/14، 6922.

⁴ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 73.

⁵ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 255.

⁶ - المصدر نفسه، ص 185-201.

⁷ - المصدر نفسه، ص 168.

د - التدقيق التام قبل التقييد:

وذلك بالنظر الشامل، والاستقراء التام، والاستيعاب لكل الألفاظ القرآنية الواردة في موضوع محدد من موضوعات القرآن⁽¹⁾، ولا «يمكن الاكتفاء بالاستقراء الناقص مطلقا، لما قد يورثه ذلك من إخلال في فهم مراد الله عز وجل من القضية المفسرة»⁽²⁾؛ لأن الباحث سوف «يبرز حقائق قرآنية يكون لها شأن في المعرفة الإنسانية، والحياة العملية»⁽³⁾ كاملة، «حتى لا يقع في حكم قاصر، أو قاعدة ناقصة، أو أصل منقوض»⁽⁴⁾.

وهذا الخطأ المنهجي الكبير هو الذي وقع فيه دراز مرارا حينما صرح بأنه تتبع "الإحصاء الناقص"⁽⁵⁾، ولم يورد كامل النصوص "تفاديا للتكرار" كما نص على ذلك وقال⁽⁶⁾، أو معللا ذلك بالإطالة⁽⁷⁾، أو مقتصرًا على بعض النصوص في قوله: «ها هي ذي عينة»⁽⁸⁾، وقوله: «إننا إذا حكمنا حكمنا ... ببعض النصوص»⁽⁹⁾.

وقد اعترف دراز نفسه بالثغرات التي يتركها الإحصاء الناقص، حينما قال: «ولئن كانت الآيات التي أشرنا إليها آنفا لا تحدد طبيعة الجزء الإلهي، فإن النصوص في مواضع أخرى تحدثنا عن طبيعته على نحو يتفاوت في تفصيله»⁽¹⁰⁾، ولم يذكر منها إلا نصا واحدا.

هـ - الإدراك المهيمن للمجال الاجتماعي أو الأخلاقي أو التاريخي أو العلمي للموضوع.⁽¹¹⁾

ويتحقق ذلك بالاطلاع التام على أجواء نزول السورة وآياتها القرآنية؛ إذ يساعد على معرفة الأفكار الثانوية أو الفكرة الرئيسية للسورة، وعلى تسهيل الربط بينها في إطار علم المناسبات.

¹ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 74.

² - منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: سامر رشواني، ص 363.

³ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 35.

⁴ - المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار سعيد، ص 76.

⁵ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 400.

⁶ - المصدر نفسه، ص 09.

⁷ - المصدر نفسه، ص 148.

⁸ - المصدر نفسه، ص 258.

⁹ - المصدر نفسه، ص 344.

¹⁰ - المصدر نفسه، ص 344.

¹¹ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحمان، ص 83.

وقد عرفنا -من قبل- أن دراز كان يغفل عن استحضار هذه الأجواء التاريخية والنفسية والفكرية لبعض السور القرآنية، ويخرج -أحياناً- بالآية عن مناسبة نزولها، كاستشهاده بقوله تعالى: «وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا» [آل عمران/103]، على مسكن الكفار في جهنم يوم القيامة⁽¹⁾، مع أنها نزلت في الأوس والخزرج مشبهة هذه الصورة التخيلية بإنقاذهم من الكفر إلى الإيمان، الإيمان، كما حقق ذلك ابن كثير.⁽²⁾

ومن أمارات الإدراك المهيمن الالتزام بالترتيب التاريخي أو المصحفي في الدراسة الموضوعية، وقد نص دراز أن الترتيب التاريخي يكون وفق مقام التنزيل والتعليم، وأن الترتيب المصحفي يتحقق وفق مقام التدوين والترتيب.⁽³⁾

ولكنه -رغم ذلك- لم يلتزمهما في أغلب الموضوعات الأخلاقية العامة أو الفرعية، وهذا ملاحظ ملاحظة ظاهرة وبينه في كتابه "الدستور"⁽⁴⁾، ومن يطالع مثلاً على آيات النعيم الروحي والحسي في الجنة الجنة يجزم بأن الآيات لم ترتب وفق الترتيبين المصحفي أو النزولي، وإنما رتبت وفق تسلسل النسق الفكري.⁽⁵⁾

الفرع الثاني: في أهداف التفسير الموضوعي عند محمد عبد الله دراز.

علمنا من قبل اتفاق نظرة دراز مع الدراسات المعاصرة في إبراز أهداف التفسير الموضوعي، التي تتعدد في فروعها وجداولها، ولكنها تلتقي في مصب واحد، وهو إبراز هدايات الله تعالى، وجلب السعادة للناس في الدارين.

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 394.

² - تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 581/1.

³ - حصاد قلم: محمد دراز، ص 51.

⁴ - ينظر: دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 57، 356، 399، 373، 384، 452، 586، 607، 625، 656، 666، 707، 725 / 746، 771، وغيرها.

⁵ - المصدر نفسه، ص 370، وما بعدها.

كما أن توقف دراز في تحديد هذه الأهداف المرحلية المتعددة عند مقصدين هامين، إثبات مصدرية القرآن الربانية، وتفصيل إعجاز القرآن الكريم البياني والتشريعي، ليس بأمر جديد عن الدراسات المعاصرة.⁽¹⁾

ولكن العجيب من تلك الأهداف الدقيقة _والذي يستدعي وقفة تأملية هنا_ المتعلقة بالأخلاق القرآنية، بمصطلحات متعددة ذات دلالات وأهداف متنوعة، وذلك كمصطلح "النظرية الأخلاقية"؛ الذي يدل على الرؤية القرآنية المستقلة كحقيقة من حقائق التشريع الأخلاقي، وهو مصطلح وظفه دراز قبل محمد باقر الصدر بعقود من الزمن⁽²⁾، ولكنه مصطلح غير دقيق؛ «لأن مفهوم النظرية في المجال العلمي: أنها تلك التي لم تزل محط النظر والبحث والتجربة، ولم ترق بعد إلى درجة الحقيقة العلمية التي لا تقبل مجالاً للشك والنظر».⁽³⁾

و منها أيضا مصطلحات "القاعدة القرآنية"، و"القانون الأخلاقي"، و"المبادئ القرآنية"، و"الدستور الكامل"، و"الشريعة الأخلاقية"، و"الحقائق الأساسية"، فكلها من الأهداف النهائية التي يتوصل إليها الباحث في علم الأخلاق القرآني.

ومن الأهداف المرحلية عند دراز تحقيق سمة "المنهج"؛ الذي يضبط أطر دراسة ما يسميه دراز بـ "العمل الأخلاقي"، هذا "المنهج القرآني" كما يسميه دراز هو الذي يتولى صياغة المعايير التي يقاس بها العمل الأخلاقي، أو ما يسميه دراز بـ "المقياس الأخلاقي"، والذي يعتبر بدوره هدفا مرحليا مهما يسوق الباحث إلى اكتشاف الأهداف النهائية، وفق هذا المنهج والمقياس، ووفق "المنهج التبليغي" و"قاعدة التعليم"، ليبلغ لنا "المفهوم القرآني"، و"الحكمة القرآنية"، و"الوصايا القرآنية" و"التعاليم القرآنية" الخالدة، والثابتة، والمرنة.

¹ - يراجع: المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 30-53، والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح

الخالدي، ص 56، والبداية في التفسير الموضوعي: عبد الحفي الفرماوي، ص 54، وغيرها.

² - فدراز استعمله في منتصف الأربعينيات، في حين استخدمه الصدر في بداية الثمانينات.

³ - التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم، 20/1.

المطلب الثالث: في حقيقة الوحدة الموضوعية وقضاياها الأساسية.

قدم لنا محمد دراز محطات فكرية، وتأصيلات منهجية لقضية الوحدة العامة في سورة من القرآن، أو في سوره جميعا، ثم قدم كذلك رؤية علمية، وتصورات أكاديمية، وضع بها منهجية مرحلية، ومعالم واضحة كشف بها عن حقيقة الوحدة القرآنية في دراساته التفسيرية.

وهذا ما استدعي -هنا- وقفة نقدية لهذا الجهود التفسيرية، وغربلتها تقييما وتقويما، وذلك بمقارنتها بآراء الدراسات الموضوعية المعاصرة.

الفرع الأول: في مفهوم الوحدة، أهميتها، وأنواعها.

يمكن تصنيف جهوده التفسيرية في معالجة قضية الوحدة في القرآن الكريم، إلى ثلاثة أصناف: جهود موافق عليها، وأخرى مخالف فيها، وأخيرة إبداعية تجديدية.

أولا: جهوده في مفهوم الوحدة:

رأينا من قبل أنه ركز على إبراز مفهوم الارتباط الوثيق، والتناسب الدقيق بني عناصر الموضوع الواحد، أو بين الموضوعات المتعددة داخل السورة الواحدة، حتى تشكل ما أسماه بـ "البناء المتناسك" ذي "الصورة الواحدة".

و هذا محل اتفاق بين جميع الدراسات القرآنية المعاصرة للتفسير الموضوعي، على تقارب تعبيراتهم في ذلك، وعلى اختلاف نسبة دراساتهم قلة وكثرة؛ إذ عرّف عبد الجليل عبد الرحيم الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية بأنها «التفسير الذي يتوجه فيه المفسر إلى الكشف عن الموضوع الذي تعالجه السورة في ضوء معطيات آياتها المحكمة النسخ والارتباط، بأسلوبها المتميز، وخصائصها المعجزة...»⁽¹⁾.

¹ - التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم، 36_35/1.

كما أكد أحمد رحماني أن الوحدة الموضوعية « تقتضي ترابطاً وتناسقاً على مستوى السورة الواحدة»⁽¹⁾، وأما الوحدة الموضوعية بين آيات الموضوع القرآني _الوحدة التجميعية كما يسميها_ فإن الارتباط بينها يكون عن طريق «توحيد الآيات حول موضوع محدد»⁽²⁾.

كما أشار أغلبيتهم إلى هذا في إطار علم المناسبات الذي يعنى بإبراز الترابط بين آيات أو أجزاء السورة من جهة، أو بين سور القرآن الكريم من جهة ثانية، وملاحظة انتقال المعاني، وتسلسلها للنظم القرآني، خاصة من خلال دقة ترتيب آياته وسوره على هذا الوجه المعجز.

يقول في ذلك مصطفى مسلم: «علم المناسبات وثيق الصلة بالتفسير الموضوعي وبخاصة التفسير الموضوعي للسورة-؛ وذلك أننا نلاحظ أن الآية أو مجموعة الآيات تنزل في أسباب مختلفة وحوادث متفرقة... ولكننا عندما نقرأها نجد أن وحدة الموضوع يجمعها ومرمى الهدف والغاية من سياقها جميعها شيء واحد»⁽³⁾، كما أنه عرف المناسبات بأنه «علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن»⁽⁴⁾.

ويقول عبد الحي الفرماوي: « ولم نر إلا القليل نظر في السورة نظرة عامة، يعرف بها الغرض المقصود منها لأول وهلة، مع بيان أغراضها جملة، وربط بعض آياتها ببعض، حتى تظهر السورة في صورة متكاملة متناسقة تامة»⁽⁵⁾.

كما قد جعلوا التناسب بين الآيات القرآنية إحدى الخطوات المرحلية للبحث عنها⁽⁶⁾، إلا أن معان الترابط والاتساق في مفهوم الوحدة، كلام قديم عند العلماء المتقدمين الذين أفادوا المعاصرين بهذه المعاني الدقيقة.

فقد مرت بنا من قبل أقوالهم الكثيرة، كقول ابن العربي: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض

¹ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحماني، ص 33.

² - المرجع نفسه، ص 32-33.

³ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 57.

⁴ - المرجع نفسه، ص 58.

⁵ - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 39.

⁶ - يراجع: المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 56-57، و منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 135 وغيرها.

حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني».(1)

ومنه تعريف الزركشي للمناسبات: «هو علم يجعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيرى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء».(2)

كما أن هذا المفهوم الخاص للوحدة قد اشتهر في الدراسات الأدبية الحديثة والمعاصرة، بل الدراسات البلاغية القديمة التي اشترطت -مثلا- على الشاعر «أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحة، فيلائم بينها، لتتنظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه أو بين تمامه فعلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه فينسى السامع المعنى الذي يسوق القول إليه».(3)

وهذه متطابقة أو تكاد تنطبق مع المفاهيم النظرية التي تشرها محمد عبد الله دراز في مؤلفاته القرآنية؛ ألم يعرف الوحدة بقوله: «تناسق أوضاعها، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إنها لتتنظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها»(4)؛ ألم يأخذ على نفسه عهدا أن يعلي البناء المتناسك، وأن يشكل الصورة المتكاملة عن الأخلاق القرآنية، والتي لم تستطع الدراسات العربية والغربية أن ترفعه، أو أن تلاحظ بين مواده المتفرقة هذا الترابط الوثيق، أو روح القرابة كما يسميها دراز.(5)

ألم يقل في ذلك أيضا: «وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد، أم في نجوم شتى، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أن كلها أو جلها قد نزلت نجوما».(6)

نجوما».(6)

وواضح أيضا من هذه الأقوال أن دراز لا يكتفي بمفهوم الترابط والائتلاف في تحديد حقيقة الوحدة، أو أنه يختزل مفهومها في علم المناسبات، وطرائقه المتعددة، بل العكس من ذلك، فإن الترابط

¹ - البرهان في علوم القرآن: الزركشي: 36/1.

² - المصدر نفسه، 36-35/1.

³ - عيار الشعر: ابن طباطبا العلوي، تح عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2005، ص129.

⁴ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 176

⁵ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 07.

⁶ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 187.

ووجوه المناسبات تعد عنده من الخطوات والمراحل الأولى لتحقيق الوحدة أو تعبير أدق: فإن الوحدة هي الغاية المرجوة من علم المناسبات.

وهذا أيضا ما طرحته الدراسات القرآنية المعاصرة؛ إذ يقول الدغامين -مثلا- في ذلك: «إن التفسير الموضوعي تنبثق فكرته من مفهوم الوحدة الموضوعية في القرآن، أو في سوره، سورة سورة»،⁽¹⁾ وأوضح منه قول أحمد رحماني عن مصطلحات التفسير الموضوعي: «وكلها مصطلحات تشير إلى طريقة واحدة في تفسير القرآن الكريم تجعل الوحدة الموضوعية هي غايتها في التفسير».⁽²⁾

ويكمن فهم هذا الترابط، والبناء المتناسك الذي قال به دراز، على أنه يشير إلى اتساق بنية النص القرآني، أي: إلى الوحدة البنائية؛ والتي تعني «أن القرآن واحد لا يقبل بناؤه وإحكام آياته التعدد فيه، أو التجزئة في آياته، أو التعضية»⁽³⁾؛ بحيث يقبل بعضه، ويرفض بعضه الآخر... فهو بمثابة الكلمة الواحدة أو الجملة الواحدة أو الآية الواحدة».⁽⁴⁾

فهو إذن توجيه أدبي لجماليات النص القرآني في تماسك وحداته، وائتلاف عناصره؛ فقد جعل من شأن الوحدة -خاصة للسورة القرآنية-، زينة للثروة المعنوية وجمالها في القرآن الكريم⁽⁵⁾، مقارنة بين روعة النظم هنا، وبين تهلله صنائع الشعراء العرب الأوائل في قصائدهم المنظومة.⁽⁶⁾

وهذا التوجيه هو عين ما نادى إليه مدرسة الأمناء الأدبية (مدرسة أمين الخولي)، وجعلته أساسا منهجيا في دراسة القرآن الكريم، بنظرة شمولية، ومنهج استقرائي في دراستين: حول القرآن، ثم في القرآن، وذلك باعتباره كتاب العربية الأكبر.⁽⁷⁾

وهذا أيضا ما كان محل نقد من كثير من الدراسات المعاصرة، التي رأت أن الوحدة -كحقيقة قرآنية إعجازية-، تتجاوز مفهوم الترابط البنيوي، والائتلاف اللفظي والجملي، إلى التعانق بين المعاني

¹ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 15-16.

² - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 31.

³ - المقصود بما التقسيم، وجعل الشيء أعضاء، ومنه الآية الكريمة: «الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ» [الحجر/91]، أي: جزؤوا القرآن إلى سحر وشعر وكهانة، ينظر: تفسير حدائق الروح والريحان في روائع علوم القرآن: محمد المرري الشافعي، مراجعة: هاشم محمد مهدي، دار طوق للنجاح، بيروت-لبنان، ط1، 2001، 128/15.

⁴ - الوحدة البنائية للقرآن الكريم: طه جابر العلواني، ص 14.

⁵ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 176.

⁶ - المصدر نفسه، ص 177، 185، 187.

⁷ - يراجع: التفسير نشأته، تدرجه، تطوره: أمين الخولي، ص 79 وما بعدها.

والأفكار، والتأسيس بذلك لاتحاد معنوي في كل جوانب النص القرآني المتسع أو الضيق (الموضوع أو السورة)، أي: حضور الموضوعات الإنسانية والكونية الحضارية حضوراً متماسكاً ومستقلاً في النص القرآني.

يقول في ذلك زياد الدغامين: «ومن هنا نفترق مع المدرسة الأدبية في دراستنا للتفسير الموضوعي للقرآن الكريم؛ حيث أن المقاصد الثانية عندهم هي بالنسبة إلى دراستنا أساسها ومحورها، بل أكثر من ذلك، وإن من يقول أن أزمة أمتنا ترجع إلى فساد ذوقها الأدبي فقد أبعد النجعة».⁽¹⁾

كما أن باقي الدراسات المعاصرة - وإن لم تصرح بهذا النقد - قد ركزت على استقلالية الموضوعات القرآنية، وتماسك أجزائها الفكرية، أكثر من ارتباط واتساق أبنيتها اللفظية، وجمالياتها الأسلوبية.⁽²⁾

لكن لا يصح الخلط هنا بين مفهوم الوحدة عند دراز، ومفهومها عند أمين الخولي وأعلام مدرسته؛ فلا يعني التشابه في المنهج الأدبي بينهما، التطابق - أو حتى التقارب - في تحديد هذه المفاهيم القرآنية التفسيرية؛ إذ لا ينفي دراز هذا الاتحاد الفكري، والتناسق المعنوي، وإن كان - قبل ذلك وبعده - قد استوفى البحث عن الالتحام العضوي بين عناصر المواد المتفرقة - على حسب تعبيره -، أو بين أجزاء السورة القرآنية الواحدة، التي تسري بينها جميعاً روح واحدة.

صحيح أن أغلب الدارسين - خاصة من انتقد المنهج الأدبي للوحدة القرآنية - لم يشيروا أن دراز وقع منه هذا الفصل بين المنهج الأدبي والمنهج الفكري للوحدة⁽³⁾، ولكن ضبابية الرؤية، وغبش التصور عندهم - وربما التحليل العاجل لبعض أقوال دراز دون باقي تحليلاته -، في اختزال منهج دراز ضمن منهج المدرسة الأدبية في دراساتها للتفسير الموضوعية، ووحدة القرآن، هو الذي أوقع البعض منهم في شبهة القول بانعدام الوحدة الموضوعية في فكر دراز القرآني، كما سنعلم ذلك لاحقاً.⁽⁴⁾

¹ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 23.

² - يراجع: مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 41، والوحدة الموضوعية للسورة القرآنية: رفعت فوزي عبد المطلب، ص 07، والمدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 25-26.

³ - يراجع: منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 112.

⁴ - في الجزئية الثالثة من هذا الفرع التي ستخصص لمناقشة أنواع الوحدة عند دراز، ص 406.

فقد أنكر شبهات المستشرقين ودعوايهم أن تكون الوحدة داخل السورة «سلسلة من الحروف والصوتيات تخفي تشبيتا وتفرقا جوهريا في المعنى، وتترك فواصل لا يقبلها المنطق في مسيرة الأفكار»⁽¹⁾، بل اعتبر هذا التوجيه منهم—في تعليل ترتيب السور مصحفيا، وتحقق وحداتها لغة— توجيهها سطحيا «يقيس السور بعدد كلماتها وجملها، لا بالقرابة بين معانيها وأساليبها»⁽²⁾.

كما صرح أيضا بوجود فكرة رئيسية، ونواة مركزية لهذه المعاني المتعددة—في القرآن أو في السورة— تضبط علاقاتها معها، وتجذبها إلى مركزيتها⁽³⁾؛ وذلك في «هيئة دوائر مشتركة المركز، كل واحدة منها قابلة لأن تتسع، وتنكمش في توافق مع المجموع»⁽⁴⁾.

وهذا مفهوم بديع في تشكيل الوحدة؛ إذ تنطلق قاعدتها من مفهوم الكثرة والتعدد لموضوعات ومواد متفرقة، لتتشكل في هيئة دوائر متقابلة أو متداخلة—بيانيا ومعنويا—، تتبادل العلاقات وتتداخل في أماكنها،—كل دائرة منها مستقلة بذاتها—، وتدور حول مركز واحد يسير حركتها، ويضبط تداخلها، وتتوافق في وحدة جامعة لها، قد تكون وحدة الغرض، أو وحدة النسق، أو وحدة الفكر.

إذن فإن مفهوم الوحدة—خاصة للسورة— يقوم على عنصرين أساسيين: «أ_ تماسك السورة القرآنية واتساق آياتها وتناسبها.

ب_ التركيبة المقصدية للسورة القرآنية، أو بعبارة أخرى: المعطى الكلي الذي هو المقصود من النظم الخاص للسورة»⁽⁵⁾.

وهذا عين ما طرحه دراز حينما رأى أن الوحدة تحقق «التناسق بين الأجزاء، والتوافق في التركيب»⁽⁶⁾.

لكن كيف يتم ملاحظة هذا التناسق وذلك التوافق في تحقيق مفهوم الوحدة للسورة القرآنية؟ يتم ذلك—في نظر دراز— من خلال ملاحظة الترتيب النسقي لآيات السورة في موضوعها من المصحف لا حسب ترتيبها المنطقي أو التاريخي.

¹— مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 129.

²— حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 55.

³— مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 131.

⁴— دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 10.

⁵— منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 242.

⁶— مدخل إلى القرآن الكريم: محمد دراز، ص 128.

طبيعة هذا الترتيب المصحفي هي التي سمحت بحدوث هذا الارتباط النسقي، والتناسق العضوي، كأن آيات كل سورة، قد أنزلت في آن واحد، وتجاورت في مواقعها كما تقاربت في نزولها، إلا أن الأثر يثبت تباعدها النزولي واختلاف دلالاتها ومعانيها، والتعجل في وضعها مواقعها من السورة دون تأني ومراعاة السياق والسباق.

ولفهم هذا السر العجيب، طرح دراز فكرة جديدة، وعميقة في التأسيس لحقيقة الوحدة في السورة، وهي أن هذا الانسجام رسم وفق خطة شاملة تفصيلية، وهيكل هندسي بديع، نسج مسبقا - بعناية وعلم إلهي لا نهائي - قبل أن تنزل الآيات والسور على النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ فقد كانت مجمعة، ثم فرقت، ثم جمعت مرة أخرى، وذلك «كمثل بنيان كان قائما على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرّقت أنقاضا، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصا يشد بعضه بعضا كهيئته أول مرة».⁽¹⁾

ولم يشير إلى هذا التخطيط الهندسي، والخطة التفصيلية لأماكن الآيات الموقعية، ولبناء السورة المرصوص إلا القلة القليلة من الدارسين المعاصرين، وأغلب الظن أن من عرف ذلك، إنما كان عن طريق دراز وتأثر به؛ وذلك كحال محمد محمود حجازي الذي تحدث عن النظام الهيكلي للسورة، والسابق وضعها لنزول آياتها، وترتيبها فيها، وصرح - في ذلك - بنصوص كثيرة تكاد تكون متطابقة مع نصوص دراز - كأنه تكمص فكره وأسلوبه -؛ فمن ذلك قوله: «كأن هذه الآية نقلت من مكان معلوم، وبرقم معلوم، لتوضع في مكانها المعروف».⁽²⁾

وفي قوله - أيضا - : «لو أن شاعرا أو كاتباً في مستقبل حياته الأدبية الفنية جاء بتخطيط في ذهنه لديوانه، ثم أخذ كل يوم أو أيام يضع بيتاً أو قطعة من إنتاجه الموافق لأحداث تمر به ثم يأمر فتوضع في مكان خاص... إنه لا يقبل على مثل هذا إلا أحد رجلين: رجل جاهل أحمق، ورجل عنده علم ليس في طاقة البشر...».⁽³⁾

أما الوحدة في القرآن الكريم - في موضوعاته -، فيؤسسها ما يسميه دراز "بالنظام" الذي يجسد روح القرابة بين عناصر الموضوع القرآني، ويربط دوائرها في مركزها المشترك، فيحدث ذلك اثتلاقاً عضوياً

¹ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 188.

² - الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد محمود حجازي، مطبعة المدني، القاهرة، ط1، 1970م، ص 58.

³ - المصدر نفسه، ص 59.

بين هذه العناصر، وذلك بصفة النظام الكلية والشمولية، كما يحدث ذلك ارتباط بين هذه الدوائر وتسلسل أفكارها، وذلك بصفة النظام المنطقية، وثنائتي الشمولية والتوزيع.⁽¹⁾

وهذا أيضا ما اعتبرته الدراسات المعاصرة أهم الملامح المنهجية لبلورة الوحدة العامة للموضوعات القرآنية؛ حيث اصطلحت أغلبيتها على تسميته بـ "المناسبات"، والذي يسهل عملية تصنيف الموضوع إلى عناصر ومقدمة وخاتمة، متسلسلة ومتراطة فيما بينها، في إطار متناسب، وبناء متناسق قائم الأركان.⁽²⁾

هذا وقد سماه عبد الحميد الفراهي بالنظام، وجعله خيطا جامعاً، لكل معاني السورة وآياتها، مرتبطة أجزاءها بـ "عمود" المعاني؛ سواء أكان ذلك على مستوى السورة الواحدة، أم كان في القرآن الكريم كله بجميع آياته وسوره.⁽³⁾

هذا وقد استبعد عبد الستار سعيد أن يدرج النظام، وعلم المناسبات، والوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم، من مراحل التفسير الموضوعي الخاص الذي تقوم وحدته على الارتباط في أصل المعنى والغايات معا.⁽⁴⁾

ألا إن مما يؤاخذ عليه دراز هنا، إغفاله غالباً لمفهوم التفرد، والذي يعد من أهم المفاهيم الأساسية المشكلة لحقيقة الوحدة في القرآن الكريم، ضمن إحدى الثلاثيات التأسيسية المنهجية: التفرد، التناسب والارتباط، ثم القوة والتماسك؛ فيكاد المتدبر لأفكار دراز التفسيرية أن يجزم باختفاء معنى التفرد في أعماله التنظيرية العلمية، وذلك بالرغم من وضوح باقي أركان الثالوث الأخرى.

قلّب أي صفحة من صفحات مؤلفاته القرآنية- في جانبها النظري- ستجد أن دراز كان مهتماً وشغوفاً بإبراز الارتباط بين أجزاء السورة القرآنية، أو بين عناصر المواد المتفرقة، والموضوعات والأفكار الثانوية أو الرئيسية للموضوعات القرآنية، ثم بإبراز جماليات التماسك والالتحام العضوي، ومعجزة الروح السارية بين هذه العناصر، والإحكام التام لِبِنَاتِ هذا البناء القرآني الأدبي الشامخ.

¹ ينظر: دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 07، 10، 53.

² ينظر: البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 48-49، ومباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 37، ومنهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 42 وغيرها.

³ دلائل النظام: عبد الحميد الفراهي، ص 75 نقلاً عن: إمعان النظر في نظر الآي والسور: محمد عناية الله أسد سبحاني، دار عمار، عمان، الأردن، ط1، 2003م، ص 24-25.

⁴ المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 57-58.

أما معنى التفرد والاستقلالية فلا يكاد يتضح إلا بحضور محتشم في بعض الإشارات العابرة، أكثر تعلقاً بالموضوع القرآني منه بالسورة القرآنية؛ وذلك كتصريحه بتخصيص الدراسة الأخلاقية في موضوع واحد مجاله تصورات القرآن الكريم النظرية، ومواقفه العملية، ثم بعزمه إعلاء البناء الأخلاقي القرآني، وتجريده عن غيره من المجالات القريبة إليه غير المتأصلة ضمن دوائره ومضامينه، ثم تصريحه بالارتباط بين الدوائر المعنوية ذوات المركزية المشتركة⁽¹⁾، أو الارتباط بين الأفكار الثانوية والفكرة الرئيسية في نواة مركزية جامعة.⁽²⁾

ومع قيمة هذه الإشارات النظرية العابرة، إلا أنها لا ترقى إلى قوة الدلالة، ومركزية المفاهيم الأخرى للوحدة، أي: الارتباط ثم التماسك والقوة، والتي اهتم بها دراز كثيراً في تفسيره لحقيقة الإعجاز اللغوي القرآني في جانب منه، هو جانب الكثرة والوحدة؛ فالأصل تساوي مفاهيم الثالوث التأسيسي لحقيقة الوحدة في القرآن الكريم، قوة ودلالة، تنظيراً ومنهجية، ممارسة وتطبيقاً.

هذا مع أن أغلب الدراسات المعاصرة في التفسير الموضوعي قد أشارت، واهتمت بإبراز هذه المفاهيم الأساسية لوحدة الموضوعات القرآنية على مستوياتها الأساسيين - عند أغلبيتهم -: الموضوع والسورة، وذلك في كثير من نصوصهم، وأرائهم، وأقوالهم.

فمن ذلك قول عبد الستار سعيد - للموضوع القرآني -: «بعد فهم الآيات الكريمة، والنظر إليها مجتمعة، يقسم المفسر الموضوع إلى عناصر وأجزاء منتزعة من صميم المعاني المقررة في الآيات الكريمة، ويربط بينها برباط علمي، يجعل من الموضوع وحدة واحدة، سلسلة ومرتبطة ترتيباً فنياً يتفق مع النمط القرآني، فيقدم ما يتعلق بذات الله على كل شيء، وما يتعلق بالأصول دون الفروع... وفق خطة ونظام يبرز إعجاز القرآن في موضوعاته، كما هو معجز في مواضع آياته...»⁽³⁾.

ومن ذلك أيضاً أن أحمد رحمانى قد جعل من مفهوم الفكرة المهيمنة على النص القرآني، الخاصية الأولى للتفسير الموضوعي «سواء بالنسبة للتفسير الموضوعي التجميعي الذي يضع نصب عينيه التركيب الاستيعابي للآيات الماثورة في القرآن الكريم، أو بالنسبة للتفسير الموضوعي السوري الذي يدقق في مسألة الوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم»⁽⁴⁾، وغيرهم في ذلك كثير.

¹ - ينظر: دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 07، 08، 09، 10.

² - ينظر: المدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 131.

³ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 65.

⁴ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحمانى، ص 49.

إذن فقد ضعفت عنده الفكرة المهيمنة أو: معنى التفرد والاستقلالية في دراساته لوحدة السور القرآنية التي فسرها - وإن كانت أقل ضعفا من سابقتها في الموضوع القرآن-؛ ذلك أنها كانت حصيلة حتمية لتحقيق التآلف بين موضوعات السورة الواحدة، ولحصول الالتحام بين عناصرها ومعانيها المتنوعة والمتفرقة، بمعنى آخر: أن دراز - رحمه الله - كان شغله الشاغل إظهار التوافق والانسجام بين موضوعات السورة المتنوعة، وتحقيق الاتحاد بينها، رغم وجود عوائق معنوية، و زمانية تنزلية، وتأليفية تجاورية يمكن - بل توجب - أن تمزق وحدتها ونظمها، فهذا هدف كلي أساسي ولا يكون - بعد ذلك - مفهوم التفرد والاستقلالية إلا مفهوما تابعا لمفهومي: التناسب والارتباط، ثم القوة والتماسك والالتحام.

و قد دل على ذلك تصريحه بتعدد موضوعات السورة وقضاياها الأساسية، كما في سور: البقرة⁽¹⁾، يسن⁽²⁾، الملك⁽³⁾، والتكوير⁽⁴⁾ واهتمامه بإظهار وجوه الارتباطات بين قضايا السورة ومقاصدها الأساسية فيما بينها، لا فيما بينهما وبين الفكرة المركزية المهيمنة عليها، حتى في أغلب السور التي صرح فيها بموضوع واحد لها، كما في سور: غافر، والقلم، والنبأ.⁽⁵⁾

كما دل على ذلك أيضا - جزمه أن تفرد كل سورة عن أختها إنما يكون من خلال اللون، أو المشرب، أو الطعم، أو الأسلوب، أو المزاج، أو المنهاج، أو الترتيب، وهذه مصطلحات تدل كلها بجلاء على معنى الانسجام والالتحام الخاص بكل سورة؛ فهي بذلك صورة مؤتلفة، وحلة موشية، يغاير منظرها الخارجي منظر الحليات الأخريات، رغم توافق أو اشتراك الخيوط الداخلية لها.

ولا يعني الانسجام والتآلف هنا ما يكون بين جزئيات السورة التفصيلية، دون كلياتها، فهذا غير مقصود عند دراز؛ إذ توافق رأيه مع الدراسات المعاصرة في اشتراط استباق النظرة الكلية الشاملة لمحور السورة، حتى يسهل - بعد ذلك - الربط بين عناصر متفرقة، وأفكار متنوعة، وأحيانا متضادة في سياقاتها الموضوعية.

يقول عنه محمد رجب البيومي: «وقد كدت أميل بعض الميل إلى أنه يقصد التلاحم الجزئي بين الآية والآية جريا وراء ما يذكره بعض المفسرين من المناسبات المتصيدة... ولكن السياق العام يوحي بغير

¹ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 196.

² - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 147.

³ - المصدر نفسه، ص 161.

⁴ - المصدر نفسه، ص 239.

⁵ - المصدر نفسه، ص 155، 189، 222.

ذلك إجماع قويا يؤكد قول الدكتور... كما تؤكد محاولته التمثيلية في تطبيق هذا الاتجاه على سورة البقرة»⁽¹⁾.

و حتى إنه يلاحظ _ من ذلك _ تغير الدراسة في تفسيره لسورة البقرة، بين كتابه "حصاد قلم" الذي صرح فيه بمقصدتين فقط للسورة⁽²⁾، وبين كتابه "النبأ العظيم"، والذي فصل فيه هذين المقصدتين إلى أربعة مقاصد أساسية،⁽³⁾ والسر من وراء ذلك يرجع -والله أعلم- أن دراز قد خصص فصول "النبأ العظيم"، للتدليل على إعجاز القرآن الكريم في لغته وبيانه، وذلك من أجل إثبات مصدرته الإلهية؛ فكان اهتمامه في ميزة "الكثرة والوحدة"، إثبات التماسك العضوي بين أجزاء السورة الكثير حجما، والمتنوعة معاني وموضوعات، والمختلفة كيفية تنزيل، وطريقة تأليف وتجاوز، وهذا ما لم تستطعه القدرة البشرية بأي حال من الأحوال كما أكد على ذلك تصريحاً وتمثيلاً،⁽⁴⁾ أما تفسيره في "حصاد قلم"، فلم يكن لإبراز هذا الهدف؛ وإنما كان لدراسة معاني السورة كإحدى حلقات التفسير الموضوعي المعلن عنها ابتداءً في تفسيره لبعض السور القرآنية.⁽⁵⁾

أما لماذا لم يتضح عنده معنى الانفراد والاستقلالية بنفس الصورة ومنهجية الدراسة لمعاني الارتباط، والتماسك، فذلك يعكس تأثيراً دراز بالمنهج الأدبي النقدي عبر مدارسه الغربية والعربية، والتي تقاطعت آراؤها حول مفهوم وحدة النص الأدبي؛ وذلك في أن «يكون العمل الفني متماسك الأجزاء يؤدي كل جزء فيه إلى ما يليه، وأن يدور على عقدة واحدة وحل واحد... وأن تكون المشاعر التي يثيرها واحدة، وذلك يستدعي ترتيباً ينتهي إلى خاتمة يستلزمها الترتيب السابق، فتكون أجزاء القصيدة كالجسم الحي لكل عضو فيه وظيفته...»⁽⁶⁾.

فواضح من هذا أن مفهوم الوحدة عند دراز يركز على الرؤية الأدبية، والمنهج النقدي للنصوص الشعرية والنثرية الفنية، وهنا يقع الإشكال من جهتين:

¹ - البيان القرآني: محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2001م، ص 142.

² - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 111.

³ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 196.

⁴ - المصدر نفسه، ص 180 وما بعدها.

⁵ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 147 وما بعدها.

⁶ - منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (دراسة نقدية): سامر عبد الرحمن رشواني، ص 238.

الجهة الأولى: مشكلة نقل المفهوم من مجال النصوص الأدبية إلى مجال النص القرآني؛ وذلك في إخضاعه لمعايير ومناهج ومصطلحات الأعمال الأدبية الإنسانية، وهو ما يعني تشبيها للكلام الإلهي بكلام البشر، وطعنا في الإعجاز القرآني.⁽¹⁾

والجهة الثانية: مشكلة نقل المفهوم من الدراسات الغربية إلى الدراسات العربية، وذلك مع اختلافه في الآداب اليونانية والأوربية القديمة أو الحديثة مع مفهومها في الأدب العربي القديم القائم على وحدة البيت دون القصيدة على ما هو في المشهور.⁽²⁾

ثانيا: في أهميتها وأنواعها:

أما عن أهميتها، فتتفق كلمة جميع الدارسين المعاصرين -سواء المثبتين لها في الموضوع فقط أو المثبتين لها في الموضوع والسورة معا- على أهمية الوحدة في تحقيق الإعجاز اللغوي في الالتحام وجماليات التشكيل، والإعجاز العقائدي والتشريعي في بلورة النظريات والقوانين القرآنية للحقائق الوجودية والإنسانية المتكاملة، والإصلاحية لمشكلات البشر الدائمة أو المتجددة.

برز هذا الاتفاق في تصريحاتهم المتعددة، وتحليلاتهم المتنوعة في إطار التفسير الموضوعي بصفة عامة⁽³⁾؛ وذلك باعتباره الأساس المنطقي الذي يبرز الوحدة كغاية نهائية له، وهدفا منشودا من ورائه كما قال حجازي.⁽⁴⁾

ولكن لا يعني هذا «أن مفهوم التفسير الموضوعي للسورة⁽⁵⁾ يمكن اختزاله في مفهوم "الوحدة"⁽⁶⁾؛ لأنها ليست كل مراحل التفسير الموضوعي.

هذا وقد أضاف عبد الستار سعيد أبعادا أخرى لأهمية الوحدة القرآنية، -أو التفسير الموضوعي بمعناه الخاص كما يسميه- من غير الإعجاز والغائية، -وتابعه في ذلك مصطفى مسلم والخالدي-؛ فمن ذلك أيضا تأصيل الدراسات القرآنية والعلمية في مفاهيم موحدة لشتى العلوم، وكذلك تصحيح

¹ - مرجع سابق، ص 140-241.

² - المرجع نفسه، ص 141.

³ - يتظر: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد محمود حجازي، ص 58-60، والبدائية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، ص 53-55، ومباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 30-32 وغيرهم.

⁴ - الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد محمود حجازي، ص 31.

⁵ - أو حتى للموضوع القرآني.

⁶ - منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 242.

مسار الدراسات القائمة، خاصة المتعلقة منها بإصلاح طريقة التفسير وإنضاجه من المناهج الجزئية، والاستغراق من المجالات الفرعية إلى النظرات الكلية، والمعاني الموحدة، والحقائق والمقاصد العليا، وفق المنهج العلمي الصحيح كما قال. (1)

وأما عن أنواع الوحدة عند دراز، أي: الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية، فهذا أيضا محل اتفاق بين أغلب الدارسين المعاصرين، والذين أشاروا إلى ذلك ضمن مسميات عديدة؛ إذ يطلق على الترابط والاتساق بين أجزاء السورة، أو عناصر الموضوع، حتى تسري بينها روح واحدة مصطلح "الوحدة العضوية" كما نص أحمد رحماني (2)، أو "بالوحدة الفنية والأدبية" كما نص زياد الدغامين (3)، أو تسميات أخرى التي سنعود إليها في الفرع التالي. (4)

هذا التماسك والالتحام يظهر خاصة على مستوى السورة القرآنية - الطويلة منها بالتحديد - التي تظهر تنوعا في الموضوعات، وثراء في القضايا والأفكار.

كما يظهر هذا أيضا بين عناصر الموضوع القرآني الأساسية، في ترابطها فيما بينها، وتسلسلها في أفكار متلاحقة، أو في دوائر متداخلة، وهذا ما أبرزه محمد عبد الله دراز في تأصيلاته النظرية أو في دراساته التطبيقية من كتابيه "الدستور" و"النبأ".

ولكن اختلفت زاوية النظر، ونسبة المعالجة عنده في دراسته للوحدة العضوية بين الموضوع القرآني (النظرية الأخلاقية في القرآن)، وبين السورة القرآنية (سورة البقرة نموذجاً)، فظهر اهتمامه بإبراز الترابط والالتحام العضوي في السورة القرآنية بين المقاصد الأربعة الأساسية أو القضايا التفصيلية لسورة البقرة، أكثر من اهتمامه بإبراز هذا التلاحم العضوي بين عناصر النظرية الأخلاقية في القرآن كله.

صحيح أنه توصل إلى استنتاج عام يعكس هذا التلاحم العضوي بين عناصر النظرية الأخلاقية، وذلك بوصفه "تركيب لتراكيب" أو "بناء عضوي" (5)، وأنه كذلك ربط بين هذه العناصر الخمسة في بداية المعالجة، أو في نهاية التلخيص، ولكن هذا الربط لم يكن كثيفا، ومعتمدا على وجوه متنوعة من المناسبات كما هو ملاحظ في تفسيره للسورة القرآنية، هذا من جهة.

¹ - ينظر المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 43-55.

² - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحماني، ص 39.

³ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 96.

⁴ - في مناقشته عن المسميات العلمية والشخصية للوحدة، ص 412.

⁵ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 686.

ومن جهة أخرى فإن الربط والتلاحم هنا -لنظرية الأخلاقية- كان ربطا منطقيًا وفكريًا، بخلاف التلاحم بين القضايا ومقاصد سورة البقرة الذي كان ربطا منطقيًا ولغويًا معًا في آن واحد؛ إذ قد رأينا كيف كان دراز يبيّن تفرع كل عنصر من عناصر النظرية الأخلاقية الخمسة عن الآخر تفرعًا مناسبًا لتدرج النسق الفكري من الماهية إلى الأسس إلى تدرج المفاهيم إلى الثمرات.

ولعل سبب هذا الاختلاف يرجع في جوهره إلى أن دراز اهتم في المجال الأول -مستوى السورة- بإبراز الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم، وذلك في أجلى خاصية له، وهي خاصية الاتحاد وجمالياته ضمن كثرة موضوعاته وتفرعاتها.

بخلاف المجال الثاني -الموضوع القرآني- الذي انصب فيه جهد دراز على التأسيس المعرفي الفكري لنظرية قرآنية في علم الأخلاق، لم تستطع الدراسات العربية أو الغربية قبله أن تبرزها في شكل بناء مستقل، ونظرية متكاملة، وهذا التأسيس المعرفي الفكري قلّت معه وجوه الارتباطات اللغوية، وذلك من خلال قوله: «ولا شك أننا كنا نود أن نضم الجمال إلى الوضوح، والحاذية إلى الإحكام، وكان من المناسب بعد أن زرنا ثمرات الفكر أن نعني بأزهار الأسلوب... فقد كنا نخشى إن بحثنا عن البريق أن نهدد المحكم المتين... فنحن مقتنعون إذن بتقديم أفكارنا ومصطلحاتنا...»⁽¹⁾.

كما أنه وضح لنا طبيعة الارتباطات -القليلة- بين قضايا أعمدة النظرية الأخلاقية، وذلك ما سجله في الخاتمة العامة لبحثه؛ حينما بيّن أن هذه الارتباطات ارتباطات معنوية فكرية تلازمية، أكثر منها لغوية نسقية؛ وذلك كما في قوله: «ولقد استطعنا أن نشهد كيف يمتزج المثالي بالواقع العملي الصلد، وصرامة الإطار تسير مع المرونة في المضمون جنبًا إلى جنب... ورأينا كيف يكتمل العقل بالإيمان، وكيف يعتمد الإيمان على العقل...»⁽²⁾، وعدد في ذلك مجموعة من النتائج النهائية.

وقد كانت هذه الارتباطات المعنوية نتائج لتحليلات منطقية عميقة في كل مبحث من مباحث كتابه "الدستور"⁽³⁾، ولم تكن موضحة مسبقًا في إطار من التناسبات العامة أو الخاصة القليلة الاستعمال في هذا الكتاب، كما أنها لم تعكس -من جهة أخرى- الالتحامات والارتباطات بين القضايا الكبرى التي تندرج ضمنها، وهي الأعمدة الخمسة المشكّلة للنظرية الأخلاقية، باستثناء الارتباطات المعنوية التفرعية المبينة آنفاً، بمعنى آخر: أنه لم يوضح لنا -نظريًا أو تطبيقيًا- طبيعة "روح

¹ - دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز، ص 685.

² - المصدر نفسه، ص 686-687.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 19، 135، 245، 419، 583.

القرابة" بين العناصر الكلية أو الفرعية، هل هي : قرابة أخوة؟ أم قرابة بنوة وأبوة؟ أم قرابة عمومة أو خالية؟ هل هي قرابة قريبة من العائلة الصغيرة؟ أم هي قرابة بعيدة من العائلة الكبيرة؟.

و يكاد المطلع على هذه التفرعات المنطقية في كتابه "الدستور" أن يجزم بأنها متسلسلة وفق روح القرابة البعيدة التي تركز غالبا على وجوه المنطق والفكر أكثر من ارتكازها على أساليب اللغة والبيان.

وما يؤخذ عليه _ هنا _ كذلك ارتكازه في تحديد مفهوم الوحدة العضوية على المنهج الأدبي للنصوص الإنسانية، والذي لم يتفق نقاده على مفهوم واحد لها، «فهو عند البعض بمعنى الوحدة الموضوعية، أي: قيام العمل الأدبي على فكرة أو موضوع واحد، تدور كل أجزائه حوله، وهو عند آخرين بمعنى الوحدة الفنية، أو بمعنى الوحدة الشعورية، ويستخدمه البعض بالمعنى المطلق للوحدة؛ أي تماسك العمل الأدبي وانسجام عناصره بغض النظر عن المعاني أو الأفكار التي يتناولها».⁽¹⁾

وتتشابه هذه المعاني الثلاثة في تفسير دراز الأول والثاني منهما على مستوى النظر والتأصيل، والثالث على مستوى الدراسة والتحليل.

أما عن الوحدة الموضوعية، فقد وقع فيها الخلاف بين الدارسين المعاصرين إثباتا ونفيا عند محمد عبد الله دراز؛ إذ نص أغلبهم على وجود ووضوح هذا النوع من الوحدة عند دراز، كما هو مقرر عند زياد الدغامين⁽²⁾، ومحمد محمود حجازي⁽³⁾، ومحمد الغزالي⁽⁴⁾، وأحمد رحماني⁽⁵⁾، وظاهر قول مصطفى مسلم.⁽⁶⁾

والبعض الآخر نفى ذلك عنه ورأى أنه لم يتحدث إلا عن الوحدة العضوية؛ وذلك كحال محمد رجب البيومي الذي استبعد تحقق الموضوع والغرض الواحد في منهج دراز؛ وذلك حينما قال عنه -في مقاصد سورة البقرة-: «وهي محاولة ذكية تدل على جهد يبذل في تأييد قضية يؤمن بها، ولكننا في حل من أن نقول إن محاولة هذا التحديد الجامع لهذه العناصر لم تكن موضوع اتفاق بين الدارسين؛ إذ أنها

¹ - منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: دراسة نقدية: سامر عبد الرحمان رشواني، ص 240.

² - منهجية البحث للتفسير الموضوعي في القرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 112.

³ - الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد محمود حجازي، ص 47-48.

⁴ - نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 05.

⁵ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 33.

⁶ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 57-58.

تجاهلت عناصر أخرى جاءت بها سورة البقرة دون أن يطمئن دارس محايد إلى اندراجها فيما حدد الأستاذ من المقاصد إلا بتكلف كبير». (1)

ورغم أنه وصفه بأنه صاحب «نظرية علمية تتطلب البحث الوثيد» (2)، إلا أنه حكم عليه بحكم قاس حينما قال: «وقد أتاح الدكتور بذلك لكل مبتدئ أن يعتمد إلى سورة من السور الكريمة فيختار بعض عناصرها المتقاربة، ويهمل ما لا سبيل إلى انضمامه، ثم يخرج برأي يهتف بوحدة الموضوع في السورة القرآنية». (3)

وقد دافع عنه محمد إبراهيم شريف، حينما رأى أن عمل دراز في ذلك ليس إلا البحث عن إطار السورة، ولم يبحث عن الغرض الواحد لها. (4)

فيما رأى سامر رشواني أن دراز لم يقل إلا بالوحدة العضوية، والغرض الواحد أو وحدة الروح الذي تتجه إليه السورة بأكملها؛ وذلك بدليل استخدامه الوحدة العضوية والوحدة المنطقية في كتابته المدخل، كما أن دراز -في نظر رشواني- حذر المفسر من محو الفوارق الطبيعية بين المعاني المختلفة داخل السورة الواحدة، وهذا في نظر رشواني دليل راجح في اتضاح الوحدة العضوية عند دراز فقط. (5)

هذه الآراء الثلاثة الأخيرة لم تخل من الشطط في الحكم، والإفراط في النقد، وهي آراء ينقصها التأمل الدقيق، والتحليل العميق لجميع آراء دراز في الوحدة تنظيراً ودراسة، بدليل أنها لم تتعد الكتابين أو الثلاثة في قراءتها لآراء دراز.

فأما محمد رجب البيومي فلم يطلع على أعمال دراز التفسيرية إلا تفسيره لسورة البقرة من كتابه "النبا"، مع أن دراز فسر سور أخرى تجاوزت الست سور في كتابه "الحصاد" (6)، وذلك بمنهجية مغايرة لتفسيره سورة البقرة في كتابه "النبا"؛ فقد عرفنا أن دراز كان ينحو في هذا الكتاب الأخير الكشف عن

1- البيان القرآني: محمد رجب البيومي، ص 143.

2- المرجع نفسه، ص 141.

3- المرجع نفسه، ص 143.

4- اتجاهات التجديد في تفسير القرآن: إبراهيم شريف نقلاً عن: منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 112.

5- منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 297.

6- حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 111 وما بعدها.

إعجاز القرآن في ترابط آياته، وتماسك أجزاء سورته على اختلاف معانيها، وتباعد أزمنة نزولها، وغرابة طرق تجاوزها، أي: كان يثبت الوحدة العضوية في هذه السورة -البقرة- بالدرجة الأولى.

في حين أنه اتجه في كتابه "الحصاد" إلى منحى إثبات الوحدة الموضوعية، وكان يركز -من خلال ذلك- على ذكر الموضوع في بداية تفسير السور، ثم يربط بينه وبين أجزاء السورة، دون أن لا يغفل - طبعاً- عن إبراز التماسك العضوي بينها.

كما أن البيومي لم يوضح لنا طبيعة هذه العناصر المحذوفة التي لم يذكرها دراز، والتي لا تدرج ضمن المقاصد الأربعة للسورة إلا بتكلف كبير؟!!

بل من قرأ تفسير دراز لهذه السورة قراءة مكررة علم بأن دراز أحصى كل آيات السورة في مقاصد كلية تدرج ضمنها، لكنه كان مهتماً ومنشغلاً بإبراز العلاقات التناسبية بينها أكثر من اهتمامه بربطها بموضوع السورة العام.

فلم تكن لدراز طريقة ومنهجية واضحة ومفصلة في الربط بين هذه المقاصد أو آياتها التفصيلية مع موضوع السور العام، بل فاجأنا به بغتة في آخر السورة، دون أن يجهد له من أولها، وهذا ما أريك البيومي، ودفعه إلى الجزم بانعدام الوحدة الموضوعية عند دراز في تفسيره لسورة البقرة من كتابه "النبأ" فقط.

أما عن رأي محمد إبراهيم شريف، فيكفي في الرد عليه تصريح دراز بتحقيق الوحدة للسورة القرآنية عضوية كانت، أم منطقية، أم مزدوجة بينهما.⁽¹⁾

كما أن هناك فرق واضح بين وحدة السورة العضوية أو الموضوعية، وبين وحدة الإطار للسورة، والذي يعنى بالتناسق بين موضوعات وأشياء متنوعة، فلا يتجاوزها إلى معاني الالتحام أو الوحدة العضوية للسورة، فلا شك أن مفهوم الوحدة أخص من مفهوم الإطار.

كما أن فكرة الإطار العام للسورة لم تلق رواجاً شديداً بين من ينتمون إلى الاتجاه الأدبي أكثر مما لاقته فكرة الوحدة العضوية، بل تعدى ذلك إلى غير الاتجاه الأدبي.⁽²⁾

¹ - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 130.

² - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 111.

بقي -هنا- مناقشة رأي سامر رشواني، والذي ارتكن إلى كتاب دراز "المدخل" ليقتبس منه بعض العبارات -وكتاب "النبا" كذلك-، ثم ليبيّن منهما حكما جازما في نفي الوحدة الموضوعية في منهج دراز التفسيري، ولو رجع إلى مؤلفاته الأخرى خاصة "الحصاد"، وتأمل "الدستور" و "النبا" و "المدخل" مليا لوجد أن دراز صرح بوحدين متغايرتين: عضوية أو فنية أو بيانية أو أدبية كما يسميها، ثم وحدة أخرى منطقية أو معنوية أو طبيعية على حد تسميته أخرى.⁽¹⁾

وما لم ينتبه إليه رشواني أو غيره في هذا المجال، ما انفرد به دراز من نظرة جديدة في باب الوحدة؛ وذلك حينما جزم بتلازم هذين الوحدتين العضوية والموضوعية تلازما وجوديا؛ فإذا وجدت الوحدة الأولى تفرعت عنها الوحدة الثانية، والعكس في ذلك صحيح، وهذا ما صرح به دراز، وحاول تطبيقه في تفسيره لبعض السور القرآنية.

فلعل من ألصق بدراز الوحدة العضوية فقط، انتبه إلى الوحدة الأولى التي تحتل مكان القلب من تحليل السورة، وغفل -بعد ذلك- عن تنمة هذا التحليل الذي سيقودنا -لا شك- إلى استنباط الوحدة الثانية، ألا وهي الوحدة الموضوعية أو المعنوية.

ولعل محل العتاب على دراز -هنا- أنه أبرز الوحدة العضوية بشكل واضح، وبمنهجية تفصيلية قائمة -في أغلبها- على وجوه المناسبات، ولكنه لم يبرز الوحدة المعنوية بنفس الوضوح -أو أقرب منه-، أو بمنهجية نظرية تفصيلية، خاصة في كتابه "النبا"، إلا ما استنبطناه من تناسبات متنوعة في تفسيره لسور أخرى من كتابه "الحصاد".⁽²⁾

وهذا ما لم يبيّنه -أيضا- الدارسون المعاصرون المثبتون للوحدة الموضوعية عند دراز؛ إذ اقتصر أغلبهم على الوصف واقتباس نص أو اثنين من مؤلفات دراز، أما البعض الآخر فقد أطلق أحكاما حقيقة من غير أدلة تصدقها، كما فعل الدغامين حينما وصفه بقوله: «إن دراز يؤكد على الوحدة الموضوعية في سور القرآن، وقيم البحث فيها على أسس منهجية، لقد امتاز عمله بالدقة والضبط، والتطبيق المنهجي على بعض السور».⁽³⁾

¹ -يراجع دستور الأخلاق في القرآن الكريم، ص 07، والنبأ العظيم: ص 176، ومدخل إلى القرآن الكريم، ص 130.

² -وذلك في بداية المطلب الرابع من المبحث السابق لهذا المبحث، ص 351 وما بعدها.

³ -منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 112.

وكما فعل أيضا أحمد رحماني حينما قال: «ولعل الذي كانت الوحدة الموضوعية أوضح في ذهنه وهو يعالج مناهج تفسير القرآن الكريم هو الدكتور عبد الله دراز...»، ثم نقل عنه بعض النصوص النظرية والتطبيقية (ثلاثة نصوص) من كتابيه "المدخل" و"النبأ"، في حين أنه نقل عنه الدغامين نصا واحدا نظريا من كتابه "النبأ".

فهذه القراءة اقتصر على كتاب "النبأ"، الذي اتضحت -من خلاله- الوحدة الفنية أو العضوية -كما يسميها دراز وغيره-، ولو شملت كتاب "الحصاد" أو "الدستور" أيضا للمست بعض أو كل الأسس المنهجية عنده في استنباط الوحدة الموضوعية.

هذه القراءة المقتصرة على بعض النصوص والمؤلفات، هي التي وقع فيها -أيضا- رشواني حينما ركن إلى تصريح دراز استحالة محو الفوارق الطبيعية بين المعاني المختلفة داخل السورة الواحدة، لنفي الوحدة الموضوعية عنده⁽¹⁾، فمن قال من الدارسين المعاصرين باتحاد المعاني التفصيلية داخل السورة ليثبت بها الوحدة الموضوعية؟⁽²⁾

الفرع الثاني: في مسمياتها، ومواضيعها من السور المفسرة.

قد اصطلح دراز بكم هائل لا بأس به من المسميات للوحدة في معناها الترابطي الالتحامي، أو في معنى مركزية الفكرة الواحدة للمعاني المتعددة في موضوعات القرآن الكريم، أو في سورة واحدة منه.

وقد عرفنا أن أبعاد بعض هذه التسميات كانت أكاديمية منهجية متفق على غالبيتها قديما وحديثا، في حين خضعت التسميات الباقية الأخرى إلى التذوق الشخصي، والحس البياني الذي كان يتمتع به دراز، موافقا في ذلك لبعض الدراسات المعاصرة، أو مخالفا لها، أو مستقلا بتسميات خاصة به.

فمن التسميات المتابع عليها الوحدة العضوية التي تابعه فيها أحمد رحماني⁽³⁾، بمفهوم الالتحام بين الموضوعات المتعددة، كانصهار السكر في الماء، وتسمية الروح أو روح واحدة التي وافقه عليها محمد رجب البيومي⁽⁴⁾، وسبقه إليها مصطفى صادق الرافعي⁽⁵⁾، وكتسمية الوحدة الفنية والوحدة المعنوية

¹ - ينظر: النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 194.

² - يراجع مثلا: المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 24-25، والوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد محمود حجازي، ص 42، والوحدة الموضوعية للسورة القرآنية: رفعت فوزي عبد المطلب، ص 07.

³ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 38.

⁴ - البيان القرآني: محمد رجب البيومي، ص 132.

⁵ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 2004، ص195.

اللتين صرح بهما غير واحد، مثل زياد الدغامين⁽¹⁾، وقريب منها تسمية "الوحدة المنطقية" التي أشار إليها أحمد رحمانى⁽²⁾، كما أشار أيضا إلى تسمية "الصورة"⁽³⁾.

و تنفرد - قبل ذلك - ثلاثة مسميات بشهرة واسعة قديما وحديثا؛ بل هي محل اتفاق بينهم جميعا، وهي مصطلحات الوحدة، والنظم أو النظام، والنسق.

فأما المصطلح الأول فأصله جميع الدراسات المعاصرة للتفسير الموضوعي سواء بإفرادها أم بإلحاقها أوصافا متعددة: ك: الموضوعية، أو الجامعة، أو المتكاملة أو السور، أو السورة وغير ذلك.

أما المصطلح الثاني فهو مصطلح اشتهر قديما خاصة عند عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية "النظم" البلاغية الشهيرة، وقد استعمله الجاحظ أولا في كتابه المفقود "نظم القرآن"⁽⁴⁾، وقريب منه مصطلح "النظام"، الذي استعمله حديثا عبد الحميد الفراهي.

وأما مصطلح "النسق"، فهو مصطلح موظف حديثا في بعض الدراسات القرآنية⁽⁵⁾، وإن كان بعض المتقدمين أشاروا إليه تحت اسم "التناسق"⁽⁶⁾.

ومن التسميات الدقيقة والعلمية في آن واحد عند دراز تسمية "البنية" أو "البناء"، والتي تعتبر النص القرآني مكونا من أنسجة لغوية متناسقة، وهي تسمية عرف بها منهج لغوي مستقل، ومدرسة حديثة هي "المدرسة البنيوية"⁽⁷⁾.

هذا وقد إنتقدت تسمية "الوحدة العضوية"، والتي - رأينا آنفا - أنها نشأت في أحضان المنهج الأدبي، واقتبست بعد ذلك لتوظف في مجال تفسير النص القرآني على ما فيها من مفارقة بينهما، ومن إشكالية في نقل المعايير والمفاهيم.⁽⁸⁾

1- منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 96.

2- التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحمانى، ص 38-39.

3- المرجع نفسه، ص 38-39.

4- البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف: دار المعارف، ط9، ص 161.

5- ينظر: منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية، سامر عبد الرحمن رشواني، ص 241، 301.

6- يراجع: منهاج البلغاء وسراج الأدباء: حازم القرطاجني، تح محمد بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986، ص96.

7- يراجع: المنهج البنيوي: الزواوي بغورة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2001، ص 73.

8- منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 241.

وهذا ما حدا ببعض الدراسات المعاصرة أن تتفادى هذه التسمية، وتستبدلها باسم "النسق القرآني"، كما فعل كامل علي سعفان.⁽¹⁾

ومن العجيب أيضا أن دراز لم يوظف إطلاقا مصطلح "الوحدة الموضوعية" في جميع مؤلفاته القرآنية، وذلك بالرغم من أنه تحدث في كتابه "المدخل" عن موضوع واحد للسورة بمقدمة وخاتمة⁽²⁾، وإن كان قد مال إلى تسميات أخرى لها كالوحدة الطبيعية أو المنطقية أو المعنوية.⁽³⁾

ولعل غياب هذا المصطلح الهام عنده، قد أعطى مبررا لبعض الدارسين المعاصرين لينفي تحقق الوحدة الموضوعية في منهج دراز التفسيري.⁽⁴⁾

ولا يمكن -هنا- قبول مصطلح "الوحدة الطبيعية"، التي وإن دلت عند دراز على وحدة المعنى، والفكرة للسورة القرآنية، كما صرح بذلك، إلا أنها لم تبين على أسس منهجية واضحة، وطرق أكاديمية مفصلة؛ بل إن هذا المصطلح إذا أطلق لإفراد لا ينطبع ولا يتقدح في أذهاننا أنه يدل على ذلك.

وتبقى -بعد ذلك- التسميات الأخرى الكثيرة، ذات الحس الذوقي البياني عند دراز، التي قد يوافق عليها أم لا، وإن كان أبداعها في ذلك تسميات "تركيب لتراكيب"، وكذلك "بناء عضوي"، و"البناء المتناسك"، والتي دلت على قطع دراز أشواط متقدمة في تأصيله لمفهوم الوحدة القرآنية.

والعجيب أيضا وجود أغلب هذه التسميات الأدبية الشخصية عند مفسر آخر من نفس المدرسة الأدبية التفسيرية التي ينتمي إليها دراز، ألا وهو الشيخ محمود شلتوت؛ والذي استخدم في

تفسيره مصطلحات: العقد، والسلك، والصورة.⁽⁵⁾

وأما تسميات: الدمية الحسناء، والحلة الموشية، واللون، والمزاج، والمشرب، والسيبكية، والعرق، والماء، واللوحه فهي تسميات وضعت على سبيل التقريب والتشبيه والتمثيل، ولا يمكن الاعتراض عليها علميا، إلا إذا أريد إلزام الدارسين الاصطلاح بها.

¹ - المرجع نفسه، ص 241.

² - مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 128.

³ - يراجع النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 176.

⁴ - كما ذهب إلى ذلك محمد رجب البيومي في كتابه "البيان القرآني"، ص 143.

⁵ - يراجع تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى: محمود شلتوت، دار الشروق، ص 66.

وأما عن مواضيعها وأفكارها، فسنورد -هنا- مقارنة بين هذه السور المفسرة، عنده، ثم عند بعض المفسرين المعاصرين المشتهرين بالتفسير الموضوعي، واستنباط الوحدة الموضوعية لكل سورة مفسرة، وهم: محمود شلتوت، سيد قطب، ومحمد الغزالي -رحمهم الله جميعا-.

أولاً: الوحدة الموضوعية في سورة الفاتحة.

رأى محمد عبد الله دراز -كما رأينا من قبل- أن سورة الفاتحة قد عاجلت الحق الإلهي والواجبات الإنسانية نظرياً وعملياً، وهو المعنى الكلي العام الذي تضمنه الكليات الكبرى التي جاء بها القرآن في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والقصص والتاريخ الإنساني، ولهذا سميت "أم الكتاب"، كما قرر ذلك دراز. (1)

أما الشيخ شلتوت فيرى نفس الرأي، قائلاً في ذلك: «... قد استوعبت ما يتوقف عليه كمال الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة؛ ذلك بأن كمال الإنسان إنما هو باستكمال قوتين: قوة النظر والعلم، وقوة الكسب والعمل...». (2)

ويقول أيضاً: «...والفاتحة تكفل نصفها الأول ببيان الحقيقة التي هي أساس هذا الوجود... و هذا هو الحق الذي بإدراكه تكمل قوة العلم والمعرفة، وتكفل نصفها الثاني ببيان أساس الخطة العملية في الحياة...». (3)

أما سيد قطب فيقرر موضوعها العام في قوله: «إن في هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامي، وكليات المشاعر والتوجهات...». (4)

وأما محمد الغزالي فيؤكد ما قاله: «تضمنت خلاصة وجيزة لعقائد الإسلام، وعهدا وثيقا بين الناس وربهم، يحقق رسالتهم في الوجود، ورجاء في الله أن يهدي الطريق، ويمنح التوفيق، وينعم بالرضا». (5)

ثانياً: الوحدة الموضوعية في سورة البقرة.

¹ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز: ص 97 وما بعدها.

² - تفسير القرآن الكريم: محمود شلتوت، ص 32، 274.

³ - المصدر نفسه، ص 33.

⁴ - في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، ط 32، 2003م، 21/1.

⁵ - نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 07.

قد رأى دراز أن السورة تعرّف بالدعوة الإسلامية، وتبين معالمها الأساسية (الإيمان، الإسلام، الإحسان)، وتكشف رجالها وأعداءها.

في حين يرى الشيخ محمد شلتوت أنها تدور حول موضوع البر أو التقوى، وذلك في قوله: «... ويأتي الغرضان⁽¹⁾ في آية البر مجملين "ليس" و"لكن"، فتنفي "ليس" أن يكون البر شيئاً مما درج عليه الحرفيون أصحاب المظاهر الجوفاء... وتثبت "لكن" أصول الإيمان الحق والعمل الصالح على أنها هي البر الصحيح...»⁽²⁾.

أما سيد قطب فيرى أن «المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يتربط الخطان الرئيسان فيه ترابطاً شديداً... فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية... وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة...»⁽³⁾.

أما محمد الغزالي فله أقوال متعددة، منها قوله: «فقد تكررت مادة التقوى خلال السورة بضعا وثلاثين مرة»⁽⁴⁾، وقوله: «وتمتاز سورة البقرة بأنها تحدثت عن أركان الإسلام الخمسة»⁽⁵⁾، وقوله: «هذا ما سجلته سورة البقرة من تاريخ القوم لتخلص منه إلى شأن أهم هو ما نسميه بالوحدة الدينية كما صورها القرآن الكريم في هذه السورة»⁽⁶⁾.

ثالثاً: الوحدة الموضوعية في سورة يس.

عالجت هذه السورة قضايا العقيدة الكبرى (الألوهية، الرسالة، المعاد)، ولكن بمنهج خاص بدأت به بعنصر الرسالة أولاً، كما صرح بذلك دراز.⁽⁷⁾

¹ - الغرض الأول في دعوة بين إسرائيل، والغرض الثاني كان للتشريع الإسلامي في العبادات والمعاملات والعبادات.

² - تفسير القرآن الكريم: محمود شلتوت، ص 46.

³ - في ظلال القرآن: سيد قطب، 28/1.

⁴ - نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 11.

⁵ - المصدر نفسه، ص 12.

⁶ - نحة تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 13.

⁷ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز: ص 147.

أما سيد قطب فحدد موضوع السورة بقوله: «والموضوعات الرئيسية للسورة هي موضوعات السور المكية، وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة، فهي تتعرض لطبيعة الوحي وصدق الرسالة... كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية... والقضية التي يشتد عليها التركيز في السورة هي قضية البعث والنشور...»⁽¹⁾.

ويحدد محمد الغزالي موضوعها بقوله: «وسورة يسن -وتسمى قلب القرآن- يمكن أن نقول إنها مكونة من مقدمة وثلاثة فصول... أما الفصول الثلاثة، فهي أدلة متنوعة على صدق ما دعا إليه: أولها دليل تاريخي تضمن قصة موجزة عن قرية تشبه مكة، ناوأت المرسلين وضافت بالوحي.

وثانيها دليل عقلي فتح الأنظار على الكون علوه وسفله... ما يدل على عظمه خالقه، والدليل الثالث تربوي يأخذ من حقيقة البعث والجزاء ما يكبح الغرائز...»⁽²⁾.

رابعاً: الوحدة الموضوعية في سورة غافر (المؤمن).

حددها دراز في قضية واحدة هي قضية الصراع بين الحق وأجناده، و بين الباطل وأحلامه⁽³⁾، أما سيد قطب فيحددها بقوله: «هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل، قضية الإيمان والكفر، قضية الدعوة والتكذيب... وجو السورة كله -من ثم- كأنه جو معركة، وهي المعركة بين الحق والباطل... و بين المتكبرين المتحبرين في الأرض وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتكليل، تنسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين!»⁽⁴⁾.

ويحددها محمد الغزالي بقوله: «ومن اللطائف أن هذه السورة تسمى بسورة "غافر"، وهي تعلن حرباً على الجدال السيء والمكابرة بالباطل، والتعامي عن الحق... وتكررت كلمة الجدال خمس مرات في هذه السورة، كاشفة الغطاء عن أسلوب المبطلين في معاملة الحق»⁽⁵⁾.

خامساً: الوحدة الموضوعية في سورة الملك.

¹ - في ظلال القرآن: سيد قطب، 2956/5.

² - نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 340-341.

³ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز: ص 155.

⁴ - في ظلال القرآن: سيد قطب، 3065/5.

⁵ - نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 364.

حددها دراز في قوله: «حدثنا سورة الملك عن الله تبارك اسمه وعن مصير الكافرين به»⁽¹⁾، وهي متمثلة في مقصدين: التعريف بصفات الله، ثم التعريف باليوم الآخر.

وهي عند سيد قطب متمثلة في قوله: «وهذه السورة الأولى -سورة تبارك- تعالج إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود، تصور واسع شامل يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيث الدنيا المحدود، إلى عوالم في السماوات، وإلى حياة في الآخرة، وإلى خلائق أخرى غير الإنسان... كما أنها تشير في حسهم، التأمل فيما بين أيديهم، وفي واقع حياتهم وذواتهم، مما يمرون به غافلين»⁽²⁾.

وهي عند محمد الغزالي مجسدة في قوله: «إن تحديد الموقف من الآخرة لا بد منه في مواجهة الحضارة المعاصرة، وهذا التحديد يفرض علينا أن ندرس الحياة وأن نعرف الحكمة من الوجود الموقوت بها... وسورة الملك تنبه إلى هذا...»⁽³⁾.

كما قال أيضا: «والآية الأولى في سورة الملك تشير إلى أن الله بيده الملك، وقد صرحت آيات أخرى أنه بيده الفضل، وبيده الخير، وأن الأرض جميعا قبضته، وأن السماوات مطويات بيمينه، إن استمكانه من ملكه -جل شأنه- لا نظير له، ويستحيل أن يقوم له معترض»⁽⁴⁾.

كما قال أيضا: «وتحدث السورة في آخرها عن الكافرين الذين يحاولون نقل المعركة إلى الرسول وأتباعه من المؤمنين...»⁽⁵⁾.

سادسا: الوحدة الموضوعية في سورة القلم.

علمنا أنها تتجسد في قول دراز: «وتحدثنا سورة القلم عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعن حال المكذبين له»⁽⁶⁾.

¹ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز: ص 189.

² - في ظلال القرآن: سيد قطب، 3629/6.

³ - نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 471.

⁴ - المصدر نفسه، ص 472.

⁵ - نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 473.

⁶ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز: ص 189.

وقد حددها سيد قطب بقوله: «لأن مطلع السورة وختامها يتحدثان عن أمر واحد، وهو تطاول الذين كفروا على شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقولهم: إنه مجنون»⁽¹⁾.

كما أشار إليها وإلى نزول السورة فقال: «أما نزلت بعد فترة من الدعوة العامة التي جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية، في الوقت الذي أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها، فتقول عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تلك القولة الفاجرة، وأخذ القرآن يرددها وينفيها، ويهدد الناهضين للدعوة، ذلك التهديد الوارد في السورة»⁽²⁾.

ويمكن استنباط وحدتها الموضوعية عند محمد الغزالي من قوله: «وقد اختار الله لتبليغه الإنسان الأول في الوجود فكراً وشرفاً وسيرة، فلا قيمة لكلام الأعداء...، أما أعداء الوحي، فنفر من الناس لا يزهم شيء، وستكشف الأيام عن دعاوهم وأحوالهم - وقد كشفت - فذهبوا بدداً وبقي الإسلام»⁽³⁾.

سابعاً: الوحدة الموضوعية في سورة النبأ.

ركزت هذه السورة حديثها - عند دراز - عن التخبطات الفكرية للكفار إزاء يوم البعث، وبسط الدلائل الكونية الدنيوية والأخروية المشهدية على وقوعه، والتحذير منه⁽⁴⁾.

أما سيد قطب فيرى أن السورة تتجه كلها إلى التركيز «على النشأة الأولى للإنسان والأحياء الأخرى... وعلى مشاهد هذا الكون وآياته... وعلى مشاهد القيامة العنيفة...، ومشاهد الحساب

والجزاء من نعيم وعذاب... واتخاذها جميعاً دلائل على الخلق والتسيير والنشأة الأخرى وموازينها الحاسمة»⁽⁵⁾.

كما قال أيضاً: «وهذه السورة نموذج لاتجاه هذا الجزء بموضوعاته وحقائقه وإيقاعاته ومشاهده وصوره وظلاله وموسيقاه ولمساته في الكون والنفوس، والدنيا والآخرة، واختيار الألفاظ والعبارات لتوقع أشد إيقاعاتها أثراً في الحس والضمير»⁽¹⁾.

¹ - في ظلال القرآن: سيد قطب، 6/3650.

² - المصدر نفسه.

³ - نحو تفسير موضوعي لسورة القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 474.

⁴ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 189.

⁵ - في ظلال القرآن: سيد قطب، 6/3801.

أما محمد الغزالي فيقول عنها: «وهذه السورة تتكون من أربعة فصول متميزة:

الأول: وصف الكون والناس...

والثاني: وصف موجز ليوم الحساب...

والثالث: وصف للعقاب الذي ينتظر المجرمين...

والرابع: وصف للنعيم الذي ينتظر المؤمنين الصالحين...»⁽²⁾.

ثامنا: الوحدة الموضوعية في سورة التكويد.

تدور وحدة السورة الموضوعية عند دراز حول قضايا العقيدة الثلاثة الكبرى، ولكن بترتيب مقصود فيها، بدءاً بأحداث الساعة والقيامة، ثم تقريراً لمعاني النبوة وصفات المرسلين، ثم ختماً بتقرير سلطان الألوهية علينا في القضاء والقدر.⁽³⁾

أما سيد قطب فيحددها بقوله: «هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج في كل مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة:

الأولى حقيقة القيامة...، والثانية: حقيقة الوحي، وما يتعلق بها من صفة الملك الذي يحمله،

وصفة النبي الذي يتلقاه... ومع المشيئة الكبرى»⁽⁴⁾.

ولم يحددها محمد الغزالي في عبارة جامعة، بل نشرها في جمل متلاحقة كقوله: «بدأت سورة التكويد باثني عشر حدثاً تلابس قيام الساعة...»⁽⁵⁾، وقوله: «وفي هذه السورة يقسم الله بالكواكب المسخرة بأمره على أن القرآن حق وأن محمداً أرسل به... وقد ذكرت الآيات جبريل روح القدس...»⁽⁶⁾.

وهنا نسجل بعض الملاحظات السريعة في النقاط التالية:

¹ - المصدر نفسه، 3802/6.

² - نحو تفسير موضوعي لسورة القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 496-497.

³ - حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 231، 235، 239.

⁴ - في ظلال القرآن: سيد قطب، 3836/6.

⁵ - نحو تفسير موضوعي لسورة القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 502.

⁶ - المصدر نفسه، ص 503.

أولاً: التشابه الكبير، إن لم نقل التطابق شبه التام بين آراء هؤلاء الأعلام الكبار، وهم من أشهر من فسروا القرآن تفسيراً موضوعياً في العصر الحاضر.

ثانياً: ومما يشير العجب من هذا الاتفاق، التشابه حتى ترتيب الموضوعات الفرعية للنسق الفكري الواحد داخل السورة، كما في الترتيب بين قضايا العقيدة الثلاثة في سورة يس بهذا الترتيب: الرسالة، ثم الألوهية، ثم البعث والمعاد، وفي سورة التكويد وفق هذا الترتيب: البعث والمعاد، ثم الرسالة، ثم الألوهية.

ثالثاً: يظهر من خلال هذا التطابق، تأثر الشيخ محمود شلتوت الواضح بمنهج دراز وفكره التفسيري؛ حتى يكاد المطلع على تفسير شلتوت يجزم أنه تفسير لمحمد دراز، خاصة في سورتي الفاتحة والبقرة.

رابعاً: يكمن من وراء هذا التشابه أو التطابق سبب جوهري، هو تمكن وإحاطة هؤلاء الأعلام بالنظرة الكلية الشاملة لمحور السورة قبل الشروع في تفسيرها؛ كيف لا؟ وهم من نتاج المدرسة العقلية الاجتماعية الحديثة، والتي اتسمت بالرؤية الكلية، والمنهج الشمولي في تفسير القرآن الكريم.⁽¹⁾

خامساً: ومع ذلك يظهر بعض الاختلاف في الرؤية وفي أسلوب الدراسة والتفسير، فقد كانوا يحملون الوحدة الموضوعية في عبارة جامعة في أول تفسير السورة، وبعضهم من كان -أحياناً- يبسطه في ثانياً تفسيره لكل آيات السورة، كحال شلتوت في سورة البقرة، وسيد قطب في سورتي القلم والنبأ، ومحمد الغزالي في سورة البقرة، وغافر، والملك، والقلم، والتكويد.

وكان دراز أجمعهم في ذلك عبارة، وأوسعهم نظراً، وأنضجهم منهجاً؛ الذي هو المنهج الأدبي البياني الكاشف لموضوع السورة بوجوه الارتباط اللغوي، والالتحام العضوي، ووفق منهج الاستنباط الكلي المتطلب تحليلاً تصديقياً للفكرة الأولى.

ولا يعني أن الأعلام الآخرين لم يتمثلوا المنهج الأدبي، بل المقصود أنهم غلبت عليهم نوازع المنهج الدعوي الاجتماعي.

سادساً: إن هذا الاختلاف يدل على أن تحديد «طبيعة الوحدة هذه قد يختلف من مفسر إلى آخر بحسب ما يدركه من نظام السورة، وبحسب زاوية النظر التي ينطلق منها».⁽²⁾

¹ - يراجع: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: فهد الرومي، ص 222، 241.

² - منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية، سامر عبد الرحمن رشواني، ص 242.

و ليست كل زوايا النظر كاملة، ولا كل الأنظار مدركة للوحدة الموضوعية، فالأخطاء محتملة، والتفسيرات الجزئية قد تغلب النظر الكلي.

وهذا ما وقع لهؤلاء الأعلام -ومنهم دراز- هنا في بعض السور، والتي عددوا فيها الموضوعات والأفكار، فهل يمكن أن تتحقق الوحدة الموضوعية في فكرة مركزية واحدة؟ أم أنها لا تتحقق إلا في أفكار متسلسلة.

لو رجعنا مثلاً إلى سورة يس، لوجدنا -فعلاً- أنها تحدثت عن قضايا العقيدة الثلاثة الكبرى: الألوهية والرسالة والبعث والمعاد، وكذلك باقي السور المكية التي عاجلت قضايا الإيمان، وركائز الأخلاق والسلوك.

و لكن أليست تنفرد كل سورة بشخصيتها المستقلة، فهل يعني هذا الاستقلال، التميز في الموضوع الواحد بالإضافة إلى اللون، والمشرب، والمنهاج أو ما شابه ذلك.

فلو وسعنا نظرنا في سورة يس مثلاً وتأملنا جيداً أجواء نزولها، و أبعاد موضوعاتها الثلاثة -كما قرر هؤلاء وغيرهم-، لظهر أن عنصر التبليغ وأداء الرسالة هو العنصر البارز منها، دون أن تقصى باقي قضايا الإيمان، بل قد أشارت السورة إلى قضايا الإعجاز العلمي في النبات والحيوان والأفلاك، وإلى ركائز السلوك والأخلاق، كالصدق والكذب، الاحترام والاستهزاء وغير ذلك، وماذا يبلغ الرسول قومه غير هذه القضايا والركائز؟

ولا يشترط -هنا- التصريح بالموضوع في بداية السورة أو خاتمها، وإنما ينبغي أن يكون تحديد الوحدة في السورة «أمراً لاحقاً على النظر الموضوعي لا سابقاً له».⁽¹⁾

¹ - منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية، سامر عبد الرحمن رشواني، ص 242.

المطلب الرابع: في منهجية البحث في الوحدة وتطبيقاتها.

كما قدم دراز محطات فكرية، وتأصيلات منهجية لقضية الوحدة العامة في القرآن الكريم، أو حتى في سورة منه، كذلك قدمك منهجية مرحلية، ومعالم بحثية كشف بها عن الوحدة القرآنية عضوية كانت أم موضوعية، وهي ما تحتاج منا وقفة نقدية لها - ولو بنوع من الإيجاز - فيما يلي:

الفرع الأول: في منهجية البحث في الوحدة العضوية.

لعل استباق الحديث عنها هنا أولاً أفضل وأسلم منهجياً، وذلك لاتضاح رؤيته هنا، وسلامة منهجيته التفصيلية؛ وذلك من خلال إظهاره وجوه الترابط، ومعاني التناسق والائتلاف، وأنواع المناسبات الداخلية والخارجية - والأولى أظهر - التي بها يتحقق الالتحام بين المعاني المختلفة داخل السورة، وتظهر بها وحدتها المحكمة التي لا انفصام لها.

هذا وقد أبدع دراز في استحضار هذه المناسبات الترابطية، سواء من الناحية النظرية التأصيلية يربطها بوحدة السورة ونظمها الموحد، ونسقها المتسلسل، أو من الناحية التطبيقية في تفسيره لبعض السور القرآنية.

يقول عنه مصطفى مسلم: «كما تحدث الشيخ محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم) عن المناسبات بين آيات سورة البقرة».⁽¹⁾

فأما من الجانب النظري، فقد أشار دراز إلى وجوه عدة من المناسبات كانت مقررة ومعروفة عند علماء القرآن الكريم قديماً وحديثاً؛ فالضدية، والتنظير، والتكميل، والتفريغ، والتخلص كلها معاني تناسبية أشار إليها المتقدمون قبل المتأخرين تحت قسم غير المعطوف، المقابل للقسم الأول للمناسبات المعطوف عليه.⁽²⁾

وإلا فإن نظرة سريعة في كتاب "البرهان" للزركشي، أو "الاتقان" للسيوطي، تدلنا على بعض هذه الوجوه التي ذكرها دراز في كتابه "النبأ العظيم".⁽³⁾

¹ - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 67.

² - يراجع في ذلك: البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، 41/1، ومباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، ص 154 وما بعدها، والإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره: محمد أحمد يوسف القاسم، ط1، 1979م، ص 298 وما بعدها، ومباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 70 وما بعدها، وغيرها.

³ - ينظر: البرهان في علوم القرآن: الزركشي، 40/1، الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، 978/2 وما بعدها.

غير أن هذه الوجوه التي ذكرها دراز ليست كل الوجوه المهمة من المناسبات بين الآيات ومقاطع السورة، فقد أغفل الإشارة إلى المناسبات ذات الارتباطات الظاهرة؛ كالسبب، والتأكيد، والتفسير، والاعتراض، وغيرها.⁽¹⁾

ولعل اهتمام دراز بذكر المناسبات الخفية الارتباط، من أجل أن يبرز بها إعجاز القرآن الكريم في تماسك آياته، واثتلاف أجزاء سورة جلية كانت أم غامضة.

ولكن لا يبرز لدراز إغفال هذا القسم الهام من المناسبات، في الجانب النظري التمهيدي لتطبيقها في تفسير سور القرآن؛ فلو ذكرها كلها أو جلها لأرسى بين يدي القارئ صورة كاملة، يوازن بها بين التنظير والتطبيق.

وقد ذكر دراز هنا بعض وجوه المناسبات البديعة التي لم يتطرق إليها المتقدمون في علوم القرآن، أو المتأخرون في التفسير الموضوعي بالتفصيل -حسب علمنا-؛ فمنها تجاور آيتين، لاقتراب معناهما في الوقوع التاريخي، أو تجاور أشياءها في الوضع المكاني، وفي ذلك كما قال «إجابة لحاجات النفوس التي تتداعى فيها تلك المعاني».⁽²⁾

ومنها أيضا تقارب الصيغ التركيبية فيما بينها؛ كاشتراكها في الأسلوب الخيري أو الإنشائي، أو الطلبي، أو غير الطلبي، فيتلاحم بذلك تجاورهما في موقع واحد، ويحسن بذلك الارتباط اللغوي والبياني بينهما.

وأما في الجانب التطبيقي، فإن دراز كان موفقا ودقيقا أيضا في كثير من المناسبات التي ربط بها بين مقاصد السورة، أو بين مقاطعها وآياتها، خاصة في تفسيره لسورة البقرة؛ حيث كانت في أغلبها معلومة معروفة، وذلك كالتفريغ، والتكميل، والاستطراد، والتضاد، كما كانت في بعضها الآخر دقيقة بديعة؛ كالاحتراس الذي أعطاه دراز معنى جديدا زائدا على معناه المشهور عند البلاغيين، والذي نصوا أن الاحتراس يطلق على «زيادة إطنابية في الكلام يدفع بها المتكلم إليها ما اشتمل عليه كلامه»⁽³⁾، وهو بهذا مرادف للتكميل.

¹ - الإتيان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، 978/2.

² - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 195.

³ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، درا القلم، دمشق الدار الشامية، بيروت، ط1،

لكن دراز أضاف إليه معنى تتابع الكلام لقضية أخرى، بحيث يكون ذكره مخرجا لانسداد النسق، أو لوقوع أزمت تنتظر المخرج، وذلك كما في ربطه بين الانتقال من الحديث عن الجهاد إلى الحديث عن الصلاة.⁽¹⁾

ومن المعاني البديعة عنده في المناسبات إظهار التعلق عن طريق سلسلة من الأسئلة وأجوبتها في ترابطات منطقية وتفرعية، ووفق المنهج التعليمي الذي طبع ذهن دراز بملكة الربط بين الأفكار والألفاظ، بين المباني والمعاني في آية واحدة، أو في آيات ومقاطع متتالية؛ حيث رأينا أنه كيف استطاع أن يشيد معبرة للانتقال من أحكام الإنفاق والجهاد إلى إحكام الشؤون الأسرية في أزيد من عشرين آية، وذلك بنسق من الأسئلة والأجوبة المتتابعة.⁽²⁾

ولما كان دراز رجلا أدبيا من الطراز الأول، فقد رأى أن الربط يكون أيضا، ويتحقق بتجاور الصيغ اللغوية والمعاني التفصيلية العاقبة بعدها، وذلك كما في تفتنه لسر تأخير لفظي النبوة والرسالة عن لفظ اليوم الآخر في آية البر الشهيرة.⁽³⁾

ومن هنا « كانت عقلية الشيخ دراز عقلية فذة في ربط الآيات وإدخالها في النجوم تبعا لما يسمى بتداعي المعاني؛ حتى يدخل فيها آيات يظن أنها استطرادية أو انتقالية»⁽⁴⁾؛ بحيث لم يناظره في ذلك كثير من المفسرين، ربطا بين أجزاء السورة، وإظهارا للتناسق والتلاحم بينها، وإلا فإن إطلالة صغيرة في تفسير سيد قطب، أو محمد الغزالي، أو غيرهما تؤكد تفوق دراز في هذا الجانب.

ومع ذلك فإن نظره لم يسلم من هنات سجلت عليه وانتقد فيها، وظهر - من خلال ذلك - التكلف التعبيري في الربط بين مقاطع ومقاصد السورة؛ فمن ذلك توظيفه أكثر من مصطلحين للتعبير عن نوع واحد من المناسبة، كما في معنى الاحتراس الذي مر بنا آنفا؛ إذ نص عليه في أول تفسيره للسورة في وجوه المناسبات⁽⁵⁾، ثم لما فسر مقاطعه في آيات الجهاد والصلاة، اصطلاح بـ "حسن التلطف"

¹ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 277.

² - المصدر نفسه، ص 269.

³ - المصدر نفسه، ص 248.

⁴ - الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره: محمد أحمد يوسف القاسم، ص 212.

⁵ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 195.

(1)، وهو مرادف للتخلص، ثم أردفه بمصطلح "التمهيد" (2)، ولعل تأملا سريعا لتحليله يؤكد أنه قصد من الربط هنا حسن التلطف أو الانتقال من معنى قديم إلى آخر جديد.

ولعل عدم تصريحه المكرر بنوع العلاقة التناسبية أثناء تفسيره لمقاطع سورة البقرة ومقاصدها، هو الذي يوقع القارئ في حيرة واشتباه لأي هذه المعاني التناسبية قصد دراز، وذلك مع تقارب معانيها، وتشابه أبعادها.

كما أنه لم يسلم أيضا من إظهار العلاقة الدقيقة المقصودة؛ خاصة ما اتفق عليه المصنفون في علوم القرآن، فيترك ذلك، ويستعير تصنيف البلاغيين -مع صحته في ذاته-، المخالف لما اتفق عليه في التفسير الموضوعي.

فمن ذلك أنه رأى أن الانتقال من حديث القرآن عن المؤمنين إلى حديثه عن الكافرين في أول سورة البقرة، كان وفق ضرب الاستئناف البياني الذي يدل على تقدم «جملة في الكلام تشير في ذهن السامع تساؤلا لطيفا يدب في نفسه» (3) أو هو ما وقع جوابا لسؤال مقدر معنى (4)، ويكون ذلك كما قال ابن عاشور «فإن السكوت عند كلمة وتعقيها بما بعدها يجعل ما بعدها بمنزلة الاستئناف البياني» (5)، وجعل من أمثلة ذلك التوقف عند كلمة موسى من قوله تعالى: «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى» [النازعات/16]، ثم يتبع بقوله: «إِذْ نَادَاهُ»، وبذلك يحصل البيان لما حدث في نفس السامع من ترقب لما سيبين من حديث موسى -عليه السلام-. (6)

لكن كثيرا من المفسرين ذكروا الربط هنا تحت علاقة التضاد والتقابل (7).

ومن أهم الملاحظات النقدية هنا أن دراز لم يكثر من هذه العلاقات التناسبية في الربط بين قضايا وأجزاء الموضوع القرآني (النظرية الأخلاقية) في كتابه "الدستور"، والذي وصفه في خاتمته أن

1- النبأ العظيم: محمد دراز، ص 277 هامش 03.

2- المصدر نفسه، ص 277، هامش 03.

3- يراجع: النحو الوافي: عباس حسن، 390/4 هامش 02.

4- المرجع نفسه

5- المقدمة العاشرة من تفسير التحرير والتنوير: ابن عاشور، 117/1.

6- المصدر نفسه، 117/1.

7- ينظر: البرهان في علوم القرآن: الزركشي، 42/1، وتفسير التحرير والتنوير: ابن عاشور، 247/1.

وحدته العامة هي عبارة عن "تركيب لتراكيب"، أو "بناء عضوي"، فلم يكن حالها في ذلك كحال كثيرتها وروعتها في السورة القرآنية (سورة البقرة) من كتابه "النبأ العظيم".

و لا عجب في ذلك، فقد طغى عليه المنهج العقلي المنطقي أكثر من المنهج الأدبي البياني

الفرع الثاني: في منهجية البحث في الوحدة الموضوعية.

لقد برع دراز حتى الآن في الربط بين أجزاء السورة الواحدة، وتحقيق الوحدة التماسكية أو الأدبية لها؛ ذلك أن هذه الوحدة تكتشف عن طريق وجوه المناسبات والتي أشار إليها دراز نظريا، وطبق أغلبها عمليا.

فهل حقق نجاحا وإبداعا مقاربا له أو مماثلا في بحثه عن التماس الوحدة الموضوعية أو الفكرة والنواة المركزية - حسب تعبيره - للنظرية الأخلاقية كنموذج للموضوع القرآني، أو للسور القرآنية التي فسرها في كتابيه "النبأ العظيم" و "حصاد قلم"، وهل كانت له في ذلك منهجية واضحة، ودقيقة ومتكاملة في آن واحد؟ أم لا؟.

رأينا -أولا- من قبل أن دراز طرح كثيرا من الوجوه التي يمكن بواسطتها الكشف عن موضوع السورة الرئيسي، أو عن الفكرة المركزية للقضايا الأخلاقية في آيات القرآن الكريم وسوره، ارتكزت -في أغلبها- على وجوه المناسبات الداخلية أو الخارجية للسورة، ولعناصر الموضوع القرآني، ثم تلتها بصورة أقل التصنيفات المكية والمدنية، وأساليب السور، وسياقاتها العامة، ثم تلتها إشارات نادرة غير مؤسسة لنظام الفواصل القرآنية.

وقد جمع بين أغلب هذه المعالم المنهجية، وكان بها موقفا في استنباط الفكرة المركزية التي تركز عليها دراسته للنظرية الأخلاقية في القرآن الكريم؛ إذ وزعت هذه الحثيات المنهجية بين فصول بحثه، وعناصر النظرية الأخلاقية وقضاياها العقائدية والفكرية والفقهية والاجتماعية الكثيرة، توزيعا منطقيًا، استطاع بها أن يظهر لكل عنصر من عناصر النظرية الأخلاقية وحدتها الموضوعية الخاصة بها، ثم استطاع أيضا أن يظهر وحدة النظرية العامة في فكرة مركزية، بعد إظهار المناسبات بين عناصرها.

و لكن يمكن أن يلاحظ عليه هنا أمران أساسيان:

الأمر الأول: نسبية الاستعانة بهذه الحثيات المنهجية في بحثه عن النظرية الأخلاقية؛ إذ يلاحظ أنه كان يكثر من تجميع الآيات القرآنية، واستقراء مواضعها من سورها، لدراسة أفكارها النسقية، وهذا

متحقق في جميع الموضوعات الخمسة المشكلة النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم⁽¹⁾، أو حتى لموضوعاتها التفصيلية المتفرعة عنها.⁽²⁾

ثم يليها بعد ذلك اشتغاله بتصنيف هذه الآيات المجموعة وفق مجالاتها المكية والمدنية، وذلك كما في دراسته صور الجزء الإلهي.⁽³⁾

ثم تأتي بعد ذلك وجوه المناسبات والارتباطات بين هذه الموضوعات الخمسة الأساسية، أو بين قضايا التفرعية الجزئية، وهي مناسبات منطقية فكرية أكثر منها بيانية لغوية.

الأمر الثاني: نسبة التوزيع المنهجي لهذه الحثيات المنهجية؛ بحيث لم تتوزع جميعها على فصول النظرية الأخلاقية توزيعاً دقيقاً ومناسباً؛ بل كانت -غالباً- ما تختص كل حثية منهجية بفصل وموضوع معين، وقد يستعان بها في فصول أخرى، ولكن حضورها هنا حضور مكمل ومتمم، لا حضور مؤسس ومؤصل.

ولعل أبرز الأدلة والشواهد على هذا، اختصاص التصنيف المكّي والمدني بقضية الجزئات الإلهية⁽⁴⁾، دون غيرها من القضايا الأخرى التي يظهر أن دراز كان يقتصر على جمع بعضها، ويرتبها فيما فيما بينها دون التزام للترتيب النزولي (المكي والمدني)، أو للترتيب المصحفي، كما عرفنا ذلك من قبل.

أما عن السور القرآنية المفسرة عنده، فقد استولت فيها وجوه المناسبات الداخلية أو الخارجية على حصة الأسد؛ إذ لا تتحقق وحدتها الموضوعية أو المنطقية، إلا إذا تحققت من قبل وحدتها العضوية أو البيانية كما هو معلوم من منهج دراز الموضوعي في ذلك.

ثم تليها بعد ذلك أجواء التنزيل أو أصول المكي والمدني، ولم يكن هذا إلا سورة النبأ، ثم بدرجة أقل تستحضر السياقات التاريخية للسور ذات المنحى القصصي، كسور: البقرة، ويس،

وغافر، والقلم، وكذلك أساليبها الخاصة بها في معالجة موضوعاتها، كتغاير أسلوب سورتي يونس، وهود في معالجة قضايا العقيدة، والقصص التاريخي⁽⁵⁾.

¹ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 54، 158، 368، 430 وغيرها.

² - يراجع: المصدر نفسه، ص 216، 287، 243، 360، 547، 628 وغيرها.

³ - المصدر نفسه، ص 345-402.

⁴ - المصدر نفسه.

⁵ - يراجع: حصاد قلم: محمد عبد الله دراز، ص 25-29.

وما لوحظ سابقا على نسبة المعالجة ونسبية التوزيع لهذه الحثيات المنهجية على الموضوع القرآني، يلاحظ هنا للوحدة الموضوعية لكل سورة فسرهما دراز؛ حتى إن صور التناسب للوحدة الموضوعية المذكورة آنفا، لا تجتمع كلها في سورة واحدة؛ بل تتفرق في سور شتى بطرائق خفية، تكاد لا تظهر عند القارئ إلا بالتأمل العميق، والتدبر الدقيق للتحليل كاملا.

وقد لاحظ عليه بعض الدارسين المعاصرين ذلك؛ حينما قرروا بأن الوحدة الموضوعية لا تكاد تنطبق على كل آيات السورة الواحدة، حسب ما قدمها لنا دراز؛ وقد أكد أحمد يوسف القاسم بأن تقسيم دراز سورة البقرة إلى أربعة مقاصد قد ضيع وحدتها الموضوعية، ودلل على ذلك بأدلة كثيرة، فمنها قوله _أولا متسائلا_: «ولكن تقسيم السورة هكذا كان في الإمكان أن يدخلها في مقصد واحد بين المقدمة والخاتمة». (1)

ثم يشرع في التفسير والتعليل، فيقول: «إن هذا التقسيم جعله يخرج بعض الآيات عن الإدراج تحت الأقسام، وهو وإن لم يجعلها اقتضابا في الكلام، لكنه جعلها استطرادا دعا إليها استشراف السامع أو القارئ». (2)

ثم يتابع ذلك بقوله: «ومن هنا كان اضطراره إلى إخراج بعض الآيات عن القاعدة الكلية في المناسبات، لتمشى مع الرباط الذي التزمه وهو تداعي المعاني، وقد علمنا أن الربط أعم وأكبر من كونه نفسيا فقط، فالسورة وحدة متماسكة، موضوعها واحد وإن اختلف زمان نجومها وأسباب نزولها». (3)

ثم أعطى لنا خمسة شواهد على ذلك، كقوله: «انظر إلى قوله (عود على بدء) في رجوع الآيات من «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي» إلى «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»، فهي لم تدخل تحت المقصد الأول ولا الثاني». (4)

ثم يجتهد القاسم في إبراز موضوعها، فيرى أنه متعلق بـ "الرسالة المحمدية ومواقف الناس منها" (5)، منها (5)، وهذا ما أثبتته دراز نفسه ولكن بتعبير خفي غير صريح. (6)

¹ - الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره: محمد أحمد يوسف القاسم، ص 230.

² - المرجع نفسه، ص 231.

³ - النبأ العظيم: محمد دراز، ص 209.

⁴ - الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره: محمد أبو يوسف القاسم، ص 231.

⁵ - المرجع نفسه، ص 232.

⁶ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 283.

ولم ينتبه القاسم أن هذا الانفلات في الترابط العلائقي عند دراز بين مقاصد السورة وآياتها وموضوعها إنما تحقق في كتاب "النبأ العظيم"، في تفسير دراز لسورة البقرة، ولو رجع إلى كتاب "حصاد قلم"، لغير رأيه، أو لخفف من وطأة النقد، ولرجع عن شططه في الحكم؛ فسيتضح له تغاير طريقة التفسير بين هذا الكتاب وذاك السفر، وسيعلم بأن دراز اختط لنفسه المنهج الأكاديمي في تفسيره لسورة البقرة من الكتاب الأول؛ إذ كان قصده من ذلك إثبات إعجاز القرآن، ومصدريته الإلهية في ميزة تأليفية تفوق قدرة البشر وعقولهم، ألا وهي إثبات تماسك الكلام ووحدته على كثرة نزوله، واختلاف معانيه، وهذا ما يتلاءم معه الإكثار من الموضوعات، والتعداد في المقاصد.

أما تفسيره لها في الكتاب الثاني فقد كان متوافقاً مع المنهج التدقيقي والتألفي، وكانت وجهته غير الوجهة الأولى، ولا أدل على ذلك من أنه كان مخطوطاً، ولم ينشره دراز في حياته، كما أنه صرح بمقصدتين لسورة البقرة فقط دون أربعة، ولكنه لم يكمل حلقاتها التفسيرية، وإلا لا اكتملت في ذلك رؤية جديدة مخالفة لرؤيته الأولى من كتابه "النبأ العظيم"، كما أن في سوره الأخرى المفسرة ما يدل على وجود هذه الرؤية الثانية.

هذا وقد أظهر مجموعة من المناسبات، تعلقت أغلبها بالوجوه الداخلية للسورة، واتجه أقلها إلى العلاقات الخارجية مع سور أخرى مجاورة في الترتيب المصحفي أو في الترتيب النزولي، وهذه المناسبات إما أن تكون معلومة مكررة من قبل، ومشهورة الدراسة والتأليف، كحال التناسب بين اسم السورة وموضوعها، أو بين المطلع والموضوع، أو بين المطلع والخاتمة، وهي ثلاثتها أشار إليها السيوطي في كتابه "علم المناسبات بين الآيات والسور"، أو في كتابه "مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع"، أو في كتابه "تناسق الدرر في تناسب السور".⁽¹⁾

ومنها أيضاً التناسب بين المطلع والموضوع، أو بين الخاتمة والموضوع، أو بين المقاطع والموضوع، أو بين مقاصد السورة، أو بين سورتين متجاورتين أو غير متجاورتين أو بين أجواء التنزيل (مناسبة النزول) وموضوع السورة، فكل هذه الوجوه معلومة عند علماء القرآن الكريم، والتفسير الموضوعي.⁽²⁾

¹ - يراجع: تقديم محمد بازمول لكتاب: علم المناسبات بين السور والآيات ويلييه كتاب مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع: جلال الدين السيوطي، المكتبة المكية، مكة المكرمة، ط1، 2002م، ص 57-60.

² - يراجع: الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، 985/2، وإمعان النظر في نظام الآيات والسور: محمد سبحاني، ص 298، ومباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 70-84.

ومن أهم الوجوه التناسبية البديعة عنده التناسب بين وسط السورة وموضوعها، كما في التناسب بين آية البر ومعالم الدعوة الإسلامية عقيدة وشرعية في سورة البقرة⁽¹⁾، أو بين الفاصلة والموضوع، كما في التناسب بين بعض فواصل سورة الملك المختمة بصفات الله مع موضوعها العام الذي يدور حول التعريف بالله تعالى وصفاته مبدئاً ومعيداً.⁽²⁾

هذا وما يلاحظ على هذه الوجوه التناسبية أمران أساسيان:

الأمر الأول: نسبية توزيعها في سور متعددة، وكان من الممكن تواجد معظمها في سورة واحدة، وهذا ما لم يفعله دراز؛ إذ يمكن مثلاً أن نرجع إلى سورة غافر بالتأمل العميق لمطالعها، ومقاطعها، وموضوعاتها الفرعية وخاتماتها، وأجواء نزولها، فندرك العلاقات القوية بينها، كما يمكن أيضاً أن ندرك استقلالية موضوعها، ومركزية فكرتها عن طريق التناسب بينها وبين السور التي سبقتها أو تلتها في الترتيب المصحفي أو النزولي، وهذا ما غاب عن دراز في تفسيره لهذه السورة.

ومع ذلك يمكن القول أن سورة الملك ثم القلم قد وردت فيهما وجوه كثيرة من هذه المناسبات، ولعل السر - من وراء ذلك - يمكن في إطالة دراز النفس فيهما، واستطراد التحليل لعناصرهما وموضوعاتهما.

الأمر الثاني: أن تقرير دراز للتناسب بين سورتين متجاورتين أو غير ذلك، لم يسلم من سقطات في بعض مواضعها، كما في تسميته التناسب بين سورتي الأحقاف ومحمد - صلى الله عليه وسلم - المتجاورتين في الترتيب المصحفي بالتوازي والمحاذاة، مطلعاً بمطلع وخاتمة بخاتمة⁽³⁾، وكما في تسميته التجاور بين خاتمة السورة، ومقدمة التي تليها "نظام السلام"، أو "أسلوب الحال المرتحل".⁽⁴⁾

وهي تسميات يغلب عليها الاتجاه الأدبي التدقيقي الذي تتغاير مصطلحاته من أديب إلى آخر تبعاً لاختلاف التذوق الشعوري والوجداني للمعاني الرفيعة، ثم هي بعد ذلك تسميات تعبر عن التماسك الوشائجي بين أجزاء السور فيما بينها، أكثر من تعبيرها عن إبراز العلاقات بينها وبين موضوعها العام، بمعنى آخر: أن دراز - رحمه الله - لم يستطع أن يتجاوز قيود الوحدة العضوية أو الأولى - حسب تعبيره - للسورة، إلى المرحلة الثانية منها، والمتمثلة في استنباط الوحدة الموضوعية بمنهجية

¹ - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 258.

² - المصدر نفسه، ص 165، 179، 181.

³ - مصدر سابق، ص 55.

⁴ - المصدر نفسه، ص 55.

واضحة، وبرؤية مستقلة ومعبرة عن ذاتها، حتى أدى ذلك -في كثير من الأحيان- إلى خفاء الوحدة الموضوعية لبعض السور ولغموض منهجيته في الكشف عنها، فلا تكاد تظهر في غمار انشغاله بإبراز العلاقات، وولعه العلمي بتكثير المعاني ثم بربطها فيما بينها ربطا تلاحميا اثلافيا، تتشكل منه وحدته المحكمة التي لا انفصام لها.

و إذا كانت هذه الارتباطات التناسبية قليلة الاستحضار الذهني في كل سورة مفسرة، فما بالكم بباقي الحثيات المنهجية الأخرى التي لا تكاد تستنبط إلا بشق الأنفس، وكد الذهن، وتكرار القراءة والتعمق فيها.

ولعلنا بسطنا القول في تسجيل الملاحظات النقدية على دراز من قبل، وذلك أثناء تحليل منهجيته في التفسير الموضوعي، فليرجع إليه. (1)

ولا يصح هنا التقليل من جهد دراز هنا، ولا بخسه حقه في إظهاره هذه الوجوه التناسبية؛ فالحقيقة العلمية ذات النظرة المتأنية، والفحص الدقيق تؤكد سبق دراز في هذا الجانب، وتفوقه على أقرانه، خاصة وأنه شرع في تأليف كتابه "النبأ" في بداية الثلاثينات من القرن الماضي، وكتابه "الحصاد" في فترة ليست بعيدة المدى عنها، وأنه لم يعول كثيرا على جهود سابقة عليه، إلا ما كان من تأثره الواضح بصنيع الشاطبي في الموافقات. (2)

لتلقى نظرة سريعة خاطفة مقارنة بين جهوده التفسيرية هنا، وبين جهود المفسرين المعاصرين له، خاصة ابن شهيد ميسلون المعروف بإبرازه الوحدة الموضوعية لكل سورة، حتى جزم بعض الدارسين أنه أول من اصطح بهذه التسمية. (3)

أو بينه وبين جهود المفسرين المتأخرين عنه؛ كمحمد الغزالي، أو حتى سيد قطب، ومحمود شلتوت المعاصرين له، والذي بدا -هذا الأخير- تأثره به واضحا في تفسيره.

خلاصة القول أنه كانت لدراز محطات فكرية تأسيسية لحقيقة الوحدة بصفة عامة، في الموضوعات القرآنية، أو على مستوى السورة الواحدة، وأنه قد بدت من ذلك وحدتان أساسيتان: عضوية ترابطية، وموضوعية مركزية؛ حيث قدم لنا فيهما مقاربات منهجية، دلت على سعة نظره، وشمولية رؤيته، وسلامة

¹ - وذلك في ص 388 من المبحث الثالث في مطلبه الثاني من الفصل الأخير.

² - يراجع: الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي، المسألة 13، 350/3.

³ - يراجع: منهج البحث في التفسير الموضوعي دراسة نقدية: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 289.

منهجيته خاصة على مستوى الوحدة العضوية الترابطية، التي شغلت أفكاره وتآلفيه كثيرا، وكانت تشكل قلب البراهين والأدلة التي غزا بها دراز حصون الغرب الفكرية، وأثبت بها ربانية الكتاب، وإعجاز القرآن الكريم.

أما عن الوحدة الموضوعية فقد حاول دراز أن يوطئ لها المفاهيم، ويؤصل لها الحثيات المنهجية، وُفق في بعضها، ولم يسلم منهجه العام فيها من هنات وقصور وأخطاء، أو بتعبير آخر أصح: أنها لم تظهر عنده جليا كما ظهرت الوحدة الأولى، مما يقودنا أن نستنتج هنا نتيجة عامة وهي: أن دراز قد استكمل النظر ومنهجية البحث في الوحدة العضوية، ولكنه لم يستكملها في الوحدة الموضوعية.

المبحث الرابع: أثر فكر محمد عبد الله دراز القرآني في الدراسات الموضوعية المعاصرة.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: في تحديد المفاهيم والمصطلحات.

المطلب الثاني: في وضع المنهج المختار في الدراسة الموضوعية.

المطلب الثالث: أثر الفكر الموضوعي في الدراسات المعاصرة.

كانت لدراز جهود معتبرة وآراء متنوعة في التفسير الموضوعي، وقضايا المنهجية والموضوعاتية، وتنظيرات تأصيلية لقضايا الوحدة القرآنية في سورة واحدة، أو في كامل القرآن الكريم.

فإن هذه الجهود قد تركت أثارا ملموسة، وقدوة علمية تأليفية في أغلب الدراسات المعاصرة التي اهتمت بالتأليف والتنظير للتفسير الموضوعي، وتطبيق ألوانه في شكل دراسات قرآنية متنوعة.

ولكيلا يتضخم هذا المبحث أكثر من حجمه اللائق به، فسنقتصر -هنا- على إشارات عابرة، وملخصة لما قد سبق ذكره من آراء دراز ومنهجه في التفسير الموضوعي، ومتعلق أثرها بمطال الدراسات المعاصرة.

المطلب الأول: في تحديد المفاهيم والمصطلحات.

تدفقت المفاهيم العلمية بمصطلحاتها للتفسير الموضوعي في مؤلفات دراز القرآنية، حيث تناثر بعضها في الدراسات المعاصرة، وبقي البعض الآخر رهين مؤلفاته لم تنتبه إليه بعد هذه الدراسات المعاصرة.

أولاً: الوحدة العضوية: حيث يدل على الترابط العضوي، وائتلاف أجزاء السورة ومقاطعها حتى تبدو السورة -بعد ذلك- صورة حية، ووحدة محكمة؛ وفي ذلك يقول سامر رشواني: «ولكنه تحدث عن "وحدة عضوية"، وغرض واحد تتجه إليه السورة، بل إنه في دراسة لسورة البقرة قد خلص إلى أنها تتألف من مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة، ولم نجده قد دمج هذه المقاصد الأربعة تحت عنوان أو موضوع واحد». (1)

كما أشار مصطفى مسلم إلى منهجية دراز في الكشف عن الوحدة العضوية للسورة القرآنية، وذلك في قوله: «كما تحدث الشيخ محمد عبد الله دراز في كتابه "النبأ العظيم" عن المناسبات بين آيات سورة البقرة». (2)

كما أشار إلى ذلك المفهوم الترابطي، والتعلق الوشائجي محمد رجب البيومي. (3)

¹ - منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 295.

² - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 67.

³ - البيان القرآني: محمد رجب البيومي، ص 142.

ثانياً: الوحدة الموضوعية: والتي تجتمع وحدتها الترابطية، وتناسباتها الائتلافية والاتساقية عند فكرة مركزية تدور حولها جزئياتها، وترتبط بها عناصرها الفرعية، فتتحقق بذلك وحدتها المنطقية أو الطبيعية أو المعنوية كما يسميها دراز، بعد أن تحققت -قبل ذلك- وحدتها البيانية أو الأدبية أو العضوية.

يقول عنه محمد الغزالي: «لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع في السورة، وإن كثرت قضاياها، وتأسيت في ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز».⁽¹⁾

كما تحدث عبد الستار سعيد عن الوحدة الموضوعية للسور القرآنية، وأشار في الهامش إلى كتاب النبأ العظيم لدراز، والوحدة الموضوعية لحجازي.⁽²⁾

كما نقل عنه كلامه عن الموضوع الواحد للسورة⁽³⁾، ثم قال عقب هذا النقل والاقْتباس: «وهذا الذي يقوله الشيخ -رحمه الله- أمر تقوم عليه الأدلة، وتطمئن إليه النفس والعقل».⁽⁴⁾

ويقول عنه أيضاً رفعت فوزي عبد المطلب: «وربما كان الدكتور دراز لا ينص صراحة على الوحدة الموضوعية في كتابه "النبأ العظيم" ... ولكنه في كتابه "المدخل إلى القرآن الكريم" يذكر صراحة أنه اكتشف أن السورة لها موضوع واحد».⁽⁵⁾

ومن ذلك أيضاً قول الدغامين: «إن دراز يؤكد على الوحدة الموضوعية في سور القرآن، وقيم البحث فيها على أسس منهجية».⁽⁶⁾

وقول عبد السلام حمدان اللوح: «وقد كتب الدكتور دراز حول الوحدة الموضوعية للسور القرآنية تحت عنوان "الكثرة والوحدة"».⁽⁷⁾

وهناك نصوص أخرى سنرجئها إلى المطلب الثالث -إن شاء الله-.

¹ - نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 05.

² - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 57، هامش 04.

³ - يراجع مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص 128.

⁴ - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، ص 90.

⁵ - الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية: رفعت فوزي عبد المطلب، ص 25.

⁶ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد خليل الدغامين، ص 112.

⁷ - وقفات مع نظرية التفسير الموضوعي: عبد السلام حمدان اللوح، مقال بمجلة الجامعة الإسلامية، غزة، ص 67.

ثالثا: البناء القرآني "أو الوحدة البنائية": حيث يدل مفهومه على تماسك أجزاء السورة، وعناصر الموضوع الواحد، كتماسك لبنات البناء الواحد، فإذا هو بعد ذلك صورة واحدة، وبناء قوي.

وهذا ما أثبتته طه جابر العلواني لدراز حينما أكد أن دراز عرض «الأسباب التي اجتمعت على القرآن؛ بحيث كان يمكن أن تجعل نظم السورة القرآنية مفككا، أو غير مترابط بشكل يسمح بالقول «بوحدة السورة»، فضلا عن القول "بالوحدة البنائية" على مستوى القرآن». (1)

ثم يحدد مفهومها عند دراز، فيقول عنه «ثم بين لنا التناسب والترابط والائتلاف في أطول سور القرآن وأكثرها نجوما، وأغناها تنوعا في الموضوعات، وهي سورة البقرة». (2)

ربعا: النظرية القرآنية: وهو مصطلح مقاصدي استعمله دراز للدلالة على كمال التصورات القرآنية، في المجال الأخلاقي، وإعجاز مفاهيمها التأصيلية والتظيرية لأبعاد العمل الأخلاقي، وبلوغها مستوى الكمال والاستقلالية والصلاحية لكل زمان ومكان في كل شؤون البشرية الأخلاقية. (3)

ونجد نفس المصطلح والمفهوم عند محمد باقر الصدر، الذي قرر أن «الدراسة الموضوعية هي التي تطرح موضوعا من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، وتتجه إلى درسه وتقييمه من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده». (4)

ومعلوم أن دراز سبق باقر الصدر إلى استعمال المصطلح بنحو ثلاثين سنة، مما يوحي -من غير جزم- تأثر الثاني بالأول في توظيف هذا المفهوم المقاصدي، حتى وإن لم يصرح بهذه العلاقة التأثيرية بعض الدراسين، كالدغامين (5)، وأحمد رحماني. (6)

خامسا: مصطلحات ومفاهيم أخرى تنتظر البحث والدراسة:

¹ - الوحدة البنائية للقرآن المجيد: طه جابر العلواني، ص 46.

² - المرجع نفسه، ص 47.

³ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 10.

⁴ - المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، ص 17.

⁵ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 28.

⁶ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني، ص 44.

هذا وقد استعمل دراز مصطلحات علمية كثيرة، كان بعضها مشتركا بينه وبين غيره من المفسرين المعاصرين، دون أن يعلم سبق لأحدهم في هذا المجال، وذلك كمصطلح "النظام"، الذي اعتمده عبد الحميد الفراهي كثيرا، ومصطلح "النسق"، الذي وظف مفهومه للدلالة على الترابط بين موضوعات السور عند محور واحد لها، من خلال رابط الأهداف والمقاصد، وهو ما تحقق في تفسير سيد قطب عند بعض الدارسين المعاصرين. (1)

كما استعمل دراز مصطلح "النظم" بمفهومه الترابطي المعنوي بين أجزاء النص القرآني، متأثرا في ذلك بصنيع عبد القاهر الجرجاني تأثرا واضحا. (2)

ومن بين المصطلحات والمفاهيم المهمة المستعملة عنده: "القانون الأخلاقي" و"المبادئ القرآنية"، و"المفهوم القرآني"، و"المقياس الأخلاقي"، و"الدستور الكامل"، و"القاعدة القرآنية"، و"المنهج التبليغي"، و"المنهج التعليمي"، وغيرها من المفاهيم الأساسية التي طرحها دراز في دراسته للأخلاق القرآنية وفق منهج التفسير الموضوعي.

إن هذه المفاهيم بمصطلحاتها الدقيقة تحتاج إلى تفصيل لحدودها، وشرح لمعالمها، وتحديد لأبعادها النظرية والتطبيقية في إطار دراسة علمية جامعة، وإشارات تحليلية لمعانيها الدقيقة والتي قد أشير إليها سابقا بنوع من الإجمال. (3)

المطلب الثاني: في وضع المنهج المختار في الدراسة الموضوعية.

كذلك قدم دراز معالم وحيثيات منهجية في دراسة الموضوعات القرآنية، أو السور القرآنية، ما زالت الدراسات المعاصرة تؤكدتها وتدرسها، وتعلق عليها نجاح التفسير الموضوعي لموضوعات أم سورا.

أولا: النظر الشمولي والرؤية الكلية:

¹ - يراجع: منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 302.

² - يراجع: كلمة عبد العظيم المطعني في كتاب: محمد عبد الله: دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه: إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 178.

³ - يراجع: مطلب أهداف التفسير الموضوعي عند دراز من المبحث الأول لهذا الفصل الأخير، ص 312.

قد أكد دراز كثيرا على أهمية اتساع رؤية المفسر في دراسته لموضوعات القرآن الكريم؛ فكلما زادت مساحة الرؤية، زادت عناصر الموضوع القرآني، وأجزاء السورة القرآنية اجتماعا وائتلافا، مما يؤدي إلى استقامة الدراسة وفق المنهج الصحيح للتفسير الموضوعي.

يقول عنه رفعت فوزي عبد المطلب: «وقد أوضح أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني هو تأمل السورة ككل للوصول إلى هدفها وموضوعها، وذلك قبل البحث في الصلات الموضوعية بين أجزائها»⁽¹⁾.

وفد ورث هذا الإدراك الكلي من الشاطبي الذي أصر «على ضرورة الإدراك الكلي للقرآن لما في ذلك من فائدة كبيرة تعين على فهم الجزئيات في ضوء الكليات فهما صحيحا»⁽²⁾.

كما رأى سامر رشواني أن دراز ممن يجعل النظر في نظام السورة من أدوات المناسبات التي يستعان بها لتحقيق الترابط الشامل بين آيات القرآن؛ إذ قال في ذلك: «وانتقد دراز منهج السابقين في النظر في المناسبة؛ إذ يعكفون على بحث الصلات الجزئية بين الآيات... غاضين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة في جملتها»⁽³⁾.

ثانيا: نظام الإحصاء والاستقراء.

كان دراز قد حرص كثيرا على إحصاء ألفاظ وآيات الموضوعات الأخلاقية الخمسة، ومن خلاله استنتج القاعدة الكلية، والنظرية العامة للأخلاق القرآنية، ولم تكن الدراسات -قبله- تركز على نظام الاستقراء إلا ما جاء في كتابات أمين الخولي وزوجه عائشة عبد الرحمن، على ما بينهما وبين دراز من تباين في منهج وهدف الدراسة؛ إذ يؤكد محمد عبد العظيم علي ذلك بقوله: «ولما وصل الدكتور دراز -رحمه الله- إلى فصل الجزء، نهج أسلوبا متميزا لتوضيح نظام التربية القرآنية، ثم الجزء الإلهي في الحياة العاجلة، وجعل لكل فقرة عناوين عديدة بالفرنسية... و أوضح في الهامس بيانا إحصائيا تحت كل عنوان يحدد عدد الآيات المكية والمدنية... وأحصى كل الآيات بأرقامها وسورها... وعلى مستوى

¹ - الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية: رفعت فوزي عبد المطلب، ص 24.

² - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحمان، ص 51.

³ - منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 342.

القرآن الكريم كله بلغ مجموع الآيات الكلي التي أحصاها 1333 آية مكية، و1060 آية مدنية تحت عناوين بلغ عددها 255 عنواناً.⁽¹⁾

وهذا ما قصده الدغامين من قوله: «إن دراز يؤكد على الوحدة الموضوعية هي سور القرآن، وقيم البحث فيها على أسس منهجية، لقد امتاز عمله بالدقة والضبط، والتطبيق المنهجي على بعض السور». ⁽²⁾

كما أشار إلى سبق الخولي ودراز في هذا المجال سامر رشواني حينما قال: «وقد اتفق معظم الباحثين في التفسير الموضوعي بدءاً من أمين الخولي فمن وراءه على ضرورة جمع الآيات الخاصة بالموضوع جمعاً إحصائياً مستقصياً»⁽³⁾، وأشار إلى دراز في الهامش.

ثالثاً: التجميع المتسلسل وفق روح الوحدة الأدبية والمنطقية.

فقد أكد دراز -مراراً- أن التجميع لا يكفي لوحده لنهج دراسة علمية وفق قواعد التفسير الموضوعي، بل لابد من روح جامعة بين الآيات المجمعة، وتسلسل للأفكار التفسيرية وفق الوحدة المنطقية الجامعة لها، ثم تشييد البناء القرآني المتناسك، والنظرية القرآنية العامة -حسب تعبير دراز-.

وهذا أيضاً ما حرص المفسرون بعده على تأكيده في دراساتهم القرآنية، وذلك كصنيع محمد باقر الصدر الذي جزم أن «ليست كل عملية تجميع أو عزل دراسة موضوعية؛ وإنما الدراسة الموضوعية هي التي تطرح موضوعاً من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية وتتجه إلى درسه وتقييمه من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده».⁽⁴⁾

وقد استطاع دراز -من أرضية فكرية مبدعة- أن يحقق التصنيف المنهجي للتفسير الموضوعي وفق هذا التجميع الحيوي الذي يجمع بين الوحدة المنطقية، وتسلسل التركيب، ورفع عماد النظرية العامة، كما قال رشواني: «بل ينبغي أن ينصرف الجهد إلى ما ركز عليه عبد الله دراز -مثلاً- في منهجه وهو الوحدة المنطقية للآيات القرآنية»⁽⁵⁾؛ لأن غيابها يؤدي -كما قال رشواني- إلى «افتقار الترابط

¹ - حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن: إعداد أحمد مصطفى فضلية، ص 94.

² - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد الدغامين، ص 112.

³ - منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 148-149.

⁴ - المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، ص 17.

⁵ - منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 155.

والتسلسل الفكري والمنطقي للتفسير، وتناثر الأفكار في غير نظام، وافتقاد التصنيف المنهجي الذي يقتضيه النظر الموضوعي». (1)

رابعاً: اكتشاف البنيات بين أجزاء السورة، والربط بين وجوه المناسبات ووحدة السورة العضوية.

فلم يكن يكتفي بدراسة العلاقات والمناسبات بين أجزاء السورة فحسب، بل كان ينظر إليها نظرة عامة من خلال وحدتها العضوية التي يتحقق بها تناسق أوضاع السورة، وائتلاف عناصرها المتفرقة في أبهى صورة، وأحلى دمية موشية، و قد قدم دراسة نموذجية مصدقة لذلك في تفسيره لسورة البقرة.

وقد تواردت شهادات عديدة لجهد دراز هنا؛ فمن ذلك قول عبد الغفار عبد الرحيم: «لقد تشبع الدكتور دراز بفكرة التفسير الموضوعي أو الوحدة الموضوعية وطبقها في جهوده القرآنية حتى لتحس وأنت تدرسها بأنك على مقربة من العهد الذي تبلورت فيه وهو عهد الأستاذ الإمام (2)، وها هو الدكتور دراز يعرض علينا منهجه في تفسير سورة البقرة لتقف منه على تكامل النسق القرآني في وحدة موضوعية متكاملة». (3)

ومن ذلك قول أحمد رحمانى: «إن كل ذلك يؤكد اقتناع دراز بوجود الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية الوحدة، وهو اقتناع مبني على برهان ودراسة تطبيقية لا تدع مجالاً للشك، بل يضيف شيئاً هاماً، وهو التأكيد على دور النواة المركزية في السورة». (4)

ومن ذلك قول محمود الأطرش: «محمد عبد الله دراز حيث يعتبر حديثه عن الوحدة الموضوعية من أبرز وأدق ما قيل فيها» (5)، إلى غير ذلك من الشواهد والنصوص.

فهذه المعالم المنهجية وغيرها التي تلون بها منهج دراز الموضوعي، قد استرعت انتباه الدارسين والمعاصرين، وإن كان دراز مسبقاً إليها في مؤلفات محمد عبده، وأمين الخولي وغيرهما.

1- منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 155.

2- يقصد به الإمام محمد عبده.

3- الدكتور محمد عبد الله دراز من أعلام مدرسة الإمام محمد عبده في التفسير الموضوعي للسورة القرآنية: عبد الغفار عبد الرحيم، ضمن كتاب: محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث: إعداد مصطفى فضلية، ص 71.

4- التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحمانى، ص 35.

5- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم والسورة القرآنية: محمود سعيد الأطرش، دار القيمة، ودار الإيمان الإسكندرية، ط1، 2008م،

المطلب الثالث: أثر الفكر الموضوعي في الدراسات المعاصرة.

كانت لجهود دراز التفسيرية، وآثاره في التفسير الموضوعي أصداً في مؤلفات التفسير الموضوعي المعاصرة؛ التي لم تحف تأثرها بصنيع دراز في هذا المجال، كما نوهت أيضاً بمنهج دراز المتميز في التفسير الموضوعي، أو في الوحدة الموضوعية، وها هنا بعض أقوالهم ونصوصهم الدالة على ذلك.

يقول الشيخ محمد الغزالي: «وتأسيت في ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة - وهي أطول سورة في القرآن -، فجعل منها باقة واحدة ملونة نضيدة، يعرف ذلك من قرأ كتابه "النبأ العظيم"، وهو أول تفسير موضوعي لسورة كاملة، فيما أعتقد».⁽¹⁾

هذا السبق التألّفي أشار إليه عبد الستار سعيد بأسلوب غير مباشر حينما قال: «وهذا الذي يقوله الشيخ رحمه الله أمر تقوم عليه الأدلة، وتطمئن إليه النفس والعقل، ولكن لا يزال البون بعيداً في وضع هذا على قوالب علمية محددة ... ويومئذ يبرز لون جديد آخر من وجوه الإعجاز القرآني الفياض، وإنه لآت بإذن الله».⁽²⁾

ومن ذلك قول أحمد رحمانى: «ولعل الذي كان الوحدة الموضوعية أوضح في ذهنه وهو يعالج مناهج تفسير القرآن الكريم هو الدكتور عبد الله دراز».⁽³⁾

وقول الدغامين: «ومحمد عبد الله دراز الذي كان أقرب ما يكون إلى منهج البحث وطبيعته».⁽⁴⁾

وقول عبد الله شحاتة: «كان فضيلته -رحمة الله عليه- مؤمناً بالوحدة المعنوية لكل سورة من

سور القرآن، برغم أن السورة كانت تنزل منجمة مقسطة...».⁽⁵⁾

¹ - نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، ص 05.

² - المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 90.

³ - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: أحمد رحمانى، ص 33.

⁴ - منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد خليل الدغامين، ص 105.

⁵ - منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم: عبد الله محمود شحاتة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

وقول رشواني: «فقد اتسمت معظم الدراسات التي ظهرت بعد ذلك بالقصور نظرا لجهلها، أو تجاهلها الدراسات السابقة، مما جعلها في أكثر الأحيان مرتجلة وساذجة، اللهم إلا ما نجده عند البعض من نظرات عميقة، كالتى طرحها دراز، أو التي أشار إليها البستاني حديثاً».⁽¹⁾

و نختتم هنا بقول أحمد أبي زيد: «تناول مبحث التناسب القرآني بشيء من التفصيل في كتابه "النبأ العظيم" لكنه اقتصر فيه على وجه واحد، هو التناسب المعنوي ووحدة السورة».⁽²⁾

¹ - منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: سامر عبد الرحمن رشواني، ص 364-365.

² - التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي: أحمد أبو زيد، ص 49.

خاتمة

بعد هذا المشوار والطواف الطويل والممتع في جهود دراز التفسيرية، ومؤلفاته القرآنية في التفسير الموضوعي، يمكن تسجيل أهم النتائج والملخصات والوصايا النظرية والعملية في النقاط التالية:

1 - يعد محمد عبد الله دراز من أهم أعلام الفكر الإسلامي الحديث الذي تشبعوا بروح القرآن الكريم، واتخذوه مورد أصيلاً في أفكارهم، ودراساتهم ومؤلفاتهم، وهو أيضاً من أعلام مدرسة المنار التي سلكت منهج التفسير الموضوعي لعلاج مشكلات الواقع الإنساني بأزماته، وعقده بأنوار الهدايات القرآنية، كما عرفنا في الفصل التمهيدي.

2 - رأينا اختلاف الدراسات المعاصرة في تحديد حقيقة التفسير الموضوعي؛ إذ يرجح أكثرهم منهجية هذا اللون من التفسير، شأنه في ذلك كشأن باقي مناهج التفسير: التحليلي، والمقارن، والإجمالي، بينما رأى البعض الآخر أنه منهج وعلم معاً؛ إذ تظهر فيه حدود العلم من مسائل، ومنهج، ومواضع، وثمرات وغيرها، كما قرر هؤلاء - كالحالدي وغيره - أن اشتراك التفسير الموضوعي باقي المناهج التفسيرية النص القرآني، لا يمنع استقلاله العلمية، وقد اتضح في آراء دراز ودراساته التطبيقية أن التفسير الموضوعي منهج متميز في كشف مواقف القرآن دون أن ينفي عنه تنظيراً وتصريحاً وصف العلمية، كما في الفصلين الأول والثالث.

3 - لم ينص دراز، أو لم يدرس إلا الموضوع، والسورة القرآنيين النوعين الأساسيين للتفسير الموضوعي، بينما لم يتضح عنده المصطلح القرآني باستقلالية إلا بعض الإشارات القليلة العرضية، والتي لم ترق تنظيراً ورؤية منهجية وأهدافاً إلى مستوى النوعين الأوليين.

وقد وافقه بعض الدارسين المعاصرين في هذا التقسيم الثنائي، كعبد الجليل عبد الرحيم، وزياد الدغامين، وأحمد الكومي، وعبد الحي الفرماوي، وأحمد رحمان وغيره، كما في الفصلين الأول والثالث.

4 - وكان دراز قد قدم في ذلك دراسات مهمة، ولكنها لم تتعدد في ذلك لدرجة أن كادت تختفي معها منهجيته العامة في التفسير الموضوعي، خاصة في أغلب الموضوعات القرآنية المتناثرة في مؤلفاته غير الأكاديمية، كـ "زاد المسلم"، و"حصاد قلم"، غير أن هذه المنهجية الموضوعية كانت أوضح في كتابه "دستور الأخلاق في القرآن"، للموضوع القرآني، أو في كتابه "النبأ العظيم"، و"حصاد قلم" للسرور القرآنية المفسر عنده، كما في الفصل الثاني.

5 - فرضت التحديات الفكرية والاجتماعية الحديثة التي طرحها الغرب بنظرياته وفلسفته، وواقعه الأليم على المفكرين المسلمين معارضتها، ودحض شبهاتها، وكشف عورتها، إلى جانب إبراز عظمة حقائق القرآن، ونباعة حلوله في كل المجالات، وهذا ما قام به دراز خير قيام في بحثه عن الأخلاق القرآنية هذا من جهة، كما في الفصل التمهيدي.

ومن جهة أخرى، فإن ذلك لم يمنعه التنظير المنهجي للتفسير الموضوعي، ولقضاياه الحدودية والمفاهيمية؛ حيث قام -وعدد من علماء الأزهر آنذاك- بسلوك منهج التفسير الموضوعي في دروسهم التفسيرية، والذي بدأ التنظير له من خلال مدرسة المنار (محمد عبده)، ومدرسة الأمان (أمين الخولي)، كما في الفصلين الأول والثالث.

6 -برزت -كذلك- معالم منهجية واضحة ومحددة من خلال هذه الجهود التفسيرية، توزعت بين أصول التفسير الموضوعي، وبين القواعد المنهجية، والوسائل الآلية، والأهداف المقاصدية المرحلية أو النهائية؛ فمن أصول التفسير الموضوعي الواضحة عنده النظر الكلي والاستيعاب الشامل لمحور الموضوع القرآني، وعناصره الفرعية، والرؤية الشاملة لنظام السورة المعنوي، ومحورها العام، ثم بيان الوحدة الأدبية والمنطقية للنص القرآني في كلا النوعين، ثم ثنائية الواقع والنص القرآني انطلاقاً وانتهاً، والشمولية، والموازنة بين السور القرآنية، والكشف والتجميع، واستخلاص الدروس والعبر المتمثلة في المواقف النظرية، والعلاجات العملية، كما في الفصلين الثاني والثالث.

7 -كانت لدراس منهجية تفسيرية مرحلية للموضوع أو للسورة القرآنية، كانت في معظم مراحلها متوافقة مع أغلب منهجية الدراسات المعاصرة، غير أن دراز كان قد اختزل هذه المراحل المنهجية للسورة القرآنية في وجوه المناسبات الداخلية، وذلك في تفسيره لسورة البقرة من كتابه "النبأ العظيم"، وهذا ما يخفي نقصاً وقصوراً في هذا المجال، كما في الفصل الثالث.

8 -كان دراز -أيضاً- واضحاً وجدياً في التزامه بالنص القرآني والرجوع إليه استخراجاً منه للإجابات الشافية، بل وتجريد الموضوع الأخلاقي من مجالات أخرى قريبة منه.

ولكنه لم يقتصر على سلوك هذا المنهج الموضوعي النصي، بل توسع بين الفلسفات الأوربية، وبين النصوص القرآنية، والنبوية، وآراء الفقهاء والمفكرين والأخلاقين المسلمين مما كاد به أن يخرج إلى إطار الدراسات القرآنية والإسلامية، لولا رجوعه في كثير من الأحيان إلى حدود النص القرآني، وتنبهه إلى استطراداته المطولة، كما في الفصل الثالث.

و لا يعني بهذا أن المقارنة مذمومة على كل حال، بل تكون محمودة وفعالة إذا لم تكثر، وتغلب المنهج الموضوعي، أو تبتعد عن حدود النص القرآني كثيراً، وما دامت -في ذلك- ملتزمة بشئناية الواقع والنص بصفة متوالية.

9 -وعلى العكس من ذلك؛ فإن أهداف التفسير الموضوعي كانت واضحة بدقة في نظر دراز، وفي منهجه الموضوعي؛ حيث كان يجمع في ذلك بين المقاصد النظرية المتمثلة في التصورات الصحيحة، والتشريعات الكاملة، وبين المقاصد العملية المتمثلة في الحلول العلاجية، والمواقف

العملية في حل مشكلات البشرية، وهذا ما طرح في الدراسات المعاصرة خاصة عند محمد باقر الصدر، كما في الفصل الثالث.

والعجيب هنا أن دراز عبر عن ذلك بمصطلحات سابقة على عصره، كاستعماله "النظرية"، و"القانون"، و"المبادئ"، و"الدستور"، و"الشريعة الأخلاقية"، و"القاعدة"، و"المقياس" وغير ذلك.

10 -اهتم دراز كذلك بقضية الوحدة في القرآن أو في السورة منه، وقدم مفاهيم لها تختلف عن مفاهيم التفسير الموضوعي اختلاف الأصل بفرعه تنوعاً في الحد والمنهجية، لا اختلاف تضاد بين أصليين متقابلين، وكان تعريفه لها يركز على معاني الائتلاف، والتناسق، وحسن التجاور بين المعاني المختلفة، وتشكيل الصورة التامة الحسنة بين العناصر المنفرقة، ولم يشر إلى الاجتماع حول النواة المركزية إلا قليلاً، مما دفع ببعض الدراسات المعاصرة إلى نفي الوحدة الموضوعية في منهج دراز التفسيري -رغم تحققها عنده تطبيقاً-، ولكن يعكس اهتمام دراز بالوحدة العضوية أكثر من الوحدة الموضوعية، كما هو في الفصل الثالث.

11 -ومن عوامل هذا الاهتمام الزائد حرص نزيه على رد شبهات المستشرقين ضد ربانية وإعجاز هذا القرآن العظيم، ونزعة أدبية جلية غلبت فكره القرآني لمفاهيم الوحدة الأدبية، ومصطلحاتها البيانية كالوحدة العضوية، والأدبية، والبيانية، والروح الواحدة وغيرها، بالإضافة إلى كثرة تشبيهاته البيانية بالصورة، والدمية، والحلة، والبناء، وأمثالها القياسية، مما يوحي بالتشابه واقتراب المفاهيم بين الوحدة في النص الأدبي، وبين الوحدة في النص القرآني، وفي ذلك إحالة إلى مشكلة نقل المفاهيم الإنسانية الأدبية إلى حقل المفاهيم القرآنية التفسيرية، على خلاف بين الدارسين المعاصرين في هذا المجال، وذلك في الفصل الثالث.

12 -اتسمت المنهجية المرحلية التي قدمها دراز -عملياً- للبحث في الوحدة -بشقيها الأدبي، والمنطقي- في أغلبها واضحة، وعميقة، ومقاربة المناحي والآليات مع ما هو مطروح في الدراسات المعاصرة، ولكنها من جانب آخر -متعلق بالوحدة الموضوعية- لم تكن متماسكة، ومتكاملة، بل لم تسع لتشكيل منهجاً متكاملًا ورؤية واضحة عنده؛ فاسم السورة -مثلاً- لا يبدو ذا أثر كبير في التفسير الموضوعي للسورة ما لم تتظافر معه القواعد المنهجية الباقية من فهم للبيئة التاريخية والمعنوي، واستعانة بوجوه المناسبات وعلوم القرآن الأخرى خاصة المكّي والمدني، ثم نظر متبصر في بنية السورة الهيكلية والأسلوبية السياقية المتنوعة؛ إذ أن وحدة السورة من وحدة العوامل والقواعد المنهجية المحققة لها.

وهذا ما لم يطبقه دراز بصفة منهجية ومتكاملة -فضلا عن نسبية قصور الدراسات المعاصرة عن هذا التكامل المنهجي-؛ بل انصرفت جهوده المنهجية إلى تحقيق الوحدة الترابطية -أو العضوية-، مما دل على أنه لم يستكمل منهجية البحث في الوحدة الموضوعية، رغم أنه قال بالوحدة المزدوجة داخل السورة القرآنية الواحدة، وأن الوحدة المنطقية تكون ثمرة وتالية لتحقيق الوحدة العضوية، كما هو في الفصل الثالث.

13 ولم يقتصر هذا القصور المنهجي على مستوى السورة القرآنية، بل قد تحقق -قبل ذلك- على مستوى الموضوع القرآني من نقص استقراء، وخروج عن جو القرآن - في بعض الأحيان- إلى مجال الفكر الإسلامي عموماً، والتوسع في المقارنات، واستطرادات حشوية غير محببة، وإخلال بالتزام الترتيب المصحفي أو حتى النزولي كثيراً، مما كاد أن يخرج -أحياناً- عن إطار التفسير الموضوعي، لولا التزامه بالنظام المنطقي، وتسلسل المعاني وفق النسق الفكري، وبحدود النص القرآني -أحياناً كثيرة-، فاستطاع أن يضبط جزئيات معنوية متعددة ومتداخلة وكثيرة جداً في إطار دراسة موضوعية موحدة مجردة عن المجالات الأخرى الفقهية أو الأصولية أو الشرعية أو غيرها، مما جعل معظم الدارسين يثمنون هذا الجهد الكبير الذي قدمه دراز، وهذه العقلية العلمية الفذة التي جمع -من خلالها- أشتات نظرية قرآنية مغيبة عن الفكر الإنساني لقرون عدة، كما هو في الفصل الثالث.

14 ومن هذا الباب فإنه طرح بين أيدينا منهجاً بديعاً وآراءً جديدةً بمزيد من التحليل والتفسير، وذلك كاستعماله المنهج المزدوج بين النظام المنطقي للآيات القرآنية المجمعة، وقاعدة التعليم أسلوباً وأهدافاً لتصنيفها المنهجي، وإخراجها التأليفي.

كما طرح أيضاً فكرة المقياس القرآني كمصفاء تغربل بها النظريات الإنسانية، والمشكلات الواقعية، تسهيلاً لاستنباط المواقف القرآنية النظرية والعملية من بعد ذلك، كما هو في الفصل الثالث.

15 - وأخيراً فإن هذه الجهود التفسيرية الدرازية قد تركت بصمتها وآثارها على الدراسات المعاصرة، مصطلحات ومنهجاً ومفاهيم أساسية للتفسير الموضوعي.

كما نقل عنهم شبه إجماعهم واتفاقهم على فضل دراز وجهده وأسبقيته -مع كوكبة من المفسرين كمحمد عبده وأمين الخولي- في وضع الحجر الأساس في التفسير الموضوعي بنوعيه الرئيسين -عند أغلب الدراسات المعاصرة- تنظيراً وتطبيقاً، وذلك بشهادة محمد الغزالي، وعبد الستار سعيد، وأحمد رحمان، وعبد السلام اللوح وغيرهم.

ولعل التوصية والنتيجة التي نختتم بهما هما: ضرورة وأهمية تكثيف الجهود العلمية النظرية والتطبيقية وفق التكامل النظري والمنهجي والمقاصدي حتى يصل التفسير الموضوعي إلى مرحلة النضج لا الاحتراق العلمي.

وأما نتيجة البحث فإن لدراس جهود معتبرة في هذا المنهج، وآراء أخرى علمية ومنهجية غير موفقة، لكن يكفيه أنه استطاع أن يضع لبنة أساسية في تشييد هذا المنهج المعاصر، وأن يقدم آراء وتأصيلات سابقة على زمانها، صيرته علما مهما من أعلام التفسير الموضوعي في عصرنا الحاضر.

والحمد لله رب العالمين.

الفهارس العامة

1 فهرس الآيات القرآنية

2 فهرس الأحاديث النبوية والآثار والأشعار

3 فهرس الأعلام

4 فهرس المصادر والمراجع

5 فهرس الموضوعات

أولاً: فهرس الآيات القرآنية السورة

1 - سورة الفاتحة:

« اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » 06 355

2- سورة البقرة:

«ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ...» 02 356

«أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ...» 16 225

«وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا...» 25 199

«قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ...» 91 185

«لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ...» 177 224

« وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى... » 189 289

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ...» 208 224

«وإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُوهُ...» 284 359

3 - سورة آل عمران:

«هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ...» 07 214

« وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ...» 103 392

«فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ هُمْ...» 159 197

4 سورة النساء:

«أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً...» 97 234

«وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ...» 100 234

5 - سورة المائدة:

«وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى...» 02 290

6 - سورة الأنعام:

«وَلْيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا...» 92 230

«ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رُبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى...» 131 198

7 - سورة الأعراف:

«وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ...» 154 287

- 197 199 «خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ...»
8 - سورة التوبة:
- 287 21 «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ...»
 198،170 128 «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...»
9 - سورة يونس:
- 186 11 «وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ...»
10 - سورة هود:
- 287 17 «وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً...»
 287 73 «رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ...»
 288 106 «هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ...»
11 - سورة الإسراء:
- 185 23 «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...»
 226 49 «أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا...»
12 - سورة الأنبياء:
- 288 100 «هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ...»
 230 107 «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ...»
13 - سورة المؤمنون:
- 198 60 «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ...»
14 - سورة النور:
- 192 33 «وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ...»
15 - سورة الفرقان:
- 288 12 «إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا...»
16 - سورة الشعراء:
- 230 214 «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ...»
17 - سورة القصص:
- 230 58 «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى...»

18 سورة سبأ:

«هَلْ نَدُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبْبِكُمْ...» 5-8 230

«مَتَى هَذَا الْوَعْدُ...» 29 226

19 سورة يس:

«وَأَيُّ هُمْ الْأَرْضِ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا...» 33 200

20 سورة غافر:

«اتَّقُوا رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي...» 28 239

21 سورة الدخان:

«فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...» 36 226

22 سورة الجاثية:

«إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا...» 32 226

23 سورة الأحقاف:

«وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ...» 05 356

«قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاءٍ مِنَ الرُّسُلِ...» 09 206

«بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ...» 35 356

24 سورة محمد:

«الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...» 01 356

«وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ...» 38 356

25 سورة ق:

«ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ...» 03 256

26 سورة الطور:

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ...» 21 234

27 سورة الملك:

«الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا...» 03 211،202

«إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا...» 08-07 288،224

«أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ...» 16 196

«قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ...» 24 354

«قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ...» 26 185

28 سورة القلم:

«وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ...» 04 225،203،196

«وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ...» 10 223،206

«وَلَا يَسْتَنْوِنَ...» 18 185

«وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى...» 48 217،215

«فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ...» 50 217

«لَمَّا سَمِعُوا الذُّكْرَ...» 51 202

29 سورة النبا:

«رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا...» 37-38 223

30 سورة النازعات:

«هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى...» 15 427

31 سورة التكويد:

«فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ...» 15 23

ثانيا: فهرس الأحاديث النبوية والآثار والأشعار.

الصفحة	الراوي أو القائل	النص
41	المتنبي	إذا غامرت في شرف مروم.....
199	ابن كثير	إنها ليس لها منها سوى الاسم.....
198	أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم	رفع القائم عن ثلاثة....
326	الترمذي وأحمد	ضعوا هذه الآية.....
113	البيزار والمهيثمي	كان لا يفسر شيئا من القرآن.....
198	الترمذي والحاكم	لا، ولكن الرجل يصوم ويصلي.....
199	ابن كثير	ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء.....

ثالثا: فهرس الأعلام.

اسم العلم

1 حرف الألف:

الصفحة

- إبراهيم الجبالي 36-30.
- إبراهيم الشاطبي (أبو إسحاق) 28، 29، 52، 78، 89، 116، 163
- 164، 206، 334، 434، 440.
- أحمد أبو زيد 142، 444.
- أحمد تقي الدين بن تيمية 68.
- أحمد جمال العمري 67، 69، 70، 75، 77، 82.
- أحمد حسن الزيات 27.
- أحمد حسن فرحات 94، 127.
- أحمد رحمانى 65، 67، 69، 73، 75، 78، 79، 82، 89، 97، 100، 102، 104، 110، 118، 121، 122، 128، 129، 130، 141.
- 142، 144، 145، 146، 372، 374، 395، 397، 402، 406، 412، 413.
- 438، 442، 443، 446، 450.
- أحمد بن الزبير الغرناطي 116.
- أحمد السيد الكومي 63، 68، 70، 74، 78، 83، 87، 96، 386، 446.
- أحمد الشرباصي 371.
- أحمد بن فارس 60، 61، 107.
- أحمد فؤاد 09.
- أحمد مصطفى فضلية 46، 51، 149، 153، 154.
- الأخنش بن شريف 206.
- آدم عليه السلام 47.
- إدوارد لامبير 16.
- أرسطو 106.
- إسماعيل باشا 03، 19.
- إسماعيل بن حماد الجوهري 59.

- إسماعيل صدقي 09، 14.
- إسماعيل بن كثير الدمشقي 97، 392.
- أم العلاء 206.
- أمين الخولي 84، 109، 114، 119، 125، 134، 135، 139، 146،
- 397، 440، 441، 443، 447، 450.
- أمية بن أبي الصلت 187.
- أنور الجندي 40، 259.
- أيوب بن السيد (أبو البقاء الكفوي) 61.

2 حرف الباء:

- بدر الدين الزركشي 58، 60، 202، 316، 322، 424.
- برجسون 39، 297.
- برهان الدين البقاعي 116.
- بلاشير 111.

3 - حرف التاء:

- تمام حسان 143.
- توفيق باشا 03.

4 حرف الجيم:

- جمال الدين الأفغاني 16.
- جمال الدين بن منظور 58، 59.
- جمال عبد الناصر 14، 15.
- جلال الدين السيوطي 116، 165، 166، 204، 424، 432.
- جون لابوم 07، 26، 271، 374.

5 - حرف الحاء:

- حافظ الأزهري 20.
- حسنين محمد مخلوف 39.
- حسين كامل 08.

6 - حرف الدال.

ديغول 23

ديكارت 39

07- حرف الراء.

الراغب الأصفهاني 108، 85، 61، 59، 58

رفعت فوزي عبد المطلب 440، 437، 119

رياض باشا 05

رينجالد وينجيت 09، 08

08- حرف الزاي.

زياد خليل محمد الدغامين 99، 98، 94، 90، 89، 85، 84، 83، 79، 69، 67

.. 110، 120، 128، 129، 134، 135، 140، 144، 371، 377، 386، 388

... 446، 443، 441، 438، 437، 413، 412، 411، 408، 406، 398، 397

09- حرف السين:

سامر عبد الرحمان رشواني 440، 436، 412، 411، 409، 386، 140، 101

..... 444، 441

سعد زغلول 09، 08

سعيد حوى 136، 131، 130، 118، 117

السمين الحلبي 85، 61

سليمان بن الأشعث (أبو داود) 159، 158

سيد قطب 257، 142، 136، 129، 121، 117، 97، 89

..... 439، 434، 426، 421، 420، 419، 418، 417، 416، 415

سيد محمد بدوي 255، 41، 37

10- حرف الشين:

شريف باشا: 05

شمس الدين بن القيم الجوزية 211، 114

شهاب الدين الألوسي 166، 59

11- حرف الصاد:

صالح عبد الفتاح الخالدي 65، 67، 69، 70، 73، 77، 78، 84، 86، 93،
 94، 96، 100، 101، 110، 120، 126، 129، 130، 134، 135، 141، 142،
 144، 145، 196، 380، 386، 405، 446.....
 صهيب الرومي -رضي الله عنه- 160.....

12- حرف الطاء:

طه جابر العلواني 118، 122، 129، 438
 طه حسين 187.....

13- حرف العين:

عائشة بنت أبي بكر الصديق -رضي الله عنها- 113، 198
 عائشة عبد الرحمان (بنت الشاطيء)..... 84، 126، 134، 135، 440
 عباس الثاني 70، 73، 77، 84
 عبد الجليل عبد الرحيم 64، 67، 69، 73، 77، 82، 86، 140، 144، 375،
 386، 394، 446.....
 عبد الحق بن عطية الأندلسي 166.....
 عبد الحكيم عامر 15.....
 عبد الحميد بن باديس 35، 37
 عبد الحميد الفراهي 89، 103، 116، 118، 121
 129، 136، 401، 413، 439.....
 عبد الحلیم محمود 36.....
 عبد الحي الفرماوي 62، 63، 67، 69، 73، 87، 82، 83، 86، 110،
 120، 129، 132، 135، 141، 144، 395، 446.....
 عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني 89، 117، 119، 130
 عبد الستار فتح الله سعيد 61، 65، 67، 69، 70، 72، 73، 75، 76،
 77، 78، 82، 84، 86، 87، 88، 90، 95، 110، 111، 112، 115، 120، 128،
 134، 140، 141، 144، 145، 153، 293، 374، 382، 383، 386، 398
 401، 402، 405، 437، 443، 450.....

- عبد السلام حمدان اللوح 72، 84، 90، 437، 450.
- عبد الصبور شاهين 24، 37، 46.
- عبد العظيم المطعني 27، 37، 254.
- عبد الغفار عبد الرحيم 442.
- عبد القاهر الجرجاني 163، 183، 202، 256، 413، 439.
- عبد الله الأنصاري 40، 46، 155.
- عبد الله دراز 28، 36.
- عبد الله بن الصديق الغماري 116.
- عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- 158، 199.
- عبد الله بن عمر -رضي الله عنه- 205.
- عبد الله محمود شحاتة 443.
- عبد الوهاب خلاف 37.
- عثمان بن عفان -رضي الله عنه- 158، 159، 210.
- عثمان بن مظعون -رضي الله عنه- 206.
- العز بن عبد السلام 111، 166.
- عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- 158.
- عمران سميح نزال 119، 121، 140، 143.
- عمر بن بحر الجاحظ 114.
- عطية طه عطية الزلما 73.
- علي بن أحمد بن حزم الأندلسي 212.
- علي بن أحمد الواحدي 160، 204.
- علي ماهر باشا 11.
- 14- حرف الفاء:**
- غريبي صالح هـ.
- 15- حرف الفاء:**
- فاروق باشا 32.
- فخر الدين الرازي 89، 97، 115، 162.

- خون شولتيزت 23.
- خفضل الورتلاني 35.
- خؤاد باشا 150، 19.
- خهد الرومي 348، 71.

16- حرف الكاف:

- خامل علي سعفان 414.
- كانط 303، 249.
- كرومر 06.
- كمال بشر 28.
- كريستاني 07.

17- حرف اللام:

- اللبني 09.
- لوكلارك 23.
- ليوبولد جوليان 06.

18- حرم الميم:

- مالك بن نبي 122، 121، 118، 37، 35.
- محمد إبراهيم شريف 410، 409.
- محمد أحمد يوسف القاسم 431، 430، 62.
- محمد بن أحمد الأزهري 58.
- محمد بن إدريس الشافعي 164.
- محمد أبو زهرة 41، 40، 36.
- محمد أبو شهبة 60.
- محمد أمين أبو شهبة هـ.
- محمد باقر الصدر 115، 79، 74، 69، 67، 65، 62.
- 448، 441، 438، 393، 375، 144.
- محمد بن جرير الطبري 158، 157، 97.
- محمد حسن باجودة 123.

- محمد الخضر حسين 36، 30
- محمد رجب البيومي هـ، 29، 42، 256، 257، 259، 388
- 403، 409، 410، 413، 436
- محمد رشيد رضا 116، 140
- محمد سلامة 36
- محمد شاکر 17
- محمد الطاهر بن عاشور 60، 427
- محمد بن الطيب الباقلائي 89، 115، 159، 160
- محمد بن عبد الرحمان السخاوي 28
- محمد بن عبد العظيم علي 440
- محمد عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري 114، 395
- محمد عبد اللطيف دراز 32
- محمد عبده 16، 17، 29، 43، 44، 52، 155، 443، 447، 450
- محمد بن عرفة الدسوقي 28
- محمد علي 06، 20
- محمد بن علي بن الحسن الترميذي 39
- محمد بن علي بن عطية (أبو طالب المكي) 39
- محمد بن عيسى الدامغاني 85
- محمد الغزالي 64، 82، 89، 110، 128، 132، 136، 140، 408، 415
- ، 416، 417، 418، 419، 420، 421، 426، 434، 437، 443، 450
- محمد قطب 140
- محمد بن محمد الحاكم النيسابوري 198
- محمد بن محمد الطوسي (أبو حامد الغزالي) 39، 151، 160، 161، 266، 268
- محمد محمود حجازي 109، 117، 118، 119، 120، 128، 136، 373
- 375، 408، 437
- محمد محمود النقراشي 11، 12، 13
- محمد بن مصطفى المراغي 18

- محمد نبيل غنايم 77.
- محمد نجيب 15.
- محمد النشرتي 28.
- محمد بن يوسف (أبو حيان الأندلسي) 59.
- محمود الأطرش 442.
- محمود البستاني 119.
- محمود شلتوت 434، 421، 416، 415، 414، 136، 134، 36، 18.
- محمود بن عمر الزمخشري 115، 97.
- مصطفى الجويني 114.
- مصطفى صادق الرافعي 413، 142، 121، 117، 116.
- مصطفى فهمي باشا 05.
- مصطفى مسلم 99، 96، 93، 89، 86، 84، 78، 73، 70، 69، 64، 61.
- ... 101، 110، 129، 130، 140، 141، 144، 145، 375، 386، 395، 405، 436، 424، 408.
- مصطفى ناصف 132.
- ملنر 09.
- منصور كافي ز.
- ميسلون الخطيب 434، 130، 129.

19- حرف النون:

- النحاس باشا 13، 12.
- نوبار 05.
- نور الدين عتر 119.
- نولدكة 167.

20- حرف الهاء:

- هنتريغر 10.

21- حرف الواو:

- الوليد بن المغيرة المخزومي 206، 158.

17..... سويلسون

22- حرف الياء:

163 ، 162..... يوسف السكاكي أبو يعقوب

128 ، 39 ، 38 ، 37 يوسف القرضاوي

رابعاً: فهرس المصادر والمراجع:**I. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.****II. مؤلفات محمد عبد الله دراز:**

- 1 - حصاد قلم، تح أحمد مصطفى فضلية، دار القلم، الكويت، ط1، 2004.
- 2 - دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية، تح، أحمد مصطفى فضلية، دار القلم، الكويت، 1980م.
- 3 - دستور الأخلاق في القرآن، ترجمة عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 10، 1998م.
- 4 - الدين، دار القلم، الكويت، 1977م.
- 5 - زاد المسلم للدين والحياة، دار القلم، الكويت، ط1، 2004م.
- 6 - عقائد الإيمان وشرائع الإسلام، ط، درا الحافظ.
- 7 - مدخل إلى القرآن الكريم، ترجمة محمد عبد العظيم علي، دار القلم، الكويت، ط5، 2003.
- 8 - الميزان بين السنة والبدعة: دار القلم، الكويت، ط1، 2003م.
- 9 - النبأ العظيم: دار القلم، الكويت، ط1، 2005.
- 10 نظرات في الإسلام: د. ت، د. ط.

III. التفاسير:

- 1 - الأساس في التفسير: سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط5، 1999م.
- 2 - البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، القاهرة، ط2/ 1983م.
- 3 - التفسير البياني في القرآن الكريم: عائشة عبد الرحمان، ط، دار المعارف، القاهرة.
- 4 - تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، 1984م، وطبعة دار سحنون، 1997م.
- 5 - تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: محمد المهري الشافعي، مراجعة: هاشم محمد مهدي، دار طوق للنجاة، بيروت، لبنان، ط1، 2001م.
- 6 - تفسير القرآن الحكيم: المعروف بتفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار المنار، ط3، د. ت.
- 7 - تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن كثير، تح، حامد أحمد الطاهر، درا الفجر للتراث، القاهرة، ط 1، 2003م.

- 8 - تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى: محمود شلتوت، دار الشروق، القاهرة، ط12، 2004م.
- 9 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1983م.
- 10 روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1.
- 11 المذخر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- 12 عمدة التفسير: مختصر تفسير ابن كثير، أحمد محمد شاكر، دار الوفاء، المنصورة.
- 13 في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط32، 2003م.
- 14 للكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: محمود جار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1986م.
- 15 المحرر والوجيز في تفسير الكتاب العزيز: عبد الحق بن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 16 معارج التفكير ودقائق التدبر: عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني [تفسير تدبري للقرآن بحسب ترتيب النزول]، دار الفكر، دمشق، ط1، 1981م.
- 17 مفاتيح الغيب "التفسير الكبير": فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، 1983م، وط، دار إحياء القرآن العربي، بيروت، لبنان.
- 18 نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، منشورات بغداد، الجزائر، د.ت.
- 19 نظرة العجلان في أغراض القرآن: ابن شهيد ميسلون، المطبعة العمرية، دمشق.
- 20 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي، تح، عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995م.

IV. علوم القرآن:

- 1 - إلتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، تح: مصطفى ديب البغا، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د.ت.
- 2 - أسباب النزول: علي بن أحمد الواحدي، تعليق شريف عبد الرحمان، دار التقوى للتراث، د.ت.

- 3 +الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط4، 1988م.
- 4 - أسرار أسماء سور القرآن الكريم: عبد الفتاح القاضي، مخطوط، رسالة دكتوراه من جامعة الأزهر الشريف، 2000م.
- 5 -إعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: عائشة عبد الرحمان (بنت الشاطيء)، دار المعارف، القاهرة، ط3، د. ت.
- 6 +إعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره: محمد أحمد يوسف القاسم، د. م، د. ت، 1979م.
- 7 -إعجاز القرآن: أبو بكر الباقلائي، تح: عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط4، 1997م.
- 8 -إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2001م.
- 9 +إعجاز القرآني وجوهه وأسراره: عبد الغني بركة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1989م.
- 10 -الإعجاز القصصي في القرآن: سعيد عطية علي مطاوع، الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2006م.
- 11 إمعان النظر في تناسب الآيات والسور: محمد عناية الله أسد سبحاني، دار عمار، عمان، الأردن، 2003م.
- 12 بحث جديد على القرآن: محمد صبيح، دار الشروق، بيروت، ط8، 1983م.
- 13 للبدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرى: عبد الفتاح القاضي، تح: أحمد عناية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2004م.
- 14 للبرهان في ترتيب سور القرآن: أبو جعفر بن الزبير الغرناطي، تح: محمد شعباني، مطابع فضالة، المغرب، 1993م.
- 15 للبرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم: دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1392 هـ.
- 16 للبيان القرآني: محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2001م.
- 17 تاريخ القرآن: عبد الصبور شاهين: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، مايو 2005.

- 18 الترتيب والتناسب في آيات القرآن وسوره ودلائل الإعجاز: محمد رأفت سعيد، دارالتوفيق، القاهرة، ط1، 1991م.
- 19 التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي: أحمد أبو زيد، كلية الآداب (سلسلة رسائل وأطروحات)، 1992م.
- 20 تناسق الدرر في تناسب السور: جلال الدين السيوطي، المسمى أيضا "أسرار ترتيب القرآن"، تح: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1986م.
- 21 عظمة القرآن الكريم: محمود الدوسري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط1، 1426م.
- 22 المفصلة القرآنية: محمد حسناوي، دار عمار، عمان، الأردن، 1986م.
- 23 القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين: محمد الصادق إبراهيم عرجون، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط2، 1989م.
- 24 القرآن المجيد: محمد عزة دروزة: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د. ت.
- 25 القرآن نزوله تدوينه، ترجمته وتأثيره: بلاشير، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1974م.
- 26 القرآن والقصص: محمد البشير النيفر، مطبعة الشمال الإفريقي، ط1، د. ت.
- 27 قواعد التدبير الأمثل لكتاب الله عز وجل: عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط3، 2004م.
- 28 كيف نتعامل مع القرآن العظيم: يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط4، 2005م.
- 29 لباب النقول في أسباب النزول: جلال الدين السيوطي، درا إحياء العلوم، بيروت، ط4، 1983م.
- 30 مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط14، 1982م.
- 31 مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1999م.
- 32 محاضرات في علوم القرآن: غانم قدوري الحمد، دار عمار، عما، 2003م.
- 33 مدخل على تفسير القرآن وعلومه: عدنان محمد زرزور، درا القلم، بيروت، لبنان، ط2، 1998م.
- 34 المدخل لدراسة القرآن الكريم: محمد أبو شهبه، مكتبة السنة، القاهرة، 1992م.

- 35 - مرصد المطالع في المطالع والمقاطع أو علم المناسبات في السور والآيات: جلال الدين السيوطي: تح، محمد بازمول، المكتبة المكية، د. م، 2002م.
- 36 - المصاحف: ابن أبي داوود، تح محب الدين السبحان، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، دولة قطر، ط1، 1995.
- 37 - المكي والمدني: عبد الرزاق حسين أحمد، دار ابن عفان، القاهرة، ط1، 1999م.
- 38 - معجم القراءات القرآنية: أحمد عمر مختار وآخر، مطبوعات جامعة الكويت، ط2، 1988م.
- 39 - مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الحديث، القاهرة، 2001م
- 40 - منهج السياق في فهم النص: عبد الرحمان بودرع، سلسلة كتاب الأمة، الدوحة، قطر، ط1، فبراير، 2006م
- 41 - للوحدة الفنية في القصة القرآنية: محمد الدالي، د. ت، 1993م.
- V. أصول التفسير ومناهج المفسرين:**
- 1 - أصول التفسير وقواعده: خالد عبد الرحمان العك، دار النفايس، بيروت، لبنان، ط2، 1986م.
- 2 - اتجاه التفسير في القرن الرابع عشر: فهد الرومي، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، 1414هـ.
- 3 - التفسير نشأته، تدرجه، وتطوره: أمين الخولي، دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ط4، 1982م.
- 4 - التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، مكتبة مصعب بن عمير، د. م، 2004م.
- 5 - تعريف الدارسين بمناهج المفسرين: صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط1، 2002م.
- 6 - كتاب معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي: دراسة وتحقيق: محمد بن عقيل موسى، ط، جامعة أم القرى، 1996م.
- 7 - الشيخ شلتوت ومنهجه في التفسير: عبد العزيز عزت عبد الحكيم محمود، مخطوط رسالة دكتوراة من جامعة الأزهر الشريف، 1989م.

- 8 - الفوز الكبير في أصول التفسير: ولي الله الدهلوي، مركز القرآن الكريم، الجزائر، ط1، 2010م
- 9 - محمد عبد الله دراز وجهوده في الفقه الإسلامي المعاصر: حافظ محمد منير الأزهرى، دار القلم، الكويت، ط1، 2009م.
- 10 مقدمة في أصول التفسير: أحمد تقي الدين تيمية، مؤسسة الريان، بيروت، ط2، 2001.
- 11 حناهج في التفسير: مصطفى الجويني، منشأة المعارف بالإسكندرية، د.ت.
- 12 حناهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم: عبد الله محمود شحاتة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة.
- 13 لمنهج الحركي في ظلال القرآن: صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار، عمان، الأردن، ط2، 2000م.
- 14 حناهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: فهد الرومي، مؤسسة الرسالة، الرياض، ط3، 1414هـ.
- 15 موازنة بين الباقلاني وعبد الله دراز في إعجاز القرآن: غريبي صالح، مخطوط، رسالة ماجستير من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، بقسنطينة، 2002م.

VI. دراسات قرآنية:

- 1 - البيان في روائع القرآن: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 2000م.
- 2 - التفسير والتأويل في القرآن: صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1996م.
- 3 - دراسات قرآنية: محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط6، 1991م.
- 4 - الصبر في القرآن الكريم: يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط3، 1989م.
- 5 - الوحدة البنائية للقرآن المجيد: طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط2، مايو 2008م.
- 6 - الوحدة التاريخية للسورة القرآنية: عمران سميح نزال، دار القراء، الأردن، ط1، 2006م.
- 7 - الوحدة الموضوعية في سورة يوسف: محمد حسن باجودة، دار تھامة، جدة، ط2، 1983م.
- 8 - الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: مكتبة دار التفسير، الزقازيق (مصر)، ط2، 2004م، وط مطبعة المدني، القاهرة، ط1، 1970م.

9 - الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية: رفعت فوزي عبد المطلب، دار السلام، القاهرة، ط1، 1986م.

10 نظرات في القرآن: محمد الغزالي، دار الشهاب، باتنة، ط6، 1986م.

VII. دراسات تخصصية في مصطلح التفسير الموضوعي:

1 - بحوث ونماذج من التفسير الموضوعي: محمد نبيل غنايم، دار القلم، القاهرة، ط1، 1422هـ، 2002م.

2 - البداية في التفسير الموضوعي: عبد الحي الفرماوي، د.م، ط7، 2005م.

3 - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، الأردن، ط2، 2008م.

4 - التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: أحمد السيد الكومي وآخر، د.ن، ط1، 1402هـ.

5 - التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان: عبد الجليل عبد الرحيم، د.ن، عمان، ط1، 1992م.

6 - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحمان، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، 1998م.

7 - دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني: أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1986م.

8 - دراسات في القرآن الكريم والتفسير الموضوعي: محمد عبد السلام، دار الفكر الإسلامي، القاهرة، ط2، 1987م.

9 - دروس في التفسير الموضوعي (التنظير للمنهج): صونيا وافق، مكتبة اقرأ، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2006م.

10 - مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط2، 1997م.

11 - محاضرات في التفسير الموضوعي: عباس عوض الله عباس، دار الفكر، دمشق، ط1، 2007م.

12 - لمدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط2، 1991م.

13 - المدرسة القرآنية: محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، د.ت.

14 - مصادر التفسير الموضوعي: أحمد رحمان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1998م.

- 15 منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: سامر عبد الرحمان رشواني، دار الملتقى، حلب، سوريا، ط1، 2009م.
- 16 المنهج الرباني في التفسير الموضوعي: عطية علي عطية الزلعة، د.م، د.ن، 2003م.
- 17 منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: زياد خليل محمد الدغامين، دار البشير، عمان، الأردن، ط1، 1995م.
- 18 للوحدة الموضوعية في القرآن الكريم والسورة القرآنية: محمود سعيد الأطرش، دار القيمة، ودار الإيمان، الإسكندرية، ط1، 2008م.

VIII. الحديث وعلومه:

- 1 - جامع الأصول في أحاديث الرسول: المبارك بن الأثير الجزري، تح عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة دار البيان، والمكتبة التجارية، مكة المكرمة، ط2، 1983.
- 2 - الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ وسننه وآياته: محمد بن إسماعيل البخاري، نشره: علي بن حسن الحلبي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 2008م.
- 3 - التعريف بأوهام من قسم السنن إلى صحيح وضعيف: محمود سعيد ممدوح، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي _ الإمارات، ط1، 2000.
- 4 - سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1425هـ.
- 5 - سنن أبي داوود، تح كمال يوسف الحوت، دار الجنان، بيروت، ط1، 1988.
- 6 - السنن الصغرى: النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م.
- 7 - صحيح سنن النسائي: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط1 للطبعة الجديدة، 1998.
- 8 - كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة: نور الدين علي أبو بكر الهيثمي، تح حبيب الرحمان الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1984.
- 9 - المستدرک علی الصحیحین: الحاکم النیسابوری، تح: حمدي الدمرداش، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2000م.

IX. المعاجم اللغوية والمعاجم التخصصية:

- 1 بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروز آبادي، تح محمد علي النجار، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د.ت.
- 2 تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الزبيدي، تح، أحمد خراج، عبد الستار، مطبعة حكومة الكويت، 1965م.
- 3 تفصيل آيات القرآن: جون لا بوم، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2، 1955م.
- 4 تهذيب اللغة، الأزهرى، تح: عبد السلام هارون، دار القومية العربية للطباعة، 1384 هـ.
- 5 الصحاح: الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، د.ت.
- 6 عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمني الحلبي، تح: محمد التونجي عالم الكتب، ط1، 1993م.
- 7 القاموس المحيط: الفيروز آبادي، المطبعة الأميرية، بولاق، ن ط3، 11301هـ.
- 8 المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، تح: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 2005م
- 9 معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ط2، 1970م
- 10 للمعجم الفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1986م.
- 11 معجم مقاييس اللغة: أحمد فارس: تح، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1991م
- 12 الكلبيات: أبو البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1993م.
- 13 لسان العرب: جمال الدين بن منظور، دار إحياء التراث العربي، دار صادر، بيروت، لبنان، 1955.

X. كتب اللغة والبلاغة والأدب العربي:

- 1 - أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، ط، دار المدني، جدة، السعودية، ط1، 1991م.
- 2 - الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: محمد كريم الكواز، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط2، 2008م.
- 3 - البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط9، د.ت.

- 4 - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها: عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1996م.
- 5 - دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004م.
- 6 - عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تح عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2005.
- 7 - فن الشعر: أرسطو، ترجمة وتعليق: إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت.
- 8 - في الأدب الجاهلي: طه حسين، مطبعة فاروق، القاهرة، ط3، 1933م.
- 9 - قضايا النقد الأدبي: محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية، 1979م.
- 10 قضايا النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق: طه عبد الرحيم عبد البر، دار التأليف، القاهرة، ط1، 193م.
- 11 مفتاح العلوم: أبو يعقوب يوسف السكاكي، تح: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000م.
- 12 منهج البلغاء وسراج الأدباء: حازم القرطاجي، تح محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986.
- 13 المنهج النبوي: الزواوي بغورة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائري، ط1، 2001م.

XI. كتب مناهج البحث العلمي:

- 1 - أسس البحث العلمي لإعداد الرسائل الجامعية: مروان عبد المجيد إبراهيم، مؤسسة الوراق، عمان، ط1، 2000م.
- 2 - أصول البحث العلمي ومناهجه: أحمد بدر، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط9، 1996م.
- 3 - البحث العلمي ومناهجه النظرية: سعد الدين السيد صالح: مكتبة الصحابة، حدة، مكتبة التابعين، القاهرة، ط2، 1993م.
- 4 - مناهج البحث العلمي: عبد الرحمان بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط3، 1977م.

XII. كتب عامة:

- 1 - إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي، دار الحديث، القاهرة، 2004م.
- 2 - إعلام الموقعين عن رب العالمين: ابن القيم الجوزية، مكتبات الكليات الأزهرية، د.ت.
- 3 - أصول الفقه: محمد أبو زهرة: درا الفكر العربي، القاهرة، 1990م.

- 4 - أصول الفقه الإسلامي: وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق.
- 5 - تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل: محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ط5، 2003.
- 6 - حاشية رد المختار على الدر المختار: ابن عابدين، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1992م.
- 7 - جواهر القرآن: أبو حامد الغزالي، تح: محمد رشيد رضا، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط2، 1986م.
- 8 - الاستنذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من المعاني والآثار وشرح ذلك بالإيجاز والاختصار: ابن عبد البر، تعليق: سالم محمد عطا وآخر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2002م.
- 9 - الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط2، 1985م.
- 10 - لفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ابن القيم الجوزية، صححه محمد بدر الدين النعساني، مطبعة السعادة، القاهرة، ط1، 1327هـ.
- 11 - مجموع الفتاوى: أحمد تقي الدين بن تيمية: جمع عبد الرحمان بن قاسم، مكتبة المعارف، الرباط، د.ت.
- 12 - الملل والنحل: عبد الكريم الشهرستاني، تح: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2000م.
- 13 - لموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي، تعليق عبد الله دراز، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت.
- 14 - نخاية السؤل شرح منهاج الوصول: جمال الدين الأنسوي، عالم الكتب، د.ت.

XIII. كتب التراجم والتاريخ:

- 1 - أزمة العروش وصدمة الجيوش (قراءة متصلة في يوميات حرب فلسطين 1948): محمد حسنين هيكل، دار الشروق، القاهرة، ط2، مارس 2000م.
- 2 - الأزهر في ألف عام: محمد عد المنعم خفاجي، عالم الكتب بيروت، مكتبات الكليات الأزهرية، ط2، 1988م.
- 3 - الأعلام: خير الدين الزركلي: دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط16، 2005م.
- 4 - التاريخ الإسلامي: محمود شاكر، الإسلامي: محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 2000م، مجلد 13.

- 5 - تاريخ العالم في القرن العشرين: مجموعة من الباحثين، بإشراف International Edito Greps، بيروت، لبنان، 2005م
- 6 - تاريخ مصر المعاصر: شوقي الجمل وآخر: دار الثقافة، القاهرة، د.ت.
- 7 - حكام مصر قبل عبد الناصر: محمد فوزي، مركز الياة للنشر والإعلام، القاهرة، ط1، 1997م.
- 8 - زعماء الإصلاح في العصر الحديث: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت.
- 9 - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: محمد مخلوف، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ.
- 10 علماء ومفكرون عرفتهم: محمد المجدوب، دار الشواف، د.ت.
- 11 محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه: إعداد أحمد مصطفى فضلية، دار القلم، الكويت، ط1، 2007م.
- 12 محمد علي وأولاده: جمال بدوي، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، د.ت.
- 13 مصر قبل عبد الناصر: عبد العظيم رمضان، الهيمنة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995م.
- 14 مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر: ريمون فلاور، ترجمة: سيد أحمد الناصري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002م.
- 15 مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال: عبد الرحمان الرافي، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1404هـ، 1983م.
- 16 معجم المؤلفين: محمد رضا كحالة: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993م.
- 17 الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، إشراف مانع الجهني، دار الندوة العالمية، د.م، د.ت.
- 18 موسوعة نساء ورجال من مصر: لمعي المطيعي، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2003م.
- 19 نشوء وسقوط القوى العظمى: بول كينيدي، ترجمة مالك البديري، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 1998م.
- 20 النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: محمد رجب البيومي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1995م.

- 1 مجلة الأزهر، القاهرة.
- 2 مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين.
- 3 مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية بالكويت.
- 4 مجلة كليات الدراسات الإسلامية والعربية بالإمارات.
- 5 مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- 6 مجلة المعارج اللبنانية.

الصفحة

الموضوع

- - اهداء
- - شكر و تقدير

- مقدمة أ.....
- فصل تمهيدي: محمد عبد الله دراز: عصره، سيرته، ومكانته العلمية.....001
- المبحث الأول: الأوضاع السياسية والاجتماعية والأحوال الفكرية والثقافية.....002
- المطلب الأول: أوضاع مصر السياسية والاجتماعية، وأحوالها الفكرية والثقافية.....003
- الفرع الأول: الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.....003
- الفرع الثاني: الأحوال الفكرية والتعليمية والثقافية.....015
- المطلب الثاني: أوضاع فرنسا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية أثناء الحرب العالمية الثانية.....021
- المبحث الثاني: سيرته ومكانته العلمية.....026
- المطلب الأول: حياته وسيرته.....028
- الفرع الأول: الولادة والنشأة، والمسيرة العلمية، والنضال الوطني.....028
- الفرع الثاني: نشاطاته، ووظائفه بعد عودته إلى مصر إلى حين وفاته.....034
- الفرع الثالث: أهم شيوخه، و زملائه و تلاميذه.....036
- الفرع الرابع: مواقف جريئة و آراء سديدة.....037
- المطلب الثاني: مكانته ومؤلفاته العلمية.....039
- الفرع الأول: مكانته العلمية.....039
- الفرع الثاني: مؤلفاته العلمية.....045
- الفصل الأول: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في الدراسات القرآنية المعاصرة.....055
- المبحث الأول: حقيقة التفسير الموضوعي و مناهجه في الدراسات المعاصرة.....056
- المطلب الأول: مفهوم التفسير الموضوعي و نشأته في الدراسات المعاصرة.....057
- الفرع الأول: في تحديد المفهوم اللغوي والاصطلاحي وتمييزه عن الأنواع الأخرى.....058
- الفرع الثاني: التفسير الموضوعي بين العلمية و المنهج.....067
- الفرع الثالث: مصطلحات التفسير الموضوعي المعاصرة.....072
- الفرع الرابع: نشأة التفسير الموضوعي في الدراسات المعاصرة.....076
- المطلب الثاني: أنواع التفسير الموضوعي في الدراسات المعاصرة.....081
- الفرع الأول: حقيقة المصطلح القرآني بين النفي و الإثبات في الدراسات المعاصرة.....082
- الفرع الثاني: حقيقة الموضوع القرآني في الدراسات المعاصرة.....086
- الفرع الثالث: حقيقة السورة القرآنية بين النفي و الإثبات في الدراسات المعاصرة.....088

- 090.....- الفرع الرابع:التفسير الموضوعي في جملته عند عبد السلام حمدان اللوح.
- 092.....- المطلب الثالث: منهجية البحث في أنواع التفسير الموضوعي في الدراسات المعاصرة.
- 093.....- الفرع الأول: منهجية البحث في المصطلح القرآني بين مصطفى مسلم و الخالدي.
- 095.....- الفرع الثاني: منهجية البحث في الموضوع القرآني في الدراسات المعاصرة.
- 099.....- الفرع الثالث: منهجية البحث في السورة القرآنية في الدراسات المعاصرة.
- 101.....- الفرع الرابع:تعقيب و مناقشة.
- 105.....- المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.
- 106.....- المطلب الأول: حقيقة الوحدة الموضوعية، تاريخها و مسمياتها.
- 125.....- الفرع الأول: الوحدة الموضوعية للمصطلح القرآني.
- 127.....- الفرع الثاني: الوحدة الموضوعية للموضوع القرآني.
- 129.....- الفرع الثالث: الوحدة الموضوعية للسورة القرآني.
- 134.....- الفرع الرابع: تعقيب و مناقشة.
- 138.....- المطلب الثالث: منهجية البحث في الوحدة الموضوعية في الدراسات المعاصرة.
- 139.....- الفرع الأول:علوم القرآن و الوحدة الموضوعية في الدراسات المعاصرة.
- 142.....- الفرع الثاني:بنية السورة و الوحدة الموضوعية في الدراسات المعاصرة.
- 144.....- الفرع الثالث:ضوابط منهجية متفرقة في كشف الوحدة الموضوعية.
- 145.....- الفرع الرابع:تعقيب و مناقشة.
- 147.....- الفصل الثاني:المنهج التحليلي والموضوعي في تفسير محمد عبد الله دراز.
- 148.....- المبحث الأول: التعريف بتفسيره ومصادره.
- 148.....- المطلب الأول: ظروف التأليف.
- 156.....- المطلب الثاني: مصادره في تفسيره.
- 168.....- المطلب الثالث: علاقة مؤلفاته بعضها ببعض.
- 173.....- المبحث الثاني: منهج محمد عبد الله دراز التحليلي في تفسيره.
- 176.....- المطلب الأول: العقيدة والمسائل الفلسفية والكلامية.
- 183.....- المطلب الثاني:اللغة والمسائل البلاغية والأدبية.
- 188.....- المطلب الثالث: الأحكام الفقهية والمباحث الأصولية والمقاصد التشريعية في تفسيره.
- 194.....- المطلب الرابع: المنهج العقلي في تفسيره.
- 196.....- المطلب الخامس: التفسير بالمأثور والتفسير العلمي.

- 200.....المطلب السادس: منهجه في علوم القرآن.....
- 200.....الفرع الأول: وجوه الإعجاز في تفسيره.....
- 204.....الفرع الثاني: أسباب النزول ومناسباته.....
- 207.....الفرع الثالث: التحذير من الإسرائيليات.....
- 208.....الفرع الرابع: المكّي والمدني والقراءات.....
- 211.....الفرع الخامس: قضايا النسخ، المحكم والمتشابه في تفسيره.....
- 214.....الفرع السادس: الحروف المقطعة في أوائل السور.....
- 216.....الفرع السابع: منهجه في القصص القرآني.....
- 218.....المبحث الثالث: المنهج الموضوعي عند محمد دراز في تفسيره.....
- 220.....المطلب الأول: اعتماد التناسب وأنواعه.....
- 225.....المطلب الثاني: الموازنة بين الكشف والتجميع.....
- 227.....المطلب الثالث: الموازنة بين السور القرآنية.....
- 229.....المطلب الرابع: بين الترتيب النزولي والترتيب المصحفي.....
- 232.....المطلب الخامس: اعتماد السياق، الإحصاء والاستقراء في تفسيره.....
- 238.....المطلب السادس: توظيف واعتماد منهجية التفسير التحليلي ضمن التفسير الموضوعي.....
- 240.....المطلب السابع: استنباط المواقف والتصورات واستخلاص الدروس والعبر.....
- 242.....المبحث الرابع: أهم خصائص ومزايا تفسيره.....
- 243.....المطلب الأول: الخصائص النظامية والشكلية.....
- 243.....الفرع الأول: التنظيم وترتيب العناوين ووضح الجداول والفهارس.....
- 246.....الفرع الثاني: التلخيص والإجمال والختم بالدعاء.....
- 248.....المطلب الثاني: الخصائص المعنوية والمضمونية.....
- 248.....الفرع الأول: دقة المناقشة والتعقيب على المفسرين، والفقهاء، والفلاسفة، والمستشرقين.....
- 251.....الفرع الثاني: إبراز أسرار وحكم التشريع القرآني.....
- 254.....المطلب الثالث: الخصائص البيانية والبلاغية.....
- 254.....الفرع الأول: الثقافة اللغوية الواسعة، والحس البلاغي الرفيع.....
- 257.....الفرع الثاني: التوفيق بين الدقة العلمية وإشراق الأسلوب.....

- 260.....- الفصل الثالث : قضايا التفسير الموضوعي عند محمد عبد الله دراز.....
- 261.....- المبحث الأول: حقيقة التفسير الموضوعي، مصدريته، ومنهجية البحث فيه عند محمد دراز.
- 263.....- المطلب الأول: مفهوم التفسير الموضوعي وأهميته.....
- 263.....- الفرع الأول: في مفهوم التفسير الموضوعي.....
- 274.....- الفرع الثاني: أهمية التفسير الموضوعي عند محمد عبد الله دراز.....
- 277.....- المطلب الثاني: أنواع التفسير الموضوعي عند دراز.....
- 277.....- الفرع الأول: باعتبار نوعية، منهج، ومجال الدراسة القرآنية الموضوعية.....
- 290.....- الفرع الثاني: باعتبار شكل وحجم الدراسة.....
- 293.....- الفرع الثالث: باعتبار الرابطة.....
- 295.....- المطلب الثالث: منهجية البحث في التفسير الموضوعي عند محمد عبد الله دراز.....
- 295.....- الفرع الأول: منهجية البحث في الموضوع القرآني.....
- 308.....- الفرع الثاني: منهجية البحث في السورة القرآنية.....
- 312.....- المطلب الرابع: من أهداف التفسير الموضوعي عند محمد عبد الله دراز.....
- 316.....- المبحث الثاني: حقيقة الوحدة الموضوعية وملاحظتها في تفسير محمد عبد الله دراز.....
- 317.....- المطلب الأول: مفهوم الوحدة الموضوعية وأنواعها عند محمد عبد الله دراز.....
- 317.....- الفرع الأول: في مفهوم الوحدة الموضوعية عند محمد عبد الله دراز.....
- 323.....- الفرع الثاني: أهمية الوحدة للسورة القرآنية في تحقيق الإعجاز.....
- 328.....- الفرع الثالث: أنواع الوحدة للسورة القرآنية عند محمد عبد الله دراز.....
- 336.....- المطلب الثاني: مسمياتها ومواضيعها في تفسيره.....
- 336.....- الفرع الأول: مسميات الوحدة العضوية والموضوعية عند محمد عبد الله دراز.....
- 342.....- الفرع الثاني: مواضيعها في تفسيره.....
- 348.....- المطلب الثالث: الوحدة الموضوعية والدفاع ضد المستشرقين.....
- 351.....- المطلب الرابع: الملامح العامة للوحدة الموضوعية، والعضوية عند محمد عبد الله دراز.....
- 351.....- الفرع الأول: الملامح العامة للوحدة الموضوعية عند محمد عبد الله دراز.....
- 361.....- الفرع الثاني: الملامح العامة للوحدة العضوية عند محمد عبد الله دراز.....
- 369.....- المبحث الثالث: تقييم وتقويم منهج محمد عبد الله دراز في قضايا التفسير الموضوعي.....
- 370.....- المطلب الأول: في حقيقة التفسير الموضوعي وقضاياها الأساسية.....
- 370.....- الفرع الأول: في مفهوم التفسير الموضوعي.....

- 380.....- الفرع الثاني: في أهمية التفسير الموضوعي.
- 381.....- الفرع الثالث: في أنواع التفسير الموضوعي عند محمد عبد الله دراز.
- 384.....- المطلب الثاني: في منهجية البحث في التفسير الموضوعي وتطبيقاته وأهدافه العامة.
- 384.....- الفرع الأول: في المنهجية المرحلية وقواعدها التأسيسية للبحث في التفسير الموضوعي.
- 392.....- الفرع الثاني: في أهداف التفسير الموضوعي عند محمد عبد الله دراز.
- 394.....- المطلب الثالث: في حقيقة الوحدة الموضوعية وقضاياها الأساسية.
- 394.....- الفرع الأول: في مفهوم الوحدة، أهميتها، وأنواعها.
- 412.....- الفرع الثاني: في مسمياتها، ومواضيعها من السور المفسرة.
- 424.....- المطلب الرابع: في منهجية البحث في الوحدة الموضوعية وتطبيقاتها.
- 424.....- الفرع الأول: في منهجية البحث في الوحدة العضوية.
- 428.....- الفرع الثاني: في منهجية البحث في الوحدة الموضوعية.
- 435.....- المبحث الرابع: أثر فكر محمد عبد الله دراز القرآني في الدراسات الموضوعية المعاصرة.
- 436.....- المطلب الأول: في تحديد المفاهيم والمصطلحات.
- 439.....- المطلب الثاني: في وضع المنهج المختار في الدراسة الموضوعية.
- 443.....- المطلب الثالث: أثر الفكر الموضوعي في الدراسات المعاصرة.
- 445.....- خاتمة.
- 451.....- الفهارس العامة.
- 452.....- فهرس الآيات القرآنية.
- 456.....- فهرس الأحاديث النبوية والآثار.
- 457.....- فهرس الأعلام.
- 466.....- فهرس المصادر والمراجع.
- 479.....- فهرس الموضوعات.
- 484.....- ملخص البحث باللغة العربية.
- 488.....- ملخص البحث باللغة الإنجليزية.

ملخص البحث باللغة العربية

يعد محمد عبد الله دراز من أهم أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، الذي وظف منهج التفسير الموضوعي، وعمق التأمل في القرآن، ليستخرج منه الإجابات الشافية والمواقف العلاجية العملية لمشكلات عصره؛ خاصة الخراب الأخلاقي الذي وقعت أوروبا -ولا تزال وغيرها- في برائنه العفنة ذلك الزمان.

وقد ترك لنا دراز مؤلفات متنوعة المجالات، عميقة الرؤية والأثر، متشعبة بروح القرآن، وملتمسة هديه ونظرياته الكاملة، وفي مقدمتها [?] «دستور الأخلاق في القرآن»، و«النبأ العظيم»، و«مدخل إلى القرآن الكريم»، و«حصاد قلم»؛ إذ عالج فيها الكثير من المعضلات النظرية، والمشكلات العملية من طريقي التفسير الموضوعي الأساسيين عنده؛ الموضوع القرآني، ثم السورة القرآنية.

وقد برزت معالم منهجية واضحة ومحددة عنده، توزعت بين أصول التفسير الموضوعي، وبين القواعد المنهجية، والوسائل الآلية، والأهداف المقاصدية المرحلية أو النهائية؛ فمن أصول التفسير الموضوعي عنده النظر الكلي والاستيعاب الشامل لمحور الموضوعي القرآني وعناصره الفرعية، والرؤية الشاملة لنظام السورة المعنوي، والخطة التفصيلية لهيكل الآيات لمواقعها والصور بمراتبها، السابق لنزولها وارتباطها بوقائعها وأحداثها، ثم بيان الوحدة الأدبية والمنطقية للنص القرآني في كلا النوعين، ثم ثنائية الواقع والنص القرآني انطلاقا وانتهاء، ومن القواعد المنهجية والوسائل الآلية عنده، التناسب بوجوهه، والإحصاء والتصنيف، والكشف والتجميع، والموازنة الموضوعية و الأسلوبية، ثم استخلاص الدروس والعبر المتمثلة في المواقف النظرية، والعلاجات العملية.

اهتم دراز كذلك بقضية الوحدة في القرآن، أو في السورة منه، وقدم مفاهيم نظيرية لها تختلف عن مفاهيم التفسير الموضوعي اختلاف الفرع عن أصلهن تنوعا في الحدود المنهجية، لاختلاف تضاد بين أصليين متقابلين، وكان تعريفه لها يركز على معاني الائتلاف، والتناسق، وحسن التجاور بين المعاني المختلفة وتشكيل الصورة الحسنة التامة بين العناصر المنفرقة، ولم يشر إلى الاجتماع حول النواة المركزية إلا قليلا، مما دفع ببعض الدراسات المعاصرة أن تنفي الوحدة الموضوعية في منهجه التفسيري -رغم تحققها عنده نظريا وتطبيقا-

وقد كان هدف دراز من الاهتمام بقضية الترابط العلائقي، والتناسب البنوي، الرد على شبهات المستشرقين ضد ربانية وإعجاز هذا القرآن العظيم، ثم تلبسه بنزعة أدبية جلية غلبت فكره القرآني لمفاهيم الوحدة، ومصطلحاتها الأدبية، كالوحدة العضوية، والأدبية،

والبيانية، والبناء المتناسك وغيرها، بالإضافة إلى كثرة تشبيهاته الأدبية بالصورة، والدمية والحلة، وأمثالها القياسية، وفي ذلك خلاف بين الدارسين المعاصرين، متمثل في إشكالية نقل المفاهيم الإنسانية من النص الأدبي إلى النص القرآني.

وقد توافقت المنهجية المرحلية التفصيلية في دراسات دراز القرآنية للتفسير الموضوعي أو للوحدة القرآنية مع أغلب المنهجيات المعاصرة، ذلك أنها كانت تنطلق جميعا من أصول فكرية واحدة من استحضارها للرؤية الشمولية والنظر الكلي، والتجميع الموضوعي، والتصنيف الاستقرائي، والالتزام بثنائية الواقع والنص، وقد كان دراز مبدعا في بعضها كالتنبه على الخطة الهيكلية المسبقة، واستحضار النظام المنطقي النسقي، والمنهج التبليغي وفق قاعدة التعليم أسلوبا وثمرات.

كما قد ظهر قصوره المنهجي في كثير من معالم هذه المنهجية التفصيلية، من نقص استقراء، ومخالفة للترتيب المصحفي أو النزولي، وكثرة استطراد وخروج عن جو القرآن كثيرا على السنة النبوية والفكر الإسلامي عموما، وذلك من خلاله توسعه كثيرا في المقارنات على حساب التجميع والتصنيف النصي والدلالي النسق.

اهتم دراز كذلك بمفهوم الوحدة - خاصة على مستوى السورة-، ونادى بوحدة مزدوجة تنفرع إلى وحدتين متلازمتين: الأولى أدبية ترابطية بنائية، والثانية: منطقية موضوعية، معنوية، تكون تالية وثمره للوحدة الأولى.

وتنوعت بذلك منهجيته في البحث عن الوحدتين من خلال خطتين متميزتين؛ حيث كان مهتما -من خلال الوحدة الأدبية العضوية- بإبراز وجوه التعليق والتناسب بين موضوعاتها التفصيلية في تفسيره لسورة البقرة من كتابه "النبأ العظيم"، ولم يبرز تفرد السورة بموضوع واحد في ارتباطاته العضوية والفكرية، وإنما أبرز ذلك في تفسيره لسور أخرى من كتابه "حصاد قلم". وقد رأينا كيف ضعف عنده مفهوم التفرد للوحدة ضمن المفهوم الثلاثي لها: الارتباط، القوة، والتفرد، كما ضعفت عنده منهجية البحث عن الوحدة الموضوعية، فلم تظهر بصورة جلية، ولم يستكمل منهجية البحث فيها، لأنه كان قد استنفذ جهده في إظهار الوحدة العضوية الترابطية، وكان أمله إثباتها ردا على شبهات المستشرقين، وإثباتا لإعجاز القرآن الأدبي في هذا الجانب.

كما أنه لم يستحضر كل الحثيات المنهجية في دراسته لموضوعات السور الست المفسرة من كتابه "الحصاد"، وهذا ما يعني تجزيئته في الاستعانة بكل العوامل والقواعد المنهجية المحققة للوحدة الموضوعية.

ورغم كله ذا فقد قدّم دراز دراسات رائعة في التفسير الموضوعي، وكان له نظر ثابت في الوصول على مبادئ القرآن ومواقفه النظرية والعملية للمشكلات الإنسانية المتنوعة، كما كان مشبعا بروح القرآن، وملتزما بحدوده وأصوله، ومقدما أفكارا سابقة على زمنه، ودراسات أقرانه، مما ترك بصمات قوية في الدراسات المعاصرة للتفسير الموضوعي، أو للفكر الإسلامي -بصفة عامة- نوهت بفضله وجهده، وتأصيلاته النظرية، ودراساته التطبيقية في هذا المجال.

والحمد لله رب العالمين.



ملخص البحث باللغة الإنجليزية

Abstract

Mohammed Abdullah Draz is one of the most distinguished personalities of the contemporary Islamic thought, who employed the approach of an objective interpretation of the Quran, and deepened meditation in it, from which he extracted answers and attitudes as a healing process for the problems of his era, in particular Ethical decay, which took and still taking place in Europe and other places.

Draz has left books in miscellaneous areas, with deep vision and impact, saturated in the spirit of the Quran, and seeking its guidance and full theories, first and foremost, "The Constitution of Ethics in the Holy Quran", "The Great News", "The Introduction to the Holy Quran," and "harvest of a Pen". His books dealt with a lot of theoretical dilemmas and problems through the process of an objective interpretation divided into the Quranic theme and the Quranic SURA. A clear and specific methodological features has emerged with Draz, they were distributed among: the assets of an objective interpretation, the methodological rules and Mechanisms, and the temporary or final objectives. The objective interpretation for him is the full vision and comprehension of the heart of the Quranic theme and its branches. Besides, the comprehensive vision of the moral system of SURA, and the detailed plan of the verses -their structure and position, also former revelation and its link with the events described, and showing the literary unity and logic of the Quranic text in both types, then the bilateral reality and the Quranic text starting and ending. The methodological rules and Mechanism for him also are the proportionality with its modes, statistics and

classification, disclosure and the collection, substantive and stylistic balance, and then drawing lessons such as the theoretical attitudes, and practical remedies.

Draz also paid attention to the Unity in Quran, or in the SURA, and he suggested theoretical concepts to it different from the concepts of an objective interpretation, a difference of section and its origin as a diversity in the methodology, because of the different incompatible two opposite originals, defined that by focusing on the meanings of the coalition, and consistency, good proximity between different meanings and the formation of the full good picture between the miscellaneous elements. He did not refer to the meeting on the core only slightly, prompting some contemporary studies that deny the substantive unity in his interpretative approach - despite that it was achieved theoretically and practically.

The goal from Draz attention to the issue of interdependence conversation and the proportional structure is to respond the suspicions of the orientalist against the diviner and miraculous of this great Quran. and then the overwhelming of his literary style on the Quranic thought concerning the notion of unity and its literary terminology, like unity, coherence, construction and others, in addition to the large number of literary comparisons through the picture... which lead to a disagreement between contemporary scholars, at the level of the transfer of humanitarian concepts from the literary text to the Quranic text.

Draz detailed methodology in Quranic studies of the substantive interpretation or the Quranic Unity agreed

with most of contemporary methodologies, as they were all starting from one intellectual vision recovering the general and total view, besides substantive collection, extrapolation classification, and commitment to reality and text, Draz was creative in some like setting a pre-structural plan, bringing the logic order, and the notification curriculum according to the rule of education –method and results.

Systematic shortcomings also has appeared in many of the features of this detailed methodology, from a lack of extrapolation, and contrary to the holy book arrangement or downward, frequent aside and exit from the atmosphere of the Quran and the Sunna and Islamic thought in general, because of his expansion in the comparisons at the expense of the textual collection and compilation.

Draz cared also about the concept of Unity - in particular at the level of SURA- and he called for a double unity that derives to two twin units: first literary of mutual interdependence construction, and the second: logical objective and moral, being next and the fruit of the initial unit.

As a result his methodology diversified in the search for the two units through two distinct plans; he was interested in - through literary unity - by highlighting the faces of the commentary and proportionality between its detailed themes in the interpretation the cow SURA in his book "Great News", he did not highlight the uniqueness of theme in this SURA according to his membership and intellectual engagements, but highlighted this in his interpretation of other SURAS in his book "Harvest of a Pen". We have seen how the concept of exclusivity of the unit

has weakened within its triangular concept of: the association, the force, and exclusivity, also his search methodology for the substantive unity has weakened, so it did not show clearly, and he did not complete research methodology in it, because he has exhausted his efforts in showing the associative membership unity, it was his hope to prove in response to suspicions of the Orientalists, and proof the literary miraculous of the Quran in this aspect.

Also he did not mind all the reasoning methodology in his study of the topics of the six interpreted SURAS in his book "The Harvest", and this means his fractionation in the use of all the methodological factors and rules that achieves the substantive unity.

Despite all of this, Draz provided wonderful studies in the objective interpretation, and had a fixed view in access to the principles of Quran and its theoretical and practical attitudes of the miscellaneous human problems, as he was imbued with the spirit of the Quran, committed to its Hudud and assets, introducing ideas prior to his time, and studies of his peers, leaving strong prints in contemporary studies of the substantive interpretation, or the Islamic Thought - generally noted - thanks to him, to his efforts, his endoscopic rooting, and his applied studies in this domain.

Thanks to Allah, the Lord of the worlds